St. Martin's Press

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إريك فراتّيني

الكيان

خمسة قرون من جاسوسية الفاتيكان السرية

الكيان

خمسة قرون من
جاسوسية الفاتيكان
السرية

تأليف إريك فراتّيني

ترجمة ومراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي The Entity
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر ST.
Martin's Press
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © 2004 by by Eric Frattini
All rights reserved
Arabic Copyright © 2009 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
1431 هـ - 2010 م

ISBN: 978-614-421-946-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

البابوية هي المؤسسة الرسمية الأقدم في العالم، وهي السلطة العليا على رأس الكنيسة الكاثوليكية. إنها المؤسسة الوحيدة التي ازدهرت في العصور الوسطى ولعبت دوراً رائداً في النهضة الأوروبية، وهي أحد اللاعبين الرئيسيين في حركة الإصلاح الديني والحركة المضادة له، وفي الثورة الفرنسية، وعصر الصناعة، ونشوء الشيوعية وسقوطها. وطوال قرون، استخدم الباباوات كلَّ نفوذهم المركزي بهدف البناء على النتائج الاجتماعية لأحداث تاريخية متكشّفة، مستفيدين بالكامل من "عِصمتهم الشهيرة عن الخطأ". وأكد المؤرخ توماس بابنغتون ماكولي في دراسته التي تناولت تاريخ البروتستانتية أن الباباوات عرفوا كيف يضعون الكنيسة في قلب الأحداث، تماماً كما عرفوا كيف يحدّون من دورها، وشدد على قدرة الأحبار العظام على اختيار حركات اجتماعية جديدة استمرت بالنشوء على مَرّ القرون، وعلى تكيّف الكنيسة معها.

كان الإمبراطور نابوليون بونابارت يعتبر البابوية "إحدى أفضل الوظائف في العالم". ودعاها آدولف هيتلر "إحدى السياسات الدولية الأكثر خطورة ودقة". لقد شبّه نابوليون قدرة بابا واحد بقدرة جيش مؤلف من 200.000 رجل. في الواقع، كان للباباوية على مرّ التاريخ مظهرين: مظهر القيادة العالمية للكنيسة الكاثوليكية، ومظهر إحدى أفضل المنظمات السياسية على وجه الأرض. وبينما كان الباباوات يمنحون بركتهم لجماعة المؤمنين بيد، كانوا يستقبلون باليد الأخرى سفراء أجانب ورؤساء دول ويرسلون موفَدين وسفراء بابويين في مهام خاصة.

حمل هذا النفوذ العديدين على اعتبار الباباوات "كهنة الأمراء" أكثر منهم "ممثّلي المسيح على الأرض". بدءاً بالقرن الثامن، سعى الأحبار العظام حتى العام 1931 إلى إضفاء طابع السلطة الرسمية العليا على بياناتهم من خلال إنشاء راديو الفاتيكان، فحققوا اتصالاً مباشَراً ومتواصلاً مع العالم مما جعل هذه

الأمنية أمراً واقعاً. وفي أثناء حركة الإصلاح الديني، هاجم مارتن لوثر البابوية واصفاً إياها بالآفة الإنسانية غير الضرورية. وانتقد المؤرخ الكاثوليكي اللورد أكتون المركزية المفرطة التي تعتمدها البابوية، وأعلن بعد رحلة إلى روما أن "النفوذ يُفسد، والنفوذ التام يُفسد تماماً".

لا يمكن سرد تاريخ الحلف المقدس (أُطلق عليه اسم الكيان في العام 1930)، أي جهاز مخابرات التجسس التابع للفاتيكان، من دون سرد تاريخ البابوات، ولا يمكن سرد تاريخ البابوات من دون سرد تاريخ الكنيسة الكاثوليكية. من الواضح أن البابوات ما كانوا ليوجَدوا لولا وجود الكنيسة الكاثوليكية. وكما كتب بولس الرابع في تعميمه البابوي بعنوان كنيسته، "أزيلوا السلطة العليا للحَبر تنتفِ كاثوليكية الكنيسة الكاثوليكية". ومن دون النفوذ الفعلي للبابوات، لما وُجد الحلف المقدس ومنظمة التجسس المضاد (جمعية بيوس)، وهما جزء من الآلية التي ساهما أيضاً في صياغتها: تأسيس الحلف المقدس عام 1566 بطلب من البابا بيوس الخامس، وتأسيس منظمة التجسس المضاد عام 1913 بطلب من بيوس العاشر.

كتب كارلو كاستيليوني، وهو مؤرخ ومؤلف إحدى أفضل الموسوعات عن الباباوية: "مما لا شك فيه أن التاج ثلاثي الأطراف الذي يضعه البابوات يرمز إلى النفوذ الذي يمارسونه في السماء والأرض والعالم السفلي".

بالرغم من واقع حدوث تغييرات في السلطة البابوية بسبب التكيف مع متطلبات العصر والتجديد، والسياسة والاقتصاد، فإن مصالح الكنيسة هي التي حددت على الدوام نشاطات جواسيس الفاتيكان. ويؤكد لنا الخبراء في شؤون الفاتيكان أن الكنيسة وهيكلياتها البابوية لم تتخلَّ أبداً عن صورتها الإمبراطورية بل أصبح البابا يرمز إلى الإمبراطور ببساطة.

أربعون بابا حكموا، أو بالأحرى، بسطوا نفوذهم منذ إنشاء الحلف المقدس، بدءاً ببيوس الخامس وانتهاءً بيوحنا بولس الثاني. وكان عليهم مواجهة حالات

الارتداد عن المسيحية والانشقاقات، والثورات والديكتاتوريات، والاستعمار والطرد، والاضطهادات والهجمات، والحروب الأهلية وحروب العالم، والاغتيالات والاختطافات. وطالما حددت السياسات البابوية الأهداف، وكان الحلف المقدس أداة فعالة لتحقيق تلك الأهداف.

من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر، كانت المبادئ الليبرالية، والدستورية، والديمقراطية، والجمهورية، والاشتراكية العدوّ الذي كان على البابوية والحلف المقدس مواجهته. في القرنين التاسع عشر والعشرين، بات العدوّ هو الولاء للداروينية، والولايات المتحدة، والعرقية، والفاشية، والشيوعية، والتوتاليتارية، والثورة الجنسية. أما العدوّ في القرن الحادي والعشرين فسيكون التدخل العلمي في المسائل الدينية، ونفوذ القطب الواحد على الصعيد العالمي، والازدياد السكاني المفرط، والحركة النسوية للمساواة بين الجنسين، واللاأدرية الاجتماعية.

تُظهر هذه الأمثلة أن النشاط السياسي للفاتيكان غالباً ما حدث بالتوازي مع نشاط جهاز مخابراته السرية وباعتماد وسائل مختلفة لتحقيق الهدف نفسه. فمن جهة، أجرى الباباوات مفاوضات للتخفيف من حدة بعض التدابير الموجَّهة ضد روما أو إبطالها؛ ومن جهة أخرى، تدخّل الحلف المقدس والمنظمة السوداء لتدمير أعداء الكنيسة.

فدافيد ريزيو، ولامبرتو ماكي، وروبرتو ريدولفي، وجيمس فيتزموريس، ووليام باري، وماركو أنطونيو ماسيا، وجوليو ألبيروني، واسكندر دي مديتشي، وجوليو غوارنييري، وتيبالدو فييسكي، وشارل تورنون، وجون بل، وجيوفاني دانيكولا، هم من عملاء الحلف المقدس، وقد غيّرت عملياتهم مسار التاريخ بدءاً من أواسط القرن السادس عشر وحتى القرن الحادي والعشرين.

لودوفيكو لودوفيزي، ولورنزو ماغالوتي، وأوليمبيا مايدلكيني، وسفورزا بالافيتشينو، وبالوزو بالوزي، وبرتولوميو باكا، وجيوفاني باتيستا كابرارا، وأنيبال

ألباني، وبييترو فوماسوني بيوندي، ولويجي بوغي، هم بعض قادة جهاز التجسس الحَبري المقتدرين الذين وضعوا مخططات لعمليات سرّية، وأمروا بتنفيذها باسم الدفاع عن الإيمان، كما أمروا بتنفيذ اغتيالات سياسية أو اغتيالات أجازت الجهات الرسمية تنفيذها، والتخلص من لاعبين ثانويين اعترضوا طريق سياسات البابا.

فقتل الملوك، وتسميم الدبلوماسيين، وتحمّل الفصائل المعادية الضغوطات هي نماذج من الدبلوماسية البابوية المتّبَعة. وانكبّ رجال المخابرات على افتعال كوارث، وارتكاب إبادات جماعية. ومُوِّل إرهابيون، ومنهم حكام أميركا الجنوبية المستبدّون، في حين نعِم مجرمو الحرب بالحماية. وبُيّضت أموال المافيا، وتمّ التلاعب بالأسواق المالية والتسبب بإفلاس بعض المصارف، وبيعت الأسلحة للمقاتلين حتى بعد إدانة حروبهم. حدث كل ذلك باسم الله ومن خلال أدواته المتمثلة بالحلف المقدس ومنظمة التجسس المضاد.

منذ قيام المفتش في محاكم التفتيش بيوس الخامس بتأسيس جهاز التجسس التابع للفاتيكان في القرن السادس عشر بهدف وضع حدّ لحياة ملكة إنكلترا المهرطِقة إليزابيت الأولى ودعم ملكة الاسكتلنديين الكاثوليكية ماري، لم تعترف دولة الفاتيكان أبداً بوجود الحلف المقدس وذراعه التجسسيّة المتمثلة بمنظمة التجسس المضاد، عِلماً أنه بالإمكان القول إن عمليات هاتين المنظمتين كانت سراً مكشوفاً. وأعلن سيمون ويزنثال، وهو مطارد النازيين الشهير، في إحدى المقابلات أن "أفضل جهاز تجسس في العالم عرفتُه يوماً والأكثر فعالية هو جهاز الفاتيكان". ونفّذ الكردينال لويجي بوغي، الملقَّب بجاسوس البابا (أي البابا يوحنا بولس الثاني)، أكبر عمليات تحديث للحلف المقدس مستفيداً من علاقاته الوثيقة بالموساد الإسرائيلي. وبفضل نيافته، استطاعت المخابرات الإسرائيلية إحباط هجوم مخطَّط له ضد رئيسة الوزراء غولدا مئير في أثناء زيارتها إلى إيطاليا. وتسلم بوغي أيضاً مسؤولية إرسال مخصصات مالية من الفاتيكان، عن

طريق معهد المؤلفات الدينية ومصرف الفاتيكان برئاسة بول مارسينكوس، لتمويل نقابة التضامن العمالية بقيادة ليش فاليسا. وكانت عملية مشترَكة بين الحلف المقدس والسي آي أيه بقيادة وليام كاسي.

على مر خمسة قرون من التاريخ، كان الظل الممتدّ للحلف المقدس ملحوظاً في مؤامرات حيكت ضد إليزابيت الأولى ملكة إنكلترا، وفي المجزرة التي ارتُكبت في فرنسا ليلة ذكرى سان برثولوميو؛ في مغامرة الأسطول الكبير وعمليات اغتيال الأمير الهولندي وليام أمير أورنج والملك الفرنسي هنري الرابع؛ في حرب الخلافة الإسبانية والمواجهات مع الكردينالين ريشليو ومازاران في باريس؛ في محاولة اغتيال ملك البرتغال جوزيف الأول؛ في الثورة الفرنسية ومعركة أوسترليتز، وظهور نابوليون وسقوطه؛ في حرب كوبا ضد إسبانيا والانشقاقات في أميركا الجنوبية؛ في العلاقات السرية مع القيصر ويلهلم الثاني إبّان الحرب العالمية الأولى، وآدولف هيتلر في الحرب العالمية الثانية، وقضية الذهب الكرواتي المرتبطة بالنازيين، وقضية منظمة أوديسا التي تلت القضية الأولى مباشرةً؛ في المعارك ضد مجموعة أيلول الأسود الإرهابية، وكارلوس الثعلب، والشيوعية؛ في عمليات التمويل الغامضة لمعهد المؤلفات الدينية وصِلاتها الأكثر غموضاً بالبنائين الأحرار (الماسونيين)، وعناصر المافيا، ومهرّبي الأسلحة؛ في إنشاء شركات تمويلية في الفردوسات المالية، وفي تمويل الحكام المستبدين اليمينيين مثل أناستازيو سوموزا وخورخي فيديلا.

في القرون الخمسة هذه، نفّذت جمعيات سرية مرتبطة بالحلف المقدس - مثل الحلقة الثُمانية أو المنظمة السوداء - عمليات سرية لصالح أجهزة مخابرات دول أخرى، بما في ذلك الموساد والسي آي أيه. وفي حين كان الهدف في هذه الحالات عدوّاً واضح المعالم... عرف الحلف المقدس كيفية التكيّف مع أي زمان وظرف كما قال ذات مرة الكردينال بالوزو بالوزي المقتدر، رئيس الحلف المقدس في أواسط القرن السابع عشر: "إذا أمر البابا بالتخلص من شخص ما

دفاعاً عن الإيمان، ينُفَّذ الأمر من دون طرح أي سؤال...".

مهما كانت الفترة الزمنية التي يعالج هذا الكتاب الأحداث التي تخللتها مديدة، يبقى الكتاب مجرد استكشاف محدود لخمسة قرون من تاريخ العمليات السرية التي قام بها جهاز التجسس القوي التابع للمدينة-الدولة التي تدعى الفاتيكان. لقد ارتكب العملاء الكهنة التابعون لجهاز التجسس البابوي، وللحلف المقدس، وجهاز المخابرات المضادة، ومنظمة التجسس المضاد، أعمال قتل وسرقة وتآمر وخيانة بأمر من الحَبر الأعظم وباسم الله والإيمان الكاثوليكي. كان جواسيس الباباوات هم الرمز المثالي للتكافل الذي عملوا في ظل شعاره التالي: "بواسطة الصليب والسيف". كل الأحداث المرويّة في هذه الصفحات حقيقية، وكل الأفراد المذكورين حقيقيون كذلك.

إل تامارال، إسبانيا2004

الفصل الأول

بين حركة الإصلاح الديني وحلف جديد (1566-1570)

هناك روايات عديدة في الواقع حول مؤسس الحلف المقدس، وهو الذراع التجسسيّة للفاتيكان. ولكن من المؤكد أن البابا بيوس الخامس (1566-1572) هو الذي قام بتنظيم أول جهاز تجسسي بابوي عام 1566 بهدف مكافحة البروتستانتية المتمثلة بشخص إليزابيت الأولى ملكة إنكلترا.

لقد استُدعي أنطونيو-ميكال غيسليري إلى روما لتولّي مهمة خاصة، مستفيداً من حماية الكردينال القوي جان-بيار كارافا (البابا بولس الرابع المستقبلي). وفوّض نيافته غيسليري إنشاء جهاز للتجسس المضاد. وكانت مهمة الجهاز الذي وُضع له نظام هرمي جمع معلومات عن كل من قد ينتهك التوجيهات البابوية أو عقيدة الكنيسة ليحاكَم من قِبَل محاكم التفتيش أو اللجنة المقدسة.

كان الكاهن الشاب مولَعاً بالجمعيات السرية، وكانت اللجنة المقدسة إحدى الجمعيات السرية الأكثر قوة في زمنه. ولفت العمل الذي نفّذه عملاء غيسليري في منطقتَي كومو وبرغامو انتباه السلطات في روما. ففي أقل من عام، مثُل حوالى مئتي شخص من فلاحين ونبلاء وسواهم أمام محاكم التفتيش، ووُجد أكثر من مئتي شخص مذنبين بعد تعرّضهم لتعذيب مروّع وإعدامهم.

كان التعذيب بواسطة الحبل يجري بربط يدَي المهرطِق المزعوم وراء ظهره أو ظهرها، ومن ثم رفع السجين بواسطة حبل متدلٍّ من السقف. وما إن يُعلَّق السجين على هذا النحو حتى يتم إفلات الحبل كلياً ويسقط الجسد. وعندما يصبح السجين على بُعد أقدام قليلة من الأرض، يتم إيقاف عملية السقوط وتتسبب هذه الحركة العنيفة بتفكك أطراف المشتبَه فيه بأنه مهرطق.

التعذيب بالمياه وسيلة أخرى مألوفة. كان ممارسو التعذيب يمدّدون ضحيتهم على مِعلف خشبي ويضعون في حلقه أو حلقها قطعة قماش مبلَّلة بالماء، ويسدّون الأنف لمنع الضحية من التنفس. وعندما يوقف أطباء محاكم التفتيش

عملية التعذيب، يكون العديد من الأسرى قد أسلموا الروح.

في العام 1551، وفي ظل ولاية يوليوس الثالث (1550-1555) الحَبرية، رُقّي أنطونيو-ميكال غيسليري من قَبل كارافا إلى منصب مفوّض عام لمجمع اللجان المقدسة التابعة لمحاكم التفتيش، وهو منصب كبير في محاكم التفتيش الرومانية. وجاءت هذه الترقية تقديراً لخدمات قدّمها غيسليري. وهكذا، شرع هذا الأخير بتحسين اللجنة المقدسة لتتمكن من تحقيق أهدافها بشكل أفضل. فأدخل إصلاحات على مجلسها الحاكم في المقام الأول، وعيّن البابا مجموعة من الكرادلة للإشراف عليها. وعندما كان يتم تقديم شخصيات هامة من المجتمع الروماني إلى المحاكمة، كان هؤلاء الكرادلة يلعبون دور القضاة والمستشارين البابويين في آنٍ.

أنشأ غيسليري أيضاً في العام 1552 الفئات السبع من المجرمين الذين تنظر محاكم اللجنة المقدسة في قضاياهم: الهراطقة، المشتبَه فيهم بأنهم هراطقة، مَن يحمي الهراطقة، العرّافات أو الساحرات، المجدّفون، مَن يقاوم سلطات محاكم التفتيش وعملاءها، من يفضّ أختام اللجنة المقدسة أو يقلل من احترام شاراتها أو ينتهك حرمتها.

في ذلك العام نفسه، بدأ غيسليري بنشر شبكة حقيقية من الجواسيس في أنحاء روما كافة، وقد نشطوا في كل مكان بدءاً ببيوت الدعارة في المدينة وانتهاءً بمطابخ قصور نبلائها. وكانت كل أنواع المعلومات التي يقومون بجمعها تسلَّم شخصياً لغيسليري بإحدى الطريقتين التاليتين: شفهياً أو من خلال ما يُدعى التقرير الأحمر، وهذا الأخير هو عبارة عن قطعة صغيرة من ورق الرِّق ملفوفة بشريط أحمر يحمل شارة اللجنة المقدسة. ووفقاً للقوانين مرعية الإجراء، فإن من يفضّ هذا الختم يستحق الإعدام الفوري. وكان عملاء غيسليري يذكرون في هذه التقارير كل التُهم الموجَّهة ضد المواطنين الرومانيين الذين يُعتقد أنهم انتهكوا المبادئ الأخلاقية للكنيسة من دون ذِكر أي دليل، فيكونون إذاك عُرضة

للاستجواب من قِبل محكمة اللجنة المقدسة. ويتم إيداع التقرير الأحمر في صندوق بريد برونزي صغير في المراكز الرئيسية التابعة لمحاكم التفتيش في روما.

طوال سنوات، أنشأ المفوض العام لمحاكم التفتيش إحدى أكبر شبكات التجسس وأكثرها فعالية، وأحد أفضل مراكز الأرشيف الذي يحتوي على بيانات شخصية خاصة بمواطني روما. فلم يكن يقال أي شيء أو يحدث أي أمر في أزقّة أو ساحات المدينة من دون عِلم غيسليري به. ولم يكن يقال أي شيء أو يحدث أي أمر داخل الفاتيكان أيضاً من دون عِلم المفوض العام لمحاكم التفتيش به.

في 23 أيار/مايو 1555، وبعد ولاية قصيرة الأمد لمرتشللو الثاني في منصب البابوية دامت أقل من شهر، انتُخب الكردينال جان-بيار كارافا بابا من دون أي معارضة من الفصيل المؤيّد للإمبراطورية الرومانية المقدسة أو من الفصيل المؤيد لفرنسا على حدٍّ سواء. ووصف السفير جياكومو نافاغيرو، وهو من البندقية، الحَبر الأعظم الجديد على النحو التالي: "كارافا هو بابا ذو طبع عنيف وناري. إنه شديد التهوّر في إدارة شؤون الكنيسة، وهذا الحَبر الأعظم المُسنّ لا يتساهل بالطبع مع كل من يعارضه الرأي".

خشي كارافا، الذي بات البابا بولس الرابع في ما بعد، من النفوذ غير المسبوق لأنطونيو-ميكال غيسليري الذي كان يدعوه سكان روما بابا الظل. ولكن الحَبر الأعظم منحه لقب كاردينال بالرغم من كل شيء. ومذاك الحين، غدا غيسليري مفتشاً أكثر خطورة وقوة في محاكم التفتيش، ولم يكن يرغب العديد من أعضاء مجمع الكرادلة في السماح له بالتخطيط لمستقبل الكنيسة الكاثوليكية من موقعه كرئيس للجنة التفتيش.

كان عملاء غيسليري يقومون بما يحلو لهم ناشرين الرعب في شوارع روما. وكان جواسيس الكردينال المعروفون بالرهبان السود يختارون ضحيتهم وينتظرون خروجها من المنزل وتوجُّهها سَيراً على الأقدام إلى شارع منعزل قبل الانقضاض عليها، واختطافها في عربة مقفَلة، واصطحابها إلى إحدى منشآت

محاكم التفتيش. وشاهد راهب وصول هؤلاء الأسرى، ووصف الأمر على النحو التالي كما نُشر في التاريخ العام لمحاكم التفتيش عام 1869:

> يتم اصطحاب الضحية إلى الطابق الأرضي مروراً بباحة داخلية بالقرب من المدخل الرئيسي. وتبدأ شعائر المحاكمة في غرفة مستديرة تتدلى من جدرانها عشرة هياكل عظمية تشير إلى تسمير النزلاء في هذا المكان وهم أحياء في انتظار ساعة موتهم بهدوء. وبعد هذا التحذير المقدس، تتفاجأ الضحية بهيكلين عظميين إضافيين في رواق مجاور غير واقفين على أقدامهما وكأنهما يستقبلان الزوار، بل ممدَّدين على الأرض كفسيفساء أو بساط. في الجانب الأيمن من الرواق نفسه، يمكن ملاحظة فرن ملطَّخ بالشحم كان البديل السري لإضرام النار في الساحات العامة وقد أُهمل في هذا العصر الفاسد... وكان بالإمكان إيجاد عدد قليل من الحُجيرات هنا في الطابق الأول، ولكن غرفة المحكمة المقدسة كانت في الطابق الثاني إلى اليمين، وعلى جانبَيها بابان فوق أحدهما لوحة نُقشت عليها عبارة غرفة الأب الأول المرافق وفوق الباب الآخر لوحة تحمل عبارة غرفة الأب الثاني المرافق. هكذا كان يشار إلى المفتشين المسؤولين عن المهمة المزدوجة المتمثلة بمساعدة السلطات العليا على كشف النقاب عن المجرمين وتحويلهم نهائياً إلى مُدانين.

لكن وضع الكردينال غيسليري تبدّل كلّياً عندما توفّي البابا بولس الرابع فجأةً ليل 18 آب/أغسطس 1559. وبانتشار خبر وفاته، انتشر أيضاً التحريض على الفتنة والعصيان في شوارع روما، وأصبحت مطاردة عملاء غيسليري إحدى التسليات الرئيسية للجماهير الثائرة. فقتلت الحشود العديد من أولئك الذين خدموا محاكم التفتيش المقدسة بإخلاص، ورُميت جثثهم في المجارير. ولم

تتوقف حالة الاضطراب والفوضى عند هذا الحد بل هاجمت الجماهير الرومانية القصر الذي يضم محكمة التفتيش، وأطاحوا بتمثال البابا الراحل.

تمكّن الكردينال غيسليري وبعض رجاله من الحفاظ على قسم كبير من سجلات الأرشيف السري التي نقلوها في ثماني عربات خلال فرارهم من روما.

في النهاية، عادت الحياة إلى طبيعتها عندما خلف الكردينال جيوفاني أنجلو دي مديتشي البابا الراحل وعدوّه في 25 كانون الأول/ديسمبر 1559، وحمل اسم بيوس الرابع.

كان هذا البابا رجلاً حازماً ودبلوماسياً ماهراً، وقد عقد العزم على تطهير الكنيسة الكاثوليكية من كل أثر خلّفه بولس الرابع وراءه. ولهذه الغاية، أحاط نفسه بكردينالين مخلصين كانا أيضاً ابني شقيقتيه، ماركوس سيتكوس فون هوهينم وكارلو بوروميو. كان الأول بارعاً في استخدام السيف وماهراً في مختلف الفنون القتالية، وكان الثاني دبلوماسياً بارعاً.

كان بوروميو رئيساً لأساقفة ميلانو، وقاصداً رسولياً بابوياً في بولونيا ورومانيا، ورئيس الحكومة في الدويلات البابوية، وأخيراً السكرتير الخاص للبابا. وكتدبير أول، تم اعتقال الكردينالين كارلو وألفونسو كارافا وأُودعا قلعة سان أنجلو. وهكذا كان حال جيوفاني كارافا (دوق باليانو) وأسياد آخرين في بلاط الدوق اتُهموا بقتل زوجته.

في التدبير الثاني، قرر البابا بيوس الخامس إعادة تأهيل الكردينال مورون والأسقف فييسكيراتي اللذين اتهمتهما اللجنة المقدسة بالهرطقة، وذلك نزولاً عند نصيحة كارلو بوروميو وتنفيذاً لأوامر بولس الرابع. وتمثّل التدبير الثالث بنفي الكردينال غيسليري وحلّ شبكة الرهبان السود التابعة له. هكذا، عاد غيسليري الذي لجأ إلى دير معزول إلى ممارسة مهامه في أبرشيته السابقة، وقد أُخذ ذلك في الاعتبار عندما اجتمع الكرادلة مجدداً بعد وفاة بيوس الرابع في 9 كانون الأول/ديسمبر 1565. والمثير للغرابة أن المستشار الرئيسي لبيوس الرابع،

الكردينال كارلو بوروميو، قرر بعد ثلاثة أسابيع من المداولات تأييد ترشيح غيسليري الذي كان يحظى بدعم ملك إسبانيا فيليب الثاني. فطيلة سنوات، كان غيسليري يجمع معونة مالية سنوية تبلغ ثمانمئة دوكات من التاج الإسباني.

وفي 7 كانون الثاني/يناير 1566، انتُخب الكردينال غيسليري بابا واعتمد اسم بيوس الخامس. وجاء في تقرير السفير الإسباني: "بيوس الخامس هو البابا الذي تقتضي الظروف وجوده". واستحسن فيليب الثاني ارتقاء حليفه إلى كرسي القديس بطرس، وكان اختياره انتصاراً لكل القوى التي أرادت حَبراً أعظم صارماً ومتديّناً، وفي الوقت نفسه، قادراً على مكافحة حركة الإصلاح البروتستانتية. والحقيقة الثابتة هي أن بيوس الخامس استخدم خبرته الواسعة كرئيس لمحاكم التفتيش، وأنشأ جهاز تجسس فعال لا يرحم ويطيع أوامر البابا طاعة عمياء.

لم تكن المهمة الأولى لعملاء الحلف المقدس - اسم أطلقه البابا نفسه على جهازه السري إكراماً للحلف القائم بين الفاتيكان والملكة ماري ستيوارت الكاثوليكية - سوى الحصول على معلومات عن الحركات السياسية المحتمَلة والمكائد التي يتدبّرها بلاط لندن، وإرسال التقارير المجموعة إلى الملوك الأقوياء المؤيّدين للكثلكة ولسلطة البابا ضد التيار البروتستانتي الناشئ. وتمثلت المسؤولية الرئيسية لجواسيس البابا بتقديم خدماتهم لماري ستيوارت (ماري ملكة الاسكتلنديين) بهدف إعادة الكثلكة إلى اسكتلندا التي كانت قد أعلنت اعتماد البريسبيتارية عام 1560، إضافةً إلى مكافحة البروتستانتية بصورة عامة. وأدرك بيوس الخامس أن عدوّه الرئيسي يتمثّل بكنيسة إنكلترا المنشقَّة بشخص الملكة إليزابيت الأولى، ابنة هنري الثامن وآن بولين.

كان هنري الثامن قد تخاصم مع الكنيسة الكاثوليكية عام 1532 عندما طلب من البابا إقليمنضس السابع (19 تشرين الثاني/نوفير 1523 - 25 أيلول/سبتمبر 1534) الإذن بالانفصال عن زوجته الملكة كاترين من أراغون للزواج بمحبوبته آن بولين؛ والملكة كاترين هي ابنة "ملك وملكة إسبانيا الكاثوليكيين" فرديناند

وإيزابيلا، وعمة شارل الخامس الذي كان على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملكاً لإسبانيا تحت اسم شارل الأول. فدرس الحَبر الأعظم الرسالة التي وجّهها إليه ملك إنكلترا، وهي كناية عن ورق رِق يبلغ طولها تسعين سنتمتراً وعرضها ستين سنتمتراً وتحمل تواقيع خمس وسبعين شخصية بارزة في المملكة، وتتدلى من المستند خمسة وسبعون شريطاً من الحرير الأحمر مع خمسة وسبعين ختماً شمعياً.

في التماسه، عبّر هنري الثامن عن رغبته في الزواج بمحبوبته، وطلب الإذن من البابا بالانفصال عن زوجته الملكة كاترين من أراغون. فرفض إقليمنضس السابع الالتماس مما أثار غضب هنري الذي نبذ الكنيسة الكاثوليكية، وقرر الزواج بآن بولين معلناً بطلان زواجه بكاترين بالرغم من رفض روما.

وحدث الانشقاق النهائي في 15 كانون الثاني/يناير 1535 على عهد البابا بولس الثالث عندما قام هنري الثامن باستدعاء الإكليروس والبحّاثة من كل الجامعات في مملكته ليضفي شرعية قانونية على سيادته الكنسية العليا ويعلن أمام الجميع أن بابا روما لا يملك حقاً إلهياً أو أي سلطة على إنكلترا. وظهرت كنيسة كاثوليكية-أنكليكانية جديدة خاضعة لسلطة العرش.

كانت فترة حكم ماري تيودر التي دامت خمس سنوات وانتهت بوفاتها في 17 تشرين الثاني/نوفمبر 1558 عاصفة إذ سادت الحروب، وعمليات الإعدام، والتمردات الداخلية، والانقلابات، والنزاعات الدينية. وفي ليلة وفاتها، أُعلنت شقيقتها إليزابيت ملكة لإنكلترا.

تلقى قسم كبير من الشعب الإنكليزي بفرح جلوس الملكة الجديدة على عرش بلدهم، وردّ الفعل هذا ناجم جزئياً عن ذكرياتهم الأليمة في ظل حكم شقيقتها التي لقّبها الشعب بماري الدموية. فلدى جلوسها على العرش، كانت ماري قد قررت استرداد الكاثوليكية مهما كلّف الأمر؛ وهي سياسة أيّدها البابا بولس الرابع وعارضها السفير الإسباني. وأدت هذه السياسة إلى قطع رؤوس كل

المدافعين عن حركة الإصلاح الديني.

كان العديد من الأساقفة البروتستانت (وصفتهم ماري "بالرعاة السيئين الذين قادوا قطعانهم إلى الهلاك الأبدي") أول من أُحرقوا وهم مشدودون إلى الأوتاد بسبب جريمة الهرطقة. وأُحرق أسقف لندن الأسبق، نيكولاس ريدلي، حياً في 16 تشرين الأول/أكتوبر 1555 في ساحة عامة في أكسفورد (كان قد اعتبر ماري تيودر ابنة زنى وأعلن تنصيب الليدي جين غراي ملكة لإنكلترا مكانها قبل فترة قصيرة من إعدامه). ورافقه هيو لاتيمر، الأسقف الأسبق لورشستر، إلى المصير نفسه. والحكم الآخر الذي أمرت الملكة بتنفيذه وأثار دهشة روما والبرلمان الإنكليزي، هو ذلك الذي صدر بإعدام أسقف كانتربوري الأسبق توماس كرانمر في 21 آذار/مارس 1556. وكان كرانمر قد أكد بطلان زواج هنري الثامن بكاترين من أراغون مما أدى إلى التخاصم النهائي مع السلطة البابوية في روما.

في 15 كانون الثاني/يناير 1559، تُوّجت إليزابيت ملكة على إنكلترا، وفي 8 أيار/مايو، افتتح البرلمان دورته الجديدة، واقترحت فيه الملكة إقرار قوانين جديدة تسمح بإعادة ترسيخ البروتستانتية في مختلف أنحاء المملكة والمناطق التابعة لها. وكانت روما وكنيستها الكاثوليكية بقيادة بولس الرابع، وهو رجل مُسنّ في الثالثة والثمانين من عمره، تفتقران إلى القدرة على مقاومة التحوّل الديني المتجدد في إنكلترا.

فما كان يدركه الحَبر الأعظم بالتأكيد هو أن الطريقة الوحيدة للحفاظ على جَيب كاثوليكي على الأقل في إنكلترا البروتستانتية هو دعم ملكة اسكتلندا، ماري ستيوارت، التي أصبحت على مر السنين دمية لتنفيذ مؤامرات حاكها بولس الرابع وخلفاؤه مع ملك إسبانيا القوي ذي الميول الرهبانية فيليب الثاني، وملك فرنسا المزاجي شارل التاسع، وملك النمسا غير المثقَّف فرديناند الأول، وابن ماري الوحيد الأمير جيمس الذي غدر بها في ما بعد وورث العرش.

وبدأ الخناق يضيق حول عنُق ماري ستيوارت عندما أصبح الرجلان الأكثر

تقرّباً منها جاسوسين لقوى تملك مصالح هامة في اسكتلندا. ففي 29 تموز/يوليو 1، تزوّجت بهنري دارنلي الكاثوليكي. وكان الزوج والملك الجديد لاسكتلندا طويل القامة، قوي البنية، أشقر الشعر، تجده النساء جذاباً، ولكنه غير متعلّم وذو ثقافة محدودة. وعلاوةً على ذلك، وبالرغم من كون دارنلي الملك الجديد للاسكتلنديين وعشير الملكة، فقد كان نفسه دمية في يدَي السير فرانسيس والسينغهام، رئيس شبكة التجسس التابعة لإليزابيت، وفي أيدي النبلاء الاسكتلنديين، وكان دارنلي جباناً فوق كل شيء.

بعد أشهر قليلة، وقُبَيل نهاية العام 1565، طوّرت ماري صداقة مع إيطالي شاب داكن البشرة من منطقة بييمون يدعى دافيد ريزيو. لقد قدِم ريزيو إلى اسكتلندا بوصفه فرداً من أتباع مركيز موريتا الزائر الموفَد من سافوا. كان في الثالثة والعشرين من عمره وله عينان مستديرتان خضراوان لفتت انتباه ملكة تجتذبها المظاهر الخارجية للرجال أكثر من أي شيء آخر. وكان ريزيو ماهراً في العزف ونظم الأشعار. كان كاهناً أيضاً وأحد الجواسيس الأكثر نشاطاً في الحلف المقدس.

فطلبت ماري ستيوارت من سفير سافوا التخلي عن الشاب ريزيو ليشارك في إضفاء جو من المتعة في البلاط. وشيئاً فشيئاً، شق عضو الحاشية الملكية البييموني طريقه ليكون من مرافقيها. فقد ارتقى في غضون أيام قليلة من مجرد مغنٍّ يوفر جواً ممتعاً للملكة إلى مرافق شخصي لها مع راتب خمسة وسبعين جنيهاً إنكليزياً في العام. وبفضل هذا المنصب القريب من الملكة، تمكن ريزيو من الوصول إلى أوراقها الأكثر خصوصية.

وجدت الملكة في الإيطالي كل ما يفتقر إليه زوجها هنري دارنلي. فقد كان ريزيو يملك أفكاراً واضحة ومعرفة واسعة في الفنون؛ كان يعرف اللاتينية، ويجيد الفرنسية والإيطالية، ويتكلم الإنكليزية بطلاقة أيضاً. وبالرغم من التكريم الملكي، استمر الجاسوس بتناول الطعام إلى طاولة الخدَم، ولكن لاحت

فرصة ملائمة لتغيير هذا الوضع عندما طردت الملكة سكرتيرها الخاص راولت. وبالرغم من أن هذا الأخير كان مساعدها الذي تثق به أكثر من سواه، فقد قامت بطرده عندما اكتشفت أنه يتجاهل تأكيدات العديد من النبلاء الاسكتلنديين على "الرشوات" الإنكليزية. لقد خصص والسينغهام، رئيس شبكة التجسس التابعة لإليزابيت، أموالاً ملَكية ضخمة للرشوات يمكن من خلالها شراء خدمات المتسللين إلى البلاط الاسكتلندي.

هكذا، شغل دافيد ريزيو مكتب راولت. وبدلاً من أن يكون مدافعاً مخلصاً عن حركة الإصلاح الديني المضادة وإعلام البابا بيوس الخامس بكل ما يقوم به الإنكليز والاسكتلنديون، كرس ريزيو نفسه قلباً وقالباً لخدمة ماري ملكة الاسكتلنديين.

كان جاسوس الحلف المقدس يكتسب مزيداً من القوة، وعلم دارنلي بذلك. ومع ذلك، كان زوج الملكة يدرك أنه إذا أراد التخلص من ريزيو، عليه أولاً استشارة والسينغهام الذي يحتاج بدوره إلى استشارة إليزابيت الأولى. وكان يدرك أن هذا الأمر لن يكون بالإمكان القيام به بشكل سرّي آمن إذا اكتشفت زوجته أنه مسؤول عن اغتيال البييموني.

كان دافيد ريزيو وشقيقه جوزيف الذي رافقه من إيطاليا قد أصبحا جزءاً من حلقة جواسيس الحلف المقدس في اسكتلندا. وتمثلت مهمتهما وفقاً لأوامر البابا بجمع معلومات عن جون نوكس والأصولية الدينية. كان نوكس بالنسبة إلى بيوس الخامس هو العقبة الوحيدة لعودة اسكتلندا إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية. ووفقاً لتقارير الجواسيس البابويين، كان نوكس كاهناً كاثوليكياً غامضاً قرر الغوص في حركة الإصلاح. وكان كالفين وجورج ويشارت مدرّسَين حتى قررت الوصية على العرش الاسكتلندي ماري دو غيز (والدة ماري ستيوارت) إحراق الأخوين ويشارت مشدودَين إلى الأوتاد. إنه التصرف الذي ولّد أصولية نوكس المذهبية وكرهه الشديد للملكة ووالدتها.

بموت مدرّسه، أصبح جون نوكس قائد ما يُدعى حركة التمرد ضد الوصية على العرش. فأسر الجنود الفرنسيون نوكس، وكانوا قد رسوا في اسكتلندا لدعم ماري دو غيز.

بعد تحريره، التجأ نوكس إلى الأراضي الكالفينية حيث تعلّم كيفية الوعظ وتمتين كرهه الجليّ الذي لا يعرف الصفح. وبُعَيد عودته إلى اسكتلندا، نجح في استمالة اللوردات والشعب إلى صفوف حركة الإصلاح الديني. ونقل جوزيف ريزيو نشاطات نوكس إلى البابا، وكتب في أحد المستندات:

> بعد تحوّله إلى مبشر اسكتلندي، يقوم بالتوعّد كل يوم أحد من منبره في سان جيل، معبّراً عن كرهه وإدانته لكل من لا يبالي بكلامه. ويحتفل كفتى بكل هزيمة تلحق بكاثوليكي أو بأي عدوّ من دين مختلف. ولدى مقتل أحد الأعداء، يتحدث نوكس عن يد الله. وفي نهاية عظته كل أحد، يسبّح الله ويطلب منه تعالى التخلص سريعاً من حكم آل ستيورات المغتصِبين ومن الملكة التي تجلس على عرش لا تستحقه.

أعلم دافيد ريزيو بيوس الخامس باللقاء غير المتوقَّع بين نوكس وماري ملكة الاسكتلنديين:

"جرى هذا اللقاء بين ملكة اسكتلندا الكاثوليكية المؤمنة والبروتستنتي المتعصب جون نوكس في إدينبرغ. لقد كشف هذا الواعظ عن وقاحة محمِّلاً الكنيسة الكاثوليكية الرومانية مسؤولية دعمها لزانية... وأزعجت هذه الكلمات الملكة ماري". وطلب الحلف المقدس من الأخوين ريزيو تعزيز تدابيرهما الأمنية لأن عدد أعدائهما أصبح كبيراً كما يبدو في وقت قصير من الزمن، ولم ترغب شبكة البابا في فقدان عملاء قيّمين مماثلين. فمستشارا الملكة موراي (شقيقها من والدها غير الشرعي) ووليام مايتلند، وكلاهما بروتستنتيان، هما من الأعداء الرئيسيين للإيطاليّين ولحركة الإصلاح المضادة في اسكتلندا.

سرعان ما اكتشف جواسيس الحلف المقدس من خلال أحد الخوَنة أن إليزابيت الأولى ملكة إنكلترا كانت ترشو المستشار موراي وعدداً من اللوردات للتشجيع على قيام تمرّد ضد ماري. ولم يكن باستطاعة البابا سوى إعلام الملك الإسباني فيليب الثاني بالأمر، ووجّه هذا الأخير رسالة إلى البلاط الإنكليزي، من خلال سفيره، قال فيها إنه سيجد نفسه مضطرّاً إلى إرسال مساعدة إلى الملكة الكاثوليكية إذا حدث هذا الأمر. ولم يُشر السفير أبداً إلى الرسالة التي وجّهها بيوس الخامس لماري ستيوارت في 10 كانون الثاني/يناير 1566 وجاء فيها: "ابنتي العزيزة: لقد بلغَنا بفرح كبير أنك وزوجك أثبتّما مثابرتكما على إعادة الدِّين الحقيقي لله إلى مملكتكما"، وذلك بالرغم من إدراكه لحقيقة الأمر بالتأكيد.

العلاقة التي توطدت أكثر فأكثر بين ماري ستيوارت وسكرتيرها، دافيد ريزيو، حملت العديدين من ذوي النفوذ المحيطين بالملكة الاسكتلندية على الشعور بعدم الارتياح. فزواجها بهنري دارنلي اتخذ منحى أكثر سوءاً، وشعر دارنلي بأنه منبوذ من زوجته ليس كزوج فحسب بل كملك أيضاً. وشعر بخيبة أمل لأنه لم يتم إعلانه ملكاً على اسكتلندا بكل حقوقه وواجباته بل مُنح لقباً تشريفياً فقط.

في غضون ذلك، كتب فيليب الثاني لسفيره غوزمان دي سيلفا يطلب منه "إعلام ملكة اسكتلندا بوجوب التصرف باعتدال [مع ريزيو] وتجنّب كل ما يمكنه إثارة غضب ملكة إنكلترا". ووقعت هذه الرسالة بين يدَي إليزابيت الأولى بفضل أحد المتسللين إلى عائلة السفير الإسباني والذي كان يكنّ الولاء للسفير الإنكليزي راندولف. في الواقع، لم يفهم فيليب الثاني موقف ماري ستيوارت التي وضعت جاسوس البابا في خطر داهم. ففي أثناء مسامرة بين ريزيو وماري، أخبر الإيطالي الملكة بأنه اكتشف أن الإنكليزي كان يدفع للمتمردين الاسكتلنديين.

من جهته، لم يكن السفير الإنكليزي يعلم بأن دافيد ريزيو وشقيقه كانا قد اكتشفا في أوائل شباط/فبراير 1566 أن المتمردين الاسكتلنديين الذين ثاروا ضد الملكة في العام الأسبق وفرّوا بعد ذلك كانوا يتلقون التمويل من راندولف.

وبفضل الجاسوسين الإيطاليين، تلقت ماري تقريراً طويلاً عن دور الدبلوماسي الإنكليزي في الاضطرابات التي سادت اسكتلندا في ذلك العام. ومسلَّحةً بتقرير ريزيو، استدعت ماري ستيوارت السفير الإنكليزي للمثول أمامها في 20 شباط/ فبراير 1566.

فطردُ سفيرٍ ليست مسألة بسيطة حتى في أيامنا هذه، وكان عملاً ينطوي على عواقب وخيمة في القرن السادس عشر، ولكن ماري ستيوارت لم تفكر مليّاً في العواقب. ففي اليوم التالي لصدور الأمر بطرد راندولف، وجّهت ماري لإليزابيت الأولى رسالة حلّتها فيها من أي مسؤولية، بالرغم من معرفتها التامة بأن إليزابيت هي وراء فكرة العملية وأن راندولف هو ذراعها المنفّذة. وبالرغم من أن الثلاثة آلاف إسكودو تقريباً التي استخدمها رجال والسينغهام لرشوة أولئك الذين ساعدوا المتمردين الاسكتلنديين على الفرار مصدرها الموارد المالية الخاصة بالملكة الإنكليزية، كانت ملكة الاسكتلنديين تتذكر على الدوام كلمات نظيرها الإسباني حول تجنّب القيام بأي عمل يمكنه إغضاب إليزابيت. وفي 21 شباط/ فبراير 1566، كتبت ماري ستيوارت لإليزابيت الأولى بلغة فرنسية مهذّبة:

> أيتها السيدة، يا شقيقتي الصالحة: نظراً إلى صفاء النية التي طالما حملتها لك، أظن أنه يجب عليّ كتابة هذه الكلمات التي ستدركين من خلالها الأعمال غير الصحيحة والسلوك غير المناسب لراندولف، سفيرك هنا. لقد بلغني من مصدر موثوق [ريزيو والحلف المقدس] أنه في خضمّ الاضطرابات الأكثر خطورة التي قام به المتردون ضدي، قام المسمى راندولف بدعمهم بمبلغ ثلاثة آلاف إسكودو للفوز بتأييد بعض الأفراد والعمل على إحكام قبضة أعدائي. ونتيجةً لذلك، انتزعتُ هذه الشوكة من خاصرتي على الفور، واستدعيت راندولف للمثول أمامي وأمام مجلسي وطلبت منه الاعتراف بأسماء الأشخاص

> الذين تسلّموا منه هذا المبلغ. وبما أنه أُرسل من قِبلك إلينا للقيام بواجباته على أكمل وجه مكرّساً نفسه لمهمة معاكسة، فإنني أعلل النفس برفع حصانتك عنه. ومع ذلك، لا أرغب في التعاطي معه بقسوة أكبر وأكتفي بإعادته إليك مع رسائل توضح اتهامي بتفصيل أكبر.

في 1 آذار/مارس 1566، غادر السفير راندولف اسكتلندا مع أتباعه، تاركاً وراءه مصيبةً حلّت بجواسيس بيوس الخامس الذين لم يكونوا على أهبة الاستعداد تماماً. وأحد حلفائه الأكثر أهمية في هذا الانتقام هو زوج الملكة هنري دارنلي.

وفي طريق عودته إلى لندن، توقف السفير راندولف في مدينة برويك انتظاراً لأوامر ملكته. ووجّه من هناك رسالة إلى إليزابيث:

> هناك أمر على وشك الحدوث في اسكتلندا وستكون عواقبه وخيمة. اللورد دارنلي غاضب من الملكة لأنها أنكرت عليه حقه بالمُلك بوصفه زوجاً لها، وأكد أن معرفته بممارساتها (علاقتها بدافيد ريزيو) هو أمر يصعب احتماله... لقد قرر (دارنلي) التخلص من سبب هذه الفضيحة (عميل الحلف المقدس). سيجري تنفيذ هذه الأمور قبل انعقاد دورة البرلمان، وهو أمر وشيك.

لم يعُد دارنلي يُدعى لحضور الجلسات الخاصة بمجلس الدولة، وحُرم من الاستعانة بالفرسان الملكيين، ووجد أن دوره تقلّص إلى مجرد زوج للملكة. ولم يلقَ زوج ماري ستيوارت المهانة من الملكة نفسها فحسب، بل من أفراد حاشيتها الأكثر تقرّباً منها. وبوصفه سكرتيرها الخاص، لم يعُد دافيد ريزيو يُطلع دارنلي على المستندات الرسمية، واستخدم ما يدعى الختم الحديدي (التوقيع الملَكي) من دون استشارة دارنلي. ولم يعُد السفير الإنكليزي يتوجّه إلى دارنلي بلقب جلالتك، وسُحبت من التداول القطع النقدية التي تحمل وجهَي ماري

وزوجها ونقشاً لهنريكوس وماريا واستُبدلت بقطع نقدية جديدة تحمل النقش ماريا ملكة اسكتلندا. وأُضيفت إلى كل ذلك شائعات عن علاقات ماري بسكرتيرها إذ وصفته بسيد المتعة.

بفضل قدرته على إسعاد ماري ستيوارت، تمكّن عميل الحلف المقدس من التحلّي بأخلاق الأمراء والقيام بمهام متعلقة بالشؤون العليا للدولة على نحو متعجرف، في حين أنه كان يتناول الطعام قبل أشهر قليلة مع الخدَم وينام فوق الإسطبلات. وكان النبلاء، والعديد منهم من البروتستانت، يعلمون أن ريزيو كان لعبة في يدَي البابا بيوس الخامس لتنفيذ مخططه القاضي بجعل اسكتلندا أمّة كاثوليكية في إطار حركة الإصلاح الديني المضاد التي تنفّذها روما. وكانت ماري ستيوارت قد اتفقت كما يبدو مع بيوس الخامس لجعل اسكتلندا أول بلد يتخلى عن حركة الإصلاح ويعود إلى الحظيرة الكاثوليكية الكبرى.

كان الحَبر الأعظم قد أصدر أوامره لعملائه لحماية ماري ستيوارت من أي خطر قد يُعيق القيام بهذه الخطوة الهامة. ومن جهتهم، كان النبلاء الاسكتلنديون يعتبرون دافيد ريزيو منسّقاً سرّياً لبلوغ تلك الغاية. وأعلم السفير راندولف ملكته بهذا الأمر عندما كتب في رسالته التي وجّهها من برويك ما يلي: "إما أن يمنحه الله - لدافيد ريزيو - نهاية سريعة أم أنهم - النبلاء الاسكتلنديون - سيجعلون حياته لا تُحتمَل".

بالرغم من كرههم للجاسوس الإيطالي، لم يشأ النبلاء مواجهة ملكتهم. فقد كانوا يدركون القسوة التي اعتمدتها لقمع التمرد السابق، ولم يشاؤوا أيضاً أن ينتهي بهم الأمر في المنفى على غرار موراي. واستنتجوا منطقياً أنهم إذا فازوا بدعم هنري دارنلي، فإن ذلك سيُبعد عنهم الشبهات باغتيال ريزيو؛ فبدلاً من أن تكون جريمة دافعها الحسد ببساطة - وبالتالي عملاً تمرّدياً ضد الملكة - يصبح تصرفاً وطنياً دفاعاً عن الإيمان الحقيقي (الإيمان البروتستانتي).

لإقناع دارنلي بقضيتهم، لجأ المتآمرون إلى أمر بسيط جداً وهو حسده من

الإيطالي. لم يكونوا على عِلم بأن ريزيو، وعمَلاً بأوامر البابا، كان قد حال دون قيام ماري بإعلان دارنلي ملكاً على اسكتلندا ومنحه الحق بالحكم بوصفه زوجها. لقد أراد بيوس الخامس، ومهما كان الثمن، تجنّب إمكانية قيام دارنلي بتبديل رأيه في جعل اسكتلندا أمّة كاثوليكية بوصفه الوصي على العرش إذا حدث أمر ما للملكة. ولكن أياً من هذه الأمور لم يُزعج دارنلي بقدر ما أزعجه واقع أن زوجته لم تكن تسمح له بلمسها، في حين أنها كانت تسمح لجاسوس الحلف المقدس بقضاء أمسيات طويلة معها في غرفتها.

أصبحت ماري ملكة الاسكتلنديين حاملاً بالطفل الذي أصبح بعد سنوات جيمس السادس ملك اسكتلندا وجيمس الأول ملك إنكلترا. ولأول مرة في تاريخ اسكتلندا، حصل المتآمرون على إذن الملك بالتمرد ضد ملكتهم. وتعهّد النبلاء المتآمرون بالاستيلاء على السلطة من ماري وتسليمها لدارنلي بوصفه الملك الجديد للاسكتلنديين. وتعهّد من جهته بمنحهم عفواً عاماً وبمكافأتهم بمزيد من الأراضي ما إن يجلس على العرش. وأعلمه جواسيس والسينغهام بأن "الملكة - ماري ستيوارت - ندمت على زواجها بهنري دارنلي، ولكنّ هناك حديثاً جارياً عن مكافأته بعرش اسكتلندا سواءً أحبت الملكة ذلك أم لا. أعلم أن دافيد [ريزيو] سيُقطع حلقه في غضون الأيام العشرة التالية، وبموافقة الملك، إذا نُفّذ المخطط".

لم يرغب دارنلي في موت جاسوس البابا لأسباب سياسية؛ كان يريد موته بسبب غيرته من الرجل الذي سلبه ثقة زوجته والختم الملكي. وأعدّ موراي العدة للعودة إلى اسكتلندا بعد تنفيذ الانقلاب، وكان جون نوكس المتعصب قد وضع عِظة يثني فيها على وفاة، أو بالأحرى، إعدام كاثوليكي بائس.

كانت فترة بعد الظهر من التاسع من آذار/مارس 1566 في قلعة هوليرود. ففي صباح ذلك اليوم، كان دافيد ريزيو قد تلقى تحذيراً من أحد جواسيسه من دون أن يعير الأمر اهتماماً. كان يعرف أنه سيمضي طوال اليوم بجانب الملكة، وهكذا فإن شيئاً لن يحدث له لأن أحداً لا يجرؤ على شهر سلاح أو رفع

يد ضده بحضور ماري. ولكنه كان مخطئاً.

انقضى اليوم بسرعة، وكانت ماري تقرأ في الغرفة المُلحَقة بغرفة نومها في الطابق الرابع من البرج. فدعا هنري دارنلي ريزيو للعب الورق هناك من دون أن يشتبه الإيطالي بأي شيء. وجلس العديد من النبلاء حول الطاولة في الغرفة الملكية، إضافةً إلى شقيقة الملكة من والدها وريزيو في الجهة المقابلة مرتدياً عباءة حريرية. كانت المحادثة سارّة والموسيقى تملأ أرجاء الغرفة الصغيرة. ففُتح باب صغير في الناحية الخلفية من الغرفة مخبّأ بستارة ودخل دارنلي، وكان قد تُرك غير مقفَل عَمداً. وجلس زوج الملكة بجانب زوجته.

بعد ثوانٍ، فُتحت الستارة فجأةً مرة أخرى وظهر المتآمرون في الغرفة وفي أيديهم سيوف وسكاكين. وكان اللورد باتريك روثفن أول من عرفته الملكة وكان شاهراً سيفه.

فوقفت الملكة، وضربت بيدها على كرسيّها، وأنّبت روثفن بسبب مثوله أمامها وسيفه خارج غِمده. فطلب منها النبيل الاسكتلندي عدم الخوف لأن اقتحامه يستهدف الجاسوس الإيطالي فقط. كان ريزيو قد وقف على قدميه، ولكنه لم يكن مسلّحاً، وكان باستطاعة الملكة وحدها حمايته. فتراجع دارنلي للابتعاد عن المعركة الوشيكة، ووقفت ماري ستيوارت أمام روثفن الذي كانت عيناه شاخصتَين بريزيو وطلبت منه تسليم سلاحه. فأجاب الاسكتلندي: "اسألي زوجك".

التفتت الملكة إلى زوجها الذي كان مختبئاً وراء الستارة وأجاب متلعثماً: "لا أعرف شيئاً عن الموضوع".

انضم إلى روثفن مزيد من النبلاء المتآمرين شاهرين سيوفهم، وكانوا قد صعدوا السلّم اللولبي الضيق المؤدي إلى غرفة الملكة. فحاول ريزيو الفرار ولكن الاسكتلنديين أمسكوا بذراعه.

صاح المتمردون في وجه الملكة قائلين إن ريزيو جاسوس للبابا، ولذلك، هو

يستحق الموت. فأجابت ماري ستيوارت أنه إذا كان يتعيّن توجيه أي تهمة لدافيد ريزيو، فالبرلمان هو من يُفترض به القيام بذلك. وأمسك روثفن بذراعَي الإيطالي في حين قام متآمر آخر بتقييده بحبل. وبينما كان مُساقاً، تمسّك بثوب الملكة الذي تمزّق تحت تأثير ضغط أصابعه.

استمرت ماري بالاحتجاج. فشهر أحد المتمردين مسدساً عليها، ولكن روثفن أبعد المسدس بيده ومرّت الطلقة النارية فوق رأس الملكة واخترقت الجدار. التقط دارنلي الملكة التي كانت على وشك السقوط أرضاً، وجرّ الآخرون ريزيو إلى الطابق السفلي مروراً بالسلّم الضيق صادماً رأسه بدرَجات السلّم.

عندما لم يعودوا في الحضرة الملكية، انقضّ المتآمرون على جاسوس الحلف المقدس، وثقبت الطعنة الأولى جَنبه الأيسر، واخترقت الثانية يده اليمنى عندما كان يحاول تغطية وجهه وطالت عنقه. فحاول النهوض نازفاً، ولكن طعنة أخرى قطعت وريده الوَدجي، وحجب صوتُ الدم المتدفق صرخةً خارجة من فمه، وسارع روثفن إلى طعنه في قلبه. فمات ريزيو.

استمرت ماري ستيوارت بالصراخ في وجه المتآمرين وزوجها الخائن الذي كان لا يزال ممسكاً بها. فأنّبها دارنلي وفمه إلى أذُنها بسبب إبعاده عن سريرها واستبداله بريزيو، في حين عاد روثفن إلى الغرفة وسيفه كان لا يزال يقطر بدم الإيطالي. وكررت ماري أن كليهما وقّعا على الحكم بموتهما، وأن انتقامها سيكون رهيباً.

لفتت الصيحات وأصوات السيوف انتباه جيمس بوثويل رئيس الحرس الملَكي، ولكنه وجد الباب مقفَلاً. وبعد فترة وجيزة من الاستطلاع، قفز بوثويل إلى الداخل عبر إحدى النوافذ مع مساعده الذي يليه رتبةً شاهرَين سيفيهما. فهدّأ هنري دارنلي من روعهما قائلاً إن ما حدث هو قتل جاسوس مُرسَل من قِبل البابا بيوس الخامس مهمته الإعداد لدخول جنود إسبان إلى اسكتلندا. وهكذا، أبعد اغتيال ريزيو ماري ستيوارت عن العرش الاسكتلندي وقطع خط الاتصال

المباشَر بين الملكة والبابا.

بعد أكثر من ثلاثة أشهر بقليل، وُلد الوريث الجديد للعرش الاسكتلندي في 19 حزيران/يونيو 1566. وأن تلِد ماري جيمس في ذلك الشهر يعني أنها حملت به في أيلول/سبتمبر من العام 1565، أي الشهر الذي شهد تمرد الاسكتلنديين، وبعد أسابيع من طرد هنري دارنلي من سريرها بعد أن تزوجت به في تموز/يوليو. وظهر دافيد ريزيو في البلاط الاسكتلندي في أواسط أيلول/سبتمبر، مما يوحي باحتمال أن يكون جيمس السادس ابنَ جاسوس الحلف المقدس حقاً. سامحت ماري ستيوارت دارنلي بدهاء كبير، مما سمح لها باستعادة عرشها وحريتها. ولكن الحلف المقدس لم يكن يريد أن تمر حادثة اغتيال أحد أفراده من دون الثأر له.

فأصدر البابا أمراً صريحاً لعملائه بتحديد هوية المتآمر الذي أمر باغتيال ريزيو، وظهر اسم هنري دارنلي على رأس لائحة المشتبَه فيهم.

هناك آراء متنوعة حول من أصدر الأمر بالقيام بأعمال انتقامية ضد قاتلي دافيد ريزيو. وأياً يكن الأمر، فهم لم يدركوا أن ذلك سيكون خطوة إضافية في اتجاه سقوط ماري ستيوارت عن عرش اسكتلندا.

كان على إليزابيت الأولى تقديم قرار للبرلمان يتعلق بالخلافة ويتضمن اسم خلفها في حال وفاتها. فأملت ماري ستيوارت في التمكن من مواصلة مطالبتها بالعرش، ولكن كان عليها تجنّب أي خطأ قد يُلحق الضرر بقضيتها إذا إرات الفوز بلقب الوريث. وكان مواطنو اسكتلندا وإنكلترا يميلون أكثر فأكثر إلى رؤية جيمس أميراً للأمّتين، وهو أمر أغضب إليزابيت. وكانت ماري تفكر ملياً في كيفية كسر طوق الأعداء المحيطين بها والثأر لموت خادمها الوفيّ ريزيو.

كان هنري دارنلي، زوجها الخائن، يعلم أنه ليس باستطاعته تعريض حياة الطفل الذي تحمله ماري في أحشائها للخطر. وبالرغم من كل شيء، سيكون هذا الطفل الملك المستقبلي لاسكتلندا وإنكلترا أيضاً إذا حالفه الحظ. لذلك،

أنهى دارنلي العزلة القسرية المفروضة على الملكة، وسمح لطبيب واثنتين من ممرضاته بالسهر على صحتها. واستخدمت ماري إحدى الممرضتين للتواصل مع بوثويل وهانتلي، رَجليها اللذين تثق بهما. وعندما تمكنت ماري من استمالة دارنلي نفسه لدعم قضيتها، باتت المؤامرة في موقع أضعف أكثر فأكثر.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من الاغتيال، كان النسيان قد طوى كل شيء ودُفن جاسوس الحلف المقدس في مكان سري، وحان وقت التآمر للثأر.

كان روثفن أول المستهدَفين الأربعة، وهو النبيل الذي ألقى القبض على ريزيو في بادئ الأمر؛ وفاودونشايد الذي سدّد وأطلق النار على الملكة؛ وجون نوكس، الواعظ الراديكالي الذي نعت الملكة بابنة زنى؛ وأخيراً موراي. وكان الأربعة مدركين بأنهم لن يلقوا صفحاً حقيقياً وأن النبلاء لن يحركوا ساكناً دفاعاً عنهم لأن الطفل الذي تحمله ماري في أحشائها سيكون الحاكم المستقبلي لمملكة اسكتلندا وإنكلترا الموحَّدة.

لم يكن من المتوقع تغاضي البابا بيوس الخامس عن مقتل أحد عملائه من قِبل أربعة بروتستانت من دون الثأر له. وكان الحَبر الأعظم بسلطته العليا بحاجة إلى جواب، فاستدعى الرئيسُ الأسبق لمحاكم التفتيش كاهناً يدعى لامبرتو ماكي.

فهذا الشاب الفيروني هو ابن عائلة أرستوقراطية، وكان قد انضم إلى الكهنوت في سنّ الرابعة عشرة. كان يسوعياً وعضواً في المنظمة التي أسسها أغناطيوس دو لويولا قبل عشرين عاماً، وقد أُنشئت هذه المنظمة في العام 1540 كقوة ضاربة للمهام السريعة مؤلفة من جنود مستعدين للموت في سبيل الإيمان والبابا، ومكرِّمين الكلمات اللاتينية الأربع التي تؤلف شعارها "في سبيل المجد الأعظم الله".

كان أغناطيوس دو لويولا قد أسس المنظمة لفرضيات ثلاث أولاها الاستعداد لتلبية دعوة البابا في أي زمان ومكان لا سيما وأن اليسوعيين كانوا منذ البدء

رجال البابا. والفرضية الثانية هي أنهم سيكونون جنود البابا؛ كان على أفراد المنظمة إعداد أنفسهم لا ليكونوا متديّنين فحسب بل ليكونوا جنود الله أيضاً. وتم شنق اليسوعيين في ما بعد في ساحات لندن، وأُخرجت أحشاؤهم في أثيوبيا، وأُكلوا أحياء من قِبَل شعب الإيروكوا في كندا، وسُمِّم لهم في ألمانيا، وضُربوا بالسياط حتى الموت في الأرض المقدسة، وصُلبوا في سيام، وتُركوا للموت جوعاً في جنوب أميركا، وضُربت أعناقهم في اليابان، وأُغرقوا في مدغشقر، ولكن روح المغامرة باسم الله هي التي حملت النبيل الشاب لامبرتو ماكي على الانضمام إلى صفوفهم.

بالنسبة إلى أغناطيوس دو لويولا، كان من المهم جداً أن يتمتع رجاله بمجموعة منوّعة من المهارات. فالمؤسس والبابا بحاجة إلى مثقّفين؛ فقد كانا بحاجة إلى علماء في الكيمياء والأحياء والحيوان واللغات والرياضيات، إضافةً إلى مستكشفين وأساتذة ودبلوماسيين ومعرِّفين وفلاسفة ولاهوتيين وفنانين وكتّاب ومهندسين. وكانا بحاجة إلى قادة، وعملاء مخابرات، وجواسيس، وموفَدين خاصين. كان ماكي خبيراً في هذه الفنون؛ فهو ابن تاجر ثري وقد تعلّم استعمال السيف بمهارة بينما كان يدرس الفلسفة، وتعلّم أيضاً استخدام المتفجرات بينما كان يدرس اللاهوت، كما تعلّم فن الاغتيال بينما كان يدرس اللغات الأجنبية.

أمر البابا لامبرتو ماكي اليسوعي بالسفر إلى بلاط اسكتلندا بمهمة اكتشاف قتَلة ريزيو. وانطلق ماكي برفقة ثلاثة يسوعيين آخرين عالماً بما يُفترض القيام به متى حصل على هذه اللائحة. بالنسبة إليه، كان وضع حدّ لحياة أربعة بروتستانت مسألة دينية أكثر منها شخصية؛ فالأمر صادر بالرغم من كل شيء عن البابا نفسه. كان يحمل في حقيبته وثيقة حمراء تمنحه تفويضاً مطلَقاً بأي عمل يقوم به دفاعاً عن الإيمان. ويعود تاريخ هذه الوثيقة إلى الوقت الذي كان فيه البابا مفوّضاً عاماً لمحاكم التفتيش في روما.

كان اللورد بوثويل، رئيس الحرس الشخصي لماري، مصدر معلومات ماكي في

البلاط الاسكتلندي، وكان مستشارَها وبمثابة نائب لها مما أغضب البريطانيين بصورة عامة والملكة إليزابيت الأولى بصفة خاصة. وتذمّر بعض النبلاء في المملكة من أن بوثويل أكثر تكبّراً من الإيطالي دافيد ريزيو مع فارق أنه يعرف أعداءه، ودارنلي أحدهم. من جهة أخرى، كان موراي حليفاً مما وضعه في نزاع مفتوح مع دارنلي الذي كان قد بدأ بتوجيه رسائل اتهامية للملكة إليزابيت الأولى أعلن فيها أن زوجته ماري ستيورات لا يمكن الاعتماد عليها على الصعيد الديني وأنها تقدّم اسكتلندا لفيليب الثاني حامي الكاثوليكية.

في أواخر أيلول/سبتمبر، اتخذ دارنلي القرار المشؤوم بمغادرة اسكتلندا لأنه حُرم من منصب الملك، ووضع هذا الأمر ماري ستيوارت في موقع صعب. لكن لم يكن باستطاعة هنري دارنلي مغادرة اسكتلندا قبل عمادة الوريث في قلعة سترلينغ نظراً إلى الشائعات المستمرة التي تناولت الأبوّة الحقيقية للأمير جيمس، ولم يكن قد اتخذ أيضاً قراراً في شأن المكان الذي سيلجأ إليه؛ في إنكلترا بحماية إليزابيت الأولى أو في فرنسا بحماية كاترين دو مديتشي. في خطوة مضادة، وجهت ماري ستيوارت رسالة دبلوماسية إلى كاترين اتهمت فيها زوجها بأنه خائن محتمَل.

في غضون ذلك، كان عميل الحلف المقدس لامبرتو ماكي قد وصل ورفاقه الثلاثة إلى إدينبرغ وأقاموا مع أحد رجال بوثويل بانتظار الفرصة المناسبة للتحرك. وقبل نهاية العام 1566 بقليل، وقّعت ماري ستيوارت نزولاً عند نصيحة موراي وبوثويل قرار العفو عن المتآمرين على مقتل ريزيو، ولكن ذلك لم يُحدث فَرقاً بالنسبة إلى ماكي. فاليسوعي يحمل أمراً صريحاً من البابا، وعليه تنفيذه من دون نقاش أو شك. بالنسبة إلى لامبرتو ماكي، كان الأمر البابوي حقيقة دينية.

كونه أحد المحرّضين، كان موراي مستهدَفاً من قِبل ماكي. وكان دارنلي يعلم أنه سيكون هدفاً رئيسياً للمنتقمين بالرغم من العفو الملكي العلني، لذلك فرّ، ولجأ

إلى قلعة والده في غلاسغو.

كل ما كان على بوثويل القيام به هو وضع المتآمرين في متناول يد عملاء البابا الذين سيتولون مهمة الإعدام. وكان يعلم أيضاً أنه سيكون مسؤولاً بمفرده أمام الله والملكة وشعب اسكتلندا؛ كان مستعداً للمجازفة والاضطلاع بالمسؤولية.

في 22 كانون الثاني/يناير 1567، مرض هنري دارنلي مرضاً شديداً نتيجة لإصابته بداء السِّفلس، ولكنه بقي مختبئاً في غلاسغو بحماية والده إيرل لينوكس. في غضون ذلك، انطلقت ماري ستيوارت التي كانت لا تزال تتماثل للشفاء بحثاً عن زوجها لحمله على العودة إلى إدينبرغ بمواكبتها الخاصة. ومع ذلك، كان دارنلي يعلم أنه قد يتعرض لهجوم في أي لحظة من قِبل أتباع بوثويل، وعملاء البابا، أو من قِبل شركائه السابقين في المؤامرة الذين تركهم في وضع حرِج ويعرف أنهم عادوا إلى اسكتلندا بفضل العفو الملَكي. مع ذلك، لم يكن دارنلي يعلم بأن عودته إلى إدينبرغ ستكون طريقه إلى الموت، ولن يغادر العاصمة الاسكتلندية حياً.

إذا كان على منتقمي الحلف المقدس النَيل من كل المتآمرين على دافيد ريزيو، فسيكون عليهم التخلص من زوج ماري ستيورات أيضاً. ولم يكن الموقع الذي اختاروه لتنفيذ مهتمهم سوى المسكن المؤقت لدارنلي، وهو مبنى معزول مبنيّ وفقاً للطراز الإليزابيتي النموذجي في حي كيرك أو فيلد، ويمكن دخوله بواسطة طريق ضيّق ومُظلم يُعرف بطريق اللصوص.

كان داخل المنزل مزيَّناً بمدخل مفتوح وجذاب، وبمدافئ مزخرَفة، ومطرَّزات جدارية فائقة الجمال، وأدوات مائدة أنيقة من الفضة تحمل الختم الملكي الاسكتلندي، وسجاد فارسي، وسرير مريح كانت والدة ماري ستيوارت، ماري دو غيز، قد أحضرته معها من فرنسا. ولم يكن باستطاعة لامبرتو ماكي ورجاله الاقتراب كثيراً من دارنلي، لذلك كان عليهم مهاجمته بالمتفجرات، والوقت الذي اختاروه لعملهم الانتقامي الأول هو ليل الأحد في التاسع من شباط/فبراير،

وصباح الاثنين في العاشر منه عام 1567.

في تلك الليلة، أقامت الملكة حفلة غنائية راقصة إكراماً لزواج اثنين من أتباعها الأكثر إخلاصاً. وكان اللورد دارنلي وأتباعه مدعوّين بالطبع. ومنح هذا الأمر عملاء الحلف المقدس الوقت للإعداد لهجومهم في حين بقي المنزل في كيرك أو فيلد من دون حراسة.

في غضون ذلك، اختفى موراي من إدينبرغ بشكل غامض ولم يعُد بالإمكان العثور على بوثويل؛ هي حقيقة لم يُشر إليها النبلاء فقط الذين كانوا يحضرون الاحتفالات التي تقيمها الملكة، بل دارنلي أيضاً الذي كان لا يزال ضعيفاً بسبب مرضه. وعند الحادية عشرة ليلاً، شعر دارنلي بالإرهاق واستعد للمغادرة، ولكن الملكة لم تسمح له بقضاء الليل في مقر الإقامة الملكي في هوليرود، لذلك انطلق إلى منزله الفخم البارد في كيرك أو فيلد. كان جلادو الحلف المقدس قد وضعوا شُحنة ضخمة من البارود في الركائز البنيوية للمنزل بمساعدة بوثويل.

عند حوالى الثانية بعد منتصف الليل، اهتزت الأرض الاسكتلندية وكان بالإمكان الشعور بالتموّجات حتى عبر الجدران السميكة لمقر إقامة الملكة. وفجأةً، فُتح باب غرفة نوم ماري ستيوارت، ونقل إليها خادم بدت على وجهه أمارات إجهاد كبير خبر نسف مقر إقامة الملك في كيرك أو فيلد.

انطلقت ماري على رأس مُفرزة من الجنود بمواكبة حرس مسلَّحين، ووصلوا بسرعة إلى المكان الذي كان قبل بضع ساعات قصراً فخماً تقوم على جانبَيه حقول خضراء، وقد بات حفرة ضخمة محاطة بتربة محروقة ومائلة إلى السواد. وظهرت الجثث المتبعثرة لخدَم هنري دارنلي على بُعد مئات الياردات من موقع الانفجار. كانت جثة الملك ملقاة في جدول على بُعد بضع ياردات بجانب جثة أحد الخدَم والبقايا الملويّة لسريره، إضافةً إلى كِسَر متنوعة من الخزف مغروسة في لحمه. ولم تسمح الجروح التي تركها الانفجار على جسم الزوج ملك اسكتلندا للأشخاص الذين عثروا عليه برؤية آثار الحبل النحيل الذي شُنق به.

فنوع العُقد المستخدَمة لقتل دارنلي وخادمه مماثلة لتلك التي يعتمدها أفراد طائفة كانت تقيم في جبال ألبورز شمال شرق طهران وجنوب غرب كازفين تدعى الحشاشين. وكان المستكشف ماركو بولو قد زار قلعة ألاموت وهو المقر الرئيسي لجبال الحشاشين هذه عام 1273. ودوّن في إحدى مذكرات أسفاره أسرار هذه الجبال، وأنظمتها، ووسائل الاغتيال المعتمَدة فيها بما في ذلك أكثر من اثنتين وثلاثين طريقة للشنق. واستردّ ماتيو ريتشي اليسوعي جزءاً من هذا النص في إحدى رحلاته إلى تلك الناحية من العالم متتبّعاً خطى الفنيزي.

كان عملاء الحلف المقدس الأربعة، بمن فيهم جوزيف ريزيو، شقيق دافيد، قد غادروا إدينبرغ على صهوات جيادهم حالما أشعلوا الفتائل من دون الالتفات وراءهم. لقد كان لامبرتو ماكي يعرف النتيجة تماماً. وأُنجز الجزء الأول من الثأر، وأُعلم الحَبر الأعظم في روما بالأمر.

في 15 أيار/مايو 1567، وبينما كانت ماري ستيوارت لا تزال في ملابس الحِداد، تزوّجت ببوثويل الذي اعتبره الجميع العقل المدبّر لاغتيال هنري دارنلي. في 6 حزيران/يونيو، تمرّدت مجموعة من النبلاء على التتويج المحتمَل لبوثويل ملكاً على اسكتلندا. وبعد تسعة أيام من مناوشة غير حاسمة جرت في كاربري هيل، لاذ بوثويل بالفرار، وسُجنت ماري ستيوارت.

بعد سلسلة من الأحداث، ازدادت العلاقات بين إليزابيت الأولى وفيليب الثاني سوءاً، ولم يُسهم تقريرٌ من بيوس الخامس وُجِّه إلى مدريد في تحسينها. ويكشف التقرير للملك الإسباني القوي عن تورّط العرش الإنكليزي بالأحداث الأخيرة في اسكتلندا التي أدت إلى عزل ماري ستيوارت الكاثوليكية. وثبت أن العام 1568 هو عام مريعلحكم فيليب، وأن الأعمال التي قام بها الحلف المقدس لم تكن عنصراً مساعداً. فبالنسبة إلى حامي المسيحية الكبير، كانت كل تلك المسألة في الواقع "نزاعاً إنكليزياً". مع ذلك، لم تحرك الملكة إليزابيت البروتستانتية ساكناً في ما يتعلق بماري ستيورات الكاثوليكية، في حين أن

الجيوش الإسبانية بقيادة دوق ألبا كانت قريبة جداً في بروكسيل. وهكذا، عرض فيليب الثاني لقوّته العسكرية.

في غضون ذلك، قام لامبرتو ماكي ورجاله بالبحث عن المتآمرين المتبقين بإصرار لا يلين. كان ماكي لا يزال يحمل معه الوثيقة البابوية الحمراء المخملية والملفوفة التي ترِد فيها تفاصيل مهمتهم وتمنحهم حماية البابا، على أن يتم إتلاف ورق الرِّق بعد إنجاز عملية الانتقام أو إعادته إلى البابا إذا لم تُنجَز المهمة. كان هدف الكهنة التالي اللورد باتريك روثفن، واللورد فاودونشايد الذي سدّد وأطلق النار على الملكة؛ شقيق الملكة من والدها اللورد موراي البارع بالرغم من تقلّبه، ووالواعظ الراديكالي جون نوكس.

كان فاودونشايد التالي في السقوط. هذه المرة، لم يكن على لامبرتو ماكي وأتباعه الثلاثة البحث عنه في مكان بعيد. فبالرغم من شهر سلاحه على الملكة، فقد وُجد مختبئاً في منزل صغير في ضواحي لوكليفن حيث كان ينتظر موته بجوّ من الرفاهية. ومن دون إبداء أي مقاومة، تم اقتياده إلى شجرة مجاورة، وشُنق هناك. كان النبيل الاسكتلندي لا يزال ينتفض وهو معلَّق بالحبل عندما انطلق فرسان الحلف المقدس الأربعة بحثاً عن ضحيتهم التالية. في الوثيقة البابوية الحمراء، شُطب اسم فاودونشايد بالدم الأحمر.

سقط موراي في 11 كانون الثاني/يناير 1570 بطعنة سيف في عنقه. فغمس ماكي إصبعه بدم الاسكتلندي، وشطب اسمه عن ورق الرِّق. ولكن الثأر لدافيد ريزيو لم ينتهِ بعد إذ كان جون نوكس وباتريك روثفن لا يزالان حيَّين، ولا يمكن إتلاف الوثيقة الحمراء التي سلِّمت إلى لامبرتو ماكي في روما متوّجة بالختم البابوي.

بعد أكثر من شهر، وفي 25 شباط/فبراير، نشر بيوس الخامس البيان البابوي المالك في الكنيسة معلناً الحِرم الكنسي على ملكة إنكلترا المهرطقة إليزابيت الأولى. وكان هذا الحكم إجراءً خطِراً للغاية في القرن السادس عشر في أوروبا

ويؤثّر في الشعب الإنكليزي أكثر منه في ملكتهم. وجد الإنكليز الكاثوليك أنفسهم بين سندان ولائهم لملكتهم ومطرقة ولائهم لإيمانهم، وبالتالي لحَبرهم الأعظم في روما. من جهة ثانية، كان الحِرم بالنسبة إلى الإنكليز البروتستانت حافزاً لهم لنعت البابا بالمسيح الدجال الروماني. ما أقلق إليزابيت أكثر من أي شيء آخر ليس مضمون الوثيقة بذاتها، بل واقع أن يد فيليب الثاني ملك إسبانيا أو شارل التاسع ملك فرنسا هي وراء التوقيع البابوي. مع ذلك، وجّه الملك الإسباني رسالة إلى سفيره في لندن، غويرو دو سبيز، يُعرب فيها عن دهشته:

> نشر قداسته بياناً بابوياً من دون استشارتي أو إعلامي على الإطلاق. لو قام بذلك، لتمكنت بالتأكيد من إسدائه نصيحة أفضل. أخشى في ظل هذا الوضع السيّئ الذي يمر به الإنكليز الكاثوليك من أن يحمل الملكة ومستشاريها على رفع وتيرة اضطهادهم لهم.

بالنسبة إلى الملك الإسباني، كان بيان بيوس الخامس تدخلاً خطراً في الشؤون السياسية الأوروبية، وكان فيليب الثاني يدرك أن ذلك الزمن قد ولّى حيث كان باستطاعة البابا (غريغوريوس السابع) إجبار الإمبراطور على التذلل أمامه، أو قيام البابا (أُربانس الرابع) بمنح أحد الأمراء مملكة سيسيليا مكافأة له. لم يكن للملك الإسباني أي شك بأن بيوس الخامس أخطأ بالقرن الذي يعيش فيه.

كانت عواقب البيان البابوي موت آلاف الإنكليز الكاثوليك ونهاية أي انفراج محتمَل بين لندن وروما. في المدى القصير، لن تكون الضحية الرئيسية لهذا الإعلان إليزابيت الأولى ملكة إنكلترا بل الكاثوليكية نفسها. كان ملوك أوروبا يدركون ذلك، ولكن بيوس الخامس، الكاهن المفتش في محاكم التفتيش ومُنشئ جهاز التجسس البابوي، لم يكن يعتزم التراجع حتى وإن استخدم قتَلة الحلف المقدس دفاعاً عن الإيمان. كانت هناك سنوات مُظلمة في الانتظار.

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد

Telegram @read4lead

الفصل الثاني
سنوات مُظلمة (1587-1570)

وجدت القوّتان الكاثوليكيتان فرنسا وإسبانيا المتمثلتان بملكيهما أنهما أمام خيارَين سياسيّين بعد الحِرم الذي طال إليزابيت الأولى، أولهما مساعدة الإنكليز الكاثوليك على التخلص من ملكتهم المهرطقة مهما تطلب الأمر لتحقيق ذلك واستبدالها بماري ستيوارت الكاثوليكية، وثانيهما اتّباع منحى معاكس تماماً ومواصلة العلاقات الدبلوماسية الجيدة مع بلاط لندن.

كانت فرنسا على شفير حرب أهلية بسبب الضغوط الكبيرة التي يمارسها الهوغونوتيون (البروتستانت الفرنسيون) على حاكمها. هكذا، كان الخيار الوحيد أمام الملكة الاسكتلندية التطلّع إلى إسبانيا كحليف وحيد لها للخروج من وضعها. في رسائلها للبابا بيوس الخامس وفيليب الثاني، قدّمت ماري ستيوارت نفسها بأنها الأكثر إخلاصاً بين الكاثوليك؛ وقدّمت نفسها في رسائلها لإليزابيت الأولى بأنها بروتستانتية معتدلة؛ وصديقة عند الحاجة في رسائلها إلى شارل التاسع.

كان البابا بيوس الخامس بحاجة إلى شخص يدير مؤامرته على إليزابيت المهرطقة، فاختار لهذه المهمة روبرتو ريدولفي. لقد تورّط هذا المصرفي الفلورنسي وعميل الحلف المقدس طيلة سنوات في تدبّر مكائد لملكتَي إنكلترا واسكتلندا. وكان ريدولفي قصير القامة بديناً، ومتحدثاً لبِقاً ومثقفاً، يُقيم علاقات هامة على جانبَي القناة الإنكليزية، وصديقاً لغويرو دو سبيز الذي شاطره ضرورة تقديم دعم سياسي واقتصادي لحزب كاثوليكي محتمَل في إنكلترا. وكرّس عميل الحلف المقدس والدبلوماسي الإسباني نفسيهما للمراسلات السرية والمشفَّرة أكثر من أي شيء آخر، ولعقد اجتماعات في أماكن مُظلمة ومنعزلة، ولأمور أخرى مماثلة.

تقضي الخطة التي صمّمها روبرتو ريدولفي ووافق عليها بيوس الخامس

بتنظيم تمرّد ضد إليزابيت في الداخل الإنكليزي بمساعدة عدد كبير من الجنود الإسبان الذين ينزلون في عدة أماكن من الشاطئ الإنكليزي. ويلتقي الجنود في لندن ويحررون ماري ستيوارت بمساعدة عملاء الحلف المقدس ورجال موالين لها بهدف تنصيبها ملكة على إنكلترا مكان إليزابيت المهرطقة.

كان فيليب الثاني يعرف أن الوقت قد حان لمحاولة تنفيذ هذه الخطة وإن لم تكن الظروف مؤاتية جداً. فإسبانيا لم تكن قد قمعت كلّياً بعد تمرّد موريسكو في غرانادا، وكانت في خضمّ مفاوضات لتعزيز قدرة العصبة المقدسة على محاربة الأتراك في المتوسط حيث تحصّنوا في جزيرة قبرص. ومن المحتمَل أن يكون الملك الإسباني قد صدّق الشائعات الواردة من لندن والتي تحدثت عن مؤامرة أرستوقراطية تُحاك ضد إليزابيت. فلوردات نورفوك ووستمورلند وأرونديل ونورثمبرلند يملكون دوافع لإنهاء حكمها.

فدوق نورفوك هو الأكثر إصراراً بين الأربعة على تنفيذ عمل ما للتخلص من الملكة الإنكليزية، وكان قد أُطلق سراحه من برج لندن منذ وقت قريب. وبالرغم من أن الدوق كان مراقَباً على نحو وثيق، فقد اعتبره جاسوس الحلف المقدس الفلورنسي والسفير الإسباني الخيار الأفضل لإدارة المؤامرة الكبرى. وأبدى دوق نورفوك اهتماماً كبيراً بماري ستيوارت، وأطلع ريدولفي على اعتقاده بأنه من الممكن لها في الواقع الجلوس على العرش الإنكليزي. وإذا أيّدت القوى الكاثوليكية، بمن فيهم بيوس الخامس، زواجه بماري، فسيكون باستطاعته إقناعها بإعادة نشر الدين الكاثوليكي في مختلف أنحاء البلد، وذلك في إطار المخطط العام لحركة الإصلاح الديني المضاد.

قبل الشروع بهذه المهمة، استشار فيليب الثاني دوق ألبا في 21 كانون الثاني/ يناير 1570. فاعتبر الجنرال الإسباني اللامع خوض المغامرة الإنكليزية عبر القناة خطأً فادحاً. ولكنه مع ذلك كتب للملك قائلاً:

إجابةً عما ورد في رسالة جلالتكم لي، أرى أن هناك ثلاث طرائق

لاجتياح مملكة إنكلترا: أولاً، تحالف جلالتكم مع ملك فرنسا؛ ثانياً، الاضطلاع بالمهمة بمفردكم؛ ثالثاً، الاستعانة ببعض الأتباع الأقوياء في اسكتلندا أو إنكلترا الذين يمكنهم إثارة تمرّد سرّي هناك وتمهيد الطريق لكم.

كان ريدولفي قد أنشأ شبكة حقيقية من الجواسيس امتدت من إدينبرغ إلى لندن، ومن غلاسغو إلى هولندا. وجرى الاتصال الأول للجاسوس البابوي بدوق نورفوك في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر أو أوائل كانون الأول/ديسمبر من العام 1570. وأراد الفلورنسي الحصول على تعهّد تام من دوق نورفوك بأنه ما إن تتوَّج ماري ستيوارت ملكة على إنكلترا ويتزوج الدوق بها يعتنق هذا الأخير الكاثوليكية ويأمر كل مواطني مملكته بالتمثّل به. أراد بيوس الخامس تعهّداً مكتوباً من دوق نورفوك قبل أن يمنحه بركته على العملية برمّتها. ولكن من شأن هذا التعهد أن يجعل الدوق سجيناً لبابا روما ولعملاء حلفه المقدس على حدٍّ سواء. فإذا وقّع على التعهد يكون قد انضم قلباً وقالباً إلى المؤامرة التي تحاك ضد إليزابيت. كان يعلم بأنه يراهن على رأسه.

تمثلت الخطوة الأولى للدوق بلعب دور الوسيط لنقل مبالغ ضخمة من المال لأتباع ماري ستيوارت الذين كانوا محتجَزين في قلعة دامبارتون. أدار ريدولفي العملية كأنه يمارس لعبة شطرنج. فوجّه رسائل إلى دوق ألبا، وفيليب الثاني، وأسقف روس، والبابا بيوس الخامس، وقام بنشاط سرّي في هولندا وإيطاليا وإسبانيا برفقة عدد من عملاء الحلف المقدس، بمن فيهم لامبرتو ماكي منفّذ حكم الإعدام بدارنلي.

شملت الخطة العسكرية توجُّه ما بين ستة آلاف وعشرة آلاف جندي من هولندا إلى البرّ الإنكليزي على أن يكون قسم كبير من الجنود بقيادة دوق ألبا. واعتبر السفير دو سبيز الخطة عملاً ممتازاً، ولكن الدوق الذي يمتلك خبرة أكبر في المسائل العسكرية رأى أموراً مختلفة؛ فبالنسبة إليه، ليس روبرتو ريدولفي

سوى إيطالي مولَع بالكلام. وبالرغم من رسالة تحذيرية أرسلها الجنرال المقتدر لملكه، قرر فيليب الثاني أن يأخذ معلومات عميل الحلف المقدس في الاعتبار، حتى إنه طرح أمام مجلسه إمكانية اغتيال إليزابيت ملكة إنكلترا. بهذا القرار، أصدر الحاكم في القرن السادس عشر ما يُعرف في القرن الحادي والعشرين بالأمر التنفيذي.

كانت المشكلة في تلك الأزمنة تكمن في مدى صعوبة تنفيذ ما يتم التخطيط له بسبب المسافات التي تفصل المتآمرين عن هدفهم وبطء تبادل الرسائل في ما بينهم. فبعد مدة من الزمن، بدأت الأجهزة السرية التابعة لإليزابيت تكتشف الخيوط الأولى لما دُعي مؤامرة ريدولفي. التقطت إليزابيت الإشارة التحذيرية الأولى في شهر أيار/مايو عندما أطلع دوق توسكاني الأكبر، وهو بروتستانتي، لندن على مؤامرة محتمَلة ضدها يقوم عميل فلورنسي شهير للحلف المقدس يدعى روبرتو ريدولفي بتنظيمها. في وقت لاحق، اكتشف عدد من العملاء الإنكليز صندوقاً صغيراً يحتوي على ستة آلاف جنيه إنكليزي كان دوق نورفوك قد أرسلها إلى ماري ستيوارت. كما اعتُقل عميل للحلف المقدس في دوفر في 11 نيسان/إبريل يحمل رسائل مشفَّرة، في حين تمّت مصادرة الوثائق التي تُورّط المتآمرين في اسكتلندا بعد سقوط دامبارتون.

صادرت ملكة نافار، جين دالبرت، رسائل أخرى وتقارير من مبعوث الدوق ألبا. كانت دالبرت تعيش في فرنسا بحماية العرش الفرنسي، وأُرسلت هذه الوثائق إلى إليزابيت. وفي آب/أغسطس 1571، حصل جهاز التجسس التابع لإليزابيت على أسماء كل المتآمرين إضافةً إلى المهام الموكَلة إلى كل منهم، وكانت الشبكة مكتملة تقريباً.

تجدر الإشارة إلى أن الملكة الإنكليزية كانت قد قامت بخطوة في آذار/مارس من العام نفسه باتجاه منح بعض الحرية الدينية، أم أنها حاولت القيام بذلك على أقل تقدير. فدعت البرلمان إلى الانعقاد لمناقشة الفكرة الثورية المتمثلة

بالحرية الدينية، والولاء للملكة فوق كل شيء. والمستند الذي قُدِّم للبرلمان يقول:

> تودّ جلالتها من رعاياها المُحبين أن يعوا أنهم ما داموا مستمرين بالتقيّد بقوانينها بشكل منفتح ولا يقومون بانتهاكها عن عَمد من خلال أعمال لم يتم البتّ فيها بعد، فإن أياً منهم لن يتعرض للمضايقة من قِبل أي محكمة تفتيش أو امتحان ضميره في قضايا دينية. فجلالتها مشمئزة جداً من اضطرارها إلى التصرف بخلاف طبيعتها الرحومة.

لكنها كانت بحاجة إلى موافقة البرلمان المعادي للكاثوليكية بشكل واضح لاتخاذ قرار نهائي. وأوضح المجلس موقفه للملكة من خلال مستند أرسله لها:

> هذه الحرية التي قد يعتبرها الناس تعددية دينية لا بد من أن تشكل خطراً على الكومنولث. إله واحد، ملك واحد، إيمان واحد، ولاء واحد هو ما يلائم مملكة واحدة وكومنولثاً واحداً. فالانقسامات تُضعف والتوافق يقوّي.

أعربت إليزابيت عن استيائها من ذلك الجواب، ولكن قراراً اتُخذ في هذا الشأن وكُبِّلت يدا الملكة.

إن اكتشاف مؤامرة ريدولفي وخطط الحلف المقدس للتخلص من إليزابيت الأولى وضع ماري ستيوارت في خطر داهم. وطُهيت إوزّة المتآمرين أخيراً من قِبَل القرصان جون هوكينز. كان هذا القرصان قد أعرب لروبرتو ريدولفي عن استعداده للقتال في صفوف فيليب الثاني وماري ستيوارت بوصفه قائداً للأسطول الإنكليزي الكاثوليكي. كان ذلك بالنسبة إلى ريدولفي نموذجاً مثالياً لفكرة دعائية مفادها أن متمرداً محلّياً على إليزابيت ظهر داخل إنكلترا. ما لم يكن يُدركه ريدولفي هو أن هوكينز كان يعمل في الواقع لصالح جهاز التجسس الإنكليزي بقيادة وليام سيسيل (لورد بيرغلي)، وهو الشخص المفضَّل لدى

الملكة.

قرأت إليزابيت الأولى تقرير جون هوكينز:

> أتظاهر بضم قوتي إلى قوة دوق ألبا في فلاندرز، وقوة دوق مدينا القادمة من إسبانيا، فنجتاح هذه المملكة ونتوّج ملكة الاستكتلنديين ملكة عليها... ولكن الله، كما آمل، سيُخزيهم وتنقلب مكائدهم عليهم. التوقيع: من بلايموث، اليوم الرابع من أيلول/سبتمبر 1571. الأكثر إخلاصاً لسيادتك، جون هوكينز.

في 7 أيلول/سبتمبر، اعتُقل دوق نورفوك، وتلاه أسقف روس في التاسع من الشهر نفسه، وسُجنت ماري ستيوارت نفسها في اليوم التالي في غرفة موحشة في قلعة شفيلد.

بعد إحالته إلى برج لندن، استمر دوق نورفوك بإنكار أي دور له في مؤامرة ريدولفي، حتى إنه أنكر أيضاً قيامه بنص الرسائل للجاسوس البابوي بيده. وبما أن الملكة منعت شخصياً تعرّض دوق نورفوك لأي تعذيب، ركز المحققون على أسقف روس بدلاً منه.

في أثناء تعرّضه للتعذيب، احتج الأسقف قائلاً إنه لا يحق لمعذّبيه لمس سفير بلد أجنبي (اسكتلندا). ولكن الأسقف كان بالنسبة إلى الإنكليز مجرد كاهن متآمر يرعى مصالح ملكته المخلوعة عن عرشها، ماري ستيوارت، ولا يتمتع بأي حصانة دبلوماسية. بعد اقتلاع أظافره، وتورُّم لحمه من شدة التعذيب، ولفح قدمَيه بلهيب النار، اعترف الأسقف بأن الملكة الاسكتلندية سمّمت لزوجها (فرانسيس الثاني ملك فرنسا)، وسمحت بقتل زوجها الثاني (اللورد هنري دارنلي)، وتزوّجت بالمحرّض على تلك المكيدة (اللورد بوثويل)، وحاولت أخيراً عقد قرانها بخائن (دوق نورفوك).

عندما أُطلعت ماري ستيوارت على محتوى إفادة أسقف روس إرادة رسولية، أعلنت أن "الأسقف ليس سوى رجل دين مروَّع ومعذَّب. أملك شجاعة ملكة

وأثق بأن أصدقائي في إسبانيا وفرنسا سيأتون لتحريري". أما فيليب الثاني الذي لم يكن يثق كثيراً بنجاح خطة ريدولفي، ودوق ألبا الذي كان أقل ثقة بنجاحها، فقررا ترك ماري ستيوارت والمتآمرين معها لمصيرهم. والتدبير الوحيد الذي اتخذه الإنكليز ضد إسبانيا هو طرد السفير الإسباني غويرو دو سبيز. وتم احتجاز دوق نورفوك وأروندیل وساوثمبتون وكوبهام ولوملي في برج لندن بانتظار محاكمتهم. في 16 كانون الثاني/يناير 1572، حكم مجلس اللوردات على دوق نورفوك بالإعدام، وهو حُكم كان يتطلب مصادقة إليزابيت عليه. كان والدها الملك هنري الثامن قد حكم بضرب عنق والد دوق نورفوك، دوق نورفوك الثالث، وها هي تواجه الأمر نفسه مع ابنه الدوق الرابع.

مرت أشهر من دون قيام الملكة بالتوقيع على حكم الإعدام. في 8 أيار/مايو 157، انعقد البرلمان مجدداً وفي برنامج عمله موضوع واحد: إعدام دوق نورفوك. وتلقت إليزابيت رسائلهم، وأمرت أخيراً في 1 حزيران/يونيو بحمل المستند إليها، وذيّلته بتوقيعها إليزابت أر. ومن ثم وضع حافظ الختم الأعظم بضع قطرات من الشمع عليه، وختمه بالختم الملكي.

في صباح 2 حزيران/يونيو، تمت مواكبة دوق نورفوك إلى الباحة الرئيسية للبرج. وبينما كان لا يزال واقفاً على قدمَيه، أقسم الولاء لملكته إليزابيت والإخلاص لإيمانه البروتستانتي الحق. وأعطى بعد ذلك قطعة نقود فضيّة لجلاّده تسلّمها هذا الأخير في قفّازه. وركع دوق نورفوك ويداه وراء ظهره، وفُصل رأسه عن جسده بضربة واحدة بالفأس. من جهته، تمكّن روبرتو ريدولفي من الفرار من إنكلترا على متن سفينة كان من المخطَّط لها أن ترسو في ميناء منعزل لنقله إلى فرنسا إذا فشلت المؤامرة.

قبل أسبوعين فقط، وبعد موت بيوس الخامس المتآمر في 1 أيار/مايو 1572، كان الكرادلة قد اختاروا في خلوتهم بابا جديداً: الكردينال هوغو بونكومباني الذي حظي بتأييد أساسي من قِبَل فيليب الثاني. كان بونكومباني ابن عائلة

ثرية في بولونيا حيث درس الحقوق. بعد تمضية فترة من الزمن في التدريس في إحدى الجامعات، استدعاه الكردينال باريزيو إلى روما، وشرع بمهنته في المحكمة الرومانية برعاية باريزيو. بالرغم من خلفيته القانونية وطبيعته المتحفظة، فهو لم يكن مستثنى من تأثيرات نمط الحياة في روما أيام النهضة الأوروبية.

كان البابا بيوس الرابع (25 كانون الأول/ديسمبر 1559-12 أيلول/سبتمبر 1) قد أرسل بونكومبانيي قاصداً رسولياً بابوياً إلى بلاط مدريد حيث أقام علاقات وطيدة مع الملك الإسباني حتى تم استدعاؤه مجدداً إلى روما بعد وفاة بيوس الرابع وجلوس بيوس الخامس على كرسيّ القديس بطرس، ولكن هذه المرة لتولي منصب أمين سر المذكرات البابوية (مستندات ورسائل أقل شأناً من البيانات الرسمية).

بعد وفاة بيوس الخامس، وبفضل دعم فيليب الثاني اللامشروط، انتُخب هوغو بونكومبانيي بابا في 13 أيار/مايو 1572 في أثناء اجتماع للكرادلة دام أقل من أربع وعشرين ساعة، وحمل اسم غريغوريوس الثالث عشر إكراماً للقديس غريغوريوس الكبير، وكان قد رُسم كردينالاً يوم ذكرى هذا القديس.

قام البابا الجديد بإصلاح الثالوثيين في إسبانيا والبرتغال، وصدّق على الإصلاح الذي طال الكرمليات الحُفاة والذي بدأ مع القديسة تيريزا الأفيلية، ووافق على تأسيس جماعة نشيد القديس فيليبو نيري. كما نظّم بمساعدة اليسوعيين أول قوة عسكرية تابعة للحلف المقدس، وهي جهاز التجسس البابوي الذي قام سلفه بتأسيسه. وكانت هذه القوة مؤلفة من مفرزة صغيرة من جنود الصَّدم اختارهم اليسوعيون الموالون لسلطة البابا، ومهمتها الوحيدة اغتيال الملكة إليزابيت، رأس الكنيسة الإنكليزية البروتستانتية.

لكن تمّ التخلي عن المساعي المبذولة للإطاحة بإليزابيت بمساعدة فيليب الثاني والإيرلنديين الكاثوليك، وذلك بعد فشل محاولتَي اجتياح ومؤامرة داخلية. ولكن الحلف المقدس لم يتراجع عن حملته للتخلص من الملكة المهرطقة.

كانت نتائج مؤامرة ريدولفي، والحِرم البابوي، والتمرد الشمالي، قد فرّقت شمل المواطنين الإنكليز الذين طالما كانوا أوفياء لملكتهم. وأدركت إليزابيت الأولى أن قيام اتحاد مع فرنسا سيكون وحده كفيلاً بوضع حد لمحاولات فيليب الثاني بالتدخل عسكرياً في إنكلترا. وكان شارل التاسع قد منح مزيداً من الحريات الدينية للبروتستانت، وتطوَّر السلام الأهلي مع الهوغونوتيين وترسّخ بعد مرسوم سان جيرمان أونلي الذي أصدره شارل التاسع وأقلق مدريد. فشارل التاسع كان يعلم أنه إذا تزوج بإليزابيت، يمكن للاثنين حينذاك مواجهة أي محاولة إسبانية للتدخل وأي عمل يُعدّه البابا غريغوريوس الثالث عشر.

فكّر الهوغونوتيون أيضاً بمسألة قيام تحالف إنكليزي-فرنسي لمواجهة دوق ألبا في هولندا. وبحثّ من غاسبار دو كولينيي، وهو الشخص المفضَّل لدى شارل التاسع، اتّبع ملك فرنسا مساراً تصالحياً حيال إليزابيت الأولى، ووقّعا معاهدة بلوا في 29 نيسان/إبريل 1572 لم يرد فيها ذكر تحرير ماري ستيوارت من الأسر أو إعادتها إلى عرش اسكتلندا أو حتى ذِكر اسمها، وذلك نزولاً عند إصرار إليزابيت. وعكّرت مسألة ماري ستيوارت صفو العلاقات بين لندن وباريس طيلة سنوات، وقد حان الوقت لتجد المؤامرات السياسية والخيانات مسرحاً جديداً لها بمشاركة البابا وعملاء حلفه المقدس. واقتضت الظروف الجديدة وجود جواسيس جدد.

في أثناء التفاوض حول المعاهدة الإنكليزية-الفرنسية، لم تغضّ إليزابيت الطرف عن إسبانيا أبداً ولا سيما بعد طرد سفيرها غويرو دو سبيز بسبب مشاركته في مؤامرة ريدولفي. وغدت شؤون التاج الإسباني في لندن بين يدَي سكرتير لا يتمتع بأي سلطات دبلوماسية هو أنطونيو دو غواراس الذي كان جهاز التجسس البابوي قد جنّده في نهاية العام 1572 للإبلاغ عن أي عمل تقوم به إليزابيت ليتمكن الحلف المقدس من دسّ عملاء آخرين له في الوسط الملكي. بعد مؤامرة ريدولفي، ألقت أجهزة التجسس الإنكليزية القبض على عشرات

العملاء البابويين وأعدمتهم، ولكن لامبرتو ماكي اليسوعي كان لا يزال ناشطاً في لندن.

كان التدبير الأول الذي اتخذته إليزابيت في شأن فيليب الثاني طرد مراكب قراصنة هولنديين من الموانئ الإنكليزية حيث وجدوا مأوى لهم ومؤن منذ العام 1566. ويعود أصل أسطول القراصنة هذا الذي عُرف باسم متسوّلي البحار إلى سفن تجارية فلمنكية-هولندية هربت من قوات ألبا وكانت تحصل على غنائم حرب قيّمة من خلال مهاجمة السفن الإسبانية. كانت أطقمها مؤلفة من قراصنة إنكليز واسكتلنديين، وإيرلنديين موالين لإليزابيت، لا بل أيضاً من هوغونوتيين فرنسيين. وكانوا كلهم يحملون رسائل من وليام أمير أورنج بوصفه أميراً يتمتع بالسيادة على أورنج في بروفانس يأذن لهم فيها بممارسة نشاطاتهم. وكانت هذه الرسائل مستندات يمكن بواسطتها لقوة محارِبة منح البحارة حق مهاجمة أي سفينة معادية والصعود على متنها.

بطرد الهولنديين المزعجين، تكون إليزابيت قد حققت هدفين: إرضاء الإسبان ووضع حد لتجارة التهريب التي يتولاها متسوّلو البحار. لكن نتيجة غير متوقَّعة قد ظهرت. فقد جاء في تقرير للحلف المقدس أن وليام دو لامارك، قائد متسوّلي البحار، كان بحاجة ماسّة إلى ميناء للتزوّد بالمؤن. وسيكون عليه مهاجمة قواتٍ إسبانيّة في هولندا للحصول على هذه المؤن إذا لم يتمكن من العثور على ميناء في إنكلترا أو فرنسا. عندها، أصدرت روما تعليمات لعملائها بدعوة رجال ألبا المتوارين عن الأنظار في بعض المدن الإنكليزية الساحلية إلى التنبّه إلى أي تحرّك للسفن الحربية.

في الواقع، وفي 1 نيسان/إبريل 1572، احتل متسوّلو البحار مدينة بريل ومیناءها القائم عند مصب نهر ماس في جزيرة فورن الهولندية. وجاء في تقرير للحلف المقدس أن قراصنة لامارك لن يبقوا هناك. وبعد أيام قليلة، رست السفن واحتلت مدينة فلاشينغ المحصَّنة في جزيرة فولكرن وتحكّموا بمصب نهر

شلدت، ورفعوا علم وليام أمير أورنج.

أبلغ عملاء الحلف المقدس دوق ألبا بأن موجة من الفرح عمّت إنكلترا البروتستانتية حيث بدأ الحديث عن سقوط محتمَل للنظام الإسباني في هولندا. وأدت هذه الموجة إلى تطوّع آلاف الجنود الإنكليز والهوغونوتيين الفرنسيين في وحدات انضمت إلى قراصنة لامارك في فلاشينغ. واستمرت الموجة بإثارة جماهير فلاندرز، وهولندا، وزيلند، وغيلدرز، وفريزيا ضد السلطات الإسبانية. كان لامبرتو ماكي اللامع قد أرسل تقريراً من لندن قال فيه إن وليام أمير أورنج ولويس دي ناسو كانا يطالبان إليزابيت باستمرار بأن تتولى إنكلترا قيادة حركة الاستقلال الهولندية تحت راية البروتستانت. وكتب ماكي للبابا قائلاً:

> إليزابيت أمام خيارين فقط: التزام الحياد أو التدخل في حرب مفتوحة ضد إسبانيا في القارة الأوروبية. هي تعلم أن هذا الأمر ينطوي على مجازفة كبيرة. فإذا نجح دوق ألبا في استعادة السيطرة على المدن المتمردة، فإن جيوشه لن تتوقف هناك، بل ستواصل تقدّمها نحو لندن ببركة الملك فيليب. لا يمكن لإليزابيت أن تضع نفسها في خطر مماثل، كما أنها غير مهتمة بالتخلص من النفوذ الإسباني في الجانب الآخر من القناة وبأن يصبح لوليام أمير أورنج جارٌ قويّ.

كان جاسوس الحلف المقدس يعلم أن رأي سيسيل المؤيد لسياسة الترقّب يكتسب مزيداً من الأهمية في البلاط بالرغم من أن ليشستر ووالسينغهام (الذي بات سفيراً في باريس) كانا مؤيّدَين للتدخل.

نصح غاسبار دو كولينيي الملك الفرنسي بقيادة البروتستانت والكاثوليك في حرب ضد إسبانيا بهدف توحيد مملكته وتعيين دوق آنجو نائباً للملك في هولندا. أُعجب شارل بصورة العظمة تلك. كان هناك اعتقاد سائد في أوروبا حتى أوائل حزيران/يونيو بأنه يجري الإعداد لتبدل كبير في التحالفات، وأن

البروتستانتية ستضع حداً لنفوذ إسبانيا في القارة الأوروبية. وكان حوالى خمسة عشر ألف إنكليزي قد قاتلوا بجانب متسوّلي البحار في معركة الاستيلاء على بروجز. وزاد هذا الأمر من توتر العلاقات بين إليزابيت الأولى وفيليب الثاني.

مع ذلك، سرعان ما تحولت هذه الانتصارات الأولى التي كللت المدافعين عن حركة الإصلاح الديني بالمجد إلى هزائم مُنكَرة تلتها مجازر قام بها المدافعون عن حركة الإصلاح المضاد. ففي أواسط حزيران/يونيو، صدّ الجيش الإسباني وليام أمير أورنج ودفعه إلى الوراء في اتجاه ألمانيا مكبّداً إياه خسائر جسيمة. واستسلمت مدينة مونز من دون أن تعرف أن الجنود الهوغونوتيين القادمين من فرنسا لنجدتها تمّت إبادتهم في كيفران. قاد هذه الحملة الجنرال دو جنليس، وهو أحد أنسباء كولينيي مستشار شارل التاسع. وفي كيفران، أمر ألبا جنوده بعدم أسر أحد.

بات وليام أمير أورنج الهدف الجديد للحلف المقدس، فأصدر غريغوريوس الثالث أمراً بالقضاء عليه ببركة فيليب الثاني. وفي غضون ذلك، أصبح الهوغونوتيون الفرنسيون الضحايا الجدد للهزيمة البروتستانتية في هولندا. وتفادياً للثأر الإسباني، كان شارل التاسع قد خطط لتزويج فرانسوا، دوق ألونسون، بإليزابيت، مدركاً أن فيليب الثاني لن يجرؤ في هذه الحالة على تعريض الاستقرار الهش للعلاقات الإسبانية-الإنكليزية للخطر من خلال مهاجمة فرنسا. وكان فرانسوا مستعداً لاعتناق الإيمان البروتستانتي إذا قرّبه ذلك من إليزابيت، وأرسل لهذه الغاية سفيره بونيفايس دولامول إلى لندن. ولم يكن السفير أو إليزابيت على عِلم بالمجازر التي كان يتعرض لها البروتستانت في باريس.

منذ الأسبوع الأول لشهر آب/أغسطس، كان شارل التاسع بين نارين. فمن جهة، كان مستشاره كولينيي مستمراً بالحث على شن حرب مفتوحة ضد فيليب الثاني، ومن جهة أخرى، كان الملك يتعرض لضغوط معاكسة من والدته،

كاترين دو مديتشي، ومن شقيقه هنري دو آنجو، والسفير الإسباني زونيغا، ومندوب البابا غريغوريوس الثالث عشر في البلاط. وكان الأمير هنري، وريث العرش الفرنسي والكاثوليكي المخلص، يعلم أن عليه التخلص من كولينيي لإنهاء رغبة شقيقه الشديدة في مهاجمة فيليب الثاني. وأدرك الوريث أنه يتعين عليه تجنّب تلطيخ يدَيه بالدماء، فاقترح بدلاً من ذلك أن يتولى المهمة رجل مُرسَل من قِبل القاصد الرسولي البابوي. من الواضح أن هذا الرجل كان عميلاً للحلف المقدس. وفي ليلة 22 آب/أغسطس، كان كولينيي يعبر شوارع باريس في عربة مفتوحة عندما اعترضت عربتان مقفلتان طريقه عند تقاطع طرقات، وقفز أربعة رجال منهما وحاولوا طعن المستشار الملكي بسيوفهم، ولكن تدخّلاً سريعاً من حراسه أجبرهم على الفرار. وأُصيب غاسبار دو كولينيي بجروح في وجهه وذراعه اليمنى. لقد اتضح أن شخصاً مقرَّباً جداً من الملك كان يريد موته.

كان الأمير هنري وكاترين دو مديتشي يعلمان أن باستطاعة كولينيي حث الهوغونوتيين في البلد ليثوروا على الملك، فأقنعاه بتجنيد ميليشيات في باريس. وفي ليلة 23-24 آب/أغسطس، أي ليلة ذكرى القديس برثولوميو، دخلت العاصمة في حمام دم وقُتل ما بين خمسة آلاف وعشرين ألف هوغونوتي في باريس في غضون يومين فقط، وفقاً لأحد المصادر. وأُطلق العنان للميليشيات التي اجتاحت منازل الهوغونوتيين، وقتلت الرجال، واغتصبت النساء، ونحرت الأطفال. بعد ذلك، رُميت الجثث في مُحرقات ضخمة.

سقط الأميرال غاسبار دو كولينيي في ذلك الأسبوع. فبعد محاولة الاغتيال، لجأ إلى قلعة العائلة في شاتييون عِلماً منه بأنه قد يتعرض للقتل في أي لحظة إن لم يستطع الاتصال بوليام أمير أورنج. في ليلة 26 آب/أغسطس، شق ثلاثة رجال طريقهم إلى غرفته حاملين خناجر وقتلوه بتسع طعنات. ويُقال إن كولينيي أُعدم من قِبل رجال الحلف المقدس.

في العواصم البروتستانتية، اعتبر الرأي العام أن ما بات يُدعى مجزرة ليلة

ذكرى القديس برثولوميو جاء نتيجةً لمكيدة تدبّرها فيليب الثاني، وكاترين دو مديتشي، ودوق ألبا، والبابا غريغوريوس الثالث عشر. والثابت أن جواسيس الحلف المقدس كانوا قد أمطروا روما طيلة أشهر بوابل من الرسائل تشير إلى عواقب محتمَلة للعنف الباريسي، بما في ذلك احتمال ارتكاب مجزرة بحق البروتستانت. ولم تُبلّغ روما أحداً بهذه التحذيرات؛ فبالرغم من كل شيء، كل مَن ماتوا في ذلك اليوم - المسنّون، النساء، والأطفال كذلك - هم هراطقة.

أرسل السفير الإنكليزي، والسينغهام، تقارير جوابية لا لُبس فيها: "أنا على ثقة بأن هذه المأساة ستتسبب بصدمة لكل المملكة". وكان الحرَس الذين أرسلهم شارل التاسع من قصره قد أمّنوا الحماية للدبلوماسي من الميليشيات، مما سمح له بإيواء إنكليز مثل والتر رالاي الذي صودف وجوده في باريس في ذلك اليوم الدموي. وللتخفيف من هَول المجزرة، لفّقت كاترين دو مديتشي رواية مفادها أن الملك واصل الدفاع عن موقفه أمام برلمانه في باريس وأن عملاء الحلف المقدس سينتشرون في مختلف أنحاء أوروبا: "وضع غاسبار دو كولينيي خطة لقتل الملك، وأشقائه، والعائلة الملكية. وأُعلمت الحكومة في الوقت المحدد - من قِبل جواسيس البابا على الأرجح - بفضل الرحمة الإلهية، وأُعدم الأميرال - كولينيي - وشركاؤه بأمر من الملك لتجنّب حدوث انقلاب دموي". وهكذا انتهت النقاشات الدائرة حول موت آلاف الأشخاص.

بقيت ماري ستيوارت ملكة لاسكتلندا، ولكن الدعم الذي كانت تلقاه تضاءل أكثر فأكثر. لقد وضعها تورطها في مؤامرة ريدولفي في موقف صعب إزاء إليزابيت. من جهتها، لم تعُد فرنسا تميل كثيراً إلى مساعدة ماري ستيوارت بسبب الانفراج الذي يتم التخطيط لحدوثه بين باريس ولندن. حتى إن زوجة شارل التاسع، آن النمساوية، طلبت من الملكة إليزابيت أن تكون عرّابة لابنتها التي كانت قد وُلدت للتوّ. وكان يتم الإقرار أكثر فأكثر بالأمير جيمس الفتى ملكاً قانونياً.

من لندن، أعلم ماكي غريغوريوس الثالث عشر بأن الإنكليز يُعدّون خطة ضد الاسكتلنديين الكاثوليك. وكانت إليزابيت قد أرسلت هنري كيليغرو إلى إدينبرغ بتعليمات محددة:

> من الواضح أن وجود ملكة اسكتلندا هو أمر خطر جداً لجلالته - جيمس - وللملكة لدرجة أنه بات من الضروري التحرر منها. وبالرغم من أنه باستطاعة العدالة إتمام الأمر هنا، يبدو أنه من الأفضل إرسالها إلى اسكتلندا، لأسباب متنوعة، ووضعها بتصرف الوصيّ على العرش - مورتون - لتتم محاكمتها بحيث لا تُعرّض أحداً للخطر.

يُظهر هذا النص بوضوح مصلحة إليزابيت بإرسال ماري ستيوارت إلى حتفها. ولكن مورتون شرح لمبعوث من لندن أنهم إذا أرادوا حقاً مساعدة اسكتلندا، فإن كل ما عليهم القيام به هو مساعدة هذا البلد على التخلص من الشوكة الكاثوليكية المغروسة في خاصرة اسكتلندا البروتستانتية: كانت قلعة إدينبرغ لا تزال بأيدي مؤيدي ماري. وبالنسبة إلى الإنكليز، إن الاعتراف بجيمس السادس ملكاً لا علاقة له بالتدخل العلني في اسكتلندا.

كان شارل التاسع منهمكاً بلاروشيل، وفيليب الثاني بمعركة هولندا، لذلك كانت إليزابيت واثقة من أن أياً من الاثنين لن يهبّ لمساعدة ماري. أخيراً، عبر جيش إنكليزي الحدود الاسكتلندية في 17 نيسان/إبريل 1573. كان لامبرتو ماكي قد وجّه رسالة طارئة إلى روما قال فيها إن عدداً ضخماً من الرجال يتجمّعون هناك ومعهم قطع المدفعية. ووصل تقريره إلى روما في 28 نيسان/إبريل متأخراً جداً. ففي صباح 17 أيار/مايو، بدأ قصف قلعة إدينبرغ. وبعد اثني عشر يوماً، استسلمت القوات المحاصَرة.

كانت الأيام العشرة التالية فترة غير مستقرة في مختلف أنحاء أوروبا التي كانت لا تزال تحت تأثيرات مؤامرة ريدولفي، ومجزرة ليلة ذكرى القديس

برثولوميو، والهجوم الإنكليزي في إدينبرغ. وواصلت فرنسا وأسبانيا وروما العمل بسياساتها الماضية. ووجّه أربعة حكام - إليزابيت الأولى ملكة إنكلترا، فيليب الثاني ملك إسبانيا، غريغوريوس الثالث عشر بابا روما، وهنري الثالث (الذي أصبح ملك فرنسا بعد وفاة شقيقه شارل عام 1574) - السياسات المتّبَعة حتى نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر.

في نهاية العام 1573، قام فيليب باستبدال دوق ألبا بلويس دو ريكسن كحاكم وقائد في هولندا، ولكن ريكسن توفّي عام 1576 بعد تولّيه السلطة لمدة عامين. وأرسل الملك بعد ذلك دون جوان من النمسا حتى وفاته عام 1578، وخلفه مستشاره أليساندرو فارنيزي، دوق بارما، الأهل للثقة والذي يليه في المرتبة.

انطلاقاً من قاعدتهم في فلاشينغ، واصل متسوّلو البحار الموالون لوليام أمير أورنج معاقبة الأساطيل المبحرة عبر القناة الإنكليزية. حتى ذلك الحين، كانت إليزابيت قد هددت وليام بأنها ستتحالف مع إسبانيا لمعاقبة المتسوّلين إذا استمروا في الصعود على متن السفن الإنكليزية. وفي العام 1578، وبسبب الضغوط التي مارستها الجيوش الإسبانية، قدّم وليام أمير أورنج المناطق المحرَّرة من هولندا لإليزابيت، ولكنها كانت تعلم أن قبولها قد يهدد التحالف الهش بين لندن وإسبانيا.

من جهة ثانية، كانت وفاة أغناطيوس دو لويولا في 31 تموز/يوليو 1556 قد تركت اليسوعيين بأعضاء رهبنتهم الخمسة آلاف تقريباً المنتشرين في مختلف أنحاء العالم من دون قيادة. وفي العام 1581، تم اختيار الإيطالي كلوديو أكوافيفا البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً رئيساً عاماً للرهبنة، وكان هذا الحدث بداية ما يُدعى بالعصر الذهبي لليسوعيين. فشكّل أكوافيفا وغريغوريوس الثالث عشر إحدى أفضل الشراكات على مدى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية.

أدرك اليسوعيون المكانة الاستراتيجية لإيرلندا الكاثوليكية في أي محاولة جدّية

لإعادة السيطرة على إنكلترا البروتستانتية بوسائل عسكرية. وكان البابا مقتنعاً بأن دعم جيمس فيتزموريس، ابن شقيق إيرل ديزموند، سيدفع بالقضية الكاثوليكية قدُماً في الجزر البريطانية. وتمثلت فكرة اليسوعيين بتنظيم بعثة عسكرية إلى مونستر حيث يعتقد فيتزموريس أن بإمكانه قيادة تمرد ضد إليزابيت.

لتنفيذ هذه الخطة، اختار اليسوعيون وعملاء الحلف المقدس توماس ستوكلي، وهو قرصان شرير سابق ادّعى أنه الابن غير الشرعي لهنري الثامن. وستوكلي الذي يعرفه جهاز التجسس الإنكليزي جيداً كان قد أصبح مدافعاً أكبر عن الكاثوليكية، ونصّب نفسه في مدريد حيث أطلق عليه فيليب الثاني لقب مركيز إيرلندا. في سياق بحثه الدائم عن المغامرات ودرجات الشرف، وقبل المغادرة إلى إيرلندا، قرر ستوكلي الانضمام إلى سباستيان ملك البرتغال في حملة صليبية خرقاء ضد المغرب. في 1 آب/أغسطس 1578، فُصل رأسه عن جسده في معركة القصر الكبير. كان الحلف المقدس بحاجة إلى قائد جديد للتمرد الإيرلندي.

بات فيتزموريس مجدداً على رأس المغامرة. كان غريغوريوس الثالث عشر مستعداً لتمويل العملية ومباركتها، ولكنه قرر أن يقوم عضو من الحلف المقدس بمرافقة فيتزموريس. هذه المرة، وقع الاختيار على كاهن إنكليزي يدعى نيكولاس ساندرز الذي اشتهر في أثناء حكم إليزابيت بتوزيع نشرات تدين الهرطقة الأنكليكانية.

في 27 حزيران/يونيو 1579، أبحر فيتزموريس ونيكولاس ساندرز إلى إيرلندا من إل فيرول تحت راية البابا. كان طاقمهما مؤلفاً من خمسين رجلاً، معظمهم إيطاليون وإسبان. في 17 تموز/يوليو، رسوا في شبه جزيرة سمرويك حيث أقاموا معسكراً بانتظار التعزيزات من إسبانيا. وسرعان ما بدأت تقع الخسائر إذ سقط جيمس فيتزموريس بنيران الجنود الإنكليز وحل مكانه إيرل ديزموند الذي كان

قد عاد إلى إيرلندا بعد تمضية فترة في السجن في برج لندن. وبعد أسابيع قليلة، حدث تمرّد في مونستر ضد الإنكليز.

في غضون ذلك، طاف نيكولاس ساندرز في كل كنائس إيرلندا داعياً إلى تمرّد الإيرلنديين على الملكة المهرطقة وبيده نص الحِرم الكنسي المتعلق بإليزابيت. ولجأ البروتستانت إلى دابلين وكورك، وتولى دوق يرلإيرل أورموند مهمة قيادة الجنود الإيرلنديين الموالين لإنكلترا. أخيراً، أرسلت إسبانيا قوات دعم في أيلول/ سبتمبر 1580، ولكن إليزابيت أرسلت في اليوم الذي سبق وصول القوات الإسبانية تعزيزات إنكليزية وأسطولاً بحرياً كبيراً لقمع التمرد. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، حوصر موقع المتمردين الحصين بحراً وبراً.

بعد عدة أيام من المفاوضات، طلب القائد الإسباني من اللورد غراي من ويلتون، رئيس القوات الإنكليزية، وضع شروط الاستسلام. وكان ويلتون يحمل أوامر من إليزابيت نفسها باستسلام كل المتمردين وسحقهم.

في 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1580، فُتحت بوابات الحصن لدخول القوات الإنكليزية والقوات الإيرلندية الموالية لإليزابيت. فأُعدم أكثر من خمسين رجلاً على الفور ومنهم مدنيون إيرلنديون كاثوليك - رجال، نساء، وأطفال - احتموا داخل الحصن. وتم الإعفاء عن ثلاثين ضابطاً إسبانياً، وسُمح لهم بالعودة إلى إسبانيا بعد دفع فدية كبيرة. وعُذِّب إنكليزي كاثوليكي وإيرلنديان كانوا قد قدموا من إسبانيا مع فيتزموريس، وأُعدموا.

ونيكولاس ساندرز الذي لم يكن داخل الحصن أصبح عميلاً سرّياً للحلف المقدس في إيرلندا حتى عام 1581 عندما مات من البَرد والجوع.

بعد عملية مونستر التي قام بها الحلف المقدس، قدّمت إليزابيت الأولى ملكة إنكلترا احتجاجاً للسفير الإسباني. اتهمت الإسبان وملكهم بارتكاب عمل عدائي عندما رست قواتهم على أرض تخضع للسيادة الإنكليزية. فأجاب الدبلوماسي الإسباني بأن لا علاقة لإسبانيا بالمغامرة التي خطط لها البابا غريغوريوس الثالث

عشر وموّلها.

كان الشرح الرسمي للبلاط في مدريد أنه "يحق للسفن والقوات البابوية عبور الأراضي والموانئ التابعة لملك إسبانيا بحرية تامة، وهو أمير كاثوليكي مدافع عن الإيمان". فهددت إليزابيت بإرسال قوات إنكليزية إلى هولندا رداً على ذلك. وأجاب السفير مندوزا بقليل من الدبلوماسية:

> لمصلحتك الخاصة، يجب عليك أن تعرفي أنه إذا قرر ملك إسبانيا خوض حرب ضدك، سيقوم بذلك بقوة كبيرة لدرجة أنك لن تجدي الوقت للتنفس قبل تلقّي الضربة.

حمل الإخفاق الإيرلندي غريغوريوس الثالث عشر على تحويل أنظاره إلى القضية الاسكتلندية التي لم يُتخذ قرار في شأنها بعد. وقامت إليزابيت وفيليب الثاني بالأمر نفسه.

في السنوات السبع التي تلت سقوط قلعة إدينبرغ، فقدت ماري ستيوارت كل نفوذها. وبفضل وصاية مورتون على العرش، تمكّن البروتستانت والملكة إليزابيت من التحكم بزمام الأمور بالقدر الكافي في اسكتلندا بينما كان جيمس السادس المراهق ينمو ويكبر ليغدو ملكاً جيداً. مع ذلك، كانت السحب العاصفة تتجمّع فوق اسكتلندا التي كانت كبيدق ديني في لعبة شطرنج.

كان جيمس السادس قد دخل إدينبرغ دخول الفاتحين في 17 تشرين الأول/ أكتوبر 1578، وأثارت هتافات الجماهير مَيله إلى السلطة. كان الملك الشاب ذكياً ويعي مسؤولياته، كما أدرك حاجته إلى مستشار يساعده على اجتياز حقل ألغام تكتيكات السياسة الاسكتلندية. فاختار نسيباً فرنسياً لجهة والدته هو إسميه ستيوارت، سيد دوبيني، المتحدر من الاسكتلنديين الذين أقاموا في منطقة بيري الفرنسية في أثناء حرب المئة عام.

كان إسميه دوبيني كاثوليكياً مخلصاً أقسم الولاء للبابا غريغوريوس الثالث عشر. وسرعان ما غدا عميلاً للحلف المقدس يتمتع بحرّية التصرف إلى حدٍّ ما في

اسكتلندا. من منصبه الذي منحه امتيازاً أفضل من الامتياز الذي حظي به دافيد ريزيو مع ماري ستيوارت، كان باستطاعته إقناع الملك الشاب باعتناق اسكتلندا الإيمان الكاثوليكي؛ أو أقلّه هكذا كان الاعتقاد السائد في روما. فبالرغم من كل شيء، تمكن ريزيو من تدبّر شؤون غرفة نوم الملكة، في حين أن دوبينيي تمكّن من تدبّر الشؤون السياسية للملك.

وصل الفرنسي إلى البلاط الاسكتلندي في العام 1579، واعتنق بعد عام البروتستانتية كي لا يلفت أنظار أفراد الحاشية التابعة لجيمس. وجعله جيمس إيرلاً ومن ثم دوقاً للينوكس. وكان يرى في نسيبه أيضاً وريثاً محتمَلاً للعرش.

كان ملوك أوروبيون ومستشاروهم يتساءلون عن سبب اهتمام إسميه دوبينيي الكبير باسكتلندا وجيمس السادس. وظن وليام أمير أورنج أن دوبينيي فرنسي يُستخدم لتحقيق مآرب معيّنة. وظنت إليزابيت أنه عميل لغريغوريوس الثالث عشر واليسوعيين. ولكنه كان في الحقيقة مجرد رجل يبحث عن النجاح؛ فباستطاعته أن يكون الكاثوليكي المثالي للبابا وفيليب الثاني، والبروتستانتي المخلص لإليزابيت الأولى وجيمس السادس.

بعد التشاور مع الحلف المقدس، أدرك إسميه دوبينيي أن عليه التخلص من الوصيّ على العرش، إيرل مورتون المقتدر، إذا أراد أن يصبح ذات يوم ملكاً لاسكتلندا. في 31 كانون الأول/ديسمبر 1580، أوقف حرَس خاصون مورتون بينما كان يهمّ بدخول مقر الإقامة الملكي بتهمة مشاركته باغتيال هنري دارنلي قبل أربعة عشر عاماً. ووجد الوصيّ السابق على العرش نفسه في زنزانة مظلمة في قلعة إدينبرغ بانتظار محاكمته.

لدى تلقّيها هذه الأخبار، قررت إليزابيت إرسال سفيرها توماس راندولف للمطالبة بإطلاق سراح مورتون على الفور. وقيل للملكة الإنكليزية إن جيمس السادس ودوبينيي يتم التلاعب بهما من خلال مؤامرة بابوية جديدة؛ وكان ذلك أمراً صحيحاً.

ووالسينغهام الذي لم يكن وزيراً للخارجية فحسب بل رئيس جهاز التجسس، قدّم بعد ذلك النُصح للملكة بالقيام بأحد الأمرين: إرسال أسطول من السفن الحربية إلى الساحل الاسكتلندي لممارسة الترهيب على جيمس السادس لإطلاق سراح مورتون، أو إصدار أمر باغتيال دوبيني. فاختارت إليزابيت الخيار الثاني على ألا يجري قتل عميل الحلف المقدس بحضور الملك.

في ليلة من ليالي آذار/مارس 1581، قام أربعة رجال أرسلهم والسينغهام باعتراض طريق إسميه دوبيني، دوق لينوكس، الماهر في استخدام السيف. فقتل الفرنسي المهاجم الأول بضربة واحدة، في حين أُصيب بجرح طفيف في إحدى ذراعيه بعد إصابته بطلق ناري من مسدس عميل إنكليزي آخر. وباقتراب الحراس، فرّ جواسيس والسينغهام وفشل الهجوم، ولكن لم يكن باستطاعة دوبيني أن يغضّ الطرف عما جرى. ولتفادي هجوم ثانٍ، أصدر المستشار المقتدر أمراً بإعدام مورتون الذي جرى في 2 حزيران/يونيو من ذلك العام.

في غضون ذلك، كان يُحاك شرَك آخر لجيمس السادس وإسميه دوبيني وإليزابيت الأولى في ما بات يُعرف بمؤامرة ثروكمورتن، والمتآمرون كثُر: فيليب الثاني، هنري الثالث، غريغوريوس الثالث عشر، وماري ستيوارت. وكان الهدف نفسه كالعادة: خلع إليزابيت المهرطقة واستبدالها بماري.

في الأشهر الأولى من العام 1583، قام توماس مورغان، مساعد سفير ماري إلى فرنسا آنذاك، بتجنيد إنكليزي كاثوليكي في الثامنة والعشرين من عمره يدعى فرانسيس ثروكمورتن. وكان هذا الأخير مؤيّداً للبابا ومُحباً لتدبّر المكائد. فبعد إرساله إلى إنكلترا، شرع بجمع أكبر قدر من المعلومات عن الدفاعات الإنكليزية؛ خطوط الساحل، الحصون، نقاط الرسوّ الممكنة، وغيرها. وكانت صلتاه الرئيسيّتان بالقارة الأوروبية هما تشارلز باغيت - وهو عضو آخر في الحلف المقدس في لندن كثيراً ما كان يسافر إلى باريس مع رسائل مشفَّرة - والسفير

الفرنسي إلى بلاط إليزابيت، ميشال دو كاستلنو دو موفيسيير. ووُجهت رسائل ثروكمورتن أيضاً إلى السفارتين الإسبانية والفرنسية في لندن، وإلى السفارة الإسبانية في باريس. وقام السفير الإسباني في إنكلترا، مندوزا، ونظيره في فرنسا، خوان باوتيستا دو تاكسي، بإعلام فيليب الثاني بالتقدم الحاصل على صعيد المؤامرة التي لم يكونا واثقين تماماً من المشاركة فيها أم لا.

في ربيع العام 1583، كان أمام والسينغهام جزء كبير من هذه الخطة، بما في ذلك أسماء المتآمرين والجواسيس المنتمين إلى الحلف المقدس. ولم يكن ثروكمورتن يدرك مدى التغلغل الإنكليزي في البعثة الفرنسية في لندن. فمنذ مطلع العام، كان لوالسينغهام جاسوس داخل السفارة الفرنسية يُعرف باسم فاغو. وبعد عدة سنوات، تم الكشف عن أن فاغو لم يكن سوى الفيلسوف الإيطالي الشهير جيوردانو برونو كما يشير المؤرّخ جون بوسي في كتابه الرائع جيوردانو برونو وقضية السفارة. وكان من المعتقَد حتى وقت قريب أن الخائن الحقيقي الذي أحبط مؤامرة ثروكمورتن هو مساعد السفير جان أرنو، سيّد شيريل.

بفضل المعلومات التي قام برونو بتزويد والسينغهام بها، اعتُقل ثروكمورتن في 12 تشرين الأول/أكتوبر. وقبل احتجازه، تمكن موظف في السفارة الإسبانية من إخفاء بعض الأوراق الهامة التي تُورّط دبلوماسيين إسبان والملك الإسباني بشكل مباشَر. أُعدم جاسوس الحلف المقدس فرانسيس ثروكمورتن في 10 تموز/يوليو 158. وواصل جيوردانو برونو - أو بالأحرى فاغو - عمله كجاسوس إنكليزي حتى العام 1586 عندما توقف عن العيش في السفارة الفرنسية في لندن.

كانت كل المكائد المدبَّرة في مدريد وروما مُعَدّة لرفع حدة التوتر في اسكتلندا. وكانت الفكرة الأصلية إنشاء قوة عسكرية كاثوليكية تقوم بأسر جيمس السادس بعد النزول إلى البَرّ الاسكتلندي ونقله إلى فرنسا حيث يعتنق الكاثوليكية بالإكراه أو بطيب خاطر. وفي العملية نفسها، يقوم أفراد من الحلف

المقدس بتحرير ماري ستيوارت المسجونة بمساعدة إنكليز كاثوليك ويعيدونها إلى العرش.

كان اليسوعيون كريشتون، وهولت، وإدموند كامبيون، وروبرت بارسنز، عملاء البابا. وكريشتون الأكثر ولاءً للقائد اليسوعي كلوديو أكوافيفا منه للبابا غريغوريوس الثالث عشر أصبح أسطورة حقيقية في الحلف المقدس حتى تاريخ اعتقاله في 3 أيلول/سبتمبر عام 1584. كان كامبيون على مستوى عالٍ من الثقافة، متحدثاً لبِقاً، ودبلوماسياً، وبارسنز كان مقاتلاً يجيد استخدام السيف بمهارة ويتكلم بحماسة.

كان من المفترض بهؤلاء السفر إلى إدينبرغ والاتصال بلوردات يدعمون قضية ماري، على أن يتولى فيليب الثاني والبابا مهمة تمويل العملية. ووضع هنري الثالث الذي كان قد عيّن نفسه قائداً للعملية الخطة العسكرية بالتفصيل. فنشر على خارطة لاسكتلندا عملات معدنية صغيرة ترمز إلى عشرين ألف جندي، وهو عدد غير واقعي للمنطقة. وخططت ماري ستيوارت لإرسال ابنها جيمس السادس المخلوع عن عرشه إلى إسبانيا بحماية فيليب الثاني بهدف اعتناق الكاثوليكية.

لتجنّب مواجهة هذا الاحتمال، قام والسينغهام بالإعداد لعملية مضادة. ففي آب/أغسطس 1582، أمر إيرل غوري، وهو عدوّ دوبيني، باعتقال جيمس السادس واحتجازه في قلعة روثفن حتى يتسلم البروتستانت الحكم في إدينبرغ بشكل آمن.

بعد أسبوع من اعتقال الملك، فرّ إسميه دوبيني، دوق لينوكس، من اسكتلندا ولجأ إلى فرنسا. وتمكن عملاء والسينغهام من إلقاء القبض على الكاهن اليسوعي هولت. وبعد اعترافه تحت التعذيب بمشاركته والحلف المقدس في المؤامرة، شُنق من دون محاكمة. وفرّ الأب كريشتون إلى روما، في حين فرّ الأب بارسنز إلى فرنسا حيث استمر في العمل لصالح الحلف المقدس. وفرّ الأب

كامبيون أيضاً من اسكتلندا، ولكن أُلقي القبض عليه في إنكلترا بعد فترة قصيرة. وتعرّض للتعذيب بعد سجنه في البُرج، وأُعدم في تايبرن في 1 كانون الأول/ ديسمبر.

في العام 1583، استمر صدى المسألة الاسكتلندية في التردد في الحياة السياسية في أوروبا في أواخر القرن السادس عشر. وفي 29 حزيران/يونيو من ذلك العام، أُعيد جيمس إلى عرش اسكتلندا. ومذاك الحين، وبعد معرفته بأن والدته ماري ستيوارت شاركت في المؤامرة لخلعه عن العرش، قرر قطع كل علاقة بها. وهكذا، باتت اسكتلندا بشخص ابن ماري الوحيد، وبنظر إنكلترا، متخاصمة رسمياً مع ملكتها السابقة.

كان غريغوريوس الثالث عشر بصحته الضعيفة وأعوامه الثلاثة والثمانين لا يزال يملك النشاط لتوجيه ضربة قاسية: لقد أمر الحلف المقدس باغتيال وليام أمير أورنج. وكان الأمير البروتستانتي قد نجا من محاولة لاغتياله قبل عامين فقط. ففي أوروبا في أواخر القرن السادس عشر، كان الاغتيال السياسي القاعدة أكثر منه الاستثناء.

لإتمام هذه العملية، لجأ البابا مجدداً إلى الأب كريشتون المقيم في روما بعد نجاحه بالفرار من اسكتلندا. كان القائد الهولندي وملكة إنكلترا البروتستانتية يستحقان الموت باسم الإيمان الحقيقي. ووصل كريشتون إلى هولندا في نيسان/ إبريل من العام 1584 وأقام على الفور علاقات وطيدة مع بالتازار جيرار وغاسبار دو ألبريتش، وهما كاثوليكيان متعصبان من بورغوندي مستعدّان لإنهاء حياة البطل البروتستانتي وإن في مهمة انتحارية.

حصلا على فرصتهما في 10 تموز/يوليو 1584 في مدينة دِلفت. ففي صباح ذلك اليوم، كان وليام أمير أورنج وبعض أفراد حاشيته قد قدموا إلى الساحة الرئيسية للمدينة لالتقاء السلطات المحلية. وكان باستطاعة الهولندي تفادي هجوم ألبريتش ولكن ليس هجوم جيرار. فلبست الأقاليم المتحدة ثوب الحداد على

موت قائدها لأن الأمّة الجديدة لهولندا، وبالرغم من أنه لم يكن مقدَّراً لحربها مع إسبانيا أن تضع أوزارها في وقت قريب، كانت قد بدأت تلعب دوراً في أوروبا التي دمّرتها الحروب والنزاعات الدينية.

في صباح 6 أيلول/سبتمبر 1584، هاجمت مراكب قراصنة هولنديين سفينة تعبر بحر الشمال ولم تكن ترفع علَماً. وبعد قتل عدد من أفراد طاقمها واستسلام البقية، فتّش القراصنة الهولنديون السفينة ووجدوا رجلاً رفض التعريف بنفسه. لقد كان كريشتون، الكاهن اليسوعي. فبعد عملية اغتيال الملك، كان قد تمكّن من الفرار من أي عقاب بروتستانتي. وسلّمه القراصنة إلى السلطات الإنكليزية التي سجنته في برج لندن تنفيذاً لأوامر والسينغهام بانتظار استجوابه.

سلّم الهولنديون أيضاً وثائق مثيرة للشبهات كان كريشتون قد رمى بها إلى البحر، ولكن المهاجمين تمكنوا من استعادتها. وأثبتت هذه الأوراق التي باتت في عهدة والسينغهام الرغبة المعتادة في اجتياح إنكلترا بواسطة الجيش الكاثوليكي الضخم، وتحرير ماري ستيوارت، وتنصيبها ملكة بدلاً من إليزابيت المهرطقة.

كان في عهدة اليسوعيين أيضاً رسالة من الكردينال غالي، أسقف كومو ووزير خارجية الفاتيكان، موجَّهة إلى كريشتون، وجاء فيها:

> بما أن هذه المرأة مذنبة بالتسبب بكل هذا الأذى للإيمان الكاثوليكي وفقدان الملايين أرواحهم، مما لا شك فيه أن إزالتها من هذا العالم من منطلق التديّن وخدمة الله هو عمل بعيد عن كونه خطيئة لا بل يستحق من قام به ثناءً أبدياً.

انعقد البرلمان التالي في 3 تشرين الثاني/نوفمبر 1584. وأشار العديد من النواب إلى ما يدعى القانون المتمِّم ضد اليسوعيين، والكهنة، والأشخاص المماثلين لهم والعاصين الذي نُشر في العام 1559 ويأمر هؤلاء الأشخاص بمغادرة الأرض

الإنكليزية في غضون أربعين يوماً وإلا أُنزلت بهم عقوبة الموت. وهاجم وليام باري، وهو عضو معروف بتعاطفه مع الإيمان الكاثوليكي، نص القانون وأولئك الذين أرادوا وضعه موضع التنفيذ، مجادلاً أن في إنكلترا العديد من الكاثوليك الراغبين في الموت في سبيل الملكة إليزابيت. وكان عدد قليل من المستمعين يعلمون بأن باري كان قد عمل لصالح أجهزة التجسس الإنكليزية في أوروبا. ولم يكونوا يعرفون أيضاً أن أعضاء في البرلمان كانوا قد خططوا لاغتيال إليزابيت الأولى قبل أربع سنوات، ولكن باري استبعد تلك الخطة في اللحظة الأخيرة لأسباب ضميرية.

في نهاية الجلسة، أُوقف وليام باري بتهمة الخيانة، وتم اصطحابه إلى البرج. وطلبت الملكة إطلاق سراحه، فنجا بنفسه ولكن ليس لمدة طويلة.

فمنذ لحظة إطلاق سراحه، شرع باري بوضع خطة معقّدة لقتل الملكة. وقرر إدموند نيفيل، إيرل وستمورلند، أحد المشاركين في الخطة الجديدة التخلّي عن الأمر وإخبار والسينغهام. ووقعت الأخبار على مسامع أفراد البلاط كوقوع الصاعقة، لا سيما وأن اغتيال وليام أمير أورنج كان لا يزال ماثلاً في أذهانهم. وظهر وليام باري بمظهر المتآمر الكاثوليكي الذي ينفّذ مآرب البابا غريغوريوس والحلف المقدس.

تمثلت الخطة التي وضعها توماس مورغان، أحد المؤتمنين المخلصين على أسرار ماري ستيوارت، بإطلاق النار على العربة الملَكية في أثناء الاحتفالات بالعام الجديد. وفي أثناء استجواب باري، ظهرت الصلات باللاجئين الاسكتلنديين الكاثوليك في فرنسا الذين يحظون بحماية هنري الثالث الكاثوليكي. كانت محاكمة وليام باري سريعة على غرار إعدامه في 2 آذار/مارس 1585. وأُحيل توماس مورغان إلى الباستيل بسبب دوره في المؤامرة، وأُفرج عنه بعد أربعة أشهر. وأُطلق سراح إدموند نيفيل من دون توجيه أي تُهم إليه، ولكن طُلب منه مغادرة إنكلترا، وتوفّي في روما عام 1619 بينما كان يحظى بحماية البابا بولس

الخامس.

في 24 نيسان/إبريل 1585، اختار الكرادلة بعد خلوتهم زميلهم الفرانسيسكاني فليكس بيريتي حَبراً أعظم جديداً، وذلك بعد أسبوعين من وفات غريغوريوس الثالث عشر. وبيريتي الذي اتخذ اسم سِكستس الخامس كان على صلة وثيقة ببيوس الخامس بفضل مَن غدا مستشاراً لمجمع محاكم التفتيش. وحظي انتخابه بابا بتأييد فيليب الثاني.

وسكستس هو البابا الذي أقام أوثق الصلات مع اليسوعيين واستخدمهم كقوة صدم حيثما أُرسلوا للدفاع عن الإيمان، وأياً تكن المهمة التي أُرسلوا من أجلها. ودعم كلّياً عملية استخدامهم كقوة عسكرية بالرغم من عدم موافقته على وجهات نظرهم اللاهوتية.

كان كلوديو أكوافيفا يعلم أنه يتعيّن على سكستس الخامس التراجع عن بعض المسائل اللاهوتية إذا أراد الاستمرار باستخدام اليسوعيين كجنود صدم لمهام خاصة. من جهته، كان سكستس مدركاً أنه لو استمر في الضغط على الرهبنة، فإن أكوافيفا سيشنّ هجوماً مضاداً طالباً من أفراد الرهبنة إعادة النظر في مسألة الامتثال لسلطة البابا وفي وجهات نظره. فأرسل البابا إشارة تحذيرية إلى الرئيس العام لليسوعيين عندما أمر في العام 1590 بتغيير اسم الرهبنة من الرهبنة اليسوعية إلى رهبنة إغناسيو. بالنسبة إلى سكستس الخامس، إن استخدام اليسوعيين اسم يسوع هو أمر مهين إلى حدٍّ ما. وكان الأمر كذلك بالنسبة إلى العديد من كرادلة تلك الحقبة من الزمن الذين عارضوا اضطرارهم إلى رفع قبعاتهم أو إحناء رؤوسهم كلما ذُكر اسم الرهبنة بما أنه يتضمّن اسم يسوع. وبالرغم من القرار البابوي، لم يتبنَّ أي رئيس عام يسوعي أو جمعية يسوعية اسماً جديداً.

في ربيع العام 1586، بدأت ما تُدعى مؤامرة بابينغتون، وهدفها إعادة ماري ستيوارت إلى العرش الاسكتلندي وإنهاء حياة إليزابيت لتتمكن الملكة

الكاثوليكية من الجلوس على عرش المملكتين. في الواقع، لم يكن تطاول أحدهم على ملك أو ملكة في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر يُعتبر جُرماً فحسب بالنسبة إلى الإنكليز والاسكتلنديين، سواء أكانوا كاثوليكاً أم بروتستانت، بل انتهاكاً للحرُمات أيضاً. لقد انتهكت ماري ستيوارت حُرماً مماثلاً عندما انضمت إلى مؤامرة بابينغتون. وارتكبت إليزابيت الأولى الأمر نفسه عندما قامت بإعدام ماري ستيوارت بعد انكشاف خيوط المؤامرة.

لقد أُوقف كل المتآمرين في آب/أغسطس، وأُحيل بالارد، وسافاج، وبابينغتون نفسه إلى البرج. وبدأت محاكمة ماري ستيوارت في 14 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1586 في قلعة فاذرينغاي في ريف نورثامبتون. وفي 25 تشرين الأول/أكتوبر، وُجدت مُذنبة بالخيانة العظمى، والتحريض على العصيان، ودعم المتآمرين الذين يريدون قتل الملكة إليزابيت. فحكمت عليها المحكمة بالإعدام.

كانت ردود الفعل على الحكم فاترة. فقد كان هنري الثالث ملك فرنسا كثير الانشغال بمقاتلة شخصين آخرين يحملان اسم هنري: هنري دو نافار ومؤيّدوه البروتستانت، وهنري دو غيز ومؤيّدوه الكاثوليك. وكان فيليب الثاني غارقاً في مستنقع فلاندرز، في حين أن البابا سكستس الخامس قرر غضّ الطرف لأن جيمس السادس سمح له بإلقاء نظرة خاطفة على إمكانية إعادة اسكتلندا إلى الإيمان الكاثوليكي بعد تسميته وريثاً على عرش إنكلترا ووفاة إليزابيت. وبالاستناد إلى هذا التفسير، قام سكستس باستدعاء عملاء الحلف المقدس من إنكلترا.

في 1 شباط/فبراير، وقّعت إليزابيت الوثيقة التي تُجيز إعدام ماري ستيوارت التي كانت ذات مرة ملكة اسكتلندا. بعد أسبوع، وفي صباح 8 شباط/فبراير 158، دخلت ملكة اسكتلندا المجلودة البهو الكبير لقلعة فاذرينغاي حيث نُصبت منصة الإعدام. وعزمت ماري ستيوارت، الملكة منذ يوم مولدها، على التصرف كملكة في أثناء تنفيذ حكم الإعدام بها. وكان إيرل شروزبري وإيرل كِنت

الشاهدَين من قِبَل إليزابيت.

بعد صلاة وجيزة باللاتينية ولفظ كلمات إنني أثق بك يا رب فلن أُخذل أبداً، حنت رأسها على الخشبة وأمسكتها بكلتَي يديها. ورفع الجلاد فأسه محاولاً ضرب العُنق الأبيض لماري ستيوارت، ولكنه أصاب جمجمتها وهشّمها. وفي محاولته الثانية أصاب العُنق، وتطلّب الأمر محاولة ثالثة لفصل رأسها عن بقية جسمها. بعد ذلك، التقط الجلاد رأسها، وحاول رفعه في الهواء، ولكنه اكتشف أنه يحمل شعراً مستعاراً في حين أن رأس امرأة متقدّمة في السن يميل ما تبقّى فيه من شعر إلى اللون الرمادي تدحرج على الأرضية الخشبية. وأمام هذا المشهد، صرخ أحدهم قائلاً: "لينقذ الله الملكة!".

هكذا، وضعت إليزابيت الأولى ملكة إنكلترا حداً للمشكلة الاسكتلندية، ولكن فيليب الثاني والبابا سكستس الخامس لم ينظرا إلى إعدام ملكة كاثوليكية باستخفاف. فوُضعت في خدمة الإيمان أسلحة من مختلف الأنواع تتراوح بين جيش كبير لا يُقهر وقتَلة تابعين للحلف المقدس، واستُخدمت ضد الملكة المهرطقة. كان وقت التحرك وشيكاً.

الفصل الثالث

أزمنة المعارك (1587-1605)

منذ أن طال الحِرم الكنسي إليزابيت في العام 1570، كان هناك حديث طيلة سنوات عن هجوم مفتوح على إنكلترا من قِبَل إسبانيا. وعُرفت هذه العملية العسكرية المحتمَلة في الأوساط التجسسية خارج إنكلترا وداخلها بالمهمّة. كان البابا سكستس الخامس واليسوعيون من أولئك الذين حاولوا إقناع فيليب الثاني بتنفيذ العملية العسكرية لأسباب دينية؛ إضافةً إلى أنصار ماري ستيوارت، وهم الاسكتلنديون الكاثوليك الذين كانوا يسعون إلى تحقيق هدف إعادتها إلى العرش الاسكتلندي؛ والإنكليز الكاثوليك الذين كانوا يسعون إلى إعلان ماري ملكةً لإنكلترا أيضاً فتتمكن حينذاك من استعادة الإيمان الكاثوليكي بعد التخلص من الملكة المهرطقة. النصير الآخر للمهمة ليس سوى الأخ غير الشقيق لفيليب، دون جوان من النمسا، الذي أراد الزواج بماري ستيوارت ليصبح ملكاً لإنكلترا واسكتلندا.

من جهة ثانية، لم يشأ فيليب الثاني اتخاذ قرار غير صحيح لإرضاء أي شخص. فلم يكن لدى الملك الإسباني رغبة كبيرة في تسليم ملكة نصف فرنسية العرش الإنكليزي، وتمكين شقيق لا يثق به من الزواج بهذه الملكة، وإرضاء البابا بالطبع لأن العديدين قد يستنتجون أنه يتصرف وفقاً لتوجيهات روما.

كانت الحروب اللامتناهية في هولندا تكلّف فيليب الكثير من مدّخرات المملكة، وطالبت روما بمزيد من الفعالية من دون تقديم قدر كبير من المساعدة في المقابل. مع ذلك، فما لم تدركه لندن هو أن الملك الإسباني كان يعتبر إليزابيت ملكة إنكلترا معتدية، وبالتالي، تَسهُل مهاجمتها سياسياً. كانت إنكلترا قد تدخلت علانيةً في هولندا بعد توقيع معاهدة نونساتش التي أعطت الضوء الأخضر أيضاً لسفن القراصنة بنهب الساحل الإسباني بقيادة فرانسيس دريك.

بعد إعدام ماري ستيوارت، أبلغ الحلف المقدس البابا بأن إليزابيت تظن بأن السبب الذي يحث إسبانيا على القيام بمغامرة عسكرية قد زال بزوال التحالف بين الاسكتلنديين والإنكليز الكاثوليك، وزال سبب التدخل الإسباني. وبرحيل ماري، تكون كل الأبواب قد أُغلقت في وجه روما لتحقيق رغبتها في إعادة الإيمان الكاثوليكي إلى الجُزر. استمر جيمس السادس بالدفاع عن البروتستانتية بالرغم من الرسائل التي وجّهها إلى سكستس الخامس شارحاً فيها الأسباب التي حملته على عدم إدانة إليزابيت بسبب إعدام والدته.

لقد أراد جيمس السادس أن يصبح الوريث الشرعي لإليزابيت ويخلفها على عرش إنكلترا. كان قد أقنع سكستس السادس بالكف عن تحريض الكاثوليك حتى يتم تعيينه خلفاً شرعياً، قائلاً إنه يُفترض بالحَبر الأعظم أن يسحب من البلد ومن بلاطه أي عميل للحلف المقدس يريد القيام بعمليات اغتيال. أخبر جيمس السادس عملاء البابا بأنه قد يتمكن من إعادة المملكتين إلى الإيمان الكاثوليكي عندما يصبح ملكاً عليهما، أو على الأقل منح مزيد من الحرية الدينية للكاثوليك؛ وهو أمر لم يحصل أبداً.

تعود التقارير الأولى للمهمة العسكرية إلى أواخر العام 1585. وفي مرحلة مبكّرة من العام التالي، علم جهاز التجسس الإنكليزي من مصادر متنوّعة أنه سيتم إرسال أسطول حربي إسباني كبير لمجابهة إنكلترا. وكتب السفير الإنكليزي في باريس إلى والسينغهام:

> يتباهي الجانب الإسباني هنا في فرنسا بأنه ستتم مهاجمة إنكلترا في غضون ثلاثة أشهر، ويجري إعداد أسطول مسلّح ضخم لهذا الغرض. أجد صعوبة في تصديق ذلك بما أن المدة المتبقية قصيرة.

صدّق والسينغهام هذا التقرير. فاشتبه رئيس جهاز التجسس التابع لإليزابيت بأن فيليب يبني أسطولاً حربياً كبيراً لا لإرساله لمجابهة إنكلترا بل لدعم دوق

بارما في هولندا. مع ذلك، قد يتجه الأسطول بدلاً من ذلك إلى اسكتلندا أو إيرلندا، وفي هذه الحالة يجب على إنكلترا أن تكون مستعدّة للرد عسكرياً. في غضون ذلك، ظن فيليب الثاني أنه متى قام أسطوله الحربي الكبير بمهاجمة إنكلترا، سيكون على إليزابيت الضعيفة تحت تأثير الضغط العسكري التفاوض للخروج من ذلك الوضع بطريقة مشرِّفة. من الواضح أن الملك الإسباني لم يفهم مزاج الملكة الإنكليزية.

في ربيع العام 1587، أي بعد شهرين من إعدام ماري ستيوارت، كرّس والسينغهام وقته لإعداد دفاعات إنكلترا. كان عملاؤه المنتشرون في مواقع استراتيجية في أوروبا يُبلغونه بأن فيليب الثاني قرر الشروع بالمهمة.

كإجراء مضاد، فوّضت إليزابيت فرانسيس دريك الذي يدين لها بالولاء بالإبحار على رأس أسطول من حوالى عشرين سفينة للحؤول دون تجمّع الأساطيل الإسبانية خارج موانئهم الوطنية، وقطع خطوط الإمداد وملاحقة أو إغراق السفن الحربية الإسبانية إذا اتجهت نحو إنكلترا أو إيرلندا. أخبر عملاء الحلف المقدس إسبانيا بأن أسطول دريك جاهز تقريباً للإبحار من بلايموث ومهاجمة موانئ وسواحل منطقة إل فيرول وفقاً لمصادرهم.

ليلة 2 نيسان/إبريل، وبعد إبحار أسطول دريك من دون أن يلاحظ أحد ذلك، بدّلت إليزابيت رأيها. فطلبت من والسينغهام توجيه رسالة طارئة إلى دريك طلب منه فيها عدم مهاجمة الموانئ الإسبانية. وصلت الرسالة الأولى إلى بلايموث عند الثالثة بعد منتصف الليل عندما كانت أشرعة السفن الإنكليزية لا تزال مرئيّة في الأفق. واعترض عملاء البابا مبعوثاً ثانياً أرسله والسينغهام. وعندما علموا بما يحدث، أرسلوا تقاريرهم الطارئة إلى مدريد وروما، ولكن بعد فوات الأوان بالنسبة إلى إليزابيت الأولى وفيليب الثاني على حدٍّ سواء. كان دريك قد اتخذ قراراً بتعديل خططه الخاصة وتغيير مسار الأسطول ومهاجمة مدينة قادس بدلاً من ميناء في غاليسيا أو كانتابريا أو في الأنتيل. ومن سفينة القيادة،

إليزابيت بونافنتشر، والسفن المحيطة بها، أمر دريك بقصف المدينة المحصَّنة ودخول مينائها. في العملية التي دامت ساعتين تقريباً، نجح فرانسيس دريك في إغراق حوالى ثلاثين سفينة إسبانية كانت تستعد للانضمام إلى الأسطول الحربي الكبير، وتدمير الثكنات البحرية ومستودعات الأسلحة أيضاً.

عندما علم البابا سكستس الخامس بهذا الهجوم على القوة الإسبانية، أعلن قائلاً إن "ملكنا يُجري مشاورات في حين أن ملكتنا المهرطقة تهاجم".

أجمعت الآراء على أن عملية قادس التي قام بها دريك كانت عملاً بارعاً. لكن بالرغم من الضربة القاسية التي وُجّهت للاستعدادات الإسبانية والاعتداد الإسباني بالنفس، فقد أعاق الهجوم البحري المفاجئ الأسطول الحربي الإسباني لمدة عام واحد فقط. في غضون ذلك، واصل عملاء الحلف المقدس عملهم العلني في هولندا القاضي بحماية دوق بارما المقتدر.

إحدى أفضل عمليات هؤلاء العملاء حدثت في غيرترويدنبرغ. ففي أثناء المفاوضات التي جرت في ربيع العام 1588، تمكّن عملاء البابا من إثارة تمرّد في أوساط جنود من المرتزَقة يقومون بحراسة مدينة غيرترويدنبرغ المحصَّنة، وهي موقع استراتيجي في الجهة الجنوبية لنهر ماس. كان المرتزقة الألمان يشكلون خط الدفاع الأول، في حين كان الهولنديون يشكلون خط الدفاع الثاني، والإنكليز والبروتستانت خط الدفاع الثالث. وتمكن عملاء الحلف المقدس من إضعاف معنويات الجنود بسبب عدم قبض رواتبهم طيلة أربعة أشهر تقريباً. وألقى العملاء البابويون خُطباً في ميدان المدينة الهولندية ضد "أولئك العظماء الذين يضعون مؤخراتهم على عروش أوروبا ويشيحون بأنظارهم عندما يحين موعد دفع الرواتب للذين يدافعون عن مقاعدهم في السلطة".

كانت إنكلترا ترفض تسديد دينٍ عليها لمرتزقة غيرترويدنبرغ بقيمة 210.000 فلورين، أي حوالى 22.000 جنيه إنكليزي، مدّعيةً أن هذا الأمر هو من شأن البرلمان الهولندي الذي أجاب بأن المرتزقة الذين جُنِّدوا من قِبل إنكلترا يخدمون

قضية إليزابيت الأولى بولاء أكبر مما يخدمون القضية البروتستانتية في هولندا. كان والسينغهام يعلم أن سكستس الخامس هو وراء التمرد إلى جانب دوق بارما وفيليب الثاني.

كان رئيس جهاز التجسس الإنكليزي يدرك أن الجنود بحاجة إلى قبض رواتبهم عاجلاً أم آجلاً وإلا سقطت المدينة الاستراتيجية في أيدي الإسبان. أخيراً، وعندما بلغ افتقار المرتزقة إلى المال حداً هدّد بتسليم المدينة للإسبان، وصلت رسالة من البرلمان الهولندي يُعرب فيها عن تحمّل مسؤولية الدَّين. بفضل عملاء الحلف المقدس، كان الجيش الإسباني على وشك الاستيلاء على هدف عسكري هام من دون إطلاق طلقة واحدة.

هذا، ولم يستطع فيليب الثاني أن ينسى بسهولة الضربة التي وجّهتها له إليزابيت في قادس، لذلك، أسرع أكثر فأكثر في الإعداد للمهمة. كانت الخطة بسيطة: يبحر الأسطول الحربي من لشبونة باتجاه القناة الإنكليزية، ويتجنّب أي مواجهة مع السفن الحربية الإنكليزية، ويمرّ بالقرب من كاليه، ويرسو في مارغات في الجزء الشمالي من كِنت، وتنضمّ إليه هناك قوات بارما القادمة من الموانئ الهولندية التي تسيطر عليها إسبانيا، فيكون هناك ما مجموعه ثلاثون ألف رجل، جميعهم قادرون على إلحاق الهزيمة بالجيش الإنكليزي الضعيف، والزحف إلى لندن. كانت الخطة واضحة وبسيطة على الورق، ولكن الأمر لم يكن كذلك عملياً في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر.

انتشر العملاء في مناطق العمليات معبّرين عن شكوكهم حيال العملية العسكرية. في مستند أُرسل إلى البابا، تساءل أحد العملاء عن كيفية انتقال قوات دوق بارما من هولندا إلى إنكلترا، وسأل سكستس الخامس فيليب عما سيحدث عندما تسقط إنكلترا في أيدي الإسبان. ولم تتم الإجابة عن أي من هذه الأسئلة.

فأوضح دوق بارما أنه سيجمع رجاله الخمسة عشر ألفاً في دنكرك، ونيوبورت،

وسلويس، ولكن سيكون من المستحيل تقريباً نقلهم عبر القناة المليئة بسفن المرتزقة الهولنديين وسفن دريك من دون حماية الأسطول الحربي. لذلك، طلب الحاكم الإسباني من الملك إرسال الأسطول الحربي إلى ساحل هولندا لحماية قواته قبل توجيه الضربة الرئيسية إلى إنكلترا. لكن هذا الأمر كان يتطلب أولاً الاستيلاء على ميناء آمن في إنكلترا كميناء دوفر. ووفقاً لما جاء في كتاب هزيمة الأسطول الحربي الإسباني للمؤرخ غاريت ماتينغلي، كان ذلك الأمر هو نقطة الضعف في العملية برمّتها.

كان الحلف المقدس قد تلقّى أوامر من البابا سكستس الخامس بالبحث عن مؤيّدين لهم في البلدات الإنكليزية الساحلية لدعم تمرّد محتمَل ضد السلطات المحلية ما إن تظهر أشرعة الأسطول الحربي. كان يتعيّن على العملاء البابويين أيضاً إنشاء شبكة اتصالات واسعة تغطي الساحل الشرقي لإنكلترا بأكمله، إضافةً إلى الساحل الغربي لفلاندرز وفرنسا لتزويد الإسبان بالمعلومات حول كل التحركات الإنكليزية.

رفع أحد عملاء الحلف المقدس الأكثر نشاطاً، ماركو أنطونيو ماسيا الجنوي، تقريراً إلى البابا جاء فيه:

> يُعتقد هنا في إنكلترا أن الإسبان سيأتون بسفنهم الحصينة المليئة بالمشانق لإعدام كل الرجال، والمليئة بالسياط لجلد النساء، وعلى متنها أربعة آلاف مُرضعة لإرضاع الأطفال الذين سيُحملون إلى إسبانيا على متن السفن. ويقال أيضاً إن كل الأولاد بين سن السابعة والثانية عشرة سيتم وسمهم بالحديد الساخن. كل هذه الأمور تحث الناس على مقاومة إسبانيا.

بالنسبة إلى روما ومدريد، من الواضح أن هذه الشائعات التي ينشرها رجال والسينغهام سيكون لها وقع كبير في نفوس الناس غير المثقفين في أواخر القرن السادس عشر. في الحقيقة، لم يُحسن فيليب الثاني الإعداد لخطة الخلافة

الإنكليزية بعد إليزابيت، كما أنه لم يفكر في الأمر جيداً بعد وفاة ماري ستيوارت.

بالنسبة إلى فيليب، لم يكن الوريث البروتستانتي جيمس السادس مرشحاً صالحاً، عِلماً أنه كان بإمكان سكستس الخامس في أي وقت إعلانه مهرطقاً ومعاقبته بالحِرم الكنسي. في الواقع، كان البابا على خلاف متزايد في الرأي مع فيليب الثاني لأن عملاءه في بلاط مدريد أطلعوه على رغبة الملك في إعلان نفسه ملكاً لإنكلترا بحكم تحدّره من عائلة لانكاستر لجهة والدته. ولم يكن سكستس الخامس ليسمح للملك الإسباني بتوحيد عروش إنكلترا وإسبانيا والبرتغال وصقلية ونابولي، ناهيك عن مناطق أخرى كانت خاضعة لسيطرته في العام 1588.

عيّن فيليب الأميرال ألفارو دو بازان قائداً للأسطول الحربي، وهو بحّار متمرّس وذو خبرة عسكرية كان قد هزم الأسطول الفرنسي عام 1582 في جُزر الآزور. لكن المشكلة تكمن في تقدّم الأميرال في السن الذي أجهزت عليه مهمة إعداد الأسطول الحربي في 9 آذار/مارس 1588. فعيّن فيليب دوق مدينا-سيدونيا مكانه، وهو نبيل ثريّ عُهد إليه بالمهمة لا لشيء بل لأنه يدين بولاء كبير للملك. فقد كان متشائماً، كما أثبت التاريخ في ما بعد، متردداً، وجباناً إلى حدٍّ ما في الواقع؛ ثلاث ميزات سيّئة في ضابط مسؤول عن أسطول حربي كبير. كان فيليب الثاني مدركاً تماماً للشوائب التي تحول دون قيامه بمهام الأميرال بشكل جيد، ولذلك أراد أن يكون على رأس المغامرة بنفسه. وكان دوق مدينا-سيدونيا ذراعه اليمنى ليس إلا.

استمر جواسيس البابا بإرسال تقاريرهم حول الاستعدادات الإنكليزية. وعيّنت إليزابيت تشارلز هوارد كبيراً للأميرالات، وهو موالٍ للملكة بالرغم من كونه الشقيق الأصغر لدوق نورفوك الذي جرى إعدامه في العام 1572. وأوكلت إلى فرانسيس دريك مهمة قيادة الأسطول الإنكليزي في بلايموث وإبقاء السفن

الشراعية الإسبانية خارج القناة. قضت مهمة هوارد بإجهاض أي تحرك لسفن فيليب باتجاه بحر الشمال.

أرسل ماركو أنطونيو ماسيا الجنوي الذي تسلل إلى إنكلترا تقارير إلى البابا حول إنشاء الإنكليز نظاماً من المشاعل الساحلية لنقل أخبار وصول الأسطول الحربي الإسباني على الفور. وفقاً لخطة المواجهة، يقوم الأسطول الهولندي المؤلف من ثلاثين سفينة بقيادة جوستين دو ناساو بقطع الطريق على جنود بارما. كان الحلف المقدس يرفع تقاريراً متواصلة عن الجنود والسفن في العديد من موانئ فلاندرز وزيلند. في أوائل تموز/يوليو، علم البلاط الإنكليزي بأن الأسطول البحري الكبير غادر إسبانيا. لقد قُضي الأمر.

في الأسابيع السابقة، كانت شرطة والسينغهام قد كرست جهودها لمطاردة جواسيس البابا واعتقالهم، وقد أُسر العديد من أفضلهم في قلعة ويسبش بالقرب من مستنقعات كامبريدجشاير.

على الجبهة الدبلوماسية، كانت إليزابيت واثقة من أن فرنسا لن تدعم إسبانيا. فهنري الثالث كان قد أبلغ مدريد بأن وضعه الدقيق لا يسمح له بدعم الهجوم على إنكلترا. أما جيمس السادس من اسكتلندا فهو أمر آخر. فإليزابيت لم تكن واثقة من أن ابن ماري ستيوارت سيرفض دعم فيليب الثاني إذا ساعده هذا الأخير على الارتقاء إلى العرش الإنكليزي كحاكم شرعي. وما كان يحتاج إليه جيمس هو جيش يُثبت بسالته في مواجهة مفتوحة مع إليزابيت، وقد تكون قوات الأسطول الحربي الإسباني هي الجيش المطلوب.

فنصح والسينغهام إليزابيت بإصدار أمر بنشر الجنود على الحدود الاسكتلندية وتقديم شرح لجيمس بأن هذا الإجراء ليس عملاً عدائياً ضد اسكتلندا بل وسيلة دفاعية إذا اختار الإسبان اجتياح إنكلترا عن طريق اسكتلندا. كانت إليزابيت تخشى في الواقع من تحالف إسباني - اسكتلندي محتمَل. وكما أجمع المؤرخون نيل هانسون، وكولين مارتن، وجيوفري باركر، وغاريت ماتينغلي، في

كتبهم الأمل الواثق بحدوث أعجوبة، التاريخ الحقيقي للأسطول الحربي الإسباني، الأسطول الحربي الإسباني: طبعة منقَّحة، وهزيمة الأسطول الحربي الإسباني، تعاطى الإنكليز مع قضية الدفاع عن المملكة ضد المجتاحين الإسبان بطريقة هزلية. فقد كتب والسينغهام آنذاك: "طريقتنا في معالجة الأمر فاترة ولامبالية لدرجة أن نعمة الله وأُعجوبة منه قادرتان فقط على إنقاذنا من هذا الخطر". على أي حال، لقد حدثت الأعجوبة.

كان حجم الأسطول الحربي الإسباني لا يصدَّق في ذلك الزمن: 130 سفينة شراعية كبيرة موزَّعة على ثلاثة أساطيل تحمل ثلاثين ألف رجل، مدعومة بخمسة آلاف رجل بقيادة دوق بارما يكونون بالانتظار في موانئ فلاندرز للانتقال إلى إنكلترا على متن إحدى السفن. وكان الأسطول الإنكليزي الدفاعي مؤلفاً من أربع وثلاثين سفينة و6.700 رجل فقط. وفاقت القوة الإسبانية القوة الإنكليزية بمعدل أربعة إلى واحد في ما يتعلق بالسفن وحوالى سبعة إلى واحد في ما يتعلق بالجنود. وكان الجميع يدركون أن القتال الوشيك يضع سبعة عمالقة جُليات إسبان في مقابل داود إنكليزي واحد صغير الحجم.

غادر الأسطول الضخم لِشبونة في 7 حزيران/يونيو، ولكن عاصفة هوجاء ضربت المحيط الأطلسي شتّتت معظم قطع الأسطول الإسباني. وأعادت السفن المنهَكة التجمّع في لا كورونا، وكانت المياه في براميلها راكدة واللحم مليء بالديدان، وتمّ الاستغناء عن خدمات بضع مئات من الرجال المرضى. وفي 22 تموز/يوليو، رفع الأسطول مراسيه ثانيةً واتجه شمالاً انطلاقاً من الساحل الغاليسي، واقترب من الساحل الإنكليزي في التاسع والعشرين من الشهر نفسه. فشاهد جواسيس والسينغهام في كورنوال أشرعة السفن تلاطم ريحاً عاصفة من الغرب. وتقدم الأسطول الحربي الإسباني على صورة هلال، وسفينة القيادة في الوسط، نحو شاطئ ديفون. فبدأت سفن دريك وهوارد بمهاجمة الأسطول المتقدم على نحو غير منظَّم في 31 تموز/يوليو.

في 4 آب/أغسطس، تحطمت إحدى السفن الشراعية الإسبانية على الشاطئ الفرنسي وعلى متنها وثائق هامة. وبعد يومين، غيّرت الريح اتجاهها، واتخذ دوق مدينا-سيدونيا قراراً غير سديد إذ أمر الأسطول الحربي الإسباني بأكمله باللجوء إلى كاليه. ولكن الخليج كان صغيراً جداً للاتساع له، فبقيت معظم السفن مكشوفة.

مرةً أخرى، قرر دريك وهوارد المهاجمة في حين كانت السفن الإسبانية تكافح لملازمة مكانها بدلاً من الانجرار إلى بحر الشمال. ولم تظهر قوات بارما، وأعاق الأسطول الإنكليزي - الهولندي أي انسحاب إسباني. وسرعان ما غدا العديد من سفن دوق مدينا-سيدونيا في مرمى النيران، فغرقت، أم انتُزعت صواريها، أم فُقدت.

في 8 آب/أغسطس، أطلق الأميرال هوارد هجومه الأخير على الأسطول البحري الإسباني، مزيلاً أي إمكانية لقيام السفن الشراعية الإسبانية بهجوم مضاد. وأُجهضت منذ البدء العملية العسكرية التي خطط لها فيليب الثاني كما جاء في التقرير الذي رفعه الجاسوس ماركو أنطونيو ماسيا للبابا. كان الملك الإسباني قد أعدّ العملية كلها لتكون نزولاً ضخماً على شاطئ إنكلترا واجتياحها من دون أن يأخذ في الاعتبار المعركة البحرية.

بعد عشرة أيام من هذه الهزيمة التامة، قرأ فيليب الثاني رسالة متفائلة من سفيره إلى لندن جاء فيها أن دوق مدينا-سيدونيا أغرق خمس عشرة سفينة من سفن دريك، بما في ذلك سفينة القيادة. وبفضل فعالية عملاء الحلف المقدس، كان سكستس الخامس الذي جلس على كرسيّ القديس بطرس في روما أول من بلغته التفاصيل المثيرة كافة للهزيمة الإسبانية. لم يعد الأسطول الحربي الكبير قائماً. لقد قُدّمت المساعدة والملجأ لأطقم السفن التي أُغرقت قبالة شواطئ اسكتلندا، وأُعيدوا في وقت لاحق بأمر من جيمس الأول. أما الذين غرقت سفنهم قبالة شواطئ إيرلندا فتعرّضوا لقتل وحشي. لم تتمكن سوى سبع

وعشرين سفينة من العودة إلى إسبانيا. وبالرغم من اتهام دوق مدينا-سيدونيا بعدم الكفاءة والجُبن، فقد احتفظ به فيليب كمعاون يمكن الوثوق به.

من جهة ثانية، أعلنت إنكلترا انتصارها على الملأ على إسبانيا التي باتت ضعيفة، وانتصار الدِّين الحقيقي على جهل الكثلكة. وبأمر من الملكة إليزابيت، صُكّت قطعة نقدية معدنية تظهر فيها سفينة إسبانية شراعية تكابد في وجه الموج وفوقها النقش التالي جاءت، رأت، فرّت. وبقي بيدرو دو فالديس، وهو ملازم أول تحت إمرة دوق مدينا-سيدونيا أسره فرانسيس دريك، في منزل القرصان الإنكليزي لمدة خمس سنوات، وكان يُعرَض على الزائرين كحيوان مذلول.

الأسطول الحربي الإسباني الذي بات الإنكليز يلقّبونه بغير المرئي تهكّماً، أصبح في عالم الأساطير. وطال هذا اللقب أيضاً عملاء الحلف المقدس، مثل ماركو أنطونيو ماسيا الجنوي، قبل العملية العسكرية وفي أثنائها وبعدها. فالعديد من جواسيس البابا استُخدموا كحاملي رسائل عاديين، وآخرون كجواسيس في موانئ العدوّ، وغيرهم كمنقذين للعديد من أطقم السفن التي تم إغراقها. وتفاوض ماسيا نفسه مع جيمس السادس في شأن إعادة حوالى 630 بحّاراً وجندياً إسبانياً إلى وطنهم تحطمت سفنهم على الشواطئ الاسكتلندية.

ومما يدعو للسخرية أن المنهزمين وجدوا أنفسهم بعد ذلك أبطالاً منتصرين. ففي حين كرّم الشعب وملكهم الناجين الإسبان كونهم أبطالاً، هلك العديد من المدافعين الإنكليز المسرَّحين من الخدمة العسكرية بسبب حمّى التيفوس، والجوع، والإرهاق، دون أن تقدّم لهم الملكة إليزابيت الأولى أي مساعدة. فسرعان ما نسي المنتصرون أبطالهم في حين كان المنهزمون يعظّمون جنودهم. وأعاد فيليب الثاني موارده المالية المتضائلة إلى طبيعتها بفضل السفن المليئة بالذهب والأحجار الكريمة القادمة من مستعمراته الأميركية، في حين كان على إنكلترا الاعتماد على النَهب والقرصنة.

وحملت السنوات الأخيرة من ثمانينيات القرن السادس عشر وفاة العديد من المشاهير. فإيرل ليشستر توفِّي بسبب الحمّى في 4 أيلول/سبتمبر 1588. وتوفِّي والتر ميلدماي، مقدّم النُصح الذي تربطه صلة وثيقة بإليزابيت، ومستشار الخزينة، وبلوى جواسيس الحلف المقدس، مسمَّماً من قِبل الحلف المقدس كما قيل. وتوفِّي فرانسيس والسينغهام، سيد الجواسيس والمؤسس الحقيقي لأجهزة المخابرات الإنكليزية السرية، عام 1590، كما توفِّي خصمه البابا سكستس الخامس في 27 آب/أغسطس عن عمر تسعة وستين عاماً. وكان البابا الراحل هو الشخص الذي استخدم الحلف المقدس أكثر من سواه كأداة للتجسس والعمليات الخاصة، بما في ذلك الاغتيالات.

وفي خمسة عشر شهراً فقط، شغل ثلاثة باباوات كرسيّ القديس بطرس: أُربانس السابع، غريغوريوس الرابع عشر، وإنّوقنطيوس التاسع. وفي هذه الفترة القصيرة، لم تكن هناك عمليات للحلف المقدس، أم أنه لم تكن هناك عمليات موثَّقة. وبانتخاب الكردينال هيبوليت ألدوبرانديني بابا تحت اسم إقليمنضس الثامن في 30 كانون الثاني/يناير 1592 عاد الجهاز التجسسي الحَبري إلى الحركة، وبدأ الحلف المقدس يتآمر مجدداً للتخلص من إليزابيت الأولى المهرطقة.

كان البابا الجديد المتحدر من عائلة فلورنسية أرستوقراطية من حاشية الكردينال ميغيل بونللي معتمَداً من الحَبر الأعظم بين الفاتيكان وبلاط مدريد. وأقام ألدوبرانديني علاقات جيدة هناك مع جواسيس فيليب الثاني وأصبح في عامَي 1571 و1572 عميلاً دائماً نوعاً ما للحلف المقدس في عاصمة الإمبراطورية الإسبانية. وكان يرفع تقاريره مباشَرةً للبابا بيوس الخامس الذي أسس جهاز التجسس البابوي قبل ست سنوات.

واجهت مهنة ألدوبرانديني كجاسوس للفاتيكان عقبة غير متوقَّعة بعد وفاة بيوس الخامس. ففي أثناء ولاية غريغوريوس الثالث عشر الحَبرية، انخرط هذا العميل السابق لبيوس الخامس في إدارة الشؤون القانونية. وعندما ارتقى

سكستس الخامس إلى منصب البابوية، تبدّل حظه مجدداً، ورفعه سكستس إلى درجة الكردينالية وعهد إليه بمهام خاصة.

كان سكستس الخامس يعلم أن ألدوبرانديني يتمتع بخبرة في الميادين التجسسية والدبلوماسية والدينية، والأكثر أهمية من ذلك، فقد كان على علاقة بأولئك المحيطين بفيليب الثاني.

قام الجاسوس هيبوليت ألدوبرانديني بمهمته الخاصة الأولى في أيار/مايو 1558 عندما أرسله البابا إلى بولندا. وكان على جاسوس الحلف المقدس أن يحاول التوسط بين الفصائل المؤيدة لمُطالبين بالعرش بعد وفاة الملك ستيفن باثوري. فحاول ألدوبرانديني حمل الوريثَين سيغيسموند فاسا وماكسيميليان فون هابسبورغ على بلوغ اتفاق سلميّ وانتزاع تعهد راسخ منهما بإبقاء بولندا في النطاق الكاثوليكي وإطاعة البابا بشكل كامل. وجلس سيغيسموند على عرش بولندا وأقام سلاماً مستقراً ودائماً مع ماكسيميليان في 9 آذار/مارس 1589. ونجاح ألدوبرانديني في مهمته البولندية جعلته من الأفراد الأكثر أهمية في مجمع الكرادلة.

تطلبت وفاة البابا إنّوقنطيوس التاسع الفجائية في 30 كانون الأول/ديسمبر دعوة رابعة لاجتماع الكرادلة في غضون سبعة عشر شهراً. وكان الضغط الإسباني قوياً جداً كما كان الحال في غالب الأحيان. هذه المرة، أراد فيليب الثاني بابا أكثر إذعاناً من سكستس الخامس على كرسيّ القديس بطرس، ووصفه "بالمستقل جداً والميّال جداً إلى تدبّر المكائد". وأخيراً، وبفضل دعم الملك الإسباني، عُيّن هيبوليت ألدوبرانديني، الجاسوس السابق، بابا في 30 كانون الثاني/يناير 1592.

وأصبح إقليمنضس الثامن بابا في ظروف أوروبية متقلّبة. فهولندا كانت مشتعلة في مختلف أنحائها، وكان موريس من ناسو قد برز قائداً جديراً بالثقة في القتال ضد الإسبان.

ففي العام الأسبق، كانت قوات فيليب الثاني قد فقدت زوتفن، وديفنتر،

وهولست، وأخيراً نيجميغن الاستراتيجية. ومذاك الحين، باتت الخاصرة الجنوبية لدولة هولندا المستقبلية آمنة. وفي كانون الأول/ديسمبر 1592، اتخذ الوضع منحى غير متوقَّع بوفاة أليساندرو فارنيزي، دوق بارما. وعيّن بلاط مدريد مجموعة من الأخلاف كانوا شهوداً على دنوّ النهاية، ومنهم الكونت فون مانسفيلد، والأرشيدوق أرنست، وكونت فوينتيس، والأرشيدوق ألبرتو. وشيئاً فشيئاً، كانت هولندا المستقبلية توطّد حدودها: في نيجميغن عام 1591، وفي غرونينغن وغيرترويدنبرغ التي استعيدت عام 1593 بعد حصار طويل من قِبَل جنود موريس من ناسو.

وفي العام نفسه، فُتحت جبهة جديدة في فرنسا بشكل فجائي. كان هنري دو نافار قد غدا هنري الرابع ملك فرنسا بعد فرار هنري الثالث من باريس. وتم اغتيال الملك المخلوع عام 1589 على يد راهب دومينيكي متعصب تقول بعض المصادر إنه عميل للحلف المقدس. لم يكن البابا سكستس الخامس يريد كما يبدو أي عقبات تعترض مسيرة هنري الرابع ومملكته في اتجاه اعتناق الكاثوليكية، وكان هنري الثالث إحدى هذه العقبات.

كان هنري دو بوربون، ملك نافار الكالفيني، أحد أكبر المدافعين عن البروتستانتية في السابق وقد أدانه البابا سكستس الخامس. ومن جهة ثانية، لم يعتمد فيليب الثاني وإقليمنضس الثامن على العدد الكبير للفرنسيين الكاثوليك الذين اعترفوا بهنري الرابع ملكاً لهم.

وكتدبير أول، أصدر هنري الرابع أمراً بإجلاء كل الجنود الإسبان من باريس. واعتبر فيليب الثاني هذا الأمر تحذيراً جدّياً من شأنه إشعال حرب مفتوحة بين البلدين. وكان عملاء الحلف المقدس قد نصحوا البابا إقليمنضس الثامن بالبقاء في خلفية مسرح الأحداث لأنهم يعرفون أن هنري الرابع على استعداد لنبذ الكالفينية واعتناق الإيمان الكاثوليكي، وهذا ما حدث بالفعل. وإدراكاً منه بأن نبذ البروتستانتية هي الوسيلة الوحيدة لإنهاء الانقسامات في المملكة، قرر

هنري الرابع اعتناق الكاثوليكية في 25 تموز/يوليو 1593، تماماً كما توقّع عملاء الحلف المقدس.

وفي العام نفسه، أرسل ملك فرنسا الجديد مندوباً له إلى روما لإقناع البابا بسحب الإدانات وإلغاء العقوبات التي فرضها سكستس الخامس، ولكن إقليمنضس الثامن لم يكن واثقاً من القيام بذلك. وكان الكرادلة يميلون كما يبدو إلى منح هنري الرابع الغفران. ولوضع ختم الموافقة على المصالحة بين روما وباريس، أُعيدت العلاقات الدبلوماسية التي قُطعت عام 1588.

وبدلاً من تأييد مدريد، توسط إقليمنضس الثامن لحمل فرنسا الكاثوليكية وإسبانيا الكاثوليكية على التوقيع على معاهدة سلام فيرنان في 2 أيار/مايو 1598 ووضع حدًّ للحرب التي دمّرت البلدين طيلة ثلاث سنوات. واعترف فيليب الثاني بهنري الرابع ملكاً حقيقياً وأعاد الأراضي التي احتلتها إسبانيا في شمال شرق فرنسا. وعادت كاليه إلى فرنسا بعد عدة سنوات من الهيمنة الإسبانية. وفي الوقت نفسه، أقرّ هنري الرابع في مرسوم نانت بالحرية الدينية في مختلف أنحاء مملكته.

واستمرت إليزابيت بالنظر إلى المصالحة الفرنسية-الإسبانية بعين الريبة، ووصفت الملك الفرنسي "بالمسيح الدجال الجاحد". وقد جعلها رفضها للسلام الدائم مرةً أخرى محط أنظار الحلف المقدس. فبالرغم من كل شيء، يتعيّن على إقليمنضس الثامن مواصلة الدفاع عن الإيمان الحقيقي حتى وإن عنى ذلك الموافقة على قيام محاولات لاغتيال الملكة المهرطقة.

ولتُثبت عدم ترددها في قمع الكاثوليكية داخل مملكتها، أظهرت إليزابيت قسوة غير مسبوقة. ففي السنوات الأولى لتسعينيات القرن السادس عشر، أمرت الملكة بإعدام واحد وستين كاهناً وأربعة وسبعين علمانياً. وفي العام 1593، وافق البرلمان على ما دُعي قانون تقييد المتمردين الكاثوليك الذي منع الكاثوليك من الابتعاد عن منازلهم أكثر من خمسة أميال. وبعد إعدام ماري ستيوارت، أصبح

الإنكليز الكاثوليك أقل تصلّباً وعناداً أم أنهم تقبّلوا ببساطة منزلتهم في التاريخ، غير أن اليسوعيين الموالين للبابا ولفيليب الثاني استمروا في عدائهم الذي لا يلين لإليزابيت المهرطقة.

ففي العام 1593، استقل يسوعي مرسَل من الحلف المقدس سفينة من مكان ما في هولندا بهدف رمي قنبلة على عربة إليزابيت الملكية لدى مرورها. ولكن عملاء والسينغهام تمكنوا من إحباط الأمر كما يبدو. والطبيب رودريغو لوبيز هو الشخص الذي اتُهم بقتل إليزابيت ملكة إنكلترا.

وفي بداية العام 1594، كان البلاط الإنكليزي لا يزال في جوّ من الارتياب والتضليل بسبب مسألة تورّط فيها إيرل إسيكس، وهو الشخص المفضّل لدى الملكة. ورودريغو لوبيز، وهو طبيب برتغالي من أصول يهودية اعتنق المسيحية، كان الطبيب الشخصي لإليزابيت طيلة ثماني سنوات. وكان لوبيز قد غدا شهيراً في الأوساط الأرستوقراطية الإنكليزية منذ وصوله إلى لندن عام 1558. ومن زبائنه الأكثر أهمية شخصيات من البلاط: لورد بيرغلي (وليام سيسيل)، إيرل ليشستر، روبرت سيسيل ابن بيرغلي، لا بل إيرل إسيكس أيضاً. وبفضل خدماته للملكة، مُنح الطبيب الحق الحصري باستيراد اليانسون مما جعله شديد الثراء. ولم يكن أحد يندهش برؤيته داخلاً إلى القصر الملكي في وقت متأخر من الليل حاملاً حقيبته السوداء المليئة بالعقاقير.

وبسبب أصله البرتغالي، كان لوبيز أيضاً من أصدقاء دون أنطونيو، المطالب بالعرش البرتغالي. لقد كان في الواقع عميلاً ثلاثياً يتجسس لصالح البابا، والملك الإسباني، وبيرغلي الذي كان رئيس الجواسيس الإنكليز في تلك المرحلة. وفي كانون الأول/ديسمبر 1593، قام إيرل إسيكس بتحقيقه الخاص عن الجاسوس واتهمه بمحاولة قتل الملكة بطلب من البابا إقليمنضس الثامن وفيليب الثاني. وفي كانون الثاني/يناير 1594، أرسل إيرل إسيكس تقريراً إلى أنطوني بايكن، أحد المؤتَمَنين على أسرار إليزابيت:

لقد اكتشفت إحدى الخيانات الأكثر خطورة، وهدف المؤامرة موت جلالتها. ومنفّذ الحكم هو الطبيب لوبيز كما يُفترَض. لقد تابعت المسألة وسيتضح كل شيء عند الظهيرة.

ولكن الرسالة وقعت بين يدَي بيرغلي. كان رئيس جواسيس إليزابيت يرتاب في حقيقة اتهامات إيرل إسيكس. ما هو دافع لوبيز لاغتيال الملكة، من أحاطه بعنايته ولقي استحسانه؟ لم يكن إيرل إسيكس يعرف أن لوبيز نقل معلومات لبيرغلي تتعلق بصفة خاصة بالنشاطات والمؤامرات التي تُحاك ضد الملكة، ومصدرها روما ومدريد. ومع ذلك، أمر بيرغلي لوبيز من قبيل الاحتياط بالبقاء داخل منزله. وأخبر الملكة بأن الطبيب مريض ويتجنّب تعريض الآخرين لأي عدوى. كان وباء الطاعون قد ضرب لندن وانتقل البلاط إلى البلاط الملكي في هامبتون. وعندما وجد إيرل إسيكس أن هذا الاتهام الموجَّه ضد لوبيز لا يؤدي إلى أي نتيجة، قرر إخبار الملكة بشكوكه. فأمرته بالتزام الصمت، متهمةً إياه بمحاولة التخلص من رجل مخلص بدافع الحسد ليس إلا.

ولكن إيرل إسيكس لم يستسلم. فنُقل لوبيز سراً إلى برج لندن في 29 كانون الثاني/يناير ليقوم إيرل إسيكس وروبرت سيسيل باستجوابه. وبعد تعرّضه لتعذيب وحشي، اعترف لوبيز أخيراً بأنه ينتمي إلى الحلف المقدس تحت إمرة البابا إقليمنضس الثامن، وأنه اقترح التسميم للملكة الإنكليزية. وبرهاناً على ذلك، كشف لسيسيل وإيرل إسيكس عن الخاتم الذهبي الذي أرسله إليه فيليب الثاني لقاء "خدمته" المستقبلية، وكان قد قدّمه هديةً للملكة إليزابيت التي رفضت قبوله وأعادته للطبيب.

والواقع هو أن رودريغو لوبيز كان يحاول جني المال من الأفرقاء كافة - كما أظهرت محاكمة لاحقة - بما في ذلك خمسون ألف كراون وُعِد بتسلّمها من فيليب الثاني بعد موت الملكة. وسأل بيرغلي الطبيب عن سبب عدم كشفه عن المؤامرة من قَبل، فأجاب لوبيز بأنه يعرف أنه سيُحكم عليه بالموت وفقاً

للقوانين التي تم إقرارها أيام ماري ستيوارت حتى وإن قام بالكشف عنها.

جرت محاكمة رودريغو لوبيز وكلاوديو تينيكو (عميل للحلف المقدس عمل كوسيط بين لوبيز وروما) في 14 آذار/مارس. فحُكم عليهما بالموت، ولكن الغريب في الأمر أن إليزابيت لم تُضف ختمها للتصديق على الحكم حتى 7 حزيران/يونيو. وفي ليلة ذلك اليوم بالذات، تم اصطحاب لوبيز وتينيكو إلى الباحة الرئيسية للبرج، وشُنقا حتى الموت، ونُكِّل بجسدَيهما. واستمرت الملكة بالاعتقاد بأن رودريغو لوبيز بريء، عِلماً أن السجين المنفَّذ به حكم الإعدام هو الوحيد الذي يعرف الحقيقة. وبالرغم من إدانته بالخيانة العظمى، سُلِّمت مقتنيات لوبيز إلى أرملته ومُنحت معاشاً تقاعدياً طوال حياتها. واحتفظت إليزابيت بالخاتم الذي أعطاه فيليب الثاني للطبيب، ولم تضعه في إصبعها حتى يوم وفاتها.

في نهاية حزيران/يونيو، أمر فيليب الثاني بنقل بلاطه الخاص إلى قصره في إل إسكوريال بالرغم من اعتراضات طبيبه خوان غوميز دي سانابريا وكريستوبال بيريز دي هيريرا. فالبرد القارس في هذه الجبال القائمة في ضواحي مدريد مسيئة للصحة. وفي 1 أيلول/سبتمبر، انقطع الملك رسمياً عن القيام بمهام المملكة بسبب اعتلال صحته. ومذاك اليوم، قام الراهب دييغو دي ييبس، معرّفه الخاص، بالاهتمام بمتطلباته الروحية. وعند الثالثة صباحاً من 13 أيلول/سبتمبر 1، توفّي فيليب الثاني بسلام في سريره في دير سان لورنزو في إل إسكوريال. وهكذا غاب أحد الأركان الروحيين والماليين الرئيسيين لجهاز المخابرات السرية البابوية، أي الحلف المقدس، الذي تأسس منذ اثنين وثلاثين عاماً.

بالنسبة إلى إليزابيت، إن وفاة الحامي الأساسي للحلف المقدس لن يحسّن وضعها أو يحررها من مكائد مستقبلية؛ أقلّه بقدر ما يكون البابا إقليمنضس الثامن معنيّاً بذلك. فلا يزال هناك العديد من المكائد لتدبّرها والعديد من المآمرات لإحاكتها ضد الملكة المهرطقة.

لقد أُحيكت المؤامرة الجديدة ضد إليزابيت الأولى في هولندا بإشراف الحاكم الإسباني، الأرشيدوق ألبرتو، وهو كردينال سابق متزوّج من ابنة فيليب الثاني المحبوبة، إيزابيلا كلارا أوخينيا، وهي الابنة الثانية بعد البِكر. وعبَر ثلاثة يسوعيين، أحدهم الأب كارو، القناة الإنكليزية على متن قارب صيد. وبعد نزولهم على البرّ الإنكليزي، اتجهوا إلى لندن، وكان هدفهم زرع متفجرة قوية تحت سرير الملكة. ولدخول البلاط، اتصل الثلاثي المرسَل من قِبل الحلف المقدس بخادم كاثوليكي يعمل في القصر الملكي. وقبل أيام من محاولة الاغتيال، اعتُقل اثنان من اليسوعيين في النُزل الذي كانا يقيمان فيه. وتمكّن الثالث، الأب كارو، من الفرار. لقد قرر الخادم كما يبدو الكشف عن المؤامرة لروبرت سيسيل. فأُعدم اليسوعيان ونُكِّل بجسدَيهما في البرج في نيسان/إبريل من العام 1602. واعتُقل الأب كارو بعد فترة قصيرة وواجه المصير نفسه في شباط/فبراير 03

في غضون ذلك، كان الحصار الإسباني لأوستند قد بدأ في تموز/يوليو 1601 بينما كان الجنود الإنكليز منهمكين بخوض حرب في إيرلندا. فبالنسبة إلى الجيش الإنكليزي غير المُعَدّ على نحو جيد، يكاد قتاله على جبهتين يفوق قدراته. لذلك، قررت إليزابيت التفاوض مع هنري الرابع ملك فرنسا لحماية مياه كاليه ومنع الإسبان من اجتياح إنكلترا عبر ذلك الطريق.

فقرر هنري الرابع إرسال صديقه المقرَّب دوق بايرون للتحدث إلى إليزابيت وقطعِ وعدٍ لها بعدم السماح للقوات الإسبانية باستخدام كاليه كقاعدة انطلاق لأي اجتياح للأرض الإنكليزية.

وفي آذار/مارس 1602، علِم هنري الرابع من جهاز المخابرات السري التابع له أن دوق بايرون، صديقه المفضَّل ورفيقه في السلاح، يعمل كجاسوس لصالح الحلف المقدس في جهاز المخابرات التابع لملك إسبانيا فيليب الثالث. كانت فكرة الدوق تسليم جنوب فرنسا وشرقها بأكملهما إلى إسبانيا مقابل تنصيبه ملكاً على بورغوندي وفرانش-كونتيه. وكان الدليل قاطعاً. فأحد الجواسيس

البابويين المفترَضين الذين استخدمهم الدوق لنقل رسائله في الواقع كان يعمل لصالح الفرنسيين، وهكذا وقعت كل مراسلاته مع إقليمنضس الثامن وفيليب الثالث في يدَي هنري الرابع. وفي 31 تموز/يوليو 1602، تمّ إعدام الدوق في الباستيل وهو يعلن ولاءه لصديقه الملك.

وفي أوائل العام 1603، وبعد حكم دام خمسة وأربعين عاماً، كان الصولجان على وشك الانتقال من يد إليزابيت أخيراً. ففي 14 آذار/مارس، تحسّن وضعها الصحي بشكل كبير وتمكنت من استقبال السفير جيوفاني سكاراميلي المرسَل من قِبل دوج البندقية لإعادة العلاقات الدبلوماسية بين إنكلترا والجمهورية الهادئة. وكانت المرأة المسنّة البالغة من العمر سبعين عاماً لا تزال تجد القوة للتودد إلى القادم من البندقية. وفي 16 آذار/مارس، تعرضت لانتكاسة لم تتمكن من الشفاء منها. وفي وقت مبكّر من يوم الثلاثاء بتاريخ 24 آذار/مارس 1603، توفّيت إليزابيت ملكة إنكلترا بسلام في سريرها على غرار عدوّها التاريخي فيليب الثاني الذي وافته المنيّة قبل خمس سنوات. وتسلّم العرش بعدها جيمس السادس من اسكتلندا كونه الوريث الشرعي لها، واتخذ لنفسه اسم جيمس الأول ملك إنكلترا. وتمثّل التدبير الأول الذي اتخذه بوصفه الملك الجديد بنقل رفاة والدته، ماري ستيوارت، من ضريحها المنعزل في مدفن بيتربورو إلى مدفن دير وستمينيستر الذي يحتوي على رفاة ملوك إنكلترا. وباتت إليزابيت وماري ترقدان معاً إلى لأبد.

تلقت روما خبر وفاة الملكة بفرح. لقد مات العدوّ الأكبر للكاثوليكية، وأمر إقليمنضس الثامن بقرع الأجراس. ومع ذلك، ثبت أن فرحه كان آنياً لأنه سرعان ما اكتشف أن جيمس الأول ملك إنكلترا وإيرلندا واسكتلندا، والملك الرابع والعشرين لإنكلترا بعد وليام الفاتح، لم يكن يعتزم على الأقل تحويل بلده إلى مملكة كاثوليكية.

بعد ذلك، أمر البابا بإنشاء كلّية لاهوت للكهنة الاسكتلنديين في روما، وثبّت

وضع الكليات الإنكليزية التي أنشأها فيليب الثاني في أشبيلية وبلد الوليد، مكافئاً إياها بامتيازات هامة وعاهداً إلى اليسوعيين بإدارتها. وخرّجت هذه المراكز العديد من العملاء الجدد للحلف المقدس الراغبين في التضحية بحياتهم باسم الإيمان الحقيقي وفي إطاعة الحَبر الأعظم بشكل كامل. في الواقع، لقد حوّل إقليمنضس الثامن حركة التجسس البابوي إلى جهاز مخابراتي سري بكل معنى الكلمة، وجعل أعضاءه، ومعظمهم يسوعيون، خبراء أكثر فأكثر بمهامهم "التنفيذية".

ودعم الحَبر الأعظم كذلك نشر الإنجيل في الشرق الأقصى وفي أميركا حيث أنشأ أبرشيات جديدة. كان غريغوريوس الثالث عشر قد منح جنود الصَدم التابعين له، أي اليسوعيين، الحق الحصري بكل العمل التبشيري في الصين واليابان، ولكن إقليمنضس منح الامتياز للرهبنات كافة.

وفي 5 آذار/مارس 1605، توفّي إقليمنضس في روما وترك لخلفائه في ذلك القرن الجديد مهمة اكتشاف كل الآفاق الجديدة والأماكن الجديدة التي يمكن للحلف المقدس العمل فيها. ولم يعُد الهراطقة الإنكليز الهدف الرئيسي.

الفصل الرابع
أفق جديدة (1605-1644)

ذكر التاريخ اسكندر دي مديتشي كجاسوس لامع أكثر منه كبابا. لقد أصبح هذا الفرد المنتمي إلى فرع ثانوي لعائلة فلورنسية شهيرة جاسوساً يتمتع بكل الميزات المطلوبة في جهاز المخابرات التابع لنسيبه دوق توسكانا الأكبر، كوزيمو الأول، ومن ثمّ جاسوساً في جهاز مخابرات البابا إقليمنضس الثامن.

في العام 1596، أرسله الحَبر الأعظم إلى فرنسا في مهمة لحمل هنري الرابع على العمل وفقاً لما يقتضيه اعتناقه الإيمان الكاثوليكي: إعادة تنظيم الكنيسة في فرنسا وإحلال السلام مع فيليب الثاني مما أدى إلى نشوء معاهدة فيرنان في 2 أيار/مايو 1598 وإنهاء حرب دمّرت البلدين منذ العام 1595.

أمضى الكردينال دي مديتشي عامين في توجيه عملية تحوّل فرنسا إلى الإيمان الكاثوليكي وإنشاء شبكة واسعة من الجواسيس في مختلف أنحاء البلد يرفعون تقاريرهم إلى الحلف المقدس. وبعد عودته إلى روما، رحّب به الشعب والبابا إقليمنضس الثامن كبطل حقيقي. ودامت الاحتفالات ستة أيام، وكان الشراب والطعام متوافرَين بكثرة كما يقتضيه الترَف بأعلى مستوياته في زمن النهضة الأوروبية.

وبعد وفاة إقليمنضس، تنافست ثلاث فصائل من الكرادلة في أثناء انعقاد المجمع لاختيار خلف له: الفصيل الإسباني، الفصيل الفرنسي، ومجموعة من الكرادلة عيّنها البابا الراحل. ولم يفُز مرشح المجموعة الأخيرة لأن المجموعتين الفرنسية والإسبانية اختارتا اسكندر دي مديتشي في 11 نيسان/إبريل 1605 الذي اعتمد اسم لاون الحادي عشر. وبعد سبعة عشر يوماً، توفّي البابا بسبب زكام شديد ألمّ به بعد احتفالات تنصيبه في لتران. وكان أثره في تاريخ الحلف المقدس بوصفه كردينالاً أكثر من الأثر الذي تركه بوصفه بابا لأنه أنشأ إحدى أفضل شبكات التجسس في فرنسا التي دامت حتى العصر النابوليوني تقريباً.

وخلفه على كرسيّ القديس بطرس الكردينال كميلو فرنيزي الذي اعتمد اسم بولس الخامس. كان فرنيزي المتحدر من سيينا في الأصل قد أرسله البابا إلى مدريد عام 1593 بسبب اطّلاعه الواسع على المسائل القانونية. وأقام هناك صلات جيدة بأفراد على مستوى عالٍ من الأهمية في البلاط وبفيليب الثاني نفسه. وبفضل هذه الخدمات التي قدّمها في إسبانيا، أنعم عليه البابا إقليمنضس الثامن بلباس الكرادلة الأرجواني، وأصبح النائب الأسقفي العام في روما عام 1603. فبعد الوفاة الفجائية للاون الحادي عشر، وجد الكرادلة في اجتماعهم لانتخاب بابا جديد أنهم أكثر انقساماً من ذي قبل. فتقدّم الإسبان بمرشحهم بدعم فرنسي، ولكنّ مجموعة من الكرادلة رفضته. وأخيراً، بدا أن كميلو فرنيزي هو الحل الوحيد الذي أُجمِعَ عليه بالرغم من تلقّيه معاشاً تقاعدياً من فيليب الثاني وعدم طرح اسمه في أثناء المشاورات. وفي 16 أيار/مايو 160، انتُخب بابا. كان الحَبر الأعظم الجديد رجلاً عميق التفكير، وقد أرجأ اتخاذ قرارات هامة لعدد لا يصدَّق من المرات، وهو أمر يصعب فهمه في السياق الأوروبي المضطرب في ذلك الوقت.

وتمحورت سياسات البابا الجديد حول الحياد نوعاً ما بين مدريد وباريس، وحضّ الكاثوليك الفرنسيين والإسبان باستمرار على التوافق. وفي ذلك الوقت، أجبرت إنكلترا كل الكاثوليك على أن يُقسموا الولاء للملك جيمس الأول، في حين اندلعت النزاعات بين الأديان في ألمانيا مُشعلةً ما يدعى حرب الثلاثين عاماً.

في غضون ذلك، لم تكن الأمور تتحسن في فرنسا على الصعيد الديني. فطوال سنوات، تمكن الملك من الحفاظ على وفاق ديني ودّي في مختلف أنحاء البلد. فالهوغونوتيون رعايا فرنسيون وقد حافظ على علاقة ودّية معهم؛ واعتراف بالبروتستانتية وكنائسها منذ توقيع مرسوم حرية العبادة في نانت عام 1598 المشروط بالإخلاص للملك. وفي حركة الإصلاح الديني المضاد الفرنسية، حققت الكنيسة القديمة انتصاراً كبيراً، وطرد الملك كل اليسوعيين بالرغم من اعترافه

بهم ثانيةً عام 1603.

كان خطأ هنري الرابع أنه حاول في العام 1610 جمع قوة بروتستانتية كبرى حول فرنسا الكاثوليكية لقتال العدوّ التاريخي لبلده، إسبانيا. فوجّه بولس الخامس رسالة واضحة إلى الملك الغاليّ يحثّه فيها على تبنّي موقف أقل عدوانية من فيليب الثاني. وبالرغم من كل شيء، استمرت مدريد مصدراً رئيسياً لتمويل المغامرات الكاثوليكية التي قامت بها روما والحلف المقدس الذي أصبح جناحاً مسلّحاً حقيقياً للكنيسة.

وفي التقليد الأعمّ للاغتيال السياسي الذي كان سلاحاً فعالاً استخدمه الحلف المقدس لتبديل وجهة السياسة الأوروبية، جرت محاولة واحدة للاعتداء على حياة هنري الرابع من قِبل راهب أرسلته روما. وأفلت هنري من الموت لأن الخنجر المستخدَم كان صغيراً ولم يخترق أي عضو حيوي. ونجا الملك بعد إصابته بجرح في ذراعه.

في العام 1604، كتب دنيس لوباي دو باتيي، وهو مسؤول في التاج ورئيس محكمة متز، كرّاساً من أربع وستين صفحة بعنوان كرّاس عن أصل القتلة القدماء حاملي السكاكين ويحمل العنوان الفرعي مع أمثلة عن محاولات القتل والجرائم المرتكَبة ضد بعض الملوك، والأمراء، ولوردات المسيحية.

والكتاب رواية دقيقة عن "القتلة" وأولئك الذين قاموا "بقتلهم". ويشير شرح مثير للدهشة عن أصل "القتلة" القدماء إلى أن نسبهم يبدأ مع مِلّة ظهرت قبل الإسلام ويعود تاريخها إلى زمن الإسكندر الكبير، عِلماً أن لوباي دو باتيي يفتقر إلى المعرفة التاريخية. ولكن بالرغم من تلك الأخطاء، كما يقول المؤرخ إدوارد برمن، تجرّأ لوباي دو باتيي على وضع ملاحظات وإيحاءات أسهمت في فهم طبيعة "القتلة" في أوروبا في القرن السابع عشر أيضاً.

فالقسم الأكثر إثارة للدهشة في المخطوط يروي كيف أن أولئك "القتلة" شرعوا في قتل ضحاياهم بدءاً بأصحاب الأعمال الصغيرة وانتهاءً باللوردات ذائعي

الصيت. ووضع المسؤول في تاج هنري الرابع التحليل التالي:

> ستُترك للقارئ مهمة مقارنة تاريخ القتلة مع الأحداث الجارية في عصره إضافةً إلى التأثيرات المزعجة التي عانى منها الناس لبعض الوقت. ويعود سبب ذلك لسوء الحظ إلى وجود "قتلة من حاملي السكاكين" يكونون في زمن كل قارئ أسوأ من أولئك المتعصبين في العصور الوسطى، ومستعدّين لقتل ملوك وأمراء لا ينتمون إلى المِلّة نفسها، وذلك بتشجيع من "رجل الجبال في الأزمنة الغابرة".

كان البابا بولس الخامس أحد أولئك القادة. فبينما كان لا يزال يُعرَف بالكردينال كميلو فرنيزي والنائب الأسقفي العام لروما، تمكن من الحصول على نسخة من مخطوط دنيس لوباي دو باتيي طُبع في ليون، وذلك عن طريق سفير إسبانيا إلى باريس. وبعد عام، وعندما أصبح بابا، حوّل بولس الخامس الحلف المقدس إلى وحدة متخصصة بالاغتيالات الانتقائية.

وتمثلت فكرة بولس الخامس بإنشاء وحدة تابعة للحلف المقدس يكون أفرادها مستعدّين لأن يَقتلوا ويُقتلوا باسم الإيمان، ويستجيبون من دون تردد للأوامر الصادرة عن الحَبر الأعظم في روما. وكان البابا مأخوذاً كلّياً بقصص الفدائي التي يرويها لوباي دو باتيي في مخطوطه. وفي ذهنية بابا في القرن السابع عشر، يمكن منح الغفران الكامل لكاثوليكي مخلص فقد حياته في أثناء محاولة قتل مهرطِق ما. وإذا كان هذا المهرطق أميراً معارضاً للإيمان الحقيقي أو للذين يرعون مصالحه، يبلغ القاتل الكاثوليكي بالتأكيد الجنّة بسرعة. وكان بولس الخامس مستعداً لإطلاق يد وحدته العسكرية المؤلفة من كاثوليك فدائيين في طول أوروبا المضطربة وعرضها.

كان بولس الخامس مفتوناً أيضاً بالأساطير التي رواها غرهارد من ستراسبورغ عن مهمته الدبلوماسية 1175 في سوريا بطلب من فريديريك بارباروسا. وكتب

المبعوث في رسالة إلى إمبراطوره:

> هناك مِلّة تدعى هيسسيني تعيش بين دمشق وحلب. ويمتلك قائدهم، الأمير سنان، الذي تطيعه المِلّة، قصوراً عديدة ورائعة الجمال في الجبال محاطَة بجدران مرتفعة. يعيش القائد محاطاً بالخدَم الذين تعلّموا لغات متنوّعة كاليونانية، والرومانية، والعربية، إضافةً إلى لغات عديدة أخرى. وتعلّم هؤلاء الناس من صغَرهم حتى بلوغهم سن الرشد على أيدي مدرّسين، ويجب عليهم إطاعة مالك أراضيهم بكل ما يقول ويأمر ... ولُقِّنوا أيضاً أنه لن يكون بالإمكان إنقاذهم إذا قاوموا مشيئته بأي أمر. وتجدر الإشارة إلى أنهم لم يروا أحداً منذ أن تمّ خداعهم باستثناء مدرّسيهم وأسيادهم، ولم يتلقوا أمراً من شخص آخر باستثناء الأمير عندما يُستدعون للمثول أمامه لقتل أحدهم. وعندما يكونون في حضرة الأمير، يسألهم إذا كانوا مستعدين لإطاعة أوامره ... حينئذٍ، يرتمون عند قدمَيه، كما يُطلب منهم من دون إبداء أي اعتراض أو تشكيك، ويجيبون بحماسة أنهم سيطيعونه بكل ما يأمرهم به. وإثر ذلك، يعطي الأمير كلاً منهم خنجراً ذهبياً ويرسلهم لقتل الأمير المحدَّد.

بعد خمسمئة عام، وجد بولس الخامس تماثلاً تاريخياً كبيراً مع قصة غرهارد في القرن الثاني عشر. وكان البابا يجسّد الأمير سنان في القرن السابع عشر، ويجسّد كهنة الحلف المقدس فدائييه المستعدين للتضحية بحياتهم لتنفيذ أمر يصدره الحَبر الأعظم. واعتبر كميلو فرنيزي نفسه "رجل الأزمنة الغابرة" إلى حدٍّ ما في جبال ألاموت، مهد القتلة.

والمقطع الذي سرّ فرنيزي كثيراً يخبر كيف أن الأمير سنان كان يطلب من رجل آخر أن يتقدّمه كلما عبر الحقول على صهوة جواده، وهو يصيح: "فرّوا من

الرجل الذي يتحكم بموت وحياة الملوك والأمراء!"، وتمنّى البابا بولس الخامس أن يكون أمير القتلة ذاك الذي يتصرف باسم الإيمان.

فوفاة هنري الرابع ملك فرنسا ستكون أول وفاة بين الملوك والأمراء. لقد حافظ الملك الفرنسي على سياسة خارجية سلمية حتى العام 1609، ولكنه بدأ يُعدّ العدّة في أوائل العام التالي للتدخل في ألمانيا ضد عائلة هابسبورغ الكاثوليكية الحاكمة؛ هي خطة عارضها بعض الفرنسيين الكاثوليك. وخوفاً من التعرض للاغتيال، تجنّب الملك الاحتفالات العامة لعدة أشهر؛ لقد ثبتت صحة مشاعره المسبَقة الأكثر تسبباً بانقباض النفس.

ففي صباح 14 أيار/مايو، كان الملك على موعد للقاء دوق فاندوم، السفير الفرنسي إلى مدريد، وفيلروي، وزير خارجيته الوفيّ. وبينما كانا مارَّين بحدائق التويلري، اعترف هنري لدوق غيز بأنه يشعر بدنوّ أجَله لأن النجوم أشارت إلى ذلك، وكان الملك مولَعاً بالتنجيم.

وعندما أوى الملك إلى غرفته، وجد رسالة غير مختومة بالشمع. وبعد فضّها، قرأ ما يلي: "مولاي، لا تخرج بعد ظهر هذا اليوم أياً تكن الظروف". فتجاهل الملك التحذير واتجه إلى القصر برفقة حارسه الشخصي الثاني من حيث الرتبة، الكابتن براسلين. وأبى هنري الرابع بعد ذلك أن يكون بحماية براسلين.

ومع ذلك، كان هناك العديد من أفراد الحاشية الملكية معه في عربة الجياد: دوق إبرنون إلى يمينه، دوق مونتبازون والمارشال لافورس إلى يساره، وميربو وليانكورت قبالته. وكان هناك حارس على صهوة جواد يتبع العربة إضافةً إلى العديد من الخدَم. وعندما مرّوا بقصر لوغفيل، مدّ الملك رأسه خارج الباب وطلب من الحوذي الاتجاه إلى مدفن القديس إنّوقنطيوس. كان مكاناً غريباً يقوم ملك بزيارته، ولكن الحوذي بدّل وجهة الجياد من دون التعليق على ذلك. حتى تلك اللحظة، لم يلاحظ أحد وجود رجل ضخم البنية يحمل خنجراً ذا نصل مزدوج ويتبع العربة الملكية.

بعد دقائق قليلة، استدار الحوذي ليسلك طريق دو لا فيرونري وكان عليه الإبطاء بسبب ضيق الشارع ومجموعة المواطنين الذين أسرعوا للترحيب بالملك. ومع ذلك، حاول الحوذي دفع الجياد إلى الأمام، وسرعان ما علقت العربة الملكية بين عربة نقل بضائع كبيرة مليئة بالدِلاء وعربة أخرى مُثقَلة بالتِبن. وعندما حاول الحوذي الاستدارة، علقت إحدى عجلات العربة الملكية في الأخدود الذي أحدثته العجلة في التراب، وبقيت على هذا الحال لعدة دقائق.

في غضون ذلك، سلك الخدَم طريقاً مختصرة ليتمكنوا من انتظار الملك في المدفن، في حين وقفت مفرزة الخيالة المولَجة مهام الحراسة أمام مجموعة الأشخاص المهلّلين للملك. فأسند هنري الرابع ذراعه على كتف إبرنون بينما كان يقرأ رسالة رسمية. في تلك اللحظات، دنا الرجل الذي كان يتبعهم بسرعة من العربة، ووضع إحدى قدميه على متنها، وهاجم الملك بخنجره بأفضل التقنيات الفدائية. ولكن الضربة الأولى لم تُحدث سوى جرح سطحي في الصدر.

فرأى الملك بقعة حمراء على سترته تتسع شيئاً فشيئاً وعلم أنه أصيب بجرح. وسدّد القاتل ثانيةً، فاخترق خنجره هذه المرة رئة هنري وقطع الشريان الأبهر في القلب. كانت العملية سريعة جداً لدرجة أن أحداً لم يتسنَّ له التصرف بين طعنة وأخرى. ولفظ الملك كلمتَي، "ليس بالأمر المهم"، وذلك قبل السقوط جانبياً على مونتبازون والدم يتدفق من فمه. كانت الرابعة عصراً في 14 أيار/ مايو من العام 1610. ووقف قاتل الملك بجانب العربة والخنجر في يده بدلاً من الفرار في خضمّ حالة الاضطراب. وفجأةً، ظهر ثلاثة رجال من العدَم شاهرين سيوفهم، ورموا بأنفسهم على المهاجم صارخين: "الموت للقاتل". فارتدّ الحرَس الملكي على الرجال الثلاثة وأجبروهم على الفرار.

وأمر دوق إبرنون باصطحاب القاتل حياً إلى مكان آمن بعيداً عن غضب الجمهور المحتشد حول العربة الملكية.

ونُقل الملك إلى القصر بسرعة وتلقى العلاج من طبيبه الخاص، بُتي، ولكن لم

يكن هناك سبيل لإنقاذ حياته. لقد مات في الواقع إثر طعنة الخنجر الثانية القاتلة.

واصطحبت فصيلة من الحرَس الملكي المهاجم إلى قصر رتز بالقرب من اللوفر. وعثروا في ثيابه على ثماني قطع من النقود الفضية، وورقة تحمل اسم بيارد، وسُبحة، وقطعة مُبهَمة ثمانية الأضلاع من ورق الرِّق تحمل اسم يسوع على كل جانب. وكان اسم قاتل الملك جان فرانسوا رافاياك، وقد ادّعى أنه قدِم من مدينة أنغوليم وأنه في الثانية والثلاثين من عمره. كان رافاياك رجلاً ضخم البنية، أحمر الشعر، مع عينين غائرتين وأنف طويل. كان يبدو أكبر سناً مما ادّعى.

والأمر الأكثر غرابة أن إبرنون تذكّر رافاياك مذ كان حاكماً لأنغوليم. كان جان فرانسوا رافاياك قد أُرسل إلى إبرنون بطلب من كاهن يسوعي، هو الأب دوبيني. لقد أراد اليسوعيون أن يكون رافاياك الحارس الشخصي للحاكم وجاسوساً للحلف المقدس في آن.

وقال المحققون دو جانان، وبويون، ولوميني للقاتل إن الملك جُرح فقط، ويريدون أسماء المتآمرين الآخرين. وبرفضه التكلم، قُيّدت يدا وقدما رافاياك بالأصفاد واقتيد إلى برج مونتغمري في الكونسيرجري. وكان قاتل الملك يردّد التالي: "لم يشارك أي فرنسي أو روماني - أتباع البابا - أو يمدّ لي يد العون". ووجه بأدلة قاطعة تُورّط الكاهن اليسوعي دوبيني، ولكن ذلك لم يؤدِّ إلى أي نتيجة. وبعد محاكمته، حُكم عليه بالموت.

بعد إعدام رافاياك، ظهرت أدلة جديدة مرتبطة بالمؤامرة. لقد اتهمت إحدى خادمات مركيزة فيرنوي مستخدمها، دوق إبرنون، ودوق غيز بأنهما حثّا على اغتيال هنري الرابع مع اليسوعيين، مدّعيةً أنها سمعتهما يتآمران قبل بضعة أسابيع.

ولكنّ الخادمة اختفت بعد وقت قصير عندما عُيِّنت الملكة الأرملة وصيّة على عرش فرنسا حتى يبلغ ابنها البكر السنّ القانونية ليكون الملك لويس الثالث

عشر. في روما، أقام البابا بولس الخامس قداساً وقوراً إحياءً لذكرى الملك الراحل، في حين أُقيم قداس في ناحية منعزلة من سراديب المدينة الأزلية إحياءً لذكرى الكاثوليكي جان فرانسوا رافاياك.

بالتأكيد، كان هناك العديد من الأسئلة التي لم تجد إجابات عنها، مثل: من أين جاء الرجال المسلحون الثلاثة المعتمرون قلنسوّات داكنة والذين ظهروا بسرعة بعد الهجوم؟ من كانوا؟ من أرسلهم؟ من يخدمون؟ هل أرادوا إسكات منفّذ عملية القتل كي لا يتم الكشف عن مخططي العملية؟ هل كان دوق إبرون متورطاً؟ ما هو دور اليسوعيين في المؤامرة؟ من ترك الرسالة التحذيرية للملك؟ لم تتم الإجابة أبداً عن هذه الأسئلة.

أياً يكن الأمر، فقد اكتشفت الشرطة الفرنسية بعد سنوات أن جان فرانسوا رافاياك كان عضواً في مجموعة صوفية كاثوليكية غريبة تدعى الحلقة الثُمانية أو"مجموعة الثمانية". وكان أعضاؤها من المتعصّبين الكاثوليك الذين يدينون لبابا روما بالطاعة العمياء، ويتمتعون بجهوزية عسكرية وبقدرة على استخدام أسلحة خاصة، وهم مستعدون للموت في سبيل الدِّين الحقيقي. وشعار المجموعة عبارة عن شكل هندسي ثمانيّ الأضلاع يحمل كل ضلع اسم يسوع إضافةً إلى شعار الجماعة مُرفَق بعبارة: "مستعدون لآلام التعذيب، وهو الشعار نفسه الذي كان يحمله قاتل هنري الرابع.

وربط العديد من الكتب والأبحاث الحلقة الثُمانية السرّية والغامضة بالحلف المقدس ولكن لا وجود لدليل قاطع. وتبقى نشاطات هذه المنظمة ووجودها أموراً خيالية حتى يومنا هذا على غرار أصولها واسم مؤسسها.

وقررت الملكة الوصيّة على عرش فرنسا طرد الوزير الملكي الأعلى السابق، دوق سوللي، واستبداله بمغامر فلورنسي يدعى كونشينو كونشيني، وقد أصبح المفضَّل لديها بسرعة. وتمكن هذا الإيطالي من ترك بصماته على السياسات التي اتُّبعت في العقد الذي تلى العام 1610 لدرجة أن معاصريه وصفوه بالإجماع بأنه يمتلك

نفوذاً كبيراً بخلاف أي أجنبي آخر في البلاط الفرنسي. وأصبح كونشيني أيضاً أحد أفضل مصادر المعلومات في باريس للبابا بولس الخامس. فهو لم يكن عضواً في الحلف المقدس بل أحد الجواسيس الأكثر أهمية الذين حصل عليهم البابا في القرن السابع عشر.

ويُصرّ بعض المؤرخين على أن كونشينو كونشيني كان يأتمر بأوامر الكردينال اسكندر دي مديتشي قبل أن يغدو هذا الأخير البابا لاون الحادي عشر، ويساعد على إعداد شبكة الجواسيس البابوية الفرنسية في أثناء مهمة الكردينال في فرنسا. وسواءً كان ذلك صحيحاً أم لا، فمن المؤكد أن الفلورنسي ترك بصماته في أثناء فترة الوصاية كأحد الجواسيس البابويين الأكثر شهرة. وتدّعي مصادر أخرى أن كونشيني لم يخدم سوى كونشيني، وكان هدف عمله التجسسي في فرنسا التمتع بالنفوذ في أثناء فترة الوصاية.

ووفقاً للمؤرخ جيه أف دوبوست، ظهر نفوذه في ثلاث مراحل مختلفة: بين عامَي 1610 و1614، بين عامَي 1614 و1616، وأخيراً عام 1617. وفي الفترة الأولى، ركّز كونشينو كونشيني وزوجته ليونورا غاليغاي على جمع ثروة طائلة والحصول على أرض ومناصب بفضل علاقة ليونورا الوطيدة بالملكة الوصية. وأثمر تأثير زوجة كونشيني في ماري دي مديتشي فائدة اقتصادية كبرى للجاسوس الفلورنسي. وفي فترة قصيرة جداً من الزمن، باتت كلمته تؤخَذ في الاعتبار لتعيين أشخاص في مناصب عليا في مقر الإقامة الملكي ولاختيار أساقفة. وسمحت له الفوائد الاقتصادية بأن يصبح مركيز أنكر عام 1610 ويحمل لقب مارشال عام 1613. وفي غضون ثلاث سنوات فقط، ارتقى الإيطالي بفضل زوجته إلى حدٍّ ما من مجرّد مبعوث للكردينال دي مديتشي وجاسوس لا أهمية له لبولس الخامس إلى مارشال لفرنسا.

في ذلك العام عينه، بلغ الابن البكر للملكة السن القانونية وأصبح ملكاً، وباتت ماري دي مديتشي رئيسة للحكومة. وهكذا، تمكن الزوجان كونشيني من

الحفاظ على منصبيهما السابقين، ولكن العام 1616 كان عام ارتقائهم الأكبر.

لقد سعى كونشينو كونشيني وزوجته إلى توجيه السياسة الفرنسية كما يرتئيان. وأُشيع أن كونشيني وثّق عرى علاقاته ببولس الخامس. وعمل الفلرونسي على أن يفقد كل وزراء هنري الرابع المقتول وظائفهم، واستبدالهم بوزراء جدد يروقون له وللفاتيكان. فأصبح باربان وزيراً للمالية، ومانغو حافظاً للأختام، وريشليو وزيراً للخارجية.

وبلغ الإيطالي أماكن مرموقة بفضل شبكة التجسس التي أُنشئت في مطابخ العائلات الكبيرة في فرنسا، وكان العديد من هؤلاء الجواسيس قد عملوا لصالح الكردينال اسكندر دي مديتشي قبل أن يغدو لاون الحادي عشر.

كان كونشينو كونشيني، وهو ابن ونسيب وزراء يخدمون دوق توسكانا الأكبر، مؤيّداً للحكم الاستبدادي، وعزز النُصحُ الذي أسداه للويس الثالث عشر مفهومَ الحكم هذا. وبفضل قربه من الملك، كان على اطّلاع على الشؤون الفرنسية الكبيرة والصغيرة كافة، بدءاً بتعيين أسقف جديد وانتهاءً بالوثائق التي تناقش إمكانية قيام تحالفات مع دول أخرى. وكانت كل هذه المعلومات تُرسل إلى روما من خلال شبكة التجسس الكبيرة التابعة لبولس الخامس والتي أُنشئت في فرنسا.

ولم يُقم كونشينو كونشيني بنفسه صلة متينة مع الحلف المقدس، بل زوجته. وكانت غاليغاي قد احتفظت منذ العام 1601 بصلات وثيقة مع الملكة ماري دي مديتشي كونها وصيفة لها. وأكد بعض المؤرخين بأن زوجة كونشيني كانت في الواقع الصلة بين الملكة والحلف المقدس الذي أنشأه البابا إقليمنضس الثامن، عِلماً أنه لم تثبت صحة هذا الأمر بعد. وفي العام 1605، أصبح كونشيني من المقرَّبين إلى الملكة الموثوق بهم، مرتقياً في غضون تسع سنوات من رئيس للخدَم إلى أمين خزانة، وهو منصب كان يشغله عام 1617 عندما أفل نجمه.

في المراحل الأولى من الوصاية، ركز كونشينو كونشيني على تعيين أشخاص في

مناصب مرتبطة بالموارد المالية الفرنسية. ولدى تشكيل حكومة جديدة عام 161 إبّان حكم لويس الثالث عشر، غاص كونشيني أكثر فأكثر في شؤون البلد. في ذلك العام، كتب بنتيفوليو، القاصد الرسولي للفاتيكان، رسالة يمكن العثور عليها اليوم في المكتبة الوطنية الفرنسية، وجاء فيها:

> تحدّث المارشال - كونشيني - إليّ أيضاً عن هؤلاء الوزراء الثلاثة الجدد بوصفهم رجاله، وأبدى سروراً كبيراً بسبب ثَنائي على مانغو ولوسون اللذين كنت قد زرتهما، وقال لي إنه يجب عليّ أن أكنّ احتراماً أكبر لباربان لأنه قد يعلّم الآخرَين أموراً هامة.

من الواضح أن هؤلاء الرجال هم من صنع كونشينو كونشيني الجاسوس نظراً إلى أنهم يدينون له بوظائفهم. لقد أصبحوا خاضعين لقرارات الفلورنسي عندما تم تعيينهم.

وأحد التدابير التي اتخذها كونشيني وأثار معظم احتجاجات المواطنين وكرههم يتمثل بإنشاء حصن لاعتقال الخاضعين لسلطة الملك وليس لمقاومة هجمات المعتدين الأجانب. بالنسبة إلى كونشيني، كانت هذه الصروح الضخمة وسيلة لإظهار سلطة الحاكم الحقيقية للشعب وإن من خلال إثارة الخوف في نفوسهم. ولتنفيذ هذه السياسة، استدعى مارشال أنكر كبار الخبراء ومهندسين إيطاليين خدموا في الجيش الإسباني في فلاندرز: بومبيو فرانغيباني، أبولون دوغنانو، وجوزبي غموريني. وبين عامَي 1615 و1617، بدأ بتوسيع النفوذ الملكي بمساعدة الإيطاليين الثلاثة من خلال بناء حصون مماثلة، واستمر هذا المسعى إلى ما بعد وفاته. ومن الأمثلة المثيرة للدهشة عن سياسته المتّبَعة تحصين مونبلييه عام 1622، وتعزيز حصن سان نيكولا في مرسيليا عام 1660 وقلعة ترومبيت في بوردو عام 1675. والغريب في الأمر أن بالإمكان العثور على نسخات لتصاميم كل هذه التحصينات في الأرشيف السري للفاتيكان الذي تمّت فهرسته عام 1743 بطلب من البابا بندكتس الرابع عشر.

في العام 1617، دنت ساعة تصفية الحساب مع كونشيني. ففي تشرين الأول/ أكتوبر، وجد الفلورنسي نفسه وسط إعصار قادر على التسبب بحرب أهلية جديدة في فرنسا. عندها، وعملاً بنصيحة القاصد الرسولي بنتيفوليو، قرر البابا بولس الخامس قطع صلته بالزوجين كونشيني، وأمر كل عملاء الحلف المقدس بإيقاف أي نشاطات أمر الإيطالي بالقيام بها. ومذاك الحين، أُحيل كل أمر كان قد أصدره كونشيني إلى أعضاء جهاز التجسس البابوي في روما لمناقشته. وتراجُعُ شعبية كونشينو كونشيني لم يعرّض ماري دي مديتشي للشبهة فحسب، بل لويس الثالث عشر والملَكية أيضاً. وبدأ وِزر الرأي العام والنفور الشخصي للملك من المارشال يؤثّر شيئاً فشيئاً في النبلاء الذين باتوا يميلون إلى اعتبار كونشيني أجنبياً وجاسوساً بابوياً ليس إلا.

أخيراً، وبينما كان كونشيني متجهاً إلى قصر اللوفر سيراً على الأقدام في 24 نيسان/إبريل 1617، قام ثلاثة رجال مجهولي الهوية بطعنه حتى الموت. كان القتلة الثلاثة أعضاء في الحرَس الملكي للويس الثالث عشر، ونفّذوا المهمة تنفيذاً لأوامره الصريحة. "لا يمكن طرد رجل يتمتع بنفوذ كونشينو كونشيني"، قال الكردينال ريشليو في وقت لاحق. "كان يجب قتله". وأصبح ريشليو بالطبع أحد عمالقة السياسة الفرنسية والمتآمرين الفرنسيين أيضاً.

كان كونشينو كونشيني - وهو مغامر فلورنسي، ومارشال فرنسا، وجاسوس بابوي رفع الرشوة والتآمر السياسي إلى مستوى الفن - قد أصبح مصدر إزعاج للملك لويس، والوسيلة الوحيدة المتاحة أمام الملك للخروج من هذا المأزق إصدار الأمر لقاتليه. لقد ارتكب كونشيني ثلاثة أخطاء كبيرة، كتب القاصد الرسولي بنتيفوليو للبابا بولس الخامس: عرض للملأ الأموال الطائلة التي حصل عليها من الملك، وأظهر درجة من الثراء لا تلائم رجلاً من أصول متواضعة، والثروة التي أظهرها حصل عليها بوسائل منافية للأخلاق أو أقلّه مثيرة للشكوك.

وفي يوم اغتيال كونشيني، أصدر لويس الثالث عشر بنفسه أمراً باعتقال

ليونورا غاليغاي. لم يكن باستطاعة الملك ترك أي ثغرة، وكانت تُعتبر زوجة كونشيني ثغرة. فأصدر الملك الأمر للكردينال ريشليو كما يبدو للتخلص منها، وأعدّ المشهد الأخير للمسرحية.

فبدأ عملاء الكردينال ينشرون إشاعات في شوارع باريس حول تورط ليونورا غاليغاي بالشعوذة وممارسة السحر على الملكة ماري دي مديتشي. فاعتقل جنود الحرَس الملكي غاليغاي في منزلها القائم بقرب القصر بينما كانت تكتب رسالة للقاصد الرسولي بنتيفوليو تلتمس الحماية لها ولخدَمها في مقر إقامته.

وبعد البحث في منزلها، وجد الجنود ثلاثة كتب تحمل رموزاً سحرية، وخمس لفافات من المخمل الأحمر لتوجيه الأرواح، وبعض المدلَّيات التي تضعها حول عنقها. وباعتبارها طلاسم وتعويذات لطقوس شيطانية، شكلت كل هذه الأمور جزءاً من الدليل الذي وُجّهت إليها على أساسه تهمة الشعوذة. فوُجدت ليونورا غاليغاي، زوجة كونشينو كونشيني، وصيفة الملكة ماري دي مديتشي، وجاسوسة بولس الخامس، مُذنبة بممارسة الشعوذة وحُكم عليها بالموت. في اليوم التالي، وفي مكان مجهول، قام أفراد الحرَس الملكي الذين قتلوا زوجها بقطع رأسها. وأُحرقت الجثة في مَشعلة عام 1617.

كانت وفاة كونشينو كونشيني وزوجته فاتحة عصر جديد من المكائد في فرنسا التي قام الكردينال ريشليو، التلميذ النجم للجاسوس الفلورنسي وأحد أعظم رجال الدولة في عصره، بتدبّرها. ولكن كان للحلف المقدس أهداف أخرى مرتبطة باليسوعيين. فقد كان بولس الخامس مهتماً باستخدام الجاسوسية للفوز بالنفوس وإعادتها إلى الإيمان الكاثوليكي أكثر من اهتمامه باستخدامها لتحقيق مزيد من النفوذ الاقتصادي أو السياسي في أوروبا التي كانت تستنفد طاقاتها في حرب الثلاثين عاماً.

وفي 21 كانون الثاني/يناير 1621، توفّي بولس الخامس. وبعد ثلاثة أيام من اجتماع الكرادلة، أصبح الكردينال أليساندرو لودوفيزي خلفاً له وتبنّى اسم

غريغوريوس الخامس عشر. وعلى غرار الكردينال مافيو بربريني (الذي أصبح أُربانس الثامن في ما بعد)، كان لودوفيزي دبلوماسياً خبيراً وجاسوساً مقتدراً عمل في إسبانيا وفرنسا، ورعى مفاوضات للسلام بين فيليب الثالث ملك إسبانيا وشارل إيمانويل الأول ملك سافوا تمحورت حول تورّط مركيزية مونفيراتو. وفي 19 أيلول/سبتمبر 1616، رُقّي إلى درجة الكردينالية. وتوحي بعض الأدلة بأن البابا بولس الخامس عيّنه لإصلاح الحلف المقدس الذي أنشئ منذ اثنين وخمسين عاماً، ووضع مجموعة من القوانين لحكمه.

أحاط البابا غريغوريوس الخامس عشر نفسه بأفراد من العائلة عيّنهم في مناصب مرموقة في الفاتيكان. وكان ابن شقيقه لودوفيكو لودوفيزي أحد الأشخاص الأكثر أهمية في تاريخ الحلف المقدس. لقد وُلد في بولونيا، وأصبح على غرار البابا كردينالاً في الخامسة والعشرين من عمره يوم تتويج غريغوريوس. وأَوكل الحَبر الأعظم إلى ابن شقيقه الشاب مسؤولية الإشراف على الشؤون الدينية والسياسية، بما في ذلك عمليات التجسس.

لقد تميّز العامان اللذان قاد لودوفيكو لودوفيزي خلالهما الحلاف المقدس بحرب الثلاثين عاماً (1618-1648)، ولا سيما بخلافة متنازَع عليها في النمسا، وحروب في بوهيميا وبالاتينيت. وكان عملاؤه متورطين بالإطاحة بفريدريك الخامس البالاتيني، رئيس ما يدعى الاتحاد الإنجيلي، المؤهَّل لاختيار البابا، وبدعم ماكسيميليان من بارفاريا (1598-1641).

وفي 8 تموز/يوليو 1623، توفّي غريغوريوس الخامس عشر تاركاً الحلف المقدس في عهدة ابن شقيقه لودوفيزي، ولكن انتخاب بابا جديد أنهى مهنته كرئيس لجهاز التجسس البابوي. وأرسل أُربانس الثامن، خلف غريغوريوس، لودوفيزي إلى بولونيا حيث كان رئيس أساقفة منذ العام 1621، وبقي هناك حتى وفاته في 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1632 عن عمر ستة وثلاثين عاماً. ووفقاً لبعض المصادر، سمّم أتباع فريدريك الخامس البروتستانت للودوفيكو لودوفيزي الشاب انتقاماً

للدور الذي لعبه في الحرب ضد ماكسيميليان.

وبانتخاب مافيو بربريني بابا جديداً، بدأت إحدى الفترات الأكثر ظلمةً والأقل مجداً لجهاز التجسس البابوي الحَبري، ومن مختلف النواحي.

وُلد البابا المستقبلي في عائلة تاجر فلورنسي ثري يتّجر بالحرير الشرقي، وكان في الثالثة من عمره فقط عندما توفّي والده مما حمل والدته على أن تعهد به إلى اليسوعيين في مدينته الأم. وأُرسل بعد وقت قصير إلى اليسوعيين في روما. وبعد تحصيل علومه المدرسية هناك، درس الحقوق في جامعة بيزا. بدأ مهنته ككاهن برعاية عمه فرنشسكو باربيريني، وسرعان ما أصبحت مهنة ناجحة. وأرسلة إقليمنضس الثامن إلى فرنسا عام 1601 لتهنئة هنري الرابع بولادة ابنه البكر. وفي العام 1604، أصبح قاصداً رسولياً في باريس حيث وفّر دعماً كبيراً لليسوعيين.

في 11 أيلول/سبتمبر 1606، رفعه بولس الخامس إلى درجة الكردينالية، وألبسه الملك هنري الرابع بنفسه القلنسوّة أرجوانية اللون في احتفال مهيب. وبعد عامين، دُعي باربيريني حامياً لمملكة اسكتلندا.

وعلى غرار البابا أُربانس الثامن، فقد شُوّهت حَبريّته بسبب محاباة الأقارب والمَيل إلى تدبّر المكائد مستعيناً بعملاء الحلف المقدس عند الحاجة. وعلى غرار سلفه، أحاط البابا الجديد نفسه بحاشية كبيرة من الأقارب. ففي العام 1623، عيّن شقيقه الأكبر كارلو جنرالاً للجيش البابوي ودوقاً لمونتي ريدوندو. وفي تلك السنة عينها، أصبح ابن كارلو الأكبر سناً، فرنشسكو، كردينالاً بعمر ستة وعشرين عاماً. وفي العام التالي، عُيِّن شقيق فرنشسكو الأصغر، أنطونيو، كردينالاً على رأس مجمع التوبة الرسولي، وقيّماً رئيسياً على مكتبة الفاتيكان، وأمين الخزانة البابوية، ومدبِّراً لدائرة التوقيع الرسولي.

وبالرغم من أبّهة المناصب التي شغلها الكردينال الشاب وابن شقيق البابا، لم يتولَّ أنطونيو باربيريني أبداً مهمة قيادة الحلف المقدس. لقد كان ذلك العمل

حكراً على الكردينال لورنزو ماغالوتي دون غيره، وقد جمع بين مهمتَي توجيه جهاز المخابرات السري البابوي والاهتمام بشؤون وزارة الخارجية.

لقد احتكر ماغالوتي في الواقع كل سلطات مجمع الكرادلة مما أثار ردود فعل جدّية من زملائه. ولتهدئتهم، قرر أُربانس الثامن مكافأتهم بألقاب جديدة: "أصحاب النيافة" و"أمراء الكنيسة". ولكن مهمته الأكثر صعوبة تمثلت بمواجهة عبقري حقيقي بتدبّر المكائد، وأحد أعظم المتآمرين في القرن السابع عشر، وهو الكردينال ريشليو.

كان ريشليو قد أصبح أحد الرجال الأكثر اقتداراً في فرنسا. إنه متحدّر من عائلة تنتمي إلى سلالة نبلاء ذات موارد مالية محدودة مما حمله على إيجاد مهنة في الإطار الكنسي وأصبح أسقفاً. وسرعان ما اكتشف أن كل ما يحيط به في الواقع هو شأن من شؤون الدولة بدءاً بالاقتصاد وصولاً إلى الحروب الدينية. وبعد اغتيال هنري الرابع، وفي أثناء وصاية ماري دي مديتشي، حصل الكردينال ريشليو على لحظة المجد في ظل حماية كونشيني. ولكن ريشليو أُجبر على الذهاب إلى المنفى عندما تسلّم لويس الثالث عشر زمام الأمور وتخاصم مع كل الأشخاص المفضَّلين لدى الملكة.

في العام 1624، وعندما كان في سن الثامنة والثلاثين، تمكّن الكردينال من العودة إلى بلاط لويس الثالث عشر بفضل سلسلة من المؤامرات. واضطلع شيئاً فشيئاً بمقاليد الحكم إلى أن عُيِّن رسمياً رئيساً لوزراء فرنسا. واستهل مهنة عظيمة لخدمة فرنسا مستعيناً بالوسائل كافة، قانونيةً كانت أم غير قانونية. وكان فرانسوا لوكليرك دو تريمبلاي، المعروف أيضاً بالأب جوزيف، مساعده الرئيسي خارج القصر الملكي، وكان عميلاً سابقاً للحلف المقدس وعضواً في الحلقة الثُمانية، بطريقة ما،المحاطة بسرية فائقة والتي كان جان فرانسوا رافاياك، قاتل هنري الرابع، ينتمي إليها. ولم تتطرق كتب التاريخ إلى مسألة ما إذا كان تريمبلاي عقل ريشليو المفكّر إضافةً إلى كونه عينَيه وأذنَيه، أم أنه كان

ينفّذ أوامر الكردينال ليس إلا. ولكن التعاون القائم بين الكردينال والكاهن الدومينيكي كان الأكثر فعالية لحكم بلد وتدبّر مكائد على رقعة الشطرنج التي تمثّل أوروبا في أواسط القرن السابع عشر.

وُلد جوزيف دو تريمبلاي في باريس في تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1577. سمّي كاهناً عام 1604، وسافر إلى روما عام 1616 عندما كانت حَبرية بولس الخامس في لحظاتها الأكثر حرَجاً. أقام هناك صلات بأعضاء دومينيكيين آخرين في الحلف المقدس الذين علّموه أساليب التجسس المتَّبَعة في ذلك العصر كالتعقّب خِلسةً، والاغتيال بواسطة التسميم، وتقنيات الرسائل المشفَّرة. وعندما عاد إلى فرنسا، تنقّل بين مدن متنوّعة حتى نيسان/إبريل 1624 عندما بات من المقرَّبين إلى الكردينال ريشليو. ويؤكّد العديدون أن جوزيف دو تريمبلاي أصبح في العام نفسه، أو ربما في العام 1625، وزير الشؤون الخارجية غير الرسمي لفرنسا، وبات أيضاً أحد الأعداء الأكثر اقتناعاً بعدائهم لعملاء الحلف المقدس.

بالنسبة إلى ريشليو، لم تكن سلطة الملك المطلَقة غاية بحدّ ذاتها؛ فالملك هو الخادم الموجِّه للدولة. وكان الكردينال يميل إلى معارضة السياسة الأوروبية الخارجية القديمة التي خُصصت بالكامل تقريباً لمسائل دينية، ويؤيّد سياسات مرتبطة بدواعي قيام الدولة. فبالنسبة إليه، تتعارض المسائل الدينية ومصالح الدولة في معظم الأحيان. وأفضل مثال على ذلك معارضة فرنسا للتحالف الإسباني - الهابسبورغي، وهي معارضة آزرتها خشية البابا أُربانس الثامن من طموحات هابسبورغ في إيطاليا. وأحدث هذا الأمر شرخاً في الوحدة الكاثوليكية، وصب الزيت على نار حرب الثلاثين عاماً.

وشملت إحدى أكبر المؤامرات التي حاكها الحلف المقدس في فرنسا في زمن ريشليو إنشاء ما دُعي عصبة النبلاء. لقد عارضت مجموعة كبيرة من الأرستوقراطيين الكاثوليك الفرنسيين سياسة ريشليو المتمثلة بالتحالف مع الأعداء البروتستانت السابقين للقتال ضد إسبانيا، ولم يشأ الكردينال ماغالوتي أن

يراهم مضطهَدين بسبب موقفهم هذا. فعيّن ماغالوتي، نائب أُربانس الثامن الذي يثق به، كاهناً شاباً من سيينا بهدف إنشاء شبكة من النبلاء الكاثوليك المعارضين لريشليو وسياسته المعادية لإسبانيا.

وكان الكاهن جوليو غوارنييري المعنيّ ابن والد إيطالي ووالدة فرنسية. وكان والده تاجر شراب يجوب أنحاء فرنسا بحثاً عن مجموعات منوَّعة وجيدة من الشراب لتزويد العائلات النبيلة في باريس وسيينا وفلورنسا وروما بها. وسمح هذا الأمر لجوليو الشاب بإقامة صلات بطبقة النبلاء الفرنسية، وجني مبالغ كبيرة من المال أحياناً بوصفه مبعوثاً بين سياسيين فرنسيين وآخرين من مانتوا معارضين للمصالح الإسبانية.

وكونه رئيس الحلف المقدس، أراد ماغالوتي على الدوام أن يكون راسخ القدمين في فرنسا لمواجهة إمكانية توتر العلاقات مع إسبانيا إذا ثبتت عدم صوابية دعم أُربانس الثامن لريشليو.

وكان البابا قد أعلن أنه يفضّل الأهداف الفرنسية على المصالح الإسبانية في النزاعات القائمة بين فالتيلينا ومانتوا. فقد دعم في الحالة الأولى معاهدة مونسون عام 1626 التي تفصل المنطقة الكاثوليكية في فالتيلينا عن منطقة غريزون البروتستانتية. وفالتيلينا الواقعة عند الحدود مع فرنسا وإيطاليا وسويسرا كانت كما يبدو منطقة هامة، ولكن أُربانس الثامن وماغالوتي أرادا معرفة سبب اهتمام ريشليو بهذا الأمر. فقام عميل الحلف المقدس جوليو غوارنييري ذو الاطّلاع الجيد على شؤون المنطقة بفضل أسفاره التي قام بها مع والده بتوجيه الرسالة التالية إلى ماغالوتي:

> للكردينال ريشليو اهتمام كبير بفالتيلينا بسبب الوادي الضيّق ذي الأهمية الاستراتيجية الكبرى. فهذا الوادي يسمح بمرور جنود إسبان من لومباردي باتجاه ألمانيا وهولندا. وإذا أغلق الفرنسيون هذا الممرّ قطعوا طريق تواصل الإسبان مع الشمال

باستثناء البحر.

ووقعت المنطقة الاستراتيجية، كما توقّع غارنييري، أسيرة صراعات دينية للسيطرة على الوادي. فطلب الجانب البروتستانتي الدعم من البندقية وفرنسا، في حين طلب الجانب الكاثوليكي الدعم من إسبانيا والنمسا. وفي النهاية، احتل الإسبان فالتيلينا عام 1620 واحتل النمساويون وادي مونستر. ولم يرُق هذا الأمر لفرنسا، ووجد الكردينال ريشليو حلاً للمشكلة لصالحه من خلال خطوة ذكية. لقد ضمن الاستقلال الذاتي التام للسكان ما دام هؤلاء يمارسون الإيمان الكاثوليكي بشكل حصري. وكان ذلك نجاحاً للبابا الذي عيّن نفسه وسيطاً في مفاوضات السلام.

في غضون ذلك، كان غارنييري طليق اليدَين في مواصلة عمله داخل فرنسا بما يتلاءم وطبقة النبلاء الكاثوليكية المضطهَدة بسبب معارضتها لسياسة ريشليو المعادية لإسبانيا، وكان صلتهم الوحيدة بالفاتيكان وبأُربانس الثامن.

لم يكن موقف البابا أُربانس الثامن في أثناء هذه الأحداث المأساوية واضحاً جداً. فتعاطفه مع فرنسا وريشليو بالرغم من تحالفاتهما مع البروتستانت كان عُرضة لانتقاد مندوب الإمبراطورية الرومانية في روما، الكردينال بازماني. كان قد أُوحي قبل سنوات قليلة بأن جوليو غوارنييري، وربما رئيسه أيضاً الكردينال ماغالوتي، يعملان لصالح بازماني الذي أبلغ إسبانيا والإمبراطورية بتحركات الجنود البروتستانت.

وحاول جواسيس ريشليو عبَثاً طيلة أكثر من ثماني سنوات، وبقيادة جوزيف دو تريمبلاي، اكتشاف هوية جاسوس الكردينال ماغالوتي في فرنسا. وبلغوا حدّ دعوة جوليو غوارنييري "الجاسوس الشبح"، لا بل الاعتقاد أيضاً بأن ماغالوتي هو الذي ابتكره.

في غضون ذلك، وللتقليل من مكانة مجلس النمسا ورفع مكانة لويس الثالث عشر، تخلّى ريشليو عن التشديد على المبادئ الدينية وجعل كل فرنسا في حالة

خوف من الحرب. وكان هناك ندم بسبب حالة التناقض بين الصراع الديني والتسوية السياسية، وكان هذا الأمر سبباً لشعور جوزيف دو تريمبلاي بعذاب الضمير.

وتوفّي الجاسوس الفرنسي الأكبر بعد إصابته بسكتة دماغية عام 1638 في قلعة ريشليو في روي. وبعد أربع سنوات، توفّي أيضاً أرمان جان دو بليسي (ريشليو نفسه)، وأصبح الكردينال جول مازاران إيطالي الأصل وريثه السياسي. وفي 29 تموز/يوليو 1644، تبع البابا أُربانس الثامن دو تريمبلاي وريشليو إلى القبر، وكان برنيني قد نقش ضريحه في بازيلكا القديس بطرس. فبعد واحد وعشرين عاماً في منصب البابوية، ترك وراءه ذكرى كئيبة في أوساط الكاثوليك الذين اتهموه بلعب دور غادر في حرب الثلاثين عاماً.

واستمر جوليو غوارنييري، "الجاسوس الشبح"، بالعمل لصالح الحلف المقدس في فرنسا على عهد مازاران ولويس الرابع عشر. وانتهت الحقبة المظلمة التي كان يتعيّن على الجاسوسية البابوية العمل فيها لصالح القضية البروتستانتية بسبب حيادية أُربانس الثامن. وبفضل رجال من أمثال الكردينال لورنزو ماغالوتي، أُمِّنت الحماية للقضية الكاثوليكية في أوروبا الجائعة التي مزّقتها الحرب. وبدأت حقبة جديدة من التوسع.

الفصل الخامس
حقبة التوسع (1644-1691)

بموت البابا أُربانس الثامن، اجتمع الكرادلة مرةً أخرى لاختيار خلف له. ومرةً أخرى، وجد الكرادلة أنفسهم منقسمين عشائرياً ووفقاً للنزاعات القائمة. فمن جهة، عارض الجانب الإسباني - النمساوي السياسات السابقة للبابا، وبالتالي أي مرشح حصل على ترقية من أُربانس الثامن. ومن جهة أخرى، كان هناك الجانب الموالي لفرنسا بقيادة الكردينال أنطونيو باربيريني والمدعوم من قِبل باريس بشخص الكردينال جول مازاران نفسه.

كانت إسبانيا قد منحت دعمها الواضح للكردينال ساشيتي الذي طرح الكردينال فرنشسكو باربيريني (نسيب ساشيتي) اسمه ورفضه مازاران. وبعد أيام قليلة، وفي 15 أيلول/سبتمبر 1644، قرر باربيريني توحيد الرأي في ما يتعلق بترشيح الكردينال جيوفاني باتيستا بامفيلي الذي اتخذ اسم إنّوقنطيوس العاشر، وكان رجلاً مُسناً في الثانية والسبعين من العمر.

اتّبع البابا الجديد تقليد تعيين أفراد عائلته في مناصب مرموقة في الهرمية الكنسية. وتمثلت المشكلة التي واجهها بكون الشخص الأكثر تأهّلاً للقيام بهذا الدور الرائد هي امرأة، أي أوليمبيا مايدلكيني زوجة شقيقه.

كانت أوليمبيا امرأة قوية وأرملة الشقيق الأكبر للبابا، وقد تمكنت بعد وفاته من رفع كل أبنائه إلى مناصب اجتماعية مرموقة. وكافأ إنّوقنطيوس العاشر ابن شقيقه كاميليو بامفيلي، الابن الأكبر لأوليمبيا، برتبة الكردينالية. وهكذا، تمكنت والدة الكردينال الجديد من توجيه البابا أو إسداء النُصح له من خلال ابنها.

وفي وقت قصير، أصبحت أوليمبيا مايدلكيني أحد الأفراد الأكثر تمتعاً بالنفوذ المحيطين بالبابا، وذلك بالرغم من عدم السماح لها بإجراء حديث خاص معه. وكانت كل التبليغات والأوامر تمرّ عبر ابنها الكردينال كاميليو بامفيلي، ابن شقيق البابا.

في السنوات الثلاث الأولى من هذه الولاية الحَبرية، لم تقدّم أوليمبيا النُصح للبابا إلا في قضايا سياسية قليلة الأهمية، كالمسائل المتعلقة بالبنية التحتية الرومانية، والعائلات النبيلة التي يُفترض مساندتها وتلك التي يُفترض معاقبتها. وفي كانون الثاني/يناير 1647، تخلّى كاميليو بامفيلي، وهو القناة السرية بين إنّوقنطيوس العاشر وأوليمبيا مايدلكيني، عن رتبته وكهنوته للزواج بأوليمبيا ألدوبرانديني، ابنة شقيق إقليمنضس الثامن وأرملة باولو بورغيزي. فكانت هناك حاجة إلى مبعوث بديل؛ رزين بالطبع.

فمنح البابا رتبة الكردينالية لفرنشسكو مايدلكيني وكاميليو أستالي، وكلاهما من أنسباء أوليمبيا، ليصبحا دميتين بيدَيه ويدَي زوجة شقيقه. وأوليمبيا هي التي أوصت الحَبر الأعظم بتعيين الكردينال بانشيرولي وزيراً للخارجية ومشرفاً على الحلف المقدس. وتبع هذا الأخير الطريق الذي سلكه أُربانس الثامن المؤدي إلى توحيد مسار جهاز التجسس البابوي وسياسة الكنيسة.

وتحكّمت أوليمبيا بالحلف المقدس، وبشكل رسمي، من خلال بانشيرولي. فهي لم تحضر سرّاً الاجتماعات بين إنّوقنطيوس العاشر ووزير خارجيته فحسب، بل اتخذت أيضاً قرارات في شأن نوعية العمليات التي يُفترض القيام بها. وكانت فرنسا بشخص الكردينال مازاران أحد الأعداء الرئيسيين للحلف المقدس، ولكن مايدلكيني عالجت الوضع القائم بلمسة أنثوية.

كان لويس الثالث عشر قد توفّي بعد ريشليو بأشهر قليلة وخلفه ابنه لويس الرابع عشر. ونظراً إلى صُغر سنّ الملك الجديد البالغ من العمر خمس سنوات، مارست والدته آن من النمسا الحكم كونها وصية على العرش الفرنسي. فعيّنت الملكة الأم الكردينال جول مازاران رئيساً لمجلسها. وكان مازاران (الذي دعاه أعداؤه مذاك الحين "الصقلّي الهزيل" بسبب أصوله وميوله) على طريق السيطرة التامة على سلطة الدولة في فرنسا.

لقد أقام مازاران في بادئ الأمر صداقة وثيقة مع رئيسه ريشليو عندما كان

قاصداً رسولياً في فرنسا. وتخلى بعد ذلك عن خدمة البابا وأصبح جزءاً من جهاز سلطة الدولة في باريس، وما تلى ذلك جاء نتيجةً لثقة الملكة آن التامة به ولعدم كفاءة بقية أفراد العائلة الملكية.

وشيئاً فشيئاً، تدهورت الأمور لدرجة أن غالبية طبقة النبلاء الكاثوليكية بدأت بالتآمر ضد سلطة الدولة التي اتخذت منحى استبدادياً بشكل متزايد. وأيّد الحلف المقدس هذه المكائد جزئياً وموّلها كما ادُّعي وفقاً لتوصية رئيسة الظل أوليمبيا مايدلكيني.

وتمكّن الكردينال مازاران من تسريب جواسيس إلى داخل الفاتيكان رفعوا إليه تقارير عن الخطط التي وضعها البابا ضد فرنسا. ورداً على ذلك، أنشأت مايدلكيني منظمة تجسس مضاد داخل الحلف المقدس عُرفت بالمنظمة السوداء. وكانت مهمة أفرادها تحديد هوية عملاء مازاران وإعدامهم على الفور.

لهذه الغاية، تلقّى أفراد المنظمة الأحد عشر، الذين اختارتهم مايدلكيني بنفسها من صفوف الحلف المقدس، ختماً حَبرياً منقوشاً على الفضة مع صورة امرأة في رداء فضفاض تحمل صليباً بيد وسيفاً باليد الأخرى. من الواضح أن شعار المنظمة السوداء يشيد بالمشرفة على جهاز التجسس البابوي.

وكان كاهن جنويّ يدعى ألبرتو ميركاتي أحد أفضل جواسيس مازاران في الفاتيكان. لقد تم تجنيده عندما كان مازاران قاصداً رسولياً بابوياً في فرنسا. وعندما عاد إلى روما، أصبح ميركاتي فرداً من الوسط المحيط ببانشيرولي، وأُلحق بوزارة الخارجية بصفته خبيراً بالشؤون الفرنسية. وبين عامَي 1647 و1650، وقعت وثائق هامة متعلقة بفرنسا بين يدَي ألبرتو ميركاتي، وأرسل محتوياتها إلى مازاران عبر نظام معقَّد من المرسَلين.

كان ميركاتي يعلم أن رهبان المنظمة السوداء كانوا في إثره، وأن أوليمبيا مايدلكيني نفسها كانت قد وعدت بإلقاء القبض على أي جاسوس داخلي يعمل

بحماية مسؤول كنسي مرموق. بالنسبة إلى الجاسوس، أصبح هذا النضال لعبة أكثر منه مجرد تجسس عادي. فترك ميركاتي أدلة كاذبة في الفنادق والمقاهي في محاولة للتخلص من عملاء الحلف المقدس، ولكنه كان يعلم أيضاً أن المنظمة السوداء ستكتشف هويته عاجلاً أم آجلاً.

وحركة فروند هي إحدى الحركات التي أنشأها الحلف المقدس وكشف ألبرتو ميركاتي النقاب عنها. لقد أنشأ هذه الحركة المناهضة لمازاران وللاستبداد نبلاء كاثوليك ذوو مراتب مرموقة أُجبروا على دفع ضرائب مرتفعة انتهت إلى صناديق المال التابعة للكردينال وأتباعه بموافقة الوصيّة على العرش، آن من النمسا. ومصدر اسم الحركة ("النقّافة") لعبة أطفال باريسيين تعود إلى القرن السابع عشر.

ورفض العديد من الممثلين في الجمعية التشريعية الذين يشكلون حركة فروند إقرار ضرائب جديدة من دون موافقة برلمانية. وأكدوا كذلك على أنه لا يمكن إعاقة أي مسألة متعلقة بالملك لأكثر من أربع وعشرين ساعة من دون الاستفسار عنها وإرسالها إلى أحد القضاة.

وبفضل وثيقة أرسلها عميل فرنسي للكردينال بانشيرولي، علِم الجاسوس ألبرتو ميركاتي بأن الفاتيكان وإنّوقنطيوس العاشر متورّطان في المؤامرة ضد مازاران. وحاول المتسلل توجيه رسالة طارئة لمازاران يُبلغه فيها عن المؤامرة التي تحوكها منظمة تدعى فروند للإطاحة بالملك لويس الرابع عشر، والملكة آن من النمسا، ومازاران. ولكن الرسالة لم تصِل قط.

لقد سُلّمت الرسالة غير الموقَّعة في الواقع إلى أحد أفراد حرَس البابا السويسريين، وهو فرنسي. وكان من المُفترض به أن يحملها إلى باريس، ولكن رهبان المنظمة السوداء اعترضوا رسالة ميركاتي المشفَّرة. ووُجدت جثة جندي البابا في اليوم التالي مدلاّة من جسر ويداه مبتورتان، وقد عُلّق على الجثة قطعة صغيرة ومستطيلة من القماش الأسود مع شريطين أحمرين، وهو رمز المنظمة

السوداء.

في ذلك اليوم عينه، حمل رئيس الحرَس السويسريين الرسالة لأوليمبيا مايدلكيني ليتم إتلافها، في حين كانت الثورة في فرنسا مستمرة. وسرعان ما ساد قتال الشوارع باريس وانتشرت فيها المتاريس. كانت فرنسا تتأرجح على حافة حرب أهلية بين أتباع آن من النمسا والكردينال جول مازاران من جهة، ومؤيّدي أمير كونديه، لويس دو بوربون، الذي أراد عزل الكردينال، من جهة أخرى. ولدعم كونديه، أرسل إنّوقنطيوس العاشر كردينال رتز، وهو غاسكوني وعم لويس الرابع عشر.

لم يكن الأعضاء الأكثر أهمية في حركة فروند واثقين تماماً من ولاءات كردينال رتز، ولكنه كان موفَد روما بالرغم من كل شيء ويلقى تأييد لويس دو بوربون وإنّوقنطيوس العاشر.

وفي غضون ثلاثة أشهر، أُخمدت حالة التمرد. ودام سلام مؤقت حتى العام 16 عندما اعتقل مازاران لويس دو بوربون وأثار حفيظة حركة فروند مرة ثانية، ودام الوضع على هذا الحال حتى العام 1652. في الواقع، تعود فكرة اعتقال أمير كونديه إلى آن من النمسا التي سئمت من وقاحة النبيل، وشهوته للسلطة، وتَوقه إلى الحلول مكان الكردينال. ولكن عملاء الحلف المقدس في باريس آثروا حمل عامة الناس على الاعتقاد بأن اعتقاله جاء نتيجةً لمؤامرة حاكها الكردينال مازاران غير المرغوب فيه، وهي حيلة صبّت الزيت على النار.

وثارت مقاطعتا بورغوندي وأكيتين بسبب اعتقال كونديه، كما كان حال دوق لورين وكونت هاركور. وشهر مواطنو باريس السلاح في حين طالب البرلمان بنفي مازاران. وبدلاً من ذلك، قرر مازاران إطلاق سراح لويس دو بوربون واللجوء إلى ألمانيا مؤقتاً.

في غضون ذلك، وبعد وفاة الكردينال بانشيرولي في وقت مبكّر من العام 1651، استمرت أوليمبيا مايدلكيني بتوجيه الحلف المقدس من روما. فعيّن

إنّوقنطيوس العاشر الكردينال فابيو كيجي (إسكندر السابع المستقبلي) مكان بانشيرولي. وأراد كيجي التحكم بالأجهزة التابعة للسلطة في الفاتيكان، بما في ذلك الحلف المقدس، ولكن مايدلكيني كانت عائقاً أمامه.

أخيراً، عقد كيجي اتفاقاً مع مايدلكيني بوساطة من إنّوقنطيوس العاشر جرّدها من إشرافها على الحلف المقدس وعملائه، وترك لها مسؤولية الاهتمام بشؤون المنظمة السوداء. لم يكن أمام زوجة شقيق البابا سوى القبول. فبالرغم من كل شيء، إن اعتقال الجاسوس الداخلي لمازاران هو ما تريده أكثر من أي شيء آخر.

وفي 6 أيلول/سبتمبر 1652، وُجد ألبرتو ميركاتي الجنوي مشنوقاً في منزله في روما. وكانت في فمه قطعة قماش سوداء صغيرة مع شريطين أحمرين متصالبين. لقد طالت الذراع الطويلة للمنظمة السوداء أحد جواسيس العدوّ الأكثر دهاءً ونشاطاً في الفاتيكان. لقد اتهم الجاسوس قبل وفاته الكردينال بانشيرولي، كما زُعم، بإصدار أمر له بتمرير معلومات لمازاران، ولكنه ادّعاء لم تثبت صحته أبداً.

في 7 كانون الثاني/يناير 1655، توفّي إنّوقنطيوس العاشر عن عمر واحد وثمانين عاماً. وعُرضت جثته على الملأ لبضع ساعات في بازيلكا القديس بطرس، ومن ثم نُقلت إلى غرفة مظلمة حيث يضع العمال أدواتهم لأن أحداً لم يكن يدري ما الذي يتعيّن القيام به في شأن الجثة. وأُودع في وقت لاحق في ضريح متواضع في كنيسة القديسة أغنيس في البياتزا نافونا التي تشهد أكبر عدد من الزيارات. وبوفاة إنّوقنطيوس العاشر، غاب آخر باباوات حركة الإصلاح الديني المضاد عن مسرح الأحداث.

مرةً أخرى، كان على القوى الكبرى في أوروبا أن تقرّر من سيكون على رأس الكنيسة الكاثوليكية. وكان الكردينال ساشيتي الأوفر حظاً، وهو أحد أكبر أعداء الحلف المقدس، وقد دعا الحلف "أداةً للشرير لا نفع منها سوى ارتكاب الشر في الظلمات". وكان ساشيتي قد أعرب علانيةً عن ارتيابه من وجود ذراعٍ قوية

للكنيسة لم يتمكن الباباوات أنفسهم من التحكم بها. وهذا الموقف هو الذي حال ربما دون اختياره خلَفاً لإنّوقنطيوس العاشر.

والكردينال فابيو كيجي الذي كان قد وجّه الحلف المقدس منذ العام 1651، لم يكن راغباً في رؤية زوال جهاز التجسس الذي زُهقت في سبيله الكثير من الأرواح. لذلك، اتخذ قراراً خطراً وأخبر فيليب الرابع ملك إسبانيا عن نشاطات الكردينال ساشيتي الموالية للفرنسيين بشكل واضح وعن صداقته المحتمَلة مع الكردينال مازاران. واستناداً إلى هذه المعلومات، قرر الملك قطع الطريق على ساشيتي ودعم كيجي الموالي ليكون خلَفاً لإنّوقنطيوس العاشر. وأخيراً، وبعد أربعة أشهر من اجتماعات الكرادلة، انتخب مجمع الكرادلة فابيو كيجي بابا في 7 نيسان/إبريل 1655، واتخذ لنفسه اسم البابا إسكندر السابع.

لقد وقعت حَبريّته في شرَك عشرات المؤامرات السياسية ونزاع مفتوح مع فرنسا، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى ضعف الدويلات البابوية بعد توقيع معاهدة سلام وستفاليا عام 1648.

كان إسكندر السابع رجلاً ذا مهارات دبلوماسية جليّة. وفضّل البابا الجديد اتخاذ قراراته الخاصة بعد استشارة الخبراء في كل مسألة، مبتعداً عن محاباة الأقارب التي اعتمدها أسلافه.

وبعد التدبير الأول الذي اتخذه، قرر البابا الجديد إصلاح الإدارة البابوية الرومانية بأكملها، بما في ذلك أجهزة المخابرات السرية. وأثّر ذلك التدبير في أوليمبيا مايدلكيني التي كانت لا تزال تتحكم بشؤون المنظمة السوداء. وأرغم البابا مايدلكيني على تسليم زمام أمور هذه المنظمة الغامضة للحلف المقدس، وحَلّ المنظمة والطلب من أعضائها التعهد بإطاعة الحَبر الجديد، وأخيراً، اعتزال الحياة العامة طَوعاً مقابل مبلغ ضخم من المال.

وامتثالاً لإسكندر السابع، وافقت أوليمبيا مايدلكيني التي كانت لا تزال تتمتع بالنفوذ على كل مطالبه وانكفأت إلى مسكنها الروماني حتى وفاتها عام 1657

عن عمر أربعة وستين عاماً. وهكذا انتهت إحدى الفترات الأكثر كلوحاً وإثارةً للدهشة في تاريخ التجسس الفاتيكاني. وكانت القيادة الجديدة للحلف المقدس من نصيب الكردينال كورادو، مؤرِّخ وثائق لجنة الحصانة.

كان الكردينال كورادو يفتقر إلى الخبرة السياسية، وأكثر من ذلك، إلى الخبرة في مسائل تدبّر المكائد وتسيير منظمة كالحلف المقدس تتمتع بهذا القدر من النفوذ. كان أكثر اهتماماً بالدراسات الدينية منه بأمور دنيوية كجهاز التجسس بالرغم من كونه مسؤولاً عن حماية مصالح البابا والكنيسة الكاثوليكية في قارة معادية أكثر فأكثر للدويلات البابوية.

كانت العلاقات بين روما وباريس تمر بمرحلة صعبة. ففرنسا لم تكن قادرة على إلحاق الهزيمة بإسبانيا في الخارج، وبقي وضعها الداخلي غير مستقر بعد حركة فروند الأخيرة. ووزير المالية فوكيه هو الرجل القوي الجديد إلى جانب مازارن الضعيف، وكان طموحه وجشعه أكبر من طموح وجشع سلفيه مازاران وريشليو. وشهدت شوارع العاصمة أعمال شغب دينية بقيادة اليشينيين المطالبين بإصلاح كاثوليكي، وبدأ الأمر يؤثّر في الحكومة والتاج. واكتسب مازاران قدرة جديدة لمواصلة حربه ضد إسبانيا من خلال معاهدة الصداقة الإنكلو-فرنسية الجديدة التي تم التوقيع عليها عام 1655 مع أوليفر كromويل، اللورد الحامي لإنكلترا. وقد أجبرت الخسائر التي مُنيت بها إسبانيا في دنكرك وجامايكا فيليب الثاني على توقيع معاهدة سلام.

وتمحورت المفاوضات التي خططت الملكة الفرنسية لها، آن من النمسا، والكردينال مازاران، حول زواج محتمَل للملك الشاب لويس الرابع عشر بابنة فيليب الرابع ماريا تيريزا. وبدا البابا إسكندر السابع ومستشاره الكردينال سفورزا بالافيتشينو مؤيّدَين لهذه الخطة. كان بالافيتشينو قد أصبح أحد المستشارين الأكثر تقرّباً من البابا لدرجة أنه تسلّم قيادة الحلف المقدس بدلاً من الكردينال كورادو. كان يرى في هذا الزواج الملكي وسيلة للتخفيف من حدة

العدائية الفرنسية للدويلات البابوية الضعيفة.

وأدى الزواج الذي اقتُرح عام 1658 إلى توقيع سلام البيرينيه عند الحدود الإسبانية-الفرنسية في 7 تشرين الثاني/نوفمبر من العام التالي. وفي هذه الوثيقة التي تعكس قدرة إسكندر السابع، قدّمت فرنسا عدداً من التنازلات. فاستعاد كونديه، قائد فروند، ممتلكاته؛ وغادر الجنود الفرنسيون كاتالونيا وعدداً من المناطق الأصغر حجماً التي عادت إلى السيادة الإسبانية؛ وتخلت فرنسا عن البرتغال التي احتفظت باستقلالها عن إسبانيا، ولم يُمَسّ النفوذ الإسباني في إيطاليا وفرانش-كونتيه في بورغوندي. لقد وُقّعت معاهدة سلام البيرينيه في أجواء هادئة على غرار معاهدة وستفاليا، ولكن فرنسا كانت تبدو قوة أوروبية صاعدة مقارنةً مع إسبانيا التي تزداد ضعفاً. وفي 9 آذار/مارس 1661، توفّي الكردينال مازاران مُفسحاً الطريق أمام الحكم المطلَق لملَكية لويس الرابع عشر والنفوذ الفرنسي في أنحاء أوروبا كافة.

في هذه السنوات، كان البابا إسكندر السابع شاهداً عرَضياً على معظم التطورات الأوروبية. فما أراده بابا روما على الأقل هو إثارة غضب فرنسا المجاورة القوية، ولكن هناك من سعى إلى إثارة ذلك الغضب على نحو يهدد بمواجهة مخاطر.

لقد وقعت حادثتان خطيرتان أوشكتا على التسبب بحرب مفتوحة بين لويس الرابع عشر والبابا إسكندر السابع. حدثت الأولى في 11 حزيران/يونيو 1662 عندما حاول سفير فرنسا الجديد إلى روما، دوق كريكي، بمواكبة مئتين من رجال الحرَس المسلحين حمل البابا على إجراء مقابلة معه. واعتقد كريكي أنه سيكون على إسكندر السابع الاستماع إليه بوصفه مندوباً للويس الرابع عشر، ولكن الحَبر الأعظم لم يكن ميّالاً إلى ذلك. فأمر الكردينال بالافيتشينو حرس البابا الكورسيكيين بالاحتشاد في مدخل مقر الإقامة البابوي لإحباط أي محاولة للقوات الفرنسية المسلحة بدخول غرف الحَبر الأعظم. فاحتج السفير كريكي

لدى الكردينال روسبيليوزي، وزير الخارجية. وأطلع الدوق الملك لويس الرابع عشر على الإهانة التي لحقت به بوصفه مندوباً للعرش الفرنسي في روما.

ووقع الحادث الثاني في 20 آب/أغسطس 1662 عندما تشاجر أربعة رجال، هم من عملاء الحلف المقدس كما يبدو، مع ثلاثة دبلوماسيين فرنسيين. فما بدأ نقاشاً تحول إلى قتال بالسيوف في الشارع القريب من قصر فارنيزي الذي يأوي البعثة الدبلوماسية الفرنسية. ولفَت صوت صليل السيوف انتباه دورية من الحرس الكورسيكيين ومفرزة من الجنود الفرنسيين الذين يحمون الموقع الدبلوماسي. ولدى وصولهم إلى مسرح الأحداث، وجدوا فرنسيَّين وأحد عملاء الحلف المقدس مصابين بجروح مميتة. واعتقل الحرس الكورسيكيون العملاء الآخرين بعد مواجهة مع الجنود الفرنسيين ووضعوهم في زنزانة في إحدى ثُكناتهم.

ومع ذلك، أُطلق سراح عملاء الحلف المقدس الثلاثة عندما ثبت في النهاية أنهم أعضاء سابقون في المنظمة السوداء بقيادة أوليمبيا مايدلكيني. كان الكردينال بالافيتشينو قد قرر كما يبدو إحياء جهاز التجسس المضاد مخالفاً بذلك أوامر البابا إسكندر السابع. لقد أراد سفورزا بالافيتشينو المحافظة على رجال مايدلكيني كنواة قوة ضاربة ووضع يده على الأسرار التي تراكمت في السنوات التي كانت فيها زوجة شقيق إنّوقنطيوس العاشر تدير شؤون جهاز التجسس البابوي.

عندما بلغت أخبار الصدام الثاني باريس، أمر لويس الرابع عشر بطرد القاصد الرسولي البابوي على الفور. واحتل الجنود الفرنسيون المستنفَرون أفينيون، وصدر أمر للجيش بأكمله بالاستعداد لحملة عقابية طويلة الأمد ضد دولة الفاتيكان المفرطة في غرورها. كانت الحرب عند أبواب روما من دون أن يكون باستطاعة إسبانيا الضعيفة في ظل فيليب الرابع القيام بأي شيء.

فحاول إسكندر السابع الاستعانة بدوق سافوا الوصي على العرش، وهو نسيب

لويس الرابع عشر، للتوسط بين الفريقين، ولكن هذا المسعى قد فشل. وكان على البابا الموافقة على الشروط المُذلّة لمعاهدة بيزا التي وُقّعت في 12 شباط/ فبراير 1664. فأُرسل الكردينال إمبريالي، حاكم روما، إلى باريس للاعتذار من الملك. وأُرسل ماريو وأغسطينوس كيجي، وهما من أنسباء البابا، إلى قصر فارنيزي للاعتذار من السفير الفرنسي، دوق كريكي. وأُعفي أفراد الحرس الكورسيكيين من مهامهم وحُلّت وحدتهم. واحتجب الكردينال بالافيتشينو عن الأنظار محتفظاً بنفوذه وراء الكواليس. في غضون ذلك، حفظ البابا إسكندر السابع مكانته في التاريخ بإعلان "بيان سري" في 18 شباط/فبراير 1664 احتج فيه على الأعباء الفرنسية التي أثقلت كاهل الفاتيكان وعلى معاهدة بيزا التي وُقّع عليها قبل ستة أيام فقط لإنقاذ إيطاليا من الاحتلال الأجنبي:

> نعلن في ما يتعلق بهذه الأعمال بأننا نعارض العنف والقوة، عِلماً أنه ليس باستطاعتنا مقاومة ما فُرض علينا رغماً عنا ومن دون موافقة منا. فليُعتبر هذا التصريح والاحتجاج دفاعاً عن الحقيقة بكل قوتنا حتى وإن كنا غير قادرين على إعلانه على الملأ.

من الواضح أن القسوة التي أبداها لويس الرابع عشر للبابا بعد حادثة 20 آب/أغسطس لم تكن سوى ذريعة لإذلال روما، إضافةً إلى إسكندر السابع وإدارته، والكنيسة الكاثوليكية. وعندما كان على فراش الموت، عبّر الحَبر الأعظم لدوق شولن عن اشمئزازه من إساءة المعاملة التي تعرّض لها القاصد الرسولي في باريس والأضرار التي لحقت بالكنيسة في فرنسا من قِبَل السلطة الملكية. توفّي إسكندر في 22 أيار/مايو 1667 عن عمر تسعة وستين عاماً ودُفن في الضريح الرائع الذي شيّده له برنيني في بازيلكا القديس بطرس.

لقد أدّت وفاة إسكندر إلى موجة جديدة من عمليات الحلف المقدس، وهذه المرة في آسيا.

وبدءاً بالعام 1668، بدأت البعثات الدبلوماسية الأوروبية بترسيخ أقدامها في الصين بعد موافقة حكومة تشينغ التي تسلمت الحكم إثر انهيار أسرة مينغ. فذهب الهولنديون عام 1668، والبرتغاليون عام 1670، وتلتهم سفارتا روسيا والدويلات البابوية في بداية القرن الثامن عشر. وأدى ذلك إلى نقل المشاكل السياسية والدينية التي تعاني منها أوروبا إلى الصين التي أصبحت أرضاً خصبة لعمليات جواسيس مختلف الفرقاء.

والجاسوس الأول الذي لقي حتفه في الصين هولندي يدعى أولفرت دابر، وكان قد وصل إلى آسيا عام 1667 تنفيذاً لأوامر فان هورن. وتمثلت مهمته بالتوصل إلى اتفاق مع مسؤولين رفيعي المقام في بلاط تشينغ لمنح هولندا امتيازاً اقتصادياً حصرياً بمعزل عن القوى الأوروبية الأخرى. وتضمّن الاتفاق إعفاءً ضريبياً للسفن الهولندية كافة التي ترسو في موانئ صينية.

وعندما علم البابا إقليمنضس التاسع، خلف إسكندر السابع، بالمخططات الهولندية، أصدر أمراً لعملائه بإلغاء أي إعاقة مماثلة للملاحة ولمصالح الدول الكاثوليكية في الصين. وفي 11 تشرين الأول/أكتوبر 1668، عُثر على أولفرت دابر ورأسه المقطوع في حي فقير مجاورٍ لميناء تسانتون.

فاستنتج السكان الأوروبيون أنها تصفية حسابات بين فصيل صيني ودابر، بالرغم من سريان شائعات في أوساط البعثات بأن الدبلوماسي والتاجر الهولندي أُعدم من قِبَل حلقة ثُمانية مزعومة كان قاتل هنري الرابع، جان فرانسوا رافاياك، ينتمي إليها. على أي حال، أعاقت وفاة أولفرت دابر توقيع الاتفاق التجاري الهولندي-الصيني لعدة سنوات.

ووفاة إقليمنضس التاسع الفجائية في 9 كانون الأول/ديسمبر 1669 جعلت منه بابا انتقالياً لمدة قصيرة من الزمن. وهذه المرة، تنافست ست فصائل على الأقل في اختيار خلف له. فالإسبان المتحالفون مع الكردينال كيجي روّجوا للكردينال سكيبيو دلتشه، ولكن الفرنسيين أحبطوا ترشيحه. فقدّم الكردينال

أزوليني الكردينال فيدوني، القاصد الرسولي الأسبق في بولندا، ولكن إسبانيا رفضته. ولم يتوصل المجتمعون إلى اختيار الكردينال المُسنّ إيميليو ألتييري خلفاً على كرسيّ القديس بطرس بعد أربعة أشهر من الاقتراعات غير المُجدية إلا بعد إصدار ملوك البندقية وإسبانيا وفرنسا أوامر لسفرائهم بالتوصل إلى مرشح تسوية. واعتمد البابا الجديد اسم إقليمنضس العاشر إحياءً لذكرى سلفه الذي كان قد منحه رتبة الكردينالية.

لم يأخذ هذا البابا دور الحلف المقدس في الاعتبار في لعبة الشطرنج الأوروبية ذات الأهمية البالغة. لقد فضّل إقليمنضس العاشر البراعة السياسية والدبلوماسية على الأساليب الأكثر قسوة التي يعتمدها الحلف المقدس. فاختار الحبر الأعظم الجديد استخدام قواه مستعيناً بالكردينال بالوزي المقتدر بسبب افتقار البابا إلى أفراد من عائلته يمكن الاعتماد عليهم. وبلغ السياسيون وشخصيات أخرى في تلك الحقبة حد الإشارة إلى بالوزي بالكردينال بالوزي-ألتييري متلاعبين على الألفاظ. وفي غضون أشهر قليلة، لم يصبح بالوزي الحبر الأعظم الظل فحسب، بل اضطلع أيضاً بشؤون شبكة التجسس البابوية والدولة. ولم يكن أحد في روما، بمن فيهم وزير الخارجية، يقوم بأي شيء من دون عِلمه.

ويُعتقد بشكل عام أن بالوزي هو الذي أحيا المنظمة السوداء كجهاز للتجسس المضاد، بالرغم من عدم وجود أي دليل موثّق يدعم هذا الادعاء. فالواضح أن بالوزي كان يتمتع في السنوات الست تقريباً التي أمضاها إقليمنضس العاشر على كرسيّ القديس بطرس بدرجة معيَّنة من النفوذ لم يحظَ بها إلا القليلون في تاريخ الإدارة البابوية الرومانية. وكان التجسس والتجسس المضاد سلاحين خطيرين من مجمل الأسلحة التي وُضعت بتصرّفه، ولكن هناك أسلحة أخرى كان يعرف كيفية استخدامها، وكان مستعداً لذلك.

فالعلاقات مع فرنسا لم تكن أفضل في أثناء حبرية إقليمنضس العاشر منها في

أثناء سلفه بسبب تعاطي لويس الرابع عشر بتكبّر مع كل ما يمتّ بصلة إلى البابا وروما. وحدثت الأزمة الأكثر خطورة في 21 أيار/مايو 1670 عندما اتهم السفير الفرنسي، دوق إستريه، الكردينال بالوزي برفض ترفيع كل الكهنة الفرنسيين أو الموالين لفرنسا إلى درجة الكردينالية. فأنكر بالوزي المقتدر الاتهام، متهماً الملك الفرنسي بمعاداته للبابا والإيمان الكاثوليكي. في تلك الأثناء، وقف إقليمنضس العاشر ليعلن نهاية المقابلة الرسمية. فأمسك الفرنسي بالبابا وأجبره على الجلوس. ونظر الحبر الأعظم إلى الدبلوماسي وأقسم بأنه لن يسمح بالمزيد من الإهانات الفرنسية. ودوّن الكردينال بالوزي ذلك.

وفي ليلة 26 أيار/مايو، أي بعد خمسة أيام من ذلك الحادث، وُجد سكرتير بعثة لويس الرابع عشر ميتاً في روما. لقد غادر الدبلوماسي الشاب كما يبدو المبنى بعد طلب إجازة من السفير، واتجه إلى تراستيفيري في الجانب الآخر من التيبر، وهي منطقة مليئة بالحانات. وبينما كان يتناول طعامه، التقى رجالاً حسني السلوك قالوا إنهم طلاب من فلورنسا قدِموا إلى روما للتفكير مليّاً في الانضمام إلى الكهنوت كما قررت عائلاتهم النبيلة.

في تلك الأثناء، غادر الفرنسي الغرفة للتبوّل. وعندما عاد، لم يجد الإيطاليين. فجلس سكرتير دوق إستريه وأنهى وجبته. بعد ذلك، قرر العودة إلى غرفته الصغيرة المستأجَرة بالقرب من السفارة الفرنسية سَيراً لأنها كانت ليلة ربيعية دافئة. في منتصف الطريق، بدأ يتعرّق بكثرة ويواجه صعوبة في التنفس. فجلس بجانب نافورة ماء ولم يقف أبداً. لقد مات مسمَّماً.

كان الفلورنسيان الشابان قد تواريا في الشوارع الضيقة للاتيران، وتسلّقا بعد ذلك جداراً مغطى بالكَرمة. في الجانب الآخر، كان الكردينال بالوزي في الانتظار. فجثا أحدهما، وكان قد ارتسم كاهناً في الواقع، وقبّل خاتم الكردينال وسلّمه ورقة رِقٍّ صغيرة ملفوفة ومربوطة بشريط من الحرير الأحمر؛ الوثيقة الحمراء. لقد أُنجزت المهمة.

في اليوم التالي، وبينما كانت السفارة الفرنسية لا تزال غير مدركة لوفاة السكرتير الشاب، عيّن البابا إقليمنضس العاشر ستة كرادلة جدداً لم يكن أي منهم فرنسياً. ومذّاك الحين، انقطعت العلاقات بين فرنسا وروما، وبين لويس الرابع عشر وإقليمنضس العاشر.

توفّي إقليمنضس العاشر في 22 تموز/يوليو 1676 بعد تطويب بيوس الخامس، البابا العظيم الذي أطلق الإصلاح المضاد وأسس الحلف المقدس.

وفي آب/أغسطس، اجتمع الكرادلة مرةً أخرى. كان المرشحان الرئيسيان لكرسيّ القديس بطرس غريغوري بارباريغو وبنديتو أوديسكالكي، وكلاهما كردينالان مقرّبان إلى البابا الراحل.

أعلم باربارِيغو مجمع الكرادلة بأنه لن يقبل الكرسي البابوي. لقد كان خبراً جيداً لبالوزي لأن باربارِيغو كان قد أبدى في عدة مناسبات رأيه المعارض، وبصراحة، للأساليب التي يعتمدها الحلف المقدس. فإذا أُريدَ له أن يصبح بابا، يجب تقليص العمليات الجاسوسية إلى الحد الأدنى بالرغم من المخاطر المُحدِقة بالقارة في ظل نظام فرنسي يناصب روما العداء أكثر فأكثر.

وبالرغم من المعارضة الفرنسية، اقترع الكرادلة لصالح أوديسكالكي في 21 أيلول/سبتمبر، وتبنّى اسم إنّوقنطيوس الحادي عشر إكراماً للبابا إنّوقنطيوس العاشر. على غرار بامفيلي، اعتبر البابا الجديد الحلف المقدس شراً لا بد منه وأيّد الاستعانة بالحلف طوال سنوات حبريّته الخمس عشرة. لذلك، سلّم الكردينال بالوزو بالوزي مسؤولية إدارة شؤون جهاز التجسس بعد إلحاقه بأمانة سر الدولة بإدارة الكردينال ألديرانو شيبو. ولم يتعاطَ إنّوقنطيوس الحادي عشر مع بالوزي مباشَرةً على غرار سلفه إقليمنضس العاشر، بل ترك لشيبو مهمة العناية بكل ما هو على علاقة بجهاز التجسس.

كانت أولويات إنّوقنطيوس الحادي عشر - وبالتالي الميادين القتالية الرئيسية للحلف المقدس - ثلاث: العلاقات المثيرة للنزاع باستمرار مع فرنسا وملكها، ملك

الشمس؛ والنزاع مع الإمبراطورية العثمانية؛ والأمل في إعادة إنكلترا إلى حظيرة الإيمان الكاثوليكي. وركز عملاء الكردينال بالوزي نشاطاتهم على فرنسا وإنكلترا.

لم تكن لدى إنّوقنطيوس الحادي عشر الرغبة في الاستمرار في التساهل مع تدخل لويس الرابع عشر في شؤون الكنيسة. لذلك، قرر إرسال ثلاث رسائل إلى ملك الشمس - عام 1678، 1679، و1680 - يطلب منه فيها التخلي عن تمديد حقّه بجباية إيرادات كرسي أسقفي شاغر.

ومخافة شعور الكاثوليك بأن العرش ينتقص من قدر التزاماتهم حيال الملك، دعا لويس الرابع عشر إلى اجتماع مع رجال الدين الفرنسيين عام 1680 في محاولة للإطاحة بأي خطر داهم. وفي الاجتماع، اعتذر كل الأساقفة، باستثناء اثنين منهم، من الملك بسبب الكلمات التي صدرت عن إنّوقنطيوس العاشر وأكدوا مجدداً ولاءهم للعرش. وبعد عام، دعا الملك إلى عقد اجتماع آخر أُقرّ خلاله بأن جباية إيرادات كرسي أسقفي شاغر هي حق سيادي. فحث الكردينالان شيبو وبالوزي البابا على شن هجوم مضاد لأن الملك الفرنسي لن يتوقف عند هذا الحد؛ وكانا مُحقَّين بذلك.

ففي 9 آذار/مارس 1682، أي العام الذي انتقل فيه البلاط إلى قصر فرساي، صدّق لويس الرابع عشر على "البنود الأربعة" للإعلان الذي نصّه بوسوييه ويشير إلى الاستقلال التام لملك فرنسا عن الكرسي الرسولي في الشؤون الدنيوية، وسلطة مجلس كوستانزا على البابا، وعِصمة البابا عن الخطأ المشروطة بموافقة أساقفته، وحُرمة التقاليد القديمة للكنيسة الفرنسية. وللتأكيد على موقفه، أصدر أمراً بتعليم هذه البنود الأربعة في مدارس البلد كافة.

وأبدى إنّوقنطيوس الحادي عشر استياءه من عجز الأساقفة الفرنسيين عن الدفاع عن حقوق الكنيسة في مواجهة ملكهم، وآثر عدم التدخل لكنه حرم كل الذين حضروا الاجتماعات مع الملك من احتفالات التنصيب التكريمية. وفي العام 1678، وعملاً بنصيحة الكردينال شيبو، فضّل البابا مرشح الإمبراطورية الرومانية

المقدسة لرئاسة أسقفية كولونيا على المرشح الفرنسي. وعملاً بنصيحة الكردينال بالوزي، ألغى البابا حق السماح باللجوء إلى السفارات الأجنبية في روما وإسبانيا والبندقية الخاضعة للمرسوم البابوي، ولكن فرنسا رفضت ذلك. ونجم عن ذلك حرب سرية بين فرنسا والدويلات البابوية تمحورت حول ما عُرف بشبكة سكيبيو.

فطوال عامين، كان الحلف المقدس على عِلم بأن بعض العملاء الفرنسيين نفذوا إلى أمانة سر الدولة في الفاتيكان. وكان جواسيس لويس الرابع عشر ثلاثة كهنة في الواقع قاموا بأرشفة الوثائق التي كان العديد منها مصنَّفاً بأنها "مواد دقيقة". فنسخوا هذه الوثائق وأرسلوا نسخات عنها إلى البعثة الدبلوماسية الفرنسية في روما. كان رأس هذه الشبكة يُعرَف باسم سكيبيو.

فدعا ألديرانو شيبو بالوزي إلى اجتماع وطلب منه إزالة شبكة الجواسيس الفرنسيين القائمة داخل لاتيران بمختلف الوسائل الضرورية. واستخدم بالوزي في الواقع كل الوسائل المتوافرة له، كما أمر شيبو، بما في ذلك رهبان المنظمة السوداء.

كان أحد أعضاء شبكة سكيبيو أول من وقع بين أيدي المنظمة السوداء. ففي صباح 11 أيار/مايو 1687، تبع عميلان للحلف المقدس ناقل نصوص يعمل في مكتبة الفاتيكان. كانت مهمة هذا الراهب تدوين مستندات وإجراء نسخات عنها لأمانة سر الدولة يتم توزيعها في وقت لاحق لمختلف أعضاء الإدارة البابوية. وكان الحلف المقدس قد اكتشف أن بعض الوثائق، ولا سيما تلك المرتبطة بفرنسا، هي ضمن نطاق مسؤولية ناقل النصوص. فاحتسب جهاز التجسس البابوي عدد النسخات التي أجراها الراهب وعدد تلك التي تم توزيعها في ما بعد، واكتشفوا أنه لم يتم توزيع الوثائق المتعلقة بفرنسا والمصنَّفة بأنها "مواد دقيقة"، أم أنها اختفت ببساطة.

وعندما رُفع تقرير بهذه الحالة للكردينال بالوزي، أمر رئيس جهاز التجسس

رهبان المنظمة السوداء بإلقاء القبض على ناقل النصوص حيّاً. وفي 19 أيار/مايو، اعتُقل الراهب وأُرسل إلى المقر الرئيسي للحلف المقدس حيث خضع للاستجواب. وبتعرضه للتعذيب، كشف جاسوس سكيبيو عن اسمَي العضوين الآخرين في الشبكة المولَجة مهمة التجسس لصالح الملك لويس الرابع عشر في روما.

وفي 21 أيار/مايو، وُجدت جثة الراهب المشوَّهة متدلّية من جسر فوق التيبر وعليها قصاصة قماش سوداء صغيرة تحمل شريطين أحمرين متصالبَين. لقد وجّهت الذراع المخيفة للكنيسة ضربة إلى أحد الأعداء، ولا يزال هناك جاسوسان آخران طليقان.

وفي فترة بعد الظهر من يوم 23 أيار/مايو، وعندما انتشر عملاء الحلف المقدس لاعتقال كاهن عمل تحت إمرة الكردينال ألديرانو شيبو، تمكّن الكاهن من الفرار من شركهم والتجأ إلى السفارة الفرنسية. وتطبيقاً لإلغاء حق اللجوء إلى السفارات الصادر عن إنّوقنطيوس الحادي عشر، دخل ستة رهبان مقنّعون من المنظمة السوداء قصر فارنيزي واقتادوا الكاهن بالقوة.

وبعد خضوعه للاستجواب، كشف بأن وراء اسم سكيبيو راهباً كان من عملاء الحلف المقدس وقد جنّده جهاز التجسس التابع للويس الرابع عشر بسبب أصوله الفرنسية. كان سكيبيو ابن مواطن من البندقية نشأ في فرنسا على عهد مازاران، وتخصص كما يبدو في أثناء انتسابه إلى الحلف المقدس في التخلص من "أعداء الكنيسة" من خلال التسميم لهم.

وفي 26 أيار/مايو 1687، دخل ثمانية من أعضاء المنظمة السوداء غرفة نوم في نُزل بالقرب من القصر البابوي في روما. وانطلاقاً من عربة سوداء تحمل الشعار البابوي على بابَيها، كان الكردينالان بالوزو بالوزي وألديرانو شيبو يشاهدان حدوث العملية. كانا قد أمرا في السابق بعدم مرور أي دورية للحرس البابوي في المنطقة؛ لم يكن من المفترَض وجود شهود على التخلص من سكيبيو.

كان الرهبان يصعدون السلّم الضيّق عندما ظهر سكيبيو أمامهم، والسيف في يده. وبفضل التفوّق العددي للمهاجمين، كانت المعركة قصيرة واضطُرّ جاسوس لويس الرابع عشر إلى التراجع. ولدى محاولة الفرار من نافذة صغيرة، سقط عن علوّ عدة أمتار إلى حيث كانت قصاصة أخرى للمنظمة السوداء في انتظاره. واخترق سيف أحد هؤلاء الرهبان عنق الجاسوس الذي حاول الوقوف على قدمَيه لمواصلة القتال بالرغم من إصابته بنزيف شديد. في تلك اللحظة، اخترقت ثلاثة سيوف جسد سكيبيو، وقسم أحدهم قلبه إلى جزءين. لقد فارق الحياة قبل سقوطه على الأرض.

فرسم الكردينال بالوزي إشارة الصليب بيده اليمنى التي يلبس فيها قفازاً وأغلق الستارة، وانطلقت العربة. مرة أخرى، تبدو الكنيسة محميّة جداً من الجواسيس غير المناسبين. وعُثر على جثتَي سكيبيو والكاهن اللتين سُحبتا من السفارة الفرنسية مُدلاّتَين من جسر فوق التيبر لتكونا عبرةً لكل روماني أو أجنبي قد يشك بالحكم الإلهي أو بأدواته المتمثلة بالحلف المقدس والمنظمة السوداء.

أثار اقتحام عملاء الحلف المقدس السفارة الفرنسية ردود فعل كبيرة في البلاط الباريسي. ففي تشرين الثاني/نوفمبر 1678، أمر لويس الرابع عشر سفيره الجديد بدخول روما بمواكبة فوج من الجنود المسلّحين وبثياب المعركة. وقرر إنّوقنطيوس الحادي عشر حرمان هذا المبعوث كنسياً، ورفض إجراء مقابلة رسمية معه. وفي بداية العام 1688، أبلغ البابا لويس الرابع عشر من خلال قاصده الرسولي في باريس أنه حُكم على الملك ووزرائه بالتعنيف الكنسي.

لم يُعِر لويس الرابع عشر تحذيرات البابا أي اهتمام لا سيما وأنه كان في أوج نفوذه. وكما فعل في أثناء ولاية إسكندر السابع الحَبرية، أمر لويس جيوشه باحتلال أفينيون وكومتا فينيسان.

هذا، واتخذت رغبة البابا القديمة برؤية ملك كاثوليكي على عرش إنكلترا

منحى تفاؤلياً في أواخر القرن السابع عشر. لقد ارتقى جيمس الثاني، وهو كاثوليكي مخلص، العرش عام 1685، وأوفد مبعوثاً إلى البابا إنّوقنطيوس الحادي عشر، وسمح بعودة اليسوعيين إلى إنكلترا. ونشر الحلف المقدس المزيد من العملاء في مختلف أنحاء إنكلترا. كان الكردينال بالوزي يعلم أن الوضع الديني سيعود إلى طبيعته عاجلاً أم آجلاً؛ أي إلى البروتستانتية.

أراد جيمس تقليد الحكم المطلَق للويس الرابع عشر بالرغم من نصيحة البابا بالامتناع عن القيام بذلك. ولم يتأخر رد الفعل البروتستانتي بالظهور. ووفقاً لتقارير عملاء الحلف المقدس في بلاط جيمس، تم إرجاء حالة تمرد بسبب افتقار الملك إلى الأبناء وزواج بناته كلهنّ بأمراء بروتستانت. وهكذا، كان من الأفضل له الانتظار على الموت. ولكن زوجة الملك الثانية ولدت طفلاً ذكراً عام 1686 مما طرح إمكانية ظهور سلالة حاكمة كاثوليكية ومستبدة.

نتيجةً لذلك، حدث التمرد، وقدّم البروتستانت العرش الإنكليزي لوليام الثالث من أورنج، زوج ابنة جيمس الكبرى. وفي 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1688، نزل وليام وجنوده على البرّ الإنكليزي وسرعان ما تسلّم السلطة. واضطُرّ جيمس الثاني إلى الفرار إلى فرنسا حيث بقي لاجئاً حتى يوم مماته. كانت هزيمة الكاثوليكية في إنكلترا تامة، ويستمر الوضع على حاله حتى يومنا هذا.

لم يشهد إنّوقنطيوس ما جرى في إنكلترا بسبب وفاته قبل ثلاثة أشهر من ذلك، وخلفه على كرسي القديس بطرس الكردينال بييترو أوتوبوني الذي اعتمد اسم إسكندر الثامن. وحكم هذا البابا لمدة ستة عشر شهراً فقط، ووافق على شهوات لويس الرابع عشر الطغيانية حتى يوم وفاته في 1 شباط/فبراير 1691. وكان خلفه إنّوقنطيوس السابع آخر بابا في القرن السابع عشر، ولكن بابويته لم تتصف بالهدوء.

لقد شهدت أوروبا مجدداً حروباً دينية وسياسية، وبقي نفوذ لويس الرابع عشر قوياً ليس في فرنسا فحسب، بل في مختلف أنحاء القارة أيضاً. لقد مارس

سلطة مطلَقة في زمن المكائد.

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد

Telegram @read4lead

الفصل السادس

زمن المكائد (1691-1721)

عندما انتهت ولاية إسكندر الثامن الحَبرية الوجيزة في 1 شباط/فبراير 1691، التقى الكرادلة لاختيار البابا الأخير في القرن السابع عشر المنحسِر. مرةً أخرى، بدا غريغوري بارباريغو المرشح الأوفر حظاً كما كان قبل انتخاب إنّوقنطيوس الحادي عشر.

كان بارباريغو رجلاً جديراً بالثناء ولكنه عدوّ متصلّب للحلف المقدس. وكما كان الحال عام 1676، لم يرغب الكردينال بالوزي - الذي كان لا يزال يدير شؤون جهاز التجسس البابوي - في تفكيك هذا الجهاز الأمني القوي.

كان اجتماع الكرادلة عام 1691 الأطول في القرن السابع عشر والأخير. فقد دام خمسة أشهر؛ من 12 شباط/فبراير وحتى 12 تموز/يوليو. لم يكن أيّ من الفصيل الإسباني أو الفرنسي أو ذلك التابع للإمبراطورية الرومانية المقدسة يريد الاقتراع لصالح بارباريغو. وعندما بلغت موجة الحر روما، توصّل الكرادلة إلى مرشح تسوية هو أنطونيو بينياتيللي. وفي 12 تموز/يوليو، اعتمد اسم إنّوقنطيوس الثاني عشر.

لقد وُلد بينياتيللي في إحدى العائلات الأكثر نبلاً في باري، وكان والده أمير مينرفو ووجيهاً من وجهاء إسبانيا. وساعدته علاقاته بالإدارة البابوية الرومانية على ارتقاء السلّم الكهنوتي متنقّلاً في مناصب عدّة كنائب مندوب البابا في أوربينو، وحاكم فيتربو، وقاصد رسوليّ في فلورنسا وفيينا وبولندا، ومفتش في محاكم التفتيش في مالطة. وفي منصبه الأخير، كانت له العلاقات الأكثر وثاقة مع عملاء الحلف المقدس وقائدهم الكردينال بالوزو بالوزي.

في ذلك الوقت، كان هناك تاجر بروتستانتي إيرلندي ناشط في مالطة، يدعى وليام دوكري. لقد عُرف عنه بأنه تاجر بسيط ولكن أيضاً جاسوس إنكليزي ومهرّب، وسمحت البحرية الإنكليزية لسفنه بالمرور مجاناً مقابل توفير

معلومات لها عن مسارات السفن المُبحرة تحت رايات الأعداء أو الدول الكاثوليكية، وأماكن رسوّها. فرشا الإيرلندي سلطات الموانئ كما يبدو لتزويده بالمسارات، وتواريخ الانطلاق، والشحنات.

ورفع أنطونيو بيناتيللي تقريراً بهذه المعلومات لوزير الخارجية وجهاز المخابرات البابوي بواسطة رسالة موجَّهة للكردينال بالوزي. ونتيجةً لذلك، أرسل الحلف المقدس خمسة عملاء إلى الجزيرة للقضاء على شبكة دوكري. فاختطف الرهبان مسؤولاً في ميناء مالطي اعترف تحت تهديد تسليمه إلى محكمة التفتيش بتقديم معلومات لدوكري حول حركة الملاحة في الميناء مقابل حصوله على مبلغ كبير من المال. كان العديد من عملاء الشحن متورطين أيضاً في الأمر.

فقرر بالوزي التخلص من الإيرلندي، رئيس شبكة التجسس، وأبلغ عملاءه بذلك. وفي إحدى الليالي، وبينما كان دوكري متجهاً إلى مسكن السفير الفرنسي سَيراً على قدميه، قطع أربعة رجال مسلحين بسيوف طويلة وقصيرة طريقه. وبعد دقائق، وُجدت جثة التاجر الجاسوس مُلقاة في البحر الأبيض المتوسط. وعندما انتشر خبر وفاة وليام دوكري، أوقف بقية أفراد الشبكة عملياتهم وغادر عملاء الحلف المقدس مالطة بهدوء. مرةً أخرى، كانت الذراع الطويلة للكنيسة قادرة على الوصول إلى أعدائها.

وفي أثناء ولاية بيناتيللي الحَبرية الذي اعتمد اسم إنّوقنطيوس الثاني عشر، تحسنت علاقات الفاتيكان بفرنسا أيام لويس الرابع عشر. لقد قام الملك القوي بالخطوة الأولى من خلال إلغاء الأمر الصادر عنه بتعليم "البنود الأربعة" في المدارس الرسمية. في المقابل، ملأ البابا في النهاية المناصب الشاغرة في هيكلية الكنيسة الفرنسية، ولكنه طلب من كل رؤساء الكنيسة الفرنسية أن يكتبوا رسائل يشرحون فيها وجهات نظرهم بصورة عامة حول الأحداث الماضية، وذلك عملاً بنصيحة الكردينال بالوزي الذي عايش النزاع في أثناء ولاية إنّوقنطيوس الحادي عشر الحَبرية. ويصرّ الخبراء خافيير باريديس، وماكسيميليانو باريو،

ودومينغو راموس ليسون، ولويس سواريز في معجم الباباوات والمجامع على أن هذا الدفء في العلاقات لم يكن بسبب استسلام لويس الرابع عشر لمشيئة البابا لأن مراسيم الملك الفرنسي المتعلقة بتمديد حقه بجباية إيرادات كرسي أسقفي شاغر أو إلغاء "البنود الأربعة" التي استمر تدريسها في الجامعات ومدارس أخرى لم يتم إبطالها أبداً.

على أي حال، واصل إنّوقنطيوس الثاني عشر حملته الصليبية ضد الهراطقة مستعيناً بالحلف المقدس بقيادة الكردينال بالوزي بوصفه الذراع الطويلة للإيمان. وكان شارل بلونت أحد هؤلاء الأعداء.

لم تسهم نظرية الاستعلام غير الخاضع لأي قيود، التي نشأت في القرن السادس عشر مع حركة الإصلاح الديني، في حدوث انقسامات رئيسية داخل البروتستانتية فحسب، بل أدت أيضاً إلى ظهور مذاهب صغيرة ومنها مذهب التأليه الطبيعي. وبالرغم من الإشارة إلى أن اللورد إدوارد دو شربوري، الشخصية البارزة في أواخر القرن السادس عشر، هو أول منتمٍ إلى هذا المذهب، فإن أول من يشار إليه بشكل موثّق في ويتزر وقاموس موسوعة اللاهوت الكاثوليكي من فيلت هو شارل بلونت الذي وُلد في أواسط السبعينيات. ومن ملاذه الآمن في إنكلترا، برز بلونت كعدوّ لكنيسة روما يشكل خطراً متزايداً عليها لأن مذهب التأليه الطبيعي اخترق حدود الدويلات البابوية من خلال مبشّرين سرّيين. واعتقلت محاكم التفتيش العديد من هؤلاء الذين اعترفوا تحت تأثير التعذيب بأنهم من أتباع شارل بلونت.

ولم يكن البابا يسمح بهذا النوع من الهرطقة، لذلك، أمر بالوزي باتخاذ الإجراءات المناسبة. فقرر الكردينال المُسنّ إرسال ثلاثة رهبان من المنظمة السوداء إلى إنكلترا.

وفي صباح أحد أيام العام 1693، عُثر على جثة شارل بلونت المجادل مُلقاة على أرض منزله ومصابة بطلق ناري في الصدر. فشرحت السلطات الأمر بأن

بلونت ربما أقدم على الانتحار لأنه لم يستطع الزواج بزوجة أخيه التي يحبها كثيراً، فأطلق رصاصة على قلبه اكتئاباً. وأقفل ذلك الشرح القضية، وعاد رهبان بالوزي إلى روما.

تمحورت السنوات الأخيرة لولاية إنّوقنطيوس الثاني عشر الحَبرية حول مشاكل الخلافة الإسبانية. فالملك شارل الثاني الذي حكم منذ العام 1665 طلب النُصح من البابا الذي أيّد أمير بافاريا الناخب، ابن ماكسيميليان إيمانويل الناخب والدوقة ماريا أنطونيا، حفيدة فيليب الرابع. وفي العام 1696، أُعلن جوزيف فرديnan الصغير بالفعل خلفاً لشارل الثاني بعد وساطة قامت بها ماريانا من النمسا والبابا.

لقد منح التوقيع على معاهدة التقسيم في لاهاي بمبادرة من لويس الرابع عشر ملك فرنسا جوزيف فرديnan كل الأراضي في شبه الجزيرة الإسبانية باستثناء غويبوسكوا، إضافةً إلى المستعمرات الإسبانية في أميركا وسردينيا وهولندا الإسبانية. وأبقت المعاهدة الممتلكات التابعة للإمبراطورية الإسبانية في عهدة الأرشيدوق تشارلز من النمسا، الابن البكر للملك الفرنسي. وعندما وصلت هذه الأخبار إلى إسبانيا، عيّن شارل الثاني جوزيف فرديnan الصغير وريثاً وحيداً لكل ممالكه، وإماراته، ودويلاته، ومنعه من التخلي عن أي منها.

بعد ذلك، نصح الكردينال بالوزي البابا بتوفير الحماية للفتى ليتمكن من بلوغ العرش. وكان رئيس جواسيس البابا يعلم بأن لويس الرابع عشر سيقوم بمحاولة ما عاجلاً أم آجلاً لقطع الطريق على الوريث خدمةً لمصلحة حفيده فيليب من آنجو. ولكن بالوزي لم يشهد تحقق مخاوفه بسبب وفاته في 29 حزيران/يونيو 1698 عن عمر خمسة وسبعين عاماً في رافينا حيث كان أسقفاً متقاعداً.

وتبيّن الأسطورة أن بالوزي، سيد الجواسيس لحوالى ثلاثة عقود، ومدير دفّة الحلف المقدس طوال الولايات الحَبرية لإقليمنضس العاشر وإنّوقنطيوس

الحادي عشر وإسكندر الثامن وإنّوقنطيوس الثاني عشر، سمّم عملاءُ لويس الرابع عشر له في أثناء إحدى المأدبات. لقد ابتلع الكردينال بالوزو بالوزي ألتييري دغلي ألبرتوني جرعة كبيرة من السم الذي دُسّ في حمل مشوي نضج كما يبدو مع أوراق خَربَق سوداء. كانت نبتة الخربَق السامة مستخدَمة كثيراً في الأزمنة القديمة لتسميم المياه ونصال السهام. ولم يقُم أحد في مطبخ الكردينال بتذوّق الأطباق المقدَّمة في أثناء عشائه الغنيّ الأخير.

بعد أشهر قليلة، وفي الأيام الأولى من العام 1699 وتحقيقاً لتوقع بالوزي، مرض جوزيف فردينان الصغير ولم يُجدِ العلاج الموصوف نفعاً. وفي 5 شباط/فبراير، ازداد حاله سوءاً على نحو خطِر مع ما رافق ذلك من تشجنات وقَيء. وتوفّي في الساعات الأولى من 6 شباط/فبراير عن عمر سبع سنوات فقط ممهّداً الطريق لحلول البوربونيين مكان الهابسبورغيين على العرش الإسباني بشخص فيليب الخامس. وسرت في بلاطات أوروبا شائعة مفادها أن الفتى مات مسمَّماً بأوامر صادرة من فرساي، ولكن لم يكن بالإمكان التثبت من أي شيء كما كان الحال في قضية الكردينال بالوزي. فلويس الرابع عشر لم يكن يردعه أي شيء لجعل حفيده ملكاً لإسبانيا حتى وإن اضطُره الأمر إلى إقحام أوروبا في حرب جديدة.

وفي 27 أيلول/سبتمبر 1700، توفّي إنّوقنطيوس الثاني عشر عن عمر خمسة وثمانين عاماً، تاركاً للبابا التالي مشكلة العرش الإسباني. فسيكون على خلفه على كرسي القديس بطرس التعاطي مع ما دُعيت حرب الخلافة الإسبانية، وكانت الأسلحة والمكائد جاهزة لذلك، وكان هناك العديد من الكرادلة في تصرّف الملك لويس الرابع عشر للتعاطي مع مجمع الكرادلة في الفاتيكان.

بدأ مجمع الكرادلة جلسته السرّية بعد ظهر 9 تشرين الأول/أكتوبر. ففي مواجهة الفصيل الفرنسي المهيمن، كان هناك الموالون للإسبان وللإمبراطورية الرومانية، إضافةً إلى الغيارى الذين أرادوا مدافعاً عنيداً عن حقوق الكنيسة.

كانت السجالات والمناقشات والمفاوضات والمناورات لا تزال قائمة عندما وصل في 19 تشرين الثاني/نوفمبر خبر وفاة شارل الثاني. ومذاك الحين، تركز انتباه الفاتيكان وكل الأمم على القصر الملكي في مدريد.

فمنذ وفاة أو اغتيال جوزيف فردينان الصغير من بافاريا، قرر الملك شارل الذي أصيب بمرض مُهلك توقيع وصية أخيرة أعلن فيها وجوب تسلّم دوق آنجو، حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا القوي، عرش إسبانيا.

ولتجنّب تحقق مخاوفهما المشترَكة من وقوع الإمبراطورية الإسبانية القوية بين أيدي سلالة حاكمة واحدة، سعت معظم الأمم الأوروبية إلى إبرام اتفاق على اقتسام الأراضي. وكان ليوبولد الأول، رأس الإمبراطورية الرومانية، والملك الفرنسي لويس الرابع عشر قد وقّعا عام 1668 اتفاقاً في فيينا يدعو إلى تقسيم الأراضي الإسبانية بين النمسا وفرنسا إذا توفّي شارل من دون أن تكون له ذرّية. ودخلت إنكلترا وهولندا على الخط بعد اتحادهما في ظل ملك واحد هو وليام الثالث من أورنج.

وفي 3 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1700، وبينما كان مجمع الكرادلة يدرس هوية البابا الجديد، وضع شارل الثاني وصية أخيرة أوصى فيها بعرشه وكل مناصبه للابن الثاني لابن الملك الفرنسي البكر. وإذا رفض دوق آنجو ذلك، يعود العرش للأرشيدوق شارل. وقبل دقائق قليلة من حلول الثالثة بعد الظهر من الأول من تشرين الثاني/نوفمبر، توفّي آخر مندوب لمجلس النمسا يجلس على عرش إسبانيا. ففي ظل حكمه، تراجع نفوذ الإمبراطورية الإسبانية، وأراد الإسبان ملكاً جديداً يُعيد الأمجاد الماضية التي نعموا بها في أثناء حكم فيليب الثاني، وهي حقبة من الزمن لم يكن مقدَّراً لهم عيشها مرة ثانية.

وبتجمّع سُحب الحرب فوق أوروبا وعجز الفصيل الفرنسي والفصيل الإسباني-الإمبراطوري عن التوصّل إلى اتفاق، قررت مجموعة الغيارى ترشيح الكردينال جان-فرانسوا ألباني. وعندما توصل مجمع الكرادلة إلى إجماع حول ألباني، رفض

الكردينال الأمر في بادئ الأمر وقرر استشارة مجموعة رفيعة المقام من اللاهوتيين. وأخيراً، أصبح الكردينال ألباني البابا إقليمنضس الحادي عشر في 23 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1700.

كان الحَبر الأعظم الجديد المثقف والمرح في الواحد والخمسين من عمره، ولكنه كان بطيئاً جداً في اتخاذ قرارات سياسية، وتعيين رئيس جديد للحلف المقدس هو أحد تلك القرارات المؤجَّلة.

ومنذ الاغتيال المحتمَل للكردينال بالوزو بالوزي المقتدر من قِبل العملاء الفرنسيين، أصبح جواسيس البابا غير فاعلين إلى حدٍّ كبير. وكان بالإمكان ملاحظة تأثير ذلك في الواقع في أعمال أمانة سر الدولة. فعلى سبيل المثال، لم يكن باستطاعة أحد إبلاغ الكرادلة في أثناء اجتماعهم بوفاة شارل الثاني إلا بعد ثمانية عشر يوماً من الحدث.

وتطلّب الأمر بضع سنوات ليعي إقليمنضس الحادي عشر الحاجة إلى جهاز مخابرات خفيف الحركة لا يتأخر في الإبلاغ عن الأحداث التي ألحقت الخراب بأوروبا بعد أشهر قليلة. وإذا كان باباوات آخرون قد استعانوا بالحلف المقدس كبيدق هام في لعبة الشطرنج الكبرى للسياسات الأوروبية، فإن الحَبر الأعظم الجديد تأخّر في إدراك مدى أهمية جواسيس الفاتيكان لمساعدته على اتخاذ قرارات ملائمة.

كان وزير الخارجية الجديد، الكردينال فابريزيو باولوتشي، رجلاً يتمتع بمهارات وخبرة سياسية، ولكنه لم يكن يثق كثيراً بقدرة الحلف المقدس على مساعدة البابا في اتخاذ قرارات سياسية خارجية. في الواقع، كان باولوتشي مخطئاً، وقد أثبتت الأحداث التي كانت على وشك الحدوث ذلك.

ووفقاً لوصية شارل الثاني، تُوِّج فيليب من آنجو ملكاً جديداً على إسبانيا في مدريد في 8 أيار/مايو 1701، وحمل اسم فيليب الخامس. ولكن رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة أبدى ارتيابه بقانونية وصية الملك الراحل، وأصرّ

على أن ابنه الأرشيدوق شارل من النمسا يملك حقوقاً مساوية في الخلافة.

وفي محاولة لتجنّب اندلاع حرب بين الإمبراطورية الرومانية وفرنسا، طرح البابا إقليمنضس الحادي عشر نفسه وسيطاً في هذا النزاع. وفي الوقت نفسه، وعملاً بنصيحة الكردينال باولوتشي، عيّن ابن شقيقه أنيبال ألباني، وهو خبير دبلوماسي على صلة وثيقة بالكرسي الرسولي، مديراً مسؤولاً عن الحلف المقدس.

وعملاً بتوجيهات هذا القائد الجديد، بدأ عملاء البابا بنقل معلومات لأمانة سر الدولة بإشراف باولوتشي. وتناولت التقارير الأولى الحلفاء الذين كان كل جانب يسعى إلى استقطابهم تحسّباً لاندلاع الحرب. وقال الحلف المقدس إن فيليب الخامس كان يسعى إلى عقد اتفاقات مع دوقَي مانتوا وبارما، في حين كان الأرشيدوق شارل يتودد إلى دوق مودينا. فكتب إقليمنضس الحادي عشر للنبلاء الثلاثة حاثّاً إياهم على الحياد التام. وكان الكردينال باولوتشي وأنيبال ألباني يدركان أن الحرب الوشيكة قد تؤثّر بشكل جدّي في الدويلات البابوية إذا انضم أي من هؤلاء النبلاء إلى هذا الجانب أو ذاك.

في ذلك الوقت، كان هناك شخص من البندقية يدعى فيتشنزو لاسكاري بين مستشاري دوق مودينا. فحثّ لاسكاري دوق مودينا على توحيد القوى مع الإمبراطور النمساوي دعماً للأرشيدوق شارل، وذلك عشيّة اندلاع حرب مفتوحة مع فيليب الخامس. كان لاسكاري يعرف أن باستطاعة موظّفه، الدوق، الحصول على الحق بضم مناطق واسعة إذا أصبح شارل ملكاً لإسبانيا. وبالرغم من تحذيرات البابا، قال دوق مودينا إنه سيكون مستعداً للذهاب إلى الحرب دعماً لقضية الأرشيدوق شارل.

بالنسبة إلى الكردينال باولوتشي والدويلات البابوية، كان تدخّل لاسكاري محفوفاً بالمخاطر وقد أصبح هدفاً يتعيّن التخلص منه. وبالنسبة إلى المسؤولين المقرَّبين من البابا، كانت إمكانية نشوب حرب عند أبوابهم أكثر خطورة من إمكانية نشوب حرب أشمل في مختلف أنحاء القارة.

وقبل اتخاذ قرار كبير، وبوصفه وزيراً للخارجية، وجّه باولوتشي رسالة إلى مستشار دوق مودينا محاولاً إقناعه بمخاطر جرّ الحرب الوشيكة إلى قلب إيطاليا. ولكن فينتشنزو لاسكاري اختار تجاهل الرسالة وواصل سياسته المتمثلة بدعم قضية الأرشيدوق علناً. وأخيراً، تحرك عملاء أنيبال ألباني. ففي ليلة 11 كانون الثاني/يناير 1702، قاموا باغتيال لاسكاري عندما كان يهمّ بدخول عربة. وفي تلك الليلة، كان المستشار الوفي لدوق مودينا يقوم بزيارة لإحدى المحظيّات التي اعتادت كما يبدو تزويد الجواسيس البابويين في المدينة بمختلف أنواع المعلومات. وعملاً بتوصية الحلف المقدس، كانت قد حددت موعداً للقاء لاسكاري في منزلها. وعندما غادر في الساعات التي تسبق بزوغ الفجر للعودة إلى منزله، كان القتلة بانتظاره في الشارع والخناجر بأيديهم. كانت ست طعنات كافية للإجهاز عليه.

في اليوم التالي، وبعد سماع خبر الاغتيال المروّع، وجّه دوق مودينا رسالة للكردينال باولوتشي يعلن فيها عن عزمه التزام الحياد في حرب الخلافة الإسبانية. مرةً أخرى، دافع الحلف المقدس عن مصالح الكنيسة والبابا.

وخلال العام 1701، احتل الملك لويس الرابع عشر عسكرياً المناطق الإيطالية التي سيطرت عليها إسبانيا بطلب من حفيده ملك إسبانيا. وشملت هذه المناطق دوقية ميلانو، ومملكتَي نابولي وصقلية، وجزيرة سردينيا. وأرسل أيضاً جنوداً إلى الأقاليم الجنوبية في هولندا التي كانت بروكسيل عاصمتها. ووضعت المستعمرات المتبقية نفسها بتصرف الملك فيليب الخامس، وهي جزر الكناري، وأميركا الجنوبية والوسطى، والفيليبين، وعدد من التحصينات على الساحل الشمالي لأفريقيا.

> الوضع الحالي للمملكة هو الأكثر مدعاةً للحزن في العالم لأن الحكم الضعيف لمجموعة الملوك الأخيرة، والتزلف الدنيء للخدَم والوزراء، أدى إلى فوضى رهيبة في إدارة شؤون البلد: تم

التخلي عن العدالة، وتجاهل السياسة، وبيع الموارد، وتحريف الدِّين، وتجريد النبالة من أخلاقياتها، وقمع الشعب، وإفساد السلطة.

كتب دوق إسكالونا ومركيز فيلينا إلى لويس الرابع عشر عام 1700.

وعندما عبر الجيش النمساوي القوي الأراضي الإيطالية بقيادة الأمير الجنرال أوجين من ساڤوا-كارينيان، بدت الحرب حتمية. وفي نهاية أيار/مايو 1702، رفع عملاء الحلف في كاتالونيا تقارير لروما جاء فيها أن الملك فيليب الخامس يُعِدّ قوة بحرية مؤلفة من سفن حربية فرنسية لإرسالها إلى نابولي. في الواقع، رست تسع سفن بقيادة الملك نفسه في برشلونة. وكان لويس الرابع عشر يعلم أن إيطاليا بحاجة إلى إشارة من الملك الجديد في ظل حرب وشيكة تهدد الوضع الدولي. في ذلك الوقت، كانت فرنسا تواجه تحالفاً مؤلفاً من إنكلترا، والأقاليم المتحدة (شمال هولندا)، والإمبراطور، وكل ما كان باستطاعة لويس الرابع عشر القيام به هو دعم دوق بافاريا وأمير كولونيا الناخب.

وكان دوق ساڤوا المنشق الأكثر أهمية بين مجموعة المنشقين؛ قيل إنه بدّل رأيه عملاً بتوصية البابا إقليمنضس الحادي عشر والحلف المقدس. وفي تشرين الأول/أكتوبر 1701، وبينما كانت ابنته تتزوج بفيليب الخامس، اتخذ جانب الإمبراطور النمساوي لقتال جد صهره.

ولكن وليام الثالث من أورنج الذي كان قد وضع نفسه في العام 1701 على رأس التحالف الثاني الكبير وتدخّل في حرب الخلافة الإسبانية توفّي في 19 آذار/ مارس 1702 قبل أن يحظى بفرصة المشاركة في القتال. وخلفته آن ستيوارت، ملكة إنكلترا وإيرلندا وشقيقة زوجته.

وصل فيليب الخامس إلى نابولي في اللحظة الأخيرة، ولم يبتهج سكان نابولي بقدوم إسبانيا أو ملكها. وبعد أشهر قليلة، كشف الحلف المقدس النقاب عن مؤامرة لاغتيال نائب الملك. كانت مجموعة تضم معظم نبلاء نابولي قد

خططت "لمؤامرة النبلاء" هذه، كما عُرفت في ذلك الزمن، والتي تقضي بقيام تمرد لصالح الأرشيدوق شارل أملاً في منحهم الاستقلال. وقبل أيام قليلة من الاغتيال، اعتقل عملاء إسبان رئيس التمرد بعد قيام نظرائهم في جهاز التجسس البابوي بتحذيرهم. وكانت المشكلة الكبرى التي تواجه الجواسيس الإسبان في هذه الحقبة من الزمن عدم إجادة معظمهم الإيطالية أم أنهم لا يجيدون اللغة المحلية المناسبة، لذلك، كان الخدم الإسبان العاملون في قصور النبلاء مُخبريهم الرئيسيين. من جهة ثانية، قدِم عملاء البابا من فلورنسا وسيينا ونابولي ليتمكنوا من الاتصال بشبكات أوسع من المُخبرين. ففي غضون ثلاثة أيام فقط، اعتُقل تسعة عشر شخصاً شاركوا في المؤامرة، وحكم على معظمهم بالموت.

في 15 أيار/مايو 1702، وبينما كان فيليب الخامس يستمع إلى موسيقى أليساندرو سكارلاتي ويشاهد أوبرا طيباريوس، أعلنت إنكلترا والأقاليم المتحدة والإمبراطورية الحرب على فرنسا، مستهلّين رسمياً حرب الخلافة الإسبانية. وحدث ما كان إقليمنضس الحادي عشر يخشى حدوثه. فمذاك الحين، شرع أنيبال ألباني وجواسيسه بالعمل حصرياً لصالح الكرسي الرسولي الذي اتخذ موقف الحياد المحفوف بالمخاطر، وقد دفع الحَبر الأعظم ثمن ذلك في نهاية المطاف.

وقبل مغادرة نابولي، أوفد الملك مبعوثاً لتأدية الاحترام لإقليمنضس الحادي عشر. فأبحر المبعوث في 2 نيسان/إبريل شمالاً بمواكبة اثنتي عشرة سفينة. وكان وصولهم إلى ميلانو أول احتكاك حقيقي لفيليب الخامس بالحرب.

وعندما حدث ذلك، كان عملاء الحلف المقدس قد رفعوا تقارير للبابا حول وقوع حادث غامض في ميناء فيغو حيث فاجأت السفنُ الإنكليزية والهولندية السفنَ الشراعية الإسبانية الكبيرة المحمَّلة بالفضة من الأميركيتَين، ونهب الإنكليز الشحنات وأغرقوا السفن. ولكن لم تثبت صحة وقوع هذا الحادث.

وفي شباط/فبراير من العام 1702، قام تيبالدو فييسكي، وهو عميل للحلف

المقدس في لندن، بإبلاغ ألباني بأن الإنكليز يُعِدّون لعملية بحرية كبيرة ضد أراضٍ إسبانية قد تكون قادس أو فيغو. وكان فييسكي البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً تاجر حرير شاباً، أنيقاً وثرياً من سيينا، وعاش منذ لحظاته الأولى بالقرب من السلطة البابوية لأن والده خدم العديد من الباباوات. كان فييسكي قد رفض الخدمة في الكنيسة من خلال الانضمام إلى الكهنوت إلى أن قام الكردينال بالوزي بتجنيده في السلك التجسسي. فقد كان زبائنه الذين يتعاطى معهم الأعمال من طبقة النبلاء المنتمين إلى بلاط وليام من أورنج، حتى إنه قابل الملك شخصياً. وكانت الليدي روك، زوجة الأميرال السير جورج روك، من زبائنه.

لم يكن الإيطالي يزوّد الليدي روك بالأقمشة فحسب، بل كان عشيقها أيضاً مما منحه إمكانية ولوج وثائق هامة كان الأميرال روك يحتفظ بها في منزلهما خارج لندن. وهكذا، جمع فييسكي معلومات عن المواقع الإنكليزية المعَدة لمهاجمة قادس وأرسلها إلى الكردينال باولوتشي. والغريب في الأمر أن روما لم تحذّر مدريد من الهجوم الوشيك لأن من شأن هذا التحذير أن يشير ربما إلى نهاية الحياد الذي دافع عنه البابا بنزاهة.

وقبل أشهر قليلة، وفي تموز/يوليو، قام أسطول إنكليزي - هولندي على رأسه خمسون رجل حرب بقيادة جورج روك بمهاجمة قادس. وأعاقت المقاومة التي أبداها الجنود الموزَّعون في المدينة تقدّم جنود روك، فانسحبوا، ورفعوا الحصار عن المدينة بعد شهر بسبب العواصف الهوجاء. ومع ذلك، تجنّب الأميرال روك وضع تحليل انهزامي للحادث كما تشير يومياته بعنوان يوميات السير جورج روك، أميرال الأسطول.

وسرعان ما نُسي أمر الهزيمة بسبب بلوغ أخبار عن الوصول الوشيك لأسطول إسباني كبير من أميركا، حاملاً الفضة ومتجهاً إلى ميناء فيغو. كانت السفن الإسبانية تُبحر بمواكبة فرنسية ضخمة مؤلَّفة من سفن حربية بقيادة الأميرال شاتو رينو.

فأُرسل الأسطول الإنكليزي أولاً بقيادة الأميرال السير كلاوديسلي شوفيل ليكون رأس حربة الهجوم، تلاه أسطول السير جورج روك الذي كان من المفترَض به إنزال جنود لمهاجمة السفن الإسبانية من اليابسة. مرة أخرى، رفع فييسكي تقريراً للحلف المقدس في روما عن انطلاق أسطول بقيادة روك من دون أن تكون وجهته معروفة. وما لم يعرفه تيبالدو فييسكي هو أن روك أراد اعتراض "أسطول الفضة" ومصادرة حمولته. كان فييسكي قد جمع هذه المعلومات في أثناء أحد مواعيده الغرامية مع الليدي إليزابيت روك، زوجة الأميرال.

فأبلغ الكردينال باولوتشي، وزير الخارجية، البابا إقليمنضس الحادي عشر بالأمر، وطلب البابا بدوره تسليم المعلومات إلى الإسبان من خلال عملاء الحلف المقدس في إسبانيا. فسلّم الجواسيس البابويون تقرير فييسكي إلى الكردينال لويس مانويل فرنانديز دي بورتوكاريرو، رئيس وزراء فيليب الخامس. وفي 23 أيلول/سبتمبر 1702، جرت أول معركة بين السفن الفرنسية-الإسبانية والسفن الإنكليزية. وفي غضون ساعات قليلة، غرق عدد كبير من السفن مع حمولتها، في حين تم الاستيلاء على أخرى وصودرت حمولاتها وأُغرقت بعد ذلك.

فقيام الأسطول الذي كان بقيادة الأميرال روك وشوفيل بإغراق أسطول الفضة القادم من أميركا في فيغو هو أمر صحيح. لقد أُحرقت ثلاث سفن شراعية كبيرة وثلاث عشرة سفينة أخرى وأُغرقت، في حين تم الاستيلاء على ست سفن أخرى ووُضعت في الخدمة في إنكلترا. وأُبيدَ كذلك الموكب الفرنسي المرافق للأسطول باستثناء ست سفن ضُمّت إلى الأسطول البحري الإنكليزي. ولكن الجزء الثاني من الرواية يبيّن أن الأميرالين روك وشوفيل لم يعثرا سوى على الكاكاو والفلفل وجلود الحيوانات في مخازن السفن الإسبانية من دون أن يكون هناك أي أثر للفضة. من الواضح أن الإسبان كانوا قد قرروا تفريغ حمولة السفن من الفضة بسرية تامة، وذلك بعد تلقيهم المعلومات التي حملها عميل الحلف المقدس في لندن إلى الكردينال بورتوكاريرو، ونقلوها إلى قلعة القصر الملكي في سيغوفيا

حيث بقيت آمنة بعيداً عن متناول الإنكليز.

في شباط/فبراير 1703، أصدر فيليب الخامس مرسوماً جاء فيه أنه نظراً إلى الهجوم الإجرامي الذي تعرّض له أسطوله، قرر مصادرة كل كميات الفضة التي كانت على متن السفن الغارقة والتي يتم نقلها إلى إنكلترا أو إلى تجار هولنديين. وقرر أيضاً اعتبار كمية كبيرة من الفضة كانت في طريقها إلى التجار والقنصلية في أشبيلية قرضاً مغتصَباً. وهكذا، استعاد الملك أكثر من نصف كمية الفضة التي كان يحملها الأسطول. في الواقع، لقد حوّل فيليب الثاني مأساة حقيقية إلى صفقة تجارية باهرة ومُربحة. وكما قال الكردينال بورتوكاريرو: "لقد أنقذ الاقتصادُ السياسة". وروى الجواسيس البابويون القصة بأكملها لمركيز لوفيل، المدرّس الخصوصي للملك الذي أقام صلات هامة مع الحلف المقدس.

كانت علاقة الملك بمركيز لوفيل وثيقة جداً لدرجة أنه كافأه بقيادة ما دُعي ترشيو فيجو دي لوس مورادوس. فبحوالى ستة آلاف رجل مقسَّمين إلى فوجَين، أحدهما إسباني والآخر بولوني، كان فيليب الخامس قد اصطحبهم معه من برشلونة، أصبح الترشيو حرس القصر البديل لفِرَق البورغونديين والألمان التي تعود للحقبة النمساوية. ومذاك الحين، أصبح مركيز لوفيل أفضل جاسوس للبابا في بلاط ملك إسبانيا.

وشيئاً فشيئاً، تحولت حرب الخلافة الإسبانية إلى ما يشبه حرباً عالمية لا لجهة مسرح العمليات بل لجهة ردود الفعل الاقتصادية والسياسية التي أُثيرت من البيرو إلى موسكو، من جامايكا إلى روما، ومن باريس إلى مدريد.

وفي أيلول/سبتمبر 1703، تُوِّج ابن الملك ليوبولد ملكاً على إسبانيا في فيينا. واتخذ الملك البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً اسم الملك شارل الثالث، وأبحر في 7 آذار/مارس من العام التالي إلى البرتغال برفقة أسطول إنكليزي بقيادة السير جورج روك وقوة من ثلاثمئة جندي ألماني، وأربعة آلاف إنكليزي، وألفي هولندي.

لدى تلقّيه هذه الأخبار، قرر فيليب الخامس عبور الحدود متسبباً بحرب مع البرتغال. في ذلك العام نفسه، قرر أنيبال ألباني إرسال أفضل جواسيسه تيبالدو فييسكي، إلى إسبانيا بوصفه تاجر حرير، معتمداً التغطية نفسها التي اعتمدها في إنكلترا. وبواسطة رسائل توصية من نبلاء البندقية وروما، تقرّب فييسكي من أميرة أورسان، وهي إحدى المستشارات المقرّبات من الملكة ماري لويز دو سافوا، زوجة فيليب الثاني.

وبفضل هذا الامتياز، حافظ فييسكي على علاقات جيدة مع جان أوري الذي أرسله لويس الرابع عشر من فرنسا لإصلاح الجيوش الإسبانية. وبعد فترة قصيرة، بدأت تصل تقارير قيّمة إلى روما تتناول شؤوناً عسكرية، وجاء في أحدها أن أوري والملك الفرنسي كانا يحثان على استبدال أسلحة الجنود الإسبان قديمة الطراز كالرماح والبنادق القديمة ببنادق فرنسية مزوَّدة بحراب. وفي الوقت نفسه، أبلغ عملاء الحلف المقدس في فرنسا عن شحن حمولات لا تُحصى ولا تُعَد من المسدسات، والبنادق، والذخائر، والبزّات الرسمية، والخِيَم إلى إسبانيا.

منذ بداية الحرب، حاول البابا إقليمنضس الحادي عشر تجنّب التحالف مع البوربونيين أو مجلس النمسا على حدٍّ سواء، ولكن الضغط العسكري الذي كان يشكله الهابسبورغيين في شمال إيطاليا مهدّداً استقرار الدويلات البابوية للخطر أجبره على أن يكون طرَفاً في النزاع. وفي 15 كانون الثاني/يناير 1709، أصدر بياناً رسمياً اعترف فيه بالأرشيدوق شارل "ملكاً كاثوليكياً" ولكن من دون التطرق إلى حق فيليب الخامس بالعرش الإسباني.

وباعتراف البابا بأن شارل "ملك كاثوليكي" على الأراضي الإسبانية المحتلة، فتح هذا الملك جبهة جديدة في إسبانيا. وكانت خطوة إقليمنضس الحادي عشر التالية إرسال قاصد رسولي إلى برشلونة حيث بلاط شارل الملكي. ومذاك الحين، أصبح هناك ملكان في إسبانيا ومندوبان بابويّان - أحدهما في الكاستيل والآخر في كاتالونيا. ورد فيليب الخامس بسحب سفيره من روما، وطرد القاصد الرسولي

من الكاستيل، وقطع العلاقات رسمياً مع البابا في نهاية المطاف.

وتدهور الوضع أكثر فأكثر عندما أصدر فيليب الثاني مرسوماً منع فيه قيام أي اتصال رسمي بروما أو أي تعاملات مالية مع الدويلات البابوية، وفُرضت ضريبة أيضاً على المبالغ المرسَلة إلى الكنيسة الكاثوليكية. وفي إجرائه الأخير، أنشأ الملك ما دُعي ممراً ملكياً تمرّ به أي وثيقة قادمة من روما وتخضع لرقابة "تحدّد ما إذا كان يمكن لتنفيذها أن يكون غير ملائم أو يهدد المصلحة العامة أو مصلحة الدولة".

وفي فرنسا، حمل الوضع الميؤوس منه لويس الرابع عشر على سحب كل جنوده من إسبانيا. ففي رسالة إلى حفيده، تحدّث ملك الشمس عن الجوع والحرب وفيضانات الأنهر. وكان سحب الجنود خطوة أولى في اتجاه السلام. وبالرغم من انهيار المفاوضات في غيرترويدنبرغ، كان التقدم في اتجاه السلام أمراً محتَّماً تقريباً.

في نيسان/إبريل 1711، توفّي الإمبراطور جوزيف من النمسا بعد أحد عشر عاماً فقط من جلوسه على العرش. وبسبب عدم وجود ورثة له، خلفه الأرشيدوق شارل. ومذاك الحين، حلّ منطق الدبلوماسية مكان منطق السلاح. و في 27 أيلول/سبتمبر من العام 1711، غادر الأرشيدوق، الذي بات شارل السادس إمبراطور النمسا، برشلونة على متن سفينة إنكليزية بقيادة الأميرال روك، ولم يعد إليها أبداً.

وفي شهر آب/أغسطس 1712، وُضع حدٌّ للأعمال العدائية بين إنكلترا وهولندا والبرتغال وفرنسا وإسبانيا. وفي 11 نيسان/إبريل 1713، وقّع فرقاء النزاع معاهدة أوترخت. وبقيت كاتالونيا في تمرد مسلّح ضد فيليب الخامس حتى 11 أيلول/سبتمبر 1714 عندما استسلمت في نهاية المطاف. وفي فترة بعد الظهر من ذلك اليوم نفسه، أرسل تيبالدو فييسكي، جاسوس الحلف المقدس، تقريراً إلى رئيسه في روما، أنيبال ألباني، جاء فيه: "واجه جيش فرنسي - إسباني مؤلف من

3[illegible] جندي من المشاة و5.000 خيّال و16.000 جندي ومدني. وألحق بيرويك، قائد جيوش فيليب الخامس، بالمدينة الخراب والدمار بالنار والدم". وكان الفصل الأخير من حرب الخلافة الإسبانية استسلام مايوركا في حزيران/يونيو 1715 لجيش من عشرة آلاف رجل بقيادة الجنرال داسفيلد. وأمر فيليب الخامس بالإبقاء على حياة الجنود المحاصَرين وأصدر عفواً ملكياً عن كل المدينة. وحلّ السلام أخيراً، ولكن الملك الذي لم ينسَ أبداً التمرد الكاتالوني ونتائجه المأساوية فرض القانون العرفي على المنطقة طيلة سنوات.

بعد انتهاء الحرب، تم الاعتراف بفيليب الخامس ملكاً لإسبانيا، وحاول الكردينال ووزير الخارجية فابريزيو باولوتشي التقرب منه من خلال إليزابيتا فارنيزي، الزوجة الجديدة للملك. وعملاً بنصيحة الكردينال جوليو ألبيروني، قرر إقليمنضس الحادي عشر الإشراف على المفاوضات بمعزل عن باولوتشي، وطلب من أنيبال ألباني سحب كل عملاء الحلف المقدس من مدريد. ومع ذلك، احتفظ ألباني بتيبالدو فييسكي في إسبانيا بشكل سرّي.

وكان ظهور الكردينال ألبيروني فجائياً. ففي العام 1702، كان دوق بارما قد أرسله في مهمة دبلوماسية للقاء لويس - جوزيف دو بوربون، دوق فاندوم والقائد الأعلى للجيش الفرنسي في شمال إيطاليا. فاتخذ دوق فاندوم على الفور ألبيروني سكرتيراً له، واكتسب هذا الأخير نفوذاً في البلاط الإسباني من خلال المفاوضات التي أجراها بشأن زواج فيليب الخامس وإليزابيتا فارنيزي. وفي العام 1717، عُيّن كردينالاً من قِبل البابا إقليمنضس الحادي عشر ورئيس وزراء للملك فيليب الخامس. وبهذه الطريقة، عبّر البابا عن تقديره الكبير للتقارير القيّمة التي كان يتلقاها من الجاسوس ألبيروني، عِلماً أنها لم تكن تحظى بتقدير الحلف المقدس. وكان أنيبال ألباني الذي بات كردينالاً أيضاً يعتبر التقارير التي تُرسَل إلى روما في شأن الجيش الفرنسي غير صحيحة في معظمها. فعلى سبيل المثال، تلقى رئيس الجواسيس البابويين تقريراً من جوليو ألبيروني حول تحرك محتمَل للجنود

الفرنسيين باتجاه الدويلات البابوية. وبعد ذلك بفترة قصيرة، ثبت أن هذا البلاغ غير صحيح لأن دوق فاندوم أُرسِل إلى إسبانيا للاضطلاع بشؤون جيوش فيليب الخامس.

ارتقى جوليو ألبيروني في غضون سنوات قليلة من جاسوس لا أهمية له في صفوف الحلف المقدس في شمال إيطاليا إلى مُشرف على المفاوضات الجارية لاستعادة كل حقوق الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا بوصفه رئيس وزراء فيليب الخامس. ولكن الاتفاقية الناجمة عن ذلك لم تُفِد روما بشيء.

وفي شباط/فبراير 1718، توتّرت العلاقات بين مدريد وروما مجدداً كما توقّع باولوتشي. وأثبت ألبيروني أنه جاسوس بغيض ورئيس وزراء رديء، وتقرر مصيره بسبب سياسته الخارجية غير الصحيحة وهزيمة القوات الإسبانية في أثناء الاجتياح الفرنسي - البريطاني. فلحق به العار في 5 كانون الأول/ديسمبر 1719.

وأصبح تيبالدو فييسكي البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً مظهراً دائماً في قصر إيل باردو التابع للملكة إليزابيتا فارنيزي. والملكة التي كانت تتمتع بذكاء واضح وتحب الفن والمتعة أحاطت نفسها بعدد قليل من الإيطاليين - مندوبون من البندقية، موسيقيون من فلورنسا، فنانون من نابولي، وتجار من سيينا - كانوا جزءاً من حاشيتها. فاستفاد فييسكي، وهو السييني جميل المظهر الذي تجسس لصالح البابا إقليمنضس الحادي عشر في لندن قبل اثني عشر عاماً، من هذا الجو الممتع ليلج الوسط المقرَّب من إليزابيتا. وبفضل الامتياز الذي اكتسبه بوصفه جاسوساً للحلف المقدس، شهدت روما الأحداث التي جرت في أوروبا المتبدّلة باستمرار.

توفّي لويس الرابع عشر، ملك الشمس القوي، في 1 أيلول/سبتمبر 1715 بعد خمسة وستين عاماً من الحكم. وأصبح لويس الخامس عشر الملك الجديد وسيد القوة العظمى في أوروبا، وكان لا يزال طفلاً في السادسة من عمره. وتوفّي إقليمنضس الحادي عشر في 19 آذار/مارس 1721 ودُفن في بازيلكا القديس

بطرس، تاركاً وراءه مجتمعاً يستجيب لمبرِّرات الدولة في المقام الأول. وتنازل فيليب الخامس عن العرش لصالح ابنه لويس الذي حكم فترة قصيرة من الزمن فقط، وكان على فيليب الاضطلاع بشؤون التاج ثانيةً.

كانت العقود التالية، والولايات الحَبرية لإنّوقنطيوس الثالث عشر وبندكتس الثالث عشر وإقليمنضس الثاني عشر أزمنة شهدت تحوّلاً كبيراً، ولكنها شهدت فقدان جهاز التجسس البابوي نشاطه بشكل كامل تقريباً. فلم يرَ خلفاء إقليمنضس الحادي عشر حاجة إلى وجود جهاز للتجسس في فترة شهدت تجذّر النفوذ البابوي في أوروبا جديدة منبثقة من رماد سنوات طويلة من الحرب.

الفصل السابع
بعض العهود الوجيزة (1721-1775)

في روما، اختار مجمع الكرادلة خَلَفَ إقليمنضس الحادي عشر. وكان البابا الراحل قد عيّن معظم الكرادلة، فحصل فابريزيو باولوتشي في الجولة الأولى من الاقتراع على حوالى ثلثَي الأصوات، وهي الغالبية المطلوبة ليتم انتخابه. بالنسبة إلى الحلف المقدس، إن ترفيع باولوتشي إلى رتبة البابوية يعني إتاحة الفرصة لازدياد نفوذه. وكان الكردينال أنيبال ألباني يعلم أن جهاز التجسس التابع له سيبلغ أوج مجده إذا أصبح أمين سر الدولة في عهد إقليمنضس الحادي عشر، الحَبر الأعظم الجديد. ولكن الفرح انقلب حزناً عندما طرح الكردينال ألتان علناً حق النقض المُتاح له من قِبَل الإمبراطورية الرومانية ضد باولوتشي، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى الدور الذي لعبه في حرب الخلافة الإسبانية.

وبخروج الكردينال باولوتشي المقتدر من الانتخابات البابوية، تطلّب الأمر ستة أسابيع ونصف تقريباً ليتّفق مجمع الكرادلة على خيار جديد. أخيراً، وفي 8 أيار/ مايو 1721، أُعلن الكردينال ميكال أنج كونتي بابا وحمل اسم إنّوقنطيوس الثالث عشر. ولكن كونتي لم يترأس الكنيسة إلا لمدة ثلاث سنوات. ومع ذلك، فقد منح قبل وفاته الموافقة على القيام بأعمال انتقامية ضد اليسوعيين، وقد ازداد الأمر سوءاً في أثناء الولايات الحَبرية التالية.

كان عملاء الحلف المقدس في آسيا، وهم يسوعيون في معظمهم، قد رفعوا تقارير لروما حول وضع المرسَلين في الرهبنة الصينية توصي بالسماح بممارسة الشعائر الصينية والكاثوليكية. عندئذٍ، طلب إنّوقنطيوس الثالث عشر من مجمع نشر الإيمان توجيه رسالة توبيخية صارمة إلى الرئيس العام لليسوعيين.

بصورة عامة، دافع اليسوعيون قائلين إن مراسليهم في الصين كيّفوا أعمالهم لتتلاءم مع المعايير البابوية وإطاعة أوامر البابا. وكان هذا الجدل أوّل الغيث في عاصفة كبيرة ضربت اليسوعيين في ما بعد.

وفي السنوات الثلاث التي شغل فيها إنّوقنطيوس الثالث عشر كرسي القديس بطرس، لم يقم الحلف المقدس بأي عملية. ويعود سبب ذلك جزئياً إلى أن البابا الجديد لم يعيّن رئيساً لجهاز التجسس التابع للفاتيكان. واستمر الوضع على هذا الحال في الولاية الحَبرية التالية. وواصل الكردينال أنيبال ألباني التصرف وكأنه رئيس جهاز المخابرات ولكن ضمن صلاحيات محدودة. وبقي الكردينال فابريزيو باولوتشي مؤيّده الوحيد في الفاتيكان، وكان متبارياً متقدّماً في أثناء مجمع الكرادلة التالي للفوز بمنصب البابوية.

بعد وفاة إنّوقنطيوس الثالث عشر، انعقد مجمع الكرادلة مجدداً في روما في 7 آذار/مارس 1724. وكان المرشحان الرئيسيان هذه المرة هما الكردينال بياتزا الذي تدعمة القوى الإمبراطورية، والكردينال باولوتشي الذي يدعمه فيليب الخامس. أخيراً، وفي 29 أيار/مايو 1724، انتخب الكرادلة بييترو فرنشسكو أورسيني الذي قرر أن يتخذ لنفسه اسم بندكتس الرابع عشر. ولكن نظراً إلى أن بندكتس الثالث عشر الذي عُرف ببابا القمر لم يتم تنصيبه أبداً، قرر أورسيني اعتماد ذلك الاسم.

وبعد ثلاثة أشهر، تنازل الملك فيليب الخامس عن العرش لصالح ابنه لويس. و في 9 شباط/فبراير 1724، عُيّن أمير أستورياس ملكاً لإسبانيا في سن السابعة عشرة. ومذاك الحين، بدأ الملك الشاب لويس وزوجته الملكة لويز إليزابيت دورليان بممارسة مهام الحكم.

وسرعان ما خُيِّبت آمال الإسبان التي أنعشتها رؤية ملك إسبانيّ المولد يجلس على عرشها. في الواقع، بقيت سلطة الحكم في يدَي فيليب الخامس في قصر لا غرانجا دي سان إلديفونسو. فقد كان يتعيّن على الوالد التصديق على كل القرارات التي يتخذها الملك الشاب بعد أن يناقشها فيليب الخامس مع الرجل القوي حديث العهد في النظام ألا وهو المركيز جوزيه دي غريمالدو.

في 26 حزيران/يونيو، التقى فيليب الخامس ابنه وكنّته في لا غرانجا. وكان

سلوك الملكة البالغة من العمر أربعة عشر عاماً غير لائق وغير مقبول كالعادة. فهي لم تكن ترتدي أي ملابس داخلية في الإجمال، وترتدي أحياناً قميص نوم لا يترك أي شيء لمخيّلة المرء. حتى إن مركيز سانتا كروز كتب لغريمالدو قائلاً إن "الملكة تشاهَد أحياناً مع إيطاليَّين في وضعيّة غير لائقة". ومن الممكن أن يكون تيبالدو فييسكي، جاسوس الحلف المقدس من سيينا، أحد هذين الإيطاليَّين.

وبشعوره بالإرهاق من محاولة تحسين سلوك زوجته، عزم لويس على إيداع لويز إليزابيت القصر الملكي حتى تعِد بالتصرف بالشكل المناسب. وأُطلق سراحها بعد سبعة أيام، وطُرد إيطاليان من إسبانيا، أحدهما فييسكي.

ولكن سرعان ما أُضيف وضع أكثر خطورة إلى مشاكل الملك لويس. لقد اعتلّت صحته فجأةً في 14 آب/أغسطس. وفي التاسع عشر من الشهر نفسه، شخّص أطباؤه حالته المرَضية بالجُدَري. وبدأ بالهذيان في التاسع والعشرين منه بسبب الحمى المرتفعة، وتوفّي بعد يومين بعد حكم دام سبعة أشهر ونصف فقط. وكان على فيليب الخامس التخلي عن تقاعده الممتع في لا غرانجا والاضطلاع بالعرش الإسباني مجدداً.

في غضون ذلك، استعان البابا الجديد بأتباع موثوق بهم عملوا معه في أبرشيات بنيفنتو، ومانفريدونيا، وسيسينا، لمساعدته. وأحد هؤلاء نيكولو كوسيا الذي كان مساعداً له في بنيفنتو.

مارس كوسيا نفوذاً فاسداً بدرجة غير مسبوقة ولا مثيل لها حتى الآن، مستفيداً من علاقته بالحَبر الأعظم ومنصبه الجديد كأمين سر بابوي خاص. فاختلس مبالغ ضخمة من المال واضعاً كل ميزانية الفاتيكان بخطر؛ واستغلّ تقرّبه من البابا لمكسب شخصي؛ وحاول إدارة العلاقات الخارجية للفاتيكان بالطريقة نفسها؛ وفوق كل شيء، استخدم الحلف المقدس لمصلحة ملوك وأمراء من اختياره.

وبالرغم من معارضة غالبية الكرادلة الذين يكنّون الكره لكوسيا، فقد رقّاه

بندكتس الثالث عشر إلى صفوفهم ومنحه منصباً على غرار المناصب التي منحها الباباوات السابقون لأنسبائهم. ورفع أنيبال ألباني الذي كان لا يزال يتمتع ببعض النفوذ في الحلف المقدس تقريراً للكردينال فابريزيو باولوتشي تناول فيه مناورات الكردينال كورسيا للاضطلاع بشؤون جهاز التجسس ومحفوظاته. وذهب ألباني بعيداً بالغاً حدّ حثّ العديد من الكرادلة على مراقبة نشاطات الشخص المفضَّل لدى البابا.

وفي حين آثر البعض في مجمع الكرادلة إغماض عيونهم وصمّ آذانهم عن النفوذ المتزايد لنيكولو كوسيا، نصح فصيل بقيادة الكردينال باولوتشي بندكتس الثالث عشر بممارسة مزيد من المراقبة على ما يقوم به الشخص المفضَّل لديه.

لقد حاول كوسيا العمل بطريقته الخاصة في أمانة سر الدولة برئاسة باولوتشي، وفي الحلف المقدس بقيادة ألباني، ولكن الأمر لم يكن سهلاً. فقد كان باولوتشي يتمتع بتأييد كبير في مجمع الكرادلة - بالرغم من كل شيء، ترشح مرتين لمنصب البابوية - في حين أن ألباني كان يدير فرعاً من الكنيسة لم يشأ بندكتس الثالث عشر التدخل في شؤونه في الواقع.

وازداد التوتر عندما اتهم البابا بذاته باولوتشي وألباني وكرادلة آخرين بالافتراء على الكردينال كوسيا، ولكن أمين سر الدولة ورئيس الحلف المقدس كانا يعلمان أن الشخص المفضَّل لدى البابا يرتشي من قِبل العديد من ملوك أوروبا. وتمثلت المشكلة التي واجهاها بضرورة العثور على دليل يُثبت أن الكردينال نيكولو كوسيا مذنب في حالات الفساد هذه. فقرر ألباني إصدار أمر بالقيام بعملية دعيت عملية الإسخريوطي تيمّناً بالذي خان يسوع المسيح. وقضت الخطة بدسّ "أشخاص طرواديين" - عملاء من الحلف المقدس خدموا كجواسيس داخل المنظمات - في الدوائر التي يرأسها كوسيا.

وفي شباط/فبراير 1726، بدأ الشرك يُطبق على الكردينال كوسيا، وكان باولوتشي يميل أكثر فأكثر إلى التخلص من أمين السر الفاسد مهما كان الثمن.

وكوسيا الذي كان يعرف أن الحلف المقدس يتتبّعه قرر إطلاق طلقته التحذيرية الخاصة. فذات يوم، ظهرت جثة كاهن يدعى إنريكو فاسانو بالقرب من جسر فوق التيبر، وكانت أجزاء من الجسم قد بُترت في أثناء التعذيب.

كان فاسانو عميلاً للحلف المقدس ألحقه ألباني بعملية الإسخريوطي، وتمثلت مهمته بجمع معلومات عن المجموعة الصغيرة من المجرمين الذين جنّدهم نيكولو كوسيا في الأحياء الأكثر فقراً في روما. واستخدم الكردينال الفاسد هذه المجموعة ليكونوا حرساً شخصيين له يحمونه باستمرار ويزيلون أي أثر قد يورّطه.

ويبقى الدور، إذا وُجد، الذي لعبه بندكتس الثالث عشر في اغتيال عميل ألباني غير واضح. على أي حال، لم تُثنِ الطلقة التحذيرية ألباني عن مواصلة العثور على دليل يُثبت فساد أمين سر البابا.

والضحية التالية لتتبّع كوسيا كاهن يدعى لورنزو فالدو، وهو دومينيكاني عمل في أمانة السر البابوية في زمن إنّوقنطيوس الثاني عشر. ولم يكن فالدو أكثر من جاسوس ثانوي، ولكن وجوده بالقرب من كوسيا جعله رقيباً مفيداً جداً لأنيبال ألباني.

ففي ليلة 9 حزيران/يونيو 1726، غادر فالدو القصر البابوي ومعه رسالة تحمل في أعلاها اسم بندكتس الثالث عشر من المفترَض إيداعها عنواناً ما في روما. كان فالدو يُدرك أن نقل رسالة بابوية هو أشبه بمهمة مقدَّسة. وعندما بلغ المنزل المحدَّد، قرع الباب. ففُتح وسحبه ثلاثة رجال إلى الداخل وطعنوه في عنقه، ومن ثم رموا جثته في التيبر.

وأظهر تحقيق أجراه ألباني أن الرسالة التي كُلّف لورنزو فالدو مهمة تسليمها قد تكون فارغة. فشخص ما مقرَّب جداً من بندكتس الثالث عشر، من المؤكد أنه الكردينال نيكولو كوسيا، استخدم الختم البابوي كخدعة لإرسال الكاهن إلى حتفه.

بعد ثلاثة أيام من اغتيال لورنزو فالدو، أي في 12 حزيران/يونيو، توفّي فابريزيو باولوتشي بشكل غامض. كان مرشحاً مرتين لمنصب البابوية، وتولى منصب أمانة سر الدولة طيلة أربعة وعشرين عاماً، وكان من أفضل أصدقاء الحلف المقدس منذ إنشائه. وبوفاته، بقي الكردينال أنيبال ألباني بمفرده في مواجهة الشخص المفضَّل لدى البابا، الكردينال نيكولو كوسيا.

وهناك عملية أخرى لكوسيا جرت عام 1727 وكشف الحلف المقدس النقاب عنها. لقد استهدفت هذه العملية علاقات الكنيسة بفيكتور أماديوس الثاني من سافوا، ملك سردينيا، الذي أرسل سفيره إلى روما، مركيز أورميا، وهو دبلوماسي مقتدر، بارع، وواسع الاطلاع على كيفية الفوز بامتيازات لملكه بمساعدة الكردينال كوسيا. وشملت هذه الامتيازات إمكانية ترشيح أشخاص بمساعدة الكردينال، والحصول على حق معارضة تعيين أساقفة في منطقته، وأخيراً حق تعيين كهنة في كل الكنائس والكاتدرائيات والأديرة. لقد حمل نيكولو كوسيا البابا بندكتس الثالث عشر على توقيع اتفاقية في هذا الشأن كما يبدو؛ في المقابل، كافأ فيكتور أماديوس الكردينال كوسيا بصك ملكية أراضٍ ذات أهمية في بييمون.

وطال نزاع آخر تسبب به كوسيا الجالية اليهودية في روما. فبين عامَي 1634 و1790، اعتنق أكثر من ألفَي يهودي روماني الكاثوليكية، وعمّد بندكتس الثالث عشر ثلاثة وعشرين منهم. وتلى هذه الاعتناقات ألعاب نارية ومسيرات دينية، في حين أجبر حراس كوسيا الشخصيين اليهود على التزام الصمت في الأحياء الفقيرة. وأُجيز لحراس كوسيا أو الحرس البابوي جَلد كل من يشاهَد يضيء شمعداناً في المآتم أو يضع حجارة صغيرة على ضريح ما.

كان مجرمو الكردينال كوسيا يتمتعون بحرية التصرف في الشوارع الرومانية، فنشر بعضهم الأسطورة القائلة إن كل من ينجح في حمل مهرطق على الاهتداء إلى الإيمان الكاثوليكي يدخل الجنّة تلقائياً. وفي الأشهر التالية، انتُزع العديد من

الأطفال اليهود من منازلهم وعُمِّدوا بالقوة في نوافير الماء أو بمياه المطر. لقد حدث كل ذلك من دون عِلم البابا بندكتس الثالث عشر كما هو مفترَض.

وفي أوائل العام 1730، مرض البابا، ولازم الفراش محموماً حتى 21 شباط/ فبراير 1730 عندما توفّي عن عمر اثنين وثمانين عاماً. ولودفيغ فون باستور، أفضل مؤرخ للبابوية، كان على حقّ عندما أعلن أن "كون المرء راهباً صالحاً لا يكفي ليصبح بابا صالحاً"، وبندكتس الثالث عشر خير مثال على ذلك. لقد ركزت بابويته على الدِّين أكثر منه على السياسة، ونتيجةً لذلك، تمكّن رجل كالكردينال نيكولو كوسيا من التسلل إلى قلب الكرسي الرسولي.

دام انعقاد مجمع الكرادلة الذي تلى وفاة بنكدتس حوالى خمسة أشهر من 6 آذار/مارس إلى 12 تموز/يوليو. فلم يكن هناك فصيل قوي بما يكفي لفرض مرشحه على المجمع. أخيراً، ومع حلول حر الصيف ووفاة العديد من الكرادلة، انضم الكردينال ألفارو سيينفويغوس المنتمي إلى الفصيل الإمبراطوري إلى أولئك المؤيّدين للكردينال لورنزو كورسيني. وفي 12 تموز/يوليو، انتُخب كورسيني بابا واعتمد اسم إقليمنضس الثاني عشر.

كان البابا الجديد لا يزال محتفظاً بمَضاء ذهنه في سن الثانية والسبعين. فمنذ الأيام الأولى لشغله مناصب هامة في البيروقراطية المالية والقانونية للكرسي الرسولي، أظهر مقدرة كبيرة على التزام الحياد في النزاعات العنيفة والمدمّرة التي جرت مع الكنيسة وإدراتها البابوية. لقد عاش لورنزو كورسيني ملء الحياة المدنية والدِّينية، وساعده ذلك في مهمته العسيرة المتمثلة بشغل منصب الحَبر الأعظم.

كان التدبير الأول الذي اتخذه في 24 تموز/يوليو المطالبة باستقالة الكردينال ألباني كرئيس لجهاز التجسس البابوي. لقد اتهم إقليمنضس الثاني عشر ألباني بالعجز عن الدفاع عن مصالح الكنيسة عندما كان رئيساً للحلف المقدس. ووصف البابا عملية الإسخريوطي بأنها في غير محلها وغير فعالة لأنها تسببت

بموت عميلين هما إنريكو فاسانو ولورنزو فالدو. وبعد خطوته التحضيرية حان دور نيكولو كوسيا.

بعد وفاة بندكتس الثالث عشر مباشَرةً، كان كوسيا وأصدقاؤه قد حاولوا الفرار من روما، ولكن الحرس السويسري قطعوا الطريق على كوسيا عندما بلغ أبواب المدينة لأنه يتعيّن عليه المشاركة في مجمع الكرادلة بوصفه كردينالاً لاختيار بديل عن حاميه الراحل.

وظهر اسم نيكولو كوسيا في إحدى أوراق الاقتراع في أثناء الانتخاب مما تسبب باحتجاجات من قِبل بقيّة أعضاء المجمع.

كانت الخطوة الأولى لإقليمنضس الثاني عشر ضد الكردينال كوسيا إصدار أمر بإنشاء أربع محاكم كنسية لمحاكمة الكردينال الفاسد وأفعاله. وتمثلت مهمة المحكمة الأولى بمحاكمة الكردينال نيكولو كوسيا نفسه؛ وتولت الثانية مهمة تفحص المسار الذي أدى بكوسيا إلى أن يغدو مساعد البابا الموثوق به، وذلك بهدف ضمان عدم تكرار ذلك؛ ودرست الثالثة كل ما يتعلق بحصول كوسيا على امتياز لأمير أوروبي؛ وحللت الرابعة الوضع المالي لكاميرا أبوستوليكا ومدى تورط الكردينال كوسيا بالاختلاس.

ونظراً إلى الملاحظة التي يتعرض لها، طلب الكردينال تدخل الإمبراطور شارل السادس آملاً أن يتمكن من إيقاف المحاكمة. وعندما علم إقليمنضس الثاني عشر بالأمر، طلب المباشرة بمحاكمة نيكولو كوسيا على الفور.

ففرّ الكاهن ليلاً ولجأ إلى نابولي، ولكنه أُجبر على العودة إلى الدويلات البابوية بموجب أمر خطّي صارم من البابا نفسه. ومن الذين حوكموا مع نيكولو كوسيا كان شقيقه فيليبو (أسقف تارغا) والكردينال فرنشسكو فيني.

كان فرنشسكو فيني قد أُلحق بأمانة سر الدولة حيث ائتمنه الكردينال باولوتشي الراحل على أسراره، لا بل كان أيضاً مبعوثاً سرياً بين هذا الأخير وأنيبال ألباني. من الواضح أنه كان عميلاً لنيكولو كوسيا يتولى مهمة مراقبة

الأعمال التي يقوم بها عملاء الحلف المقدس وألباني ضد الكردينال الفاسد.

انتهت المحاكمة في 22 أيار/مايو 1733، وصدّق الكرادلة السبعة عشر الذين يؤلفون اللجنة على إدانة نيكولو كوسيا بالإجماع، وأيّد الحَبر الأعظم هذه الإدانة بعد ثلاثة أيام. فصودرت كل ممتلكات كوسيا ووُزّعت على الفقراء، وكان عليه تسديد مبلغ 100.000 إسكودو أيضاً تعويضاً عن أضرار لحقت بصناديق المال التابعة للكنيسة وروما، وحُكم عليه بالتخلي عن كل درجات الامتياز والمناصب الكنسية وعن حقه بالاقتراع في مجامع الكرادلة اللاحقة. وأخيراً، حُكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات في زنزانة في قلعة سانت أنجلو.

وإتماماً لهذا الحكم، أمر البابا إقليمنضس الثاني عشر بتجنيب كوسيا أي تعنيف وإعادة حقه بالاقتراع في مجمع الكرادلة. مرةً ثانية، انكفأ نيكولو كوسيا إلى نابولي حيث توفّي في 14 أيلول/سبتمبر 1755 وحيداً ومنسياً.

لقد بدأ البابا يعاني من مشاكل في بصره بعد عامين من ولايته الحبرية بالرغم من صحته الجيدة، وفقد بصره بالكامل، وكان وضعه يقتضي قيام أحدهم بإمساك يده ليتمكن من توقيع الوثائق. وبالرغم من استمراره بمزاولة نشاطاته في توجيه الكنيسة، أوكل إلى ابن شقيقه نيري كورسيني الذي رقّاه إلى مرتبة الكردينالية في 14 آب/أغسطس 1730 مهمة النظر في العديد من المسائل المتعلقة بالدولة. واضطلع نيري كورسيني بمهام الحلف المقدس بعد طرد الكردينال أنيبال ألباني.

وبقيادة كورسيني، كرّس جهاز التجسس في الفاتيكان نفسه للملاحقات الدينية داخل الكنيسة وملاحقة الماسونيين (البناؤون الأحرار) أكثر من تورطه في قضايا سياسية. وخلال هذه السنوات، تدهورت العلاقات مع فيليب الخامس إلى حدٍّ كبير. فالمرور المستمر للجنود الإسبان عبر الدولة البابوية، والتجنيد الإجباري، ورفض البابا السماح بتكريس ابن فيليب الخامس شارل دو بوربون ملكاً على نابولي، أدت جميعها إلى انقطاع العلاقات مجدداً بين مدريد وروما.

واستُؤنِفت العلاقات عام 1737 بعد توقيع اتفاقية ينص البند الرئيسي فيها على موافقة إقليمنضس الثاني عشر على تتويج شارل ملكاً على نابولي.

بعد عام، وبعد تلقي تقرير هام من الحلف المقدس حول التهديد المتزايد الذي يشكله الماسونيون داخل الكنيسة الكاثوليكية، قرر البابا إدانة هذا الأمر في البيان الرسمي في سموّ الذي أصدره في 28 نيسان/إبريل 1738. فمنع إقليمنضس الثاني عشر كل أتباعه من الانتماء إلى المنظمات الماسونية أو حضور احتفالاتهم تحت طائلة التعرض لعقوبة الحرم. بالنسبة إلى الحَبر الأعظم، لقد تدخلت الماسونية إلى حدٍّ كبير في شؤون الدِّين الحقيقي ووضعت الولاء لمنظمة سرية قبل الولاء لله.

كان الحلف المقدس قد رفع تقريره الرئيسي الأول عن الماسونية في كانون الأول/ديسمبر 1733 مما حث إقليمنضس الثاني عشر على التصديق على دستور جديد في الدولة البابوية في 14 كانون الثاني/يناير 1734. ويحظّر الدستور كل المواطنين من المشاركة في الطقوس الماسونية تحت طائلة التعرض لعقوبة الموت ومصادرة كل ممتلكاتهم. وطلب القانون الجديد من كل الكاثوليك إبلاغ قضاة الكنيسة بهذه الطقوس وبأسماء المشاركين فيها.

ووافق البابا التالي، بندكتس الرابع عشر، في بيانه الرسمي تدبير الذي أصدره في 18 أيار/مايو 1751، على الخطوة التي قام بها إقليمنضس الثاني عشر. وكذلك، أدان بيوس السابع عام 1814، ولاون الثاني عشر عام 1825، وبيوس التاسع عام 1865، الماسونية وطقوسها. وطلب البابا لاون الثالث عشر عام 1884 في المنشور البابوي العام الجنس البشري من كل المسيحيين التيقظ من ملّة يُعرَف أتباعها بالماسونيين.

في 6 شباط/فبراير 1740، توفّي البابا إقليمنضس الثاني عشر عن عمر سبعة وثمانين عاماً مما استدعى انعقاد مجمع الكرادلة. كان الكردينال بروسبيرو لامبرتيني خبيراً هاماً في القانون الكنسي ويحترمه الكرادلة الآخرون، ولكنه لم

يظهر على لائحة المرشحين المحتمَلين في المجمع الذي بدأ أعماله في 14 شباط/ فبراير.

وهكذا، بدأ أحد المجامع الأطول في تاريخ الكنيسة بسبب قوة الفصائل والانقسامات الجليّة داخل مجمع الكرادلة. وكان الفصيلان الفرنسي والنمساوي موحّدَين تقابلهما في الجانب الآخر الفصائل الإسبانية والنابولية والتوسكانية والسردينية، ويقود الكردينال نيري كورسيني، رئيس الحلف المقدس، مجموعة الكرادلة الذين عيّنهم عمه إقليمنضس الثاني عشر. وكانت الفصائل المتنوعة منقسمة أيضاً بين الغيارى - أولئك الذين أرادوا بابا صارماً وغير متردد في الدفاع عن حقوق الكنيسة - وأولئك الذين يحاولون الإتيان بحَبر أعظم ذي ميول دبلوماسية وتصالحية أكبر.

وتتالت الاقتراعات واحتساب الأصوات من دون أي نتيجة إيجابية حتى تقدّم أحدهم بترشيح الكردينال بروسبيرو لامبرتيني. وبعد ستة أشهر من افتتاح المجمع، انتُخب لامبرتيني في صباح 17 آب/أغسطس 1740 بابا واعتمد اسم بندكتس الرابع عشر. كانت خطوته الأولى تعيين الكردينال سيلفيو فالنتي أميناً لسر الدولة وتثبيت الكردينال نيري كورسيني على رأس جهاز التجسس البابوي.

عُرف بندكتس الرابع عشر بأنه "بابا الاتفاقيات" أكثر منه شخصية سياسية. فمنذ العام الأول لحكمه، سارع هذا البابا إلى إيجاد حل للمسائل العالقة بين الفاتيكان ودول أخرى كان أسلافه قد تركوها عالقة. وتم التفاوض على اتفاقية جديدة مع ممالك سردينيا والبرتغال وإسبانيا. وكانت الاتفاقيات التي تم التفاوض في شأنها مع نابولي ولومباردي النمساوية عسيرة. في هذه الفترة، بقي عملاء الحلف المقدس غير ناشطين أم أنهم تولوا مهمة إجراء تحليلات سياسية نزولاً عند طلب الكردينال فالنتي.

وعدم قيام جهاز التجسس البابوي بأي نشاط عنى، على سبيل المثال، أنه تطلب الأمر أياماً لتبلّغ الكرسي الرسولي خبر وفاة الملك فيليب. لقد توفّي الملك

الإسباني في 9 تموز/يوليو 1746. وكالعادة، كان الملك قد التقى وزراءه في أثناء الليل في قصر بوين رتيرو وخلد إلى النوم عند السابعة والنصف صباحاً. وفي الواحدة والنصف بعد الظهر، قال فيليب للملكة إنه يشعر بالغثيان، ولكن الطبيب الملكي لم يكن في القصر. وبعد لحظات قليلة، بدأ حلقه ولسانه بالانتفاخ. وعندما حاول النهوض، سقط مجدداً على السرير، ومات.

وجاء في سيرة فيليب الخامس الإسباني: الملك الذي حكم مرتين للمؤرخ هنري آرثر كامين أن الموت الفجائي للملك وهو في الثانية والستين من عمره جاء نتيجة تدهوره الصحي والعقلي. لم يكن فيليب الخامس قد استحمّ طيلة أربعة أشهر على الأقل، وبلغ حاله كل مبلغ لدرجة أن إسفنجات الخدَم انتزعت قطعاً من الجلد عندما كانوا يحاولون غسل الجثة. وأخيراً، وبعد لفّه بكفن من الذهب والفضة، دُفن في كنيسة سان إلديفونسو في لا غرانجا بعد ثمانية أيام من وفاته. وأُعلن أمير النمسا ملكاً لإسبانيا وحكم باسم فردينان السادس.

لا يُعرف إلا القليل عن نشاطات الحلف المقدس في أثناء ولاية بنكدتس الرابع عشر الحَبرية التي دامت ثمانية عشر عاماً. ويعود سبب ذلك ربما إلى واقع أن جهاز التجسس البابوي اتّكل على الدوام على العدد الكبير لليسوعيين في صفوفه، ولكن الحَبر الأعظم الجديد لم يكن متعاطفاً جداً مع تلك الرهبنة. في الواقع، لقد أعطى بندكتس الرابع عشر الضوء الأخضر لاتخاذ تدابير ضد اليسوعيين بعد إصدار أمر للكردينال سالدانا، أسقف لِشبونة، بتفحّص نشاطات اليسوعيين البرتغاليين ودراستها. جاء ذلك رداً على ضغوطات مارسها رئيس الوزراء البرتغالي، مركيز بومبال.

وتوفّي بندكتس الرابع عشر في 3 أيار/مايو 1758 عن عمر ثلاثة وثمانين عاماً. وكان هناك فصيلان مهيمنان في أثناء الاقتراع، الغيارى و"كرادلة التاج"، ويفضّل هؤلاء الكرادلة مواصلة سياسات بندكتس الرابع عشر. كان الكردينالان كورسيني وبورتوكاريرو يدعمان كافالشيني الذي كاد أن يُنتخب بابا في 28 حزيران/يونيو

بفارق صوت واحد. فقرر الكردينال روت، مندوب البلاط الإمبراطوري، والكردينال سبينيلي دعم محاولة إيصال الكردينال ريتزونيكو إلى كرسي القديس بطرس، وقد اختير في الواقع بابا في 6 تموز/يوليو 1758. وكارلو ريتزونيكو من البندقية، وقد اتخذ لنفسه اسم إقليمنضس الثالث عشر. لقد كان، والحق يقال، يفتقر تماماً إلى المهارة السياسية والدبلوماسية. ولملء الفراغ، عيّن البابا الكردينال توريجياني - صديق لليسوعيين واستبدادي - أميناً لسر الدولة.

وفي أثناء ولايته الحَبرية، كانت الحرب التي شُنّت ضد اليسوعيين قد اتضحت معالمها أكثر فأكثر من دون إسناد أي دور للحلف المقدس. وملوك الساعة - فردينان السادس في إسبانيا، جوزيف الأول في البرتغال، فريديريك الثاني في بروسيا، ليوبولد في توسكانا، جوزيف الثاني في النمسا، وشارل الثالث في نابولي - كانوا أكثر ارتياباً وحسداً من النفوذ المتنامي لتلك الرهبنة. لقد هاجم وزراء الملوك اليسوعيين بسبب تعليمهم المحافظ، وتطرّفهم في الدفاع عن تدخل الكنيسة في الشؤون السياسية، ولا سيما خضوعهم الجليّ للكرسي الرسولي.

لاحت بداية النهاية بالنسبة إلى اليسوعيين في الساعات الأولى من 3 أيلول/سبتمبر 1758 عندما عاد جوزيف الأول ملك البرتغال إلى قصره بعد تمضية الليل مع عشيقته، ماركيزة تافورا. وعندما أبطأت عربته في شارع ضيّق، دوّت عدة طلقات نارية. بدا في بادئ الأمر أن محاولة الاغتيال كانت من تدبير مركيز تافورا بسبب علاقة زوجته بالملك. وشيئاً فشيئاً، أظهر تحقيق أشرف عليه سيباستياو خوسيه ميلو دي كارفاليو، مركيز بومبال ورئيس الوزراء، أن مركيز تافورا كان بالفعل العقل المدبّر للمؤامرة، ولكن دوافعه سياسية لا عاطفية. فطوال سنوات، ناضل جوزيف الأول ورئيس وزرائه، مركيز بومبال، في سبيل حكم ملكي مطلَق، وخفّضا مرتبة النبلاء الذين أصبحوا مجرد شهود على السياسات الملكية محرومين من إبداء الرأي وحق الاقتراع.

و في 12 كانون الثاني/يناير 1759، خضع مركيز تافورا وأحد عشر نبيلاً

للمحاكمة، وأُدينوا، وأُعدموا بسبب محاولتهم اغتيال الملك. وأظهر مركيز بومبال في أثناء المحاكمة أن بعض هؤلاء المتهَمين أقاموا علاقة وثيقة بالحلف المقدس، وأن الجميع احتفظوا بعلاقة وثيقة باليسوعيين. وجاء في الحكم الرسمي أن دوق أفيرو، وبهدف استعادة نفوذ النبلاء المفقود في البلاط، اتفق مع اليسوعيين بأن يعتبروا اغتيال الملك مجرد خطيئة عرضية.

و في 19 كانون الثاني/يناير، أمر مرسوم قضائي بطرد اليسوعيين ومصادرة ممتلكاتهم في أراضي التاج البرتغالي كافة. وتلقى إقليمنضس الثالث عشر الإشعار الرسمي في اليوم التالي. وأدت احتجاجات الكرسي الرسولي المتكررة لدى حكومة لِشبونة إلى طرد القاصد الرسولي في 15 حزيران/يونيو 1760. وانتشر قمع اليسوعيين في مختلف أنحاء أوروبا، ومرّ الكرسي الرسولي بفترة من عدم اليقين، غير عالِم بما يجب القيام به أو بمن يتصل.

واتهم البابا جهاز التجسس التابع له بالتقصير عن إبلاغه بالعمليات التي يقوم بها الأب لافليت في جزر الهند الغربية، في حين أنكر جواسيس الكرسي الرسولي أي مسؤولية لهم في هذا الشأن، مضيفين أن أعدادهم تدنّت منذ بدء ولاية بندكتس الرابع عشر الحَبرية، وأن مِجسّات الكرسي الرسولي لم تتقلّص فحسب بل قاربت حدّ الزوال.

حدث الفصل الثالث والأخير من مأساة اليسوعيين في 27 آذار/مارس من العام 1767 عندما أصدر الملك شارل الثالث (الذي خلف شقيقه من والدته فردينان السادس بعد وفاته عام 1759) مرسوماً بطردهم من "كل مناطق نفوذي وجزر الهند الجنوبية، وجزر الفيليبين، ومناطق مجاورة أخرى... ومصادرة كل ممتلكاتهم"، وذلك بعد أعمال شغب إسكيلاش في مدريد. كان لمرسوم الملك الإسباني الأثر الأكبر في الإرساليات اليسوعية إذ دمّر إحدى شبكات المعلومات الأكثر انتشاراً في الخارج والتابعة للكرسي الرسولي. فكان على ألفَي يسوعيّ تقريباً مغادرة إرسالياتهم الأجنبية. وإثر الإجراءات البرتغالية والفرنسية

والإسبانية، وقّع سيد مالطة الأكبر أيضاً أمراً بالطرد في 22 نيسان/إبريل 1768، وأخبر البابا بأنه يقوم بذلك بحكم التزاماته حيال مملكة نابولي. وفي العام نفسه، حذا دوق بارما حذوهم.

وأدت احتجاجات إقليمنضس الثالث عشر وبياناته الرسمية ضد هذه المراسيم إلى قيام الجنود الفرنسيين باحتلال أفنيون وكومتا فينيسان؛ واحتلت نابولي مدينتَي بنيفنتو وبونتيكورفو البابويتَين؛ وهدد دوق بارما قداسته باجتياح الدويلة البابوية إذا لم يسحب البيانات الرسمية والإدانات. وفي كانون الثاني/ يناير 1769، طلب سفراء فرنسا وإسبانيا ونابولي في روما رسمياً أن يقوم البابا إقليمنضس الثالث عشر بقمع اليسوعيين بالكامل. واستعد البابا للمقاومة ولكنه وقع ضحية سكتة دماغية بعد أيام قليلة، تاركاً للبابا التالي إقليمنضس الرابع عشر مهمة إيجاد تسوية للمسألة.

كان مجمع الكرادلة الذي انعقد عام 1769 إثر وفاة إقليمنضس الثالث عشر الأكثر تسيّساً في التاريخ البابوي. فقد دام ثلاثة أشهر وتخللته مواجهات مستمرة ليس بين الكرادلة أنفسهم بل بين سفراء البلاطات الكاثوليكية في أوروبا الذين كانوا المرجع لسياسات الكرسي الرسولي الكنسية. لقد أرادوا جميعاً بابا يسهل التحكم به، وربما كان إقليمنضس الرابع عشر أحدهم.

لم يكن الهدف اختيار بابا كفؤ وخبير بالقانون الكنسي، أو سياسي ماهر، أو دبلوماسي متمرس، بل بابا ذي شخصية ضعيفة يعلن عداءه العلني لليسوعيين.

كان الكردينال توريجياني يقود الجانب المؤيّد لليسوعيين، في حين أن الجانب المقابل كان بقيادة الكردينالين الإسبانيَّين فرانسيسكو سوليس وبوينافينتورا سبينولا دي لا سيردا والكردينال الفرنسي دو برني. وفي النهاية، وبعد اجتماع مُرهِق مليء بالضغوطات والمكائد، أصبح الكردينال لورنزو غانغانيللي البابا إقليمنضس الرابع عشر. وكما كتب الباحث والمؤرخ مايكل جيه والش في كتابه مجمع الكرادلة: تاريخ الانتخابات البابوية سري تارةً ودموي طَوراً، كان هناك

اتفاق داخل المجمع لانتخاب الكردينال غانغانيللي مقابل إصداره أمراً بحل الرهبنة اليسوعية بعد ضمان انتخابه.

وفي العام 1848، وفي أثناء ولاية بيوس التاسع الحَبرية، كشف الحلف المقدس عن وجود ورقة دوّن غانغانيللي (إقليمنضس الرابع عشر) عليها في أثناء انعقاد المجمع عام 1769 موالاته للجانب المعادي لليسوعيين. وفي اليوم التالي، انتُخب الكردينال بابا. وكان الكردينال دو برني ينكر على الدوام وجود أي نوع من المكائد السياسية في المجمع الذي رفع غانغانيللي إلى مرتبة البابوية.

بدأ البابا الجديد عهده بطرد الكردينال توريجياني من منصبه كأمين سر للدولة، مستبدلاً إياه بالكردينال بالافيتشيني. وفي الوقت نفسه، أمر بتطهير جهاز التجسس التابع للكرسي الرسولي من أي عناصر تابعة للرهبنة اليسوعية. وما لم يدركه إقليمنضس الرابع عشر بعد مرور قرنين على وجود الحلف المقدس هو أن عملاءه ومخبريه الأساسيين في مراكز النفوذ الأوروبية الرئيسية ينتمون إلى الرهبنة اليسوعية.

وفي 21 تموز/يوليو 1773، وقّع إقليمنضس الرابع عشر المذكرة البابوية السيد والمخلّص التي حلّت الرهبنة اليسوعية. وجاء في الوثيقة التي لم يُكشَف عنها للرئيس العام، الأب ريتشي، حتى 16 آب/أغسطس:

> نحن نحلّ الرهبنة المدعوّة رهبنة يسوعية، ونُلغي ونبطل كل مكاتبها، وإداراتها، ومقارّها الدينية والخدماتية، ومدارسها... ونظمها الأساسية، وأعرافها، ومراسيمها، وقوانينها... قصدُنا ورغبتنا هو أن يُعتبر الكهنة (اليسوعيون) إكليروس علماني.

(إكليروس علماني توازي هنا كهنة الأبرشيات، ويفقد اليسوعيون انتماءهم لرهبنة).

من المُذل حقاً رؤية الطريقة التي اعتمدها الحرس البابوي لتنفيذ المذكرة البابوية إذ دخلوا كل مقارّ الرهبنة وصادروا كل الوثائق الموجودة فيها. وفي 23

أيلول/سبتمبر، تمت مواكبة الرئيس العام لورنزو ريتشي وأحد أكثر معاونيه ثقة بهم إلى قلعة سانت أنجلو في روما حيث تم احتجازهما. كان الاحتجاز قاسياً جداً لدرجة أن ريتشي لم يعلم بوفاة أمين سر الرهبنة كورنولي إلا بعد ستة أشهر، عِلماً أنهما أقاما في زنزانتَين مجاورتَين. وتم الحد من نشاطات عملاء الحلف المقدس إلى أدنى الدرجات.

وقضى قانون صدر في شأن اليسوعيين بتحرير لورنزو ريتشي وأعوانه، ولكنه لم يطبَّق كما يبدو مخافة إعادة تجمّع اليسوعيين المشتَّتين حول زعيمهم القديم لإعادة بناء رهبنتهم. وتعويضاً للإجراء الذي اتخذه ضد اليسوعيين، استعاد إقليمنضس الرابع عشر الدويلات البابوية المحتلّة وهي أفنيون، دو فينيسان، بنيفنتو، وبونتيكورفو. ولم يعش البابا سوى أربعة عشر شهراً بعد قمع الرهبنة اليسوعية، وتوفّي في 21 أيلول/سبتمبر 1774. ولكن الحلف المقدس أراد أن تكون الكلمة الأخيرة له، وحدث ذلك في أثناء ولاية خلف إقليمنضس الحَبرية، بيوس الخامس.

بموت جوزيف الأول ملك البرتغال في شباط/فبراير 1777، كان على مركيز بومبال التخلي عن منصبه. فاعتزل رئيس الوزراء في أراضيه في أويراس، ولكن الحلف المقدس لم يسمح لمركيز بومبال، العدوّ الأكبر لليسوعيين، بالفرار من دون عقوبة. ومتحدثاً في أثناء تتويج ماريا الأولى ملكة على البرتغال، تجرّأ النبيل فرانسيسكو كويلهو دا سيلفا على إعلان التالي:

> ما زالت لدى البرتغال جراحٌ لم تندمل بعد ما تسبب بها الطغيان اللامحدود لذلك الوزير المُخفق [مركيز بومبال].

لقد زوّد عملاء للحلف المقدس تربطهم صلات باليسوعيين، كما يبدو، قضاة المملكة، وبطريقة غامضة، بتقرير مليء باتهامات مدعومة بأدلة تطال مركيز بومبال. وأدى المستند المؤلف من ثمانٍ وعشرين صفحة إلى إخضاع الوزير السابق للمحاكمة. وفي 11 كانون الثاني/يناير 1780، وُجد سيباستيان خوسيه

ميلو دي كارفاليو، مركيز بومبال ورئيس الوزراء السابق للملك، مذنباً بالفساد والثراء غير المشروع على حساب العرش، وحُكم عليه بالسجن لمدة طويلة. وبعد قراءة الحكم، منحته الملكة ماريا عفواً يُعمل به ابتداءً من 1 كانون الثاني/يناير بسبب تقدّمه في السن. وتوفّي مركيز بومبال في 8 أيار/مايو 1782 بعد أن تخلى عنه الجميع.

إن وفاة إقليمنضس الرابع عشر تركت الكرسي الرسولي في حالة من الفوضى. ولم يكن العديد من الكرادلة - الغيارى - سعداء بحكم غانغانيللي غير الفعال وإذعانه الكامل لملوك أوروبا، ولكن البوربونيين وحلفاءهم على امتداد القارة عقدوا العزم على عدم تغيير خطهم السياسي في ما يتعلق بالكنيسة والبابوية. كان أفق الحلف المقدس مكفهراً في السنوات التي شهدت ثورات ونشوء الصقور وسقوطهم.

الفصل الثامن

نشوء الصقور وسقوطهم (1775-1823)

في 5 تشرين الأول/أكتوبر 1774، انعقد مجمع الكرادلة لتعيين خلف لإقليمنضس الرابع عشر المثير للجدل. ومرةً أخرى، كان الغيارى، والبوربونيون، والفرنسيون، والإمبراطوريون، يشكلون فصائل متباعدة. وكانت باريس ومدريد تؤيدان الكردينال بالافيتشيني، أمين سر الدولة السابق على عهد إقليمنضس الرابع عشر.

فرفض الفصيل الإمبراطوري بالافيتشيني، ولكن الكردينال جان فرانسوا ألباني رشّح الكردينال براسكي، أحد المستقلين. وبدعم بلاطات البوربونيين ومعارضة برتغالية، انتُخب جيوفانّي-أنجيلو براسكي بابا في 15 شباط/فبراير 1775 متخذاً لنفسه اسم بيوس السادس إكراماً لبيوس الخامس، المفتش في محاكم التفتيش ومؤسس الحلف المقدس. وجاءت ولايته الحَبرية في إحدى الفترات الأكثر تشنّجاً في التاريخ وفي زمن أزمات معقّدة واجهتها الكنيسة الكاثوليكية التي كان عليها النضال في مواجهة هجمة الإصلاحات التنويرية أولاً، وتأثيرات الثورة الفرنسية في ما بعد.

كان الجزء الثاني لولاية بيوس السادس الحَبرية الطويلة أكثر صعوبة وإرهاقاً. ففي أوائل تموز/يوليو 1789، كان سكان باريس خائفين، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى انتصارهم الخاص المتمثل بالدعوة إلى انعقاد الجمعية الوطنية التي تحدّت أمر الملك لويس السادس عشر بحلّها، وأقسموا بدلاً من ذلك على بقائها في انعقاد دائم حتى تتمكن من وضع دستور لفرنسا. ونجم هذا الخوف أيضاً عن ظهور قطّاع الطرقات الذين كانوا نتاج هجرة الفلاحين إلى المدن بسبب الجوع العارم.

وعزمت البورجوازية الباريسية على مواجهة الملكية والفوضى السياسية والاقتصادية، فكانت بحاجة إلى أسلحة لتشكيل ميليشيا وطنية. والطبقة

البورجوازية هي المحرك الحقيقي للثورة الفرنسية وليس الطبقة العاملة التي كانت لا تزال تفتقر إلى قادة يتمتعون بالوعي. والثوريون الأوائل هم كونت ميرابو ومركيز لافاييت؛ المحامون ديمولان، روبسبيير، دانتون، وفيرنيو؛ وأطباء مثل مارات. وكان لويس السادس عشر قد طرد جاك نيكر من منصبه، وهو الصديق الذي وثقت به كل فرنسا لحل الأزمة الاقتصادية التي تسبب بها انتشار الجوع، وكان هذا الإجراء حافزاً للانفجار كما يؤكد سيمون شاما في كتابه مواطنون: سجلّ تاريخيّ للثورة الفرنسية. فقام الثوري كميل ديمولان بتأمين براميل البارود، وهو الذي قفز على طاولة في القصر الملكي وصاح: "لقد طُرد نيكر. إنه الدافع نفسه الذي أدى إلى مجزرة ذكرى القديس برثولوميو التي طالت الوطنيين. الليلة، ستنطلق الكتائب السويسرية والألمانية من شان دو مارس - موقع ثكناتهم - لقطع الأعناق. أيها المواطنون! إلى السلاح!"، ولكن الأسلحة التي كانوا بأمسّ الحاجة إليها مكدَّسة في الباستيل، رمز القوة الملكية، القلعة القائمة وسط باريس ومدفعها مصوَّب على المواطنين وجاهز دائماً لإطلاق قذائفه لأن لويس السادس عشر لم يكن يثق بمواطنيه. وهكذا، هجم المواطنون على الباستيل في 14 تموز/يوليو 1789.

فأمر حاكم الباستيل، دو لوني، جنوده بفتح النار على المهاجمين، ولكن القلعة استسلمت في نهاية المطاف. وقام طاهٍ يدعى دينو بفصل رأس دو لوني عن جسده بسكين جزّار. ولقي لوسم-سالبري، قائد جنود القلعة، المصير نفسه، مع العديد من عناصره، واستُعرضت رؤوسهم على الرماح في شوارع باريس دلالةً على انتهاء الملكية الاستبدادية.

في المرحلة الأولى للثورة، حافظ البابا بيوس السادس على حياده بالرغم من نصيحة الكردينال جيوفاني باتيستا كابرارا، رئيس الحلف المقدس الذي بدأ عملاؤه يشاهدون تحركات علنية مناهضة لرجال الدين في فرنسا. وفي 12 تموز/يوليو 1790، أصدرت الجمعية التأسيسية الدستور المدني لرجال الدين وطلبت

من كل رجال الدين أن يُقسموا على الإذعان للقانون الجديد. وبعد يومين، أقسم الملك لويس السادس عشر، والملكة ماري أنطوانيت، وابنهما البكر الولاء للأمّة. ورداً على ذلك، أصدر بيوس السادس في 10 آذار/مارس 1791 المذكرة البابوية بما أن القسم الأكبر، شاجباً فيها كل القوانين التي أقرّتها الجمعية وأثّرت في الدين. بدورهم، قرر القادة الجدد في فرنسا طرد القاصد الرسولي في أيار/مايو من ذلك العام، قاطعين نهائياً العلاقات بين باريس الثورية وروما البابوية. واتسعت الهوة بين الفريقين باضطهاد الكهنة، وإعدام لويس السادس عشر على المقصلة، وارتداد فرنسا عن الدين المسيحي.

لقد تسبب عملاء الحلف المقدس إلى حدٍّ ما بهذا الشَرخ بين الشعب ولويس السادس عشر الذي كلّفه رأسه. فقد لجأ الملك إلى استخدام الفيتو الذي منحه إياه الدستور الجديد بعد أن فقد الشعب أي ثقة متبقية به. وكان عملاء الحلف المقدس قد أبلغوا الملك بأن الجمعية الوطنية تخطط للشروع بعدة إصلاحات، بما في ذلك تلك المتعلقة برجال الدين والتي تمنعهم من القيام بإيماءة الطاعة لبابا روما. وحث جواسيس بيوس السادس عشر الملك على استخدام حق النقض الدستوري لرفض هذا القانون، فقرر لويس السادس القيام بذلك.

وشهد الثاني من نيسان/إبريل وفاة ميرابو، وهو الرجل الذي كان قد قاد فرنسا على طريق الثورة والملكية. وحث عملاء البابا الملك على الفرار من باريس مع جنوده على أن يستعيد عرشه وكل حقوقه في ما بعد.

وتمكن الحلف المقدس والملكيون من خداع جواسيس الثورة مدة كافية من الزمن لوضع العائلة الملكية في عربة وتوجهها إلى الحدود. ولكن الفرار لم يدُم طويلاً بسبب اعتقال الملك وعائلته في 21 تموز/يوليو 1791 وإصدار أمر بإعادتهم إلى باريس. لقد غدت القطيعة كاملة بين الملك والشعب. فاستخدم الملك ثانيةً حق النقض (الفيتو)، ولكن هذه المرة لإحباط إقرار المرسوم الصادر ضد الكهنة المشاكسين الذين رفضوا أن يقسموا الولاء للأمة بل للبابا بيوس

السادس.

وكان الهجوم الذي استهدف التويلري في آب/أغسطس 1792 نذيراً لما دُعي حكم الإرهاب، ورُفعت المقصلة في 22 آب/أغسطس، وثُبّتت بشكل دائم في 21 كانون الثاني/يناير 1793 في ميدان الثورة المعروف اليوم باسم ميدان الكونكورد. فاستعدّ الملك، ووضع قبّعته، وانطلق إلى موعده مع الموت. وعندما وصل إلى موقع المقصلة، جثا بمحاذاة الكاهن وتلقى الشعائر الدينية الأخيرة. وحاول مساعدو سامسون ربط يدَي الملك، ولكنه رفض. وكان الجلادون مستعدين لوضع عنقه على المقصلة بالقوة. فأوثق الجلادون يدَي الملك وراء ظهره بمنديل وقصوا شعره. وصعد الدرَج إلى المقصلة متّكئاً على ذراع الأب. وفي اللحظة الأخيرة، بدّل لويس وجهة سيره واتجه إلى حافة المنصة ووقف قبالة التويلري. "أيها الفرنسيون، أنا بريء!" قال للجمهور. "أصفِح عن أولئك الذين تسببوا بِمحَني. أصلّي لله بأن تُسهم إراقة دمي في سعادة فرنسا وسعادتكم، أيها الشعب السيّئ الحظ".

ودفعه الجلادون الأربعة إلى الأسفل ووضعوا عنقه على المقصلة. فقاوم الملك وصرخ، ولكن النصل سقط بسرعة غير عادية وقطع رأسه، ناثراً الدم على الأب. فالتقط سامسون الرأس المقطوع بشعره ورفعه ليشاهده الناس. واندفع الشركاء في عملية الإعدام، والمتعصبون، والراديكاليون الغاضبون إلى المنصة وبللوا سيوفهم ومناديلهم وسكاكينهم وأيديهم بدم الملك، وصاحوا: "تعيش الأمّة!" و"تعيش الجمهورية!" ولكن أحداً لم يردّد العبارتين تقريباً. ولقيت الملكة ماري أنطوانيت المصير نفسه في 16 أيلول/سبتمبر 1793.

لقد أدت احتجاجات البابا بيوس السادس إلى احتلال أفنيون وفينيسان، ولكن هذه المرة من قِبَل جيش ثوري فرنسي. وأفسح الدبلوماسيون والسياسيون البابويون الطريق لجواسيس الحلف المقدس الذين لعبوا دوراً هاماً في السنوات التالية. وأحد هؤلاء العملاء الأكثر فعالية هو الأب سالامون الذي لعب دور

مندوب بابوي سري في فرنسا الثورية في أواخر القرن الثامن عشر.

وفي بداية العام 1793، أنشأ سالامون إحدى أفضل شبكات المعلومات وجاب البلاد بطولها وعرضها. وكانت الجمعية الوطنية - وهو المؤتمر الشعبي الذي أطاح بالملك لويس السادس عشر ووزرائه - قد عزمت على مصادرة ممتلكات الطبقة الأرستقراطية والكنيسة. وسنّت أيضاً قانوناً ألغى الرهبنات، وخفّض عدد الأبرشيات، وأنشأ نوعاً من الكهنوت المدني ملتزم بنظام جديد. كان القاصد الرسولي قد عاد إلى روما، ولكن سالامون أصبح جاسوس البابا بيوس السادس في باريس في أثناء فترة حكم الإرهاب. ومن منزله الصغير، استمر الأب في تزويد الحلف المقدس في روما بسَيل من المعلومات حول شائعات عن تدابير جديدة تنوي الحكومة الثورية اتخاذها ضد كهنة فرنسا.

أما حادثة لويس-شارل كابيه، ابن الملك المعدوم والذي عرفه الملكيون باسم لويس السابع عشر، فقد تم تداولها في قصص الحلف المقدس المتوارَثة أكثر منه في التاريخ الفعلي.

ففي 3 آب/أغسطس 1793، أُخذ لويس الصغير البالغ من العمر سبع سنوات من والدته التي أُعدمت بعد ذلك، وسُجن في زنزانة مُظلمة بحماية حارسَين. ورفع عملاء الحلف المقدس تقريراً جاء فيه أن الفتى دخل السجن في 13 آب/أغسطس 1792 وبقي برعاية زوجَين. وعزم الأب سالامون على إنقاذ الفتى، أو أقلّه محاولة إنقاذه.

هناك روايتان عن حادثة لويس السابع عشر. فالأولى تقول إن لويس الصغير الذي لم يكن له أي دور في السياسة الفرنسية بسبب سنّه توفّي في السجن عن عمر عشر سنوات في 8 حزيران/يونيو 1795. وتؤكد بعض المصادر أنه مات مسمَّماً، ولكنه مات على أي حال ضحية إقامته الجَبرية في زنزانة يكاد المرء لا يستطيع التحرك فيها، ظروفها الصحية مُزرية، والجرذان هي الرفيق الوحيد. وفي أيار/مايو، وبينما كان طبيب يقوم بزيارة لويس الصغير، وجده في حالة جسدية

خطيرة ووهن نفسيّ.

وفي 6 و7 حزيران/يونيو، ازداد وضعه خطورة، وشهد الثامن منه وفاة الفتى الذي كان الملك لويس السابع عشر بالنسبة إلى البعض، والمواطن لويس-شارل كابيه بالنسبة إلى الآخرين. فوُضعت جثته في النعش ودُفن بعد ذلك في مقبرة سانت مارغريت عند التاسعة صباحاً. وحرس جنديان المكان لعدة أيام لمنع أي شخص من أخذ بقايا ملك فرنسا. وقد أطلقت وفاة الفتى العنان لخيال العديدين حول ما حدث في الواقع.

في ذلك الوقت، كانت مؤامرات الملكيين قد تمحورت حول اغتيال كل أعضاء لجنة السلامة العامة وبالتالي، تنصيب لويس الصغير ملكاً. كان بيير غاسبار شوميت المتآمر الرئيسي، وقد ادعى كثيرون أنه عضو فاعل في الحلف المقدس ووعد روما باستعادة الكنيسة موقعها السابق بعد استعادة الملكية.

وروت الأساطير المتداولة مذاك الحين أن المتوفّي لم يكن ابن لويس السادس عشر بل فتىً آخر يشبهه كثيراً، في حين أن الملك الحقيقي كان سليماً مُعافىً في بلاط شارل الرابع ملك إسبانيا، وذلك بفضل عملية سرية قام بها الحلف المقدس.

ولكن رسائل في الأرشيف الوطني الفرنسي تُظهر أنه فيما كانت تجري محاولة لجعل الأمر يبدو وكأن لويس السابع عشر البريء سليم مُعافى في إسبانيا، كان الملك شارل الرابع يوجّه رسالة تِلو الأخرى إلى سلطات الثورة طالباً منهم تسليمه طفلَي لويس السادس عشر وماري أنطوانيت. وكانت باريس ترفض ذلك باستمرار.

كما أن عميلاً آخر للحلف المقدس يدعى فروتيه تلقى أمراً بمحاولة العثور على الملك الصغير وإنقاذه. وبعد وصوله إلى باريس عن طريق فانديه، كتب فروتيه: "يعتصر قلبي ألماً لأننا خُذلنا. فبعد أن جعله قتل الملك والملكة الوحشي يقاسي مدة طويلة في السجن، توفّي في زنزانته. لم يتبقَّ لنا شيء سوى البكاء".

وتروي نسخة أخرى أكثر رومانسية ظهرت عام 1801 قصة عضو في شبكة الأب سالامون يدعى إميل فرونزاك.

لقد دخل فرونزاك القصر من خلال دفع الرشوات كما يبدو، وترك فتى يتيماً مكان الابن البكر للملك، وأخرج لويس من باريس داخل دمية خشبية على صورة حصان. ولكن مجموعة من الشرطة أوقفت العربة التي تنقلهما في اتجاه خطوط جيش الملكيين. وقبل أن يُجبَر الجاسوس البابوي على الاستسلام، هبّت مجموعة من جنود فانديه لمساعدته، فقتلت الثوريين، وأنقذت ملكها الشرعي.

وتتساءل الباحثة ديبورا كادبوري في دراستها ملك فرنسا المفقود: قصة حقيقية عن الثورة، والثأر، والحُمض النووي عما حل بالملك إذا كانت هذه النسخة من الرواية صحيحة. ووفقاً لأحد كتّاب سجل أحداث تلك الحقبة الذي أعاد سرد مغامرة الجاسوس إميل فرونزاك والابن البكر لملك فرنسا، أُرسل لويس السابع عشر إلى أميركا بعد موت الثوريين، ولكن سفينة شراعية فرنسية اعترضت سفينته، وأُعيد الفتى إلى باريس بعد اكتشاف هويته حيث توفّي في زنزانته بالرغم من كل شيء. وسواءً أكانت تلك الروايات حقيقة أم خيالاً، فقد بدا الحلف المقدس والجواسيس البابويون أكثر رومانسية عندما كان الإكليروس الكاثوليك يتبعون الأرستقراطية الفرنسية على امتداد الطريق وصولاً إلى المقصلة.

ومحاولة فرار لويس السادس عشر وعائلته بمساعدة عملاء البابا بيوس السادس، إضافةً إلى الخُطب التي كان يلقيها المجلس الثوري باستمرار عن المساواة بين الكهنة والنبلاء، أدت إلى سورة غضب في أيلول/سبتمبر 1792 قُتل خلالها أكثر من مئتَي كاهن. وفرّ الآلاف، وكان على أولئك الذين بقوا في فرنسا التخفّي.

فالأب سالامون هو أحد أبرز الذين قرروا البقاء، وكان يجوب شوارع باريس وساحاتها ومتاجرها وحاناتها يومياً لجمع معلومات للحلف المقدس في روما.

لقد عُرف في الكرسي الرسولي باسم "أُذُنَي بيوس" في إشارة واضحة إلى البابا، وكان على اتصال بالأساقفة والكهنة في الأقاليم أيضاً.

ولتجنّب اليقظة التامة التي تؤدي إلى الكشف عن كهنوته، أنشأ سالامون قنوات آمنة للاتصال بروما. ولكن اكتشاف هويّته الحقيقية، واعتقاله، وإصدار حكم عليه بالسجن أنقذه من مجزرة أيلول/سبتمبر 1792 الشهيرة. وبعد الإفراج عنه في كانون الأول/ديسمبر 1798، عاد الكاهن إلى عمله في جهاز التجسس البابوي، وأعاد بناء الشبكة التي شُلّت قدراتها في أثناء سجنه. وتدّعي مصادر أخرى أنه نظراً إلى خبرته في المسائل التجسسية، قام البابا بيوس السادس بتجنيده لقيادة جهاز المخابرات في الكرسي الرسولي.

في غضون ذلك، نظّمت الدولة البابوية حملة كبيرة لتصوير الثورة وقادتها بأنهما من صنع الشيطان وثمرة مؤامرة كبيرة معادية للكاثوليكية. وكان الهدف هو التمكن من الدعوة إلى "حرب مقدسة" ضد فرنسا وجيوشها دفاعاً عن الدِّين. ومع ذلك، لم يوقف شيء التقدّم المتواصل للجنود الفرنسيين، فأجبر القائد الأعلى للقوات الفرنسية المسلحة، نابوليون بونابارت، البابا بيوس السادس على توقيع هدنة بولونيا المذلّة في 23 حزيران/يونيو 1796، ووافق الحَبر الأعظم بموجبها على التخلي عن سلطته على فيرارا وبولونيا وأنكونا، ودَفعِ واحدٍ وعشرين مليون إسكودو كتعويضات، وتسليم أكثر من خمسمئة مخطوط ومئة عمل فني من عصر النهضة.

حينذاك، طلب بيوس السادس مساعدة النمساوية، فاعتبرها نابوليون انتهاكاً لاتفاق بولونيا، لذا أمر جنوده باحتلال الدولة البابوية. هذه المرة، طالب القائد الفرنسي في معاهدة تولينتينو بالتخلّي الدائم عن أفينيون وكومتا فينيسان، والتنازل عن مفوّضيات بولونيا وفيرارا ولاومانيا، ودَفعِ ستٍ وأربعين مليون إسكودو وعدد كبير من الأعمال الفنية.

واتخذ الوضع منحى مأساوياً عندما قرر عملاء الحلف المقدس أو الأعضاء

السابقون للمنظمة السوداء قتل الجنرال ماثورين-ليونار دوفو، أحد مستشاري نابوليون بونابارت الأكثر وثوقاً بهم وأحد أفضل الاستراتيجيين. كان دوفو قد شارك في الحملات التي شنها جيش الألب على سافوا حتى خروجه من الخدمة الفعلية في 13 حزيران/يونيو 1795، ولكنه جُنِّد ثانيةً في 9 شباط/فبراير 1796. وفي آب/أغسطس 1796، قاتل في الحملات التي شُنّت على مانتوا وريفولي ولا فافوريتا. وبعد قيام نابوليون بترقيته إلى قائد لواء في 30 آذار/مارس 1797، أُرسل إلى روما لمرافقة جوزيف بونابارت، شقيق نابوليون، الذي عُيِّن سفيراً إلى الكرسي الرسولي.

في 28 كانون الأول/ديسمبر 1797، تجمّع حشد من الناس خارج مقرّ السفارة الفرنسية للمطالبة بإعلان الجمهورية. فدفعت مفرزة من الحرس البابوي الحشد إلى الوراء، ولجأ العديد منهم إلى السفارة. وبينما كان الجنرال دوفو يحاول تهدئة الناس، طُعن في جَنبه من قِبَل مهاجم لم يرَ أحدٌ وجهه. فسقط على الأرض نازفاً، وسرعان ما فارق الحياة. وعندما نجح الجنود الفرنسيون بطرد الحشد والحرس البابوي من المنطقة، وجدوا قطعة قماش ثمانية الأضلاع بجانب جثة الضابط. كانت تحمل اسم يسوع على كل جانب، إضافةً إلى عبارة "مستعدون لآلام التعذيب، في الوسط، وشعار الحلقة الثُمانية.

وانتقاماً لاغتيال الجنرال دوفو، أمر نابوليون الجنرال برتييه، القائد الأعلى لجيش إيطاليا، بمهاجمة روما والسيطرة عليها. وفي 15 شباط/فبراير 1798، احتل جنود نابوليون روما، وعزلوا بيوس السادس في 7 آذار/مارس بوصفه حاكماً مؤقتاً وأعلنوا الجمهورية الإيطالية. وعندما بلغت الوحدات الفرنسية الأولى قصر كويرينال، لم يُبدِ الحرس السويسري أي مقاومة. كان بيوس السادس قد أمرهم بالتخلي عن أسلحتهم والإحجام عن الدخول في أي معركة. فاعتُقل البابا، وتم الاستيلاء على الأرشيف الذي أُرسل إلى فرنسا.

مذاك الحين، أوقف الحلف المقدس عملياته في مختلف أنحاء إيطاليا، في حين

شنّ أعضاء الحلقة الثمانية والمنظمة السوداء عدة هجمات على الغزاة الفرنسيين.

وبعد صدور أمر بنفي البابا، كان على بيوس السادس مغادرة روما في 20 شباط/فبراير 1798. وبعد توقف في سيينا، احتُجز في الدير الكارثوزي في فلورنسا حيث استمر في الاضطلاع بالشؤون الدينية. وفي 13 تشرين الأول/أكتوبر، أصدر البيان الرسمي بما أننا الذي حدد إجراءات يتعيّن اتّباعها لدى شغور منصب البابوية وانعقاد مجمع الكرادلة.

في آذار/مارس 1799، نُقل البابا إلى بارما، ومن ثم إلى تورينو في وقت لاحق بعد محاولة قام بها أعضاء الحلف المقدس لتحريره. وفي نهاية العام، نُقل البابا المريض والبالغ من العمر واحداً وثمانين عاماً إلى بريانسون عبر جبال الألب وعلى كرسي محمول مخافة قيام عملاء جهاز التجسس البابوي بإنقاذه بمساعدة النمساوية. انتهت الرحلة في 13 تموز/يوليو 1799 في مدينة فالنسيا الفرنسية حيث مكث حتى وفاته في 29 آب/أغسطس. فوُضعت الجثة في نعش من الرصاص أُحكم إغلاقه، ونُقل إلى روما لإجراء مراسم الدفن في شباط/فبراير 1802.

وعندما علِم نابوليون بونابارت بوفاة البابا، كتب: "توفّي البابا. ستسقط الآلية القديمة للكنيسة تلقائياً". وعلى غرار كل الديكتاتوريين العظماء في التاريخ، كان على ثقة تامة بأن إمبراطوريته ستدوم قروناً، وهو أمر لم يحدث، في حين أن إمبراطورية الكنيسة التي توقّع أن تزول نجت واستمرت. ولكن، كان عليها أولاً المرور بأوقات عصيبة ومُرعبة.

في 3 تشرين الأول/أكتوبر 1799، قرر الكردينال جان فرانسوا ألباني الدعوة إلى انعقاد مجمع الكرادلة في 8 كانون الأول/ديسمبر، وكان قد لجأ إلى البندقية مع بقية الكرادلة (كانت في ذلك الوقت جزءاً من الإمبراطورية النمساوية). وجرى الاقتراع مراراً وتكراراً من دون أن يفوز أي من المرشحين المقترَحين بأكثرية الثلثين

ليتم انتخابه بابا.

أخيراً، وجد الكردينال إتوري كونسالفي حلاً للخروج من المأزق من خلال ترشيح الكردينال برنابا كيارامونتي الذي انتُخب حَبراً أعظم في 14 آذار/مارس 1800. وتسلّم كيارامونتي سلطات الكنيسة تحت اسم بيوس السابع.

بالرغم من انتخابه بابا، لم يكن باستطاعة بيوس السابع الانتقال إلى روما حتى 3 تموز/يوليو. وحاول الإمبراطور فرانسيس الثاني إقناع الحَبر الأعظم بإنشاء المقر الرئيسي البابوي في مكان ما يخضع للسيطرة النمساوية، ولكن بيوس السادس أكد الحاجة إلى كنيسة حرة لا تتعرض لأي تدخلات. ووافق على تعيين أمين سر دولة على علاقة وثيقة بالنمسا.

وفي أثناء انعقاد مجمع الكرادلة في البندقية، لم تغيّر الأحداث الجارية في باريس تاريخ فرنسا فحسب، بل كل أوروبا أيضاً. فأفسفحت حكومة المديرين الطريق لحكومة القناصل. والتصديق على دستور جديد في 13 كانون الأول/ديسمبر 1799 الذي تلاه تأييد شعبي فرنسي في 7 شباط/فبراير 1800، حوّل الجنرال نابوليون بونابارت العظيم إلى سيد مصير البلد.

بعد تصفية الثورة، باشر القنصل الأول (أحد الحكام الثلاثة للجمهورية الفرنسية بين عامَي 1799 و1804) بمهمة تطبيع العلاقات بين الدولة والكنيسة. وكان نابوليون قد بلغ الاستنتاج الذي مفاده أن فرنسا تريد الانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية، لذلك قام بالخطوة الأولى وتقرّب من بيوس السابع. فنابوليون معمَّد ولكنه من أتباع اللاأدرية. ومع ذلك، كان الضابط الكورسيكي يريد في أعماق نفسه التهدئة من رَوع الملوك الكاثوليك الأقوياء لاستقباله في بلاطات أوروبا.

أدرك نابوليون أيضاً ضرورة العثور على شخص لا يمكنه ضبط أداء أجهزة المخابرات التابعة له فحسب، بل التحقق أيضاً من أي تسلل لأجهزة مخابرات القوى الأخرى، ولا سيما منها النمساوية والبريطانية وجهاز مخابرات الكرسي

الرسولي. فاختار لهذه المهمة جوزيف فوشيه.

كان الجاسوس المتحدر من عائلة ثرية يدرس اللاهوت في نانت بهدف الانضمام إلى الكهنوت. واستمر في ذلك حتى أصبح عضواً في الجمعية الوطنية عام 1792. وبعد عام، أيّد إعدام لويس السادس عشر. ووفقاً لمساره السياسي، كان يختار على الدوام الجانب الأكثر قوة، ولجأ إلى التصرفات الأكثر قسوة في أثناء التمرد الذي جرى في فانديه، وفي ليون لاحقاً. وفي العام 1795، اعتزل السياسة مؤقتاً محتفظاً بصداقاته مع شخصيات ذوي نفوذ، وذلك حتى قيام نابوليون بتعيينه رئيساً لأجهزة التجسس القوية التابعة له. ومذاك الحين، أصبح فوشيه العدوّ الرئيسي للحلف المقدس.

فالمؤامرة الأولى التي كان يتعيّن عليه حلّ خيوطها/إحباطها تدعى مؤامرة إنغيان التي شارك فيها الجنرالات مورو، بيشغرو، وجورج كادودال، إضافةً إلى بوفي دو لوزييه، الجنرال السابق في جيش الأمراء. وكان لويس-أنطوان-هنري دو بوربون، دوق إنغيان، الشخصية الرئيسية في المؤامرة. لقد اكتشف فوشيه بعد التخطيط للمؤامرة بقليل أن بعض المتآمرين كانوا على اتصال بالكردينال كابرارا، رئيس جهاز التجسس البابوي، وبعضو هام قد يكون منتمياً إلى الحلف المقدس في باريس.

تمثلت الخطة باختطاف نابوليون وقتله، فيحل الجنرال مورو مكان بونابارت حتى استقرار الوضع. وبعد أشهر قليلة، يتوّج دوق إنغيان نفسه ملكاً ويعيِّن بيشغرو قنصلاً ثانياً لفرنسا. وكان كادودال يعلم أن مورو، وهو جنرال شعبي وظافر يحبه جنوده، والجنرال بيشغرو يريدان الإطاحة بنابوليون لمصلحتهما الخاصة.

والجنرال مورو هو أول من كُشف أمره، فأمر نلبوليون باعتقاله. ولتجنّب الشائعات، مثُل الضابط العظيم أمام محكمة مدنية. وقضى الأمر الصادر بحق مورو باعتقال خمسة عشر متآمراً آخر، بمن فيهم مواطن سويسري على صلة

بالسفارة الروسية ومقر القاصد الرسولي البابوي. ووفقاً لتقارير فوشيه، كان السويسري المذكور فرداً من الحرس السويسري ذات مرة، وقام الحلف المقدس بتجنيده للقيام بعمليات سرية في فرنسا على عهد نابوليون في أثناء ولاية بيوس السابع الحَبرية.

وطالب السفير الروسي، ماركوف، شخصياً بأن يقوم نابوليون بإطلاق سراح المواطن السويسري، ولكن نابوليون رفض ذلك. وفي باريس، كان أمر اعتقال مورو على كل شفة ولسان.

في ليلة 26-27 شباط/فبراير 1804، عُثر على بيشغرو في منزل في شارع شاباني 3، وتم اعتقاله. واكتشف ميهي دو لا توش، أفضل جاسوس لنابوليون في باريس، أن كادودال كان لا يزال في العاصمة وأنه يحاول الاتصال بدوق إنغيان عن طريق مقر القاصد الرسولي أو أحد الجواسيس البابويين.

حتى ذلك الوقت، انكشفت خيوط المؤامرة لنابوليون على النحو التالي: أمير من أصل نبيل هو القائد، والجنرالان مورو وبيشغرو هما العقلان المدبّران، وكادودال هو المنقذ والجلاد. وفي 9 آذار/مارس، حدد الجاسوس لا توش مكان تواجد كادودال واتصل بالشرطة. وقبل اعتقاله، قتل كادودال عنصراً من الشرطة وأصاب آخر بجراح مميتة. ولم يتبقَّ الآن سوى اعتقال الأمير في إتنهايم في ضواحي ستراسبورغ. ودار نقاش بين نابوليون وقناصله حول الحكم على لويس-أنطوان-هنري دو بوربون بالموت أم سجنه مدى الحياة. كانت ذكريات المقصلة التي قطعت أعناقاً ملكية لا تزال حية. وفي أثناء الليل، أمر نابوليون وزير الحرب المخلص له، برتييه، بتولي مهمة اعتقال دوق إنغيان.

وفي 17 آذار/مارس، كان لويس-أنطوان-هنري دو بوربون في السجن، إضافةً إلى متآمرين آخرين، واتخذ نابوليون قراراً بوجوب موت دوق إنغيان. فبالنسبة إليه، "إذا تآمر أحدهم على غرار أي شخص آخر، وجُبت معاملته كأي شخص آخر". ولكن جوزيف فوشيه عارض القيام بهذه الخطوة. وفي ليلة العشرين من

الشهر نفسه، بدأت محاكمة لويس-أنطوان-هنري دو بوربون، وفي صباح اليوم التالي سُوّي الأمر: لقد أُطلقت النار على دوق إنغيان.

في 6 نيسان/إبريل 1804، خُنق الجنرال بيشغرو في زنزانته. ووفقاً لإحدى الروايات، قُتل الجنرال السابق على أيدي أتباع نابوليون، ولكن بونابارت أصر على أنه سيكون من الغباء بالنسبة إليه التخلص من شاهده الأساسي ضد مورو. وتقول رواية أخرى إن بيشغرو قُتل ربما على يد شخص أُرسل من روما لتجنّب الكشف عن الصلات بين مؤامرة إنغيان والفاتيكان.

وحدث الفصل الأخير من مؤامرة إنغيان في 26 حزيران/يونيو من ذلك العام عندما قام هنري سامسون الذي قطع رأسَي لويس السادس عشر وزوجته، الملكة ماري أنطوانيت، بتشغيل المقصلة التي أعدمت جورج كادودال واثني عشر متآمراً آخرين، بمن فيهم المواطن السويسري المشتبَه بانتمائه إلى الحلف المقدس. وسمح نابوليون للجنرال مورو بمغادرة فرنسا بعد تسليم كل ممتلكاته.

وفي شهر آذار/مارس 1804، وبعد إطلاق النار على دوق إنغيان والرسالة التي اتهم فيها لويس الثامن العشر مغتصبَ العرش الفرنسي، أدرك نابوليون أنه يتعيّن عليه أن يبدو وكأنه لا يموت بنظر فرنسا والفرنسيين لتجنّب حدوث محاولات اغتيال جديدة وتدخّل البوربونيين. فالتقى الكردينال جيوفاني باتيستا كابرارا، رئيس الجواسيس البابويين ومعتمَد الحَبر الأعظم في باريس، لنقل رغبته الواضحة بأن يتوَّج إمبراطوراً على فرنسا على يد البابا بيوس السابع دون سواه. وفي 2 كانون الأول/ديسمبر، تُوّج نابوليون بونابارت في كاتدرائية السيدة العذراء في باريس، كما تَوّج جوزفين وهي جاثية أمامه بحضور البابا بيوس السابع وشاهده الشهير، تماماً كما تصف الصورة الزيتية التي رسمها لويس دافيد.

بقي البابا في باريس لمدة أربعة أشهر، وعاد إلى روما في 4 نيسان/إبريل 1805. في ذلك العام نفسه، حققت جيوش الإمبراطور نابوليون انتصارها العظيم في أوسترلتز، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى التقارير التي تلقاها عميل متعدد

الولاءات كان يعمل لصالح جهاز التجسس النمساوي، والحلف المقدس، وجهاز التجسس البونابارتي. ويدعى هذا العميل كارل شولميستر.

وُلد شولميستر في مدينة بادن، وترعرع في كنف عائلة من الرعاة، ومارس التجارة في ما بعد. فقرر ذات يوم أن المعلومات التي يجمعها في أثناء رحلات العمل قد تؤمّن له عائدات أكبر من تلك التي تؤمّنها التجارة؛ إذا عرف لمن يبيعها. فترك مهنة التزويد بالسِّلع ودخل عالم التجسس والتزويد بالمعلومات.

وبعد سنوات من عمله كجاسوس نمساوي، تم تجنيده من قِبل الحلف المقدس. كان شولميستر يدّعي أنه كاثوليكي صالح، وأعلن أن دِينه يتطلب منه خدمة بابا روما بطاعة كاملة. في الحقيقة، كانت المعلومات التي قدّمها الألزاسي لأجهزة المخابرات البابوية قليلة الأهمية بالنسبة إليهم لأن مآلها الحقيقي أجهزة مخابرات بونابارت.

بعد سنوات قليلة، اتضح أن كارل شولميستر لعب دوراً هاماً في إلقاء القبض على لويس-أنطوان-هنري دو بوربون في أثناء حدوث مؤامرة إنغيان. لقد خطط سافاري، رئيس جهاز المخابرات التابع لنابوليون، لاختطاف الدوق في بادن. ولكن العميل متعدد الولاءات أخبر سافاري بأنه قد يكون باستطاعته إقناع الدوق بالاقتراب أكثر فأكثر من الحدود الفرنسية، مسهّلاً بذلك عملية اعتقاله.

كان شولميستر يعلم أن الدوق اتخذ عضوة من مجتمع ستراسبورغ الراقي، هي شارلوت دو روهان، عشيقة له. وبعد إتقان تقليد خط المرأة، كتب كارل شولميستر رسالة إلى لويس-أنطوان-هنري دو بوربون يحدد فيها موعداً للقاء في إتنهايم قرب ستراسبورغ. وهكذا، اعتُقل دوق إنغيان وأُعدم.

لقد عادت هذه العملية على كارل شولميستر بثروة طائلة قدّمها له نابوليون بنفسه والذي قال عنه إنه "رجل يفكر بعقله ولا قلب له". بعد ذلك، عهد الإمبراطور إليه بحملة جديدة ضد النمسا.

وكخطوة أولى، كتب شولميستر رسالة إلى لبارون كارل ماك فون ليبريش، وهو

المارشال الموكّل مهمة قيادة القوات النمساوية، زعم فيها بأنه يخشى من العدائية الفرنسية بسبب أصوله الأرستقراطية، وهو أمر غير صحيح. ولتغطية أكاذيبه، كان كارل شولميستر قد اشترى لقب آل بيرسكي، وهي عائلة هنغارية نبيلة كانت تمرّ بأوقات عصيبة، وقدّم كذلك رسالة من جهاز المخابرات التابع للفاتيكان.

فاستدعى جهاز التجسس النمساوي شولميستر إلى فيينا لطرح بعض الأسئلة. وكان اطّلاعه على الوحدات العسكرية الفرنسية، وجنرالات نابوليون، واستراتيجياتهم العسكرية واسعاً جداً لدرجة أن المارشال ماك أسند إليه منصباً في هيئة موظفي الجنرال النمساوي. بعد فترة قصيرة، أصبح رئيساً لأجهزة المعلومات العسكرية، وقدّم الجاسوس السابق للحلف المقدس لماك بعض الصحف الفرنسية التي طبعها سافاري والتي تحمل معلومات عن القوات الفرنسية المسلحة، بالإضافة إلى رسائل من مراسلين وهميين يُثبتون استياء الفرنسيين من قائدهم. وعندما قرر المارشال ماك الشروع بالحملة، أقنعه شولميستر بأن جيوش نابوليون تتراجع إلى الراين لتسحق تمردات داخلية. فوجّه ماك ضربته في 7 تشرين الأول/أكتوبر ووقع في الشرك الذي نصبه له العميل متعدد الولاءات. وأدت الكارثة التي حصلت في أولم في التاسع عشر من الشهر نفسه إلى سقوط عشرة آلاف قتيل من الجنود النمساويين، وحملت العار للمارشال ماك مما أدى إلى تخفيض رتبته والحكم عليه بالسجن لمدة عشرين عاماً. من جهته، فقد نابوليون حوالى ستة آلاف جندي.

بعد قيام جهاز التجسس النمساوي بأسره، ألقى كارل شولميستر مسؤولية الهزيمة على المارشال ماك بسبب عدم المبالاة بتوصياته وتقارير شبكة التجسس التابعة له في فرنسا (التي لم تكن موجودة في الواقع). وتمكن الجاسوس من إقناع هيئة موظفي الجنرال النمساوي ببراءته، كما أقنعهم أيضاً بتبنّي خطة استراتيجية جديدة ضد الجيوش النابوليونية. وتمحورت النقطة الرئيسية للخطة

حول مدينة تدعى أوسترلتز.

لقد جرت المعركة، وهي أحد الانتصارات العسكرية الكبرى لنابوليون الأول، في المنطقة القائمة حول أوسترلتز (الآن سلافكوف في جمهورية التشيك) في 2 كانون الأول/ديسمبر من العام 1805 بين فرقة فرنسية من ثلاثة وسبعين ألف رجل و139 مدفعاً، وقوة النمساوية-الروسية مؤلفة من ستين ألف جندي روسي وخمسة وعشرين ألف جندي نمساوي يدعمهم 278 مدفعاً. وتُدعى هذه المعركة أحياناً معركة "الأباطرة الثلاثة" بسبب وجود نابوليون الأول، وفرانسيس الثاني (رأس الإمبراطورية الرومانية وفرانسيس الأول في ما بعد، إمبراطور النمسا)، وإسكندر الأول إمبراطور روسيا، وسقط فيها سبعة وعشرون ألف نمساوي وروسي وحوالى ثمانية آلاف فرنسي.

واستناداً إلى التقارير التي تم تلقيها من الحلف المقدس، اشتبه جهاز التجسس النمساوي مجدداً بكارل شولميستر وكان على وشك اعتقاله بتهمة الخيانة العظمى عندما دخل الجنود الفرنسيون النمسا. فكافأ نابوليون بونابارت شولميستر بمبلغ ضخم من المال ولكنه لم يمنحه أبداً أوسمة عسكرية. وبعد معركة أوسترلتز، قال نابوليون: "الرجل الذي يبيع أشقاءه، وهم الرجال الذين تحت إمرته، لا يستحق أي ميداليات بل ثلاثين قطعة من الفضة.

وأصبح شولميستر رئيس جهاز التجسس المضاد التابع لنابوليون، عِلماً أنه كان عليه الاستقالة في ما بعد بسبب النفوذ النمساوي المتنامي حول الإمبراطورة الجديدة، ماري لويز، ابنة فرانسيس الأول المنهزم، إمبراطور النمسا. لقد قرر الإمبراطور الفرنسي الانفصال عن جوزفين لأنها لم تُنجب له وريثاً، وتزوج بابنة الإمبراطور الذي هزمه في أوسترلتز.

وغدت العلاقات بين باريس وروما أكثر تكلّفاً مما أدى إلى انقطاعها عام 1806 عندما أمر نابوليون البابا بيوس السابع بطرد كل مواطني الأمم العدوّة من روما.

وأبلغ جواسيس الفاتيكان البابا بأن الجنود الفرنسيين وُضعوا في حالة استنفار ربما لاحتلال روما مجدداً. وبالرغم من تحذيرات الحلف المقدس، رفض البابا بيوس السابع طرد الأجانب أو دعم حصار إنكلترا، كما رفض السماح بصرف الكردينال كونسالفي من منصبه كأمين لسر الدولة كما طلب نابوليون.

وبعد اتخاذ القرار بمواجهة مفتوحة، أمر نابوليون باحتلال أنكونا ولاتسيو. وفي 2 شباط/فبراير، أصدر الإمبراطور أخيراً الأمر للجنرال ميوليس بدخول روما، وتجريد الحرس البابوي من سلاحهم، واحتلال قلعة سان أنجلو. وحاصر الفيلق الثالث لجيشه قصر كويرينال ووجّه عشرة مدافع نحو الغرف البابوية، فأصبح بيوس السابع سجيناً في قصره، وانتقلت إدارة شؤون الدولة البابوية إلى الإداريين الفرنسيين.

وحُلّ الحلف المقدس ثانيةً بأمر من الكردينالين باكا (الذي عُيّن رئيساً له قبل عام) وكونسالفي، وحُظِّر القيام بأي نشاطات داخل الدولة البابوية التي يحتلها جنود نابوليون. لم يشأ أمين سر الدولة ورئيس جهاز المخابرات البابوي حدوث أي نوع من المشاحنات داخل روما تحمل المحتلين الفرنسيين على التصرف بالطريقة التي تصرفوا بها إثر اغتيال الجنرال دوفو قبل تسع سنوات.

وفي 10 حزيران/يونيو 1809، أعلن نابوليون روما مدينة مفتوحة وجرّد البابا بيوس السابع من سلطته. رداً على ذلك، أصدر الحَبر الأعظم بياناً رسمياً يهدد فيه بإلقاء الحرم على كل من يعتمد أي نوع من أعمال العنف ضد الكرسي الرسولي ومندوبيه. فأمر نابوليون الجنرال راديه باقتحام قصر كويرينال واعتقال البابا. وفي ليلة 5-6 تموز/يوليو، شق راديه طريقه إلى داخل القصر البابوي، ووجد بيوس السابع جالساً إلى مكتبه مع الكردينال برتولوميو باكا. وأخرج راديه البابا من قصره ومن روما من دون السماح له باصطحاب أي مقتنيات باستثناء منديل صغير.

وبسبب شعوره بالفخر لوجود الحَبر الأعظم في قبضته، لم يسمح الجنرال راديه

لأي شخص بالفصل بين سجينه ومصالح إمبراطوره. وعندما أُصيب الأب الأقدس بالزُخار، أصبح الوضع أكثر تعقيداً. وبعد أربعين يوماً من احتجاز البابا في روما، وصل راديه وسجينه إلى سافونا، وهي المحطة الأخيرة في رحلتهما. في غضون ذلك، وصلت محفوظات الفاتيكان إلى باريس، وانعقد مجمع الكرادلة في باريس، وأُعدّ أحد القصور ليكون مقراً لإقامة بيوس السابع. لقد عزم نابوليون على إنشاء فاتيكان جديد في باريس خاضع للأوامر الإمبراطورية. ومع ذلك، كان الكردينال كونسالفي قد أمر برتولوميو باكا بالتأكد من قيام الجواسيس البابويين بتهريب محفوظات الحلف المقدس إلى مكان آمن خارج روما. لقد وضعوا هذه المحفوظات في ست وثلاثين عربة مقفَلة، ونقلوها إلى مكان سري في البندقية. وعندما بدأ الفرنسيون بتقليب أوراق الفاتيكان، أدركوا أنه لم تتبقَّ أي وثيقة تابعة للحلف المقدس.

في 9 حزيران/يونيو 1812، صدر الأمر بنقل بيوس السابع من سافونا إلى فونتنبلو. ووفقاً لتقارير عملاء فوشيه، كانت مجموعة من رهبان المنظمة السوداء تحاول إنقاذ الحَبر الأعظم. لذلك، طلب الضابط المسؤول عن البابا من هذا الأخير ارتداء ملابس سوداء والتنقل في أثناء الليل فقط كي لا يتم التعرف إليه. ووصل رهبان المنظمة السوداء إلى موقع اعتقال البابا بعد ست ساعات من مغادرته. وبعد عشرة أيام، وصل البابا والحرس المرافقون له إلى المكان المقصود حيث استعاد بيوس السابع عافيته. وبين التاسع عشر والخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير 1813، جرت لقاءات عديدة بين نابوليون والبابا تحدّثا فيها عن السياسة ومسائل شخصية.

من جهة ثانية، أدى مسار الحرب والهزائم الفرنسية المستمرة على عدة جبهات إلى حصار باريس وتحرير البابا، وتمكن أخيراً من العودة إلى روما في 24 أيار/مايو 1814. ووُجّهت الضربة الأخيرة لإمبراطورية نابوليون العظيمة في مكان يُدعى واترلو.

لقد تطلب الأمر عشرين عاماً من الاتفاق بين إنكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا للتمكن من إزاحة نابوليون عن السلطة. فبونابارت لم يُفسح الطريق لجيوش الحلفاء، لكن مناوراته فشلت في إيقاف تقدّمهم والوصول إلى مشارف باريس في 30 آذار/مارس، وإجبار العاصمة الفرنسية على الاستسلام. وكانت محاولة نابوليون الأخيرة استخدام ما تبقى من جيشه لإعادة الاستيلاء على باريس، ولكن معظم مارشالاته الأرفع مقاماً الذين كانوا قد رافقوه في ألف معركة ومعركة رفضوا تنفيذ أوامره وحثّوه على التنازل عن عرشه. ومن بين هؤلاء ميشال ناي، لوفيفر، ومونسي أودينو.

كان الشعب الفرنسي المُرهَق بسبب حرب لا نهاية لها يريد السلام مهما كان الثمن. وفي 6 نيسان/إبريل 1814، وقّع نابوليون بونابارت تنازله عن العرش في فونتنبلو حيث كان البابا بيوس السابع قد احتُجز. وأجبر الحلفاء مجلس الشيوخ على الموافقة على حكومة مؤقتة برئاسة تاليران، وكان على مساعد نابوليون السابق المحافظة على النظام في باريس حتى وصول الملك لويس الثامن عشر الذي أعاد ملكية البوربونيين إلى عرش فرنسا. وبعد أيام قليلة، وفي نيسان/إبريل، هزم الجنرال ولينغتون الجنرال سولت في شبه الجزيرة الإيبرية؛ لم يكن أي من الفريقين قد بلغه خبر استسلام نابوليون.

فالرجل الذي كان سيد مصير كل أوروبا أصبح سجيناً على جزيرة إلبا جنوبي الساحل الإيطالي، في حين مُنحت زوجته ماري لويز وابنه دوقية بارما. وكان على فرنسا العودة إلى حدودها القديمة العائدة إلى العام 1792. وقرر نابوليون مغادرة منفاه بدعم مجموعة صغيرة من المارشالات والجنرالات الماهرين في حملة أخيرة تُعرف باسم "الأيام المئة".

لقد أدت الهزيمة النكراء في واترلو في 15 حزيران/يونيو 1815 إلى تبرّؤ كل بلاطات أوروبا من عائلة نابوليون كلّياً. ولتجنّب أي ردود فعل موالية لبونابارت، قرر الحلفاء احتجاز نابوليون على جزيرة سانت هيلينا، وهي نُتُؤ

صخري معزول على بُعد ألفَي كيلومتر من الساحل الأفريقي، ويتطلب الأمر شهرين لبلوغه بحراً من إنكلترا. وبقي هناك من 15 تشرين الأول/أكتوبر 1815 حتى وفاته مسمَّماً له في 5 أيار/مايو 1821.

بعد اعتقال نابوليون في سانت هيلينا، أمر بيوس السابع رئيس الحلف المقدس، الكردينال برتولوميو باكا، بالاعتناء برفاهية عائلة الإمبراطور المخلوع. فأقامت والدة نابوليون، ماريا ليتيسيا، في مسكن في روما داخل قصر قائم عند ساحة فينيسيا. وتوفّيت عام 1836 بينما كانت لا تزال تنعم بحماية البابا غريغوريوس السادس عشر. وحمى بيوس السابع أيضاً عم نابوليون، الكردينال جوزيف فيش، وشقيقيه لوسيان ولويس بونابارت (الذي كان ملكاً لهولندا). أما ابن لويس، شارل لويس نابوليون، الذي نعم بحماية بيوس السابع والحلف المقدس، فعاد ليحكم فرنسا بعد سنوات باسم نابوليون الثالث.

وقبل وقت قصير من وفاته في 20 آب/أغسطس 1823، لفظ البابا بيوس السابع اسمَي مدينتَي سافونا وفونتنبلو دلالةً على معاناته خلال سنوات نشوء الصقور وسقوطهم. وكانت السنوات التالية مليئة بحالات التمرد والمؤامرات؛ حقبة حقيقية للجواسيس.

الفصل التاسع

عصر الجواسيس (1823-1878)

شهد العام 1823 انعقاد مجمع الكرادلة لاختيار خلفٍ لبيوس السابع. هذه المرة، تنافس فصيلان على قيادة الكرسي الرسولي هما الغيارى والسياسيون. وكان الكردينال برتولوميو باكا، رئيس الحلف المقدس، والكردينال أغسطينوس ريفارولا على رأس الغيارى الذين يؤيّد حزبهم إدارة حازمة ومحافِظة تقاتل كل ما يشير إلى ليبرالية تحاول النشوء في روما.

ووفقاً للغيارى، ولباكا بصفة خاصة، حاولت الراديكالية الثورية على الدوام إنشاء نظام جديد داخل أسوار الفاتيكان. وكان موقف باكا، وريفارولا، وآخرين، معاكساً إذ اعتبروا أن لا شيء سيتغير.

من جهة ثانية، وافق السياسيون على ضرورة حدوث تطور داخل الكنيسة في اتجاه نظام ذات طابع اجتماعي أكبر. وكان الكردينال كونسالفي، قائد الفصيل، يريد الاستفادة من انهيار إدارة الكنيسة في أثناء الحقبة النابوليونية لإنشاء إدارة داخل الدولة البابوية أُصلحت بنيتها.

وكانت البلدان الكاثوليكية التي يخضع معظمها لملوك استبداديين تنظر إلى كونسالفي بارتياب لأنه اتهمهم باعتماد تدابير راديكالية كقمع الحقوق الإقطاعية للنبلاء أو إلغاء امتيازات بعض المدن. وقدّم مناوئو أمين سر الدولة السابق أنفسهم بأنهم وطنيون إيطاليون متهمين إياه ببيع ذاته والفاتيكان للنمساويين. وفي أثناء انعقاد مجمع الكرادلة، تمكن باكا من إحباط أي فرصة لاختيار كونسالفي حَبراً أعظم.

لقد سمح النزاع القائم بين الكردينالين كونسالفي وباكا للنمسا باستخدام حق النقض ضد أي مرشح من الغيارى، "ليس بسبب صرامتهما ومبادئهما، بل لأنهما إيطاليان أيضاً"، كما كتب وزير الخارجية الفرنسي الشهير شاتوبريان.

في بادئ الأمر، لم يظهر اسم أنيبال ديلا جينغا بين أسماء المرشحين. وبالرغم

من تسلّمه منصب النائب الأسقفي العام لروما لمدة ثلاث سنوات، فهو لم يكن معروفاً من الشعب. ومع ذلك، منح أربعة وثلاثون كردينالاً ناخباً من أصل تسعة وثلاثين كردينالاً أصواتهم له في 28 أيلول/سبتمبر. وقال ديلا جينغا الذي شكل انتخابه مفاجأة له: "لقد اخترتم جثة". ففي السنوات الثلاث السابقة، أمضى الكردينال ديلا جينغا وقتاً في السرير بسبب أمراض متنوعة أطول من الوقت الذي أمضاه بالعمل في مكتبه. والإجراء الأول الذي اتخذه بعد أن غدا البابا لاون الثاني عشر تعيين الكردينال جوليو ماريا ديلا سوماليا، وهو حليف للغيارى، أمين سر للدولة. وثبّت استمرار الكردينال برتولوميو باكا على رأس أجهزة التجسس التابعة للكرسي الرسولي.

كان للحلف المقدس بعد الحقبة النابوليونية أعداء جدد يتعيّن عليه مواجهتهم: قطّاع طرقات، وأعضاء جمعيات سرية مثل المطالبين بالوحدة والاستقلال. وكانت هذه الجمعية قد نظّمت تمرداً في رومانيا، لذلك، قرر البابا لاون الثاني عشر إرسال الكردينال أغسطينوس ريفارولا كوسيط سلام لإنهاء حالة التمرد. ولم يكن البابا يعلم بأن ريفارولا يحمل توجيهات صريحة من باكا لقمع التمرد وأن أمين سر الدولة، الكردينال سوماليا، كان يؤيّد هذه التوجيهات.

لم يكن أحد يعتبر المطالبين بالوحدة والاستقلال مجرمين في الواقع، ولكن العديد من الجماعات ظهرت إلى حيّز الوجود في نابولي وميلانو وكالابريا منذ أوائل القرن التاسع عشر؛ انبثق معظمها من المحافل الماسونية، لذلك قام مختلف الباباوات بتحظيرها في العديد من البيانات الرسمية. وتمت ملاحقة أعضاء المطالبين بالوحدة والاستقلال، والحُماة، والمستقلين، والحجاج البيض، والمافيات في الدويلات البابوية. واتخذت تلك الملاحقة شكلاً رسمياً من خلال منظمات يشرف عليها الفاتيكان كالحلف المقدس، وشكلاً رسمياً إضافياً من خلال جماعات سرية من الإكليروس قاموا بأعمال عقابية سرية. وتضمنت هذه المجموعات السرية المنظمة السوداء والحلقة الثُمانية، إضافةً إلى تشكيلات أكثر

غموضاً مثل "الأردية السوداء"، و"جمعية الثلاثة عشر"، و"أتباع جيهو".

وكان عملاء الحلف المقدس يدركون أن المطالبين بالوحدة والاستقلال يقودهم رجلان يدعيان أنجيلو تارغيني وليونيدا مونتاناري. وفي أثناء محاولة لاعتقالهما، قُتل أحد عملاء جهاز التجسس البابوي بطلق ناري في حين أصيب آخر بجراح خطرة. فعقد برتولوميو باكا العزم على إلقاء القبض على رؤساء العصابات ومثولهم أمام المحكمة البابوية.

وفي 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1825، خدع أحد الجواسيس البابويين تارغيني ومونتناري، وكان يرتدي زِيّ المتعاطفين مع المطالبين بالوحدة والاستقلال. فاعتقلهما عملاء الحلف المقدس وجنود الحرس البابوي، واقتيدا إلى روما في الواحد والعشرين من الشهر نفسه، وحوكما بتهمة التمرد في الثاني والعشرين منه، وقُطع رأساهما في الثالث والعشرين منه بسبب إغضاب الحَبر الأعظم. ولكن الحرب الخاصة بين المطالبين بالوحدة والاستقلال وعملاء البابا لم تنتهِ عند هذا الحد.

لقد بذل الكردينال ريفارولا الذي يمتثل لأوامر الكردينال باكا قُصارى جهده للتخلص من حالة التمرد بضربة واحدة. ومستعيناً بالجمعية السرية المدعوّة السنفيديون (مؤيدو البابا المناهضون للاتجاه الجمهوري في نابولي)، شنّ ريفارولا والحلف المقدس مجموعة متنوعة من الحروب القذرة. فاختُطف أولئك المشتبه في كونهم أفراداً من المطالبين بالوحدة والاستقلال أو مؤيدين لهم، وخضعوا للاستجواب تحت تأثير التعذيب، وكانوا يُعدَمون على عجَل في غالب الأحيان. وقد أُرسل حوالى خمسمئة شخص إلى المنفى أو إلى السجون البابوية. وعندما علِم لاون الثاني عشر بالعمليات السرية التي يقوم بها الحلف المقدس ضد المطالبين بالوحدة والاستقلال بموافقة أمين سر الدولة، قرر صرف جوليو ماريا ديلا سوماليا من الخدمة تاركاً باكا المقتدر في منصبه.

ومذاك الحين، قرر أمين سر الدولة الجديد الكردينال توماسو برنتي فرض

مراقبة صارمة على جهاز التجسس، وعملياته، ورئيسه، وفوق كل شيء، على نشاطاته في الحرب ضد المطالبين بالوحدة والاستقلال. لقد كان التوجه الإيديولوجي لبرنتي معتدلاً على غرار توجه كونسالفي، ومع ذلك، لم يوضَع حدٌّ لعمليات الحلف المقدس السرية ضد المتمردين.

ولويجي زانولي وأنجيلو أورتولاني هما المنتميان التاليان إلى المطالبين بالوحدة والاستقلال اللذان وقعا بين أيدي جهاز التجسس البابوي. ففي شباط/فبراير 18، اعترض زانولي سبيل مبعوث بابوي يحمل توجيهات سرية من برتولوميو باكا للمونسينيور فرنشسكو كاباشيني الذي أصبح بعد سنوات جاسوساً بابوياً هاماً يعمل ضد المطالبين بالوحدة والاستقلال في هولندا.

وتبع زانولي المبعوث البابوي حتى الحدود. وقبل أن يتمكن المبعوث من عبورها، قتله زانولي وسرق الرسائل التي تحمل ختم الحلف المقدس الشمعي. واختبأ عضو المطالبين بالوحدة والاستقلال في كوخ في رومانيا حتى عثور رجال باكا عليه. وفي أثناء الهجوم الذي شُنّ لاعتقاله، قام أحد أعضاء المطالبين بالوحدة والاستقلال المتحالفين مع زانولي ويدعى أنجيلو أورتولاني بقتل أحد أفراد الحرس البابوي بطلق ناري. فاعتُقل الاثنان، وحوكما، وحُكم عليهما بالموت. وقُطع رأس لويجي زانولي في صباح 13 أيار/مايو 1828، في حين شُنق أنجيلو أورتولاني بعد ظهر ذلك اليوم. فبالنسبة إلى الكردينال برتولوميو باكا المقتدر، إن "العين بالعين والسنّ بالسنّ" قانون ملائم، وكان عملاؤه في الحلف المقدس مستعدين لتطبيقه.

إثر ذلك، أراد قادة المطالبين بالوحدة والاستقلال توجيه ضربة انتقامية في الفاتيكان ثأراً لرفيقَيهما، ولم يكن هدفهما المختار سوى الكردينال أغسطينوس ريفارولا، الموفَد البابوي إلى رومانيا.

فاختير غايتانو مونتاناري، شقيق ليونيدا، وغايتانو رامبيللي لقتل موفَد لاون الثاني عشر. ولكن الأمر لم يجرِ وفقاً للخطة الموضوعة عندما سلّم الخياط خطأً

الملابس السوداء إلى كاهنين أحدهما يتعاون مع الحلف المقدس، وذلك قبل يومين من موعد تنفيذ الخطة؛ كان من المفترَض بالخياط تزويد عضوَي المطالبين بالوحدة والاستقلال بهذه الملابس التي تسمح لهما بالاقتراب من الكردينال ريفارولا. وفي اليوم التالي، اعتُقل المتآمران، فأُعدم مونتاناري في أواخر العام 1 بسبب محاولة اغتيال الكردينال أغسطينوس ريفارولا. وشُنق رامبيللي في العام نفسه بسبب التآمر ضد الدولة البابوية والبابا. وفي 10 شباط/فبراير 1829، توفّي لاون الثاني عشر من دون أن تنتهي الحرب.

في مجمع الكرادلة الذي عُقد عام 1823، كان الكردينال فرنسوا-كزافييه كاستيليوني أحد أبرز المرشحين لخلافة بيوس السابع. ووفقاً لطُرفة سرت في ذلك الوقت، قال الحَبر الأعظم نفسه في محادثة مع الكردينال كاستيليوني: "ستتولّون لاحقاً يا قداسة البابا بيوس الثامن - مشيراً إلى كاستيليوني - مهمة إيجاد تسوية لهذه المسألة". وهكذا، لم يكن انتخابه بابا جديداً في 31 آذار/مارس 1829 وسط اختلافات في الرأي بين الغيارى والساسيين مفاجئاً لأحد.

وبالرغم من قصر مدة ولايته الحَبرية التي لم تدُم سوى عشرين شهراً، فقد كانت مليئة بالأحداث التي غيّرت بنية أوروبا. لقد أنهت الثورات التي اندلعت في صيف العام 1830 في فرنسا وألمانيا وبولندا وبلجيكا والدويلات البابوية النظام الذي أرسته إعادة الملكية في إنكلترا.

عهِد بيوس الثامن بشؤون جهاز التجسس البابوي إلى الكردينال برتولوميو باكا، وهو الشخصية المتمتعة بالنفوذ في الإدارة البابوية الرومانية. ومن بين المشاكل الخطرة التي كان يتعيّن على البابا بيوس مواجهتها - وبالتالي الحلف المقدس - الحركات الثورية والجمعيات السرية القائمة ضمن الدولة البابوية، إضافةً إلى العلاقات المثيرة للجدل مع فرنسا الكاثوليكية كما كان الحال على الدوام. وكان المونسينيور فرنشسكو كاباشيني أحد العملاء الأكثر دهاءً في جهاز التجسس البابوي في تلك السنوات.

فخلال الفترة التي أمضاها بصفته قاصداً رسولياً في هولندا، كرّس كاباشيني ذاته لإنشاء شبكة واسعة النطاق من المُخبرين تمتد من الأحياء الفقيرة إلى صالونات البلاط. وكان كاباشيني يتلقى سَيلاً من التقارير ذات السرية العالية من مصادره التي تشمل أعضاء في البرلمان الهولندي.

لقد وجد برتولوميو باكا في كاباشيني منجمَ ذهب حقيقيًّا وعزم على استثماره. فبفضل عضو مخلص له في مجلس الدولة، كان المونسينيور كاباشيني يعرف كل شيء عن العائلة الملكية، وترده تقارير عن المثلية الجنسية، والخيانة الزوجية، ومسائل أخرى متعلقة بأعضاء مجلس أورنج، تنتهي إلى محفوظات الحلف المقدس في روما.

وفي مناسبات عدة، كان بيوس الثامن يلفت انتباه باكا إلى الوسائل المعتمَدة من قِبَل القاصد الرسولي في هولندا. ولكن كل الوسائل مقبولة بنظر رئيس الحلف المقدس ما دامت تُستخدم دفاعاً عن مصالح كنيسة روما، والبابا، والدويلات البابوية.

ذات يوم، حوّل فرنشسكو كاباشيني جهاز التجسس البابوي إلى منظمة عالية السرية. "لقد اطّلعت لبضع لحظات على تقرير سري أرسله السفير الهولندي إلى الكرسي الرسولي يتناول تطور تحركات معيّنة في الدويلات البابوية"، كتب كاباشيني إلى باكا. لقد تمكن كاباشيني من قراءة هذا التقرير في أثناء زيارة إلى المقر الرئيسي لوزارة الشؤون الخارجية الهولندية. وبينما كان ينتظر موعد استقباله من قِبَل رئيس قسم الشؤون الدينية في الوزارة، وبعد مغادرة سكرتير ذلك المسؤول الغرفة للحظات قليلة، اكتشف عميل الحلف المقدس بين الإضبارات المكدَّسة إضبارة تحمل عنوان "الكرسي الرسولي: مسألة خصوصية وسرية للغاية". ففتح المونسينيور الملف تلقائياً وبدأ بقراءة الصفحة الأولى.

ويورد التقرير الهولندي الذي يعود تاريخه إلى صيف العام 1829 تفاصيل مؤامرة تدبّرها عدد من الأشخاص في مدينة سبا حيث خططوا للقيام بعمليات

تخريبية ضد الدويلات البابوية. والمتآمرون الذين توافرت لهم مبالغ ضخمة من المال ومطبعة كانوا يعتزمون السفر كل بمفرده إلى ميناء ليفورنو التوسكاني بهدف دخول الدويلات البابوية بوصفهم حجّاجاً وتوزيع مواد مطبوعة ثورية مناهضة للبابا.

فسُلّمت المعلومات إلى أمين سر الدولة، الكردينال جوزبي ألباني، وإلى رئيس جهاز التجسس البابوي، الكردينال باكا. وتمكن عملاء الحلف المقدس من الاقتراب من المجموعة الثورية المرتبطة بالمطالبين بالوحدة والاستقلال، وذلك من خلال حِرَفي متورط في المؤامرة. وذكر أحد العملاء أن هذا الحِرفي شاب يسعى ربما إلى الثأر من عضو آخر في الجماعة. وبين تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر من العام 1829، ألقى الجنود البابويون القبض على أربعة عشر عضواً تقريباً من المجموعة الثورية. وحُكم على خمسة منهم، وهم القادة الرئيسيون، بالموت، وجرى إعدامهم.

لو كان كل عملاء الحلف المقدس بفعالية فرنشسكو كاباشيني أو الأب سالامون، لكانت الدولة البابوية هي الحكومة الأفضل اطّلاعاً في أوروبا. ولكن لسوء الحظ، لم تكن التكتيكات الجاسوسية التقليدية المتّبَعة من قِبَل كاباشيني وسالامون مقبولة من زملائهما في دوائر أخرى. فقد كان العديدون يعتقدون أن مهمة التجسس على دولة أو حكومة أخرى ليست من مهام الكهنة، ومع ذلك، فإن عدداً قليلاً من القاصدين الرسوليين لم يكونوا يحبذون الأساليب المعتمَدة من قِبل الحلف المقدس. وقام البابا غريغوريوس السادس عشر بترقية المونسينيور فرنشسكو كاباشيني إلى رتبة الكردينالية في 22 تموز/يوليو من العام 1844 تقديراً للخدمات التي قدّمها للكنيسة. وتوفّي هذا الجاسوس اللامع التابع لجهاز التجسس البابوي في العام التالي بتاريخ 5 حزيران/يونيو 1845.

وللمرة الأولى منذ عدة عقود، لم تكن سياسة الكرسي الرسولي وأمين سر الدولة في الفاتيكان تحت تأثير أي قوة أوروبية. ولهذا السبب ربما، طالت ثورةُ العام

1830 التي هزت أركان فرنسا الكنيسةَ والعرش بالقوة نفسها. كان شارل العاشر، شقيق لويس السادس عشر المعدوم، قد حكم فرنسا لمدة ست سنوات، واتّبع استراتيجية ربط صورة الكنيسة الكاثوليكية بصورة الملكية الاستبدادية مما جعل الكنيسة عدوّة الحريات السياسية. وكان القاصد الرسولي في باريس قد رفع تقريراً لألباني وباكا يشير فيه إلى أن سياسة شارل العاشر شوّهت صورة كنيسة روما في نظر المواطنين الفرنسيين، ولكن أحداً لم يستمع إليه كما يبدو.

لذلك، هاجم ثوريو باريس المقر الرئيسي للأسقف في تموز/يوليو، إضافةً إلى إكليريكية المبتدئين اليسوعيين، ومركز الإرساليات الكنسية، ومقر القاصد الرسولي. وتمثّلاً بهؤلاء الثوريين، طالت ثورات في مدن فرنسية أخرى الكنائس، وأديرة للراهبات، وأديرة للرهبان. وعملاً بتوصية ألباني، قطع بيوس الثامن الصِّلات القائمة بين الكنيسة وملكية شارل العاشر، واعترف بلويس فيليب من أورليان ملكاً جديداً لفرنسا. وطلب البابا من كل الأساقفة والكهنة الفرنسيين إطاعة الملك الجديد الذي اختارته الأمّة، عملاً بتوصية باكا. وبطريقة مماثلة، باشر الكرسي الرسولي بالاعتراف ببلجيكا، وهي دولة جديدة نشأت عام 1830 عندما تضافرت جهود الكاثوليك البلجيكيين والليبراليين للنضال في سبيل استقلالهم عن مملكة هولندا. لقد حاول ملك هولندا البروتستانتي فرض الحكم الاستبدادي على كل مناطق نفوذه.

وفي 30 تشرين الثاني/نوفمبر 1829، توفّي البابا بيوس الثامن وانعقد مجمع جديد للكرادلة لانتخاب خلف له. وكما كان متوقَّعاً، استمر انعقاد المجمع لفترة طويلة من الزمن. لقد تطلب الأمر خمسين يوماً ومئة اقتراع لاختيار خلف للبابا بيوس الثامن. ولم يكن اسم الكردينال برتولوميو ألبرتو كابيلاري قد ظهر بين المرشحين بدليل أنه لم يفُز بأي صوت حتى ما بعد الشهر الأول من انعقاد المجمع.

وفي أثناء إعلان النتائج النهائية، طلب كابيلاري من أعضاء المجمع التوقف عن

منحه أصواتهم. ومع ذلك، طلب الكردينال زورلا منه قبول التاج البابوي إذعاناً لقرار المجمع. وفي 2 شباط/فبراير 1831، تسلّم رموز المنصب من برتولوميو باكا، رئيس الحلف المقدس، وتبنى اسم غريغوريوس السادس عشر.

ولم يمرّ وقت طويل حتى واجهت الولاية الحَبرية الجديدة موجة ثورية هزت نصف أوروبا. لقد اندلعت ثورة في مودينا بعد يوم واحد فقط من تتويج غريغوريوس السادس عشر، وأدت النجاحات الأولى التي تحققت إلى تشكيل حكومة ثورية في بولونيا حيث سُجن المندوب البابوي وأُعلنت الجمهورية. وواصلت الجيوش الثورية زحفها وسيطرت على مارش وأومبريا. ولم يكن باستطاعة الجيوش البابوية إيقاف هذا التقدم الذي جعل 80 بالمئة من أراضي الدويلات البابوية تحت سيطرة الثوريين. ونزولاً عند نصيحة أمين سر الدولة، توماسو برنتي، ورئيس جهاز التجسس، برتولوميو باكا، قرر البابا غريغوريوس السادس عشر طلب المساعدة العسكرية من النمسا لإخماد الثورة. في ذلك الوقت، كان برتولوميو باكا قد فقد قدراً كبيراً من مكانته في الإدارة البابوية الرومانية بسبب فشل الحلف المقدس في اكتشاف نشوء الحركة الثورية داخل الحدود البابوية.

وسرعان ما أثار دخول جنود النمساويين إلى الدويلات البابوية احتجاجات فرنسية. واستمرت حالة متواصلة من الاضطراب لأكثر من شهرين تقريباً شملت عمليات قصف قامت بها مجموعات ثورية. ومن بين الثوريين، كان هناك لويس نابليون بونابارت، إمبراطور فرنسا المستقبلي تحت اسم نابوليون الثالث.

بعد قمع الثورة، دعت إنكلترا وفرنسا وبروسيا وروسيا إلى عقد اجتماع في روما وحمل غريغوريوس السادس عشر على إدخال سلسلة من الإصلاحات تهدّئ من رَوع الثوريين. فلم تشأ أي من القوى الأوروبية رؤية الثوريين يتسلمون زمام الأمور في الدويلات البابوية خشية انتقال هذه الظاهرة "الوباء" إلى أمم أخرى في أوروبا.

وبعد انسحاب الجنود النمساويين، شهدت الدويلات البابوية ثورة جديدة في رومانيا عام 1832. وعلى غرار سابقاتها، لم تكتشف أجهزة المخابرات البابوية هذه الثورة في الوقت المحدد. والشخص الوحيد الذي اعتقله عملاء الحلف المقدس هو جوزبي بالزاني الذي قُطع رأسه في 14 أيار/مايو 1833 بتهمة الإساءة إلى الحَبر الأعظم.

وفي شباط/فبراير 1836، قرر غريغوريوس السادس عشر صرف توماسو برنتي وبرتولوميو باكا من الخدمة. فاختار الكردينال لويجي لامبروسكيني أمين سر جديداً للدولة، وهو محافظ مخلص توقّع البابا منه أن يقوم بضرب الحركات الثورية وقادتها بيد من حديد. وكان جوزبي مازيني، مؤسس منظمة إيطاليا الشباب، أحد الثوريين الأكثر شهرة في تلك الحقبة من الزمن الذي اعتبر الحَبر الأعظم العدوّ الرئيسي لإيطاليا موحَّدة.

أصبح لامبروسكيني أول كردينال في تاريخ الكرسي الرسولي يتولى إدارة شؤون أمانة سر الدولة وجهاز التجسس في آن إذ كان يمتلك قدرة معالجة الشأن الدبلوماسي بحزم (أمانة سر الدولة) بيد، وحمل مطرقة باليد الأخرى (الحلف المقدس). وبوصفه أمين سر الدولة، كان على لامبروسكيني التفاوض لإنهاء حالات التمرد بهدف إعادة الهدوء إلى مناطق نفوذ الكنيسة. وبوصفه رئيساً للحلف المقدس، كان عليه القضاء على أي حركة يمكنها تعريض حكم البابا في الدويلات البابوية للخطر، وقد دام هذا الحكم حوالى ألفَي عام.

في الأحوال كافة، دخل غريغوريوس السادس عشر التاريخ بوصفه أحد الباباوات الذين وقّعوا معظم الأحكام بالموت التي بلغت 110 بالإجمال؛ وفرض حظراً على حرية التعبير بمختلف أنواعها، شفهية كانت أم مكتوبة، طالت الأفراد والمجموعات الذين لا يطيعون إملاءات الكنيسة الأم؛ ومنع اليهود من القيام بأي نشاط مدني أو ديني خارج أحيائهم تحت طائلة تنفيذ التهديدات المريعة؛ وقام بالخطوة الأولى في اتجاه قطع أوصال الدويلات البابوية تماماً.

وفي بداية العام 1846، بدأ البابا غريغوريوس السادس عشر يشعر بتأثيرات داء سرطان أودى بحياته في 1 حزيران/يونيو. وأفسحت وفاته المجال لأطول ولاية حَبرية في تاريخ الكنيسة - ولاية بيوس التاسع - وإحدى الحقبات الزمنية الأكثر غنىً بالأحداث التاريخية. فكارل ماركس، وفريدريك أنغلز، وأوغوست كونت، وفريدريش نيتشه، وتشارلز داروين، وكافور، وجوزبي غاريبالدي، وأوتو فون بيسمارك، ونابوليون الثالث هم بعض شخصيات حقبة بيوس التاسع. لقد تركوا جميعاً أثرهم بطريقة أو بأخرى في أثناء فترة حكمه التي دامت اثنين وثلاثين عاماً.

وانقسم مجمع الكرادلة الذي انعقد عام 1848 إلى فصائل تدعم ثلاثة كرادلة: الكردينال غيزي، مرشح أولئك الذين يؤيدون إيطاليا موحَّدة؛ الكردينال جيوفاني-ماريا ماستاي-فيريتي، المرشح المعتدل؛ والكردينال لويجي لامبروسكيني، مرشح الغيارى الذي اعتبره مجمع الكرادلة الوحيد القادر على مواجهة الثوريين واكتساب الدعم النمساوي لتحقيق ذلك.

وأشار الجدل المستمر بين أعضاء المجمع إلى أن فترة الانتخاب ستكون طويلة، ولكن الكردينال ماستاي-فيريتي تمكّن بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من الاقتراع الأول من استقطاب ثلثَي الأصوات المطلوبة لانتخابه حَبراً أعظم، واختار اسم بيوس التاسع. وشجعت ولايته الحَبرية في أوروبا التي تشهد حروباً وثورات على انتشار الجواسيس.

إن أحد أبرز العملاء السريين الذي كان على الحلف المقدس بقيادة الكردينال لامبروسكيني مواجهته هو ويلهلم يوهان كارل إدوارد ستيبر. لقد وُلد ويلهلم في ساكسوني في 3 أيار/مايو 1818، وترعرع في كنف عائلة لوثرية غير مولَعة بالكهنة أو بالسلطة الرومانية. وبعد انتقاله إلى روما مع عائلته (كان والده موظفاً رسمياً)، حاز على إجازة جامعية في الحقوق. في تلك السنوات، أصبح ستيبر مُخبراً للشرطة البروسية يُبلغها عن مختلف النشاطات الجارية في

الجامعة. ولم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره بعد عندما بدأت الحركات العمالية تهزّ أركان أوروبا.

فخشي فريديريك وليام، ملك بروسيا، من قيام المجموعات الثورية كتلك الموجودة في باريس وفيينا وإيطاليا بالإطاحة بعرشه. وكان ستيبر يدرك النفوذ الذي يستطيع اكتسابه جرّاء استغلال ذلك الخوف.

وبين عامَي 1845 و1850، واصل ستيبر عمله كمحامٍ بينما كان يسلّم معلومات وفيرة عن موكّليه الثوريين والمثقفين لجهاز المخابرات البروسية. وجرى اتصاله الأول بالحلف المقدس في 11 آب/أغسطس 1848. في ذلك اليوم، التقى ويلهلم ستيبر كاهناً شاباً يعمل لصالح القاصد الرسولي البابوي في برلين. وكان الكاهن سكرتير المونسينيور كارلو لويجي موريكيني، مندوب البابا في البلاط البروسي. فقرر ستيبر الاتصال بجهاز التجسس البابوي بسبب معلومة وقعت بين يدَيه. بالنسبة إلى الجاسوس البروسي، يمكن بيع هذه المعلومة للجانب الذي يهتم بالحصول عليها. وبالرغم من عدم حاجته إلى المال، فقد أجرى اتصالات بأجهزة مخابرات أخرى.

وفي أثناء لقائه موريكيني، أخبر الجاسوس القاصد الرسولي بأن عميلاً بروسياً تسلل إلى صفوف مجموعة ثورية وأبلغ عن محاولة اغتيال قَيد الإعداد، والهدف مسؤول كنسي رفيع المقام قد يكون البابا نفسه. ومرّر موريكيني المعلومة للكردينال لويجي لامبروسكيني، رئيس جهاز التجسس البابوي، ولأمين سر الدولة الكردينال جيوفاني سوغليا سيروني. لقد تطلّب الأمر تحركاً سريعاً لتحديد هوية المستهدَف الفعلي نظراً إلى العدد الكبير للمسؤولين رفيعي المقام في الكرسي الرسولي الذين قد يتعرضون للاغتيال.

وعندما أُبلغ بيوس التاسع بالمعلومة التي وفّرها ستيبر، طلب من لامبروسكيني إرسال عدد من عملاء الحلف المقدس إلى برلين للبحث عن معلومات مفصَّلة. وعمل هؤلاء الجواسيسُ البابويون طوال شهرين بمساعدة

ستيبر لاختراق صفوف الحركات الثورية من دون الوصول إلى أي نتيجة.

لقد وُلد الكونت بيليغرينو روسي، المدير الأعلى للدويلات البابوية، في مدينة كارارا الإيطالية في 13 تموز/يوليو 1787، ودرس الحقوق في جامعات باريس وبولونيا. وبعد إنهاء دراسته، بدأ العمل لصالح يواكيم مورات، ملك نابولي وعضو المطالبين بالوحدة والاستقلال والمدافع عن استقلال إيطاليا ووحدتها.

وبعد هزيمة مورات في تولينتينو، أُجبر روسي على الذهاب إلى المنفى في فرنسا. وعاد إلى جنيف بعد هزيمة نابوليون في واترلو. وبعد سنوات، استدعاه بيوس التاسع إلى روما نظراً إلى آرائه حول إعادة إرساء السلطة البابوية في إطار نظام دستوري. ولكن روسي كان يعتقد بأن الحريات التي تسعى إليها الحركات الثورية لا يُفترض منحها إلا بالتدريج في إطار نظام مدني. وقد كلّفته هذه الفكرة حُكماً بالموت أصدرته جمعيات سرية نُفي قادتها إلى برلين، وباريس، وبروكسل، ومدن أخرى.

وفي 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1848، وبعد ثلاثة أشهر من لقاء ويلهلم ستيبر القاصدَ الرسولي البابوي المونسينيور كارلو لويجي موريكيني، تحدث روسي أمام الجمعية التشريعية في قصر المستشارية لشرح برنامجه. وكان مدير الدويلات البابوية جالساً في عربته يقرأ خُطبته بصوت مرتفع عندما فُتح الباب بقوة وعمد رجل كان قد صعد إلى مقعد الخوذيّ إلى طعنه في عنقه بخنجر وقتله على الفور.

فأجرى عملاء الحلف المقدس تحقيقاً، ولكن الكردينال لويجي لامبروسكيني أقفل القضية من دون التوصل إلى أي نتيجة. لقد انتهى التحقيق باغتيال بيليغرينو روسي.

وبينما كان البابا بيوس التاسع يُعلن للملأ أن المدير الراحل توفّي بسبب إيمانه، انتشرت شائعات بأن الاغتيال قد يكون من صنيع المنظمة السوداء أو الحلقة الثُمانية التي يوجهها الكردينال لامبروسكيني سراً. كان رئيس الحلف المقدس

من الغيارى، ولم يكن يريد رؤية المزيد من الخطوات باتجاه إزالة قيود الكنيسة أو الدويلات البابوية الخاضعة لسلطة الحَبر الأعظم.

واستناداً إلى هذه الإيديولوجية، كان هناك أساس ممكن للشائعة القائلة إن الكردينال لامبروسكيني أمر باغتيال الكونت بيليغرينو روسي بسبب أفكاره حول الدور الذي يُفترض بالبابا أن يلعبه في عملية توحيد إيطاليا. وحال إقفال التحقيق دون بلوغ أي استنتاج في شأن القاتل نفسه والعقل المدبِّر للمؤامرة. وتوفِّي الكردينال لويجي لامبروسكيني، رئيس الحلف المقدس، في 12 نيسان/إبريل 1854 عن عمر ثمانين عاماً، وأخذ هذا السر معه إلى قبره. على أي حال، أصبح اغتيال روسي بالنسبة إلى الجمعيات السرية مرتبطاً بإشعال الثورة التي أدت إلى نفي البابا بيوس التاسع وولادة الجمهورية الرومانية.

في صباح اليوم التالي لوفاة السياسي البابوي، جرت تظاهرات سرعان ما تحولت إلى أعمال شغب وحالات تمرد أدت بدورها إلى اغتيال سكرتير البابا، المونسينيور بالما. إزاء هذا الوضع، وافق الحَبر الأعظم على الوزير الذي فرضه الشعب، ولكنّ قسماً آخر من الناس طالب بحل الحرس السويسري واستقالة البابا. أخيراً، وفي 17 تشرين الثاني/نوفمبر، اضطلع الحرس المدني بشؤون بعض المناصب في الكرسي الرسولي وطردوا الحرس السويسري والبابا الذي اعتُبر سجين الثورة. وفي 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1848، أُجبر بيوس التاسع على مغادرة روما، كما حدث من قَبل مع بيوس السادس وبيوس السابع، ولجأ إلى ميناء غيتا في مملكة نابولي.

وعقد الحاكم المؤقت الجديد العزم على وضع دستور يعلن روما جمهورية. وعهدت جمعية تأسيسية بالسلطة التنفيذية إلى حكومة ثلاثية مؤلفة من مازيني، وكارلو أرميليني، وأوريليو سافي. وفي 9 شباط/فبراير 1849، خلعت الجمعية البابا رسمياً من منصبه كرئيس للحكومة المدنية في الدولة الرومانية. وضمن المرسوم للحَبر الأعظم ممارسة تامة لقيادته الروحية، ولكنه نص على أن

تكون الدولة الرومانية ديمقراطية بالكامل تحت اسم الجمهورية الرومانية.

فدعا اتحاد قوى كاثوليكية إلى الاجتماع في غيتا بمبادرة إسبانية شاركت فيه فرنسا والنمسا وإسبانيا ونابولي. وفي 3 تموز/يوليو 1849، وصل الجنرالان الفرنسي والإسباني نيكولا شارل فيكتور كيدينو، وفرناندو فرنانديز دي كوردوبا يفالكارسيل إلى شيفيتافيكيا بمساعدة عملاء الحلف المقدس، واخترقا خطوط الدفاع الروماني بقيادة جوزبي غاريبالدي. فاحتلا العاصمة، في حين احتلت جيوش القوى الأخرى بقية الدويلات البابوية. وفي 12 نيسان/إبريل 1850، تمكن بيوس التاسع من العودة إلى روما. ومع ذلك، فقد بلغت سلطة البابا المؤقته نهايتها.

لقد أصبح كاميليو بنسو، كونت كافور، المهندس الكبير للوحدة الإيطالية وتلاشي الدويلات البابوية. وكان رئيس وزراء بييمون منذ العام 1852 قد وضع خطة من نقطتين: "كنيسة حرة في دولة حرة"،وروما عاصمة إيطاليا الموحَّدة.

وشرع فيكتور إيمانويل الثاني من سافوا، ملك بييمون، باحتلال الأراضي لصالح إيطاليا الجديدة بمساعدة غاريبالدي. وطلب من البابا منح أتباعه الجدد حقوق المواطنين البييمونيين نفسها التي يتمتعون بها، والموافقة على ضم بعض المناطق التي كانت جزءاً من الدويلات البابوية، مثل رومانيا. وعملاً بنصيحة الكردينال أنتونيلي، رفض بيوس التاسع هذا الطلب. "لا يمكنني التخلي عما لا يخصّني"، شرح البابا للإمبراطور نابوليون الثالث. ويعود السبب الآخر إلى خشيته من انتقال السياسات العلمانية للحكومة إلى الدويلات البابوية.

في منشوره العام لا أحد على يقين الذي صدر في 19 كانون الثاني/يناير 1860، رفض بيوس التاسع "الهجمات المنتهِكة لسيادة الكنيسة الرومانية" وطالب "بإعادة ما سُرِق (رومانيا)". واختُتم النص بالتهديد برمي الحرم على مغتصبي حقوق الكرسي الرسولي. وفي نهاية العام 1869، تبقى للبابا ثلث دويلاته السابقة فقط.

والمونسينيور أنطونيو دي لوكا هو أحد عملاء الحلف المقدس الذين أدركوا التوازن المعقّد الذي يجري الإعداد له بين فرنسا والنمسا وبييمون. وأصبح مصدراً وافراً للمعلومات لجهاز التجسس البابوي في ذلك الوقت لأنه كان قاصداً رسولياً بابوياً في ميونيخ (1853-1856) ومن ثم في فيينا (1856-1863).

وكونه ذا اطّلاع واسع على التاريخ، والفلسفة، واللاهوت، ويجيد اللغات جيداً، استُدعي هذا الأسقف الصقلي إلى روما عام 1829 لإدارة صحيفة لاهوتية وتبادل الرأي مع أقسام متعددة من الإدارة البابوية الرومانية. وفي العام 1853، أُرسل دي لوكا إلى بافاريا بصفته قاصداً رسولياً، ونُقل بعد ثلاث سنوات إلى فيينا، وكان المنصب الأكثر أهمية في السلك الدبلوماسي آنذاك. لقد خوّلته فترة التدرّب الوجيزة في ميونيخ للوصول إلى العاصمة النمساوية.

في شباط/فبراير 1859، وصل سفير إنكلترا في فرنسا، اللورد كاولي، إلى فيينا. وتمثلت مهمته بالسعي إلى إيجاد حل للحرب القائمة بين النمسا وفرنسا بسبب المصالح المتنافَس عليها في إيطاليا. وكتب الكردينال جياكومو أنتونيلي، أمين سر الدولة ورئيس جهاز التجسس البابوي، لِدي لوكا: "بما أن الشؤون الإيطالية ليست دخيلة على المسائل الدبلوماسية، سيكون من المفيد في الواقع الاطّلاع باستمرار على المفاوضات الجارية هناك". وهكذا كان.

وبمساعدة ويلهلم ستيبر الذي ظهر مجدداً في عالم التجسس بعد قيام أعدائه بمحاولة وضعه في قفص الاتهام في المحكمة، أصبح الأسقف أنطونيو دي لوكا مصدراً لا ينضب من المعلومات التي كانت توجَّه من فيينا إلى الحلف المقدس في روما.

لقد تحقق النجاح الأول والكبير للمونسينيور دي لوكا عندما كان في ميونيخ. فكونه قاصداً رسولياً هناك، كان يرفع تقارير تتناول قيام جهاز التجسس النمساوي (ستيبر في الواقع) بتزويده بمعلومات عن مجموعة ثورية اكتشفت هوية ثلاثة كهنة تابعين للحلف المقدس، وهي تعتزم التخلص منهم. وكان أحد

هؤلاء العملاء قد ساهم بصفة خاصة كما يبدو في الكشف عن هوية أتباع غاريبالدي للشرطة البابوية. فوُضع كل عملاء الحلف المقدس العاملين في إيطاليا في حالة ترقّب مما حث الكردينال لويجي لامبروسكيني (الذي كان لا يزال رئيساً لجهاز التجسس في ذلك الوقت) على اتخاذ تدابير احترازية.

ومع ذلك، وبالرغم من تلك التدابير، دخل غوستافو باولو رامبيللي، وغوستافو مارلوني، وأغناطيوس مانشيني إلى مشرب في أوائل كانون الثاني/يناير 1854 حيث كان الجواسيس الثلاثة مجتمعين. وكان لكل مهاجم هدف محدد. فأطلق رامبيللي النار على العميل الأول للحلف المقدس في الظهر وقُتل على الفور. وحاول مارلوني إطلاق النار على العميل الثاني ولكنه أخطأ الهدف، فقفز الكاهن على مارلوني وتمكن من الاستيلاء على مسدسه. في غضون ذلك، أطلق مانشيني النار على العميل الثالث وأصابه بجرح مميت.

وعندما التفت مانشيني حوله، وجد أن مارلوني لا يزال يتدحرج على الأرض مع العميل البابوي الثاني. فالتقط خنجراً وطعن العميل في ظهره عدة مرات، وكانت الطعنة الأولى كفيلة بقتله. بعد ذلك، فرّ المهاجمون الثلاثة عبر الشوارع الضيقة المحيطة بالمبنى قبل وصول الحرس البابوي.

بعد سبعة أيام، أُلقي القبض على رامبيللي ومارلوني ومانشيني، واتُهموا، وحوكموا؛ لقد حُكم عليهم بالموت بسبب مقتل عملاء الحلف المقدس الثلاثة. وفي 24 كانون الثاني/يناير 1854، اعتلى الثلاثة منصة الإعدام وقُطعت رؤوسهم. والكردينال المقتدر وأمين سر الدولة جياكومو أنتونيلي هما من وقّعا على حكم الإعدام. رداً على ذلك، تعرّض أنتونيلي لمحاولة اعتداء بعد سنوات من قِبَل أحد أتباع غاريبالدي يدعى أنطونيو دي فليشي الذي أصاب الكردينال بجروح في ذراعه اليمنى ليس إلا؛ اليد نفسها التي وقّع بواسطتها بعد فترة قصيرة أمراً جديداً بإعدام دي فليشي.

وبعد وصول المونسينيور دي لوكا إلى فيينا - بمساعدة ستيبر وشبكة

الجواسيس واسعة النطاق التابعة له - أبدى اهتماماً أكبر بخدمة الحلف المقدس. وجاء في أحد بيانات دي لوكا الرسمية أن الضباط الخوَنة في الجيش البييموني كانوا قد عرضوا عليه الخطط الدفاعية عن رومانيا، وهي إحدى الأراضي البابوية السابقة التي ضمّها الملك البييموني عام 1860. ولم ينتبه أحد إلى تقرير دي لوكا في ذلك الوقت، ولكن ويلهلم ستيبر استفاد منه في الحرب الفرنسية-البروسية عام 1870.

وفي آذار/مارس 1861، أعلن فيكتور إيمانويل الثاني نفسه ملكاً لإيطاليا. وفي المفاوضات التي جرت مع الكنيسة نتيجةً لذلك، عرض تقديم ألف تنازل وتنازل على الصعيد الديني لقاء التخلي عن الأرض على الصعيد الدنيوي. وامتدت المفاوضات حتى العام 1864 عندما تعهد الملك فيكتور إيمانويل باحترام الأرض والمِلك الموروث حيث أنشأ القديس بطرس الكنيسة.

وبانهيار الإمبراطورية السابقة للكنيسة، فقد الحلف المقدس في روما كل اتصال تقريباً بجواسيسه المنتشرين قي كل مكان من العالم. وهكذا، عجز جهاز التجسس البابوي عن توقّع الحرب الوشيكة في الولايات المتحدة.

ففي العام 1861، اهتزت الولايات المتحدة الأميركية (التي "تم توحيدها" منذ أكثر من ثمانين عاماً بقليل) بالحرب الأهلية. لقد كانت أمّة نشأ فيها مجتمعان مختلفان لكل منهما نموذج اجتماعي وسياسي واقتصادي مختلف. وفي الوقت نفسه، كانت الأراضي قد ازدادت أضعافاً مضاعفة على مدى أربعة عقود من الزمن: من خلال شراء لويزيانا من فرنسا وفلوريدا من إسبانيا، وضم تكساس الذي نجمت عنه الحرب مع المكسيك (1846-1848).

كان المناخ السياسي في الولايات الشمالية والجنوبية متأثراً بمصالح الجنوبيين المكتسَبة من زراعة التبغ والسكر والقطن وبتمسكهم بحوالى ثلاثة ملايين ونصف مليون عبد، في حين كان الاتحاديون يميلون أكثر إلى التجارة والمصالح المالية، وبالتالي إلى فرض التعرِفات. فمن جهة، هناك الرأسماليون الشماليون

الدائنون، ومن جهة أخرى، هناك المزارعون الجنوبيون المَدينون.

وفي 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1860، انتُخب المرشح الجمهوري أبراهام لينكولن رئيساً للولايات المتحدة؛ وهو محامٍ عارض الرِّق عندما كان عضواً في الكونغرس. وفي 20 كانون الأول/ديسمبر 1860، انسحبت كارولاينا الجنوبية من الاتحاد، تلتها ميسيسيبي وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولويزيانا وتكساس بعد أيام. وفي أوائل شباط/فبراير 1861، التقى مندوبو الولايات الانفصالية في مونتغمري، عاصمة ألاباما، لتشكيل أمّة جديدة هي ولايات أميركا الكونفدرالية.

وبعد وضع الدستور المؤقت لولايات أميركا الكونفدرالية، وُضعت النقاط العامة لدستور الولايات المتحدة التي حظّرت تجارة الرِّق الأفريقيين وسمحت بتجارة الرِّق المحليين. فأعلنت الولايات الجنوبية انسحابها بسبب الخطوات التي اتخذها الشماليون بشأن مسألة الرِّق. واختارت الولايات المتبقية جيفرسون ديفيس، وزير الحرب السابق، قائداً لكونفدراليتها.

فوجّه الرئيس الكونفدرالي الجديد نداءً إلى الجنود، وعزم على تجنيد 100.000 متطوع. وكجزء من خطة الدفاع، استولى الكونفدراليون على ترسانات أسلحة للاتحاديين، ومنشآت عسكرية، ومراكز بريد، ودوائر جمركية في مختلف الولايات الجنوبية. ورفضت فورت سمتر في خليج تشارلستون الاستسلام للجنوبيين. وعندما أعرب أبراهام لينكولن عن عزمه على إرسال تعزيزات، أدرك الكونفدراليون أن عليهم استخدام القوة. فعند الرابعة والنصف من صباح 12 نيسان/إبريل 1861، أطلقت مدفعية الجنوبيين أول طلقة للحرب الأهلية الأميركية. وكان الكونفدراليون المعتدين، وهذا ما أراده لينكولن.

في أثناء النزاع المدني الذي جرى بين عامَي 1861 و1865، كان الحلف المقدس يعتمد على لويس بينس، القاصد الرسولي البابوي في نيويورك. ولم تكن تقاريره المخابراتية ممتازة أو مثيرة للاهتمام. فعلى سبيل المثال، كتب بينس لرؤسائه في جهاز المخابرات البابوية في أثناء اندلاع الأعمال الحربية بعد واقعة فورت سمتر

عن السفن التجارية المتجهة إلى موانئ الدويلات البابوية، وعن مواطن يحمل اسماً إيطالياً قدِم إليه بحثاً عن تأشيرة دخول.

وتُظهر دراسة لتقارير بينس أن عميل الحلف المقدس كرّس نفسه للمعلومات السياسية الآنية المستخرَجة من الصحف أكثر منه للعمل الجاسوسي المعقّد. ومع ذلك، فقد كان يجمع أحياناً معلومات هامة، كخبر اكتشفه مصادفَةً في حزيران/يونيو 1861.

كان لويس بينس قد دُعي لحفل استقبال في نيويورك أقامه سياسيو وضباط الاتحاد لجمع المال لقضيتهم. وفي أثناء الحفل، دنت بعض النساء منه من دون أن يعرفنَ بأنه عميل في جهاز التجسس البابوي، وسألنَه عن رأيه بجوزبي غاريبالدي. لم تكن سيدات الاتحاد يعرفنَ أن غاريبالدي هو عدوّ البابا بيوس التاسع، وأنه قنصل البابا في نيويورك. وباستخدام كل ما يملكه من جاذبية، تمكن عميل الحلف المقدس من استخلاص أخبار من زوجة أحد الجنرالات حول قيام أبراهام لينكولن بدعوة جوزبي غاريبالدي لتقديم النُصح لهيئة موظفي القيادة العامة بشأن تكتيكات عسكرية.

فرفع العميل بينس تقريراً إلى الحلف المقدس في روما وإلى الكردينال جياكومو أنتونيلي، أمين سر الدولة، يتناول ما عزم قائد الاتحاد على القيام به. وأدى هذا الخبر إلى احتجاج شديد من قِبل الكرسي الرسولي لدرجة أنه كان على لينكولن سحب طلبه والاعتذار رسمياً من بيوس التاسع. ومع ذلك، فقد شكل آلاف الجنود المرتدين "قمصان غاريبالدي الحمراء" ما دُعي فيلق غاريبالدي الأميركي، وهو مجموعة من المتطوعين الذين قاتلوا بشجاعة إلى جانب جنود الاتحاد في معارك متنوعة. وبعد أن بلغ هذا الخبر روما، أصبحت قنصلية نيويورك مركزاً حقيقياً للتجسس ينقل للحلف المقدس في روما كل خبر يتقدّم به الأساقفة أو الكهنة أو الرهبان المتواجدين في أي مكان من الولايات المتحدة، شمالاً أو جنوباً.

ووصلت أخبار الحصار البحري الذي فرضه الاتحاد على الولايات الجنوبية مع انهيار الوضع العسكري الكونفدرالي، إضافةً إلى طلب تقدّمت به إحدى الرهبنات للحصول على اعتمادات مالية وبخبر وفاة أحد الأساقفة وتدشين كاتدرائية جديدة. ولم يصنّف الحلف المقدس في روما أو لويس بينس في نيويورك المعلومات بأنها هامة، غير هامة، أو لا معنى لها على الإطلاق. وكان الحلف المقدس يعتقد أن الطريقة الوحيدة لتقييم الأخبار القادمة من الولايات المتحدة التي تمزقها الحرب تتمثل بتجنيد آلاف رجال الدين والبيروقراطيين العاملين في الإدارة البابوية الرومانية. ففي هذه المرحلة من تفكك الدويلات البابوية، لم يكن البابا بيوس التاسع يرى حاجة إلى تبديد موارد أخرى.

من جهة ثانية، كان قيام الفاتيكان والحلف المقدس بإظهار دعمهما لفريق أو لآخر مسألةً أخرى. فأوّل الضغوطات التي مورِست على البابا وأمين سر الدولة صدر عن جون هيوز، أسقف نيويورك، بعد عشرة أشهر من الهجوم على فورت سمتر. وقال هيوز لبيوس التاسع والكردينال أنتونيلي إنه يخدم الكنيسة وليس مصالح أي أمّة. في الواقع، كان رئيس أساقفة نيويورك عميلاً سرياً لواشنطن تدفع إدارة لينكولن راتبه، وتصل تقاريره إلى وزير خارجية لينكولن، وليام سيوارد.

وعهد سيوارد إلى هيوز بمهمة السفر إلى روما والفوز بتأييد بيوس التاسع لقضية الجنوبيين. فقام رئيس الأساقفة هيوز بزيارة مفاجئة للكرسي الرسولي حيث ادعى أنه علِم بمخططات الاتحاديين عندما كان يعمل لصالح الحلف المقدس، وتتمثل بمهاجمة المكسيك والجزر الكاثوليكية في البحر الكاريبي.

لكن تعاطف البابا بيوس التاسع والكردينال جياكومو أنتونيلي مع الشمال تراجع عندما بدأ الحلف المقدس بالحصول على تقارير مناقضة في أيار/مايو عام 1863. وكان مارتن سبالدينغ، رئيس أساقفة لويزفيل الموالي للانفصاليين، مصدر المعلومات الجديد في ولاية كنتاكي الحدودية. فعلى غرار هيوز الذي كان عميلاً

للينكولن، عُيِّن سبالدينغ من قِبَل جيفرسون ديفيس على نحو سرّي للفوز بتأييد البابا لقضية الكونفدراليين. وكان جودا بنجامين، وزير خارجية الكونفدراليين، مصدر المعلومات الرئيسي.

وفي تقريره للحلف المقدس، أصر رئيس الأساقفة سبالدينغ على أن تحرير العبيد السود مناورة سياسية قام بها الدعاة البروتستانت لإلغاء الرِّق، في حين أن الجنوبيين يمثّلون الكاثوليكية الحقة. وادعى المونسينيور مارتن سبالدينغ أيضاً في تقرير لأنتونيلي أن "الزنوج يميلون بالفطرة إلى حياة إباحية ولم يكونوا مستعدّين لنَيل الحرّية. وعلاوةً على ذلك، قد يؤدي إعتاقهم إلى اضطرابات اجتماعية تُعرّض العمل الرسولي للكنيسة وسط الزنوج للخطر".

لقد أظهرت تقارير جون هيوز ومارتن سبالدينغ التي رفعاها إلى الحلف المقدس أن الأساقفة الكاثوليك لم يكونوا قادرين على تجنّب الاصطفافات السياسية وأنهم يُبدون أحياناً ولاءً أكبر للاتحاديين أو للكونفدراليين منه للبابا والكرسي الرسولي. وكانت المعلومات غير الموثوقة التي تلقاها عملاء جهاز التجسس البابوي في أثناء النزاع دليلاً على أن سياسة روما المتبَعة لإقامة علاقات مع واشنطن، عاصمة الاتحاديين، ومع ريتشموند، عاصمة الكونفدراليين، غير صحيحة. لقد بدأ البابا بيوس التاسع بإظهار تعاطف مع قضية الشماليين في بادئ الأمر، وما لبث أن اتخذ جانب الجنوبيين في ما بعد والعودة مجدداً إلى صفوف الشماليين. ولم يدرك قادة جهاز التجسس التابع للفاتيكان ربما الحاجة إلى تدريب عملاء محترفين، إذا أرادوا أن يكون الحلف المقدس المستقبلي أداة تساعد الباباوات على اتخاذ القرارات الضرورية في شأن الأوضاع السياسية، إلا بعد العام 1865؛ عندما انتهت الحرب بانتصار الشمال على الجنوب.

وكخطوة أولى، أمر الكردينال أنتونيلي كل الأقسام الإدارية في الكنيسة، وبعثاتها، وأبرشياتها، بإعداد تقارير سياسية أسبوعية تتضمن النشاطات السياسية في مناطقهم، وعناوين كتب تستحق الرقابة، وعناوين نشرات دورية

والأفكار السياسية التي تدافع عنها، ولوائح بأنواع التسلية الشعبية، وسِيَر موجَزة عن مسؤولين حكوميين، وتقارير عن أجانب ومسافرين مثيرين للرِيبة، ولا سيما معلومات عن حركات أو مجموعات سياسية هدّامة. وتُرسَل هذه النشرات إلى أمين سر الدولة الذي يقوم بتبويبها مسائل تجسس محلية تعني السياسة الرومانية أم مسائل تجسس أجنبية تعني الحلف المقدس.

وكان المونسينيور تانكريدي بيلا أحد الجواسيس الأكثر اقتداراً في جهاز التجسس الفاتيكاني لجهة جمع المعلومات وتحليلها. وكونه مندوباً بابوياً شاباً في مدينة رييتي الصغيرة الواقعة شمالي روما، لقد أظهر قدراته التجسسية عندما كشف النقاب عن نشاطات مجموعة تطلق على نفسها اسم أمانة وغموض. وقامت هذه المجموعة بعمليات تخريب ضد النمساويين والسلطات البابوية إلى أن تمكنت معلومات بيلا من جعل عملية قمعها أمراً ممكناً.

وفي العام 1859، وعندما كان مندوباً للبابا في أنكونا وعلى وشك المباشرة بمهمته كأحد الوطنيين الإيطاليين، كشف تانكريدي بيلا النقاب عن مؤامرة للإطاحة بالسلطة البابوية في المنطقة بدعم من الملك البييموني؛ كانت معلوماته أكثر أهمية. ففي أواسط نيسان/إبريل 1859، اكتشف بيلا أن عدداً كبيراً من المتطوعين من مختلف أنحاء إيطاليا يتجمعون في بييمون بصفتهم "صيادي الألب" التابعين لجوزبي غاريبالدي للمشاركة في القتال ضد النمساويين. وعلِم أيضاً أن المنفيين المناهضين للبابوية يشكلون تهديداً للمسؤولين السياسيين البابويين وعائلاتهم في رومانيا وداخل الأراضي البابوية، وأن فرنسا تحشد مجموعات من الجنود الأشداء على حدودها مع بييمون.

وبين آذار/مارس وآب/أغسطس من العام 1860، علِم المونسينيور بيلا من أحد عملائه أن غاريبالدي في حالة صحية سيئة، ولكن بطل التوحيد يقود بالرغم من ذلك فرقة من خمسة آلاف رجل متجهين إلى صقليا. وينتمي قسم كبير من هؤلاء الجنود إلى جمعية سرية من الحُماة الذين شاركوا بفعالية مع المطالبين

بالوحدة والاستقلال بتحرير صقليا عام 1860 بقيادة غاريبالدي.

كانت معلومات تانكريدي بيلا عالية الجودة، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى عدم خضوع شبكته لمراقبة الحلف المقدس مما مكّن جواسيسه من التصرف بحرية أكبر. وكونه مندوباً بابوياً، كان المونسينيور بيلا يشرف على ما بين عشرة واثني عشر عميلاً يقوم كل منهم بتجنيد مُخبريه. وأحد هؤلاء مفتش شرطة في بيسارو كان قد خدم في توسكانا والبندقية. وبعد ضم الدوقية الكبرى لتوسكانا إلى مملكة إيطاليا عام 1860، قرر الشرطي الانتقال إلى ميناء بيسارو القائم على بحر الأدرياتيك. وقرر عميل الحلف المقدس كذلك التخلي عن جهاز التجسس البابوي والانضمام إلى شرطة نابولي، عِلماً أنه استمر بتزويد المونسينيور بيلا بالمعلومات طوال سنوات.

وهناك عميل آخر من عملاء بيلا الأكثر فعالية عمل لصالح أودو راسل، وهو دبلوماسي إنكليزي وعميل جهاز المخابرات التابع لبلده بين عامَي 1858 و1870. وبفضل عميل الحلف المقدس الموجود في منزل راسل، بقي أمين سر الدولة على اطّلاع على زوار روما الهامين من أرستوقراطيين ودبلوماسيين وصحافيين ورجال إكليروس ومصرفيين. وأصبح البريد الدبلوماسي مصدراً جيداً للمعلومات بالنسبة إلى جواسيس البابا. وفي العام 1860، احتج السفير الأميركي إلى روما لدى أمين سر الدولة بسبب قيام الجواسيس البابويين بفتح البريد المتنقّل بين سفارتَي الولايات المتحدة في باريس وروما. وبعد عامين، أبلغ السفير وزارة خارجية بلده أن كل البريد المرسل من واشنطن يصل في مغلفات مفتوحة.

من جهة أخرى، لم يتخذ الحلف المقدس أي إجراء عندما اكتشف جهاز المراقبة التلغرافية البابوي رسائل مشفَّرة بين مندوبي بييمون في روما ووزير خارجيتهم، كونت كافور. ولم يبذل جهاز التجسس البابوي أي جهد لحل الشيفرة البييمونية البسيطة، ولو قاموا بذلك لساعدهم الأمر على الكشف عن نوايا مجلس سافوا حيال إيطاليا المستقبلية. وكانت دوقية روما - الأرض

الوحيدة المتبقية للبابا - تلقى حماية جيش نابوليون الثالث حتى اندلاع الحرب الفرنسية-البروسية في 19 تموز/يوليو 1870 عندما اضطُرّ نابوليون الثالث إلى سحب قواته إلى خارج روما.

وعندما غادر آخر جندي فرنسي المدينة البابوية، أعلن الملك فيكتور إيمانويل الثاني عن عزمه الوطيد على احتلال روما "للمحافظة على النظام". فأجاب البابا بيوس التاسع: "أشكر الله الذي سمح لجلالتكم بأن تتوجوا الفترة الأخيرة من حياتي بالمرارة. فضلاً عن ذلك، لا يمكنني الموافقة على المطالب التي تحتويها رسالتكم أو إلزام نفسي بمبادئها. مرة أخرى، أفوّض أمري لله وأوكل قضيتي - وهي قضيته أيضاً - إليه. أصلّي له تعالى ليمنح جلالتكم الرحمة التي تحتاجون إليها".

وفي 20 أيلول/سبتمبر 1870، دخل الجيش البييموني بقيادة الجنرال كاردونا روما عبر بوابة بورتا بيا من دون مواجهة مقاومة كبيرة. وكان احتلال المدينة الأزلية الخطوة الأخيرة في اتجاه توحيد إيطاليا.

حاولت الدولة الإيطالية الجديدة إيجاد حل للوضع الصعب من خلال قانون ضمانات أحادي الجانب تم إقراره في 13 أيار/مايو 1871 ويعترف بالحرمة الذاتية للكرسي الرسولي. فرفض بيوس التاسع القانون الذي يعني ضمناً اعترافه باحتلال روما والقليل المتبقي من الدويلات البابوية. ورداً على الرفض البابوي، اتخذ فيكتور إيمانويل الثاني قصر كويرينال، المقر التقليدي لأحبار الكنيسة الكاثوليكية، مقراً له. "نحن في روما"، أعلن، "وهنا سنبقى".

فاستهل البابا بدَوره سياسة ليس بمقدورنا في ما يتعلق بدويلاته المفقودة، معتبراً نفسه سجين مجلس سافوا في الفاتيكان. وفي 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1876، توفّي الكردينال جياكومو أنتونيلي، مساعده المقتدر والموثوق به، عن عمر سبعين عاماً. لقد شغل منصب أمانة سر الدولة طيلة سبعة وعشرين عاماً ورَئِسَ الحلف المقدس لمدة عشرين عاماً.

وفي العام 1877، وعندما بلغ بيوس التاسع سن الستة والثمانين، بدأت حالته الصحية بالتدهور. فشرعت الحكومة الإيطالية بالتخطيط لمأتم بابوي، ولكن هذا الأمر جاء قبل أوانه لأن مظاهر تكريم قداسته تحل في المقام الأول. وشاء القدر أن يموت الملك فيكتور إيمانويل الثاني، ألدّ أعداء البابا، في 9 كانون الثاني/ يناير 1878 قبل وفاة بيوس التاسع بأربعة أسابيع. وفي أوائل شباط/فبراير، كان الحَبر الأعظم لا يزال يمارس بعض نشاطاته، ولكن زكاماً مرفَقاً بحمى عالية أنهت حياته بعد ظهر يوم 7 شباط/فبراير. لقد دامت ولايته الحَبرية واحداً وثلاثين عاماً وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً.

بوفاة بيوس التاسع وفقدان الأراضي البابوية، انتهت حقبة كاملة من التاريخ البابوي. وكان على الباباوات وعملاء الحلف المقدس التالين أن يمروا بأوقات مأساوية. لقد عدا فارس الحرب في سماء أوروبا مُمطراً دماً ودماراً فوق الأرض.

الفصل العاشر

تحالف 1878-1914

كان الكردينال يواكيم بيكي أحد أقسى منتقدي الكردينال جياكومو أنتونيلي مما تسبب ببقائه بعيداً عن روما لحوالى ثلاثين عاماً. ولكن بعد فترة قصيرة من وفاة أنتونيلي، استدعاه البابا بيوس التاسع وعيّنه أميناً للخزانة. لقد أراد البابا من بيكي الاهتمام بإدارة الكنيسة إلى أن يتم انتخاب حَبر أعظم جديد.

انعقد مجمع الكرادلة عام 1878 للمرة الأولى بعد إعلان العصمة البابوية عن الخطأ عام 1870 وفقدان الدويلات البابوية. وحدث ذلك إبّان انبثاق ألمانيا كقوة أوروبية كبرى مكان فرنسا، وتخلي اليابان عن تقاليدها التي تعود لألف عام بهدف الانضمام إلى العالم الجديد، وقيام الولايات المتحدة بخطوات عملاقة لتغدو القوة العظمى في العالم، وإطلاق أوروبا موجة جديدة من الاستعمار في أفريقيا وآسيا. وهكذا، كان النظامُ البابوي الجديد المنبثق عن مداولات مجمع الكرادلة الأولَ في العالم الحديث. وبالرغم من فقدانهم النفوذ والأرض، شعر الكرادلة بتحررهم من الضغوط الخارجية للمرة الأولى منذ عدة قرون.

والمجمع الذي بدأ أعماله في صباح 18 شباط/فبراير كان أيضاً أحد أقصر المجامع في التاريخ. فبعد ثلاثة اقتراعات فقط، حصل الكردينال يواكيم بيكي على أكثر من ثلثَي الأصوات المطلوبة لانتخابه حَبراً أعظم جديداً.

لقد تميّزت الأعوام الأولى لإدارة البابا لاون الثالث عشر بعدم الاستقرار والرِيبة. ولم يتولَّ أحد قيادة جهاز التجسس البابوي الذي ترك العديد من عملائه من دون أوامر محددة لا يعرفون لمن يُفترض بهم رفع تقاريرهم. وكان الأمر مماثلاً على الصعيد السياسي.

فقد كان السلك الدبلوماسي البابوي بحاجة إلى النهوض من تحت الرماد. وكانت هناك مواجهة مستمرة بين لاون الثالث عشر والملك أومبرتو من سافوا، وتعرّض الكرسي الرسولي لهجمات واستفزازات متواصلة من قِبل مملكة إيطاليا.

وحدث أحد هذه الاستفزازات الأكثر خطورة في 13 تموز/يوليو 1881 عندما حاول الفاتيكان نقل رفاة البابا بيوس التاسع إلى كاتدرائية سان لورنزو فيوري لي مورا.

وقبل يومين من الموعد المحدد، عَلِم متسللو الحلف المقدس إلى صفوف المجموعات الثورية التي تنمو في الشوارع الرومانية أن العديد من هذه المجموعات تخطط للاستيلاء على رفاة الحَبر الأعظم الراحل ورميها في التيبر. فاستُنفر الحرس السويسري في حين تم إبلاغ الشرطة الرومانية. وعندما مرّت جثة البابا والمرافقين عبر أحد الشوارع الضيقة، هاجم عملاء ثوريون الموكب بالحجارة وأدوات ثقيلة أخرى في محاولة للاستيلاء على الجثة.

فقررت الشرطة الإيطالية المرافِقة غضّ الطَرف، في حين اصطحب الحرس السويسري الجثة إلى نُزل قريب من المكان للاحتماء فيه. وبعد ساعات، بلغ النعش الذي يحمل رفاة الحَبر الأعظم قبو سان لورنزو.

لقد أقنعت هذه الهجمات التي تعرّض لها الكرسي الرسولي لاون الثالث عشر بدرس إمكانية نقل المقر الرئيسي للكنيسة إلى الأراضي النمساوية مع الإمبراطور النمساوي فرانز جوزيف. ولكن فرانز جوزيف لم يشأ حدوث مواجهة مفتوحة مع إيطاليا الحديثة بسبب البابا، وهو أمر لا يتصف بالأهمية بالنسبة إليه. وأدى رفض النمسا إلى قيام البابا لاون الثالث عشر باتخاذ قرار بالنضال في سبيل حقوق الكنيسة والكرسي الرسولي في روما، فلاحت في الأفق البعيد ملامح معركة أخرى.

وبسبب ارتياب المستشار أوتو فون بيسمارك من اتحاد الأوساط الكاثوليكية القوية في حزب وسط، صادق على سلسلة من القوانين الجديدة بين عامَي 1 و1878 لهدف وحيد ألا وهو مضايقة واضطهاد الأوساط الكاثوليكية المعارضة لسياسات بيسمارك.

وأدى الصراع الثقافي الذي خاضه بيسمارك إلى طرد كل المؤسسات الدينية من

بروسيا، ومصادقة الحكومة على كل تعيينات المسؤولين الكنسيين رفيعي المقام، وإقفال كل المعاهد اللاهوتية، وطرد كل الأساقفة. وفجأةً، وجد لاون الثالث عشر أن اثني عشر أسقفاً من أصل ستة عشر انتقلوا إلى الكرسي الرسولي. وكانت الاحتجاجات المتواصلة الصادرة عن الأوساط الكاثوليكية المؤيدة لبيسمارك ولعمل أمناء سر الدولة في الفاتيكان كفيلة بالباقي.

ففي العام 1890، قرر القيصر ويلهلم الثاني صرف بيسمارك من الخدمة مما أدى إلى عصر ذهبي جديد للتوجه الوسط.

وأحاط لاون الثالث عشر نفسه بأشخاص فاعلين لتوجيه الدبلوماسية الفاتيكانية، ومنهم الكرادلة أليساندرو فرانشي، ولورنزو نينا، ولودوفيكو جاكوبيني، ولكن أحداً منهم لم يشعر بالحاجة إلى جهاز تجسس كالحلف المقدس لدعم سياسات الفاتيكان في الخارج. واعتبر فرانشي ونينا وجاكوبيني أن تدخّل الحلف المقدس في مسائل يمكن تسويتها من خلال الدبلوماسية أو السياسة هو بمثابة عرقلة ولا يساعد بشيء؛ لقد كانوا مخطئين من دون شك. وبشَغل الكردينال ماريانو رامبولا منصب أمانة سر الدولة بعد وفاة الكردينال لودوفيكو جاكوبيني، أُعيد بعض التألّق إلى جهاز التجسس البابوي.

لقد جرت محاولة وحيدة عام 1898 لإحياء أجهزة المخابرات الفاتيكانية المحتضرة، وهو العام الذي شهد اندلاع الحرب بين إسبانيا والولايات المتحدة. وكان بإمكان الحلف المقدس توقّع نشوب الحرب في ربيع ذلك العام.

كانت العلاقات الإسبانية-الأميركية قد تدهورت بسبب ما جرى في جزيرة كوبا في البحر الكاريبي، وأدى القمع الإسباني في كوبا إلى موجة من ردود الفعل السلبية لدى الشعب الأميركي. وفي شباط/فبراير 1898، تسبّب حدثان بازدياد العلاقات المتوترة سوءاً.

لقد تمكن جواسيس أميركيون من اعتراض رسالة موجَّهة من السفير الإسباني في واشنطن، إنريكه دوبوي دي لومي، إلى أحد أصدقائه في كوبا. وفي الرسالة، انتقد

بصراحة النوايا التوسعية للولايات المتحدة، وسخر من الرئيس ماكنلي. فتوجّب على الدبلوماسي تقديم اعتذار، ولكن الصحافة المثيرة للعواطف بقيادة وليام راندولف هيرست أثارت الاعتداد الأميركي بالنفس الجريح. وتورط البارجة مين هو الحدث الثاني الذي أدى إلى مأساة.

ففي 5 شباط/فبراير، وفي أثناء زيارة لها إلى ميناء هافانا، انفجرت السفينة الحربية مصادَفةً وغرقت، وفقد مئتان وستة وستون رجلاً حياتهم. فاتهم الكونغرس الأميركي، والصحافة، والرأي العام، الإسبان بالقيام بعمل تخريبي، وسعت الولايات المتحدة أكثر من أي وقت مضى إلى إخراج الإسبان من كوبا.

كان البابا لاون الثالث عشر وأمين سر الدولة، الكردينال ماريانو رامبولا، لا يزالان ينفيان الحاجة إلى جهاز تجسس فعال، مفضّلَين الدبلومسية كوسيلة لتجنّب الحروب. وكان الحَبر الأعظم ورامبولا قد نجحا في التوسط لإنهاء نزاع ألماني-إسباني حول عدد من الجزر في المحيط الهادئ، وهكذا وجدا أنه بالإمكان استخدام الأسلوب نفسه مع واشنطن ومدريد في ما يتعلق بمسألة كوبا. ولكن الفاتيكان كان يفتقر إلى علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة.

فطلب الأب الأقدس من حلفه المقدس الاتصال بجون إيرلند، رئيس أساقفة سانت بول في مينيسوتا. وكان يُفترض بالمندوب البابوي أن يقوم بمحاولة للتوسط في واشنطن، في حين يحاول إيرلند الاتصال بالرئيس ماكنلي عبر قنوات أخرى. ولكن خبرة رئيس الأساقفة إيرلند كشفت عن بعض الصعوبات غير المتوقعة لدى استخدام عملاء محليين. فجون إيرلند لم يكن عميلاً للحلف المقدس يتصرف بحياد في أثناء الأزمات، ولو اطّلع البابا لاون الثالث عشر ورامبولا على تقارير الحلف المقدس في شأن رئيس الأساقفة المثير للجدل، لاستبقا الأمور.

كان الكاهن يحتفظ بعلاقات وثيقة مع الحزب الجمهوري أكثر منها مع مركز السلطة في واشنطن. فقبل سنوات، كان على صلة وثيقة بحملة ماكنلي

الانتخابية للعام 1896 لدرجة أنه أربك قطاعات واسعة من الرأي العام الكاثوليكي في البلد. وشدد تقرير جهاز التجسس البابوي على واقع أن رئيس الأساقفة جون إيرلند كان يحث أبناء الأبرشية الذين يشاركون في قداديسه على الاقتراع لصالح الحزب الجمهوري.

من جهته، اعتقد رئيس الأساقفة أن هذا التفويض الخاص الذي أوكله إليه البابا سيؤدي حتماً إلى ترفيعه إلى منصب الكردينالية، فاستعان لهذه الغاية بشخصيات سياسية محلية هامة. لقد كان قومياً مؤيداً للديمقراطية السياسية، والتساهل الديني، والنمو الاقتصادي، ولكنه يثق أيضاً بأنه من المقدَّر للولايات المتحدة أن تغدو قائدة العالم، متفوّقةً على القوى التقليدية كإسبانيا والفاتيكان.

ويصعب تحديد صلات جون إيرلند بإدارة ماكنلي أو كيفية تأثير قوميته في التقارير التي أرسلها إلى الحلف المقدس في روما، ولكن من الواضح أن ولاءاته كانت موزَّعة بين شغفه القومي لرئيس الولايات المتحدة وطاعته للحَبر الأعظم. وكان المحللون في جهاز التجسس الفاتيكاني قد أبلغوا البابا بأن جون إيرلند يرغب في مساعدته لإحلال السلام في كوبا، ولكنه لا يريد حمل إدارة ماكنلي أو البروتستانت الأميركيين على الشعور بأن رئيس أساقفة أو مجموعة من المواطنين الكاثوليك هم غير محبّين لوطنهم أو موالين للإسبان.

مما لا شك فيه أن إيرلند عمل لتحقيق السلام كما طلب منه البابا. ولكن من الواضح بالدرجة عينها أنه حث الفاتيكان أيضاً على ممارسة ضغوط على مدريد، وليس على إدارة ماكنلي، للتوصل إلى هدنة فورية في كوبا كخطوة أولى لإيجاد حل للأزمة. وواصل عملاء الحلف المقدس إطلاع أمين سر الدولة رامبولا على نوايا جون إيرلند. ووفقاً لجهاز المخابرات الفاتيكاني، أراد رئيس الأساقفة الفوز بحظوة عند الجانبين وليس إعلان تأييده لفريق دون الآخر.

تمثلت الخطوة التالية لإيرلند بتوجيه رسالة مشفَّرة لرامبولا والبابا لاون الثالث عشر يعرض فيها للنقاط التي يعتبرها خطوات أولى بالغة الأهمية في

اتجاه السلام: إعلان مدريد وقف فوري لإطلاق النار في مختلف أنحاء كوبا؛ إجراء مفاوضات إسبانية-كوبية لنزع سلاح الثوار بسرعة؛ والموافقة على أن يلعب الرئيس الأميركي دور المحكِّم في إطار البحث عن تسوية من خلال المفاوضات. وتمنح هذه المقترحات واشنطن الحق بفرض حل على إسبانيا يتطلب سلسلة من التنازلات لبلوغه. وأبلغ عملاء الحلف المقدس في العاصمة الأميركية روما أن وزارة الخارجية هي التي وضعت المقترحات وليس الكاهن. وحذّر العملاء من أن إسبانيا ستفقد كوبا إذا وافق البابا أو مدريد على المقترحات.

غير أن الفاتيكان لم يحلل سوى المعلومات التي أرسلها إيرلند غاضّاً الطرف عن تلك التي أرسلها عملاء الحلف المقدس أو المندوب البابوي في واشنطن. فرامبولا وأعضاء أمانة سره لم يقرأوا سوى التقارير الواردة من رئيس أساقفة سانت بول، معتمدين ادعاء إيرلند بأن الرئيس ماكنلي "يريد قَطعاً العثور على حل سلمي للنزاع" وأن لا شيء باستطاعته التخفيف من حمّى الحرب التي يرغب الكونغرس والرأي العام في خوضها سوى موافقة إسبانيا على رغبته. في الواقع، أرادت الولايات المتحدة السيطرة على كوبا - بسبب موقعها الاستراتيجي على حدود خليج المكسيك، إضافةً إلى أسباب أخرى - كما كان ماكنلي راغباً في شراء الجزيرة أو القتال في سبيل الحصول عليها.

وفي حين كان الفاتيكان المضلَّل بتقرير إيرلند يسعى إلى إيجاد حل في مدريد، طلب الرئيس ماكنلي في 11 نيسان/إبريل 1898 من الكونغرس منحه سلطات خاصة لإعلان الحرب على إسبانيا. في ذلك اليوم عينه، اقترع الكونغرس لصالح تمتع كوبا بالحرية والاستقلال وتفويض الرئيس باستخدام الوسائل المتوافرة له كافة لحمل إسبانيا على التخلي عن سيادتها على الجزيرة إذا رفضت ذلك. وفي 2 نيسان/إبريل، قطعت مدريد وواشنطن العلاقات. وفي الخامس والعشرين من الشهر نفسه، أعلنت الولايات المتحدة الحرب على إسبانيا، وكانت الخطوة

الأولى فرض حصار بحري على كوبا. ويسرد التاريخ ما تلى ذلك من أحداث.

فلحقت الهزيمة بالأسطول الكوبي التابع لإسبانيا ودُمّر في سانتياغو، ومن ثمّ دُمّر أسطولها في الفيليبين في كافيت، واستسلمت القوات الإسبانية في أورينتي، وتعرضت بورتوريكو للاجتياح، وحوصِرت مانيلا. ويقيناً منها باستحالة مواجهة القوة البحرية للولايات المتحدة، بدأت حكومة براكسيدس ماتيو ساغستا بمفاوضات السلام.

ونتيجةً للمعلومات المضلِّلة التي وفّرها رئيس الأساقفة جون إيرلند وتمثُّل البابا وأمين سر دولة الفاتيكان به برفض دعم إسبانيا بأي طريقة كانت، قرر الرئيس الأميركي تيودور روزفلت القيام بالخطوات الأولى لإقامة علاقات دبلوماسية مع الكرسي الرسولي.

وكشف أحد عملاء الحلف المقدس، المونسينيور دوناتو سباريتي، النقاب عن مكائد رئيس الأساقفة إيرلند. فسباريتي جاسوس بابوي خبير في شؤون أميركا الشمالية، وتطلبه الأمر أياماً قليلة لاكتشاف كيفية استفادة إيرلند من ثقة لاون الثالث عشر به ليضمن لنفسه مستقبلاً لامعاً في الميدان الدبلوماسي في الفاتيكان. وكشف سباريتي أيضاً أن جون إيرلند كان يُطلع أجهزة المخابرات الأميركية مسبَقاً على محتوى الرسائل التي يعتزم إرسالها إلى الحبر الأعظم والكردينال رامبولا.

إضافةً إلى ذلك، حذّر المونسينيور دوناتو سباريتي روما من الخطر المُحدِق بالمؤسسات الدينية الكاثوليكية العاملة في الفيليبين. ورفع تقريراً يفيد بأن العديد من المسؤولين الأميركيين الذين يشغلون مناصب رفيعة ويُعنون بشؤون الفيليبين، ولا سيما وزارة الحرب برئاسة الوزير إليهو روت، تحاملوا على هذه الرهبنات واقترحوا اتخاذ خطوة راديكالية وطرد كل الأخوة من الأرخبيل. وفي تعليق أخير، كتب سباريتي: "لا أعتقد حقاً أن الأميركيين الشماليين يملكون أي مصلحة في إقامة علاقات دبلوماسية مع الكرسي الرسولي، كما يدّعي رئيس

أساقفة سان بول المونسينيور جون إيرلند".

وتجاهل الفاتيكان تحذيرات سباريتي من جون إيرلند، وطلب البابا لاون الثالث عشر وضع تقرير صُنّف بأنه "سرّي للغاية". وعندما قدِم وليام هوارد تافت إلى روما، وهو حاكم مدني للفيليبين، في 1 حزيران/يونيو 1902 على رأس وفد صغير في زيارة رسمية، استُقبل أمام القصر البابوي كما يُستقبل السفراء.

وبطلب من رامبولا ولاون الثالث عشر شخصياً، بذل الحلف المقدس قصارى جهده لتقوم الصحافة بتغطية زيارة وفد تافت، وقد اعتُبر إشارة واضحة إلى أن الولايات المتحدة تفكر ملياً في إقامة علاقات دبلوماسية مع الفاتيكان. في الواقع، استمر رامبولا والحَبر الأعظم في الثقة بتحليلات إيرلند المتحيّزة وليس بتحليلات المونسينيور دوناتو سباريتي.

ولم يتأخر رد الفعل الأميركي. لقد اكتشف وليام هوارد تافت الشائعة التي ينشرها عملاء جهاز التجسس البابوي ومفادها أن زيارته هي مبادرة دبلوماسية رسمية من جانب الرئيس روزفلت. فلم يرُقه الأمر، وصرّح رداً على ذلك قائلاً: "نحن في روما للتفاوض فقط حول شراء بعض الأراضي". وبعد عدة أسابيع، تعطلت المفاوضات وطلبت واشنطن من تافت العودة إلى الفيليبين.

في أوائل حزيران/يونيو 1903، أُصيب البابا لاون الثالث عشر بالتهاب في الرئتين بينما كان مجتمعاً بأمين سر الدولة رامبولا. وفي السابع منه، اكتشف أطباؤه أن رئتَيه مليئتان بسائل. واستمرت حالته في التدهور حتى وفاته في 20 تموز/يوليو محاطاً بأتباعه الأكثر ولاءً. وبانتهاء ولايته الحَبرية، انتهت سياسة منع نشاطات جهاز التجسس. فطيلة اثنين وعشرين عاماً، لم يقم الحلف المقدس بأي نشاط بالرغم من تأثر العالم بسلسلة من الاغتيالات كان بإمكانها أن تطال البابا نفسه.

لقد اغتيل رئيس الجمهورية الفرنسية ماري فرانسوا سادي كارنو عام 1894. ولقي رئيس الوزراء الإسباني أنطونيو كانوفا ديل كاستيو المصير نفسه عام 1898،

إضافةً إلى زوجة الإمبراطور النمساوي فرانز جوزيف، إليزابيت ويتلسباخ أو سيسي، عام 1898، وأمبرتو ملك إيطاليا عام 1900، والرئيس الأميركي وليام ماكنلي عام 1901.

وفي 31 تموز/يوليو 1903، بدأ مجمع الكرادلة مداولاته بعد دعوته للانعقاد لانتخاب خلف للاون الثالث عشر. وكان الكردينال ماريانو رامبولا، أمين سر دولة الفاتيكان على عهد البابا الراحل، المرشح الأوفر حظاً ولكن الكردينال يان بوزينا من كراكو عارض ترشيحه باسم الإمبراطور النمساوي. كان فرانز جوزيف يرى في الكردينال رامبولا عدوّاً للحلف الثلاثي (ألمانيا، النمسا، إيطاليا) بسبب سياسته التي تمثلت بتحسين العلاقات مع فرنسا وروسيا. وفي 4 آب/أغسطس، انتُخب الكردينال جوزبي ملكيور سرتو حَبراً أعظم من قِبَل خمسين كردينالاً من أصل اثنين وستين يشكلون مجمع الكرادلة، واختار سرتو اسم بيوس العاشر. وفي السنوات الأولى من القرن العشرين، بدأ الحلف المقدس حقبته التاريخية الأكثر إثماراً، عِلماً أنها لم تكن مجيدة بصفة خاصة.

في هذا القرن الجديد، شرع الإيطاليون دون غيرهم بتجنيد عملاء سريين داخل الفاتيكان. لذلك، وعندما باتت علاقات الدولة بالكنيسة موضوع نزاع، كان على العديد من الحكومات جمع معلومات عن الخطط والسياسات البابوية من خلال الجواسيس.

وكانت العلاقات الفرنسية-الفاتيكانية قد توترت مجدداً منذ نشوء مَيل كبير معادٍ إلى الإكليروس عام 1880 بدعم من رجلَي السياسة جول فيري وإميل كومب اللذين كانا مقتنعَين بأن البابا يسعى إلى الإطاحة بالجمهورية الثالثة وإعادة الملكية. وازدادت حدة النزاع مع احتلال الجيش أديرة الرهبان والراهبات وطرد المقيمين والمقيمات فيها. وفي العام 1904، انقطعت العلاقات رسمياً بين باريس والفاتيكان، وأعلنت فرنسا "قانون الفصل" بين الكنيسة والدولة.

وفي زمن العلاقات الأكثر برودة، عادت أجهزة التجسس المضاد الفرنسية إلى مراقبة القاصد الرسولي البابوي واعتراض رسائل مشفَّرة بين الفاتيكان وسفيره. وتحدّث أحد التقارير الذي حلّ جواسيس فرنسيون رموزه عام 1904 عن وقوع حادثة في جادة غبريال في الجهة المقابلة لمقر إقامة الرئيس الفرنسي في قصر الإليزيه. لقد اصطدمت العربة التي تُقلّ القاصد الرسولي، المونسينيور بنديتو أوديسكالكي، براكب دراجة من دون أن يؤدّي الحادث إلى نتائج وخيمة. ولم تكن الرسائل ذات أهمية كبيرة بسبب احتوائها على أخبار ثانوية. وقد تكون البرقيات المتبادَلة بين أمانة سر الدولة البابوية والقاصديات الرسولية أكثر أهمية من وجهة نظر أجهزة التجسس. ولكن المتخصصين الفرنسيين في كتابة الشيفرة الذين نجحوا في حل رموز إسبانية وإيطالية وتركية كانوا عاجزين عن حل الرموز التي ابتكرها قسم الكتابة المشفَّرة التابع للحلف المقدس. كان جهاز المخابرات الفرنسي يعتمد على الصُدَف في أثناء مراقبة الفاتيكان أكثر من اعتماده على العمليات المنظَّمة الفعالة. ومن جهة ثانية، قام الحلف المقدس بعملية ضد وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية عام 1913.

كان المونسينيور كارلو مونتانيني، جاسوس الفاتيكان في باريس، يعلم أن رئيس جهاز التجسس الفرنسي ستيفن بيشون يعارض بشكل حاسم إعادة العلاقات مع البابا. لذلك، قام بتنظيم عملية لعزل بيشون. فأمر بوضع رسالة ملفَّقة موجَّهة من السفير الإيطالي في فرنسا إلى وزير خارجيته في روما توضّح كيفية تمكن أجهزة المخابرات الإيطالية من اكتشاف وجود الكردينال فانوتيلي في باريس.

وشرحت رسالة الحلف المقدس المزيَّفة أن فانوتيلي قدِم إلى فرنسا للاجتماع بالرئيس ريمون بوانكاريه ووزير خارجيته ستيفن بيشون، وهي المرحلة الأولى لمحادثات سرية يُجريها الفاتيكان لإعادة العلاقات المقطوعة منذ العام 1904.

وكما كان متوقَّعاً، نجح جهاز السلامة الفرنسي من حل رموز البرقية المزيَّفة.

ولدى إبلاغ وزير الداخلية لويس-لوسيان كلوتز بهذا الاكتشاف، قدّم احتجاجاً لدى الرئيس بسبب عدم إطلاعه على الأمر، وذهب بعيداً بالتهديد بتقديم استقالته. فادعى بوانكاريه عدم معرفته بأي شيء، وكان مُحِقاً بذلك. ونتيجة لهذه الأزمة، اضطُرّ ستيفن بيشون إلى الاستقالة، ومنع كلوتز جهاز المخابرات من حل رموز المراسلات الدبلوماسية. لقد نجح الحلف المقدس في وضع بيشون المثير للمتاعب جانباً.

وكشف الفرنسيون النقاب عن عملية أخرى للحلف المقدس أعدّها المونسينيور مونتانيني الذي كان سكرتير القاصد الرسولي، لورنزيلي. فعندما غادر هذا الأخير باريس بعد قطع العلاقات، حلّ سكرتيره مكانه بصفته "ملحقاً للشؤون الخارجية وقيّماً على أرشيف القاصد الرسولي". في الحقيقة، كان المونسنيور مونتانيني جاسوساً للحلف المقدس وعينَي وأُذنَي الفاتيكان غير الرسمية في فرنسا.

من جهة ثانية، كان خلف بنيديتو لورنزيلي مستهتراً وطائشاً، أو بالأحرى مولَعاً بجمع معلومات في المناسبات الاجتماعية. ووصف أمين سر الدولة الجديد في الفاتيكان، الكردينال الإسباني رافاييل ميري ديل فال، مونتانيني بأنه "مستهتر، سطحي التفكير، ولا يتمتع بأداء بارع".

واقتنعت أجهزة التجسس الفرنسية بأن مونتانيني يقوم بتنظيم حركات مقاومَة سرية في مواجهة القوانين المعادية للإكليروس وبالتآمر مع سياسيين محافظين للإطاحة بالجمهورية، وذلك بالرغم من عدم امتلاكهم أدلة دامغة.

وبعد ظهر أحد الأيام في كانون الأول/ديسمبر، قرر جهاز التجسس الفرنسي والشرطة الفرنسية اقتحام السفارة البابوية في باريس ومصادرة كل الوثائق التي استطاعوا العثور عليها في الداخل. وأظهرت بعض وثائق الفاتيكان بالفعل حدوث اتصالات بين سياسيين فرنسيين وجهاز المخابرات الفاتيكاني، ولكن معظم الأوراق الواعدة كانت قد اختفت. ومع ذلك، أجرى الفرنسيون نسخات عن

الرسائل المشفَّرة المرسَلة من قِبل المونسينيور كارلو مونتانيني إلى الحلف المقدس.

وذكرت إحدى هذه الرسائل التي لم يتمكن مونتانيني من إبقائها بعيداً عن متناول الفرنسيين إمكانية دفع مبالغ ضخمة من المال لزعيم حزب العمل الليبرالي جاك بيو، ولآخرين من خلاله، لقاء إحباط مشروع قانون معادٍ للإكليروس يجري التباحث في شأنه في البرلمان. وأشار بيو إلى أن جورج كليمونصو، وهو السياسي الذي قاد فرنسا إلى النصر في الحرب العالمية الأولى، قد يكون عُرضة للرشوة.

وفي أواخر القرن التاسع عشر، شهدت عدة حكومات تراجعاً كبيراً في نشاطات أجهزة المخابرات لديها، ولكن هذا التدهور كان أكثر حدة في حالة الفاتيكان في أثناء ولاية لاون الثالث عشر الحَبرية. لقد تلاشت قدرات الحلف المقدس مع الدويلات البابوية وسلطات البابا الزمنية، وأصبحت الوسيلة المُعَدّة لحماية تلك السلطات والمحافظة عليها أمراً غير ضروري. وفي مطلع القرن العشرين، أصبحت شبكات التجسس التابعة للمندوبين البابويين من الماضي. وفي تلك السنوات، ارتدى العديد من عملاء الحلف المقدس المتمرّسين بزّات الحرس البابوي البرّاقة، أو جهاز أمن الكرسي الرسولي، أو حرس القصور أو الدوائر البابوية. وتُرك أمر التجسس للقاصدين الرسوليين مما أدخل تغييرات هامة على فلسفة الدبلوماسية البابوية المتعلقة بجمع المعلومات الاستراتيجية.

لدى وفاة بيوس التاسع عام 1878، كان الفاتيكان يحتفظ بعلاقات دبلوماسية كاملة مع خمسة عشر بلداً، سبعة منها في أوروبا، ذات غالبية كاثوليكية أو تضم جاليات كاثوليكية هامة على صعيد العدد والنفوذ السياسي. وكان السفير البابوي إلى الأرجنتين معتمَداً بابوياً أيضاً في الباراغواي والأوروغواي، كما كان السفير البابوي إلى بوليفيا معتمَداً بابوياً في التشيلي والإكوادور. أما المشكلة القائمة فكانت مع المناطق التي يوجد فيها قاصدون رسوليون بابويون، وبالتالي،

كان يتوجّب تغطيتها من خلال عملاء متمرّسين للحلف المقدس؛ مثل لندن وبرلين وسانت بطرسبورغ.

وكانت السلطات البابوية على عهد لاون الثالث عشر، والتي ألحقت الضرر بمنظمة التجسس البابوي أكثر مما ألحقته السلطات على عهد باباوات آخرين على مدى ثلاثة قرون منذ تأسيسها، تفضّل إرسال "مندوبين رسوليين" بدلاً من الجواسيس إلى بلدان لا يُقيم معها الكرسي الرسولي علاقات دبلوماسية. وكان المندوبون الرسوليون يجمعون معلومات دينية أفضل للحلف المقدس، في حين كان القاصدون الرسوليون يزوّدون الحلف بتحليلات سياسية أفضل.

في تلك السنوات، وبعد قيام البابا بيوس التاسع بإدانة الأفكار العصرية بشدة من خلال تعاميمه البابوية، تنافس التقدميون والتقليديون على السلطة داخل الكنيسة الكاثوليكية. فاختار البابا بيوس العاشر، المدافع عن أفكار بيوس التاسع، الكردينال الإسباني رافاييل ميري ديل فال أمين سر للدولة. وفي تلك اللحظة التاريخية عندما كانت القوى الوسطى ودول الوفاق على وشك الذهاب إلى الحرب، أبدى ميري ديل فال أولوية ملحوظة للملكيّتين الألمانية والنمساوية.

ومن معاوني أمين سر الدولة الأكثر تقرّباً منه كاهن أومبرياني يدعى أومبرتو بينيني أصبح مع الوقت أحد أفضل الجواسيس البابويين ومؤسس منظمة التجسس المضاد الفاتيكاني. كان بينيني يملك سيرة ذاتية ممتازة في التمسك بالتقاليد القويمة، وقدِم من بيروجيا إلى روما عام 1895 مع خبرة متواضعة في ميدان الصحافة والمناظرة بحثاً عن فرصة مناسبة. فعرض عليه كاهن يعمل في مكتبة الفاتيكان وظيفة جديرة بطموحه وقدرته.

وفي العام 1901، فاز بينيني بمنصب أستاذ تاريخ في المعهد اللاهوتي الروماني ذي المكانة الرفيعة، وهو عبارة عن مؤسسة نخبوية يرتادها كل الطامحين إلى مِهن في الإدارة البابوية. وفي الوقت نفسه، بدأ يكتب مقالات تعبّر عن رأيه في صحيفة صوت الحقيقة المحافظة إلى حدٍّ بعيد.

ولفتت مقالاته السياسية ووجهة نظره الاجتماعية والدينية الرَجعية أنظار أنصار التكامل في بلاط البابا بيوس العاشر. كان أنصار التكامل يدافعون عن سلطات البابا الزمنية ويعارضون أي إصلاح سياسي ولاهوتي. وسرعان ما أصبح بينيني البارع أحد المفضَّلين لدى أمين سر الدولة المقتدر، الكردينال رافاييل ميري ديل فال، وغايتانو دي لاي، مدير المجمع الكنسي المؤثِّر، وهي الدائرة الفاتيكانية الموكّلة مهمة اختيار الأساقفة.

عُيِّن بينيني مدقِّقاً في مجمع نشر الإيمان، وهو القسم المسؤول عن النشاطات التبشيرية. وكونه أستاذاً، علّم أيضاً الكهنة الذين يرسَلون في مهام إلى الخارج. وسرعان ما غدا الكاهن الأومبرياني المغمور شخصاً شهيراً بكل معنى الكلمة في الأوساط الفكرية المحافظة في روما التي كانت تشكل ما دُعي الطبقة النبيلة السوداء المحيطة بكرسيّ القديس بطرس.

وفي العام 1906، عُيّن أومبرتو بينيني في قلب البيروقراطية الفاتيكانية أمينَ سر دولة ثانياً للشؤون غير العادية. وبالرغم من افتقاره إلى أي خبرة في المسائل الدبلوماسية، شرع بينيني بإقامة صِلات مهّدت له الارتقاء إلى مناصب عليا في الإدارة البابوية. وكان لأمين سر الدولة، ميري ديل فال، سكرتيران ينتميان إليه مباشَرةً: أمين سر الدولة للشؤون غير العادية الذي يُعنى بالعلاقات مع الدول الأجنبية، وأمين سر دولة بديل للشؤون العادية الذي يُعنى بالمهام الإدارية للفاتيكان. وتمثلت مهمة بينيني بمساعدة المونسينيور بييترو غاسباري الذي انتقل من منصب مدير المعهد اللاهوتي الفاتيكاني إلى منصب أمين سر الدولة للشؤون غير العادية. وهكذا التقى بينيني المونسينيور غاسباري الذي اعتبره أكثر فعالية من سواه.

عندما بات منصب القاصد الرسولي في كوبا شاغراً، عرض غاسباري المنصب على أومبرتو بينيني، ولكن أنظار الكاهن كانت موجَّهة إلى منصب أعلى في أمانة سر الدولة. كان قد حُرم مؤخراً من إدارة مجمع نشر الإيمان.

في تلك السنوات، كان منصب أمين سر الدولة للشؤون غير العادية بالغ الأهمية. فعُهد إلى بييترو غاسباري مسؤولية مراجعة ونشر قواعد جديدة للقانون الكنسي، وهي مهمة تستحوذ انتباه المرء كله.

وبانشغال غاسباري جداً، أصبح بينيني المعاون الرئيسي للكردينال رافاييل ميري ديل فال. فالكاهن المغمور والصحافي الذي قدِم إلى روما سعياً وراء فرصة بات يتنقّل في أروقة السلطة. ونقل أمين سر الدولة الثاني مكتبه إلى القصر الرسولي ليكون أقرب إلى أمانة سر الدولة، وعلى بُعد أربعة أبواب من مكتب الحَبر الأعظم.

في العام 1909، وتنفيذاً لأوامر الكردينال ميري ديل فال، أنشأ المونسينيور أومبرتو بينيني شبكة تجسس مخصصة لتحديد هوية كل أولئك الموجودين داخل الفاتيكان أو المؤسسات الكنسية والذين يبشّرون بالحداثة. وبعد فترة قصيرة، بدأ عملاء بينيني يبلّغون عن رجال دين يعملون في جامعات، ووسائل نقل المعلومات، ومؤسسات سياسية في فرنسا، وبريطانيا العظمى، وألمانيا، وإيطاليا، وظهر حوالى مئة اسم في تقاريرهم. ونظراً إلى نفور أمين سر الدولة الكامل من الأفكار السياسية واللاهوتية الجديدة، فوّض مرؤوسه بتنظيم جهاز للتجسس المضاد يعمل داخل الفاتيكان والمنظمات الكنسية فقط، في حين بقي جهاز التجسس الخارجي من مسؤولية الحلف المقدس. وأُطلق على منظمة التجسس المضاد اسم جمعية بيوس، وعُرفت داخل أسوار الفاتيكان بالاسم المختصر جي بي.

وتمثلت جهود جمعية بيوس في بادئ الأمر بوضع مجموعة من الحجج والبراهين يمكن استخدامها لمواجهة الأفكار المتعلقة بالحداثة، والهيمنة على أي نقاش علني داخل الكنيسة أو في المجتمع الأوسع. وكان على جي بي تجنيد عملاء في أوروبا وأميركا الشمالية وأميركا الجنوبية، وعلى نحو سرّي، لتحديد هوية أنصار الحداثة، وكشف صِلاتهم ومؤامراتهم، وإحباط مخططاتهم. وكرّس

أومبرتو بينيني نفسه لهذه المهمة بحماسة شخص متعصّب. وسرعان ما أفسحت مهامه كأمين سر دولة ثانٍ للشؤون غير العادية الطريق لآخرين في ميدان التجسس، وكان عليه الاحتفاظ بسرية هذا الأمر وإخفاؤه عن زملائه في أمانة سر الدولة لا بل أيضاً عن رئيسه المباشَر المونسينيور بييترو غاسباري.

ومُقِرّاً بتأثير الصحافة الكبير، كان بينيني يعتقد أن الفاتيكان بحاجة إلى استخدامها بفعالية في المعركة ضد أنصار الحداثة والليبرالية، وعيّن رئيس جي بي نفسه مديراً غير رسمي لشؤون الصحافة في أمانة سر الدولة. وطوال سنوات، زوّد الصحافيين الذين يغطون المناسبات البابوية بالمنحى الذي يجب اعتماده في مقالاتهم. وأطلق بينيني على مراسلي الصحف الليبرالية ووكالات الأخبار لقب "أعداء"، وعلى مراسلي وسائل الإعلام المحافظة لقب "أصدقاء".

وتمثلت خطوة هامة أخرى لجي بي بإنشاء صحيفتها الخاصة، المراسلات الرومانية، التي أدارها بينيني من خلال محرر وهمي. فملأ صفحاتها بهجمات على الحداثة والسياسات الليبرالية، ودافع بصراحة عن الامتيازات البابوية. وعندما بدأت الانتقادات ترِد من بلدان كفرنسا أو إيطاليا نفسها، نفى البابا بيوس العاشر أن تكون الصحيفة لسان حال الفاتيكان الرسمي أو حتى لسان حاله جزئياً. وكان البابا يكذب لأنه فوّض بنفسه أمين سر الدولة، الكردينال رافاييل ميري ديل فال، بتمويل المراسلات الرومانية.

أخيراً، كتب المونسينيور أومبرتو بينيني مقالة عبّرت عن نظرته المحافِظة و"المؤيدة إلى التكامل" للشؤون الدينية والسياسية العالمية. ووُضعت المقالة بصيغة ممتازة، في الحقيقة، ووُزّعت للعديد من المراسلين الأجانب بواسطة عملاء جي بي. وقام العديد منهم بنشر المقالة كاملةً أو نشر ملخص عنها وذيّلوها بأسمائهم من دون ذكر المصدر في غالب الأحيان. وقرأ ملايين الأشخاص في الأرجنتين وإسبانيا والنمسا وبلجيكا والولايات المتحدة رأي بينيني.

وفي حين لعب هذا الإعلام ونشر المعلومات المضلِّلة دوراً في تشويه صدقية

الحداثة، كان بينيني ورؤساؤه في المعتزلات الداخلية للفاتيكان بحاجة أيضاً إلى مراقبة تأثيرات تلك الحركة داخل المنظمات العلمانية والمؤسسات الدينية. وعمد أنصار التكامل إلى تحديد هوية مناصري الحداثة وطردهم من أي منصب يمنحهم النفوذ، وذلك من خلال تطبيق عقوبات بابوية صارمة. وكان الأساقفة، والمندوبون الرسوليون، والقاصدون الرسوليون هم المصادر الرئيسية لجي بي، عِلماً أن العديد من هؤلاء لم يكونوا توّاقين إلى الكشف عن أسماء منظمة التجسس المضاد.

وما كان أنصار التكامل مثل ميري ديل فال وبينيني بحاجة إليه هو شبكة تجسس نوعية داخل الكرسي الرسولي، ولكن هذه المنظمة لم تعُد موجودة بعد فقدان الدويلات البابوية. في الواقع، لقد أدى وصول المونسينيور أومبرتو بينيني إلى أروقة السلطة إلى إيقاف عمليات الحلف المقدس، عِلماً أن شبكة التجسس والحلف المقدس جهازان تتقاطع أهدافهما. وأصبحت منظمة التجسس المضاد العدوّ الرئيسي لجهاز التجسس البابوي لأن عملاء جمعية بيوس يتنافسون مع جواسيس الحلف المقدس على مصادر المعلومات.

في الحقيقة، لم يكن لجي بي السرية اسماً رسمياً، أو مقراً رئيسياً رسمياً، أو عنواناً لمكاتبها، أو أقساماً إدارية. وإنشاؤها غير مذكور في الحَولية الحَبرية، وهي النشرة التي تحتوي على الجدول التنظيمي للفاتيكان. وكانت مصاريفها تسدَّد من خلال اعتمادات مالية سرية يحوّلها أمين سر الدولة، الكردينال ميري ديل فال للمونسينيور بينيني.

لقد استخدم بينيني في الفاتيكان التقنيات نفسها التي استخدمتها وكالات المخابرات في الدول القوية مثل بريطانيا العظمى، وفرنسا، وألمانيا، وروسيا. ولم تكن جي بي تشاطر أجهزة المخابرات الإيطالية المعلومات إلا في مناسبات نادرة.

والتجسس، واعتراض البريد والبرقيات، ومراقبة الأفراد، هي بعض المهام التي كان يقوم بها عملاء منظمة التجسس المضاد البابوية، ويزوّدون جي بي من

قصور الأساقفة، وغرف ملابس الكهنة، وقاعات المحاضرات، وكليات اللاهوت، ومكاتب القاصدين الرسوليين في مختلف أنحاء العالم، بمعلومات عن الرؤساء أو الزملاء المشتبَه في كونهم من أنصار الحداثة؛ بمن فيهم بعض موظفي بينيني.

جرت إحدى عمليات تجسس الجي بي في أواخر العام 1909. لقد علِم بينيني من مُخبرين عديدين بشأن حلقة من الكهنة المناصرين للحداثة في روما بقيادة رجل يدعى أنطونيو دي ستيفانو، وهو عالم شهير بتاريخ القرون الوسطى وثقافتها، وكاهن سابق يقيم في جنيف. فأرسل رئيس جي بي كاهناً شاباً يدعى غوستافو فرديسي لاختراق منظمة دي ستيفانو. فأبلغ فرديسي القريب إلى أفكار أنصار الحداثة المونسينيور بينيني بأن الشبكة التي تتم إدارتها من سويسرا جرى تفكيكها، ولكن رئيس منظمة التجسس المضاد لم يكتفِ بذلك. فقرر إرسال كاهن آخر هو بييترو برشيبالي الذي كان رفيق الصف لدي ستيفانو في كلية اللاهوت الرومانية. في تلك الأيام، كان برشيبالي قد تعرّف إلى مدافعين آخرين عن الحداثة مثل إرنستو بونايوتي الذي اعتبر الكرسي الرسولي، وهو الدائرة الفاتيكانية المسؤولة عن المحافظة على التعاليم الكاثوليكية القويمة، كتبه وكتاباته ضرباً من ضروب الهرطقة.

ومسلّحاً بالمال، وبجواز سفر زائف، وآلة تصوير، سافر برشيبالي إلى جنيف لتجديد معرفته القديمة بدي ستيفانو. وفي التقرير الأول الذي أرسله إلى بينيني، شدّد الأب برشيبالي على رغبة دي ستيفانو في إطلاق مجلة تدعى مجلة الحداثة الدولية. وشرح التقرير أيضاً كيف دعا أنطونيو دي ستيفانو العميل لمغادرة المكان الذي يقيم فيه في جنيف والانتقال للإقامة في منزله. وفي أثناء فترات التغيّب الطويلة لدي ستيفانو، كان برشيبالي يمضي وقته بالتقاط صور فوتوغرافية لعناوين الكتب في المكتبة الخاصة بالشخص المستهدَف، ويدقق بالأوراق الموجودة في مكتبه والتي تتضمن مراسلات مع إرنستو بونايوتي. وعندما عاد برشيبالي إلى روما، اصطحب معه نسخات عن مراسلات دي

ستيفانو الخاصة.

وسرعان ما أصبحت محفوظات جي بي مجموعة نفيسة من المعلومات تتناول كهنة مناصرين للحداثة، ومدرّسين ليبراليين في كلية اللاهوت، ومفكرين وصحافيين يثيرون الشكوك. ومن أولئك الذين ذُكرت أسماؤهم في التقارير عدد من الكرادلة وهم: أميت، رئيس أساقفة باريس؛ فيراري، رئيس أساقفة ميلانو؛ مرسييه، رئيس أساقفة بروكسل؛ مافي، رئيس أساقفة بيزا؛ بيفل، رئيس أساقفة فيينا؛ وفيشر، رئيس أساقفة كولونيا. وهناك أيضاً رؤساء جامعات لوفان وباريس وتولوز الكاثوليكية، والكردينال جياكومو دِلاكييزا الذي عوقب بسبب صلاته بأنصار الحداثة وأُرسل إلى بولونيا كرئيس للأساقفة لأن الكردينال ميري ديل فال أراد فصله عن الإدارة البابوية الرومانية. وفي العام 1914، أصبح الكردينال دِلاكييزا الحَبر الأعظم بعد وفاة البابا بيوس العاشر. وذهب بينيني بعيداً باستجواب رئيسه المونسينيور بييترو غاسباري من دون أوامر صريحة من ميري ديل فال أو البابا بيوس العاشر.

كانت تقارير الجي بي تتضمن معلومات على غرار تلك التي تتحدث عن تطور حزب الوسط الكاثوليكي في الريشستاج الألماني، ومنظمة سيون الطلابية الكاثوليكية في فرنسا المدافعة عن الإصلاح الاجتماعي وتصالح الكاثوليك مع الجمهورية الثالثة، وتنصيب رئيس جديد للأوروغواي اقترح فصل الكنيسة عن الدولة وتحظير الاحتفالات الدينية، وازدياد حدة التوتر في روسيا بسبب قيام قوات الأمن التابعة للقيصر نقولا الثاني بملاحقة الكاثوليك في بولندا وليتوانيا.

ولم يمر وقت طويل حتى بدأ المسؤولون ذوو المراتب العليا في الإدارة البابوية الرومانية بإطلاق اسم "الرعب المقدس" على جي بي. ومن المدافعين الرئيسيين عن المنظمة إلى جانب البابا بيوس العاشر، الكردينال رافاييل ميري ديل فال، أمين سر الدولة؛ والكردينال غايتانو دي لاي، مدير المجمع الكنسي؛ والكردينال خوسيه دي كالاسانز فيفس وتوتو، وهو كبّوشي إسباني مسؤول عن قسم

الرهبنات.

لقد اكتسب المونسينيور أومبرتو بينيني نفوذاً كبيراً بمعرفةٍ من بيوس العاشر ومساعدته. وكان أعداؤه وضحاياه يعتبرونه "العبقري الشرير الذي يفضّله البابا على سواه". وكان بينيني يرفع تقارير أسبوعية شاملة للبابا، وميري ديل فال، والمونسينيور جيوفاني بريسان، سكرتير البابا الخاص وأحد حلفاء بينيني الأكثر ولاءً. وكان لرئيس منظمة التجسس المضاد حُماة في الدوائر العليا أكثر مما كان له من أصدقاء. وهكذا، حدثت مفاجأة كبيرة في أروقة الفاتيكان عندما نشرت صحيفة الأوسرفاتوري رومانو في 7 آذار/مارس 1911 خبر أن المونسينيور بينيني لم يعد أمينَ سر دولة ثانياً للشؤون غير العادية، وحل مكانه موظف شاب في الفاتيكان يدعى أوجين باتشيللي الذي ارتقى مع الوقت سلّم الإدارة البابوية الرومانية ليغدو البابا بيوس الثاني عشر بعد ثمانية وعشرين عاماً. في غضون ذلك، عيّن البابا بيوس العاشر المونسينيور أومبرتو بينيني كاتباً رسوليًّا أول وسمح له بالبقاء على رأس منظمة التجسس المضاد. فبالنسبة إلى "أصدقاء" بينيني، لقد وجدوا في هذا الخبر ترقية وإكراماً، في حين أنه بدا سقوطاً في العار أو نفياً إلى المطهر بالنسبة إلى "أعدائه".

وبيّنت الشائعة - الفعالة كما هو حالها اليوم في أروقة الفاتيكان - أن بينيني صُرف من منصبه الهام لأنه فوجئ وهو يمرر وثائق بابوية سرية للمندوب الإمبراطوري الروسي في الكرسي الرسولي. والأمر الوحيد الثابت هو أن المونسينيور أومبرتو بينيني طلب رسمياً إعفاءه من مسؤولياته في أمانة سر الدولة ليكرّس مزيداً من الوقت لأجهزة المخابرات البابوية.

ومذاك الحين، تم توحيد عمليات الحلف المقدس والجي بي، ومنظماتهما وعملائهما لتحقيق هدف واحد: الدفاع عن الكنيسة والفاتيكان والبابا. واستمر المونسينيور بينينو في الاطّلاع على الوثائق وشؤون أمانة سر الدولة. وطالب براتب يبلغ سبعة آلاف لير في العام وزيادة على الاعتمادات المالية لدعم

نشاطاته المخابراتية. وأصبح الكردينال دي لاي مصدر معلوماته الرئيسي وحاميه، في حين أنه لم يكن يتصل بالكردينال ميري ديل فال مباشَرةً إلا عندما يقوم بتزويده بمعلومات عن الأساقفة المهيَّئين للترقية أو عن مظاهر تكريم بابوية أخرى. وفي ربيع العام 1912، سأل المونسينيور أوجين باتشيللي، المُحب لتدبّر المكائد والتجسس، سلفه عن كاهن سيتم تعيينه أسقفاً. وبعد بضعة أسابيع، اتصل باتشيللي ببينيني مجدداً ليخبره بأن أمانة سر الدولة تُعدّ إعلاناً عن الحركات العمالية في ألمانيا، وأنه يتم السعي لإيجاد بديل عن رئيس أساقفة ألماني.

كانت مشاكل أومبرتو بينيني في بدايتها. لقد اعترف كاهن كاثوليكي سابق انضم إلى المذهب الميثودي للصحافي غوليلمو كوادروتا بأنه خدم في منظمة التجسس المضاد الفاتيكانية عندما كان السكرتيرَ الخاص للمونسينيور أومبرتو بينيني، وذلك من خلال التسلل إلى بعض الأوساط الإيطالية المشتبَه في ميولها المناصرة للحداثة. والحدث الآخر الذي أثّر في صورة بينيني والمخابرات الفاتيكانية إثارته مجموعة من الليبراليين البلجيكيين والألمان.

ففي أثناء إجرائها تحقيقاً عن جمعية بيوس، تمكنت هذه المجموعة من إدخال أخ دومينيكاني هو فلوريس بريمس إلى وكالة المخابرات. واتخذ الدومينيكاني محامياً بلجيكيًّا يدعى جونكس ويعمل في مدينة جينت صديقاً له. وبفضل هذه الصلة، جمع بريمس معلومات مفصَّلة عن نشاطات جي بي، وبالتالي، عن نشاطات الحلف المقدس. وبشعور بريمس بالصدمة بسبب ما اكتشفه، ومعتقداً بأن المونسينيور أومبرتو بينيني يعمل من دون تفويض أو حماية رؤسائه، قرر الذهاب إلى روما وطلب إجراء مقابلة رسمية مع البابا لإطلاعه على كل شيء.

ولكن رافاييل ميري ديل فال أنقذ بينيني من خلال إحباط محاولات فلوريس بريمس لمقابلة البابا بيوس العاشر. ورفض أيضاً مقابلة الدومينيكاني أو تسلّم أي

أدلّة منه مدعَّمة بالوثائق. وفي العام 1912، توقفت أمانة سر الدولة عن تمويل صحيفة المراسلات الرومانية. وبعد فترة قصيرة، أمرت بينيني بإقفال الصحيفة. من الواضح أن نجم أومبرتو بينيني بدأ يفقد بريقه. فلو أقرّ بيوس العاشر علناً بوجود منظمة جمعية بيوس لاكتسبت ومؤسسها نفوذاً لا يقدَّر بثمن. وبدلاً من إضفاء الشرعية على جي بي، آثر البابا إرسال "أفضل أمنياته الرسولية" إلى منظمة التجسس المضاد ورئيسها؛ عبر الكردينال دي لاي كما كان الأمر على الدوام.

وبابتعاد بينيني أكثر فأكثر عن الحياة العامة، بدأ يعاني من ذهان ارتيابي مُضعف للقوى. فحاول من شقته الصغيرة في كورسو أومبرتو الأول المحافظة على شبكة مخبريه وعلى مصادر معلوماته في الأوساط البابوية، ولكن العديد من هذه الأوساط كانت قد قطعت كل صلة به. وبلغ مرحلة الاعتقاد بأن عملاء مناصري الحداثة في مراكز البريد في فرنسا وألمانيا وإيطاليا يعترضون بريده ويقرأونه. وخوفاً من أعدائه في الداخل والخارج، سافر بينيني إلى الخارج للاجتماع بمخبريه شخصياً، وأبقى كل زياراته لبروكسل وباريس وجنيف سرية.

في أوائل العام 1914، كان بينيني لا يزال يهتم بالشؤون البابوية الثانوية. لقد بات رئيس الجواسيس السابق ظل ماضيه المثير للشفقة، وأصبح حلمه بإنشاء جهاز مخابرات مماثل للأجهزة الروسية والفرنسية والألمانية ضرباً من الخيال. كان قد اهتم شخصياً بتجنيد المخبرين، والإشراف على نشاطاتهم، وقراءة تقاريرهم، والاهتمام بالوثائق بالغة الأهمية، ورفع تقارير لأمانة سر الدولة، والقيام بعمليات سرية. وما لم يقم به هو مراقبة ما يدور حوله مباشَرةً.

وعندما أصبح الكردينال جياكومو دِلاكييزا - أحد ضحايا القمع الذي مارسته جمعية بيوس - البابا بندكتس الخامس عشر، غادر أومبرتو بينيني جهاز المخابرات الفاتيكاني، تاركاً وراءه جهازاً غدا أنقاضاً، وحلفاً مقدساً قُلّصت عملياته إلى درجة إيقافها، وصداقات مقطوعة، وارتياب دائم بأعضاء الإدارة

البابوية الرومانية، وذلك بفضل الاتهامات المدمِّرة. لسوء الحظ، إن نظرة بينيني لجهاز تجسس بابوي فعال تخطت الواقع وبقيت حلماً. ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى بثّت الحياة مجدداً في الحلف المقدس وعمليات التجسس بصورة عامة. وضاعت فرصة فريدة عندما كان فارس سفر الرؤيا، والسيف بيده، على وشك إدخال العالم في حريق مدمّر شامل.

الفصل الحادي عشر
فارس سفر الرؤيا (1914-1917)

غافريلو برينسيب هو نتاج السنوات التي عصفت بها رياح الفوضى والتطرف النقابي في مختلف أنحاء أوروبا. لقد كان طالباً صربياً بوسنياً مثاليّاً بشكل صريح يحلم بخوض معارك تحرير عظيمة. ذات يوم، قرأ الطالب الشاب في شوارع بلغراد عنواناً رئيسياً عن زيارة سيقوم بها الأرشيدوق فرانز فردينان وزوجته صوفي فون هوهنبرغ إلى مدينة سراييغو. و28 حزيران/يونيو 1914 هو ذكرى القديس فيتوس، شفيع صربيا.

بالنسبة إلى الصرب عامةً وبرينسيب بصفة خاصة، كان فرانز فرديناند، ابن شقيقة الإمبراطور فرانز جوزيف ووريث العرش النمساوي-الهنغاري، يمثّل النفوذ الهابسبورغي الجاثم على صدور البوسنيين والسلافيين الجنوبيين الذين يسعون إلى نَيل الاستقلال عن إمبراطورية القوى الوسطى على غرار صربيا.

بالنسبة إلى قوميّ مثل برينسيب، كانت هذه الزيارة تعني أن الممثل الأعلى للإمبراطورية المحتلة هو على بُعد مرمى طلقة نارية واحدة فقط. فاتصل الطالب "بالأيدي السوداء"، وهي منظمة صربية كانت حتى ذلك الوقت قد رمت خِلسةً كراريس في محيط مقر إقامة الجنرال بوتيوريك، حاكم البوسنة. وبالرغم من رفض المنظمة مساعدة برينسيب، قرر المثابرة، فجنّد خمسة شبان يافعين لتنفيذ مخططاته.

وبدأ يوم 28 حزيران/يونيو المشؤوم ذاك باكراً عندما وصل الزوج الإمبراطوري إلى سراييغو، واتجها من المحطة إلى قاعة المدينة في موكب من السيارات المكشوفة مروراً بأحواض مرفأ ميلجاكا وحي سراييغو القديم لبلوغ متحف المدينة. وعندما مرّ الموكب بالإرهابي الأول، محمد محمدباسيتش، لم يتمكن من التصرف بسبب احتشاد الجماهير المرحّبة بالأرشيدوق. وكان الثاني، فاسو كوبريلوفيتش، محاطاً بعناصر الشرطة من دون التمكن من القيام بأي خطوة

كذلك. ورمى الثالث، نديلكو كابرينوفيتش، قنبلة انفجرت تحت المركبة وراء فرانز فردينان. وشاهد الإرهابيون الثلاثة الآخرون - برينسيب، سفيتكو بوبوفيتش، ودانيلو إيليتش - عملية إلقاء القبض على كابرينوفيتش وقرروا إلغاء المهمة.

بالرغم من ذلك، جمع القدر مجدداً غافريلو برينسيب والأرشيدوق بعد فترة قصيرة من الزمن. لقد أخبر وريث العرش النمساوي-الهنغاري الجنرال بوتيوريك أنه يريد زيارة أولئك الذين أصيبوا بجروح في أثناء محاولة الاغتيال - الكونت بوو-فالديك، الكولونيل أريك فون مريزي، والكونتيسة لانجوس - في مستشفى سراييغو. ونشأت المشكلة عندما انحرفت السيارات التي تتقدم سيارة الزوج الإمبراطوري عن الطريق المتوقَّعة. فأمر الجنرال بوتيوريك سائق الأرشيدوق بعبور شارع ضيّق.

لم يكن باستطاعة غافريلو برينسيب التصديق أن السيارة التي تناور بصعوبة في الشارع الضيق تُقلّ الزوج الإمبراطوري. فالتقط الطالب سلاحه، وهرع إلى الطريق، ووقف أمام السيارة الملكية مسدِّداً سلاحه، وأطلق عيارين ناريَّين. فقتل الأول الأرشيدوق فرانز فردينان، وأصاب الثاني زوجته، صوفي، بجراح بليغة توفّيت على أثرها بعد دقائق قليلة. والاغتيال الذي بدا حادثة عرَضية معزولة في حرب التحرير فتح في الواقع صندوق باندورا، وكانت الحرب في انتظار أوروبا بأكملها.

قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى في الواقع، كان البابا بيوس العاشر يخشى من أن تكون للاغتيال عواقب مشؤومة، وتحدثت تقارير الحلف المقدس عن "حرب" قد تهز البشرية. وكان البابا يحث فرانز جوزيف، إمبراطور النمسا-المجر، باستمرار على التخلص من الصرب بسبب كرهه للكنيسة الأرثوذكسية. بعد أحداث سراييغو، كتب البارون ريتر، الممثل البافاري في الفاتيكان، لحكومته قائلاً: "يوافق البابا على المعاملة القاسية التي يلقاها الصرب من النمسا، ولا

يملك فكرة واسعة عن قدرة جيوش روسيا وفرنسا إذا وقعت حرب ضد ألمانيا. لا يعرف أمين سر الدولة - رافاييل ميري ديل فال - متى يكون باستطاعة النمسا شن حرب إذا لم تقرر شنّها الآن".

في 15 آب/أغسطس، بدأ البابا يشعر بتوعّك صحي، وبات في وضع حرِج في التاسع عشر من الشهر نفسه. وعند الساعة الواحدة وخمس عشرة دقيقة من صباح العشرين منه، أي بعد شهرين تقريباً من اغتيال فرانز فردينان، توفّي البابا وهو ممسك بيد معاونه المخلص الكردينال رافاييل ميري ديل فال.

وبالرغم من المصاعب التي فرضتها الحرب، كان باستطاعة الكرادلة الاجتماع في روما لاختيار خلف للبابا بيوس العاشر. فبعد ظهر الواحد والثلاثين من آب/أغسطس، بدأ سبعة وخمسون عضواً في مجمع الكرادلة من أصل خمسة وستين اجتماعاتهم. وفي 3 أيلول/سبتمبر 1914، انتخبوا جياكومو دِلاكييزا بابا معتمِداً اسم بندكتس الخامس عشر. والملفت أن دِلاكييزا رُقّي إلى رتبة الكردينالية قبل أربعة أشهر فقط من وفاة بيوس العاشر، مما جعله مؤهَّلاً للاقتراع في المجمع الذي انتخبه.

وعندما دوّت الطلقات الأولى للحرب العالمية الأولى، واجهت القوتان الكبيرتان اللتان تشكلان القوى الوسطى (النمسا-المجر وألمانيا) دول الوفاق أو القوى الحليفة (فرنسا، روسيا وبريطانيا العظمى) التي التقت سراً في 5 أيلول/سبتمبر 19 للاتفاق على أن أياً منها لن يوقّع معاهدة سلام منفصلة لإنهاء النزاع. وهكذا، كان الانقسام جليّاً بين الدول الأوروبية والإمبراطوريات، وبدأ الجانبان حرباً استمرت بطريقة غير مسبوقة طيلة أربع سنوات ونصف.

وبينما كانت تقارير عن الإصابات والدمار تتدفق إلى أمانة سر الدولة من السفارات البابوية في بروكسل وبرلين وفيينا، اتخذ البابا بندكتس الخامس عشر تدابيره الأولى لقطع العلاقة بالماضي. كانت التغييرات إشارة لمسار جديد اتّبعته السياسات البابوية.

فأُرسل الكردينال ماريانو رامبولا لإدارة شؤون جمعية ورشة بناء بازيلكا القديس بطرس الذي لا يحظى بأهمية كبيرة والتابع لبازيلكا القديس بطرس. ومُنح رامبولا من قِبل المفضَّلين لدى البابا الجديد ثمانٍ وأربعين ساعة لإخلاء مسكنه في مبنى بورجيا السكني والانتقال إلى مكان أصغر حجماً في مبنى بالاتسينا ديلاكريبرت. وتمثلت الخطوة التالية لبندكتس الخامس عشر بصرف الكردينال رافاييل ميري ديل فال المقتدر من منصبه كأمين سر للدولة، وإحالته إلى دير سوبياكو لإدارة شؤونه. بعد رحيل ميري ديل فال، لحق العار بأصدقائه أيضاً. فعلى سبيل المثال، صُرف الكردينال نيكولا كانالي من منصبه "كبديل" وأُرسل لتسلّم أمانة سر أقل أهمية في مجمع التشريفات.

ولكن الضربة الكبرى التي تلقاها المناهضون لأنصار الحداثة تمثلت بإصدار الحَبر الأعظم أمراً بصرف المونسينيور أومبرتو بينيني من منصبه كرئيس لمنظمة التجسس المضاد الفاتيكانية، جمعية بيوس، وتعيينه أستاذاً للبروتوكول الدبلوماسي في أكاديمية النبلاء الكنسيين. واتضحت معالم التبدل الحاصل في السياسة عندما أصدر بندكتس الخامس عشر المنشور العام إلى الطوباوي الذي كان إشارة لهزيمة ما لُقِّبوا بأنصار التكامل، وهي عبارة لم تظهر بالطبع في المستند. واستمرت جمعية بيوس في الازدهار في عالم سادته الحرب إلى أن تم نشر بعض الوثائق من محفوظات الجمعية عام 1919 عثر عليها جهاز المخابرات الألماني. وعيّن البابا في منصب أمانة سر الدولة الكردينال بييترو غاسباري، الرئيس القديم لبينيني الذي كان قد تسلّم في الفترة الأخيرة مسؤولية نشر المجموعة الجديدة لقواعد القانون الكنسي.

في غضون ذلك، امتدت الحرب العالمية الأولى وفقاً للاستراتيجية التي نصّت عليها خطة شليفن عام 1906، وهي خارطة طريق استراتيجي لتحركات القوات الألمانية الذي بدا ضمانةً لتحقيق انتصار سريع للإمبراطورية الألمانية. ولكن هذا التوقع لم يصحّ. فبعد معركة المارن التي جرت بين 9 و12 أيلول/سبتمبر 1914،

اضطرّ الألمان إلى الطلب من جنودهم في الجبهة الأمامية بالانسحاب مما بدّل طبيعة النزاع العسكري. فما كان حرب حركة سريعة وضربات استراتيجية تحوّل إلى حرب خنادق؛ نزاع قاسٍ، طويل الأمد، لامتناهٍ كما بدا، رافقه وقوع خسائر في الأرواح البشرية. فشعر الكرسي الرسولي بواجب السعي إلى إيجاد حل. وهكذا، أصبح الفاتيكان مكاناً استراتيجياً للجواسيس وإحاكة المؤامرات وليس مكاناً عسكرياً.

كان لألمانيا والنمسا حضور دبلوماسي في البلاط البابوي حيث كانت ألمانيا تتمتع بموقع ممتاز منذ القرن التاسع عشر معتمدةً على سفيرين، أحدهما يمثّل بروسيا والآخر يمثّل بافاريا. وكان الكونت أوتو فون مولبرغ، وهو الدبلوماسي البروسي، يحظى بإعجاب إدارة الفاتيكان بصفة خاصة بسبب طبيعته المعتدلة. وكانت النمسا ممثَّلة بالأمير شونبرغ، وهو سليل عائلة نبيلة خدمت الدولة والكنيسة طيلة قرون. والدبلوماسيون الثلاثة خبراء في العلاقات مع الإدارة البابوية الرومانية، ولا سيما مع الأساقفة والكرادلة، ومع الصحافة الإيطالية.

بخلاف ذلك، كان أعضاء السلك الدبلوماسي التابعون للحلفاء يختلطون بالأشخاص الأدنى رتبة في الإدارة البابوية. وكان الموفد البلجيكي هو السفير الوحيد للحلفاء الذي يُقيم صِلات بالطبقة العليا في الفاتيكان، مفضّلاً الحياة الخالية من المتاعب على الدبلوماسية السيئة، وهو ما أزعج نظيره الروسي. فلم يكن ممثّل القيصر نقولا الثاني يحظى باحترام كبير في روما بسبب السياسات الدينية لبلده التي جعلت من روسيا الأرثوذكسية من أكبر المدافعين عن البروتستانتية داخل أوروبا الكاثوليكية.

وكان الكردينال الإنكليزي فرانسيس أيدان غاسكيه وسكرتيره دوم فيليب لانغدون هما الثقلَين الموازيَين الرئيسيين لدبلوماسية القوى الوسطى. وكان لانغدون يعمل لصالح الحلف المقدس كمروّج للحلفاء.

لقد عُرف عن لانغدون خبرته في الشؤون الملكية الإنكليزية أكثر من كونه

جاسوساً للحلف المقدس. وبالرغم من قيامه بمهام لصالح أجهزة التجسس البابوية، فقد قيل إن الكردينال غاسكيه هو وراء هذه العمليات في حين أن سكرتيره يتّبع الأوامر ليس إلا. ولم يشك غاسكيه الوطني والمخلص لبندكتس الخامس عشر أبداً في ضرورة دعم قضية الحلفاء في مواجهة القوى الوسطى العدوانية. وبمساعدة لانغدون الوفي، تمكّن من جمع معلومات للحلف المقدس وإرسالها إلى لندن.

وجاء في أحد التقارير المرفوعة أن الكردينال غاسكيه وجّه رسالة إلى وزارة الخارجية البريطانية من خلال لانغدون يصف فيها المساعي التي تبذلها أجهزة التجسس التابعة للقوى الوسطى للفوز بتعاطف الفاتيكان مع القضية الألمانية-النمساوية. وحثت الرسالة وزارة الخارجية على تعيين سفير إلى الكرسي الرسولي على الفور. وفي تشرين الثاني/نوفمبر 1914، أرسلت لندن السير هنري هوارد، وهو دبلوماسي كاثوليكي متقاعد. ففي تقريره الأول المرسَل من الفاتيكان، وصف وجود جوّ موالٍ للألمان تماماً. واستمر الكردينال غاسكيه الذي كان في الواقع عميلاً للحلف المقدس بنقل معلومات حول كل ما يدور في الفاتيكان ويكون مرتبطاً بالحرب الدائرة في الخارج.

كان غاسكيه يُقيم في قصر سان كاليستو، وهو مبنى في منطقة تراستيفيري تابع للكرسي الرسولي. وسرعان ما غدا القصر مركز المتعاطفين مع الحلفاء. فاستدعى البابا بندكتس الخامس عشر غاسكيه وطلب منه إبقاء اجتماعاته سرية لأن الحياد البابوي في الحرب سيتعرّض للخطر إذا علِم سفير القوى الوسطى بما يقوم به الكردينال.

وطلب البابا من الكردينال أيضاً تمرير أي معلومات عن جواسيس القوى الوسطى في الفاتيكان للحلف المقدس قبل إرسالها إلى البريطانيين. وذكّر بندكتس الخامس عشر الكردينال غاسكيه بأن ولاءه الأول هو للبابوية وليس للإنكليز. ومن جهة ثانية، كان غاسكيه يخشى من أن يكون الجواسيس الألمان أو

النمساويون قد تمكنوا من التسلل إلى الحلف المقدس أو منظمة التجسس المضاد، جمعية بيوس.

كان الكردينال غاسكيه والسير هنري هوارد مدركَين تماماً للمساعي التي تبذلها القوى الوسطى للفوز بتعاطف البابا مع قضيتها، وكانا يعلمان بأنه يتعيّن عليهما الحؤول دون ذلك.

في الأشهر الأولى من الحرب، لم ترسل برلين وفيينا سفراء إلى الكرسي الرسولي فحسب، بل مجموعات كبيرة من الدبلوماسيين وعملاء المخابرات أيضاً. وكثيراً ما كان الدبلوماسيون يطالبون بإجراء مقابلات رسمية مع بندكتس الخامس عشر، ويعقدون اجتماعات أسبوعية مع أمين سر الدولة الكردينال بييترو غاسباري، وينظّمون اجتماعات إضافية مع معاونيه، ويستضيفون أعضاء الإدارة البابوية الرومانية ذوي المراتب الرفيعة والصحافة الإيطالية في مآدب عشاء.

وعلى غرار دبلوماسيّي بلدَيهما، عمل الجواسيس الألمان والنمساويون علانيةً للفوز بتأييد البابا ومعاونيه لقضيتهم بهدف تبرير سياستهم المتّبَعة في الحرب وإضعاف الحلفاء. وأفسحت اللقاءات السرية للجواسيس في الأزقة الرومانية المظلمة الطريق لتجمعات اجتماعية في القصور والمنازل الفخمة تعاطفاً مع هذا الجانب أو ذاك.

وفي أوائل العام 1915، تحولت الحرب السريعة إلى حرب خنادق. وكان الجانبان بحاجة إلى حلفاء جدد لتعزيز خطوطهم الدفاعية أو تأمين بدائل لوحداتهم المقاتلة التي أمضت أشهراً في القتال في ظروف مريعة. وهكذا، حاول الجانبان استدراج إيطاليا إلى الحرب. فبالرغم من كون إيطاليا عضواً في الحلف الثلاثي إلى جانب ألمانيا والنمسا، فقد عقد قادتها العزم على عدم تعريض مواطنيهم لمخاطر الحرب. وفي الأشهر الأولى من العام 1915، بذلت سفارتا الجانبَين مساعيَ حثيثة للفوز بدعم إيطاليا لصالح دول الوفاق أو لصالح القوى الوسطى.

كان الحلف المقدس قد رفع إلى البابا والكردينال غاسباري تقارير حول الخطوات التي يعتزم قادة إيطاليا اتخاذها. وكان الجواسيس البابويون على عِلم بالاجتماعات الدائرة بين الحكومة الرومانية والإمبراطورية النمساوية-الهنغارية للتفاوض حول اتخاذ إيطاليا جانبها، وسيكون ثمن ذلك التنازل عما دُعي terre irredente، وهي الأراضي الناطقة بالإيطالية في مناطق ترنتين التابعة للإمبراطورية النمساوية. ووجدت فيينا نفسها في مأزق حرِج بسبب موقف روما الانتهازي.

من جهة أخرى، رفع الحلف المقدس تقريراً إلى البابا في شأن الاتصالات التي تجريها الحكومة الإيطالية مع الحلفاء. وكان جهاز التجسس البابوي قد علِم بأن حكومة روما تتفاوض في الوقت نفسه مع دول الوفاق حول حيادها. فإذا التزمت إيطاليا الحياد وفازت دول الوفاق في الحرب، تُكافَأ المملكة بأراضٍ كانت تابعة للنمسا في ما مضى.

فسارع البابا بندكتس الخامس عشر إلى إصدار أمر لجهاز التجسس وأمانة سر الدولة بتكريس نفسيهما قلباً وقالباً للحؤول دون دخول إيطاليا الحرب دعماً للنمسا وألمانيا. وكان البابا يشك بقدرة الدولة الإيطالية على النجاة من الحرب العاصفة على الصعيدين السياسي والاقتصادي، لا سيما إذا أصبحت إيطاليا - وبالتالي روما - هدفاً لعمليات القصف.

وبرزت مشكلة عندما اكتشف الحلف المقدس أن العديد من المسؤولين الكنسيين ذوي مراتب رفيعة في روما يحبّذون تدخلاً إيطالياً إلى جانب القوى الوسطى التي كانت القوى الكاثوليكية الرائدة في أوروبا الوسطى وحاجزاً في وجه تقدّم الدين الأرثوذكسي الروسي وانتشار السلافية. وشجعت تلك الميول في غالب الأحيان جهاز التجسس الألماني على تدبّر مزيد من المكائد في الفاتيكان بدعم من جمعية بيوس، منظمة التجسس المضاد البابوية.

في 21 شباط/فبراير 1915، اكتشف عملاء الحلف المقدس وصول ماتياس

إرزبرغر، زعيم حزب الوسط الكاثوليكي في ألمانيا، إلى روما. كان إرزبرغر يحظى باحترام الدوائر العليا في الفاتيكان، كما كان شخصية مألوفة بالنسبة إلى بندكتس الخامس عشر. ولا يوافق المؤرخون على أن صلته الوثيقة بالفاتيكان تفسّر دعم الإدارة البابوية والبابا للقوى الوسطى في أثناء الحرب، ولكنهم لا يستبعدون ذلك كلّياً.

وفي ربيع ذلك العام، زار ماتياس إرزبرغر العاصمة الإيطالية في عدة مناسبات، وحافظ على علاقات مع السفارتين النمساوية والألمانية، وواصل زياراته إلى قصور الفاتيكان. ولم يدرك السياسي الألماني أنه كان يخضع لمراقبة صارمة من قِبل أجهزة المخابرات الإيطالية والحلف المقدس أيضاً (الأكثر تعاطفاً مع قضية الحلفاء وحجج الكردينال غاسكيه) وجمعية بيوس (التي تحتفظ بعلاقات وثيقة مع القوى الوسطى). من الواضح أن إرزبرغر كان في إيطاليا في عمل سري لصالح القوى الوسطى، ولكن الحلف المقدس وحده كان على عِلم بالنوايا الحقيقية لزعيم حزب الوسط الكاثوليكي ولمنظمة الوسط السياسية التي كان أوتو فون بيسمارك يضطهدها طيلة سنوات.

لقد قدِم ماتياس إرزبرغر إلى روما عملاً بأوامر القيصر ويلهلم، وذلك لتقديم الأرض غير المفتداة لبندكتس الخامس عشر مقابل إقناع إيطاليا بالتزام الحياد في النزاع. وكانت ألمانيا وحاكمها يفضّلان عدم تدخّل إيطاليا لصالح النمسا لأن من شأن ذلك أن يجعل إيطاليا مسرحاً للحرب فتُضطر القوى الوسطى ودول الوفاق إلى سحب جنود من جبهات أخرى. ولم يكن القيصر ويلهلم يريد كذلك تدخّل إيطاليا لصالح دول الوفاق مما يؤدي إلى نزاع نمساوي إيطالي مفتوح حول أراضي ترنتين.

وقيام النمسا على الفور بتسليم ترنتين إلى البابا هو الاقتراح الرسمي الذي نقله السياسي والجاسوس ماتياس إرزبرغر من القيصر ويلهلم لبندكتس الخامس عشر. ومن شأن ذلك أن يسمح بإنشاء جَيب بابوي مستقل بالقرب

من الفاتيكان يتضمن ممراً إلى البحر. فحظي الاقتراح بتأييد جمعية بيوس، في حين أوصى الحلف المقدس بأن يقوم الكردينال غاسباري برفضه.

كان بندكتس الخامس عشر وأمين سر الدولة، غاسباري، يدركان أن الرد بالإيجاب على اقتراح إرزبرغر ينهي الحياد البابوي في الحرب، وكانا يشكان في أن تسمح النمسا أو إيطاليا لممثلين بابويين بإنشاء إدارة كنسية في ترنتين بعد الحرب. ومع ذلك، بات من الواضح أن ألمانيا والفاتيكان يملكان مصالح متوازية للمرة الأولى منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى.

وكان ماتياس إرزبرغر قناة آمنة لتبادل الرسائل بين الفاتيكان وبرلين. وفجأةً، أصبح جاسوس القيصر حليفاً للحلف المقدس من خلال الدبلوماسي البابوي. ونقل إرزبرغر اقتراحات دبلوماسية بحماية جهاز التجسس البابوي وبأمر من غاسباري ومن بندكتس الخامس عشر نفسه ربما، وأصبح أيضاً مصدراً لتمويل الفاتيكان لأنه أسهم في تحويل مبالغ ضخمة من المال إلى الخزينة البابوية بوصفها "هبات"، وذلك عملاً بأوامر القيصر ويلهلم.

لقد أدى هذا الواقع إلى جدال جدّي بين المؤرخين. فمنذ العام 1914، كانت صناديق المال التابعة للفاتيكان في حالة يُرثى لها وفارغة تقريباً بسبب تأثيرات الحرب في اقتصاديات أوروبا بصورة عامة، وفي اقتصاديات إيطاليا بصفة خاصة. وكان الفاتيكان قد رفض كلّياً التعويض السنوي عن الأضرار الذي نص عليه قانون الضمانات عام 1871 القاضي بأن تقوم الحكومة الإيطالية بالتعويض على البابا الخسائر التي تكبّدها الفاتيكان بعد فقدان الدويلات البابوية. واعتقد البابا أن باستطاعة هبات زوّار الفاتيكان وفلس بطرس - مساهمات الأبرشيات في الخارج - دعم نفقات الكرسي الرسولي إضافةً إلى الهيكلية الواسعة للكنيسة في مختلف أنحاء العالم. ولكن الحرب دمّرت السياحة وأوقفت تدفق الهبات وزوّار الفاتيكان إلى الفاتيكان، وحُوّلت الاعتمادات المالية القليلة التي كانت لا تزال ترِد إلى ضحايا الحرب واللاجئين. ربما لم يكن الفاتيكان مفلِساً، ولكنه كان

في وضع مالي دقيق يهدد باستمرار البيروقراطية البابوية في المستقبل القريب.

ومُدركاً أهمية هذه الفرصة للفوز بحظوة عند البابا، بدأ القيصر ويلهلم بإرسال مبالغ ضخمة من المال عن طريق إرزبرغر لمنح خزينة الفاتيكان متنفَّساً. وما بدأ كمبالغ صغيرة تحوّل إلى مبالغ بالملايين على صورة "اعتمادات مالية سرية" تُحوَّل من عدة مصارف سويسرية. فأمر الكردينال بييترو غاسباري الحلف المقدس بالعمل على أن تظهر هذه الاعتمادات المالية في حسابات الفاتيكان وكأنها جزء مما دُعي فلس بطرس لتجنّب إغضاب دول الوفاق.

واختار الحلف المقدس الأب أنطونيو لابوما، وهو كاهن موالٍ للألمان عمل في مدينة بوتنتسا، ليكون منسّقاً للعمليات المالية الألمانية السرية. فتضافرت جهود الأب لابوما والجاسوس ماتياس إرزبرغر في ما دُعي عملية الدب القطبي (كلمة السر التي كان عملاء جهاز التجسس الألماني في روما يشيرون من خلالها إلى البابا بندكتس الخامس عشر).

تمثلت الخطوة الأولى لعملية الدب القطبي بجمع المال للفاتيكان من مواطنين في دول القوى الوسطى لا يتولّون مناصب عامة. لذلك، قصد إرزبرغر برلين لإنشاء شبكة واسعة من الكاثوليك واللوثريين والبروتستانت لجمع المال، وقيل للألمان إن التبرعات ستعود إلى جرحى الحرب. وطلبت حكومة القيصر ويلهلم من رجال الأعمال والمصرفيين، لا بل من سيّدات المنازل أيضاً، المشاركة بفعالية في حملة جمع المال وذلك من دون أن يعرفوا أن هذه الإعانات ستؤول في نهاية المطاف إلى الفاتيكان بعد مرورها بمصارف سويسرية.

كانت المخابرات الإيطالية تعتقد أن بندكتس الخامس عشر ورث صناديق مال فارغة من بيوس العاشر في العام 1914، ولكنها اكتشفت أن البابا الجديد أنقذ الموارد المالية للفاتيكان بشكل غامض عام 1915. لم يكونوا يعرفون أن مصدر دخله الرئيسي هو القيصر ويلهلم وألمانيا. فشرع جهاز المخابرات في دول الوفاق بالعمل على التحقق من شكوكهم بأن البابا بات تحت سيطرة القوى الوسطى،

أقلّه على الصعيد الاقتصادي. في غضون ذلك، منح القيصر إرزبرغر الحرية التامة بتلقّي أكبر قدر من المال.

كان عميل قيصر يقيم صِلات وثيقة بأحد الدبلوماسيين في السفارة الرومانية في ألمانيا، فرانز فون ستوكهامرن، الذي اضطّلع بشؤون أجهزة مخابرات بلده في إيطاليا لدى اندلاع الحرب. وتعاون إرزبرغر وستوكهامرن على نحو وثيق مع الأب أنطونيو لابوما التابع للحلف المقدس للقيام بعمليات سرية تهدف إلى إبقاء إيطاليا خارج الحرب. وكان لابوما مسؤولاً عن مواجهة أي محاولات يقوم بها سياسيون أو أحزاب أو حركات شعبية أو منظمات لإدخال إيطاليا في النزاع لصالح هذا الفريق أو ذاك.

وكان البابا بندكتس الخامس عشر وأمين سر دولة الفاتيكان، غاسباري، يعرفان أن حياد إيطاليا أمّن ملايين الماركات الألمانية. ونظراً إلى موقف الكرسي الرسولي المحايد، من غير المفاجئ أن تكون الصحف الكاثوليكية - التي تعتبر نفسها ناطقة بلسان المواطنين - مدافعة قوية عن حياد إيطاليا. وفي بداية العام 1915، أبلغت السفارة الرومانية في النمسا فيينا بأن العديد من الصحف الكاثوليكية الإيطالية - يقارب عددها الخمسين - تعبّر عن رأيها أن إيطاليا، الصديقة الوحيدة للقوى الوسطى، تعارض دخول الحرب.

وعلِم الجواسيس النمساويون من مُخبرين متنوعين أن الإعلام الإيطالي يحصل على إعانات مالية من مصادر غامضة، وقد تكون السفارة الألمانية متورطة في ذلك. في الواقع، كان المال يرِد من الاعتمادات المالية نفسها التي أرسلها القيصر ويلهلم إلى الفاتيكان عبر مصارف سويسرية. وكان عميل الحلف المقدس أنطونيو لابوما ينقل المال إلى ناشري الصحف عبر المصارف.

وتلقّى السفير البريطاني السير هنري هوارد تقارير (من الكردينال فرانسيس أيدان غاسكيه ربما) تتناول اجتماعات تُنذر بالشؤم في غرف فرانز فون ستوكهامرن الخاصة في الفندق الروسي الفخم في روما. هناك، احتسى

الدبلوماسي الألماني الشراب مع ضيوفة وتناولوا العشاء والكافيار الروسي. ومن بين الضيوف رؤساء أديرة رومانيون وبعض الأساقفة من دوائر هامة في الفاتيكان تولّوا مهمة كتابة مقالات للصحف وتقديم النُصح أحياناً للدبلوماسي الألماني في شأن الحملة الدعائية التي كانت جزءاً من عملية الدب القطبي. وأدت هذه الحملة التي جرت بإدارة فرانز فون ستوكهامرن من جهاز التجسس الألماني والكاهن أنطونيو لابوما من الحلف المقدس إلى تبدّل في الرأي العام لصالح القوى الوسطى والحياد الإيطالي ومعارضة دول الوفاق. فتقدّم السير هنري هوارد بشكوى رسمية لأمين سر الدولة، الكردينال بييترو غاسباري، من دون إحداث أي تغيير يُذكَر في موقف الفاتيكان.

فوعد غاسباري بأن يطلب من الناشرين اعتماد أسلوب أكثر اتزاناً في المقالات والافتتاحيات. ووجّه البابا بندكتس الخامس عشر تعليمات للكردينال غاسباري، وأبلغه بأنه سيضع مقالة في الأوسرفاتوري رومانو يوبّخ فيها المحررين وناشري وسائل الإعلام تلك من مغبّة استمرار الصحافة في مهاجمة دول الوفاق. في الواقع، ازدادت حدة الانتقاد الموجَّه من قِبل وسائل الإعلام، عِلماً أن غاسباري كان يدفع من حين إلى آخر "إعانات مالية" لهذه الصحيفة أو تلك للحؤول دون نشر مقالات محدَّدة أو رسوم تنتقد دول الوفاق، ومصدر تلك الاعتمادات المالية هي الأموال المرسَلة من ألمانيا إلى الفاتيكان.

وفي حين كان فرانز فون ستوكهامرن يعمل مع الصحافة بشكل وثيق، كان ماتياس إرزبرغر يعمل بشكل وثيق أيضاً مع الأب لابونا لنشر دعاية محايدة في عدد إضافي من وسائل الإعلام وتبديل آراء أولئك الذين يريدون رؤية إيطاليا تدخل الحرب.

في أواخر ربيع العام 1915، أبلغ الجواسيس البابويون الألمان بأن رئيس الوزراء الإيطالي، أنطونيو سالاندرا، ووزير الشؤون الخارجية، سدني سونينو، يستعدان للضغط على الحكومة والبرلمان للتصديق على اتفاق كانا قد وقعاه

سراً في لندن في نيسان/إبريل ووافقا فيه على استدراج إيطاليا لدخول الحرب إلى جانب فرنسا وبريطانيا العظمى. وأمّن الأب لابوما قيام اتصال بين إرزبرغر وباسكوال غريبو، وزير التربية في حكومة سالاندرا.

كان الأب لابوما قد أطلع ماتياس إرزبرغر على اجتماعاته السرية مع غريبو في كنائس رومانية حيث كشف وزير التربية عن إعلان عدة وزراء معارضتهم التدخل بعد تقدّم سالاندرا وسونينو باقتراحهما. ومن هؤلاء الوزراء فينتشنزو ريشيو، رئيس مصلحة البريد، وجيانتو كافاسولا، وزير الزراعة. وريشيو وكافاسولا مدافعان قويان عن الحياد أياً كان الثمن.

لقد أوحت المعلومات التي تقدّم بها باسكوال غريبو لفيينا وبرلين بأن الحكومة الإيطالية منقسمة. فعلّق جهاز المخابرات الألماني والحكومة النمساوية آمالهما على جيوفاني جيوليتي، وهو سياسي هام ذو نفوذ كبير في أوساط اجتماعية أخرى وفي البرلمان. وأكد إرزبرغر أنه كان على ستوكهامرن والأب لابوما المماطلة لكسب الوقت أو لشراء هذا الوقت إذا اقتضى الأمر ذلك. فأرسلت إليه برلين خمسة ملايين لير لتوزيعها على نواب البرلمان الإيطالي. وكان النمساويون قد اشتروا عدداً من النواب، ودفع الألمان من خلال ستوكهامرن لمجموعة من الصحافيين لرفع وتيرة هجماتهم على دول الوفاق. وقام الأب لابوما بجمع تواقيع الأساقفة والكرادلة ضد الحرب، وعاونه في تلك المهمة الأب فونك، مدير المعهد البيبلي اليسوعي وعضو سابق في منظمة التجسس المضاد الفاتيكانية، إضافةً إلى المونسينيور بونكومباني، وهو مسؤول رسمي رفيع المقام في الفاتيكان تربطه صلات هامة بالإدارة البابوية الرومانية والطبقة الأرستوقراطية.

أخيراً، وبأمر من القيصر ويلهلم، ظهر رد فعل السفارة الألمانية على النحو المتوقَّع، وكان دعم بندكتس الخامس عشر أساسياً. ففي ليلة 6 أيار/مايو، تمكّن فرانز فون ستوكهامرن من دخول الفاتيكان بمساعدة الحلف المقدس وأمين سر

دولة الفاتيكان المونسينيور جوزبّي ميغون.

وبالرغم من إقفال الحرس السويسري البوابات عند التاسعة مساءً، وتولّي الشرطة وجهاز المخابرات الإيطاليين مراقبة كل المداخل، تمكّن المونسينيور ميغون من اصطحاب الجاسوس ستوكهامرن إلى مقر إقامة البابا حيث كان بندكتس الخامس عشر ينتظر في غرفة صغيرة.

كان الحَبر الأعظم يظنّ أن سدني سونينو، وزير الخارجية الإيطالي، يمارس لعبة خطرة جداً وأن مستقبل إيطاليا في كفة الميزان. في هذا الاجتماع السري، عرض عليه ستوكهامرن بصراحة أراضي ترنتين النمساوية إذا تمكن من إبقاء إيطاليا خارج الحرب. فعرض البابا بندكتس الخامس عشر على الجاسوس الألماني تقديم كل الدعم الذي يمكن للفاتيكان توفيره في الاجتماع التالي للحكومة، ولم يكن هناك حاجة إلى ذِكر اسم باسكوال غريبو. ومع ذلك، لم تتمكن أي من المناورات والاجتماعات السرية، والعمليات الدعائية، وأي جهود أخرى قام بها فرانز فون ستوكهامرن، وماتياس إرزبرغر، والأب أنطونيو لابوما، وجهاز التجسس الألماني، والحلف المقدس، من تجنّب المحتوم. ففي 23 أيار/مايو 1915، أعلنت إيطاليا الحرب على النمسا.

بعد فترة قصيرة، اكتشفت أجهزة التجسس الإيطالية الاتصالات القائمة بين جهاز المخابرات الألماني والبابا بندكتس الخامس عشر من أجل بلوغ هدف التأثير في القرارات السياسية الإيطالية. فاتخذت هذا الأمر دليلاً لتواطؤ الفاتيكان مع القوى الوسطى. وعندما دخلت إيطاليا الحرب، أقفلت ألمانيا والنمسا سفارتَيهما في روما واستدعتا موفديهما إلى برلين وفيينا. وباشر السفيران الجديدان لألمانيا والنمسا إلى الكرسي الرسولي أعمالهما انطلاقاً من مدينة لوغانو السويسرية. ونقل فرانز فون ستوكهامرن عملياته التجسسية كذلك إلى سويسرا المحايدة. وفي ظل الأمان الذي تنعم به لوغانو، قامت ألمانيا والحلف المقدس بعمليات سرية ضد إيطاليا وأعضاء آخرين في تحالف دول الوفاق. وجرت

إحدى هذه العمليات في إيرلندا ومُوِّلت بواسطة الاعتمادات المالية التي كان القيصر ويلهلم قد أرسلها إلى الفاتيكان وما زالت في حسابات مصرفية سويسرية سرية.

كان جهاز المخابرات البريطاني يعلم أن روجر كيزمنت، وهو قنصل متقاعد، أجرى اتصالات بالكونت فون برنستورف، السفير الألماني إلى واشنطن. لقد شغل كيزمنت المولود في إيرلندا عام 1864 منصب قنصل بريطاني في أمم أفريقية متنوعة وفي البرازيل حيث شجب الاستعباد الذي يعيش عمال المطاط في ظله. وفي العام 1911، منحه الملك إدوارد السابع لقب فارس الإمبراطورية البريطانية. وفي ذلك العام، شرع بمحاولة تنظيم ثورة ضد بريطانيا العظمى التي خدمها لعدة سنوات.

فأوحى الدبلوماسي السابق للسفير الألماني في واشنطن بأن القيصر ويلهلم الثاني يدعم القضية الإيرلندية، وتمثلت فكرته بقيام ثورة إيرلندية ضد الجنود البريطانيين. بالنسبة إلى الألمان، قد يشكل هذا الأمر عملية إلهاء ممتازة لأنه سيكون على لندن إرسال وحدات قتالية إلى الجزيرة بعد سحبهم من الجبهة الأوروبية إذا ثار الإيرلنديون.

في 2 تشرين الثاني/نوفمبر 1915، وصل روجر كيزمنت إلى برلين حيث عقد عدداً من الاجتماعات. وعُهد "بعملية إيرلندا" إلى الجاسوس الألماني فرانز فون ستوكهامرن الذي استمع إلى خُطب كيزمنت الوطنية حول ضرورة طرد البريطانيين من إيرلندا، ولكن همّه الأكبر سحب الجنود البريطانيين من الجبهة. كان مصمماً على إنجاز المهمة بأي وسيلة.

لقد اقترح كيزمنت على ستوكهامرن قيام ألمانيا بتمويل الوحدة العسكرية الإيرلندية وتسليحها على أن يتم تشكيل هذه القوة من السجناء الإيرلنديين الذين سبق لهم أن خدموا في الجيش البريطاني وهم في معسكرات أسرى الحرب الألمانية. ويتولى كيزمنت مهمة التجنيد، ويؤمّن ستوكهامرن التمويل والسلاح.

كان من المفترَض تأمين سلاح هذا الجيش الإيرلندي الصغير من الأسلحة التي تمت مصادرتها من الروس على الجبهة الشرقية، ولكن التمويل مسألة أخرى. وتذكّر الجاسوس الألماني الأموال التي أرسلها القيصر ويلهلم إلى البابا بندكتس الخامس عشر في مقابل دعم الحياد الإيطالي، وكان قدر كبير من هذا المال لا يزال في عدة حسابات مصرفية سويسرية باسم الفاتيكان. وأدرك رئيس جهاز التجسس الألماني أنه يمكن للألمان أن ينكروا ببساطة ادعاءات التورط إذا كُشف النقاب عن العملية، ويتهموا الفاتيكان بذلك. وظن فرانز فون ستوكهامرن أنه سيكون من السهل شرح تواطؤ الفاتيكان مع ثورة وطنيين إيرلنديين "كاثوليك" ضد جيش بريطاني "بروتستانتي"، ولكنه لم يكن يُدرك أن وجهة نظر البابا بندكتس الخامس عشر في القرن العشرين تختلف عن وجهة نظر البابا بيوس الخامس في القرن السادس عشر.

وبينما كان روجر كيزمنت البروتستانتي يجوب معسكرات الاعتقال الألمانية بحثاً عن إيرلنديين، بدأت الأموال التي كانت حتى ذلك الوقت بتصرف الفاتيكان بالانتقال إلى حساب مصرفي سويسري سري باسم كيزمنت. وعندما بلغت أخبار هذه التطورات أمين سر دولة الفاتيكان، بييترو غاسباري، والبابا بندكتس الخامس عشر، استدعيا فرانز فون ستوكهامرن لعقد اجتماع طارئ في مدينة لوسرن السويسرية. هناك، طالَبَ موفَدو البابا بتفسيرات من المسؤول في جهاز التجسس الألماني. فأجاب ستوكهامرن بأنه يجنّد الذين يكرهون الإنكليز ويريدون القتال إلى جانب الألمان.

لقد أُرسلت مجموعة كيزمنت إلى زوسن، وهو موقع جنوب برلين بعيداً عن أنظار الفضوليين. وتمكن الدبلوماسي الإيرلندي السابق الذي كان قد خدم في الجيش البريطاني من تحرير ثلاثة إيرلنديين إضافيين اعتُقلوا في معسكر روثلبن بعد أسرهم في فرنسا، وقرر إرسالهم سراً إلى إيرلندا لإطلاع القادة الثوريين الإيرلنديين على خطته. ولكن البريطانيين اعتقلوا أحدهم في مدينة كورك

وأرسلوه إلى لندن للاستجواب.

ومقابل إنقاذه من الإعدام وتلقّي أجر لقاء ما سيقوم به، أخبر هذا الرجل البريطانيين كل ما يعرفه عن عملية إيرلندا، بما في ذلك صلات روجر كيزمنت بالألمان وربما بالفاتيكان أيضاً، عِلماً أنه لم يكن باستطاعته تأكيد النقطة الأخيرة. وعندما تلقّى كيزمنت خبر اعتقال أحد موفَديه، أراد إجهاض العملية، ولكن فرانز فون ستوكهامرن أجبره على الاستمرار مذكّراً إياه بالمقدار الضخم من المال الذي أُنفق على الخطة.

فابتعد روجر كيزمنت عن الأنظار تجنّباً لمضاعفات محتمَلة وعهد إلى جون ديفوي، وهو قائد إيرلندي ثوري في الولايات المتحدة، بالإشراف على العملية. لقد أراد ديفوي والقاضي كوهالن، وهو قائد إيرلندي آخر في واشنطن، الحصول على دعم ألماني لإنشاء جمهورية إيرلندا، ولكن القيصر كان بحاجة إلى نتائج فورية وليس إلى خرافات لا يصدّقها إلا القليلون.

لقد سمحت البرقيات التي تم تبادلها بين السفارة الألمانية في واشنطن وجهاز المخابرات في برلين للبريطانيين بمعرفة المعلومة الأكثر أهمية عن الخطة؛ موقع نزول القوات على شواطئ خليج ترالي. وكان كيزمنت قد اعترض في اللحظة الأخيرة على الموقع المحدَّد بعد إبلاغه بالأمر لأن هذه الشواطئ غير صالحة للملاحة بسبب الرياح العاتية واستحالة إنزال الرجال والأسلحة عليها. لكن الاعتراض جاء متأخراً، فصعد روجر كيزمنت على متن غواصة نقلته إلى الشاطئ الإيرلندي.

وفي أوائل نيسان/إبريل، تدبّر المتآمرون وستوكهامرن أمر قيام سفينة تدعى أود بإنزال عشرين ألف بندقية روسية في خليج ترالي بين يومَي الجمعة في الحادي والعشرين من الشهر نفسه، والاثنين في الرابع والعشرين منه، وذلك بعد إظهار السفينة بهيئة مركب صيد نروجي محايد. وقد حُدّد الثالث والعشرون من نيسان/إبريل، أي أحد الفصح، موعداً لاندلاع الثورة، وكان الثوار

يتوقعون مساعدة خارجية أكبر من تلك التي أراد الألمان تقديمها كما يبدو. وفي ظل هذه الظروف، أراد كيزمنت الوصول إلى إيرلندا في غواصة ألمانية لتحذير القائد الجمهوري توم كلارك وإلغاء الثورة التي بات مقتنعاً بفشلها.

لقد نوقش كثيراً الدور الذي لعبه جهاز التجسس البابوي في ثورة الفصح عام 1916. وتشدد إحدى الروايات التي تتكرر على نطاق واسع على أن قسم كتابة الشيفرة التابع للحلف المقدس نجح في حل رموز البحرية الألمانية قبل أسبوعين من اندلاع الحرب، وسلّم الشيفرة إلى ونستون تشرشل، أول لورد في وزارة البحرية الملكية. وتؤكد مصادر أخرى أن الروس حلّوا الرموز وسلّموها إلى تشرشل في مورمانسك. وفي كلا الحالتين، وبوجود تلك الرموز بحوزته، اكتشف جهاز المخابرات في البحرية البريطانية أن الألمان يخططون لإرسال آلاف الأسلحة إلى الثوار الإيرلنديين على متن سفينة صيد نروجية تدعى أود. وعندما حاولت الوحدات البحرية البريطانية اعتراض أود بعيداً عن شاطئ خليج ترالي، رفعت السفينة الألمانية علم البحرية الإمبراطورية، وتعرّضت للقصف بعد وقت قصير.

وصل روجر كيزمنت إلى الشاطئ فجر الحادي والعشرين من نيسان/إبريل 19، أي يوم الجمعة العظيمة. واتجه قائدان للثورة هما مونتيث وكاسي بالمركب الصغير نحو الشاطئ ولكنه انقلب بسبب ارتفاع الأمواج، وتمكن كيزمنت ومونتيث من السباحة باتجاه الساحل وبلغا الشاطئ وكانا على شفير الغرَق، في حين لقي كاسي حتفه. وبينما كان الناجيان يحاولان التقاط أنفاسهما، أحاط بهما جنود بريطانيون كانوا يكمنون لهما. وسرعان ما آلت الثورة التي حلما بها إلى نهاية مأساوية.

لقد جرت كل الخطط الموضوعة للثورة على نحو غير صحيح. ففي سبت النور، انتشرت أخبار اعتراض البحرية البريطانية أود واعتقال روجر كيزمنت بالقرب من ترالي في بلدة كيري. كان قادة التمرد يعلمون أن الثورة محكوم عليها بالإخفاق، لذلك أصدروا أمراً بإلغائها. وحثت السلطات الإنكليزية في

دابلين على اعتقال ما بين ستين ومئة عضو هام في جيش المواطنين والمتطوعين الإيرلنديين، ولكن التفويض المطلوب من لندن وصل متأخراً في اثنين الفصح.

وعند ظهر ذلك اليوم في 24 نيسان/إبريل، قاد كونولي وبيرس مجموعة إلى شارع ساكفيل (شارع أوكونيل منذ العام 1924) واحتلوا مركز البريد. فخاطب جيمس كونولي رجاله قائلاً إنهم ليسوا أعضاء في جيش المواطنين الإيرلندي أو المتطوعين الإيرلنديين بل "الجيش الجمهوري الإيرلندي". لقد كان أول ظهور لهذا الجيش على ساحة الأحداث.

وأُخذ الجنود البريطانيون في دابلين على حين غرّة، ولكنهم تأهبوا للمواجهة بسرعة وهزموا القوات الإيرلندية، وسجنوا زعماء الثورة. وفي 3 أيار/مايو، أي بعد ثلاثة أيام من هزيمة الثورة، أُعدم ثلاثة قادة للمتمردين على أيدي فريق إطلاق النار. وفي 4 و5 أيار/مايو، أُعدم عدد إضافي، وفي الثامن منه، أُعدم أربعة آخرون. لقد صدر ما مجموعه سبعة وسبعون حكماً بالإعدام لم يتم تنفيذ غالبيتها، ولكن التاريخ اعتبر قادة الثورة "أبطالاً وطنيين حقيقيين" وليس "أشخاصاً غير مرغوب فيهم". وفي 3 آب/أغسطس 1916، أُعدم روجر كيزمنت أيضاً في سجن بنتونفيل عن عمر اثنين وخمسين عاماً.

فاتّهم بعض الأعضاء في جهاز التجسس البريطاني نظراءهم في الفاتيكان بدعم ثورة الفصح وخطط ستوكهامرن وكيزمنت، أقلّه في البدء. واتهم مؤرخون آخرون، الإيرلنديون منهم في المقام الأول، البابا بندكتس الخامس عشر، وأمين سر دولة الفاتيكان الكردينال بييترو غاسباري، وعميل الحلف المقدس الأب أنطونيو لابوما، بالتخلي عن إيرلندا الكاثوليكية في صراعها مع بريطانيا العظمى البروتستانتية. ويؤكد العديد من واضعي سيرة روجر كيزمنت أنه من المحتمل أن يكون عميل الفاتيكان (الأب أنطونيو لابوما كما هو مفترَض) قد سلّم كيزمنت إلى الإنكليز في خليج ترالي عملاً بأوامر البابا أو أمين سر دولة الفاتيكان. ولم يكن بندكتس الخامس عشر مسروراً جداً كما يبدو بقيام جهاز المخابرات

الألماني باستخدام أموال الفاتيكان لتمويل الثورة الإيرلندية؛ أموال خُصصت لتقديم العون المالي للفاتيكان وموارده المالية الضعيفة.

باختصار، يبقى تورط الفاتيكان، والبابا بندكتس الخامس عشر، والحلف المقدس، في ثورة الفصح عام 1916 لُغزاً آخر من جملة الألغاز الأخرى التي تحيط بالكرسي الرسولي.

في غضون ذلك، استمرت الحرب العالمية الأولى بوتيرة سريعة على غرار عمليات فرانز فون ستوكهامرن والحلف المقدس.

ففي صباح أحد أيام نيسان/إبريل 1916، تلقى جهاز المخابرات المضاد الإيطالي زيارة من محامٍ يدعى أنطونيو تشيليتي ادعى أنه صديق أرشيتا فالنتي. وقال تشيليتي إن فالنتي أبدى اهتماماً كبيراً بالإعلانات المبوَّبة في صحيفة إيطاليا وبالرُزَم الصغيرة التي تلقاها من أشخاص مجهولين.

وفي أيار/مايو، طلب فالنتي من جوزبّي غراسي الذي يعرفه تشيليتي أيضاً نقل بعض الرسائل إلى البارون ستوكهامرن في مدينة لوسرن السويسرية. فأخبر غراسي تشيليتي بهذه المهمة الوشيكة، غير مدرك لما يرمي إليه فالنتي، وتطوّع تشيليتي لتسليم الرسائل بدلاً منه. وبحصوله على الرسائل وكلمة السر والعلامة الفارقة من غراسي، سافر تشيليتي إلى لوسرن للاجتماع بالبارون ستوكهامرن. والتقى في سويسرا ماريو بوماريتشي، وهو صحافي إيطالي موالٍ للألمان تلقّى أجراً مقابل كتابة عدة موضوعات مناهضة للتدخل الإيطالي في الحرب.

كان بوماريتشي قد غدا أحد الرجال الذين يثق ستوكهامرن بهم أكثر من سواهم. فأخبر تشيليتي بأن فالنتي عميل ألماني في إيطاليا وأن مهمته الرئيسية جمع معلومات عن العلاقات القائمة بين إيطاليا ودول الوفاق، وبين إيطاليا والفاتيكان. وبعد عودته إلى روما، أطلع أنطونيو تشيليتي جهاز التجسس الإيطالي على المؤامرة التي اكتشفها. وفي حزيران/يونيو 1916، كان جهاز المخابرات المضاد الإيطالي قد جمع أدلة كافية ضد أرشيتا فالنتي وماريو

بوماريتشي، ولكن المحاكم لم تتمكن من توجيه تهمة الخيانة العظمى إلى الاثنين إلا في تشرين الثاني/نوفمبر.

وعندما بدأ جهاز المخابرات في روما بدراسة رسائل فالنتي المشفَّرة في صحيفة إيطاليا، اكتُشِفت الاتصالات التي يجريها فرانز فون ستوكهامرن بشبكة واسعة من العملاء داخل إيطاليا والفاتيكان. فمرّروا المعلومات لمسؤولين في الحلف المقدس قاموا بدورهم بتمريرها لجهاز التجسس المضاد، جمعية بيوس. في إحدى الرسائل، تحدّث فالنتي عن "السيد أيه" و"السيد جي". وبعد استجوابه من قِبَل المخابرات الإيطالية، اعترف أرشيتا فالنتي بأن "أيه" و"جيِ" ليسا سوى جوزبّي أمبروغتي، وهو محامٍ إيطالي كان في غالب الأحيان مبعوثاً خاصاً للبابا بندكتس الخامس عشر ولبعض الكرادلة والأساقفة. كان أمبروغتي في الواقع عميلاً متمرّساً للحلف المقدس قلّده البابا بنفسه "وسام الخدمات الكنسية".

واعتقل الإيطاليون الجاسوس البابوي. وللنجاة بنفسه، اعترف بأنه "أيه" في الواقع ولكن ليس "جي". وقال أمبروغتي إنه تسلل إلى جهاز المخابرات الألماني عملاً بأوامر الحلف المقدس، وإن المال الذي تلقاه كان قد أُودع في أحد المصارف في الفاتيكان. وبعد ممارسة مزيد من الضغوط عليه، اعترف بأن "جي" هو المونسينيور رودولف غيرلاخ، وهو كاهن بافاري كان أمين الخزانة ومؤتَمَناً على أسرار البابا بندكتس الخامس عشر.

في غضون ذلك، قال أرشيتا فالنتي إن المونسينيور غيرلاخ قد لعب دور الوسيط في أثناء فترة الحياد الإيطالي، وكان يوزّع مبالغ ضخمة من المال تَسلّمها من فرانز فون ستوكهامرن لمجموعة متنوّعة من الصحف والصحفيين. وقال إن غيرلاخ دفع أموالاً لأمبروغتي، عميل الحلف المقدس. وأُودع المال الذي تمّ تلقّيه من غيرلاخ في عدد من الحسابات المصرفية السويسرية. وقال جوزبّي أمبروغتي إن الحلف المقدس وضع غيرلاخ تحت المراقبة، واعتبر جهاز التجسس البابوي المونسينيور غيرلاخ رجلاً طموحاً وشديد الذكاء. كانت الشائعات قد تناولته مذ

كان في الأكاديمية الحَبرية الكنسية حيث كانت أخلاقه موضع ارتياب، مما حدا بجمعية بيوس للطلب من الحلف المقدس بمراقبته.

لقد ظهرت أولى علامات الارتياب عندما اختير رودولف غيرلاخ لتسلّم منصب في القاصدية الرسولية في بافاريا. ورفض الكردينال أندريا فروهيرث، رئيس السفارة البابوية، قبول غيرلاخ، فانتظر هذا الأخير في روما حيث أقام صلات بجياكومو دِلاكييزا الذي كان رئيس أساقفة بولونيا وقدِم إلى روما لتنصيبه كردينالاً. وعلى غرار بندكتس الخامس عشر، استعان دِلاكييزا بخدمات المونسينيور رودولف غيرلاخ، ولكن ذلك لم يشبع رغبات هذا المغامر المجرّد من أي مبادئ أخلاقية.

بالنسبة إلى الحلف المقدس، لم تكن أخبار خيانة غيرلاخ مفاجئة لأن جمعية بيوس أطلعت الحلف على زيارات الكاهن البافاري المتواصلة للسفارتين النمساوية والألمانية في روما في أثناء فترة الحياد الإيطالي. وكان الإيطاليون يعتقدون أن رودولف غيرلاخ عضو أساسي في جهاز التجسس التابع للقيصر الألماني في الفاتيكان، وتودّ الحكومة الإيطالية وضعه وكل زملائه أمام فرقة لإطلاق النار بتهمة التجسس والخيانة العظمى، غير أن الصحافة آنذاك كانت تتناقل تفاصيل الفضيحة. ورغب الفاتيكان، ولا سيما الإدارة البابوية الرومانية المحيطة بالبابا بندكتس الخامس عشر، في قلب صفحة فضيحة غيرلاخ بسرعة.

واستمر جهاز المخابرات الإيطالي في تزويد الفاتيكان والحلف المقدس بالمستجدات المتعلقة بالتحقيق الجاري في شأن أمين الخزانة البابوي السابق. وأخيراً، اقتاد عملاء إيطاليون المونسينيور غيرلاخ إلى الحدود السويسرية في 5 كانون الثاني/يناير 1917. وخضع أرشيتا فالنتي وجوزبّي أمبروغتي المتورطين في المؤامرات ضد الدولة الإيطالية للمحاكمة في ربيع ذلك العام بتهمة الخيانة العظمى والتجسس. لم يكن رودولف غيرلاخ موجوداً في أثناء المحاكمة، وهكذا لم يكن مضطراً إلى الشهادة أو الدفاع عن نفسه. فصدر حكم بالإعدام بحق

فالنتي، وحكم غيابي بالسجن المؤبد بحق غيرلاخ، وحكم بالسجن لمدة ثلاث سنوات بحق أمبروغتي. ومع ذلك، لم يقضِ جوزبّي أمبروغتي أي يوم في السجن بفضل مُحسِن سرّي قد يكون الحلف المقدس.

كانت قضية غيرلاخ إحدى أكبر الفضائح في التاريخ البابوي. وأدى الدليل الذي أثبت خيانة رودولف غيرلاخ للبابا والفاتيكان إلى دخول بندكتس الخامس عشر في حالة من الكآبة العميقة. فكتب أمين سر الدولة، الكردينال بييترو غاسباري، لغيرلاخ مستدعياً إياه إلى الفاتيكان للإجابة عن الاتهامات الموجَّهة إليه. ولكن غيرلاخ لم يُبدِ أي تجاوب، بل فضّل البقاء مختبئاً في سويسرا، آمناً من الذراع الطويلة لجهاز المخابرات الإيطالي.

وبرّأت محكمة عسكرية الفاتيكان، والبابا بندكتس الخامس عشر، وأمين سر الدولة بييترو غاسباري، وجهاز التجسس الفاتيكاني المضاد المتمثل بجمعية بيوس، وجهاز التجسس الفاتيكاني المتمثل بالحلف المقدس، من أي مسؤولية في قضية غيرلاخ. ولكن مما لا شك فيه أن تورط جاسوس الحلف المقدس، جوزبّي أمبروغتي، قد ألحق ضرراً بصورة الحياد التي أراد الفاتيكان إظهارها. وصدرت تلميحات من لندن، وباريس، وروما، وواشنطن، بأن الفاتيكان متعاطف مع القوى الوسطى ويستخدم أجهزته المخابراتية لصالح تحقيق انتصار ألماني-نمساوي. وبالنسبة إلى حكومات دول الوفاق، كانت قضية رودولف غيرلاخ دليلاً على ذلك. فأمين الخزانة البابوي السابق كان قد استخدم القنوات الفاتيكانية لتمرير معلومات لقوة عدوّة في زمن الحرب. وبعد سنوات، تبيّن أن الفاتيكان سدّد أتعاب المحامي الذي دافع عن المونسينيور غيرلاخ في المحكمة العسكرية التي نظرت في تهمة الخيانة العظمى الموجَّهة إليه. حتى إن أحد أعضاء الحلف المقدس حاول إقناع الجنرال لويجي كاردونا، القائد الأعلى للقوات الإيطالية المسلحة، بالتوسط لدى المحكمة لسحب الاتهام الموجَّه ضد غيرلاخ.

ومن المعروف أيضاً أن المونسينيور فيديريكو تدسكيني الذي ينتمي إلى أمانة

سر الدولة شهد لدى جهاز التجسس الإيطالي والمحكمة العسكرية أن مراسلات أمانة سر الدولة مع دول القوى الوسطى خضعت للقيود بعد إعادة الفاتيكان النظر بنشاطاته الدبلوماسية انسجاماً مع الرقابة التي فرضتها الحكومة الإيطالية. واعترف تدسكيني بأن المونسينيور غيرلاخ أجرى في أواخر العام 1915 وأوائل العام 1916 اتصالاً مطوَّلاً بماتياس إرزبرغر وفرانز فون ستوكهامرن اللذين اعتُبرا جاسوسَين ألمانيّين، وأن البابا بندكتس الخامس عشر أجاز هذا الاتصال. وجاء في التفسير الذي قدّمه الحَبر الأعظم أنه أريدَ بهذه الإجازة إقناع ألمانيا بالتوقف عن قصف المناطق المدنية والسماح بنقل الجنود الألمان والفرنسيين الجرحى إلى سويسرا. وكان غيرلاخ ينكر على الدوام إجراء أي نوع من الاتصالات مع عملاء ألمان في دول محايدة عملاً بأوامر البابا. وأقرّ بالفعل دفع مبالغ ضخمة من المال خصصتها برلين لصحف مثل صحيفة النصر للترويج للحياد الإيطالي. وجاء في تقرير رفعه ماتياس إرزبرغر لبرلين أن المونسينيور غيرلاخ كان المصدر الرئيسي لتزوّد جهاز التجسس بمعلومات متعلقة بالأوساط المقرَّبة من البابا.

وفي الأيام الأخيرة للحياد الإيطالي، أجاز إرزبرغر للمونسينيور غيرلاخ توزيع حوالى خمسة ملايين لير لأعضاء في الإدارة البابوية، وصحافيين، وسياسيين، في مسعى لإبقاء إيطاليا خارج الحرب. وبعد انضمام حكومة روما إلى دول الوفاق، استمر غيرلاخ في تلقي مبالغ طائلة من المال من ستوكهامرن. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1915، أشارت أجهزة المخابرات الألمانية إلى أنها دفعت حوالى 200.000 لير للأب لابوما، عميل الحلف المقدس، وللمونسينيور فرنشسكو مارشيتي-سلفاغياني، القاصد الرسولي البابوي في سويسرا. وبدءاً من أيار/مايو من ذلك العام، كان المونسينيور غيرلاخ العميل الألماني الرئيسي داخل الكرسي الرسولي. وعندما انتشر خبر الفضيحة وطلبت إيطاليا من الفاتيكان تسليم المسؤولين، كانت إجابة بندكتس الخامس عشر الوحيدة أن الفاتيكان هو الضحية الرئيسية.

وانتقل غيرلاخ إلى سويسرا بشكل دائم وقُلّد وساماً من قِبَل ويلهلم الثاني، قيصر ألمانيا، وشارل الأول، إمبراطور النمسا، الذي خلف جده فرانز جوزيف الأول في 1 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1916. وبعد فترة وجيزة، تخلى غيرلاخ عن الحياة الدينية. وبعد انتهاء الحرب، كافأته أمم عدة بالميداليات لقاء الخدمات التي قدّمها لها.

أظهرت قضية غيرلاخ تعاطف البابا بندكتس الخامس عشر مع أعداء إيطاليا. وازدادت مراقبة أجهزة المخابرات الإيطالية للبابا ومستشاريه المقرَّبين للتأكد من عدم تمكن القوى الوسطى من استخدام الفاتيكان كمصدر للمعلومات المخابراتية. واكتشف الحلف المقدس بعد أشهر قليلة المعاهدة الموقَّعة من قِبل وزير الخارجية، سونينو، والتي تُضفي الصفة الرسمية على دخول إيطاليا الحرب، وتضمّنت فقرة سرية حملت اسم البند 15 ووُضعت بتأييد من لندن وباريس وسانت بطرسبورغ. وحظّرت هذه الفقرة تدخّل الفاتيكان، أو البابا، أو أي مسؤول آخر عالي الرتبة في الكرسي الرسولي في مؤتمر سلام مستقبلي.

وبدأت دول الوفاق والقوى الوسطى تكتشف في أوائل العام 1917 أن باستطاعة الحل القائم على التفاوض فقط إنهاء ما تسببت به الحرب العالمية الأولى من سفك دماء ومجازر جماعية. وشهدت السنوات التالية مناورات لتحقيق السلام أو أقلّه تخفيض عدد الأعداء. ومذاك الحين، باتت المهمة الرئيسية لأجهزة المخابرات، بما في ذلك الحلف المقدس وجمعية بيوس، التوسط لتحقيق السلام.

الفصل الثاني عشر
التآمر من أجل تحقيق السلام (1917-1922)

في السنوات الأخيرة للحرب العالمية الأولى، استهدفت المخابرات الإيطالية النمسا والفاتيكان بشكل رئيسي. وكان البارون كارلو مونتي العميل الأكثر فعالية داخل الكرسي الرسولي، وقد أشرف أيضاً على مكتب الشؤون الدينية، وهو دائرة في وزارة العدل الإيطالية تعالج كل ما يعكّر صفو العلاقات بين الكنيسة والدولة.

أصبح مونتي بصورة غير رسمية قناة الاتصال التي تربط الحكومة في روما بالفاتيكان، وكان صلة الوصل بين أجهزة المخابرات الإيطالية والحلف المقدس بطريقة من الطرائق، وقد ساعدته علاقته الوثيقة بالحَبر الأعظم التي يعود تاريخها إلى أيام الدراسة في جنوا على لعب هذا الدور. كان مونتي مُطلَق اليدَين داخل الفاتيكان ولا يحتاج إلى تبرير ما يقوم به، ويتلقى معلومات من معاوني البابا المقرَّبين ويمرّرها لجهاز المخابرات الإيطالي، وذلك بمعرفة الأب الأقدس التامة.

وتتناول المعلومات المنقولة بواسطة عملاء الحلف المقدس "غير الخاضعين لأي قيود" ما تعتزم الإدارة البابوية القيام به في شأن مسألة أو أخرى، أو أمور تتعلق بسياسيين، أو أخبار جمعتها المخابرات البابوية في عاصمة أجنبية ما. وكان كارلو مونتي يستعين أحياناً بالحلف المقدس، كما حدث في شباط/فبراير 1917 عندما حذّر الفاتيكان أجهزة المخابرات الإيطالية من الوضع الاجتماعي المتدهور داخل روسيا إبّان حكم القيصر نقولا. حتى إن مونتي لم يكن مستبعَداً عن الاجتماعات بين البابا وكرادلته، أو عن الرسائل السرية المشفَّرة التي يرسلها الحَبر الأعظم أو أمين سر الدولة إلى بعض القاصديات الرسولية.

كانت المديرية العامة للأمن العام هي الدائرة الإيطالية التي تمارس مراقبة شديدة على نشاطات الفاتيكان وموظفيه. فقد نشر سيزار برتيني، رئيس شرطة

بورغو، وهي المنطقة الإيطالية التي تضم الفاتيكان، عدداً كبيراً من العملاء السريين في مختلف أرجاء الكرسي الرسولي، ولا سيما حيث يكون باستطاعتهم المراقبة والإبلاغ عن وصول وذهاب دبلوماسيين، وصحافيين، وأعضاء رفيعي المنزلة في الإدارة البابوية الرومانية. ويقوم عملاء برتيني بلباسهم المدني بزيارة يومية لثكنات الحرس السويسري والأماكن التي يتردد عليها رجال الحرس خارج دوام عملهم لجمع المعلومات.

كانت مجموعة المخبرين الرئيسية داخل الفاتيكان تدعى فاتيكانيتو، وتتألف من أعضاء سابقين رفيعي المنزلة في إدارة بيوس العاشر البابوبة ومن معارضين لبندكتس الخامس عشر الذي جرّدهم من السلطة. وكانت المجموعة بقيادة الكردينال رافاييل ميري ديل فال، أمين سر الدولة إبّان ولاية بيوس العاشر الحَبرية؛ والمونسينيور نيكولا كانالي، أمين سر دولة ثانٍ، وأمينَي الخزانة البابوية، المونسينيور كارلو كاشيا دومينيوني والمونسينيور أربوريو ميلا دي سان إيليا. والانتقام هو شعار حلقة فاتيكانيتو، وقد أُعدّت عملياتها بهدف إذلال البابا، وتشويه سمعة سياسات الفاتيكان، وإعاقة العمل الدبلوماسي في الخارج، وتزويد أجهزة مخابرات صديقة أو عدوة بمعلومات عن عمليات الحلف المقدس.

والتقرير الذي يعود تاريخه إلى 22 آذار/مارس 1915 هو مثال عن المعلومات التي جمعتها الفاتيكانيتو ومررتها لأجهزة المخابرات الإيطالية، ويتناول حصول الحرس السويسري على بنادق جديدة من بائع تربطه صلات بأجهزة المخابرات النمساوية. ويتناول تقرير آخر يعود تاريخه إلى 9 أيلول/سبتمبر 1916 تعاون كاهن الحرس السويسري مع السفارة النمساوية في مسائل تجسسية. ويحذّر تقرير آخر يعود تاريخه إلى 16 تشرين الأول/أكتوبر من قيام المونسينيور غيرلاخ بالحصول على خرائط لأنكونا وباري لتتمكن الغواصات الألمانية من مهاجمتهما. ويورد تقرير آخر أن مدير صيدلية الفاتيكان هو جاسوس للقيصر

الألماني. كانت كل هذه التقارير مزيّفة ويراد منها نشر صورة سلبية عن بندكتس الخامس عشر وأجهزته المخابراتية والدبلوماسية.

وهناك تقارير أخرى اعتبرها الإيطاليون مزيّفة ولكنها لم تكن هكذا في الواقع. وخير مثال على ذلك دعوة الملك الإسباني ألفونسو الثالث عشر البابا لإنشاء مقر رئيسي في إسبانيا بسبب موقف الحكومة الإيطالية العدائي حيال الفاتيكان. وكشف تقرير آخر النقاب عن توسط الملك الإسباني لدى شارل الأول إمبراطور النمسا في آذار/مارس 1917 لتحقيق سلام نمساوي بمنأى عن القوى الأوروبية وألمانيا.

وطرح عميلان للحلف المقدس هما الكونت فيرنر دي ميرود وزوجته، بولينا دي ميرود، اقتراحاً لإحلال السلام. لقد خدم هذا النبيل الذي ينتمي إلى إحدى السلالات الأقدم عهداً في فرنسا في صفوف الحلف المقدس طيلة سنوات بصفته مبعوثاً، وعمل مع زوجته في الواقع لصالح أمانة سر دولة الفاتيكان ورئيسها، الكردينال بييترو غاسباري، ناقلَين رسائل بابوية إلى مسؤولين ذوي مراتب رفيعة في الكنيسة في بلدان تخضع للاحتلال الألماني.

في أوائل نيسان/إبريل 1917، تلقى فيرنر دي ميرود اتصالاً من عميل للحلف المقدس مقرَّب من ألمانيا، من المرجح أنه الأب أنطونيو لابوا، كان يحاول الإعداد للقاء بين هذا الأخير والبارون فون در لانكن، وهو ضابط سابق في الحرس الإمبراطوري، ودبلوماسي، وعضو في جهاز المخابرات التابع للقيصر الألماني، ورئيس المخابرات الألمانية في بلجيكا.

فأخبر فيرنر دي ميرود البارون فون در لانكن بأن بعض الأوساط السياسية العليا في دول الوفاق تريد حدوث اللقاء في منطقة محايدة مثل سويسرا. فسأل الألمان ميرود عن أي "أوساط عليا" يتحدث، وذكر النبيل البلجيكي ثلاثة أسماء: بول ديشانيل، رئيس المجلس الوطني الفرنسي؛ جول كامبون، أمين عام وزارة العلاقات الخارجية؛ وأريستيد براين، رئيس المجلس. فنقل فون در لانكن بدَوره

المعلومات إلى فرانز فون ستوكهامرن، رئيس جهاز التجسس الألماني في سويسرا؛ وزيمرمان، أمين سر الدولة؛ والمستشار بيثمان هولويغ. وبعد ذلك، انتظر جواباً.

بالنسبة إلى جهاز المخابرات الألمانية والحلف المقدس، فإن ديشانيل معادٍ جداً للنمساويين، وكامبون شديد التكتم والحِرص. ويبقى براين، الخصم السياسي لكليمونصو الأكثر تطرّفاً في تأييد الحرب، الذي عارض إجراء أي مفاوضات سرية مع القوى الوسطى.

فاقترح فيرنر دي ميرود على براين لقاء فون در لانكن في سويسرا، ولكن كان يتعيّن على السياسي الفرنسي إبلاغ ريمون بوانكاريه، رئيس الجمهورية، أياً كان مقدار حبه للسلام. وبالرغم من تحذيرات الرئيس، قرر براين الاتصال برئيس الوزراء البلجيكي، دو بروكفيل، ليقوم بمرافقته إلى الاجتماع الذي كان من المتوقع حدوثه في 22 أيلول/سبتمبر 1917. وفي 9 أيلول/سبتمبر، أي قبل ثلاثة عشر يوماً من ذلك التاريخ، التقى براين بوانكاريه ثانيةً ليبلغه بمكان وزمان اللقاء. وكان الشاهد الحيادي المونسينيور الشاب أوجين باتشيللي، وهو البابا بيوس الثاني عشر المستقبلي، يتصرف باسم جهاز التجسس الفاتيكاني المضاد، جمعية بيوس.

وعندما حاول براين مغادرة فرنسا باتجاه سويسرا، لم يُسمح له بالمرور. لقد حذّرت أجهزة المخابرات الفرنسية الرئيس بوانكاريه من أن الألمان يُعدّون شرَكاً للمفاوض الفرنسي بمساعدة أجهزة التجسس الفاتيكانية. لقد حذّر شخص ما في الفاتيكان كما يبدو أجهزة التجسس الإيطالية، وأُعلم الفرنسيون بذلك. وتظهر بعض المصادر أن هذا الشخص هو الكردينال الإنكليزي فرانسيس أيدان غاسكيه الذي زوّد جهاز التجسس الإيطالي بمعلومات عن لقاء براين - فون در لانكن في سويسرا. في الواقع، كان غاسكيه يخشى من سعي جهاز المخابرات الألماني الذي يدعمه الحلف المقدس إلى إيجاد تسوية عبر مفاوضات لا تنتقص من مكانة القيصر ويلهلم والإمبراطور شارل ولا تفرض على ألمانيا والنمسا-المجر دفع

تعويضات.

وظهر في الوقت نفسه مُحب آخر لتدبّر المكائد في لعبة التوسط والمفاوضات. فعلى غرار البارون الألماني، كان هذا الوجيه في الكنيسة الكاثوليكية مُخبراً لأجهزة التجسس الفاتيكانية، وقد وُضعت بتصرّفه إحدى شبكات التجسس الأقدم عهداً ربما في العالم ولكن الأفضل بالتأكيد: إنهما المونسينيور أوجين باتشيللي وجهاز التجسس التابع له، جمعية بيوس.

فالحلف المقدس ومنظمة التجسس المضاد التابعة له ملتزمان في المبدأ بدعم أعمال الحَبر الأعظم، ويعتمدان على الكرسي الرسولي إلى حدٍّ كبير. في الحقيقة، كان جهازا المخابرات أداتَي بندكتس الخامس عشر للبقاء على اطّلاع جيد على مناورات أولئك الذين يحاولون التوسط لإحلال السلام كما حدث في أيار/مايو 1917. وغادر المونسينيور أوجين باتشيللي روما إلى ميونيخ مروراً بسويسرا، وكان بندكتس الخامس عشر قد عيّن للتوّ قاصداً رسولياً إلى العاصمة البافارية.

كان باتشيللي البالغ من العمر أربعين عاماً يتمتع بكل العلامات الفارقة للأخ المتواضع: صلَعٌ في مراحله الأولى، أنف حادٌّ، عينان غائرتان، وجسد نحيل جداً. وسمح له اطّلاعه الواسع على الدبلوماسية الفاتيكانية، ولا سيما في ما يتعلق بالمسائل الأوروبية، بتنفيذ المهمة التي أوكلها إليه البابا بندكتس الخامس عشر. بالعودة إلى العام 1914 عندما كان أمين سر ثانياً للدولة في أثناء ولاية بيوس العاشر الحَبرية، أُرسل باتشيللي إلى فيينا في مهمة سرّية للإعداد لاتصالات عالية المستوى بمساعدة المونسينيور أومبرتو بينيني، رئيس جهاز التجسس الفاتيكاني المضاد. وفي كانون الثاني/يناير 1917، عقد المونسينيور أوجين باتشيللي اجتماعه الأول مع الكونت غولوشوفسكي، ممثّل القيصر الألماني، بينما كانت المفاوضات السادسة جارية.

وبعد تسلّم منصبه الجديد في ميونيخ، أُرسل القاصد الرسولي باتشيللي إلى برلين في 26 حزيران/يونيو. وفي التاسع والعشرين منه، استقبل القيصر ويلهلم

الثاني الممثل البابوي في مقر قيادة أركان الحرب الألماني في باد كروزناخ. وبدأ الاجتماع بتعليق يضفي الاسترخاء على الجوّ، وسلّم باتشيللي الإمبراطور رسالة بخط يد البابا بندكتس الخامس عشر عبّر فيها قداسته عن رغبته في التوصّل إلى سلام مستقر يضع حداً للنتائج الكارثية للحرب. بعد ذلك، حاول أوجين باتشيللي إقناع ويلهلم الثاني بضرورة قبول الوساطة البابوية بين ألمانيا ودول الوفاق.

وطرح باتشيللي وجهات نظره بلباقة وإصرار محاولاً وضع القيصر أمام خيار لا ثانيَ له. وقال فون هرتلينغ، وزير الشؤون الخارجية الألماني، عن باتشيللي: "كان باتشيللي ذاك يساوي جيشاً". وكتب القيصر نفسه في مذكراته، "كان أوجين باتشيللي الصورة المثالية لأمير الكنيسة".

في نهاية اللقاء، غادر الموفد البابوي مع وعد ألماني رسمي بدراسة فكرة الوساطة البابوية. وكان لقاء اليوم التالي مع شارل الأول، إمبراطور النمسا-المجر، الذي كان في زيارة إلى برلين. فاجتمع به باتشيللي حيث اجتمع بالقيصر.

في غضون ذلك، كانت التقارير التي تُرفع إلى جمعية بيوس والبابا مليئة بالاقتراحات التي مكّنت بندكتس الخامس عشر من إعداد مذكرة فاتيكانية رسمية حول الغاية من التوصل إلى تسوية للنزاع عبر المفاوضات.

وسلّم أوجين باتشيللي المذكرة البابوية الجديدة لويلهلم الثاني شخصياً في 24 حزيران/يونيو، وقد لقيت منه كل استحسان. ومن دون انتظار إجابة من برلين، عمل بندكتس الخامس عشر بنصيحة باتشيللي وطلب من أمين سر دولة الفاتيكان، الكردينال بييترو غاسباري، تسليم المذكرة نفسها إلى ممثّلي دول الوفاق، فوصلت هذه الرسالة إلى فرنسا وبريطانيا العظمى في 9 آب/أغسطس.

في ذلك الوقت، أصبحت سويسرا أرضاً خصبة لعمليات المخابرات الإيطالية ضد الكرسي الرسولي. فطيلة سنوات، كانت أجهزة المخابرات الإيطالية مقتنعة بأن البلد الألبي هو مركز للعمليات السرية للحلف المقدس وجمعية بيوس.

وكان جهاز التجسس وعمليات التجسس المضاد في الفاتيكان، التي ركزت على إيجاد حل للحرب العالمية الأولى، تحت إشراف ما يشبه حكومة ثلاثية مؤلفة من المونسينيور لويجي ماليوني، المندوب البابوي في سويسرا؛ والرئيس العام لليسوعيين الذي انتقل من روما إلى سويسرا بسبب الحرب؛ ورئيس أساقفة كوير، وهي أبرشية صغيرة في رومانيا السويسرية.

كانت المخابرات العسكرية تتلقى تقارير مستمرة عن نشاطات الحلف المقدس في سويسرا لجهة التوسط بين القوى المتنازعة. واكتشف الجواسيس الإيطاليون فيضاً من الرسائل بين الممثلين البابويين وبرلين وفيينا.

وفي 23 آب/أغسطس، تقدّم السفير البريطاني في روما للبابا بندكتس الخامس عشر بطلب من ملك إنكلترا، جورج الخامس، يقضي بأن تشمل أي مفاوضات مع ألمانيا حلاً للقضية البلجيكية. كان باستطاعة باتشيللي أن يلاحظ بوضوح أن الرسالة تشير إلى لندن وبرلين فقط بأنهما الطرفان الوحيدان في هذه المفاوضات، ولكنه مكان يمكن الانطلاق منه على الأقل. وعندما بلغ الاقتراح الإتكليزي القيصر ويلهلم الثاني، قام هذا الأخير برفضه مُصرّاً على أن ألمانيا لا ترغب في تقديم أي تنازل لبلجيكا مهما كان صغيراً.

وفكرة أن البابا قد يكون يوجّه حكومة ثلاثية دولية تآمرية لم تُقلق أجهزة مخابرات دول الوفاق فحسب، بل الدوائر المناهضة للإكليروس في أوروبا أيضاً. وأبلغ السفير البريطاني إلى الكرسي الرسولي الحكومة الإيطالية بأن أجهزة المخابرات العسكرية مهتمة "بالكمية أكثر من النوعية" في عملية جمع المعلومات. واتهم الإيطاليين بأنهم أكثر اهتماماً في جمع المعلومات الصناعية، ولكنهم بحاجة إلى التركيز على الفاتيكان أيضاً. في الواقع، كان الإنكليز على عِلم بمناورات الحلف المقدس في فيينا وبرلين، ويعتقدون بأن أجهزة المخابرات البابوية تقيم اتصالات مباشَرة مع ويلهلم الثاني وشارل الأول، وأنه يجب على أحدهم استغلال هذه الاتصالات.

في صيف العام 1915، عرض وزير الشؤون الخارجية في الاتحاد السويسري إرسال حقيبة دبلوماسية من بيرن إلى الفاتيكان مرة واحدة أسبوعياً. وكانت هذه الحقيبة المليئة بمغلفات من مختلف الأحجام مختومة بأختام شمعية على صورة مفاتيح القديس بطرس، وتنطلق من الوزارة في بيرن إلى السفارة السويسرية في روما. ولدى وصول الحقيبة إلى روما، يقوم فرد من الحرس السويسري وعميلان من الحلف المقدس باستلامها.

وأرادت أجهزة المخابرات الإيطالية الاطّلاع على محتويات الحقيبة، ولا سيما عندما علِموا بأنها تحتوي على مغلف مصدره إحدى دول الأعداء. وكان يصعب قراءة محتويات هذه المغلفات لأن الحلف المقدس بدأ قبل وقت قصير من اندلاع الحرب بتوزيع نظام رموز للكتابة المشفَّرة خاصة بالرسائل فائقة السرية على السفارات البابوية.

فطوال قرون، حمت الحكومات مراسلاتها السرية من الحكومات الأخرى المتطفلة - أم أنها حاولت على الأقل القيام بذلك - من خلال رموز وشيفرات. وكانت رموز الفاتيكان والحلف المقدس التي ابتكرتها دائرة الكتابة بالشيفرة في الفاتيكان، التوزيع الرمزي، هي الرموز الوحيدة التي لم تتمكن أجهزة مخابرات دول الوفاق والقوى الوسطى من حلّها.

وفي كانون الأول/ديسمبر من العام 1915، أي بعد أشهر قليلة من إعلان الحرب، أنشأت أجهزة المخابرات الفاتيكانية وحدة خاصة من واضعي الرموز، وأخرى من كاتبي الرسائل بالشيفرة، أُطلق على أفرادهما اسم حالّي الرموز. كان نظام الكتابة بالشيفرة المستخدَم من قِبل الحلف المقدس معقّداً إلى حدٍّ ما، وقد استُخدم بصورة عامة في كل الاتصالات بين أمانة سر الدولة والممثلين البابويين في مختلف أنحاء العالم. وبين عامَي 1914 و1917، كان لكل قاصد رسولي بابوي كتاب رموز أعدّتها دائرة التوزيع الرمزي ويحتوي علسبعمئة أو ثمانمئة مجموعة تتألف كل منها من أعداد من ثلاثة أو أربعة أرقام. وتمثّل كل

من هذه المجموعات الرقمية كلمة أو رسالة. فعلى سبيل المثال، في السلسلة التالية "492-7015-119-3683 "، 492=رسالة تمّ تلقّيها؛ 7015=سويسرا؛ 119=عميل؛ 3683=لوغانو.

ومع ذلك، تمثلت المشكلة بأنه كان يتعيّن إدخال تغييرات على كتاب الرموز بين حين وآخر، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى وجوب إضافة كلمات مثل غواصات، هجوم، انسحاب، هدنة، مدافع، وكلمات أخرى. وفي أواخر الحرب تقريباً، حصلت أجهزة المخابرات الإيطالية على أحد هذه الكتب، مما سمح لهم بالاطلاع على رسائل هامة بين الفاتيكان وبعثاته في النمسا-المجر، وبلجيكا، وإسبانيا، وسويسرا، والولايات المتحدة. وهناك تقارير صادرة عن القاصدين الرسوليين تتناول المواقف السياسية للدول حيث يمارسون نشاطاتهم الدبلوماسية، كما تتناول اتصالات سرية بين القاصدين الرسوليين والسياسيين والمفكرين، وتوجيهات من أمانة سر دولة الفاتيكان للقاصدين الرسوليين البابويين في شأن إدخال تغييرات على سياسة الفاتيكان وتحذّر من أخبار سياسية وعسكرية ومن مبادرات سلمية تقدّمت بها دول الوفاق أو القوى الوسطى؛ هو نوع البيانات التي كان الإيطاليون على عِلم بها.

ولكن الوضع تغيّر عندما قرّرت دائرة التوزيع الرمزي التابعة للحلف المقدس تعزيز نظامها الأمني المتعلق بإرسال البرقيات في 29 تموز/يوليو 1917. وفي 1 آب/أغسطس، أرسل البابا بندكتس الخامس عشر إلى كل المشاركين في الحرب، وعبر قاصديه الرسوليين، وثيقة تدعو إلى إحلال السلام من خلال الموافقة على بعض النقاط المحددة: إجلاء متبادَل للقوات من الأراضي المحتلة وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه في السابق، ورفض مشترَك لتسديد تعويضات الحرب، وحرية الملاحة في البحار كافة، وتخفيض كمية الأسلحة، والفصل في النزاعات من خلال التحكيم، وإجراء مفاوضات مفتوحة حول الأراضي المتنازَع عليها. واعتبر بندكتس الخامس عشر وأمين سر دولة الفاتيكان الكردينال بييترو غاسباري أنه

من الضروري التوصل إلى اتفاق سلام في أسرع وقت ممكن لأن عملاء الحلف المقدس بدأوا بإرسال معلومات حول احتمال دخول الولايات المتحدة الحرب. كان الفاتيكان يعلم أن وضع القوى الوسطى سيزداد سوءاً إذا حدث ذلك. لذلك، أمر البابا أمين سر الدولة وأجهزة التجسس بمحاولة التوصل إلى اتفاق سلام قبل أن تطأ قدما أول جندي أميركي التراب الأوروبي.

وفي 6 نيسان/إبريل 1917، دخلت الولايات المتحدة الحرب متخذةً جانب دول الوفاق، ولكنّ نقل الجنود والأعتدة الحربية إلى أرض المعركة تطلّب وقتاً أطول - تباطؤ كان على الفاتيكان والقوى الوسطى الاستفادة منه - كما أنّ الرياح لم تكن تجري بما تشتهي دول الوفاق. فقد تمرّدت بعض الوحدات في الجيش الفرنسي رافضةً إثبات وجودها على الجبهة، في حين أطاحت الثورة بحكومة القيصر نقولا الثاني في روسيا واستُبدلت بحكومة مؤقتة. ووعد النظام الشيوعي الجديد الحلفاء بأنه سيستمر في الحرب، ولكن حالات التمرد والفرار المتواصلة حملت مسؤولي هيئة الأركان العامة الثورية على الاعتقاد بأنه ليس بالإمكان الإيفاء بهذا الوعد.

في ذلك العام، أخبر المونسينيور أوجين باتشيللي البابا بندكتس الخامس عشر والحلف المقدس بأن المستشار الألماني ثيوبالد فون بيثمان-هولويغ يريد الشروع بمفاوضات سلام مع الحلفاء. ودوّن باتشيللي ملاحظة بخط يده لا تزال موجودة في محفوظات الفاتيكان:

> يعتقد بيثمان-هولويغ أن هناك فرصة لتحقيق السلام ما إن تُرفع هيمنة السياسيين الموالين للحرب عن الريشستاج الألماني ويحل مكانهم سياسيون موالون للسلام. أعتقد أنه الوقت المناسب للقيام بأمر ما والموافقة على وساطة قداسته.

علِمت أجهزة المخابرات في الفاتيكان ولندن وباريس وروما بالاجتماعات السرية بين بيثمان-هولويغ والقاصد الرسولي باتشيللي. ولكن المشكلة تمثلت

بأن دول الوفاق لم تشاطر البابا وجهة نظره حيال إيجاد تسوية مع النمسا-المجر وألمانيا من خلال المفاوضات بعد ثلاث سنوات من الحرب؛ لا بل إنها توقعت عدم بلوغ مرحلة التسوية عندما حذّرت أجهزتها المخابراتية من أن البابا بندكتس الخامس عشر، وأمين سر دولة الفاتيكان الكردينال بييترو غاسباري، وأجهزة التجسس التابعة له المتمثلة بالحلف المقدس وجمعية بيوس، يريدون إنهاء الحرب الأوروبية قبل تدخّل الولايات المتحدة وآلتها العسكرية.

بالنسبة إلى دول الوفاق، كان الحَبر الأعظم موالياً للألمان بشكل واضح، لذلك أوضحت فرنسا أنها لن توافق أبداً على وساطة الفاتيكان. وأخبر الرئيس الأميركي وودرو ويلسون القاصد الرسولي البابوي في واشنطن أن بلاده لن توافق كذلك على التفاوض مع إمبراطوريتين لم تصدر عنهما أي إشارة بالرغبة في السلام خلال سنوات الحرب الثلاث. حتى إن إيطاليا لم تنظر إلى الوساطة البابوية بجدّية. فمنذ اللحظة الأولى لافتضاح أمر قضية غيرلاخ، اعتُبر الفاتيكان والبابا بندكتس الخامس عشر مؤيّدَين صريحَين للقوى الوسطى.

ومن جهة ثانية، ابتهج أوجين باتشيللي بنتائج اجتماعاته مع وزير الخارجية ثيوبالد فون بيثمان-هولويغ. وكان القاصد الرسولي في برلين يصف الوضع على نحو متشائم حتى في رسائلة المشفَّرة. وما لم يُطلع باتشيللي الفاتيكان عليه هو الوعود التي قطعها على فيينا وبرلين من دون العودة إلى رؤسائه؛ وعود كان يعلم أن ليس باستطاعته الإيفاء بها، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى افتقاره إلى أي دعم داخل حكومات دول الوفاق.

في أيلول/سبتمبر 1917، اختفى باتشيللي بشكل غامض من برلين وظهر في روما. لقد خطط للاتصال بسدني سونينو، وزير الخارجية الإيطالية، وإبلاغه بأن النمسا وألمانيا راغبتان في إعادة السيادة إلى بلجيكا ودفع تعويضات لبروكسيل، والاعتراف بالطموحات الإيطالية في ترنتين. كان سونينو يعرف ذلك مُسبَقاً بفضل اعتراض برقيات للفاتيكان، ولكن ما لم يكن باتشيللي ووزير الخارجية

الإيطالية على عِلم به هو أن القاصد الرسولي في فيينا وجّه رسالة مختلفة يصرّ فيها على أن الإمبراطور شارل الأول لن يقدّم أي تنازلات لإيطاليا على صعيد الأرض. بالنسبة إلى الإيطاليين، فقد عنى ذلك أن الفاتيكان وقاصده الرسولي في برلين، المونسينيور أوجين باتشيللي، يلعبان دورَين مختلفَين.

مرت مدة قصيرة من الزمن من دون أن يكون الفاتيكان على عِلم بالبند 15 الشهير في معاهدة لندن، والذي استثنث فرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا وروسيا بموجبه الفاتيكان من المشاركة في أي مؤتمر مستقبلي للسلام. ولكنّ عميلاً للحلف المقدس في وزارة الخارجية البريطانية اكتشف الوثيقة ومرّر المعلومات لبييترو غاسباري. ومذاك الحين، بدأت الكنيسة حملة عشواء بأمر من بندكتس الخامس عشر داخل الجاليات الكاثوليكية في البلدان المشاركة في الحرب وتلك المحايدة أيضاً، وذلك لحمل جورج الخامس ملك إنكلترا على التراجع عن البند 15. ولكن قضية جونكس كانت على وشك الانفجار، وألحقت موجاتها الصدمية الضرر بمنظمة التجسس المضاد البابوية، جمعية بيوس.

ففي أواخر العام 1917 وأوائل العام 1918، كشفت صحيفة دوسلدورف تاغبلات النقاب عن مؤامرة ضد القوى الوسطى في بلجيكا. لقد اتهم هاينز برووبلر، محرر الصحيفة وعميل جهاز التجسس الألماني من حين إلى آخر، مجموعة من أنصار التكامل الكاثوليكي تدعمها روسيا بمحاولة إضعاف الأمن الألماني. وادعى برووبلر على صفحات صحيفته أن نشر كتاب حديث العهد في فرنسا بعنوان الحرب الألمانية والكنيسة الكاثوليكية هو العدوّ الحقيقي للكنيسة الكاثوليكية في العالم، محذّراً من رغبة القيصر في الحلول مكان البابا بصفته الرمز الكنسي للحكم المُطلَق في أوروبا المستقبلية. وأعلن برووبلر أن منظمة التجسس المضاد الفاتيكانية، جمعية بيوس، قامت بتنظيم المؤامرة المعادية للألمان من خلال شخص يدعى جونكس، وهو محامٍ في مدينة جينت البلجيكية الخاضعة للاحتلال الألماني. وحصلت دوسلدورف تاغبلات على الوثائق

التي كان الكاهن الدومينيكاني فلوريس بريمس قد حاول تقديمها للبابا بيوس العاشر وأمين سر دولة الفاتيكان إبّان عهده، الكردينال رافاييل ميري ديل فال.

وفي 3 شباط/فبراير 1918، ظهرت الشرطة العسكرية الألمانية وعملاء جهاز المخابرات التابع للقيصر في منزل جونكس. وجاء في الرواية الألمانية أن المحامي وعميلاً في جهاز التجسس الفاتيكاني المضاد يقيمان اتصالات دائمة مع بارون يدعى سونثوف، وهو جاسوس روسي، لشن حملات ضد ألمانيا والقيصر ويلهلم الثاني.

لقد ثبت أن كشف النقاب عن قضية جونكس كانت كارثة بكل معنى الكلمة بالنسبة إلى جمعية بيوس والفاتيكان. وفي حين كان بندكتس الخامس عشر وقاصده الرسولي في برلين، أوجين باتشيللي، يحاولان التفاوض حول اتفاق سلام بين دول الوفاق والقوى الوسطى، كانت أجهزة المخابرات التابعة للحَبر الأعظم تقوم بعمليات سرية ضد أحد الجانبَين. وقد ألحق هذا الأمر ضرراً كبيراً بصورة الحياد التي كان يريد البابا إظهارها في أثناء المفاوضات. لذلك، أمر أمين سر دولة الفاتيكان، الكردينال بييترو غاسباري، بإيقاف كل نشاطات جمعية بيوس. فعُلّقت عمليات جهاز التجسس المضاد، وتمّ استيعاب موظّفيه من قِبل الحلف المقدس. ومذاك الحين، تسلّمت جمعية بيوس، بصفتها دائرة ثانوية ضمن جهاز التجسس التابع للكرسي الرسولي، مهمة توجيه عمليات التجسس المضاد داخل الفاتيكان وهيئاته الإدارية بطلب من البابا.

في الوقت نفسه، طلب البابا من غاسباري الاهتمام بوجوب إعداد كل الكهنة الشبان في أكاديمية النبلاء الكنسيين الحَبرية، وهي المؤسسة التربوية التي يتخرج منها كل المسؤولين رفيعي المقام في الإدارة البابوية، للعمل كدبلوماسيين لا بل كجواسيس أيضاً؛ إذا اقتضت الظروف ذلك. لقد طُلب من الأكاديمية تعليم القانون، والتاريخ، واللغات، والسياسة، ليتمكن خرّيجوها من تشكيل سلك دبلوماسي بابوي.

وسرعان ما أثمر قرار بندكتس الخامس عشر، وبدأت نخبة كنسية جديدة بشغل منصب القاصد الرسولي في البلدان الأكثر أهمية في العالم. ومن دبلوماسيي هذه النخبة وجواسيسها جوزبّي أفيرسا وأوجين باتشيللي (البابا بيوس الثاني عشر المستقبلي) في ألمانيا، رافاييل سكابينيللي دي ليغوينو في النمسا، فرنشسكو مارشيتي-سلفاغياني ولويجي ماليوني (أمين سر الدولة المستقبلي) في سويسرا، جوليو تونتي في البرتغال، وفيديريكو تدسكيني في إسبانيا.

في غضون ذلك، وبينما كانت الحرب على مشارف نهايتها، ناهزت الخسائر الألمانية وحدها مليونَي شخص، ولم يعُد أي من وودرو ويلسون وقادة دول الوفاق راغبين في توقيع أي اتفاق سلام من خلال المفاوضات مع ألمانيا والقيصر ويلهلم الثاني. وفي 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1918، فرّ إمبراطور ألمانيا، ويلهلم الثاني، إلى هولندا وتخلّى عن منصبه. وسلّم الأمير ماكس فون بادني، المستشار الأخير في الرايخ الثاني الذي أسسه أوتو فون بيسمارك، السلطة إلى رئيس انتقالي هو الديمقراطي الاجتماعي فريدريش إيبرت.

وفي 27 أيلول/سبتمبر 1919، أعلن وزير الخارجية هرمان مولر أن مقر البعثة الدبلوماسية البروسية ستصبح رسمياً السفارة الألمانية في الكرسي الرسولي، وأن دييغو فون برغن سيكون أول سفير.

قرر ماتياس إرزبرغر، وهو وزير في الرايخ وجاسوس سابق، إقامة اتصالات سرية بالمونسينيور أوجين باتشيللي من خلال عملاء التجسس التابعين لألمانيا والفاتيكان. وسعى إرزبرغر وباتشيللي إلى إعادة بناءٍ كلّية للعلاقات بين الدولة الألمانية والفاتيكان، وتنشيط جهازَي التجسس في البلدين إذا اقتضى الأمر ذلك لإنجاز المهمة. وهكذا كان.

بعد ذلك، أبلغ الحلف المقدس البابا بندكتس الخامس عشر بأن المونسينيور باتشيللي يجري مفاوضات من دون تفويض من قِبل أمانة سر الدولة، وأن

صورة الكرسي الرسولي ستتشوّه إذا لم ينجح القاصد الرسولي في برلين في التوصل إلى اتفاق تكتيكي مع الرايخ من دون إغاظة بافاريا الكاثوليكية. وكان قرار إنشاء سفارة ألمانية في الكرسي الرسولي يفترض مُسبَقاً إغلاق السفارة البافارية، ولم يكن باتشيللي راغباً في التعاطي مع وزير الخارجية الألمانية ذي النزعة البروتستانتية إذا عنى ذلك إغلاق مقر البعثة البافارية الكاثوليكية.

لقد أراد باتشيللي وفدَين دبلوماسيَّين مختلفَين: سفارة ألمانية في الفاتيكان وقاصدية رسولية للشؤون الألمانية في برلين، من دون أن تُعنى أي منهما بالشؤون البافارية. وأراد في الوقت نفسه بعثة بافارية في روما وقاصدية رسولية بابوية في ميونيخ. وقرر إرزبرغر دعم خطة القاصد الرسولي بحثٍّ من أوجين باتشيللي. لقد هدد باتشيللي كما يبدو بأن يكشف للحلفاء عن طبيعة منصب ماتياس إرزبرغر السابق، وعن بعض العمليات التي قام بها إرزبرغر في إيطاليا في أثناء الحرب.

أخيراً، استسلم الرايخ، ووافقت بروسيا على مضد على أن تغدو سفارتها في روما مقر البعثة الدبلوماسية للرايخ في الفاتيكان. لقد مرت مدة كافية من الزمن حتى ذلك الوقت منذ أن أخبر إرزبرغر رئيس الأساقفة جوزبّي أفيرسا بأن القيصر لن يقبل أبداً بقاصد رسولي في بافاريا كان قد شغل المنصب نفسه في بروسيا أو الرايخ لأنه سيكون أمراً مُذلاً.

فأرجأ باتشيللي توقيع الاتفاقية مع الرايخ، وأدى ذلك برأي المؤرخ كلاوس سكولدر في كتابه الكنائس والرايخ الثالث إلى "نقطة انطلاق مشؤومة مكّنت هيتلر عام 1933 من حمل الكنيسة الكاثوليكية الألمانية على الإذعان في غضون أسابيع قليلة".

بمعنى آخر، كان باستطاعة أوجين باتشيللي كقاصد رسولي في برلين التوصل إلى اتفاقية رسمية لتنظيم العلاقات بين ألمانيا والكنيسة الكاثوليكية في أوائل عشرينيات القرن العشرين من دون الحد من النشاط السياسي للكاثوليك

الألمان. ولكن ذلك لم يعد ممكناً في أوائل الثلاثينيات إذ اعتبر هيتلر أن التوقيع على اتفاقية مع الفاتيكان هو وسيلة لإخراج الكاثوليك الألمان وأحزاب الوسط الكاثوليكية من المشهد السياسي كي لا يكونوا عائقاً أمامه. ووفقاً لمحللين سياسيين ومؤرخين، تصرّف باتشيللي بطريقة تعود على هيتلر بالفائدة وساعده على التخلص من عبء المجموعات السياسية العديدة في الوسط الكاثوليكي. ولم يكن هيتلر يريد مواجهة باتشيللي بوصفه قاصداً رسولياً أو بابا.

ونشأ وضع آخر في مواجهة الحلف المقدس وأوجين باتشيللي كقاصد رسولي في نيسان/إبريل 1920، وتمثّل بحدوث نزاع بين ألمانيا وفرنسا حول استخدام الأخيرة أفواجاً من الأفريقيين كقوة احتلال في منطقة بلاد الراين.

كان باتشيللي قد تلقى احتجاجات من الكاثوليك بسبب قيام جنود أفريقيين في الجيش الفرنسي باغتصاب نساء وأطفال كاثوليك. وفي 31 كانون الأول/ديسمبر، وجّه الكردينال أدولف بيرترام رسالة إلى أمين سر دولة الفاتيكان، بييترو غاسباري، يتهم فيها "فرنسا بتجنيد أفريقيين ارتكبوا اعتداءات شنيعة بحق نساء وأطفال المنطقة، وذلك بسبب افتقارهم غير المتمدّن إلى الثقافة والأخلاق، مما أدى إلى وضعٍ عُرِف باسم العار الأسود". وبالرغم من احتجاجات الألمان، نفّذ الفرنسيون خططاً تقضي بإرسال مزيد من الجنود الأفريقيين إلى تلك المنطقة. وبدأ باتشيللي بحثّ غاسباري على تنشيط الحلف المقدس للتدخل.

ونفى السفير الفرنسي ادعاءات باتشيللي وبيرترام متهماً إياهما بشن حملة دعائية مناهضة للفرنسيين. ومع ذلك، فإن تورّط جنود وضباط من بلدان في شمال أفريقيا ومستعمرات فرنسية في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى بهذه القضايا هو أمر صحيح.

وقرر الحلف المقدس إرسال "محققين" إلى المنطقة لجمع شهادات الذين تعرّضوا للاعتداء. وكشف جواسيس البابا عن تعرّض نساء وأطفال بلاد الراين لمختلف أنواع الاعتداءات المنحرفة من قِبل الجنود الفرنسيين: فتيان لم يبلغوا

العاشرة من العمر تعرّضوا للاختطاف والاغتصاب؛ فتيات مراهقات تعرّضنَ للاغتصاب وجُعِلنَ عبدات لتلبية الرغبات الجنسية؛ نساء ضُرِبنَ واغتُصبنَ؛ وحالات مماثلة لا تُحصى ولا تُعدّ.

كان العملاء يرفعون تقارير للبابا بندكتس الخامس عشر وللقاصد الرسولي باتشيللي كذلك، ولكن إحدى الحالات زادت من حدة التوتر. لقد اختطف ثلاثة جنود وضابطان من الأفواج الفرنسية فتاة في الحادية عشرة من عمرها تدعى نينا هولبك. ووُجدت جثتها بعد يومين موثَقة بعمود في مخزن حبوب مهجور. لقد تعرضت نينا للتعذيب بطريقة ساديّة واغتُصبت حتى الموت. فطالبت ألمانيا بتحقيق العدالة، ولكن أمّة مهزومة تسببت بحرب عالمية لا تملك هذا الحق. ومع ذلك، قرر باتشيللي منحها إياه.

وعقد العملاء المرسَلون من روما العزم على اتخاذ إجراء ما في شأن المهاجمين. فجمعوا معلومات عن جداول أعمال الخاطفين والأماكن التي قصدوها، وتحققوا من نقاط التفتيش على الطرقات العامة والثانوية، ومن الثكنات التي كانت تأوي الرجال الخمسة الذين هاجموا الفتاة. مكتبة الرمحي أحمد

وتمثلت الخطوة التالية الموازية في خطة الهجوم التي وضعتها منظمة التجسس البابوية، شن حملة إعلامية واسعة النطاق في الولايات المتحدة وبريطانيا تُتهَم فيها فرنسا بمهاجمة فتيات بيضاوات في بلاد الراين من قِبل جنود ذوي بشرة ملوَّنة ينتمون إلى وحداتها المقاتلة. ونتيجةً للضغوطات التي حشد جهاز التجسس البابوي كل طاقاته لممارستها في واشنطن، قرر الكونغرس تشكيل لجنة تقصّي حقائق للانتقال إلى ألمانيا. ظن باتشيللي أن الحكومة الأميركية ستضغط في نهاية المطاف على باريس لوضع حد للهجمات وعمليات الاغتصاب التي يتعرض لها النساء والأطفال من قِبل جنود أفريقيين، ولكن النتيجة كانت مختلفة تماماً. لقد نصحت إدارة الرئيس ويلسون اللجنة بعدم اتخاذ أي إجراءات أو تدابير ضد فرنسا في ما يتعلق بالشكاوى القادمة من

ألمانيا والكرسي الرسولي.

وفي 7 آذار/مارس 1921، وجّه أوجين باتشيللي ثانيةً رسالة لبييترو غاسباري يستعلم فيها عن موقف الحَبر الأعظم، ولكن أمين سر الدولة نصح بندكتس الخامس عشر هذه المرة بعدم التدخل دفاعاً عن الأطفال والنساء الألمان. وتوقفت شكاوى الكرسي الرسولي المقدَّمة ضد باريس.

ومما يدعو للغرابة أن الجنود الثلاثة المتهَمين باغتصاب نينا هولبك وقتلها، والذين خضعوا للمحاكمة من قِبل السلطات العسكرية الفرنسية، ظهروا ذات يوم عراةً وأيديهم موثَّقة وراء ظهورهم؛ لقد تمّ خنقهم. وشُنق الضابطان حتى الموت على عارضة في مخزن الحبوب نفسه حيث وُجدت جثة نينا، وكانا قد قادا الهجوم على الفتاة من دون أن يتلقيا تأنيباً رسمياً. ولم يتم العثور أبداً على المخططين لهذه الجرائم، ولكن الاتهامات بتعرّض النساء البيضاوات للعار الأسود استمرت حتى أعاد هيتلر احتلال المنطقة بعد أعوام.

بالنسبة إلى أوجين باتشيللي في ذلك الوقت ولاحقاً عندما غدا البابا بيوس الثاني عشر، ترك ذلك العار الأسود بصماته على مواقفه من العِرق والحرب. وبعد خمسة وعشرين عاماً، وعندما دخلت أولى وحدات الحلفاء إلى روما بعد تحريرها من الاحتلال النازي، طالب الحَبر الأعظم عبر سفيرَي الولايات المتحدة وبريطانيا إلى روما بأنه "يُفترض ألا يكون هناك أي جنود للحلفاء ذوي بشرة ملوَّنة في الوحدات التي ستبقى في روما بعد التحرير".

في غضون ذلك، وقبل عامين من وقوع هذه الأحداث في بلاد الراين، اجتمع بينيتو موسوليني في 23 آذار/مارس 1919 في قاعة مُشرفة على ساحة القديس سيبولكرو في ميلانو بحوالى 118 فرداً لإنشاء أعمال الصراع. ودعا برنامجهم إلى مصادرة كل ممتلكات المجامع الدينية وتعليق ما دُعي قانون الضمانات. فأبلغ الحلف المقدس غاسباري والبابا بندكتس الخامس عشر على الفور بالاجتماع وباحتمال اكتساب هذا الرجل المتباهي نفوذاً غير مسبوق ذات يوم. وما لم

تدركه الكنيسة هو أن ذلك السياسي سيوقّع بعد عشر سنوات معاهدات لاتيران التي أنشأت دولة مدينة الفاتيكان.

وفي أوائل كانون الثاني/يناير 1922، أُصيب بندكتس الخامس عشر بزكام تحوّل إلى التهاب حادّ في القصبة الهوائية بعد أيام قليلة. وفي 20 كانون الثاني/يناير، ازدادت حالته سوءاً، وشخّص الأطباء داء ذات الرئة الذي تسبّب بوفاته بعد يومين عند السادسة صباحاً. وبعد وفاته بوقت قصير، شيّد الأتراك تمثالاً لبندكتس الخامس عشر مع لوحة نُقشت عليها عبارة، "للبابا العظيم الذي عايش مأساة عالمية بوصفه فاعل خير لكل الشعوب من دون تمييز قومي أو ديني".

دام انعقاد مجمع الكرادلة الذي تلى وفاة الحَبر الأعظم أربعة أيام فقط. وفي صباح 6 شباط/فبراير 1922، حصل الكردينال أخيل راتي بسرعة على أكثرية ثلثَي الأصوات الضرورية للفوز بمنصب البابوية. وبعد اختيار اسم بيوس الحادي عشر، قال لمجمع الكرادلة إنه يعتزم صَون امتيازات الكنيسة الكاثوليكية والدفاع عنها ليس في روما وإيطاليا فحسب، بل في مختلف أنحاء العالم. واعتزم منح بركته في المدينة والعالم من الشرفة القائمة فوق ساحة القديس بطرس معبّراً عن رغبته بتحقيق سلام دائم. واعتُبر ذلك انحرافاً عن السياسة المتّبَعة منذ فقدان الدويلات البابوية عام 1870. وهكذا، أوضح البابا بيوس الحادي عشر أنه يريد في أثناء ولايته الحَبرية إيجاد تسوية لما دُعي القضية الرومانية.

بوفاة بندكتس الخامس عشر، بدأت حقبة جديدة، عصر جديد. ولم يكن ما دُعي عصر الدكتاتوريين مؤاتياً أبداً للسلام العالمي. فاستعد فارس سفر الرؤيا لامتطاء جواده في جولة أخرى.

الفصل الثالث عشر
عصر الدكتاتوريين (1922-1934)

نجم عن الثورة الروسية عام 1917 عدوّ جديد للكنيسة، وللبابا بيوس الحادي عشر، ولجهاز التجسس التابع للحلف المقدس: الشيوعية الملحدة التي هدّد انتشارها بتدمير الكنيسة.

في صباح 21 نيسان/إبريل 1926، خرج شخص يرتدي ثياباً متواضعة من الباب الدوار لفندق موسكو واتجه مسرعاً إلى كنيسة سان لويس دي فرانسي، وكان المكان المقدس الكاثوليكي الوحيد آنذاك في العاصمة السوفياتية. فعبر الساحة المواجهة للوبيانكا، وهو مقر قيادة الشرطة السياسية التابعة للحكومة، وسجنها، ومكان تنفيذ أحكام الإعدام. ولدى دخول الكنيسة، وجد شخصين يصلّيان عند المذبح: امرأة متوسطة العمر ورجلاً يرتدي ثياباً أنيقة.

ودنا ثلاثة عمال عصبيّو المزاج من الوافد الجديد. كان كل شيء مرفَقاً بدرجة عالية من التوتر، وهو أمر مبرَّر في بلد يقوم نظامه الشيوعي بمطاردة وسجن أولئك الذين يرفضون التخلي عن معتقداتهم الدينية، لا بل إعدامهم أيضاً. وهمس الوافد الجديد معرّفاً بنفسه بأنه ميشال دربيني، رئيس أساقفة كاثوليكي أرسله البابا بيوس الحادي عشر إلى موسكو في مهمة غير مُعلَنة لإنشاء هرمية كاثوليكية سرية وإدارة يمكنها الحلول مكان الأساقفة والكهنة الذين نفتهم السلطات الشيوعية أو سجنتهم.

لم يكن دربيني كاثوليكياً مخلصاً فحسب، ومصمماً على حمل كلمة الكنيسة إلى أقاصي الاتحاد السوفياتي، بل أيضاً عميلاً متمرّساً للحلف المقدس أوكل إليه البابا مهمة إنشاء قسم خاص لجهاز التجسس لإعداد الكهنة الذين سيرسَلون إلى روسيا للقيام بأعمال رعوية سرية.

وأحد أولئك الموجودين في سان لويس دي فرانسي الأب أوجين نوفو الذي أرسله السفير الفرنسي في موسكو إلى هناك نزولاً عند طلب دربيني. وأعلن

الأسقف أن الأب الأقدس عيّن نوفو أول أسقف سري، وأنه قدِم من روما لسيامته. وعاد دربيني إلى فندقه مباشَرةً بعد مغادرة الكنيسة، فقيل له هناك إن عليه الذهاب إلى أحد مراكز الشرطة في موسكو ومغادرة البلد عند هبوط الليل.

بالرغم من ذلك، كان يتعيّن على دربيني أولاً إجراء مراسم سيامة أوجين نوفو أول أسقف كاثوليكي للاتحاد السوفياتي. وسيكون الشهود امرأة، وهي أليس أوت، وهو قندلفت سان لويس دي فرانسي، والملازم أول برجيرا، وهو الملحق العسكري للسفارة الإيطالية في موسكو. وبرجيرا، وهو صديق شخصي للبابا مذ كان ملحقاً عسكرياً في وارسو، والكردينال أكيللي راتي، وهو قاصد رسولي بابوي.

منح دربيني نوفو بضع دقائق للاستعداد، وقرأ الأسقف بعد ذلك وثيقة التعيين الموضوعة بلغة لاتينية بليغة والمذيّلة بتوقيع أمين سر دولة الفاتيكان، بييترو غاسباري. ووضع خاتماً في إصبع نوفو كرمز للسلطة الأسقفية مما سيمكّنه من رسم كهنة وسيامة مزيد من الأساقفة.

بعد انتهاء المراسم الموجَزة، اجتمع الأشخاص الخمسة داخل الكنيسة استعداداً للانطلاق. فأصدر الأسقف دربيني توجيهاته الأخيرة للأسقف الجديد أوجين نوفو الذي كان عليه العثور على الكاهنين ألكسندر فريسون وبولسكاس سلوسكانس، والكشف عن أوراق اعتماده لهما، وسيامتهما أسقفين بشكل سري.

كان فريسون كاهناً على رأس رعية كاثوليكية صغيرة في أوديسا على البحر الأسود، وكان سلوسكانس يرعى شؤون رعية أخرى في لينينغراد. وسيتذكر نوفو على الدوام الكلمات التي همسها دربيني في أُذنه - "تذكّر أنك الآن خلفٌ للمبعوثين" - ولكن ذلك لم يهدّئ من رَوعه. فبالرغم من كل شيء، أصبح بعض مبعوثي المسيح شهداء دفاعاً عن الإيمان.

مذاك الحين، أصبح نوفو وفريسون وسلوسكانس قادة شبكة الحلف المقدس في الاتحاد السوفياتي التي عُرفت باسم الحركة السرية، ولم تكن المهام السرية في

أرض العدوّ أمراً جديداً بالنسبة إلى الحلف المقدس. ففي السنوات الأخيرة، جرت عمليات مماثلة في بلجيكا المحتلّة، وتركيا، والنمسا-المجر، لا بل في ألمانيا أيضاً. في الحقيقة، تلقى الفاتيكان أولى أخبار سقوط القيصر نقولا ببعض الفرح لأن نقولا كان حليفاً مخلصاً للكنيسة الأرثوذكسية الروسية ومناهضاً للكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي عانت من تمييز واضطهاد رسميّين. فالإطاحة بالقيصر واستبداله بحكومة ليبرالية-ديمقراطية مؤقتة في آذار/مارس 1917 أنعشت آمال المصالحة مع الكرسي الرسولي والكنيسة الكاثوليكية في روسيا.

ولكن كل ذلك تبدّل عندما استولى بولشيفيو لينين على الحكم في تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه. كان البولشيفيون يعتبرون المعتقَد الديني مسألة طبقية، ويجب محو الدين من المجتمع الجديد الذي يودّون إنشاءه.

في 23 كانون الثاني/يناير 1918، أعلن مجلس مفوَّضي الشعب عن اتّباع سياسة جديدة حيال المؤسسات الدينية. فحُظّرت المدارس التي تديرها الكنيسة، كما حُظّر أي دعم للكنيسة من قِبل الدولة. ومُنعت الكنائس من أن يكون لديها ممتلكات ومن طلب هبات من الرعايا. وفقد كل المدنيين الذين يعتنقون الإيمان الكاثوليكي حقوقهم المدنية.

ووُجهت الضربة الأخيرة في أواخر العام 1919 عندما حظّرت حكومة لينين تدريس التعاليم الكاثوليكية للأطفال ليس في المدرسة فحسب، بل في المنزل أيضاً. ومذاك الحين، انقطعت الاتصالات بين الفاتيكان والاتحاد السوفياتي.

كان هناك تردد في الفاتيكان ولدى البابا بندكتس الخامس عشر حيال الاختيار بين مقاومة التدابير المناهضة للدين أو الإذعان لها. ففي بادئ الأمر، قرر البابا وأمين سر الدولة آنذاك انتظار تراجع الحكومة الثورية عن إجراءاتها القاسية ضد الكاثوليك. وفي الوقت نفسه، قرر بندكتس الخامس عشر تعيين ميشال دربينيي عضواً عالي الرتبة في الحلف المقدس وخبيراً في الشؤون الروسية للشروع بحبك شبكته السرية ونشرها في مختلف أنحاء الاتحاد السوفياتي. ولم

يكن الحَبر الأعظم مطّلعاً على هذه الأعمال بل كان ينتظر ورود تقارير عندما تكون موافقته ضرورية لتعيينٍ ديني محدَّد، كما في حالة أوجين نوفو.

وفي قراره البابوي الأخير قبل وفاته، وقّع بندكتس الخامس عشر في 22 كانون الثاني/يناير 1922 خطة إرسال بعثة إلى روسيا. وتولى الحلف المقدس هذه العملية وأرسل يسوعياً من أميركا الشمالية، هو الأب إدموند والش، وثلاثين كاهناً آخرين إلى أنحاء متنوعة من البلاد لتوزيع أطنان من الملابس والطعام للجائعين. وبينما كان هؤلاء الجواسيس يجمعون معلومات عن الجاليات الكاثوليكية للاستعانة بها في عمليات الانتشار المستقبلية، كان دبلوماسيو الفاتيكان يُجرون اتصالات سرية مع لينين؛ بين أمين سر دولة الفاتيكان غاسباري والقائد السوفياتي عن طريق روما في بادئ الأمر وعبر السفراء، وعن طريق برلين في ما بعد.

وبالرغم من منح الفاتيكان قرضاً من دون فائدة للسوفيات يزيد عن عشرة ملايين دولار، أرجأ لينين تقديم أي تنازلات للكاثوليك. ووقّع الاتحاد السوفياتي استئنافاً للعلاقات الدبلوماسية والتعاون الاقتصادي مع ألمانيا، عدوّه القديم، قبل أن يتخذ الإجراءات نفسها مع الفاتيكان. ولم يتأخر رد فعل الكنيسة على ذلك.

في ربيع العام 1923، اعتقلت الشرطة السرية ثلاثة أساقفة كاثوليك واثني عشر كاهناً بتهمة القيام بنشاطات ثورية مضادة ومعادية للسوفيات. فحُكم على رئيس الأساقفة جان سيبلاك بالسجن مدى الحياة والأشغال الشاقة، وخُفّض الحكم بعد ذلك إلى عشر سنوات في السجن. وحُكم على نائبه العام، كونستنتي بوكيفيتش، وهو عميل للحلف المقدس، بالموت والإعدام بإطلاق عيار ناري في مؤخر رأسه في أحد سجون لوبيانكا القائمة تحت الأرض في ليل 31 آذار/مارس 1923.

بعد ذلك، أُغلقت الكنائس والمعاهد اللاهوتية والمدارس في حين اعتُقل الكهنة

وأُعدموا، أو حُكم عليهم بالنفي. وفي العام 1924، وقبل وفات لينين، كان هناك رئيس الأساقفة المُسنّ زرِّ من تيراسبول، وهو الأسقف الكاثوليكي الوحيد الذي كان لا يزال حياً وطليقاً في الاتحاد السوفياتي. وضغطت بعض التيارات داخل الكنيسة على البابا بيوس الحادي عشر لشجب سياسات موسكو المعادية للكاثوليك بشكل علني وتعبئة الرأي العام الكاثوليكي العالمي ضد خطر الشيوعية. وبعد كلمة موجَزة أمام كرادلته في هذا الشأن، وعملاً بنصيحة الخبير في الشؤون الروسية ميشال دربيني، أصدر الحَبر الأعظم في كانون الأول/ديسمبر 1924 تعليماته للقاصد الرسولي في برلين، المونسينيور أوجين باتشيللي، لاستئناف المحادثات السرية مع موسكو.

وفي الجانب السوفياتي، كان وزير الخارجية غريغوري شيشرين على رأس الفصيل البراغماتي في موسكو الذي يشعر بأن نوعاً من أنواع التعايش مع الكرسي الرسولي هو أمر ضروري. من جهة ثانية، عقد باتشيللي العزم على السعي لبلوغ اتفاق يتضمن اعترافاً رسمياً للدولة السوفياتية بالكنيسة. كان بيوس الثاني عشر المستقبلي مصمّماً على ممارسة الضغوط على شيشرين لا بل تهديده أيضاً بتعرّض الاتحاد السوفياتي لحظر اقتصادي تفرضه كل الدول الكاثوليكية إذا رفضت موسكو اعترافاً صريحاً بحقوق الكاثوليك. فتعطلت المفاوضات بالطبع.

وبرأي مجموعة من المؤرخين، لم يكن باتشيللي يريد الوصول إلى أي اتفاق مع "بلد مهرطقين وهمجيين"، كما قال بنفسه، لذلك طلب المستحيل من شيشرين. وأدى الانقطاع المنشود والمحقَّق الناجم عن ذلك إلى تعرّض مئات الكهنة والمؤمنين للتعذيب والإعدام في السجون السوفياتية المريعة بسبب دفاعهم عن الإيمان. من الواضح أنه كان يُفترض بالبابا بيوس الحادي عشر تسليم أمر المفاوضات إلى المونسينيور ميشال دربيني، ولكن باتشيللي تمكّن من وضعه جانباً. لقد دفعت الكاثوليكية ثمناً باهظاً.

لقد انضم دربينيي إلى الرهبنة اليسوعية بعمر السابعة عشرة، وسرعان ما أثارت الثقافة والتاريخ الروسيَّين اهتمامه في أثناء تحصيله العِلم في باريس. كان رجلاً مطّلعاً ولكن متمتعاً أيضاً بالحيوية والنشاط. كان يضع محاضرات بالسيرلية عن الفلسفة الروسية ويشارك في الوقت نفسه في برامج الحلف المقدس المعَدّة لنشر الإيمان الكاثوليكي في أقصى أقطار الاتحاد السوفياتي. وعندما بلغت شهرته روما، تم استدعاؤه إلى الفاتيكان. وفي العام 1922، تسلّم إدارة المعهد الحبري الجديد للدراسات الشرقية، وعمل كمستشار خبير لدى مجمع الكنائس الشرقية، وهي الدائرة البابوية المسؤولة عن الشؤون الكنسية في روسيا ودول سلافية أخرى.

في الواقع، كان الفاتيكان قليل الاطّلاع على الأحداث في روسيا في أثناء الفترة القيصرية والفترة الشيوعية التي تلتها، وذلك حتى انضمام دربينيي إلى الحلف المقدس. وبغياب قاصد رسولي أو مندوب رسولي في موسكو، كان الفاتيكان يعتمد على صحافيين على صلة بالكرسي الرسولي يرفعون له تقارير عن التطورات السياسية والدينية.

وكان اليسوعي إدموند والش، رئيس البعثة البابوية لتقديم المساعدات، يرسل دون سواه تقارير إلى الفاتيكان من حين إلى آخر عن طريق السفارة الألمانية في موسكو تتضمن معلومات عن تحركات الجنود مثلاً. ولكن الحكومة الشيوعية حدّت من نشاطات والش، لذلك، كانت التقارير المرسَلة إلى جهاز التجسس البابوي تميل إلى الخيال أكثر منه إلى الواقع وتحمل معلومات عن دبلوماسيين معيَّنين أو إشاعات عما قاله أحد البيروقراطيين السوفيات لمساعده الذي تربطه صداقة بملحق عسكري؛ إنها أمور قليلة الأهمية في الواقع.

واستُبدل والش بالأب إدوارد غيهرمان الذي استمر في تأمين غطاء للحلف المقدس في موسكو. وفي نيسان/إبريل 1924 مثلاً، أبلغ العملاء عن إطلاق سراح رئيس الأساقفة سيبلاك وترحيله. وتوجّه الأب إلى روما على الفور لرفع تقرير إلى

البابا بيوس الحادي عشر. وفي أوائل العام 1925، كانت الملاذات الآمنة للكاثوليك قليلة ومتباعدة، وكان يتعيّن على الفاتيكان إنشاء شبكته الخاصة من المُخبرين داخل الاتحاد السوفياتي.

في أواخر العام 1925، تلقى ميشال دربيني فجأةً دعوة من الكنيسة الأرثوذكسية الروسية لزيارة البلد؛ خطوة حصلت على موافقة الحكومة في موسكو بالتأكيد. وذُكر على تأشيرة الدخول الخاصة به، "إجازة وزيارة لتحصيل العِلم". فسافر دربيني إلى موسكو مرتدياً رداءه الأسود. وعندما وصل، اجتمع بدبلوماسيين غربيين، وأساقفة أرثوذكس، وبأحد أعضاء الحكومة السوفياتية الأكثر تمتعاً بالنفوذ، أناتولي لوناشارسكي، مفوّض التربية والثقافة. وعندما عاد المونسينيور دربيني إلى روما، كان يحمل تحت ذراعه مقداراً كبيراً من المعلومات المستقاة من المصدر مباشَرةً. ولكن المشكلة تمثلت بتناقص عدد الكهنة الراغبين في السفر إلى روسيا للاهتمام بشكل سري بالأبرشيات المبعثرة في مختلف أنحاء البلد. وسرت شائعة في العديد من المعاهد اللاهوتية عن ثلاثة كهنة أوقفتهم الشرطة السياسية التابعة للحكومة. وبعد استجوابهم وتعذيبهم، كما تُظهر الشائعة، قُيّد الكهنة إلى وتَد وأُحرقوا أحياء. ولكن هذا الأمر لم يحدث أبداً؛ كانت رواية قد انتشرت شفهياً من دون أن يتمكن أحد من تحديد مصدرها. ومع ذلك، فقد صدّقها العديد من الكهنة الشبان ورفضوا الذهاب إلى روسيا.

وبينما كانت العلاقات السوفياتية-الفاتيكانية في تدهور، قرر بيوس الحادي عشر القيام بعمل ما رداً على انهيار بنيات الكنيسة في روسيا. فمنح أساقفة روساً تفويضاً بابوياً لسيامة كهنة، والاحتفال بقداديس العمادة والزواج، ومنح الأسرار الأخيرة. وبموجب هذا التفويض، كان بإمكان الأساقفة فقط ممارسة سلطة إدارية على شؤون الكنيسة المحلية. ولكن المشكلة المطروحة بالنسبة إلى ميشال دربيني تمثّلت بأن السلطة الممنوحة للأساقفة من قِبل بيوس الحادي

عشر تعرّضهم للخطر الشديد لأن جهاز المخابرات السوفياتي لا يحتاج إلا إلى اعتقال الأساقفة لتفكيك الشبكات الدينية التي أنشأوها. وفي العام 1924، كان البابا قد قرر في الواقع إنشاء شبكة سرية من الكهنة المرسَلين من روما لنشر الإيمان الكاثوليكي، ولكنه اقتنع في نهاية المطاف بالتخلي عن خطته لأن فرص النجاح قليلة جداً، ناهيك عن خضوع المستشارين البابويين الذين يستطيعون تنفيذ الخطة للمراقبة الشديدة من قِبل الشرطة السياسية التابعة للحكومة، وكون أولئك الذين يستطيعون القيام بنشاطات سرية في روسيا مجرد كهنة وليسوا أساقفة يجيدون كيفية الاختلاط بالناس من دون إثارة الشبهات. وهكذا، استؤنِفت المفاوضات مع النظام في موسكو.

وأحد هؤلاء الكهنة الأب أوجين نوفو الذي قدم إلى روسيا عام 1907 لترؤُّس المجمع الفرنسي والبلجيكي في مدينة ماكييفكا. وشغِلَ نوفو هذا المنصب حتى ثورة العام 1917 عندما عاد معظم الأجانب إلى بلدانهم الأم. ولم ترد منه أي أخبار مذاك الحين حتى تلقّي الحلف المقدس في الفاتيكان عام 1922 رسالة بسيطة من منطقة نائية في الاتحاد السوفياتي يطلب فيها نوفو سِروالاً وخارطة للعالم.

كان نوفو شجاعاً، وأخلاقياً، وملتزماً بالولاء الكامل لرئيسه المونسينيور دربيني ولسلطة البابا. وفي الوقت نفسه، أدرك بيوس الحادي عشر أن نوفو رجل نشيط وعميل مثالي للحلف المقدس، وسيكون ذا فائدة أكبر في موسكو أو سانت بطرسبورغ منها في واشنطن أو بروكسيل.

وفي 11 شباط/فيراير 1926، استدعى بيوس الحادي عشر دربيني إلى مكاتبه الخاصة وأصدر إليه أمراً بالقيام بمهمة سرية داخل الاتحاد السوفياتي. فأصغى اليسوعي الفرنسي إلى توجيهات الحَبر الأعظم بسكون، وتمثلت هذه التوجيهات بتأسيس هرمية كاثوليكية سرية في روسيا أولى خطواتها سيامة الأب أوجين نوفو أسقفاً. وكونه يسوعياً مطيعاً، وافق دربيني على تنفيذ أوامر البابا من دون

تردد.

ذات يوم في أواخر آذار/مارس، غادر ميشال دربيني إلى فرنسا لطلب تأشيرة دخول إلى موسكو من السفارة السوفياتية في باريس. ومن باريس، انتقل بالقطار إلى برلين حيث التقى القاصد الرسولي، المونسينيور باتشيللي. في غضون ذلك، أصدر وزير الخارجية الفرنسية تعليمات لسفارته في موسكو لإيواء أوجين نوفو واستدعائه إلى العاصمة السوفياتية.

لقد حصل دربيني على فرصته الأولى للتحدث إلى نوفو في 1 نيسان/إبريل 1926. وفي حين كان الموفد البابوي وعميل الحلف المقدس يقوم بعملياته السرية بأمر من البابا، كان يجري أيضاً اتصالات هاتفية ويعقد لقاءات في أماكن عامة لتضليل المخابرات السوفياتية. كان السفير الألماني، الكونت أولريتش فون بوركدورف-رانتزو، أحد حامي المونسينيور دربيني، وقد أمّن له الغطاء لتضليل الشرطة السوفياتية مما مكّن دربيني في نهاية المطاف من التقاء نوفو في كنيسة سان لويس دي فرانسي في 21 نيسان/إبريل.

عندما عاد عميل الحلف المقدس إلى فندقه ووجد أن في انتظاره أمراً بالذهاب إلى مركز الشرطة للخضوع لاستجواب في شأن مهمته في روسيا، أدرك للمرة الأولى أنه يجب أن يكون هناك شخص داخل المنظمة يعمل في الظلام. ومع ذلك، قرر عدم إخبار أحد لأن من شأن ذلك أن يثير الذعر بين أعضاء المنظمة التي بدأت تتخذ طابعاً سرياً.

وفي المرحلة الثانية من رحلته، سافر دربيني علانيةً مع نوفو إلى كارلوف، وأوديسا، وكييف، ولينينغراد. وطوال أيام، التقى دربيني ونوفو كهنة وطلاب لاهوت، وساما أساقفة آخرين أيضاً كالأب بولسكاس سلوسكانس من لينينغراد والأب ألكسندر فريسون من أوديسا. وفي 10 أيار/مايو، التقى دربيني ثانيةً السيدة أوت والملازم أول برجيرا في كنيسة سان لويس دي فرانسي لسيامة سلوسكانس وفريسون أسقفَين بأمر من البابا بيوس الحادي عشر.

في الحقيقة، كان دربيني مبتدئاً في المهام السرية، ولم تكن نشاطاته في روسيا البلشفية خافيةً عن الشرطة السرية. ففي غضون أيام قليلة، حددت الشرطة السياسية التابعة لحكومة هوية كل أعضاء الجماعة السرية إضافةً إلى مؤيّديهم وأماكن لقاءاتهم بدءاً بكنيسة سان لويس دي فرانسي نفسها. وبسبب عدم تعرّض دربيني ونوفو وسلوسكانس للإزعاج أو الاستجواب، لم يدرك المبعوث البابوي في بادئ الأمر أنه تم الكشف عن الشبكة بكاملها. وأول ما قام به رجال فيليكس إدموندوفيتش دزيرزينسكي (رئيس الشرطة السياسية التابعة لحكومة المقتدر) هو الشروع بإلقاء القبض على أعضاء الشبكة ذوي المراتب الدنيا. فاعتقل العديد من الكهنة وأُرسلوا إلى معسكرات خاصة لقضاء أحكام بالأشغال الشاقة. وفي حين استمر ميشال دربيني في توسيع شبكته لصالح الحلف المقدس، شرع جهاز المخابرات السوفياتي بتفكيكها عن طريق صلاتها الأكثر ضعفاً ألا وهم الكهنة.

وفي نهاية آب/أغسطس، سافر موفد الحَبر الأعظم من مدينة غوركي السياحية في لينيغراد، العاصمة الإمبراطورية السابقة. وخلف الأبواب المغلَقة لكنيسة سيدة فرنسا، سام المونسينيور ميشال دربيني الكاهن الروسي الرابع، الأب أنطوني ماليكي، أسقفاً، وكان قد أُطلق سراحه مؤخراً بعد تمضية حكم بالأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات بتهمة "ارتكاب جرائم ضد الثورة".

وكان عملاء الشرطة السرية التابعة للحكومة يتتبّعون خطى دربيني من دون معرفة منه، ولكن الأوامر الصادرة لهم قضت بعدم اتخاذ أي إجراء حتى يحصلوا على دليل دامغ يسمح للاتحاد السوفياتي بإزالة ميشال دربيني من مسرح الأحداث بجرّة قلم ومن دون إغضاب الدول الكاثوليكية المتحالفة مع الفاتيكان. أخيراً، بات للشرطة دليل كافٍ، وكان تاريخ تأشيرة دخول عميل الحلف المقدس على وشك الانتهاء في 4 أيلول/سبتمبر 1926. وفي 28 آب/أغسطس، قصد مركزاً للشرطة لطلب تمديد وإذن بدخول أوكرانيا.

فمددت السلطات تاريخ تأشيرة دخوله حتى 12 أيلول/سبتمبر وقالوا له إنهم سيدرسون الطلب الذي تقدّم به للسفر إلى أوكرانيا. وبعد ثلاثة أيام، قدِم أربعة عناصر من الشرطة السياسية التابعة للحكومة إلى فندقه وأعلموه بأنه شخص غير مرغوب فيه. فأعادوا إليه جواز سفره وواكبوه إلى قطار متّجه نحو الحدود الفنلندية، على أن ينتقل من هناك إلى الفاتيكان ويُعلِم بيوس الحادي عشر بما جرى.

كان نوفو ينتظر دربينيي في العاصمة، ولكنه لم يصل أبداً. لذلك، قرر الكاهن العودة إلى كنيسة سان لويس دي فرانسي للاحتفال بالقداس الصباحي. فجأةً، فُتحت أبواب الكنيسة في أواسط الاحتفال بالذبيحة الإلهية، ودنا رجل بثياب عامل من الأسقف وسلّمه حزمة تحتوي على مال وملابس. "إنها من الحلف المقدس"، قال الرجل. "ليحمِك الرب في مساعيك من الآن فصاعداً". والتفت الرجل حَوله ومضى. وهكذا، علِم نوفو بأنه والجماعة السرية بمفردهما من دون حماية البابا والحلف المقدس، وبأن الله هو معيلهم الوحيد.

وشرعت السلطات السوفياتية شيئاً فشيئاً بتفكيك هيكلية الكنيسة الكاثوليكية في روسيا بشكل منهجي. وبسبب الاضطهاد المتزايد، شعر الفاتيكان والحلف المقدس بمفاعيل السياسة التي يفرضها القائد الجديد، جوزيف ستالين، الذي أصبح رجل الاتحاد السوفياتي القوي بعد وفاة لينين.

كان ستالين يعتقد أن الموقع الاستراتيجي لموسكو بفضل قدراتها العسكرية والاقتصادية قد سمح لها بمواجهة العالم الرأسمالي. فالكنيسة الكاثوليكية والفاتيكان هما بالنسبة إليه أحد الممثلين الرئيسيين لذلك العالم. وبالنسبة إلى الماركسيين-اللينينيين، "إن البابا متآمر، وقد ساعد كهنته على نشر المؤامرة في مختلف أرجاء العالم. كان الفاتيكان حليفاً للقوى المناهضة للشيوعية وأراد تدمير طريقة العيش الروسية". كان هدف ستالين نشر الأفكار الشيوعية في مختلف أنحاء العالم. ولهذا السبب ربما، وفي أثناء ولاية بيوس الحادي عشر

الحَبرية، وقّع الفاتيكان معاهدات مع إيطاليا الفاشية عام 1929 وألمانيا النازية عام 1933، وهما من الحكومات الأكثر عداءً للسوفيات. على أي حال، فالكاثوليك الروس هم بالنسبة إلى القائد الروسي مخرّبون محتمَلون، ورفعت الشرطة السياسية التابعة للحكومة تقارير واضحة عن عزم جهاز المخابرات التابع للبابا على إنشاء شبكة سرية من كهنة كاثوليك.

و في 15 تشرين الأول/أكتوبر 1926، أي بعد أسابيع من ترحيل ميشال دربينيي، تبنّى مجلس الوزراء قراراً يمنع كل أجنبي من التبشير بأي دِين. فاعتُقل المونسينيور فنسنت إليين، المدبّر الرسولي السري في كارخوف بسبب حمل أوراق أجنبية تحت ذراعه. وبعد أشهر قليلة، اعتُقل المونسينيور سلوسكانس الذي اكتسب مكانة بين أبناء الكنيسة الكاثوليكية بتهم التجسس، وأُرسل إلى معسكر الأشغال الشاقة بالقرب من الدائرة القطبية الشمالية. وبعد أسبوع، اعتُقل الأسقف توفيليوس ماتوليونيس وأُرسل إلى القطب الشمالي أيضاً. وفي شباط/فبراير 1929، أُلقي القبض على الأسقفين ماليكي وفريسون، وفُجّرت كل الكنائس الكاثوليكية بالديناميت بأمر خاص من ستالين.

ككل، كان هناك مئتا كاهن كاثوليكي تقريباً في الاتحاد السوفياتي لدى وفاة لينين. وفي العام 1936، انخفض هذا العدد إلى خمس، وكان هناك عشرة كهنة فقط عام 1937. ولم يتبقَّ سوى كاهنين بعد عام.

في العام 1931، أدى انهيار الاشتراكية الزراعية إلى ازدياد الجوع مما حدا بموسكو إلى إدخال تغيير راديكالي على سياستها المتّبَعة حيال الغرب وبالتالي حيال القطاع الكاثوليكي والفاتيكان. فسُمح مرة أخرى بممارسة الشعائر الكاثوليكية، وأُطلق سراح الكهنة كالأسقف فريسون، وإن مؤقتاً. وبعد مرور الأزمة الاقتصادية، تمّ حظر الخدمات الدينية مجدداً، واعتُقل الإكليروس وأُعيدوا إلى معسكرات الأشغال الشاقة. وفي العام 1937، رفع الحلف المقدس تقريراً للبابا بيوس الحادي عشر عن إعدام الأسقف ألكسندر فريسون من

سيباستوبول بطلق ناري في مؤخر الرأس في زنزانته في معسكر الأشغال الشاقة. كان يزن خمسة وثمانين رطلاً فقط (حوالى 34 كيلوغراماً) عندما توفّي.

وكان الأساقفة والكهنة يُختطَفون في الشارع، ويُدفع بهم إلى داخل سيارات سوداء، ويتم اقتيادهم إلى مراكز للاعتقال غير القانوني حيث يعذَّبون ويُعدمون. وكان أمين سر الدولة يتلقى من حين إلى آخر تقارير من موسكو موجَّهة إلى الكرسي الرسولي عن طريق السفارتين الألمانية والفرنسية. وبعد أواخر العام أو أوائل العام 1927، بات الأسقف أوجين نوفو الصلة الوحيدة للحلف المقدس والبابا بالاتحاد السوفياتي بسبب تمكّنه من التحرك بحرّية أكبر من دون أن يتم اعتقاله بسبب مولده الفرنسي، وذلك بخلاف ما كان يحدث لزملائه المولودين في روسيا. وكان ميشال دربيني يتلقى كل أسبوعين تقريراً من نوفو أكثر إثباطاً للعزيمة من التقرير الأخير.

ووصف اليسوعي كل المعلومات التي تتناول روسيا "بالسرية للغاية" في حين وصفها دربيني والحلف المقدس بأنها "حساسة إلى حدٍّ كبير". وتمثلت إحدى المهام الأخرى لأوجين نوفو بإنقاذ الكتب والأيقونات الدينية القديمة من التلف. فطيلة سنوات، صبّت السلطات السوفياتية اهتمامها على إحراق كل ما يمتّ بصلة إلى الدين والجدل الديني من دون تمييز، بما في ذلك الكتب. وقرر المونسينيور ميشال دربيني إطلاق ما دُعي عملية الكتب.

وعندما تلقى عميل الحلف المقدس الأمر بتنفيذ العملية قرر الاضطلاع بها ومواجهة التحديات. لقد اقتصرت العملية في بادئ الأمر على شخص واحد عمل على نطاق ضيّق سرعان ما اتّسع بعد أسابيع قليلة. واشترى أوجين نوفو كتباً تعود إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر بمقدار قليل من الروبلات. ووُهبت كتب أخرى تعود إلى القرن الثامن عشر من قِبل مالكيها لإنقاذها من الحريق. وبدأ الكهنة في مختلف أنحاء روسيا بإرسال كل أنواع الأغراض الدينية إلى موسكو، كأيقونات من القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وصور للسيّدة مريم

العذراء من القرن السادس عشر، وصلبان من القرن الخامس عشر مزيّنة بأحجار كريمة. وعندما انتهت عملية الكتب بعد عامين، كان مجموع ما أنقذه عملاء الحلف المقدس من أغراض بتوجيه من المونسينيور نوفو ألف كتاب قديم تقريباً، وحوالى ألفَي أيقونة، وثلاثة آلاف كأس قربان وصليب وصور مقدَّسة. ومُنحت المجموعة بكاملها للأكاديمية الحَبرية للدراسات الشرقية لتتم فهرستها، وأُرسلت إلى روما مباشَرةً بحقيبة دبلوماسية عبر السفارة الإيطالية في موسكو.

في أواخر عشرينيات القرن العشرين، اكتشفت المخابرات السوفياتية وجود شبكة سرية يديرها أسقف كاثوليكي (نوفو) يتلقى الأوامر من شخص أعلى رتبة في الفاتيكان (دربيني). وأكد جواسيس ستالين أيضاً أن كنيسة سان لويس دي فرانسي هي مقرّ لقيادة العمليات السرية ضد الدولة السوفياتية. وفقد الحلف المقدس المونسينيور أوجين نوفو عام 1936 عندما قرر مغادرة الاتحاد السوفياتي لتلقّي علاج طبي على الشاطئ الفرنسي. وعندما حاول العودة إلى موسكو، رفضت السفارة السوفياتية في باريس منحه تأشيرة دخول تِلو الأخرى حتى تخلّى أخيراً عن مساعيه المبذولة لاستئناف العمليات في روسيا الستالينية.

وفي نهاية العام 1929، أصدر البابا بيوس الحادي عشر أمراً بإنشاء منظمة خاصة ضمن الحلف المقدس تدعى الروسية. وباتت هذه الشعبة الجديدة التابعة للمخابرات الفاتيكانية تُعرف بالمكتب الفاتيكاني الخاص وبلجنة روسيا أيضاً. وبقيت قيادة الروسية بين أيدي الأسقف ميشال دربيني.

قرر الأسقف إبقاء لجنة روسيا على صورة معهد يمكن لأعضاء الروسية المستقبليين التدرب فيها قبل المغادرة إلى الاتحاد السوفياتي. وصدّق الحَبر الأعظم ودربيني على برنامج دراسات يشدد على إجادة الروسية بطلاقة قراءةً وكتابةً واكتساب معلومات عن التاريخ والثقافة والمطبخ الروسي. وشملت قراءات العملاء المستقبليين الأدب الروسي والصحف الروسية فقط. وكانت

مجموعات صغيرة من الطلاب تناقش الأوضاع الراهنة باللغة الروسية دون غيرها. وفي مرحلة الإعداد النهائية، يقوم فردان من الجيش البولندي بتدريب "المجندين" على تكتيكات استخدام مظلات الهبوط من الطائرات ليكون بالإمكان إسقاطهم جواً في نواحٍ مختلفة من الاتحاد السوفياتي.

وفي الحادي عشر من شباط/فبراير 1929، شكّل حدث آخر العناوين الرئيسية للصحف في مختلف أنحاء العالم وأثّر في عمليات الحلف المقدس في روسيا. لقد وقّع الفاتيكان وإيطاليا معاهدة لاتيران، وهي سلسلة اتفاقيات وجدت تسوية لما دُعي القضية الرومانية، مُظهرَين للعديد من الدول ووزراء خارجيتها مستوى جديداً من التفاهم والتواصل بين بيوس الحادي عشر وبينيتو موسوليني. وكانت سلسلة طويلة ومعقّدة من المفاوضات لتنظيم وضع الفاتيكان قد بدأت عام 1926. وسمحت الاتفاقية الجديدة التي وُقّعت أخيراً عام 1929 بإنشاء دولة الفاتيكان الصغيرة كما تصفها الفقرة 26: "نعترف بوجود الفاتيكان كمدينة-دولة تحت سلطة الحَبر الأعظم الروماني". كانت مساحة الدولة الناشئة صغيرة جداً إذ بلغت أربعة وأربعين هكتاراً فقط، غير أن حرية تصرف الباباوات أصبحت أكثر سهولة مذاك الحين. في الاتفاقية، حصل بيوس الحادي عشر على وسيلتَي وقاية رئيسيّتين من النظام الفاشي: حق التوجيه الديني في المدارس العامة، والاعتراف بسر الزواج (في الفقرة 34) كما هو منصوص عليه في القانون الكنسي.

من جهته، وبالرغم من كونه من أتباع مذهب اللاأدرية، كان موسوليني مدركاً لكاثوليكية الأمّة الإيطالية ولضرورة إيجاد حل لمسألة الفاتيكان عاجلاً أم آجلاً. وكان الاتفاق المالي - وهو التعويض الذي تدفعه إيطاليا للبابا بسبب احتلال وضمّ الأراضي الباباوية عام 1870 - يقضي بدفع بليونَي لير، ولكن موسوليني قرر تخفيض المبلغ. في النهاية، حُدّد المبلغ الذي يتوجب دفعه كتعويض بخمسة وثمانين مليون لير في العام. والإجراء الذي كان يتعيّن على البابا

وأمين سر الدولة غاسباري تنفيذه تمثّل بإقناع سياسيي الأحزاب الكاثوليكية على غرار حزب الشعب بالخروج من الميدان السياسي، وهو ما حدث في ألمانيا في وقت لاحق بعد توقيع اتفاق بين هيتلر وبيوس الحادي عشر.

وأدت الضغوطات التي مارسها الحلف المقدس على رئيس حزب الشعب، لويجي ستورزو، إلى انتقاله إلى المنفى في سويسرا طوعاً والانسحاب التام من الحياة السياسية. وهكذا، أعاد الفاتيكان لموسوليني المبلغ الذي حصل عليه الكرسي الرسولي بموجب معاهدات لاتيران، في حين شجع البابا بيوس الحادي عشر الكهنة في مختلف أنحاء إيطاليا على دعم الفاشية، واصفاً بينيتو موسوليني "بالرجل الذي أرسلته إلينا العناية الإلهية".

لقد أعدّ فرنشسكو باتشيللي، البابا بيوس الثاني عشر المستقبلي وشقيق أوجين، نص معاهدات لاتيران وأجرى مفاوضات في شأنها. وحدد النص كل محاولات التدخل الممكنة التي قد تقوم بها مجموعات كاثوليكية، واستُخدمت هذه البنود في وقت لاحق أساساً لوضع مسوّدة الاتفاق مع رايخ هيتلر. لقد شعر الحَبر الأعظم المستقبلي كما يبدو بالكره للكاثوليكية السياسية وبأن القطاعات السياسية الكاثوليكية قد تصلح للمقايضة في أثناء المفاوضات مع الفاتيكان في إيطاليا أولاً، وفي ألمانيا بعد سنوات.

وفي تشرين الثاني/نوفمبر 1929، قرر البابا إعفاء الكردينال بييترو غاسباري من واجباته لا سيما وأنه قارب الثمانين من عمره. فعيّن بيوس الحادي عشر المونسنيور أوجين باتشيللي الذي كان ينعم برعايته منذ حوالى ربع قرن، مكان غاسباري. وفي كانون الأول/ديسمبر، ارتدى باتشيللي ثياب الكردينالية، واضطلع بمهام أمانة سر الدولة كافة في 7 شباط/فبراير 1930، وهو المنصب الأكثر تمتعاً بالنفوذ في الكنيسة الكاثوليكية بعد منصب البابوية. وكان آنذاك في الرابعة والخمسين من عمره.

وبتسلّم باتشيللي السياسة الخارجية للفاتيكان، قرر بيوس الحادي عشر أن

الوقت قد حان مجدداً لشجب الاضطهاد الديني الحاصل في الاتحاد السوفياتي. ودان الأب الأقدس "هجمات البولشفيين الآثمة" ووبّخ الحكومات الأوروبية بسبب لامبالاتهم الجليّة بهذه الأعمال. ولم يتوجّه البابا بهذا الكلام إلى السلطات الكاثوليكية فحسب، بل للبروتستانت أيضاً في مختلف أنحاء أوروبا؛ من دون أن يكون لذلك أثر كبير.

ووصفت المجلات الدورية البابا بأنه "ممثل التسلط والاستبداد الذي يسعى إلى خنق الاتحاد السوفياتي". ودُعيَ الكهنة والرهبان والراهبات "عصابة من مثيري القلاقل"، وجهاز التجسس البابوي "أداة لزعزعة المُثل العليا للثورة ونظام الحياة الشيوعية".

لم يكن لأجهزة المخابرات السوفياتية كما يبدو مصدر يعوَّل عليه داخل الفاتيكان في العشرينيات من القرن العشرين. لقد اكتشفت جمعية بيوس مجموعة صغيرة من الأشخاص الذين كانوا يعملون هناك، ولكن هذا الوضع تبدّل كلياً في العقد التالي إذ بدأت الخلايا التي أنشأها ستالين بالتسلل إلى بنية الإدارة البابوية الرومانية بفعالية أكبر. وفي بريطانيا العظمى، وفرنسا، والولايات المتحدة، مال جهاز التجسس السوفياتي إلى تجنيد عملاء محليين أو أعضاء في الحزب الشيوعي، ولكن الوضع في الفاتيكان كان مختلفاً. فأحد عملاء الشرطة السياسية التابعة للحكومة السوفياتية والمقيمين في الكرسي الرسولي كان رجلاً مقرَّباً جداً من ميشال دربينيي.

لقد وُلد ألكسندر دوبنير في سانت بطرسبورغ في 11 تشرين الأول/أكتوبر 189. قرر والده الذي اعتنق الإيمان الكاثوليكي وكان مسؤولاً في بلاط قيصر إرسال ألكسندر إلى بلجيكا سراً لتلقّي علومه على أيدي آباء الصعود (صعود السيّدة مريم العذراء إلى السماء)، وهي رهبنة دينية لديها اهتمامات عديدة في روسيا.

وفي العام 1921، أُرسل دوبنير إلى معهد لاهوتي في تركيا للاستعداد لعمل تبشيري. وبعد خمس سنوات من الدراسة، بدأ يفتقر إلى المال فقرر اللجوء إلى

صديق والده في وارسو، رئيس الأساقفة أندرياس شبتيكيي. وعيّن هذا الأخير دوبنير كاهناً جديداً في الأبرشية يرعى شؤون مغتربين روس في مدينة نيس الفرنسية. واعتنق هناك الإيمان الأرثوذكسي، ولكنه قرر في أواخر العام 1928 الارتداد عن هذه العقيدة والعودة إلى أحضان روما.

فتدخل رئيس الأساقفة شبتيكيي ثانيةً لصالحه حاملاً ميشال دربيني على تعيين دوبنير مساعداً في القسم الجديد التابع للحلف المقدس ألا وهو منظمة الروسية. وأثار الباحث الجديد إعجاب دربيني كثيراً لدرجة أنه تلقى دعوة من رئيس المنظمة المذكورة للانضمام إليه في كتابة بحث عن الأساقفة الأرثوذكس الروس. وارتقى دوبنير سريعاً في صفوف جهاز التجسس البابوي، وأصبح المعاون الأكثر أهمية لدربيني. وفي صيف العام 1932، أسندت إليه الروسية مهمة دقيقة في بولندا تتعلق بشؤون الكنيسة هناك. وكانت هذه المهمة بداية نهاية دوبنير والخطوة الأولى في اتجاه أفول نجم ميشال دربيني.

كان دربيني قد اقتنع لمدة من الزمن بأن روسيا ستعتنق الإيمان الكاثوليكي يوماً ما بالرغم من الدكتاتورية البولشفية. وكان بالإمكان حدوث ذلك لو كان الفاتيكان مستعداً لتكييف تقاليده وممارساته الدينية مع الثقافة الروسية باستثناء ما يتعلق بالعقيدة الكاثوليكية مباشَرةً. فقرر رئيس الروسية إرسال تقرير إلى البابا بيوس الحادي عشر وأمين سر دولة الفاتيكان باتشيللي وُضع على غلافه الخارجي ختم "متعلق بروسيا"، أي ما معناه أن المستند "حساس جداً". وكان النص في الواقع مثيراً للجدل ليس فقط بالنسبة إلى المتمسكين بالتقاليد الذين يعارضون إدخال أي تغيير على الشعائر الكنسية، بل أيضاً بالنسبة إلى أولئك الذين يسعون إلى تحرير بنيات الكنيسة (أمر لم يَرُق كثيراً للجهاز الفاتيكاني).

كان العديد من الكاثوليك الروس من أصل روسي قد مروا بمرحلة من التحوّل من الكاثوليكية الأكثر تمرّداً إلى الشيوعية الأكثر امتثالاً. وبنظر نظام ستالين، إن

الكاثوليك البولنديين هدف يتعيّن مكافحته، وليس تحويله عن معتقداته. وكان ميشال دربينيي ومنظمة الروسية مهتمَّين كثيراً بتنفيذ عمليات في بولندا وإنشاء شبكة سرية من الكهنة والأساقفة كما كان الحال في الاتحاد السوفياتي.

وفي أثناء زيارته إلى بولندا، لفت ألكسندر دوبنير انتباه أجهزة المخابرات التي لم تكن فضولية في شأن علاقاته بدربينيي فحسب، بل بصلاته بموسكو أيضاً. كان البولشفيون قد اعتقلوا والد دربينيي بعد الثورة وسقوط القيصر وأرسلوه إلى سجن في سيبيريا. وأقامت والدته الفرنسية في العاصمة الروسية مع أحد أخوال العميل المستقبلي للحلف المقدس في شقة داخل مجمّع الكرملين السكني. وكان خال دوبنير صديقاً للناشطة الشيوعية الألمانية الشهيرة كلارا زيتكين. فالتقى عميل الروسية زيتكين عندما مرّ ببرلين وقدّمته إلى معارفها في ألمانيا، بمن فيهم عدة دبلوماسيين سوفيات في برلين كانوا في الواقع عملاء للشرطة السياسية التابعة للحكومة. ورصد أعضاء الشرطة أيضاً عدة لقاءات بين زيتكين والكاهن الشاب في شقة صغيرة بالرغم من أنهم لم يحددوا ما إذا كانت لقاءات جنسية أو تبادل معلومات في مكان يوفّر قدراً أكبر من السرية.

في نهاية العام 1932، وبعد طرده من بولندا بسبب أعمال تجسسية، عاد ألكسندر دوبنير إلى روما في أجواء مضطربة. كان دبلوماسيون وأعضاء في الإدارة البابوية على درجة من الأهمية ينشرون شائعة مفادها أن وثائق سرية مشبوهة عن عمليات منظمة الروسية في أوروبا الشرقية سُرقت من مكتب الحَبر الأعظم. وكما كان متوقَّعاً، استغلّت الصحافة هذه القصة المسلّية، وساءت سمعة دوبنير.

أخيراً، كانت هناك مطالبات من أعلى المستويات في الحلف المقدس بأن يقدّم دربينيي شرحاً عن سبب تسرّب المعلومات من منظمة الروسية، ولكنه لم يتمكن من ذلك. وفي محاولة لكشف النقاب عن الحقيقة، استدعى عملاء في جمعية بيوس ألكسندر دوبنير لعقد اجتماع معه، ولكنه كان قد توارى عن

الأنظار. وفسّر العديدون فراره اليائس بأنه اعتراف بالذَنب. وصدرت صحف أوروبية يومية بعناوين رئيسية مثل "الجاسوس السوفياتي دوبنير فرّ من الفاتيكان"، "سكرتير دربينيي عميل للشرطة السياسية التابعة للحكومة"، و"إلى موسكو مع وثائق مسروقة".

فإدوارد غيهرمان هو من فتح صندوق باندورا وانتزع اعترافاً من ألكسندر دوبنير. وغيهرمان هو المدير الأسبق لبعثة المساعدة الحَبرية إلى روسيا وأحد مستشاري القاصد الرسولي في برلين للشؤون الروسية. لقد اعترف عميل الروسية الفارّ بأنه أقام علاقات جنسية مع كلارا زيتكين الشيوعية في أثناء رحلته إلى برلين ووارسو. وعلِم غيهرمان في وقت لاحق بأن دوبنير سلّم زيتكين مواد حساسة جداً عن الروسية والحلف المقدس في أثناء لقاءاتهما، وقد مرّرتها لعملاء سوفيات في ألمانيا. بهذه الطريقة، انتقلت معلومات عن أسماء، وتواريخ، ومدن، وعمليات، من أجهزة التجسس الفاتيكانية إلى أيدي الشرطة السياسية التابعة للحكومة.

وكخطوة أولى، اتُخذ قرار بإبقاء دوبنير في عزلة في مقرّ لليسوعيين في برلين. ولكنه تمكّن من الفرار عبر النافذة بعد ثلاثة أيام واختفى عن وجه الأرض. وفي شباط/فبراير 1933، ووفقاً لرواية الجهاز النازي، أضرم شيوعي النار في الريشستاج الألماني (البرلمان الألماني). ورأى آدولف هيتلر وحزبه الاشتراكي القومي عندما كانا على وشك استلام السلطة أن الفرصة مناسبة لهما لإطلاق قوات الصدم ضد الحزب الشيوعي الألماني. وشهد اليوم التالي إعدام قادة شيوعيين من دون محاكمة، وإضرام النيران في صحف، ومهاجمة مكاتب للحزب وتدميرها. في ظل هذه الأجواء، خرج الأب دوبنير بسرعة من برلين.

كان النازيون يطاردون دوبنير كما يبدو، وفقاً لأحد عملاء الحلف المقدس، بسبب علاقته المفترَضة مع عضوة الحزب الشيوعي الشعبي كلارا زيتكين. كان العميل السابق لمنظمة الروسية قد دخل في جدال مع أحد جيران زيتكي

صودف أنه قائد نازي في الحي. وعندما حاول العبور إلى النمسا متنكّراً بزِيّ نمساوي، ألقى حرس الحدود الألمان القبض على دوبنير، وسُجن لمدة شهرين، وأُطلق سراحه في أواخر أيار/مايو بعد استجوابه في شأن صلات تجسسية محتمَلة. وتوارى عن الأنظار ثانيةً حتى ظهر مجدداً في بلغراد حيث طلب المساعدة من الأسقف فرانز غريفيك، وهو خبير في الشؤون الروسية.

في هذه المرحلة، دعا دوبنير إلى عقد مؤتمر صحافي نفى فيه كل تهم التجسس. ونصحه غريفيك بالعودة إلى روما لإيضاح الأمور للبابا بيوس الحادي عشر، وأمين سر الدولة باتشيللي، والحلف المقدس.

كان جهاز التجسس المضاد الفاتيكاني قد نشر في مجموعة منوّعة من الصحف أخباراً تبيّن أن الأب ألكسندر دوبنير هو عضو مؤقت في الروسية ولا يمكنه ولوج وثائق هامة. وعندما وصل دوبنير إلى روما في تموز/يوليو 1933، كان المونسينيور ميشال دربيني قد "أُرسل" إلى أحد الأديرة للتفكير ملياً في أعماله والدّعاء طلباً للغفران. وظن دوبنير أن الأب الأقدس سيستدعيه قريباً للعودة إلى روما واستئناف مهامه التجسسية، وأن باستطاعته طلب الحماية من رئيسه السابق، غير عالمٍ بنفي دربيني من الفاتيكان عملاً بأوامر البابا بيوس الحادي عشر.

كان دربيني قد اتخذ لنفسه العديد من الأعداء في أوساط الرومان ذائعي الصيت، والأسوأ من ذلك في أوساط أعضاء الإدارة البابوية ذوي المراتب العليا. وفي العام 1933، ازداد عدد أعداء منظمة الروسية على نحو خطير، وأحد هؤلاء فلاديمير لدوشوسكي، الرئيس العام اليسوعي.

وما حدث بعد ذلك أُحيط بسرّية تامة. وتبقى الوثائق المتعلقة بالقضية في الزوايا المُظلمة لمحفوظات الفاتيكان السرية. وفي 29 أيلول/سبتمبر 1933، وضع بيوس الحادي عشر أمام دربيني كدسة كبيرة من الصور الفوتوغرافية لكهنة معتقلين في معسكرات الأشغال الشاقة السوفياتية كانت الجماعة السرية

التابعة للمونسينيور أوجين نوفو قد جنّدتهم في وقت سابق. وأخبر الحَبر الأعظم دربيني بأن الأب لدوشوسكي قرر إرساله إلى مستشفى بلجيكي للعلاج والراحة عملاً بتوصية رئيسه.

في 2 تشرين الأول/أكتوبر، أخلى ميشال دربيني مكتبه بمراقبة عميلين من الحلف المقدس. وبعد ظهر ذلك اليوم، غادر روما بمفرده إلى الأبد.

في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر، زار عميلان لجهاز التجسس المضاد الفاتيكاني دربيني مع الرئيس العام لدوشوسكي. فأخرج أحدهم من جَيبه وثيقة تحمل ختم البابا الشمعي، وفتحها دربيني بعناية. في النص، أبلغ الحَبر الأعظم جاسوسه السابق بأنه سيكون من "الملائم" له الاستقالة من كل مسؤولياته ومناصبه في الإدارة البابوية الرومانية. وعملاً بقواعد إطاعة البابا التي تفرضها الرهبنة اليسوعية، وقّع دربيني على الوثيقة من دون أدنى اعتراض.

وانقطع المونسينيور ميشال دربيني عن العالم داخل مقر إقامة لليسوعيين حتى وفاته عام 1957. ومنعه قادة الرهبنة من الكتابة عن نشاطاته في منظمة الروسية أو التحدث عنها علانيةً.

في غضون ذلك، وبفضل مساعدة كهنة كانوا قد خدموا في الروسية منفّذين أوامر دربيني، لجأ الأب ألكسندر دوبنير إلى بيت للبِرّ غادره بعد شهرين. وعثر عليه عملاء جهاز التجسس الإيطالي مقيماً في مسكن مستأجَر في وسط روما. فشرح لهم أنه حصل على وظيفة في مكتبة المعهد الحَبري للدراسات الشرقية. وصدّق أصدقاؤه هذه الرواية، ولكن جهاز المخابرات الإيطالي لم يصدّقها. وفي أيلول/سبتمبر، تبيّن للجهاز الذي يقوم بمراقبة الأب ألكسندر دوبنير أن هذا الأخير قام بزيارات عدة للسفارة السوفياتية. وبعد اعتقاله ثانيةً، قال الجاسوس السابق إن زياراته جزء من عمله في معهد الدراسات الشرقية. واكتشفت الشرطة أن دوبنير لم يكن يعمل في مكتبة المعهد في الواقع بل يستخدم قاعة المطالعة فيها، وأنه يقيم في شقة مستأجَرة من دون أي مصدر معروف للدّخل.

فأخبر الحلف المقدس زملاء دوبنير الإيطاليين بأنه كان يسعى إلى الحصول على تأشيرة دخول إلى روسيا، ولكن السلطات السوفياتية رفضت طلبه بسبب صلاته بدربينيي ومنظمة الروسية وعرضت عليه راتباً لقاء ما يملكه من معلومات. أخيراً، وذات يوم، اعتقل جهاز المخابرات الإيطالي ألكسندر دوبنير مع أوامر بترحيله. فسألت إيطاليا السفارة السوفياتية عما إذا كانت راغبة في استقباله، ولكنها رفضت.

كان دوبنير مفيداً للسوفيات داخل الفاتيكان وليس خارجها. وفي أواخر العام 1934، تمت مواكبة الجاسوس البابوي السابق إلى الحدود الفرنسية. ومن فرنسا، انتقل إلى موسكو حيث أمل في أن يقوم ستالين بتقليده وساماً لقاء الخدمات التي قدمها للنظام الشيوعي. ولكن أحلامه لم تتحقق. فما إن وطئت قدماه الأرض السوفياتية حتى ألقى عملاء الشرطة السياسية التابعة للحكومة القبض عليه وأرسلوه إلى السجن في معسكر سيبيري. وهناك، قام عملاء الشرطة السرية الشيوعية بإعدامه ذات ليلة باردة لا يُعرف تاريخها. وأُرسلت مذكرة رسمية إلى الفاتيكان جاء فيها أن "الأب ألكسندر دوبنير قُتل على أيدي قطّاع طرقات هاجموا المعسكر بهدف سرقة السجناء وقتلهم". ولم يطلب أمين سر دولة الفاتيكان أي شروحات إضافية، وأُغلقت قضية دوبنير، ودُفنت سجلاتها في الطوابق السفلية للفاتيكان حيث المحفوظات السرية.

بين عامَي 1932 و1939، ركزت أجهزة المخابرات الإيطالية جهودها على الفاتيكان، ولا سيما قطاعات الإدارة البابوية الرومانية المعارضة بشكل واضح للسياسات الفاشية.

وصبّ جهاز التجسس الإيطالي جهوده أيضاً لمراقبة علاقات الفاتيكان الخارجية مع دول كإسبانيا وفرنسا وألمانيا ويوغوسلافيا. وأرادت إيطاليا في ظل حكم بينيتو موسوليني أن تكون مستعدة للمأساة الكبرى التي تقترب بشكل واضح، ولا يُفترض أن تكون هناك نقاط ضعف في اليوم الذي يبدأ فيه الجنود

الزحف عبر الحدود وسط الدخان والدم.

كانت سنوات الحرب، سنوات الموت والدمار، وشيكة. فبعد ستة عشر عاماً من السلام، امتطى فارس سفر الرؤيا صهوة جواده مجدداً، وسادت لغة المدفع.

إليزابيت الأولى

(المعرض الوطني للصور، لندن)

دافيد ريزيو

(المتحف البريطاني)

هنري دارنلي وماري ستيوارت (الصندوق الائتماني الوطني في اسكتلندا)

بيوس الخامس (فسيسفساء كنيسة مار بولس في روما) (إلى اليمين)، جيمس الأول (المعرض الوطني للصور، لندن) (إلى اليسار)

إقليمنضس الثامن (فسيسفساء كنيسة مار بولس في روما) (إلى اليمين)، غريغوريوس الثالث عشر (فسيسفساء كنيسة مار بولس في روما) (إلى اليسار)

الكردينال ريشليو (متحف اللوفر) (أعلى اليمين)، الأب جوزيف دو تريمبلاي (مجموعة المؤلف) (أعلى اليسار)، بول الخامس (مجموعة المؤلف) (أسفل اليسار)

أعلى اليسار: إنّوقنطيوس العاشر (فسيسفساء كنيسة مار بولس في روما). أعلى اليمين: إنّوقنطيوس الثاني عشر (فسيسفساء كنيسة مار بولس في روما). أسفل اليسار: بيوس السادس (فسيسفساء كنيسة مار بولس في روما). أسفل اليمين: الكردينال جيوفاني باتيستا كابرارا (متحف ريزورجيمنتو، روما)

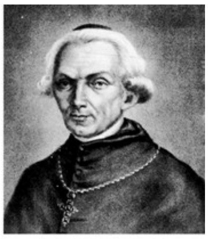

أعلى اليسار: بيوس التاسع (متحف ريزورجيمنتو، روما). أعلى اليمين: الكردينال برتولوميو باكا (متحف ريزورجيمنتو، روما). أسفل اليسار: الكردينال بييترو غاسباري (متحف ريزورجيمنتو، روما). أسفل اليمين: الكردينال ماريانو رامبولا (متحف ريزورجيمنتو، روما)

(أ‘لى اليمين) الكردينال رافاييل ميري ديل فال (مجموعة المؤلف)، (أعلى اليسار) لاون الثالث عشر (مجموعة المؤلف)، (أسفل اليمين) بيوس العاشر (فيلا بيا، مدينة الفاتيكان)

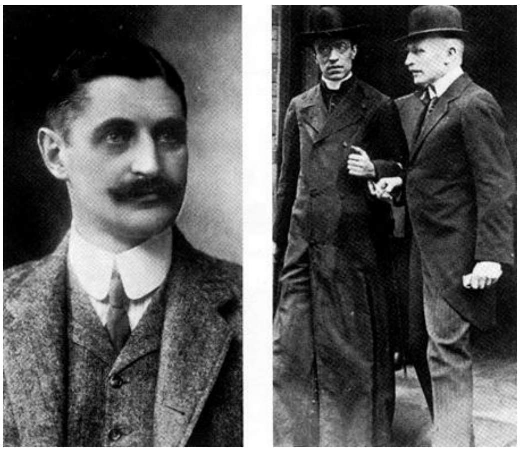

إلى اليسار: البارون فون در لانكن. إلى اليمين: أوجين باتشيللي (إلى اليسار) (كلا الصورتين من مجموعة المؤلف)

(أأعلى) بندكتس الخامس عشر (مجموعة المؤلف)، (أسفل اليمين) بيوس الثاني عشر (مجموعة المؤلف)، (أسفل اليسار) بيوس الحادي عشر (مجموعة المؤلف)

(أعلى اليمين) الأب إيفان بوكو (لجنة الاستعلام عن نشاطات النازية في الأرجنتين)، (أعلى اليسار) راينهارد هيدريش، (أسفل) الأسقف غريغوري روزمان وجنود يؤدون التحية

الأب فرنشسكو ريبيتو (محفوظات الدولة في روما)

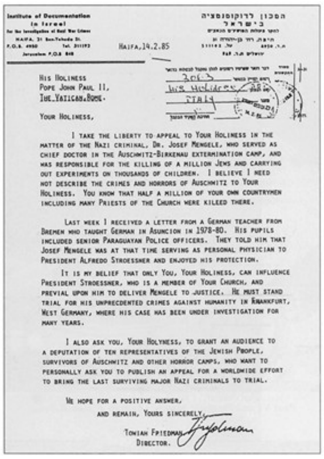

Institute of Documentation
in Israel
for the Investigation of Nazi War Crimes
HAIFA, 31 Ben-Yehuda St.
P.O.B. 4950 Tel. 511193
Jerusalem P.O.B. 848

Haifa, 14.2.85

המכון לדוקומנטציה
בישראל

His Holiness
Pope John Paul II,
The Vatican, Rome.

Your Holiness,

I take the liberty to appeal to Your Holiness in the matter of the Nazi criminal, Dr. Josef Mengele, who served as chief doctor in the Auschwitz-Birkenau extermination camp, and was responsible for the killing of a million Jews and carrying out experiments on thousands of children. I believe I need not describe the crimes and horrors of Auschwitz to Your Holiness. You know that half a million of your own countrymen including many Priests of the Church were kileed there.

Last week I received a letter from a German teacher from Bremen who taught German in Asuncion in 1978-80. His pupils included senior Paraguayan Police officers. They told him that Josef Mengele was at that time serving as personal physician to President Alfredo Stroessner and enjoyed his protection.

It is my belief that only You, Your Holiness, can influence President Stroessner, who is a member of Your Church, and previal upon him to deliver Mengele to justice. He must stand trial for his unprecedented crimes against humanity in Frankfurt, West Germany, where his case has been under investigation for many years.

I also ask you, Your Holyness, to grant an audience to a deputation of ten representatives of the Jewish People, survivors of Auschwitz and other horror camps, who want to personally ask you to publish an appeal for a worldwide effort to bring the last surviving major Nazi criminals to trial.

We hope for a positive answer,
and remain, Yours sincerely,

Towiah Friedman
Director.

(أعلى) رسالة تتناول جوزيف مينغل (مجموعة المؤلف)، من اليسار إلى اليمين: أنتي بافليتش، جوزيف مينغل، وهانز فيشبوك (لجنة الاستعلام عن نشاطات النازية في الأرجنتين)

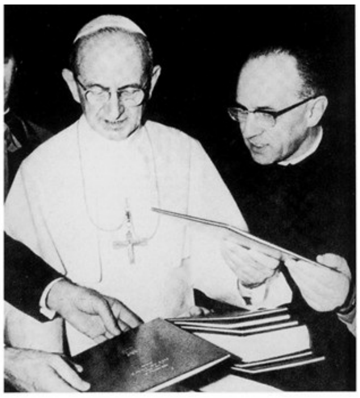

(أعلى) بولس السادس وباسكوال ماتشي (محفوظات الدولة في روما)، (أسفل اليسار) الكردينال باولو برتولي (محفوظات الدولة في روما)، (أسفل اليمين) الأب أليغييرو توندي (مجموعة المؤلف)

CERTIFICATO DI MORTE

Certifico che Sua Santità GIOVANNI PAOLO I, ALBINO LUCIANI,
nato in Forno di Canale (Belluno) il 17 ottobre 1912,
è deceduto nel Palazzo Apostolico Vaticano il 28 settembre 1978
alle ore 23 per " morte improvvisa - da infarto miocardico acuto ".
"Il decesso è stato constatato alle ore 6.00 del giorno 29 settembre 1978.

Città del Vaticano , 29 settembre 1978.

(Dott. Renato Buzzonetti)

Visto il Direttore dei Servizi Sanitari
(Prof. Mario Fontana)

(أعلى) شهادة وفاة يوحنا بولس الأول (مجموعة المؤلف)، (أسفل) يوحنا بولس الأول (محفوظات الدولة في روما)

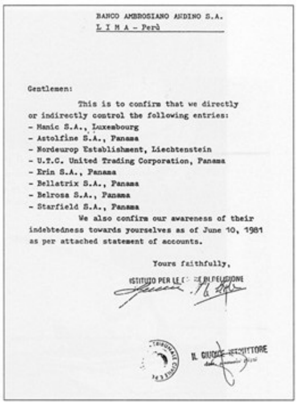

BANCO AMBROSIANO ANDINO S.A.
L I M A - Perù

Gentlemen:

This is to confirm that we directly or indirectly control the following entries:
- Manic S.A., Luxembourg
- Astolfine S.A., Panama
- Nordeurop Establishment, Liechtenstein
- U.T.C. United Trading Corporation, Panama
- Erin S.A., Panama
- Bellatrix S.A., Panama
- Belrosa S.A., Panama
- Starfield S.A., Panama

We also confirm our awareness of their indebtedness towards yourselves as of June 10, 1981 as per attached statement of accounts.

Youre faithfully,

ISTITUTO PER LE [illegible] DI RELIGIONE

IL GIUDICE ISTRUTTORE

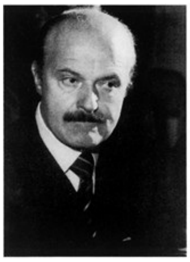

(أعلى اليمين) شهادة مصرف أمبروزيانو (مجموعة المؤلف)، (أعلى اليسار) روبرتو كالفي (مجموعة عائلة كالفي)، (أسفل) بولس السادس وليتشيو جيلي (مجموعة المؤلف)

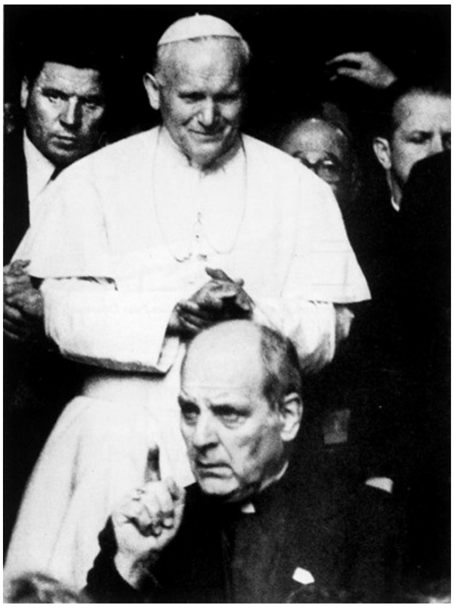

يوحنا بولس الثاني والأسقف بول مارسينكوس (مجموعة المؤلف)

(أعلى) محاولة اغتيال يوحنا بولس الثاني (دائرة الشرطة الإيطالية)، (أسفل) إيفان برتوريلو (مجموعة المؤلف)

الفصل الرابع عشر
نشوء حكم الإرهاب (1934-1940)

أثار ارتقاء النازيين إلى سدة الحكم رد فعل قوي في الأوساط العليا للهرمية الكاثوليكية في ألمانيا. وكان رد فعل النظام الجديد على الاعتراضات المتزايدة للأساقفة محاولة التهدئة من رَوعهم بهدف كسب الوقت لترسيخ الحزب النازي في كل منظمات السلطة وآلياتها، بما في ذلك الكنيسة.

وبعد فترة قصيرة من تعيين آدولف هيتلر مستشاراً في 29 كانون الثاني/يناير 1933، شرع نائب المستشار، فرانز فون بابين، بإجراء لقاءات سرية مع أوجين باتشيللي. ولم يعلم البابا بيوس الحادي عشر بهذه اللقاءات إلا بعد عامين من حدوثها عندما تلقى تقريراً من الحلف المقدس صُنِّف بأنه "سرّي للغاية".

في هذه المحادثات التي كانت غير رسمية في بادئ الأمر وسرّية في ما بعد، حدد فون بابين وباتشيللي النقاط الرئيسية للاتفاقية الشهيرة التي وقّعتها برلين والفاتيكان في 20 تموز/يوليو 1933. وألزم ذلك الاتفاق الرايخ بالسماح بممارسة الإيمان الكاثوليكي بحرّية وبشكل علني، والاعتراف باستقلال الكنيسة، وضمان حقها بتعيين مسؤوليها الدينيين بحرّية، وتخويل الفاتيكان إضافة تخصصات في اللاهوت في كل الجامعات الألمانية. ولكن كلاً من هذه البنود أُرفق بشروط، كما وأنه يمكن للدولة استخدام حق النقض لأسباب سياسية لدى تعيين الأساقفة الذين يتعيّن عليهم أن يقسموا الولاء للرايخ والفوهرر.

وعلم الحلف المقدس بأن باتشيللي قرر في الدقيقة الأخيرة تضمين الاتفاقية شرط عدم انتماء رجال الدين إلى أي حزب سياسي أو منظمة سياسية. فوافق فرانز فون بابين على هذه النقطة من دون أن يفهم سبب إصرار المونسينيور أوجين باتشيللي عليها.

لقد وصفت مجموعة منوعة من المؤرخين والباحثين توقيع هذه الاتفاقية بأنه تعبير عن موافقة الكرسي الرسولي جزئياً على نظام هيتلر النازي ومنحه التأييد.

كانت الاتفاقية في الواقع تنازلاً من قِبل باتشيللي - بيوس الثاني عشر المستقبلي - أكثر منها تنازلاً من قِبل بيوس الحادي عشر. وبالنسبة إلى أمين سر الدولة السابق الكردينال بييترو غاسباري، إن الفشل في التفاوض حول اتفاقية مع هيتلر يعني جعل كاثوليك ألمانيا عُرضة للاضطهاد. وعندما وُقّعت الوثيقة عام 1933، لم تكن الحكومة النازية قد باشرت بعد بسياسة الترهيب أو بالأعمال الوحشية التي بدأت بعد فترة قصيرة.

وأدان بيوس الحادي عشر النازية وقادتها في منشوره البابوي بكل أسف الصادر بتاريخ 14 آذار/مارس 1937. فعلى غرار موسوليني في إيطاليا، أراد هيتلر نوعاً من أنواع الاعتراف الديني بنظامه لتعزيز مكانته الدولية، ولم تكن هناك طريقة أفضل من توقيع اتفاقية مع الكرسي الرسولي. وفي أوائل العام 1939، بات الوضع مختلفاً إذ بدأت الأعمال الوحشية النازية بالتمدد إلى ما وراء الحدود الألمانية. حينذاك، أعدّ بيوس الحادي عشر نصاً جديداً أراد قراءته أمام كل الأساقفة الإيطاليين والألمان في الذكرى العاشرة لتوقيع معاهدات لاتيران. ولكن ذلك لم يتم بسبب وفاة الحَبر الأعظم في وقت غير مناسب في اليوم السابق للذكرى. ولم توضع الوثيقة بتصرف الجمهور حتى جلوس البابا يوحنا الثالث والعشرين على كرسي القديس بطرس عام 1958، أي بعد عشرين عاماً تقريباً.

في النص الأصلي بعنوان على ضوء، سلّط بيوس الحادي عشر الضوء على عدم توافق الإيديولوجية الفاشية مع تعليم يسوع المسيح. ولكن الأمور لم تكن أفضل حالاً في ألمانيا. فقد بدأ عملاء الحلف المقدس الذين يعملون في القاصدية الرسولية في برلين بإرسال تقارير إلى الفاتيكان تتناول شعبة في الرايخ مخصَّصة "لتطهير" العِرق الآري. فقرر جهاز التجسس الفاتيكاني إرسال عميلَين متمرّسَين، هما الكاهنان غونتر هسنر وليون برنت، إلى برلين للتحقق من الأمر.

وتمكن هسنر وبرنت من دخول مؤسسة الزواج العِرقي الغامض بعد أن ادعى

الأول أنه خادم والثاني طاهٍ. وُلد غونتر هسنر في بافاريا في عائلة محافظة، وقومية، وموالية للقيصر ويلهلم الثاني، وباتوا لذلك من أتباع الرايخ الجديد. وبرنت متحدر من عائلة مختلَطة، وقد نشأ في منزل ليبرالي على نحو أيديولوجي معارض لهيتلر بشكل منطقي.

وصل التقرير الأول عن المؤسسة إلى روما عام 1937 مذيَّلاً بتوقيع الأب ليون برنت. وفي النص المؤلف من ثماني صفحات شروحات مفصَّلة عن النساء المصنّفات بأنهنّ آريات أقمنَ علاقات جنسية مع أعضاء بارزين في الحزب النازي، وأعضاء في وحدات الدرع الواقي ووحدات جنوب أفريقيا. وكانت النساء حقل تجارب تتم مرافقتهنّ ومراقبتهنّ على الدوام حتى في أثناء ممارسة أعمال جنسية مع أفراد "آريين" من وحدات الدرع الواقي. وكانت ممرضة منتمية إلى الحزب النازي حاضرة على الدوام.

وجاء في تقرير آخر لليون برنت أن بعض هؤلاء النساء وافقنَ على الخضوع للتلقيح الاصطناعي. فردّ الفاتيكان على الفور مُرسِلاً خمساً وخمسين مذكرة اعتراض من خلال قاصديته الرسولية لا تشير أي منها إلى مؤسسة الزواج العِرقي بشكل واضح. لم يشأ الفاتيكان أبداً تعريض عملائه المتسللين إلى المؤسسة للخطر.

ولكن حالة الذُعر تعاظمت في أروقة الفاتيكان عندما وصل التقرير الأول للأب غونتر هسنر. لقد اكتشف الحلف المقدس من خلال إحدى خادمات الغرف في مؤسسة الزواج العِرقي أن عدداً من المستشفيات والعيادات الخاضعة للسيطرة النازية تُجري عمليات تعقيم وتقتل أشخاصاً يعانون من قصور عقلي وفقاً للقوانين العِرقية التي وضعها الحزب النازي. وقرر هسنر إرسال هذا التقرير في بادئ الأمر إلى ثلاثة من أعضاء الهرمية الكاثوليكية الأكثر معاداةً للنازية؛ الكردينال كليمنت أوغست فون غالين، الكردينال كونراد فون بريزينغ، ورئيس أساقفة ميونيخ المونسينيور مايكل فون فولهابر. فأرسل هذا الأخير

تقرير الأب هسنر إلى الفاتيكان. وبوجود كل هذه المواد بين يديه، أصدر البابا بيوس الحادي عشر أمراً بنشر منشوره بكل أسف الذي تُلِيَ سراً في بعض الكنائس الكاثوليكية الألمانية يوم أحد الشعانين عام 1937.

لم يتأخر رد فعل هيتلر. فطوال الأسابيع القليلة التالية، قامت السلطات النازية، ومن خلال عملاء وحدات الدرع الواقي والبوليس السري النازي (الغستابو)، بسجن أكثر من ألف كاثوليكي، بمن فيهم صحافيون، وكهنة، وأخوة، وطلاب لاهوت، ورهبان، وقادة منظمات شبابية كاثوليكية. وفي أوائل العام 1938، نُقل 304 أشخاص إلى معسكر الاعتقال في داخاو.

واصل الأب غونتر هسنر خدمة الحلف المقدس في أنحاء مختلفة من ألمانيا، واستمر حتى العام 1941 في إبلاغ الفاتيكان عن تعرّض اليهود لإبادة جماعية. وفي ذلك العام، ألقى الغستابو القبض عليه وأرسله إلى معسكر الاعتقال في ماوثاوزن. وعندما قبض عليه الحرس وهو يمنح الأسرار الأخيرة لسجين بولندي مُسنّ، تمّ شنقه. وألقت وحدات الدرع الواقي القبض على الأب ليون برنت في نيسان/إبريل 1940 بتهمة مساعدة اليهود على الفرار إلى سويسرا عن طريق شبكة سرية كان قد أنشأها من دون الحصول على تفويض من الحلف المقدس. ووفقاً لبعض التقارير، قام بإنشاء شبكته بدعم من الكردينال أوغست فون غالين.

وبسبب التدابير النازية، قرر البابا بيوس الحادي عشر عزل نفسه في مقر إقامته في كاستل غاندولفو لتجنّب استقبال آدولف هيتلر في أثناء زيارة قام بها هذا الأخير إلى روما بين 3 و9 أيار/مايو 1938. وطلب الحَبر الأعظم أيضاً بإقفال كل متاحف الفاتيكان وعدم قيام الأوسرفاتوري رومانو بنشر أي شيء عن زيارة المستشار الألماني.

في غضون ذلك، كان عملاء جمعية بيوس يطاردون الجواسيس في قلب الفاتيكان. فمنذ أواخر عشرينيات القرن العشرين، دأبت أجهزة المخابرات

الإيطالية على تسريب جواسيس إلى الدوائر البابوية، وأبرزهم المونسينيور إنريكو بوتشي الذي يُقيم صلات بشخصيات مرموقة في ميدان الصحافة وفي الإدارة البابوية.

لقد شغل المونسينيور بوتشي منصب ناطق غير رسمي بلسان الفاتيكان بالرغم من عدم اكتساب منصبه أي صفة قانونية. فحرر ونشر مجلة صغيرة تتحدث عن الأحداث الرسمية الجارية في الفاتيكان وعن الشؤون البابوية المؤثّرة في المدينة-الدولة. وزوّد أيضاً صحفاً في مختلف أنحاء إيطاليا بمقالات خاصة. وكان الصحافيون المعتمَدون في الكرسي الرسولي يقصدون المونسينيور بوتشي للحصول على معلومات حول تصريح غير رسمي لأحد الكرادلة أو الأساقفة. كان بوتشي على عِلم بكل ما يحدث، وكان بالإمكان الاعتماد عليه للحصول على معلومات عن كل شيء بدءاً بما يقوم به الرهبان ومروراً بأفراد الحرس السويسري وأمناء المكتبات، وانتهاءً بالكرادلة.

كان المونسينيور بوتشي أفضل جاسوس لموسوليني داخل الفاتيكان منذ أن جنّده رئيس الشرطة الفاشية أرتورو بوكشيني في أواخر العام 1927. وفي أواسط الثلاثينيات، بدأ الحلف المقدس بتلقي تقارير عن وجود جاسوس داخل الفاتيكان، وكان بوتشي المعروف باسم "العميل 99" ينقل مختلف أنواع المعلومات. لقد جرت أفضل عملياته عام 1932 عندما تمكّن من الحصول على نسخة لمذكّرات الكردينال بونافنتورا شيريتي سرد فيها بالتفصيل المفاوضات والمحادثات السرية التي جرت مع رئيس الوزراء أورلندو والتي أدت إلى إبرام معاهدات لاتيران عام 1929 لتسوية "القضية الرومانية" لجهة وضع الفاتيكان.

وأبلغ عملاء الحلف المقدس جهاز التجسس المضاد، جمعية بيوس، بوجود جاسوس داخل الفاتيكان. وشرع عملاء الجهاز بمحاولة تحديد هويته.

ومن منطلق تكتيكي، نشرت جمعية بيوس وثيقة مغلوطة موقَّعة من أمين سر الدولة، بييترو غاسباري. وجاء في هذا التقرير أن شخصاً ما يدعى روبرتو جيانيل

يمرر معلومات عن إيطاليا والفاتيكان لسفارة بريطانيا في الكرسي الرسولي. بالطبع، لم يكن روبرتو جيانيل موجوداً؛ لقد تم ابتكاره لهذه الغاية.

ونجح عملاء جهاز التجسس المضاد في نشر التقرير بوصفه حقيقياً، ووصل إلى يدَي المونسينيور إنريكو بوتشي. فأمر بوكشيني على الفور بالعثور على روبرتو جيانيل واعتقاله بتهمة الخيانة العظمى. ولم يكن الإيطاليون أو بوتشي يعلمون أن جيانيل هو من ابتكار جهاز التجسس المضاد الفاتيكاني، فوقع الجاسوس في الفخ.

وبعد تجريده من كل مهامه الرسمية وغير الرسمية في الإدارة البابوية، استمر إنريكو بوتشي في خدمة النظام الفاشي حتى سقوط موسوليني. وأدى كشف النقاب عن بوتشي إلى انهيار شبكته المؤلفة من ستانيسلاو كاتريني، وجيوفاني فاتزيو، وفيرجيليو سكاتوليني، وكلهم موظفون متوسطو المستوى في الفاتيكان.

لقد وظّف أمين سر الدولة كاتريني في أواخر العام 1929. وكان حتى افتضاح أمره أحد أفضل مصادر المعلومات للمونسينيور إنريكو بوتشي بما أنه كان يعمل في دائرة التوزيع الرمزي، وهي المنظمة التابعة للحلف المقدس والتي تتولى مهمة الرموز المستخدَمة من قِبل القاصديات الرسولية في مراسلاتها السرية. وكانت كل الاتصالات الصادرة من الفاتيكان والقادمة إليه تمر عبر كاتريني الذي يُعلِم المونسينيور بوتشي على الفور بالمسائل الأكثر حساسية. وأُجبر على الاستقالة بسبب خيانة رؤسائه، وطُرد من الفاتيكان.

وكان جيوفاني فاتزيو العضو الثاني في ما دُعي شبكة بوتشي، وهو مسؤول في شرطة الفاتيكان. لقد منحه منصبه إمكانية ولوج ملفات كل موظفي دولة الفاتيكان من رجال دين وعلمانيين. وعندما ألقى الحلف المقدس القبض عليه، أُعفي فاتزيو من منصبه وجُرِّد بطريقة معيبة من القوة الأمنية البابوية. واستمر في العمل لصالح المخابرات الإيطالية حتى العام 1942 عندما عُثر عليه مشنوقاً في منزله. واعتبرت الشائعاتُ في ذلك الوقت حادثةَ الشنق إعداماً

ونسبته إلى الذراع الطويلة للمنظمة السوداء، وهي المنظمة السرية للأخوة القتلة التي أسستها في القرن السابع عشر رئيسة جهاز التجسس الفاتيكاني المقتدرة أوليمبيا مايدلكيني تنفيذاً لأوامر البابا إنّوقنطيوس العاشر.

وفيرجيليو سكاتوليني هو العضو الثالث في شبكة بوتشي الذي وقع في قبضة جهاز التجسس المضاد. فسكاتوليني صحافي عمل كمساعد للمونسينيور ماريو بوين، رئيس تحرير الأوسرفاتوري رومانو. لقد جُنّد سكاتوليني من قِبل أجهزة المخابرات الإيطالية ووُضع في إمرة إنريكو بوتشي في أوائل العام 1930. كانت مهمة سكاتوليني التسلل إلى أي دوائر صحافية مناهضة للفاشية وتمرير أسماء أعضائها لبوتشي الذي ينقلها إلى الأجهزة الأمنية التابعة لموسوليني. استقال فيرجيليو سكاتوليني من منصبه بعد قيام جمعية بيوس بافتضاح أمره، وواصل ممارسة مهنة الصحافة من خلال وضع مقالات في مجموعة منوّعة من وسائل الإعلام الإيطالية.

من الواضح أن أجهزة التجسس الإيطالية استهانت بقدرات الحلف المقدس وجهاز التجسس البابوي المضاد، ولم يكن الألمان راغبين في ارتكاب الخطأ نفسه. فبعد التوقيع على الاتفاقية، قررت أجهزة أمن الرايخ توجيه ضربة قاسية إلى قواعد الكنيسة الكاثوليكية الألمانية. وفي شباط/فبراير 1933، صرّح آدولف هيتلر بأن الكنائس الكاثوليكية هي جزء أساسي من الحياة الألمانية. وبعد شهر فقط، أعلن المستشار قائلاً: "أتعهد باستئصال الكنيسة الكاثوليكية تماماً من ألمانيا. إما أن تكونوا مسيحيين أو ألماناً. لا يمكنكم أن تكونوا الاثنين معاً". وتلقت المنظمة الكاثوليكية العلمانية الضربة الأولى بعد أن اتهمها النظام النازي بالقيام بسلسلة مترابطة من النشاطات الهدّامة ضد الحزب، والفوهرر، والشعب الألماني. وأُقفلت كل الصحف ودور النشر الكاثوليكية، وحُظّرت تجمعات الشباب الكاثوليك، ومُنعت الاحتفالات الدينية.

كان هيتلر قد أصدر أوامر لجهازه الأمني وأجهزة المخابرات بفرض مراقبة

مشددة على الأساقفة الألمان، واتصالاتهم بالكرسي الرسولي، وحركة مواردهم المالية، ونشاطات أجهزة التجسس التابعة لهم. وأوكل هذه المهمة إلى جهاز مخابرات الحزب النازي الذي كان قائده يعاني من اعتلال نفسي ويشتهر بقسوته بالرغم من شدة ذكائه أيضاً.

كان هيدريش مقتنعاً بأن البابا وجواسيسه داخل ألمانيا هم مصدر المؤامرات المتواصلة ضد الرايخ، ولذلك وجب تدميرهم. فخطّط راينهارد هيدريش لخنق الكنيسة الكاثوليكية باستخدام كل الوسائل المتاحة له، بما في ذلك أجهزة المخابرات. وفي أواخر العام 1933 وأوائل العام 1934، أنشأ جهازُ مخابرات الحزب النازي وحدةً صغيرة في ميونيخ مُعَدّة لتتبّع المنظمات الكاثوليكية وقادتها، وكان مديرها الأول هو الدكتور ويلهلم أوغست باتين، وهو عميل سابق للحلف المقدس.

كان باتين كاهناً متخصصاً في اللاهوت، وقد عمل طيلة سنوات كعميل للحلف المقدس في ألمانيا حتى تسلّم هيتلر مقاليد الحكم. وبعد سنوات، كُشف النقاب عن أن باتين هو أحد أنسباء هاينريش هيملر المقتدر.

كانت وحدة باتين تتألف من خمسة عملاء فقط يؤدون أعمالاً روتينية في الغالب. وكان خطأه التذمّر لدى نسيبه هيملر وتخطي رئيسه المباشَر، راينهارد هيدريش، مما كلّفه وظيفته. كان بديله، مارتن وولف، أحد ملازمي هيدريش الموثوق بهم، ولكن وولف شغل المنصب لمدة أشهر قليلة فقط لأن هيدريش أوكل إليه مهمة إدارة المنظمة المناهضة للشيوعية التابعة لجهاز مخابرات الحزب النازي. بعد ذلك، عرض وولف المنصب المناهض للكاثوليكية على الشخص الذي يليه في المرتبة مباشَرةً، ألبرت هارتل، الذي أصبح أحد ألدّ أعداء الحلف المقدس. كان هارتل مقدَّماً في الجيش الألماني وكاهناً كاثوليكياً سابقاً مهرطقاً نبذ كل الكهنة والرهبان، وبدأ في أوائل العام 1933 بالعمل لصالح جهاز مخابرات الحزب النازي كمُخبر مقابل أجر بينما كان يدرس في معهد

فرايزينغ للاهوت حيث التقى الأب جوزيف روسبرغر وأصبح صديقه.

وفي غضون أشهر قليلة، عَلِم هارتل بأن روسبرغر يدير شبكة دعائية مناهضة للنازية داخل المعهد، ويساعد عملاء التجسس البابويين أحياناً على تنفيذ عملياتهم في قلب ألمانيا النازية. فقرر ألبرت هارتل التبليغ عن صديقه المفضّل.

في اليوم التالي، وبينما كان في طريقه لعقد اجتماع مع شبكته، ألقى جهاز مخابرات الحزب النازي القبض على الأب جوزيف روسبرغر في الشارع وتم اصطحابه إلى مركز اعتقال سري حيث تعرّض للتعذيب طوال سبعة أيام. وطالب الشخص الذي خانه بمشاهدة جلسات التعذيب.

كان لشهادة ألبرت هارتل في أثناء محاكمة الأب روسبرغر أثر عميق في نفوس كاثوليك بافاريا. فلم يكن أحد يظن أن جهاز أمن الرايخ قادر على اختراق أبواب معهد اللاهوت.

وبعد المحاكمة، وُضع هارتل بحماية هيدريش وبدأ مهنة لامعة أوصلته إلى أعلى مراتب أجهزة الأمن التابعة لأدولف هيتلر. لقد عرف طالب اللاهوت البالغ من العمر ثلاثين عاماً كيفية الاستفادة من سطوع نجم ناصحه المخلص. وعرض عليه هيدريش منصباً في جهاز مخابرات الحزب النازي، فوافق وتخلى عن كهنوته وانضم إلى الجهاز المذكور بكل حماسة المهتدي إلى دِين جديد.

كانت أولى مهامه جمع معلومات عن أعضاء الحزب النازي المشتبَه بإقامتهم صلات وثيقة بالكنيسة والحلف المقدس، وإعداد تقارير عن تاريخ محاكم التفتيش ليتم استخدامها في الحملات الصحافية التي يشنها الحزب ضد الكنيسة الكاثوليكية، ووضع دراسة موسّعة عن تاريخ اليسوعيين ومنظمتهم لأن أجهزة أمن الرايخ كانت معجَبة بهذه الرهبنة الدينية بسبب زهدها، وسلوكها، وأهدافها.

أمضى قدراً كبيراً من الزمن في عمله، ولكنه بدأ بالتخلي عنه تدريجياً. وعاد إليه مجدداً عندما عيّنه راينهارد هيدريش مديراً لشؤون الكنيسة في جهاز

مخابرات الحزب النازي المدعوّ أيضاً أيه أم تي 2.

ومن مكتبه، راقب ألبرت هارتل كل العمليات الجارية ضد الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا. وبعد تعيين هيدريش رئيساً أعلى للبوليس السري النازي، اتضحت طموحات هارتل. لقد أراد لأيه أم تي 2 أن تبرز بين الوحدات العملانية التابعة لجهاز مخابرات الحزب النازي ليكون بالإمكان استيعابها في ما بعد بكل موظفيها ضمن الغستابو. حتى ذلك الوقت، كان قسم شؤون الكنيسة مكتباً صغيراً في الغستابو مؤلفاً من عشرة عملاء يقومون بالنظر في تُهم غير هامة. واقتصرت التُهم الموجهة إلى أولئك الذين اعتقلهم الغستابو، بمن فيهم العديد من عملاء الحلف المقدس، على أمور أخلاقية. وأراد ألبرت هارتل الفرار من عمل الشرطة البيروقراطي وتحويل وحدته إلى قسم هامّ من مجموع الأقسام التي يتألف منها الغستابو. فقرر ضم التحقيق المتعلق بالمنظمات السياسية الكاثوليكية إلى مهام أيه أم تي 2، وكان يعلم بأن هيدريش يتملكه ارتياب عميق في شأنها. وهكذا، شرع عملاء هارتل بتعقّب الأساقفة، والكهنة، والمدراء الأسقفيين، والسياسيين، والمحررين، والصحافيين.

وبين عامَي 1939 و1941، أصبح ألبرت هارتل البلوى الرئيسية للكنيسة الكاثوليكية الألمانية، وقائد محكمة التفتيش الخاصة بالنازيين المناهضة للفاتيكان، ومطارداً شرساً لجواسيس البابا. وغدت الوحدة الصغيرة التابعة لجهاز مخابرات الحزب النازي والتي تُعنى بشؤون الكنيسة منظمة هامة يتدرب أعضاؤها في مدرسة خارج برلين.

كانت صحة بيوس الحادي عشر قد بدأت بالتراجع منذ تشرين الثاني/نوفمبر، فاستجمع قواه لإحياء احتفالات ميلاد العام 1938. وكان صوته ضعيفاً بشكل ملحوظ عبر راديو الفاتيكان. لقد أمضى معظم الأشهر الأولى من العام 1939 في السرير برعاية طبيبه الخاص.

وفي 4 شباط/فبراير، استيقظ باكراً للقيام بالاحتفال الديني، ولكن أزمة قلبية

أعادته إلى السرير. وبعد خمسة أيام، زادت حالة من القصور الرئوي من حدة الأزمة، وتوفّي بسلام في 10 شباط/فبراير عند الخامسة والنصف مساءً.

كانت انتخابات الحَبر الأعظم التالي من أكثر الانتخابات تسيّساً في التاريخ البابوي، وأصبح الفاتيكان أول ساحة للأزمة العالمية الوشيكة. لقد تمّت المراهنة على كل وزراء خارجية أوروبا وأميركا، وأرادت لندن وواشنطن وباريس حَبراً أعظم يسير على خطى بيوس الحادي عشر، وذلك مقابل سياسات هيتلر وموسوليني. أما روما وبرلين فأرادتا بابا أكثر موالاةً للألمان.

وفي يوم وفاة بيوس الحادي عشر، اقترح وزير الخارجية الفرنسية جورج بونيه على السفير البريطاني في باريس، السير إريك فيبس، تعاون فرنسا وبريطانيا العظمى لضمان انتخاب كردينال ذي ميول ديمقراطية واضحة مناهضة للدكتاتورية. وكان الوزير الفرنسي يفكر في أمين سر دولة الفاتيكان على عهد بيوس الحادي عشر، الكردينال أوجين باتشيللي.

وأكد ممثل بريطانيا في الفاتيكان، دارسي أوزبورن، لوزارة الخارجية أن باتشيللي يحظى بفرصة جيدة ليتم انتخابه. والتقى الكرادلة الفرانكوفون السفير الفرنسي إلى الكرسي الرسولي، فرانسوا-شارل-رو، وأخبروه بأنهم سيقترعون لصالح باتشيللي. وكان الكردينال تيسران الرافض الوحيد وقد فضّل الكردينال ماليوني، القاصد الرسولي الأسبق في باريس، على باتشيللي لأنه أكثر مناهضة للفاشية والنازية.

ونشطت ألمانيا وإيطاليا أيضاً في هذا المجال. فالتقى السفير الإيطالي إلى الفاتيكان، بونيفاشيو بينياتي، نظيره الألماني دييغو فون برغن لمناقشة خياراتهما. وكان كلاهما يحبّذان أوجين باتشيللي، ولكن فون برغن أخبر بينياتي بأن الفوهرر لم يتخلَّ عن فكرة دعم ماوريليو فوساتي من تورينو أو إيليا دللا كوستا من فلورنسا.

بالنسبة إلى آدولف هيتلر، كان باتشيللي المرشح المثالي وعلى رأس لائحة

خياراته. لقد كان مُحباً بارزاً للألمان، وقاصداً رسولياً في ألمانيا على مستوى من الأهمية طيلة اثني عشر عاماً، وطليق اللسان بالألمانية، وقد أحاط نفسه بمجموعة هامة من الألمان عندما كان أمين سر لدولة الفاتيكان.

لم يكن السفير فون برغن المراقب الألماني الوحيد في الفاتيكان المهتم بالاتفاقية المبرومة مع الفاتيكان؛ فأيه أم تي 2 كانت حاضرة أيضاً. وبوفاة بيوس الحادي عشر، تمكنت أجهزة التجسس التابعة للرايخ الثالث من تسريب عميل إلى الكرسي الرسولي هو تاراس بوروداكيويتش من فيينا ووالداه أوكرانيان. درس بوروداكيويتش علم اللاهوت وادعى إقامة صلات ممتازة داخل الإدارة البابوية الرومانية، فقررت دائرة ألبرت هارتل، المقدَّم في الجيش الألماني، إرساله إلى الفاتيكان.

ولكن لسوء الحظ، لم تكن صلات بوروداكيويتش جيدة بقدر ما كان يُعتقَد. فبخلاف التوقعات، لم تكن تقاريره المرفوعة إلى برلين مُرضية. لقد ادعى الجاسوس الألماني أن الكردينال إلديفونسو شوستر، أسقف ميلانو الموالي للفاشية، هو أحد أقوى المرشحين لخلافة البابا بيوس الحادي عشر. في الواقع، لم يحظَ شوستر بأي صوت في مجمع الكرادلة.

في غضون ذلك، كان عدد من الكرادلة والأساقفة قد حذّروا جهاز التجسس المضاد الفاتيكاني من وجود عميل ألماني. وعزمت جمعية بيوس على إزالة أي تدخل لعملاء أجانب يسعون إلى ضمان اقتراع الكرادلة المتمتعين بالنفوذ لصالح المرشح غير الملائم. ولكن لم يتم الاعتماد على ألبرت هارتل وقدرة أيه أم تي 2 لإحلال بابا موالٍ لألمانيا على كرسيّ القديس بطرس. ولتحقيق هذا الهدف، أطلق جهاز مخابرات الحزب النازي ما دُعي عملية الذهب الخالص بقيادة تاراس بوروداكيويتش.

كان عميل جهاز مخابرات الحزب النازي في الفاتيكان قد أقنع هارتل بأن الرايخ قادر على شراء الانتخابات بثلاثة ملايين مارك على صورة سبائك ذهبية.

وأكد بوروداكيويتش لهارتل وجوزيف روث، مدير القسم الكاثوليكي في دائرة الشؤون الدينية في الرايخ، بأنه سيكون بالإمكان إقناع العديد من الكرادلة بهذا المبلغ من المال بالاقتراع لصالح المرشحَين المفضّلَين لدى الألمان وهما الكردينالان ماوريليو فوساتي وإيليا دللا كوستا. وسادت موجةُ تفاؤل مقرَّ قيادة أيه أم تي 2 وقسم الشؤون الدينية في الرايخ في برلين.

في صباح اليوم التالي، صدر أمر لرئيس أيه أم تي 2 بمرافقة جوزيف روث لإجراء مقابلة رسمية مع الفوهرر. فتكلم روث أولاً، شارحاً للقائد النازي أنه سيكون باستطاعتهم "شراء" انتخابات البابا الجديد إذا أمّن الرايخ الثالث مبلغ الثلاثة ملايين مارك على صورة سبائك ذهبية. وكان هارتل أكثر احتراساً من زميله؛ فقد آثر عدم الظهور أمام هيتلر بمظهر المتفائل. بالرغم من كل شيء، إذا لم تفِ عملية الذهب الخالص بالمطلوب، فقد تقع المسؤولية على عاتق جوزيف روث وقسم الشؤون الدينية في الرايخ.

وافق هيتلر على الخطة وأمر مصرف الرايخ بتسليم الملايين الثلاثة من الماركات ذهباً لأتباع هيملر، وأُرسل الذهب إلى روما على متن قطار خاص. وبينما كانت الشحنة القيّمة في طريقها إلى المدينة الأزلية، تلقى الحلف المقدس رسالة في هذا الشأن. لقد أبلغ تقرير من القاصدية الرسولية في برلين جهاز التجسس البابوي في روما بأن شحنة من الذهب في طريقها إلى إيطاليا لرشوة مسؤولي الكنيسة رفيعي المقام والكرادلة للاقتراع لصالح مرشح محدد في أثناء انعقاد المجمع.

كان تاراس بوروداكيويتش، جاسوس هارتل في الفاتيكان، قد اتصل بكاهن ادعى العمل في أمانة سر الدولة كمبعوث بين أعضاء مجمع الكرادلة. وأخبر الكاهن بوروداكيويتش أنه سيتولى مهمة استطلاع أراء نيافتهم، وأبلغ العميل الألماني الكاهن بأن هيتلر وهيملر وافقا شخصياً على خطة لتسليمه ثلاثة ملايين مارك على صورة سبائك ذهبية من مصرف الرايخ. لقد أراد بوروداكيويتشع

الاحتفاظ ببعض هذه السبائك لنفسه وتسليم الكمية المتبقية للكرادلة الذين يريدون الاقتراع لصالح مرشحي ألمانيا.

فأكد الكاهن لبورواداكيويتش أنه باستطاعتهما العيش برخاء في مكان ما من سويسرا اعتماداً على هذه الكمية من المال. ولكن الجاسوس الألماني خشي من الذراع الطويلة لوحدات الدرع الواقي لأنه لم يكن يعتقد بأن هاينريش هيملر سيظل مكتوف اليدين عندما يعلم بأن أحد عملائه فرّ بالملايين الثلاثة من الماركات التي تخص الرايخ.

في 1 آذار/مارس 1939، بدأ المجمع أعماله في الشابيل سيستين عند السادسة صباحاً بحضور اثنين وستين كردينالاً. وفي الاقتراع الأول، حصل باتشيللي على ثمانية وعشرين صوتاً، تلاه الكردينال دللا كوستا والكردينال ماليوني. ولم تتأمن غالبية الأصوات، فأُعيد الاقتراع.

في الدورة الثانية، حصل الكردينال ماليوني على مزيد من الأصوات بلغت ثلاثة وثلاثين صوتاً مما أدى إلى ارتفاع الدخان الأسود مرة أخرى دلالةً على حصول اقتراع غير حاسم. وفي الخامسة وخمس وعشرين دقيقة مساءً من الثاني من آذار/مارس، فاز أوجين باتشيللي بمنصب البابوية في الدورة الثالثة من الاقتراع بعد حصوله على ثمانية وأربعين صوتاً. لقد كان المجمع الأقصر في ثلاثمئة عام. واختار باتشيللي لنفسه اسم بيوس الثاني عشر إجلالاً لأسلافه.

كان خبر انتخاب باتشيللي مفاجأة لوزير الخارجية في برلين ولوحدات الدرع الواقي. فاستدعى هاينريش هيملر جوزيف روث وألبرت هارتل للاجتماع بهما وطلب منهما استرجاع شحنة الذهب من عميل جهاز مخابرات الحزب النازي في روما، تاراس بورواداكيويتش، الذي لم يتصل ببرلين منذ بضعة أيام. ولكن الذهب لم يظهر.

لقد جرى الاتصال الأخير ببورواداكيويتش في 27 شباط/فبراير، أي قبل ثلاثة أيام من الانتخابات البابوية. ففي ذلك الصباح، التقى الكاهنَ العامل في أمانة

سر الدولة في شقة واقعة في منطقة تراستيفيري في روما. وبعد ذلك، توارى عن الأنظار.

وعثرت الشرطة الإيطالية على جثة جاسوس جهاز مخابرات الحزب النازي مدلاّة من العُنق من سقف معبد صغير في أحد متنزهات المدينة الأزلية، ولم يكن هناك أي أثر للذهب. وسرت نسختان من الرواية لمدة طويلة من الزمن جاء في إحداهما أن العميل الألماني تاراس بوروداكيويتش أُعدم على أيدي أفراد من وحدات الدرع الواقي أرسلهم هاينريش هيملر إلى روما، وأن الذهب أُعيد إلى سراديب مصرف الرايخ. وجاء في النسخة الأخرى التي تم تداولها على نطاق واسع وباتت كالأسطورة تقريباً أن الكاهن الذي كان على صلة ببوروداكيويتش هو عميل للحلف المقدس. كان هذا الإكليركي ينتمي إلى جمعية سرّية كما ادُّعي قائمة ضمن جهاز التجسس البابوي وتُعرف باسم القتلة، وهي وريثة المنظمة السوداء التي أنشأتها أوليمبيا مايدلكيني في القرن السابع عشر.

وأكد تقرير صادر عن جهاز المخابرات العسكرية الألمانية أنه من المحتمَل أن يكون عميل جهاز مخابرات الحزب النازي، تاراس بوروداكيويتش، قد أُعدم على يدَي عميل بابوي يدعى نيكولو إستورزي كان على صلة به. وادّعى تقرير الجاسوس العسكري الألماني أن إستورزي كان طويل القامة، بهيّ الطلعة، داكن البشرة، في الثلاثين من عمره وذا شعر أسود طويل. لقد تلقى إستورزي المولود في البندقية علومه في معهد لاهوت روماني، وأمضى بضعة أشهر في العمل لصالح جمعية بيوس بفضل إتقانه عدة لغات. وبعد ذلك بقليل، انضمّ إلى الحلف المقدس حيث قام بمهام لصالح الفاتيكان في الخارج.

كان جهاز مخابرات الدوتشي قد أخضع بوروداكيويتش لمراقبة شديدة حتى إنه راقب لقاءاته بعميل الحلف المقدس. ويعود تقرير جهاز التجسس الإيطالي إلى 26 شباط/فبراير 1939، وقد جاء فيه أن "تاراس بوروداكيويتش أمضى اليوم بكامله في زيارة مصاهر للمعادن في ضواحي روما برفقة رجل طويل القامة،

بهيّ الطلعة، داكن البشرة". من الواضح أن العميل الألماني كان بحاجة إلى إزالة أي أثر لرمز مصرف الرايخ عن السبائك، فبحث عن مصهر حيث يمكنه إعادة سبك الملايين الثلاثة من الماركات.

لقد تمكن إستورزي كما يبدو من الفرار بالذهب بعد قتل تاراس بوروداكيويتش. ومن المحتمل أن تكون الشحنة قد انطلقت من روما إلى جزيرة مورانو مروراً بالبندقية، مقرّ مصانع الزجاج الشهيرة طيلة قرون، حيث أعيد سبك المعدن في أفرانها إلى سبائك أصغر حجماً، ومن ثم أُودع مصرفاً سويسرياً بعد تزويده بالختم الفاتيكاني الذي يظهر فيه التاج البابوي المثلّث ومفتاحان متصالبان يرمزان إلى المفاتيح التي سلّمها المسيح لبطرس الرسول.

والحقيقة الثابتة هي أن الملايين الثلاثة من الماركات الألمانية على صورة سبائك ذهبية اختفت عن وجه الأرض من دون أن تترك أي أثر. ويبقى الذهب المستخدَم في عملية الذهب الخالص حتى يومنا هذا من أكثر الكنوز غموضاً التي اختفت في أثناء الحرب العالمية الثانية.

بعد أربعة أيام من انتخابه بابا، قرر باتشيللي استدعاء الكرادلة الأربعة الناطقين بالألمانية لعقد اجتماع، وهم بيرترام، شولت، فولهابر، وإينيتزر. وفي أثناء الاجتماع، أبلغهم بيوس الثاني عشر بأنه سيستمر شخصياً في إدارة شؤون الكنيسة الكاثوليكية الألمانية، وعرض عليهم في النهاية مسوّدة رسالة كان سيسرسلها إلى هيتلر في اليوم التالي. ففي حين قام بيوس الحادي عشر بالتخطيط لإصدار احتجاج قوي ضد آدولف هيتلر ونظام الرايخ الثالث، أراد بيوس الثاني عشر اتخاذ موقف معتدل. وجاء في الرسالة:

> للسيد آدولف هيتلر الشهير، فوهرر ومستشار الرايخ الألماني! في مستهل ولايتنا الحَبرية، نؤكد لكم أننا مستمرون في تكريس ذواتنا لبنيان الشعب الألماني الروحي الذي عُهد به إلى قيادتكم... أما وقد زادت فرصنا بسبب المسؤوليات الملقاة على

عاتقنا للقيام بمهمتنا الرعوية، فإننا نصلّي بلهفة أكبر لبلوغ ذلك الهدف. كلنا رجاء في ازدهار الشعب الألماني وتقدّمه في الميادين كافة بمساعدة الرب!

وتأكد دعم بيوس الثاني عشر الواضح لهيتلر ونظامه عندما طلب الحَبر الأعظم من رئيس الأساقفة أورسينيغو، قاصده الرسولي في برلين، الإعداد لاستقبال احتفالي بمناسبة ميلاد الفوهرر الخمسين. ومذاك العام، وطوال سنوات النزاع العالمي، كان هيتلر يتلقى تهنئة سنوية من الكردينال بيرترام البرليني. وكان النص مماثلاً على الدوام:

أحرّ التهاني للفوهرر باسم الأساقفة والأبرشيات في ألمانيا. نرفع صلواتنا المخلصة مع كاثوليك ألمانيا للسماء عن مذابحهم.

وبينما كانت تمنيات البابا بيوس الثاني عشر تصل إلى آدولف هيتلر بمناسبة ذكرى مولده، كان هارتل ومعاونوه في مقر قيادة جهاز مخابرات الحزب النازي يحللون ويعالجون كل جزء من البيانات الواردة عن الأشخاص والمنظمات المرتبطة بالكنيسة الكاثوليكية الألمانية، بما في ذلك فرع الحلف المقدس داخل الرايخ. وفي أيار/مايو 1939، التقى ألبرت هارتل جوزيف روث، الكاهن الأسبق وأستاذ اللاهوت الذي يدير القسم الكاثوليكي في دائرة الشؤون الدينية التابعة للرايخ. وتمثلت مهمة روث بإجراء اتصالات متكررة بالأساقفة الألمان والقادة الكاثوليك العلمانيين في البلد، وكانت دائرته تراقب الأموال الداخلة إلى البلد لصالح الأساقفة والكهنة الذين يسافرون إلى الفاتيكان. وهكذا، جمع روث شبكة من المُخبرين يمكنه أن يناقش معهم نتائج اللقاءات التي أجروها في الكرسي الرسولي. وفي أثناء أحد تلك اللقاءات، أخبر أحد الكهنة جوزيف روث وألبرت هارتل بأن لدى الفاتيكان جاسوساً تابعاً للحلف المقدس يدخل أراضي الرايخ ويخرج منها حاملاً الأموال وناقلاً الرسائل من شخصيات كنسية مرموقة إلى الكرسي الرسولي. وعُرف ذلك العميل باسم المبعوث.

فعيّن هارتل عدداً من عملاء جهاز مخابرات الحزب النازي التابع لأيه أم تي 2 لكشف النقاب عن هوية مبعوث الحلف المقدس. وتحدّث كل الكهنة الذين أجرى مقابلات معهم عن هذه الشخصية وكأنهم التقوه، ولكن أحداً لم يرَ وجهه في الواقع.

كان المبعوث طليق اللسان في الألمانية، لذلك تمكن من دخول الرايخ بسهولة. إنه نيكولو إستورزي في الواقع، عضو القتلة الذي تخلص كما هو مفترَض من عميل جهاز مخابرات الحزب النازي في الفاتيكان في أثناء عملية الذهب الخالص.

من جهته، كان الأميرال ويلهلم كاناريس قد اختار رئيساً جديداً لجهاز المخابرات العسكرية الألمانية في روما يدعى جوزيف مولر. وعندما خرج مولر من القطار إلى الأرض الإيطالية في المحطة المركزية، كانت العناوين الرئيسية في الصحف تعلن عن دخول جنود ألمان إلى بولندا. كان الأول من أيلول/سبتمبر 1939، يوم اندلاع الحرب العالمية الثانية.

لقد وُضعت الخطة المدعوّة خطة بيضاء، والتي أعدّها هيتلر وجنرالاته بدقة منذ نيسان/إبريل، موضع التنفيذ في اليوم الذي سبق اجتياح بولندا من قِبل الورماخت (القوات المسلحة الألمانية المحلية المخصصة للدفاع عن الوطن) وقيام الوفتوافا (سلاح الجو الألماني) بقصف مدنها وسكانها المدنيين. فبعد الاستيلاء على النمسا وتشيكوسلوفاكيا من دون إطلاق أي طلقة نارية، اجتاحت ألمانيا بولندا التي اختفت عن الخارطة الأوروبية.

ومذاك اليوم، أمر البابا بيوس الثاني عشر رؤساء الحلف المقدس وجهاز التجسس المضاد، جمعية بيوس، باتخاذ إجراءات لمواصلة الاتصال بالعملاء في الخارج ولا سيما أولئك العاملين في مناطق حساسة أو مناطق مزّقتها الحرب.

حتى العام 1939، كان الفاتيكان قد استخدم رموزاً تُعرف باسم "الحمراء" وتتألف من اثني عشر ألف مجموعة رقمية مطبوعة في كتاب للرموز يحتوي

على خمسة وعشرين سطراً في الصفحة الواحدة. ولتعزيز الأمن، قرر الحلف المقدس أن تكون المجموعات الرقمية قابلة للتحويل إلى حروف إدغام (حرفا علة يُكتبان متصلَين) تحلّ مكان أرقام الصفحات ويمكن العثور عليها في جدولين يُستخدمان بالتناوب لوضع تواريخ شفعية ووِترية. وكانت الرموز "الصفراء" أو الخضراء" تُستخدم في رسائل الفاتيكان الأكثر سرّية؛ أي تلك التي يرسلها الحَبر الأعظم أو قادة أجهزة التجسس البابوي.

فالرموز "الصفراء" مؤلفة من ثلاثة عشر ألف مجموعة رقمية تُستخدم من خلال جداول لحروف إدغام تمثّل أرقام الصفحات ومن خلال أبجديات عشوائية مختلطة تمثّل أرقام السطور. وتُستخدم هذه الجداول والأبجديات بالتناوب طوال اليوم. والرموز "الخضراء" التي ما زالت معتمَدة حتى اليوم هي أحد الأسرار التي ما زال الفاتيكان يحتفظ بها لنفسه، ولكن هناك ما يشير إلى أنها تتألف من أعداد من خمسة أرقام يتم اختيارها من جداول جَمعية قصيرة يحتوي كل منها على أكثر من مئة مجموعة جمعية من خمسة أرقام. ولم تكن الرموز "الصفراء" أو "الخضراء" موضوعة بشكل عشوائي مما يجعل من الصعب على أجهزة المخابرات الإيطالية والألمانية فكّها. فمن أصل حوالى ثمانية آلاف رسالة وجّهها الفاتيكان، لم يتمكن جهاز المخابرات العسكرية الإيطالية إلا من حل رموز حوالى أربعمئة رسالة فقط. لقد تلقى هذا الجهاز كما يبدو المساعدة من وحدة جلسة الاقتطاع التي تسلل عملاؤها إلى صفوف الشرطة البابوية وأمانة سر الدولة.

كانت الأخبار الواردة عما تتعرض له بولندا من ويلات في بدايتها. ولزم البابا بيوس الثاني عشر الصمت بينما كان سكانها البالغ عددهم خمسة وثلاثين مليوناً، ومعظمهم كاثوليك، يواجهون الهجوم الألماني الصاعق. فطلب من أمين سر الدولة وراديو الفاتيكان (بإدارة الرئيس العام اليسوعي فلاديمير لدوشوسكي) تقليص فترات البث الإذاعي الموجَّه إلى ألمانيا وتلطيف انتقاداتهم الموجَّهة إلى

الرايخ بسبب الاجتياح. وأمل السفير البولندي إلى الكرسي الرسولي في صدور احتجاج بابوي ضد سياسات هيتلر. وعندما لم يستجب الفاتيكان لطلبه، تقدّم بالتماس لبيوس الثاني عشر بإجراء مقابلة رسمية مع الكردينال البارز أوغست هلوند. ودام الاجتماع ساعتين ونصف، ولكن لم يتم التوصل إلى أي نتيجة. لقد رفض الحَبر الأعظم توجيه نداء إلى ألمانيا دفاعاً عن بولندا.

واستمرت التقارير عن آلة الحرب الألمانية التي تحمل توقيع المبعوث بالورود إلى الفاتيكان من أنحاء مختلفة من ألمانيا. وهكذا، أصبح الحلف المقدس مصدراً حقيقياً للمعلومات لأجهزة مخابرات الحلفاء ودول المحور على حد سواء.

كان جوزيف مولر، عميل جهاز المخابرات العسكرية الألمانية، شخصية مألوفة في روما بفضل زياراته العديدة إلى المدينة الأزلية. ولكنه كان شخصاً غامضاً ومحيّراً في مقر قيادة المخابرات العسكرية في مضيق شاطئ تيربيتز 74 في برلين. فلا أحد يعرف من أين أتى، وهذا ما جعله ربما أكثر خطورة بنظر رؤسائه. ومما يدعو للغرابة أن أمراً مماثلاً حدث داخل هرمية الفاتيكان مع عميل الحلف المقدس، الكاهن نيكولو إستورزي. وما لم يدركه أحد هو أن مولر والأب إستورزي كانا صديقين. لقد اختير مولر، وهو محامٍ رفيع المقام من ميونيخ، وكاثوليكي متديّن، ومناهض متحمّس للنازية، من قِبل الأميرال كاناريس للاتصال ببيوس الثاني عشر عن طريق الحلف المقدس. ولتجنّب إثارة الشبهات، عيّن كاناريس مبعوثه رئيساً لمركز جهاز المخابرات العسكرية الألمانية في روما.

وقبل مغادرة برلين، التقى مولر نيكولو إستورزي ليشرح له المهمة الخطرة التي أرسله كاناريس لإتمامها في المدينة الأزلية. ومهّد الجاسوس البابوي الطريق للعميل الألماني الذي كان قد تعاون مع الحلف المقدس في أوقات سابقة. فوجّه الرسول رسالة طويلة مكتوبة بالرموز "الخضراء" إلى الكردينال لويجي ماليوني الذي كان قد غدا أمين سر الدولة، ومُلئت صفحاتها بوقائع عن جوزيف ميلر

وعملية مصادر الفاتيكان.

على غرار معاونَيه العقيد هانز أوستر والرائد هانز دوناني في جهاز المخابرات العسكرية الألمانية، كان مولر ينتمي إلى مجموعة مناهضي النازية المرموقين بقيادة الجنرال المتقاعد لودفيك بيك. فالتقى مولر في بادئ الأمر المونسينيور لودفيك كاس المنفيّ (قائد سابق للوسط وكبير كهنة في ذلك الوقت في بازيلكا القديس بطرس) والمونسينيور يوهان شونهوفر (عضو مجمع نشر الإيمان). وجرى الاجتماع في قاعة دريهر لاحتساء شراب الشعير الذي تتردد عليه الجالية الألمانية في روما.

وأخبر مولر كاس وشونهوفر بأنه بحاجة إلى التحدث إلى الحَبر الأعظم على انفراد لتسليمه رسالة هامة من وجهاء بلده، وأن لديه أوامر صارمة بعدم التحدث إلى أحد غير البابا نفسه.

فقال كاس لعميل جهاز المخابرات العسكرية الألمانية إنه سيكون عليه التحدث أولاً إلى يسوعي ألماني وأستاذ للتاريخ الكنسي يدعى روبرت ليبر. وما يعرفه عدد قليل من الأشخاص هو أن هذا اليسوعي كان معاوناً لبيوس الثاني عشر في "الشؤون الخاصة" كما كان معاوناً مثالياً للأب الأقدس في المسائل المخابراتية، ويدّعي العديد من أعضاء الإدارة البابوية أن اليسوعي هو في الواقع رئيس الحلف المقدس. على أي حال، فالأب روبرت ليبر مُلمّ جداً بأعمق أسرار الكرسي الرسولي.

وفي أثناء الاجتماع بين ميلر وليبر، أخبر الألماني معاون البابا بأن مجموعة واسعة من المسؤولين الألمان رفيعي المقام المعارضين لسياسة الحرب التي يتّبعها هيتلر، أرادوا من البابا بيوس الثاني عشر استطلاع رأي لندن حيال بلوغ سلام محتمَل عن طريق المفاوضات يشمل تغيير حكومة برلين.

وعلِم ليبر من خلال عميله الأب نيكولو إستورزي بأن المقاومة غير المنظَّمة المناهضة للنازية لن يكون باستطاعتها القيام بانقلاب على هيتلر ورجاله. وما

أراده رؤساء مولر هو عدم استفادة لندن وباريس من أي انقلاب أو محاولة انقلاب لتحقيق تقدمات عسكرية ضد ألمانيا.

تعود علاقة جوزيف مولر بالحلف المقدس إلى الوقت الذي اكتشف فيه الأساقفة والكرادلة الألمان أن الغستابو بدأوا باعتراض مراسلاتهم. وهكذا، غدا مولر المبعوث السري بين ألمانيا والفاتيكان، وبالعكس. ومولر هو من ساعد على إعداد تغطية للأب نيكولو إستورزي، المبعوث، في برلين.

وبعد إقامة قصيرة في ميونيخ، استُدعي مولر إلى روما عن طريق الأب إستورزي. وعندما وصل مولر إلى الأراضي الإيطالية، أخبر ليبر عميل جهاز المخابرات العسكرية الألمانية بأن بيوس الثاني عشر قرر أنه ينبغي سماع صوت المعارضة الألمانية في لندن. وقد حمل القرار البابوي جوزيف مولر على المباشرة بمهمة سرية دامت عدة أشهر وتطلبت القيام بعدة رحلات بين برلين وروما.

في الواقع، لم ينجح مولر في التحدث مباشَرةً إلى الحَبر الأعظم بل تواصل معه عبر الأب روبرت ليبر. لقد التقى مولر وليبر في بادئ الأمر في مكاتب الكاهن اليسوعي في الجامعة الغريغورية، ولكن تم تغيير المكان لأسباب أمنية وعُقدت اللقاءات في إحدى الكنائس اليسوعية في ضواحي روما.

أخيراً، وفي ربيع العام 1940، أخبر ليبر جوزيف مولر بأن بيوس الثاني عشر قرر استقباله في مكاتبه الخاصة في القصر الرسولي في الفاتيكان. وحضر الاجتماع السير دارسي أوزبورن، السفير البريطاني إلى الكرسي الرسولي.

وكرّر الألماني كل قصته للبابا وأوزبورن، بما في ذلك تنظيم عملية مصادر الفاتيكان. ولدى إبلاغ وزارة الخارجية، أعربت الحكومة البريطانية عن تشككها من مصداقية المتآمرين والحوافز المعلَنة. فونستون تشرشل لم يصدّق أنهم يملكون تأييداً كافياً داخل القوات المسلحة أو في أوساط المدنيين لنجاح الانقلاب على آدولف هيتلر. وأثبت الوقت أنه مُحِق في ذلك عندما استولت وحدات ورماخت على فرنسا وهولندا.

وليُظهر المتآمرون نيّتهم الحسنة، سافر جوزيف مولر إلى روما بأقصى سرعة لإعلام بيوس الثاني عشر بأن هيتلر يُعدّ العدة لشن حملة عسكرية ضد فرنسا انطلاقاً من الأراضي الهولندية والبلجيكية. فطلب البابا بدَوره من قاصدياته الرسولية في بروكسيل ولاهاي بالتيقظ، وأصرّ على ضرورة إبلاغ حكومتَي هذين البلدين بالتيقظ أيضاً.

فأبلغ ليبر بشكل سرّي السفير البلجيكي إلى الكرسي الرسولي، أدريان نيوونهويز، وأرسل هذا الأخير برقية إلى بروكسيل. من جهته، أجرى بيوس الثاني عشر مقابلة رسمية خاصة مع وليّ العهد الإيطالي، أمبرتو، وزوجته، الأميرة ماري جوزيه. وشدد البابا على الخطر الذي يهدد هولندا وعلى الحاجة المُلحّة إلى قيام الأميرة ماري بإبلاغ شقيقها، الملك ليوبولد بالأمر. وجرت كل هذه الاتصالات بين 2 و4 أيار/مايو 1940، ومع ذلك، شككت الحكومتان البلجيكية والهولندية في الثامن من الشهر نفسه في التحذيرات لا سيما عندما علمتا أن جاسوساً تابعاً لجهاز المخابرات العسكرية الألمانية يعمل لصالح الحلف المقدس هو مصدر المعلومات. لقد ارتكبتا خطأً فادحاً. وفي 10 أيار/مايو، عبرت أولى الوحدات الألمانية المدرّعة الحدود في طريقها إلى فرنسا، شاقةً طريقها عبر هولندا وبلجيكا بالدم والنار.

إن عدم الاهتمام الذي أبداه البلجيكيون والهولنديون بالتحذير البابوي أزعج بيوس الثاني عشر وحمله على إصدار أمر للحلف المقدس بإقامة علاقات سرية مع أجهزة المخابرات البريطانية والمقاومة في فرنسا المحتلة. ومن خلال مفاوضات سرّية أجراها مع حكومات أجنبية، وتمرير معلومات عسكرية ألمانية وإيطالية للحلفاء، وضع بيوس الثاني عشر حياد الفاتيكان التقليدي في خطر داهم. وطلب البابا من مستشاره الجاسوس الأب روبرت ليبر إتلاف كل الأوراق، بما في ذلك الوثائق والمذكرات التي تشير إلى العلاقات القائمة بين دولة الفاتيكان والحلفاء أو المقاومة الألمانية.

داخل الفاتيكان، كان ثلاثة أشخاص فقط على عِلم بهذه الاتصالات: لويجي ماليوني، أمين سر الدولة، ونائباه اللذان يثق بهما، المونسينيور دومينيكو تارديني والمونسينيور جيوفاني مونتيني. وحمل الثلاثة هذا السر إلى اللحد.

وطلب البابا من جاسوسه ومستشاره الوفي وضع لائحة بأشخاص قد يكونون على اتصال بعملية مصادر الفاتيكان. وظهر على اللائحة أسماء المونسينيور يوهان شونهوفر، صديق جوزيف مولر؛ المونسينيور بول ماريا كريغ، راعي الحرس السويسري والمستمع إلى اعترافات شونهوفر؛ إيفو زيغر، وهو يسوعي في كلية روما الألمانية-المجرية؛ أوغستين ماير، وهو راهب بندكتاني وأستاذ في كلية سان أنسيلمو؛ الأب فنسنت ماكورميك، الرئيس الأميركي للجامعة الغريغورية والرئيس المباشَر لروبرت ليبر؛ والرئيس العام للرهبنة اليسوعية، الأب فلاديمير لدوشوسكي. وطلب بيوس الثاني عشر من رجال الدين الستة تحت طائلة الحرم الكنسي عدم الإعلان عن كل ما يتعلق بعملية مصادر الفاتيكان. ولم تتسرب أي معلومات حتى يومنا هذا. وهكذا، ظهرت أسطورة أخرى في التاريخ الطويل للحلف المقدس.

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد

Telegram @read4lead

الفصل الخامس عشر

ألف عام للرايخ (1940-1945)

هربرت كيلر رجل خطر، طموح، ولا يتردد بالقيام بأي عمل. إنه راهب بندكتي كان ينتمي إلى دير قديم العهد في بيرون، ولكن رئيسه أبعده قبل الحرب إلى دير صحراوي في فلسطين.

وبعد عودته إلى ألمانيا، أصبح كيلر مُخبراً لجهاز المخابرات العسكرية الألمانية وجهاز مخابرات الحزب النازي بين الحين والآخر. وكان الراهب يزوّد النازيين بأي معلومات مخابراتية يجمعها في أثناء تنقّله بين فرنسا وألمانيا وسويسرا بحثاً عن كتب ومخطوطات قديمة لمكتبة الدير. وعندما دمّر هيتلر وجيوشه بولندا، وجد هربرت كيلر عملاً أكثر انسجاماً مع طموحاته، فتخلى عن الحياة الرهبانية.

كان دافع مهنته في عالم التجسس هو المال أكثر من الولاء. وقد حملته مهمته الأولى التي أداها لصالح المخابرات العسكرية الألمانية إلى سويسرا حيث اتصل بأشخاص على درجة من الأهمية في المقاومة المناهضة للنازية.

ووسط النساء، والشراب، والسيجار الفاخر، بلغ إلى مسامع بعض هؤلاء المُخبرين خبر تآمر بعض مسؤولي جهاز المخابرات العسكرية والورماخت للإطاحة بهيتلر، وقيام عميل في هذا الجهاز يدعى مولر بإجراء اتصالات بالفاتيكان وجهاز التجسس التابع له، الحلف المقدس، عبر كاهن يُعرف باسم المبعوث. وعلِم هربرت كيلر بأن مولر والمبعوث يحاولان التفاوض مع الحلفاء للتوصل إلى سلام يترسخ أكثر فأكثر بعد إسقاط هيتلر.

كان كيلر يعرف مولر، وقد أصبحا عدوَّين لدودَين عندما ساعد المحامي في ميونيخ البندكتيين على التحقيق في المسألة التي أدت إلى نفي كيلر. وانطلق هذا الأخير إلى روما أملاً في إيجاد دليل إضافي ضد المتعاون مع الحلف المقدس. وفي غضون أيام قليلة، جمع معلومات عن كل تفاصيل المؤامرة وعن مهمة

جوزيف مولر ودوره الهام في المكيدة.

وعاد كيلر إلى ألمانيا مع تقريره. ولدى وصوله إلى برلين، سارع الراهب إلى مقر قيادة المخابرات العسكرية وجهاز مخابرات الحزب النازي. واعتُبر تقريره بالغ الأهمية لدرجة أنه وصل إلى مكتب راينهارد هيدريش الذي غدا رئيس المكتب الرئيسي لأمن الرايخ. لقد أثارت دقة الراهب البندكتي السابق إعجاب هيدريش، فاستدعاه لإجراء مقابلة معه وجهاً لوجه. وبعد التعبير عن كرهه الشديد للبابا واتهامه بأنه أسوأ متآمر على الرايخ، أخبر هيدريش كيلر بأن جوزيف مولر يخضع للمراقبة منذ العام 1936.

كان راينهارد هيدريش مقتنعاً بأن مولر عميل سري للجهاز الفاتيكاني، وبات واثقاً من ذلك بوجود تقرير بين يدَيه حول عملية مصادر الفاتيكان.وتسرّبت المعلومات الأولى عن الكارثة الوشيكة عن طريق أرثر نيبي، رئيس الشرطة الجنائية في المكتب الرئيسي لأمن الرايخ، الذي أعدّ نسخة عن تقرير هربرت كيلر وأرسله إلى الأميرال ويلهلم كاناريس الذي كان مسؤولاً عن جهاز المخابرات العسكرية الألمانية. فسارع كاناريس إلى حماية أكبر عدد ممكن من المتآمرين.

كان كاناريس شخصاً غامضاً يكنّ الولاء لألمانيا ويكره الحزب النازي وقائده. وحمله هذان الحافزان على مساعدة التيارات المعادية للنازية وحمايتها. وللحد من الخطر الوشيك، طلب كاناريس من مولر وضع تقرير مُلحّ يدّعي فيه اكتشاف مؤامرة فاتيكانية لإحلال السلام مع الحلفاء. وبوصفه رئيس المتآمرين، ذكر مولر اسمَي الجنرالين فيرنر فون فريتش وفالتر فون ريخنو. كان كاناريس يعلم أن فون فريتش قضى في أثناء الحملة على بولندا وأنه لن يكون بالإمكان استجوابه، في حين أن فون ريخنو موالٍ شديد الحماسة لهيتلر والرايخ الثالث. ولم يسبق لأي من هذين الاثنين أن كانا على علاقة بالأوساط المناهضة للنازية، ولكن هيدريش كان يسعى بالتأكيد إلى تجريم من باستطاعته الإبلاغ عن أن مولر جاسوس لبيوس الثاني عشر والحلف المقدس. وكان كاناريس أكثر مهارة

من راينهارد هيدريش.

وعندما بلغ التقرير المزيّف الفوهرر، أصرّ هيتلر على أن فالتر فون ريخنو هو أحد جنرالاته الأكثر ولاءً، ومن المستحيل أن يتآمر "ابنه الأكثر إخلاصاً" مع الفاتيكان ضد الرايخ. أخيراً، اعتبر هيتلر اتهام فيرنر فون فريتش وفالتر فون ريخنو "هراء". وهكذا، تمكن رئيس جهاز المخابرات العسكرية الألمانية من إبعاد الشبهة عن الفاتيكان وجوزيف مولر، أقلّه لمدة قصيرة من الزمن.

في صيف العام 1940، التقطت المخابرات الألمانية أثراً آخر لعملية مصادر الفاتيكان. ففي أيار/مايو، كان أدريان نيوونهويز، السفير البلجيكي إلى الكرسي الرسولي، قد أرسل برقية إلى وزارته في بروكسيل حول تحذير البابا بيوس الثاني عشر من الاعتداء الوشيك الذي ستقوم به المخابرات العسكرية على الجبهة الغربية. واعترض مكتب البحوث الألماني، أحد أجهزة فك الرموز في الرايخ الثالث، البرقية المشفّرة.

ووصلت الرسالة المشفّرة إلى الفوهرر الذي أمر جهاز المخابرات العسكرية بالقيام بعملية شاملة للكشف عن الخوَنة. وأُبقي راينهارد هيدريش الذي كان لا يزال تقرير الأب هربرت كيلر ماثلاً في ذهنه بعيداً عن هذه العملية بسبب التقرير الذي رفعه في شأن فيرنر فون فريتش وفالتر فون ريخنو. لقد تمكن كاناريس من أن يجعل جهاز مخابرات الحزب النازي هو الوكالةَ التي مررت تقرير مولر المزيّف لأدولف هيتلر.

ولإجراء التحقيق الجديد الذي أمر به الفوهرر، لم يختر ويلهلم كاناريس سوى جوزيف مولر. فعاد الجاسوس الألماني إلى روما لإبلاغ الرئيس "المزعوم" للحلف المقدس، الأب اليسوعي الألماني روبرت ليبر، بحاجتهم إلى اختلاق رواية تقنع أدولف هيتلر وتتلاءم بشكل مُقنع مع الرسالة التي وجّهها السفير نيوونهويز إلى بروكسيل حول التهديد الألماني. فابتكر ليبر ومولر عملية دعَواها الريح الغربية. وقضت فكرة الجاسوسين بابتكار عملية جاسوسية متكاملة تنطلق إلى

الوراء من النهاية إلى البداية.

فاقترح ليبر حصول التسريب من خلال شخص مقرَّب من وزارة الشؤون الخارجية الإيطالية هو غاليازو شيانو الذي أطلعه نظيره يواكيم فون ريبنتروب على عملية الورماخت الوشيكة.

وتمثلت الخطوة التالية بشرح حقيقة قيام شخص غير معروف مقرَّب من شيانو بتسريب معلومات عن العملية العسكرية لفتت انتباه الأب موننز اليسوعي البلجيكي الذي مرّرها بدَوره لسفير بلده في روما، أدريان نيوونهويز. كان روبرت ليبر يعلم أن أياً من نيوونهويز أو الأب موننز لم يكن في متناول أجهزة الأمن الألمانية. فالأول يتمتع بحصانة دبلوماسية، ويقوم الثاني بمهمة في مكان ما من أدغال أفريقيا الوسطى. ومن خلال هذه الرواية، ظن مولر وليبر أن في استطاعتهما التهدئة من رَوع القادة النازيين، ولكنهما كانا مخطئَين. فراينهارد هيدريش لم يكن يميل إلى ذلك.

وخامر الشكُ مقدَّماً في المخابرات العسكرية الألمانية يدعى يواكيم رولدر، وهو أحد أصدقاء هيدريش. لقد تمكّن رولدر ببرقية السفير البلجيكي التي تم اعتراضها وفك رموزها. في النص، ذكر نيوونهويز مصدراً ألمانياً غادر برلين في 29 نيسان/إبريل 1940، ووصل إلى روما في 1 أيار/مايو ومكث فيها حتى الثالث من الشهر نفسه. فقرر المسؤول في جهاز المخابرات العسكرية، صديق هيدريش، مراجعة لائحة كل المدنيين الألمان الذين غادروا البلد في ذلك اليوم، وظهر فيها اسم جوزيف مولر. لقد دخل إيطاليا في 29 نيسان/إبريل وعاد في 4 أيار/مايو.

اتصل رولدر بمركز المخابرات العسكرية في ميونيخ الذي ينتمي إليه مولر ليسأل عما إذا قصد هذا الأخير روما في الأيام المشار إليها. كان جوزيف مولر، المتعاون مع الحلف المقدس، قد أخفى آثاره من خلال الإبلاغ عن أن البندقية هي وُجهته، واستعان بعملاء الحلف المقدس الإيطاليين العاملين ضمن حرس

الحدود لوضع ختم على جواز مروره يشير إلى دخوله مدينة الشمال الجميلة. ولكن رولدر بقي مقتنعاً بأن اتصالات جوزيف مولر بجهاز التجسس البابوي هي مفتاح هذا اللغز، وأطلع هيدريش على الأمر. وتوقف التحقيق لفترة وجيزة إلى أن أبدى مركز جهاز المخابرات العسكرية الألمانية اهتمامه بصحافي كاثوليكي ذائع الصيت، هو سيغفريد آشر. كان آشر قد زار روما للمرة الأولى عام 193، وحصل بعد فترة قصيرة على وظيفة سكرتير للأب فريدريتش ماكرمان، وهو يسوعي ألماني اشتهر بتصريحاته العنيفة المناهضة للنازية.

ومن خلال ماكرمان، تمكن آشر من دخول قطاعات هامة من الإدارة البابوية الرومانية، متخذاً له لائحة طويلة من الأصدقاء. وفي العام 1937، اختار اليسوعيون ماكرمان للقيام ببعض المهام في فيينا، فانتقل آشر معه. وعندما ضمّت ألمانيا النمسا في ما دُعي اتحاد، كان على آشر الفرار إلى هولندا ومن ثم إلى سويسرا حيث حصل على وظيفة مراسل فاتيكاني لصحيفة أخبار بازلر. وبعد الموافقة على القوانين العِرقية، اضطُر آشر إلى التنقّل بين عدة مدن بسبب السر الذي كان يحتفظ به لنفسه وهو أن اسمه الأول ليس سيغفريد بل غبريال، وبأنه اعتنق اليهودية منذ سنوات قليلة.

في نهاية العام 1940، وجد آشر مصدراً جديداً وأفضل للدخل: المقدَّم في جهاز المخابرات العسكرية يواكيم رولدر. لم يكن المسؤول في جهاز التجسس الألماني المضاد قد تخلى عن تحقيقه حول جوزيف مولر. ومتسلّحاً بخلفية قيّمة مناهضة للنازيين اكتسبها نتيجةً لعمله مع الأب ماكرمان، بدأ آشر باختراق الحواجز الأمنية التي أحاط البابا بيوس الثاني عشر الحلف المقدس بها بعد قضية مصادر الفاتيكان.

وفي كانون الثاني/يناير 1941، كان سيغفريد آشر مستعداً للسفر إلى روما من برلين بعد خضوعه لتدريب دقيق في مدرسة المخابرات العسكرية الخاصة بالعملاء.

فوجّه آشر رسالة إلى محرر أخبار بازلر أشار فيها إلى أنه مراسل للكرسي الرسولي. وقال جاسوس جهاز المخابرات العسكرية الألمانية لرئيسه إنه ليس بحاجة إلى أجر لأنه يتلقى أجره من الفاتيكان مباشَرةً. كان يكذب بالطبع. وفي نهاية نيسان/إبريل، التقى سيغفريد آشر المقدَّم رولدر في برلين للحصول على الأموال الضرورية لرحلته إلى روما. وقبل المغادرة، أجرى اتصالاً هاتفياً بالقاصد الرسولي في الفاتيكان، الكردينال سيزار أورسينيغو، وطلب منه رسالة تعريف. فحوّله الكردينال إلى شخص يتمتع بالنفوذ في أمانة سر دولة الفاتيكان، هو المونسينيور جيوفاني مونتيني، البابا بولس السادس المستقبلي. وفي غضون أقل من أسبوع، استقبل مونتيني، والأب ليبر، والمونسينيور كاس، سيغفريد آشر في الكرسي الرسولي. وبفضل الغطاء الذي اتخذه لنفسه كصحافي متخصص بشؤون الكنيسة، لم يشتبه به أحد في بادئ الأمر. ولكن الأب روبرت ليبر لم يصدّق أن في استطاعة شخص ما من أصل يهودي عبور ألمانيا بحرية. فاتصل ليبر بعميله نيكولو إستورزي، المبعوث، لجمع أكبر قدر من المعلومات عن آشر.

وتلقى ليبر أيضاً تحذيراً من المسؤول الأعلى عن الرهبنة البندكتية بأن آشر قد يكون على اتصال بهربرت كيلر، عميل جهاز مخابرات الحزب النازي والراهب الأسبق. فأخبر إستورزي ليبر بأن اليهودي الذي ينتحل صفة صحافي تلقى تدريباً في قسم التجسس المضاد التابع لمدرسة المخابرات العسكرية الألمانية مؤخراً، وأنه قد يكون سويديّ الأصل.

فاستدعى ليبر سيغفريد آشر ليسأله عن مسألة مروره عبر ألمانيا. فاعتذر الجاسوس عن الاجتماع بليبر متذرّعاً بضغوطات العمل. بعد ذلك، أخبر روبرت ليبر مونتيني بأن عميل الحلف المقدس في ألمانيا أكد أن سيغفريد آشر قد يكون عميلاً للغستابو على درجة من الخطورة.

كان للعميل رولدر في الواقع فكرة واضحة تقريباً في أواخر شباط/فبراير 1941 عن مهمة جوزيف مولر في الفاتيكان وتواطؤ بيوس الثاني عشر بتحذير

الحكومتين الهولندية والبلجيكية في ربيع العام 1940 عن تدخل ألماني محتمل حدث في الواقع.

وكان التقرير النهائي لسيغفريد آشر قاطعاً، فأبلغ رولدر كاناريس بالنتيجة. وحاول رئيس جهاز المخابرات العسكرية التقليل من أهمية التقرير قائلاً إنه يستحيل اعتقال أحد عملائه الأكثر مهارة في شؤون الفاتيكان من دون وجود دليل حسّي. لم يكن الأميرال ويلهلم كاناريس يريد السماح لرولدر وآشر باعتقال مولر. أخيراً، أُخفي التقرير الذي يحمل اسم "مولر، جوزيف" في مكان لا يمكن العثور عليه في محفوظات المخابرات العسكرية.

في أواخر العام 1942، اعتقلت وحدات الدرع الواقي آشر في أحد شوارع برلين. كان شخص ما قد رفع تقريراً على صورة اتهام يكشف عن الأصل اليهودي للجاسوس الألماني. فسُلّم آشر إلى الغستابو من دون إبلاغ المخابرات العسكرية. وعندما علم المقدّم يواكيم رولدر، رئيس جهاز التجسس المضاد، بأمر اعتقال آشر، كان الأوان قد فات إذ توفّي هذا الأخير في أثناء استجوابه. وقالت مجموعة منوّعة من الكتّاب والمؤرخين إن كاناريس فقد احترام هيتلر في تلك المرحلة، وباتت هناك هوة بين قوات أمن الرايخ وجهاز المخابرات العسكرية ووحدات الدرع الواقي. ولهذا السبب ربما، فضّل عملاء وحدات الدرع الواقي التابعة لهيملر تسليم آشر إلى الغستابو ليخضع للاستجواب عندما تلقت التقرير الذي يُثبت الأصول اليهودية لعميل المخابرات العسكرية.

وتدّعي مصادر أخرى أن مبعوث الحلف المقدس تنقّل في الأشهر التي سبقت اعتقال سيغفريد آشر بين هولندا والسويد، جامعاً معلومات عن الصحافي. في الواقع، إن الأب روبرت ليبر، رئيس جهاز التجسس التابع لبيوس الثاني عشر، هو من طلب من الأب نيكولو إستورزي الإعداد للتخلص من سيغفريد آشر على هذا النحو. مرةً أخرى، وجّهت الذراع الطويلة للحلف المقدس الفاتيكاني ضربة حاسمة إلى أحد أعدائها.

في غضون ذلك، عُيِّن جوزيف مولر رئيساً لمركز المخابرات العسكرية الألمانية في الفاتيكان بفضل حماية العقيد هانز أوستر والرائد هانز دوناني، عضوَي الشبكة المناهضة لهيتلر.

وبوجود جاسوس ألماني آخر، واجه الكرسي الرسولي خطراً جديداً. لقد وصل بول فرانكن إلى روما في شباط/فبراير 1943 ليدرّس التاريخ في مدرسة ألمانية في نومنتانا، عِلماً أنه جاسوس عسكري في الواقع.

كان جوزيف مولر، والمونسينيور كاس، وكريغ، وشونهوفر، وإيفو زيغر، ورئيس الجواسيس البابويين روبرت ليبر، أفضل مصادر للمعلومات بالنسبة إلى فرانكن. وبسبب خلفيته كطالب كاثوليكي انخرط في الحركات العمالية قبل الحرب، كان الغستابو قد ألقوا القبض على فرانكن وحكموا عليه بالسجن لمدة عامين بسبب نشاطات مناهضة للنظام. وساعده كل ذلك على الإبحار في عمق المياه الداكنة للإدارة البابوية الرومانية.

لقد جنّد جاكوب كايزر، وهو قائد عمالي سابق، فرانكن في صفوف المخابرات العسكرية الألمانية بسبب اطّلاعه على سياسات الفاتيكان، وهذا ما أدى إلى إرساله إلى الكرسي الرسولي. فاتصل ليبر مجدداً بالمبعوث بحثاً عن معلومات عن فرانكن. وبعد أسبوعين، وجّه إستورزي إلى رئيسه رسالة مشفّرة من مدينة نمساوية، وتم فك شيفرة الرسالة الموضوعة وفقاً للرموز "الخضراء". لقد حذّر النص الذي أرسله عميل الحلف المقدس ليبر من النوايا الحقيقية لبول فرانكن من دون الاستناد إلى معلومات قاطعة. فقرر جاسوس بيوس الثاني عشر وضع الألماني تحت مراقبة مشدّدة.

وفي 25 تموز/يوليو 1943، تنبّه الحلف المقدس إلى الأمر ثانيةً عندما قرر الملك فيكتور إيمانويل الثاني إعفاء موسوليني من مهامه واستبداله بالمارشال بييترو بادوليو، وذلك بدعم من جنرالاته والقادة الفاشيين. وبانهيار الجيش الإيطالي، تبددت أحلام الدوتشي بإنشاء إمبراطورية رومانية جديدة. كان الحلفاء قد

اجتاحوا صقليا في 10 تموز/يوليو بهدف تحرير شبه الجزيرة الإيطالية بأكملها من النير الألماني. وبعد سقوط موسوليني، قرر هيتلر إرسال جنود ألمان إلى شمال إيطاليا استباقاً لانهيار الجيش الإيطالي. وأشارت الأخبار التي بلغت الفاتيكان من عميلها نيكولو إستورزي إلى تجمّع وحدات من الورماخت استعداداً لهجوم على روما. وتحققت تحذيرات الجاسوس البابوي في 8 أيلول/سبتمبر عندما أعلن بادوليو رسمياً توقيع هدنة مع القوات الإنكلو أميركية التي احتلت الجزء الجنوبي للبلد. ومنح هيتلر وقادته الإذن لقيام ألمانيا باحتلال المدينة الأزلية.

لم تكن نوايا القائد الألماني واضحة. لقد سرت شائعات في روما عن اقتناع الفوهرر بأن بيوس الثاني عشر وأجهزة التجسس التابعة له ساهمت في إسقاط موسوليني. على أي حال، لم تكن السلطات البابوية متوهّمة في شأن الاحترام الذي يبديه هيتلر للحياد الفاتيكاني أو لصورة الحَبر الأعظم. ووفقاً لتقارير جمعها جهاز التجسس البابوي، كان وزير خارجية هيتلر، يواكيم فون ريبنتروب، قد اقترح في ربيع العام 1941 في أثناء اجتماع مع وزير الشؤون الخارجية الإيطالية، الكونت غاليازو شيانو، إمكانية طرد بيوس الثاني عشر من روما لأنه "لا مكان للبابوية في أوروبا الجديدة. في أوروبا الجديدة التي تهيمن عليها الاشتراكية القومية، سيغدو الفاتيكان مجرد متحف". وبالرغم من الرسائل المطمئنة التي وجّهتها الحكومة الإيطالية، بدأت الشائعات تتحقق في أواخر العام 1943 في الذكرى العاشرة للحكم النازي. في ذلك الوقت، كان المظلّيون الألمان يسيطرون على محيط ساحة القديس بطرس تحت الأنظار القلقة للحرس البابوي.

واستباقاً لهجوم على روما يشنه جنود الرايخ الثالث، أتلفت السفارات الأجنبية وثائق مصنَّفة باسم "السرية" أو "الحساسة"، إضافةً إلى آلات الكتابة المشفّرة. وأبلغ الأب الأقدس قائد الحرس السويسري بعدم رغبته في حدوث أي

إراقة للدماء وبعدم مقاومة جنوده لأي اجتياح ألماني للفاتيكان. فرفض الضابط الامتثال للأمر، وتم استدعاؤه للمثول شخصياً أمام البابا لتأكيد التزامه بتلبية الأوامر.

في الواقع، لم تتضمن خطط هيتلر الاستيلاء على الفاتيكان أو إلقاء القبض على الحَبر الأعظم. لقد وجد آدولف هيتلر نفسه بين ضغوطات تمارَس عليه من الجانبَين. فقد قال جوزيف غوبلز، وزير الدعاية في الرايخ، للفوهرر إنه سيكون لاجتياح الفاتيكان أثر مدمّر في الرأي العام العالمي، في حين أن يواكيم فون ريبنتروب، وزير الخارجية، نصح هيتلر بالاستفادة من فرصة التخلص من البابا لأنه يشكل مصدر إزعاج.

في أيار/مايو 1944، عاد بول فرانكن إلى ألمانيا بينما كان الحلفاء يهددون بالاستيلاء على روما التي تسيطر عليها دول المحور. وفي شباط/فبراير، وبعد سلسلة من الأخطاء التي ارتكبها جهاز المخابرات العسكرية الألمانية وفرار عدد من عناصره، وقّع هيتلر على مرسوم يُلحق الجهاز بالمكتب الرئيسي لأمن الرايخ، وهي المنظمة النازية التي تسيطر على كل قوات المخابرات والشرطة في الرايخ. وخُفّضت رتبة الأميرال كاناريس وأُحيل إلى شعبة اقتصاد الحرب، في حين زاد اهتمام الغستابو بالاتصالات الغريبة القائمة بين المدنيين وموظفي المخابرات العسكرية.

وأدت تحقيقاتهم إلى اعتقال العقيد هانز أوستر والرائد هانز دوناني، وهما من العقول المدبِّرة المناهضة للنازية والأكثر أهمية في جهاز المخابرات العسكرية الألمانية. ورفض الاثنان التحدث عن اتصالاتهما بالفاتيكان والحلف المقدس بالرغم من تعرّضهما للتعذيب. وتم إعدامهما في نهاية المطاف بإطلاق النار في مؤخر رأسيهما وتعليق جثتيهما بعلاّقة جزّار.

وجوزيف مولر هو الشخص التالي الذي واجه الاعتقال والاستجواب الوحشي. وأنكر العميل كل التهم الموجَّهة إليه وأي دور له في المؤامرات المناهضة للنازية

التي يشارك فيها الفاتيكان. فقد كان أحد أعضاء المخابرات العسكرية القلائل الذين نجوا من الموت.

من جهته، استقال بول فرانكن من منصبه في المخابرات العسكرية محاولاً تجنّب لفت انتباه الغستابو ووحدات الدرع الواقي. وحصل على وظيفة جديدة كمترجم للعمال الإيطاليين في ألمانيا، وتمكن من النجاة من النظام النازي والحرب.

في تلك السنوات، كان كل من في الفاتيكان، ولا سيما في الإدارة البابوية الرومانية، يؤيّدون هذا الجانب أو ذاك. وكان أمين سر الدولة، الكردينال ماليوني، ومعاوناه الرئيسيان المونسينيور مونتيني والمونسينيور تارديني، قد أصدروا أمراً لكل أعضاء الإدارة البابوية ذوي المراتب العليا بعدم التحدث إلى أفراد السفارة الألمانية في الكرسي الرسولي، أو الاتصال بهم.

ومع ذلك، كان الحلف المقدس يُجري اتصالات يومية تقريباً بالأسقف ألويس هودال، مدير المدارس الدينية الألمانية الموالي للنازية في روما، وبأفراد رفيعي المقام في الهيئة الدبلوماسية التابعة للرايخ الثالث. وأصبح هودال بعد سنوات قليلة من الشخصيات الرئيسية في منظمة "أوديسا" التي أنشأها أعضاء سابقون في وحدات الدرع الواقي لمساعدة مجرمي الحرب على الفرار إلى أميركا الجنوبية بالتعاون مع ما دُعي "فاتيكان راتلاين-الفاتيكان موطئ قدم". وشيئاً فشيئاً، بدأت رياح الحرب تجري بما لا تشتهي دول المحور، فاستسلمت القوات المتبقية من الجيش السادس الألماني العظيم للجيش الأحمر في ستالينغراد؛ وفي أفريقيا، استسلم الفيلق الأفريقي القوي التابع للمارشال إروين روميل والوحدات الإيطالية للقوات الإنكلو-أميركية، مما ترك شاطئ البحر المتوسط مفتوحاً لعملية الإنزال في صقليا. وقصفت القاذفات الأميركية بلا كلل المصانع الحربية النازية، في حين أحال البريطانيون مدناً بكاملها إلى دمار على غرار دريسدن التي تعرّضت للقصف يوم الثلاثاء في 14 شباط/فبراير 1945 ثأراً للقصف النازي

الذي طال لندن.

وطلب أرنست فون فايتزيكر، الذي حل مكان دييغو فون برغن كرئيس للسفارة الألمانية في الكرسي الرسولي، وساطة بابوية لإنهاء الحرب، ولكنه كان مجرد حلم. فقد كان بحاجة إلى إقناع البابا بيوس الثاني عشر بالإشراف على مفاوضات للتوصل إلى سلام أوروبي يجنّب ألمانيا هزيمة كاملة ووقوع القارة بأكملها، أو أوروبا الشرقية على الأقل، تحت النفوذ السوفياتي. وكان هناك جاسوسان متبقّيان في البعثة الدبلوماسية هما هارولد فريدريش ليث-جاسبر الذي انتحل صفة ملحق صحافي، وكارل فون كليم هوهنبرغ وهو ضابط مخابرات غامض عُيّن ملحقاً تجارياً. وفي خريف العام 1942، أبلغ ليث-جاسبر برلين عن رحلات متكررة يقوم بها مايرون تايلور، ممثل الرئيس روزفلت إلى الفاتيكان. ومما يدعو للغرابة أنه كان باستطاعة تايلور دخول روما ومغادرتها من دون مواجهة أي مشاكل بالرغم من كون الولايات المتحدة في حرب مع إيطاليا. ووصل هذا التقرير إلى هاينريش هيملر في برلين. فأمر الرئيس القوي لوحدات الدرع الواقي كارل فون كليم هوهنبرغ "بتصفية" مايرون تايلور في أثناء قيامه بإحدى الرحلات. ووُجّه الأمر من خلال الشؤون الخارجية الألمانية على صورة برقية خاصة.

في الوقت نفسه، وصلت برقية أخرى إلى مقر قيادة الحلف المقدس في الفاتيكان تُعلمهم باغتيال محتمَل لأحد دبلوماسيي الحلفاء. فنقل الأب روبرت ليبر المعلومات التي جمعها عميله الأب نيكولو إستورزي إلى الحَبر الأعظم.

وحذّر الحلف المقدس أجهزة المخابرات الأميركية والبريطانية أيضاً من التهديد المحتمَل، مضيفاً مضمون برقية أخرى من المصدر نفسه تفيد بإرسال ثلاثة عملاء من الغستابو إلى روما للقيام بمحاولة اعتداء. كان ليبر يعلم أنه يتعيّن عليه إنقاذ الممثل الأميركي. وفي صباح 22 كانون الثاني/يناير 1943، وصل العملاء النازيون الثلاثة إلى إيطاليا بالقطار وتلقّوا المساعدة من قِبل ثلاثة عملاء

إيطاليين. فانتقلوا إلى شقة صغيرة حيث خططوا لتنفيذ العملية.

وقاموا طيلة أسابيع بمراقبة كل خطوة يقوم بها مايرون تايلور. وأخيراً، وفي نهاية شباط/فبراير، قرروا أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة. وقضت الخطة بأن تقوم طائرتهم بتعقّب سيارة الدبلوماسي الأميركي وإطلاق النار عليه من مدفع رشاش في اللحظة الملائمة. وقبل يوم الاعتداء، اختفى أحد عملاء الغستابو من دون أي أثر، ولكن شريكيه قررا مواصلة العملية.

وعلى طريق عام مؤدٍّ إلى روما، رأى العميلان النازيان هدفهما متوقفاً إلى جانب الطريق. ففتحا نافذتيهما وبدأا بإطلاق النار على السيارة وراكبها الوحيد، وفرّا بعد ذلك.

بعد إطلاق النار، عادا إلى محطة القطار وتواريا عن الأنظار. وعندما وصلا إلى برلين، رفعا تقريراً لهيملر أبلغاه فيه عن عمليتهما الناجحة. ولكن خطأً وقع. فالرجل الذي قتلاه في السيارة الدبلوماسية ليس سوى العميل النازي الذي اختفى. كان أحدهم قد اختطفه، وخدّره، ووضعه في السيارة. وأكمل مايرون تايلور مهامه الخاصة بين واشنطن والفاتيكان لصالح الرئيس روزفلت من دون أن يعلم أن جهاز التجسس البابوي قد أنقذ حياته.

فهارولد فريدريش ليث-جاسبر هو الذي أبلغ هيملر بأن عميلاً سرياً ألمانياً شاهد مايرون تايلور يدخل الفاتيكان حياً، وكانت مفاجأة رئيس وحدات الدرع الواقي كبيرة.

تضاعفت عمليات مخابرات الرايخ التي استهدفت الفاتيكان والحلف المقدس في السنوات الأخيرة للحرب. ففي حزيران/يونيو 1941، اضطّلع والتر شلينبرغ، وهو ضابط شاب ومتعصّب، بشؤون أيه أم تي 6، وهو القسم التابع للمكتب الرئيسي لأمن الرايخ والمسؤول عن التجسس الخارجي. ومذاك الحين، تولّت أيه أم تي 6 العمليات المخابراتية في الفاتيكان.

وبعد إنشاء المكتب الرئيسي لأمن الرايخ، تسلّم الغستابو، أي البوليس السري،

قسم المخابرات التابع لألبرت هارتل والذي يُعنى بشؤون الكنيسة. لم يكن هارتل المتخصص في جهاز المخابرات العسكرية محبوباً كثيراً من قادة الغستابو، ويعود سبب ذلك بصفة رئيسية إلى دفاعه عن حرّية حركته، مفضّلاً القيام بمهامه من دون الخضوع لمراقبة زملائه.

لقد اتُهم هارتل أيضاً بإخفاء معلومات هامة عن نظرائه في أقسام أمنية أخرى. وبلغ هذا الاتهام مسامع هاينريش مولر، رئيس الغستابو، الذي كان ينظر بعدائية إلى الوسائل العتمَدة من قِبل هارتل. فقرر إجراء تحقيق لإيجاد دليل يسمح له بتوجيه تهمة الخيانة العظمى إلى هارتل. وبعد أسبوع، استنتج مولر أن هارتل، الكاهن الأسبق، هو يسوعي في الواقع وعميل مزدوج يقدّم الخدمات للحلف المقدس داخل أجهزة المخابرات الألمانية.

وما زاد من وضعه سوءاً الشهرة التي اكتسبها جرّاء غزواته الجنسية في ليالي برلين. لقد أدى عدم تحفّظه مع موظفات المكتب الرئيسي لأمن الرايخ إلى فرض عقوبات جدّية عليه، ولكنه لم يشأ التضحية بحياته الشخصية إكراماً لقضية الفوهرر.

وفي أثناء رحلة له من فيينا إلى برلين، حاول هارتل إغواء فتاة في السادسة عشرة من عمرها تبيّن أنها ابنة ضابط كبير في وحدات الدرع الواقي. عندئذٍ، قرر هاينريش مولر تخفيض رتبته وإلحاقه بفرق إبادة اليهود على الجبهة الروسية. وعندما علم راينهارد هيدريش بالأمر، أصدر أمراً مضاداً. وإكراماً لخدماته، أُرسل هارتل إلى كييف كضابط ميداني تابع للمكتب الرئيسي لأمن الرايخ في مهمة التحكم بالرأي العام في أوكرانيا المحتلة. فالرجل الذي أنشأ إحدى الوحدات النازية الأكثر فعالية ضد الفاتيكان والحلف المقدس، لم يتولَّ بعد ذلك إدارة أي عملية تجسسية. ومذاك الحين، باتت أجهزة مخابرات الرايخ الثالث تمتثل "لتوجيهات هيدريش".

في العام 1941، حضر هيدريش مؤتمراً في مقر قيادة الغستابو، وكانت عمليات

التجسس ضد الكنيسة الكاثوليكية من أهم الموضوعات المطروحة التي تناولت "السياسة الدولية للفاتيكان وعملياتنا المخابراتية" و"العمليات المخابراتية في النزاع مع الكاثوليكية السياسية داخل الرايخ". وتحدّث هيدريش إلى الحاضرين عن ضرورة تحسين العمل التجسسي ضد الكرسي الرسولي من خلال عمليات تجسس مضادة تكشف عن عملاء الحلف المقدس وجمعية بيوس في ألمانيا والدول المحتلة.

وقضت "توجيهات هيدريش" بمضاعفة كل قوات الأمن والتجسس في الرايخ جهودها لاختراق جهاز أمن الفاتيكان. وتمثّل الإجراء الأول بإرسال عملاء من المكتب الرئيسي لأمن الرايخ إلى السفارات الألمانية كافة لجمع معلومات عن صلات الفاتيكان بكل دولة. وإنشاء منصب "ملحق أمني" في البعثات الأجنبية هي فكرة راينهارد هيدريش الذي أقنع يواكيم فون ريبنتروب، وزير الخارجية، بذلك. وكان ريتشارد هيدلن الملحق الأمني في سفارة الفاتيكان في ألمانيا، وهو رجل موالٍ كلّياً للرايخ.

في أوائل العام 1942، استُبدل هيدلن بفيرنر بيكو، وهو شرطي على صلة بالمكتب الرئيسي لأمن الرايخ ووزارة الشؤون الخارجية. وكان بيكو أيضاً رجلاً مخلصاً لهيدريش. وأُبقي رئيس دائرة الأمن المركزي المقتدر في الرايخ على اطّلاع يومي على نشاطات أجهزة المخابرات الأجنبية، والحلف المقدس، وجهاز المخابرات الإيطالية، من خلال تقارير مقتضَبة كان يضعها بيكو بنفسه. وشيئاً فشيئاً، أصبح فيرنر بيكو من الوجوه التي تشاهَد باستمرار في المناسبات الاجتماعية في قصور الحلف المقدس حيث كان يُدعى من قِبل كرادلة مُوالين للفاشية. وعندما يكون ضابط المكتب الرئيسي لأمن الرايخ خارج السفارة، يسلّم هيدريش العمل الأمني إلى الرائد هربرت كابلر، الملحق الأمني في السفارة الألمانية إلى إيطاليا. وكابلر رجل عنيف مُحب للتعذيب، قصير القامة، أشقر الشعر، ذو وجه يحمل ندوباً تعود إلى صباه عندما كان يخوض مبارزات.

كان العميل الأول لكابلر داخل الفاتيكان مساعد أستاذ في الجامعة الغريغورية، وهي الجامعة اليسوعية في روما. كان هذا الرجل قد تطوّع بتقديم خدماته بعد قراءة البيان الرسمي السياسي لهيتلر كفاحي. واستغل جاسوس كابلر منصبه في الجامعة لفضّ بريد الأساتذة والاستماع إلى محادثاتهم ونقل المعلومات لهربرت كابلر شخصياً في وقت لاحق. وبعد تعيينه مراقباً مسؤولاً عن الطلاب، استُدعي الجاسوس إلى برلين من قِبل رئيس الأساقفة مايكل فون فولهابر. كانت جمعية بيوس قد أبلغت جاسوس بيوس الثاني عشر روبرت ليبر عن عميل ألماني مفترَض في الجامعة الغريغورية. وبسبب إصرار ليبر، أُعيد الجاسوس الألماني إلى برلين.

وألفريد فون كاغينيك هو ابن عائلة ألمانية كاثوليكية أرستوقراطية وأحد الجواسيس النازيين الآخرين ذائعي الصيت في الفاتيكان. وبعد قيام هيلموت لوس، مساعد كابلر، بتجنيده في أيار/مايو 1940، أُرسل كاغينيك إلى روما بسبب علاقاته الممتازة بصديق العائلة الأب ليبر. وفي كل رحلة له إلى روما، كان الجاسوس الألماني يجمع معلومات هامة لرؤسائه في برلين، ولكن ما لم يعرفه أحد حتى مرحلة ما بعد الحرب هو أن كاغينيك كان يعمل في الواقع لصالح الجرماني، وهو قسم التجسس البابوي المضاد المسؤول عن تزويد معلومات غير صحيحة لأجهزة مخابرات الرايخ الثالث.

كان كابلر ولوس مقتنعين بأنهما تمكنا في النهاية من اختراق أجهزة التجسس البابوية المنيعة. لقد جنّد الحلف المقدس ألفريد فون كاغينيك في نيسان/إبريل من ذلك العام نفسه وأحاله الأب روبرت ليبر على الفور إلى قسم الجرماني. وفي أثناء رحلته الأولى إلى روما، اعترف كاغينيك لليسوعي بصلاته بجهاز أيه أم تي 6 النازي، إضافةً إلى هدف زيارته. فأعلم ليبر البابا بيوس الثاني عشر والرئيس العام للرهبنة اليسوعية. فنصح كلاهما ليبر بأن يستأنف اتصالاته بالعميل المزدوج.

في كل لقاء، كان الحلف المقدس يُعدّ تقريراً موثّقاً يبدو على درجة من الأهمية والحساسية، ويقوم عميل الجرماني بتمريره لهيلموت لوس في السفارة الألمانية في روما.

وفي السنوات التالية، كانت المعلومات تنتقل من الفاتيكان إلى برلين، وبالعكس، عن طريق ألفريد فون كاغينيك. وأفصح العميل المزدوج للحلف المقدس بأسماء الجواسيس الألمان الذين جنّدهم جهاز أيه أم تي 6 للتسلل إلى الفاتيكان. وأوقعت تقاريره بتشارلز بولي، وهو دبلوماسي إيرلندي سابق كان سفيراً في ألمانيا والفاتيكان؛ وفيرنر فون شولنبرغ، وهو ضابط ألماني سابق في القوات المسلحة لجأ إلى روما أملاً في أن يصبح كاتباً. كان شولنبرغ يتردد على الأوساط الأرستقراطية والمثقفة في المدينة الأزلية متذرّعاً بتعزيز العلاقات الألمانية-الإيطالية الثقافية. وكان بولي وشولنبرغ يعملان لصالح جهاز التجسس الألماني لقاء أجر.

لقد فقد هيدريش العزم على اختراق أروقة الفاتيكان بطريقة أو بأخرى. وأوحى لمجموعة منوّعة من الكهنة الموالين للرايخ بوجوب مد يد العون لتحقيق ذلك، وأكثرهم فعالية هو الأسقف ألويس هودال الذي دعاه الحلف المقدس "الأسقف الأسود" بسبب تعاطفه مع النظام النازي وهاينريش هيملر، وكان مدير كلية سانتاماريا دللا أنيما - أو "أنيما" باختصار - وهو مركز ديني بالقرب من ساحة نافونا. في بادئ الأمر، أُعلن هودال شخصاً غير مرغوب فيه من قِبل أمانة سر دولة الفاتيكان بسبب تقرير رفعته جمعية بيوس يوحي بأن النمساوي عميل لأجهزة مخابرات الرايخ الثالث.

كان ألويس هودال يقيم علاقات اجتماعية هامة مع أفراد من الإدارة البابوية الرومانية ويتنقل بسهولة في قاعاتها المفروشة بالسجاد. ذات يوم، أعلم الحلف المقدس روبرت ليبر بأن هودال يضع بحثاً ويخطط لتقديمه لآدولف هيتلر والبابا بيوس الثاني عشر. ويورد البحث سلسلة من النقاشات تصب في خانة

المصالحة بين الكنيسة الكاثوليكية والنظام الاجتماعي القومي. فأمر ليبر عملاءه بالتخلص من المستند قبل إعلانه على الملأ، وأوكل تلك المهمة إلى ألفريد فون كاغينيك، جاسوس الحلف المقدس في المكتب الرئيسي لأمن الرايخ. كان كاغينيك قد تعرّف بهودال في أثناء احتفالات الأسبوع المقدس عام 1941، ولم يتطلبه الأمر كثيراً من الوقت للحصول على وظيفة في الأنيما في ميدان تعزيز العلاقات الألمانية-الإيطالية الثقافية.

وعندما بات المستند الأصلي شبه مكتمل، اختفى المخطوط من خزانة هودال ولم يتم العثور عليه أبداً. ولكن بعض المصادر تدّعي بأنه وصل إلى ليبر ومن ثم إلى البابا الذي أمر بإرساله إلى محفوظات الفاتيكان السرية حيث لا يزال حتى اليوم منسيّاً. وادّعى العديد من الكتّاب والمؤرخين أن المستند يُظهر بوضوح معرفة بيوس الثاني عشر "بالحل النهائي" للمشكلة اليهودية، وبإبادة الصرب الأرثوذكس من قِبل حركة أوستاش التابعة للدكتاتور الكرواتي أنتي بافليتش الموالي للنازيين. وكان البابا يرفض على الدوام توجيه رسالة اعتراض وإدانة واضحة إلى هذه الأعمال الوحشية.

فطالما كان الكروات بالنسبة إلى البابا بيوس الثاني عشر وأفراد أجهزة التجسس البابوي بمثابة الموقع المتقدم للكنيسة الكاثوليكية في البلقان، وذلك طيلة سنوات. وعندما قرر هيتلر اجتياح البلد في 6 نيسان/إبريل 1941، أعلن الفاشيون الكروات الاستقلال كجزء من حملتهم على اليونان. وفي الثاني عشر من الشهر نفسه، أعلن آدولف هيتلر عن خطة لمنح الطابع "الآري" لكرواتيا مستقلة بقيادة أنتي بافليتش. وكانت مجموعة بافليتش، أوستاش، قد عارضت إنشاء مملكة سلافية جنوبية بعد الحرب العالمية الأولى.

وبين عامَي 1941 و1945، شنّت أوستاش حملة ترويع قضت بقتل الصرب الأرثوذكس، والغجر، واليهود، والشيوعيين، بطريقة منهجية. وتمثّلت فكرة أنتي بافليتش بإنشاء كرواتيا محض كاثوليكية من خلال الاعتناق الإلزامي للإيمان

الكاثوليكي، والإبعاد، والإبادة. وكانت أعمال التعذيب والقتل المكثّفة مروّعة لدرجة أن بعض أفراد وحدات الجيش الألماني أرسلوا تقارير إلى رؤسائهم في برلين يشجبون فيها تجاوز مرتكبي هذه الأعمال الحدود المعقولة.

وكان إنشاء ما دُعي دولة كرواتيا المستقلة مرتبطاً بمجموعة من الولاءات القديمة للكرسي الرسولي التي تعود إلى ما قبل ثلاثة عشر قرناً، وبكره شديد للصرب ومذهبهم الأرثوذكسي بسبب أعمال الظلم المرتكَبة في الماضي. بالنسبة إلى الكروات الكاثوليك، كان الصرب مُذنبين بتفضيل المذهب الأرثوذكسي، وتشجيع حدوث الانشقاقات بين الكاثوليك، والاستيطان في المناطق الكاثوليكية لجعلها ذات غالبية أرثوذكسية. ومنذ بداية حكم بافليتش، أيّد بيوس الثاني عشر علانيةً القومية الكاثوليكية الكرواتية، وصرّح في أثناء رحلة زيارة للكروات إلى روما في تشرين الثاني/نوفمبر 1939 بأن أوستاش هي "الموقع المتقدم الكبير للمسيحية"، مستخدماً الكلمات نفسها التي اعتمدها لاون العاشر. "يبدو أن الأمل بمستقبل أفضل يبتسم لكم، مستقبل يتم فيه تنظيم العلاقات بين الكنيسة والدولة في بلدكم على نحو متناغم بما يخدم مصلحة الفريقين"، قال بيوس الثاني عشر للمجموعة التي قَدِمت إلى الفاتيكان بقيادة رئيس الأساقفة ألويزي ستيبيناك من زغرب.

في 25 نيسان/إبريل 1941، أصدرت السلطات الجديدة مرسوماً يحظّر كل المواد المطبوعة بالأبجدية السيريلية، وبعد شهر، وافقت على القوانين المناهضة للسامية. وفي نهاية أيار/مايو، نُقلت أولى المجموعات اليهودية من زغرب إلى معسكرات الإبادة. وبدأ الحلف المقدس بإرسال برقيات مشفّرة إلى الأب روبرت ليبر في الفاتيكان حول المجازر التي يتعرّض لها المدنيون والكهنة الأرثوذكس. والغريب في الأمر أن أمانة سر دولة الفاتيكان حثت عملاءها المنتشرين في دولة كرواتيا المستقلة على تجنّب أي "مواجهات" مع السلطات.

وفي 14 تموز/يوليو من العام نفسه، جمع وزير العدل الكرواتي أساقفة البلد

لإعلامهم بأنه لا يُفترض حمل قسم كبير من السكان، وغالبيتهم أرثوذكساً، على اعتناق الإيمان الكاثوليكي "كي لا يلوّثوا كاثوليكية كرواتيا المقدسة". وعندما سأل ستيبيناك عما يجب القيام به في شأن هؤلاء الأشخاص، أجاب المسؤول: "لا خيار أمامهم سوى الترحيل أو الإبادة".

واستناداً إلى هذه الفرضية، شرع أفراد من مجموعة أوستاش التي دعاها البابا "الموقع المتقدم الكبير للمسيحية" في موجة من القتل من دون تمييز. واستمر عملاء الحلف المقدس بتوثيق الأعمال الوحشية المرتكَبة بالرغم من تحذيرات الفاتيكان.

في 28 نيسان/إبريل، أرسل عميل وقّع مراسلاته بالحرفَين الأولين من اسمه أل. تي إلى الأب ليبر تقريراً يصف فيه كيف أن "مجموعة من الأوستاشيين هاجمت ست قرى في منطقة بيلوفار واعتقلوا 250 رجلاً، بمن فيهم مدرّس مدرسة وكاهن أرثوذكسي. وأُجبر الضحايا على حفر خندق، وقُيّدوا بأسلاك معدنية ودُفع بهم إلى داخل الخندق ودُفنوا أحياء". وجاء في تقرير آخر لأحد عملاء جهاز التجسس البابوي، جمعية بيوس، بتاريخ 11 أيار/مايو 1941: "أسر الأوستاشيون 331 صربياً، بمن فيهم كاهن صربي أرثوذكسي وابنه البالغ من العمر تسع سنوات، وقُطّع الضحايا إرَباً بواسطة الفؤوس. لقد أُجبر الكاهن على الصلاة بينما كان يتم تقطيع أوصال ابنه. وأخضعوه للتعذيب في وقت لاحق، فانتزعوا شعرات لحيته، واقتلعوا عينَيه، وسلخوا جلده بينما كان لا يزال حياً".

بعد المجزرة التي أُعلم بها الفاتيكان من قِبل عملائه السريين، قرر بافليتش الذي اعتبر نفسه كرواتياً مساوياً لفوهرر ألمانيا زيارة إيطاليا لتوقيع معاهدة مع بينيتو موسوليني. وفي أثناء زيارته، عقد أنتي بافليتش اجتماعاً سرياً مع بيوس الثاني عشر. وقيام بافليتش بتقبيل الخاتم البابوي لا يرمز إلى اعتراف الحلف المقدس بدولة كرواتيا المستقلة فحسب، بل إلى صمت البابا أيضاً عن الأعمال الوحشية السابقة والمستقبلية التي ارتكبها جواسيس مجموعة أوستاش

باسم الإيمان الكاثوليكي.

وفي كتابه بابا هيتلر: التاريخ السري لبيوس الثاني عشر، ذكر الكاتب جون كورنويل أن حوالى 487.000 صربي أرثوذكسي و27.000 غجري قُتلوا بين عامَي 19 و1945. ولقي 30.000 يهودي من أصل 45.000 يؤلفون الجالية اليهودية في يوغوسلافيا حتفهم أيضاً. وهلك ما بين 20.000 و22.000 من هؤلاء في معسكرات الاعتقال في أوستاش، في حين نُقل البقية إلى غرف الغاز.

كان رئيس أساقفة زغرب، ألويزي ستيبيناك، يؤيّد المبادئ الأساسية لدولة كرواتيا الجديدة منذ البدء، وقد مارس ضغطاً على بيوس الثاني عشر للاعتراف بأنتي بافليتش كأحد الحصون الرئيسية للكنيسة الكاثوليكية في أوروبا السلافية. كان بافليتش "كاثوليكياً صادقاً"، كما كتب المونسينيور في مذكراته. ومن منبره، طلب ستيبيناك من أبناء أبرشيته رفع دعواتهم الصادقة لبافليتش، في حين كان كهنة فرنسيسكان آخرون يشاركون في المجازر بفعالية.

ورفع أحد عملاء الحلف المقدس التقرير التالي للفاتيكان:

> يتجوّل العديد منهم - الكهنة الفرنسيسكان - وهم مسلّحون ويقومون بأعمال القتل بحماسة غير عادية. واتُهم كاهن يدعى بوزيدار برالو، ويُعرف بحمل مدفع رشاش، بالرقص حول جثث مئة وثمانين صربياً في أليباسين-موست، كما اتُهم آخر بمخاطبة جواسيس أوستاشيين والمصلوب من يديه بينما كانوا يقطعون أعناق نساء صربيات.

وورد ذلك الوصف على لسان صحافي إيطالي أضاف في تقريره أن المجزرة حدثت في بانجا لوكا.

وولج باحث آخر، هو جوناثان شتينبرغ، محفوظات وزارة الشؤون الخارجية الإيطالية ووقع على وثائق ومستندات تحتوي على مشاهد للمجازر، كما فك رموز تقارير رفعها عملاء تجسس بابويين لرؤسائهم يُعلِمُونهم فيها بإبادة كل

المدن والبلدات الأرثوذكسية. وظهرت كل اكتشافاته في كتابه كل شيء أو لا شيء: دول المحور والإبادة الجماعية، 1941-1943. والسؤال المطروح من قِبل العديدين آنذاك واليوم هو سبب عدم قيام الكنيسة الكاثوليكية، والبابا بيوس الثاني عشر، والفاتيكان، والسلطات الكاثوليكية في كرواتيا، وأجهزة المخابرات الكاثوليكية، بعمل أي شيء لوقف المجازر أو شجبها ببساطة.

واكتشف شتينبرغ رسالة موجَّهة من كبير رؤساء أساقفة زغرب، ألويزي ستيبيناك، إلى الدكتاتور أنتي بافليتش يذكر فيها الكاهن آراء كل الأساقفة الكروات المؤيدة للاعتناق الألزامي للإيمان الكاثوليكي، ويشدد على أن أسقف موستار، المونسينيور ميسكيتش، يؤيّد استخدام كل الوسائل الضرورية "لإنقاذ العديد من الأرواح" في كرواتيا. وبعد الإطراء على أعمال الاعتناق الديني التي قامت بها السلطات الكرواتية، أضاف ستيبيناك قائلاً: "في أبرشية كليبكا، ذُبح سبعمئة منشقّ من القرى المجاورة". وأُعدم العديد من هؤلاء في معسكر الاعتقال جازينوفاك، أحد أكبر المعسكرات في ذلك الوقت.

لقد استفاد غالبية الأساقفة، والكرسي الرسولي نفسه، وأمانة سر دولة الفاتيكان، لا بل البابا بيوس الثاني عشر أيضاً، من الهزيمة التي تعرضت لها يوغوسلافيا على أيدي النازيين، وذلك لزيادة نفوذ الكنيسة الكاثوليكية في البلقان. وإن عجز الأساقفة الكروات عن النأي بأنفسهم عن النظام، وشجبه، ورمي الحِرم على أنتي بافليتش وشركائه في الجريمة، ناجم عن رغبتهم في الاستفادة من الفرص التي قدّمتها هذه "المناسبة الجيدة" لبناء أساس كاثوليكي قوي في البلقان.

وتمكن الكاتب والمحقق جون كورنويل أيضاً من ولوج وثائق في محفوظات الفاتيكان السرية، بما فيها تقرير من مجمع الكنائس الشرقية يشير إلى أن الفاتيكان على عِلم بالاعتناقات الدينية الإلزامية كتلك التي حدثت في تموز/ يوليو 1941. ووجد كورنويل أيضاً وثيقة للحلف المقدس تصف نقل حوالى ستة

آلاف يهودي إلى جزيرة قاحلة من دون تزويدهم بالطعام أو الماء. "منعت السلطات الكرواتية كل المحاولات للقدوم إلى نجدتهم"، أظهر تقرير جهاز التجسس البابوي. ولا وجود لأي مدوَّنة تشير إلى رد فعل أو مبادرة فاتيكانية حيال هذا الأمر.

وقدِم الأب شيروبينو سيغيتش، الممثل الخاص لأنتي بافليتش، إلى روما للدفاع عما دعاه "شائعات نشرها شيوعيون، ويهود، وأفراد من جهاز المخابرات الفاتيكاني". وفي 6 آذار/مارس 1942، عقد الكردينال أوجين تيسران - خبير بلقاني، وعضو محفل الشرق الكبير الماسوني، ومؤتمَن على أسرار البابا بيوس الثاني عشر - اجتماعاً سرياً مع نيكولا روزينوفيتش، ممثل نظام بافليتش في الفاتيكان غير المتمتع بصفة رسمية كاملة. قال تيسران لروزينوفيتش:

> أعرف في الواقع أن الفرانسيسكان بالذات، الأب سيميتش من كنين على سبيل المثال، شاركوا في الهجمات ضد السكان الأرثوذكس لتدمير الكنيسة الأرثوذكسية، كما قمتَ بتدمير الكنيسة الأرثوذكسية في بانجا لوكا. أعلم عِلم اليقين بأن الفرنسيسكان تصرفوا بطريقة مقيتة، وهذا الأمر يؤلمني. لا يُفترض بأشخاص متعلّمين، ومثقفين، ومتمدنين ارتكاب هذه الأعمال، فكيف بالكهنة؟".

الحقيقة هي أن البابا بيوس الثاني عشر لم يكفَّ أبداً عن النظر بعين العطف إلى نظام أنتي بافليتش. فعلى سبيل المثال، استقبل الحَبر الأعظم في تموز/يوليو 1941 مئة عميل أمني كرواتي بقيادة رئيس الشرطة الزغربي اتُهموا بعد الحرب بارتكاب "جرائم ضد الإنسانية" وإعدام ست نساء مع أطفالهنّ التسعة أمام شهود. وفي 6 شباط/فبراير 1942، أجرى البابا بيوس الثاني عشر مقابلة خاصة مع مجموعة صغيرة تنتمي إلى "أوستاش الشباب" ذكّر أفرادها بأنهم "المدافعون عن المسيحية". وفي وقت لاحق، قال لأحد مسؤولي نظام بافليتش

إن "أحداً لا يريد الاعتراف بالعدوّ الحقيقي والرئيسي لأوربا بالرغم من كل شيء؛ لم يتم الشروع بحملة صليبية حقيقية، مشترَكة، وعسكرية ضد البولشفية".

في ما يتعلق بروسيا، بدأ جهاز تجسس الحلف المقدس التابع للفاتيكان عملية جديدة في أثناء الحرب العالمية الثانية. فعندما أطلق هيتلر "عملية بارباروسا" في 22 حزيران/يونيو 1941، رأى البابا بيوس الثاني عشر وجود فرصة لاختراق العدو البولشفي عن طريق التبشير بالإنجيل. فاستدعى البابا الكردينال تيسران ورئيس جواسيسه الأب روبرت ليبر، وطلب منهما وضع خطة تسمح بإرسال مبشّرين كاثوليك بعد زحف جيوش الورماخت الألمانية إلى موسكو "لتحرير" الأراضي السوفياتية. وبالتعاون مع ليبر، أعدّ الكردينال تيسران عملية تجسسية حقيقية عُرفت بخطة تيسران.

كانت خطة تيسران موجَّهة من قِبل الكردينال أوجين تيسران شخصياً وليس روبرت ليبر، بالرغم من أن عملاء الحلف المقدس هم من نفّذوا الخطة التي قادها نيكولو إستورزي، المبعوث، داخل الاتحاد السوفياتي.

كانت قد تمت ملاحظة نشاطات الكردينال في أوروبا الشرقية عام 1940. فحظّر ألفرد روزنبرغ، القائد النازي والمناهض المتحمّس للكاثوليكية، دخول الكهنة إلى مناطق الاتحاد السوفياتي "المحرَّرة". ولكن راينهارد هيدريش، رئيس مكتب أمن الرايخ، هو من شرع بمطاردة عملاء الحلف المقدس والفاتيكان في روسيا. وفي 2 تموز/يوليو 1941، نشر هيدريش في أوساط النازيين ذوي المراتب العليا وثيقة بعنوان "تكتيكات جديدة لعمل الفاتيكان في روسيا". في هذه الوثيقة، شرح رئيس مكتب أمن الرايخ أن الفاتيكان وأجهزته التجسسية وضعت عملية تُعرف بخطة تيسران لتهريب كهنة كاثوليك إلى المناطق الواقعة تحت سيطرة الورماخت. ويقضي جوهر الخطة التي وضعها الحلف المقدس بتجنيد رعاة يعاونهم كهنة إسبان وإيطاليون لمرافقة الوحدات المقاتلة على الجبهة الشرقية.

وتتمثل مهمة هؤلاء الكهنة بقيادة إستورزي بجمع معلومات تسمح بإدخال الإيمان الكاثوليكي في ظل التقدم الألماني. وجاء في تقرير هيدريش:

> من الضروري منع الكاثوليكية من أن تصبح المستفيد الحقيقي من الحرب في هذا الوضع الجديد الناشئ في المنطقة الروسية التي تجري السيطرة عليها بدم الألمان. يستفيد عملاء البابا من الوضع، ويجب إيقاف ذلك.

وقضى أمر صادر بتاريخ 6 أيلول/سبتمبر بقيام قادة الوحدات بإبلاغ القيادة العليا للقوات المسلحة لدى ظهور "أي إشارة لتنشيط عمليات الفاتيكان وأجهزة مخابراته في روسيا". في الواقع، لم تكن خطة تيسران عملية جديدة بالفعل وُضعت في ذلك الوقت، ولكن تاريخها يعود إلى ولاية بيوس الحادي عشر الحَبرية.

وشرع نيكولو إستورزي بإجراء مقابلات مع المرشحين لتنفيذ خطة تيسران. وأصبحت أديرة غروتا فيرارا في إيطاليا، وشيفتون في بلجيكا، وفيليهارد في مورافيا، مناطق الانطلاق حيث احتشد عملاء الحلف المقدس الساعين إلى المشاركة في خطة تيسران، وهي إحدى العمليات الأكثر أهمية في تاريخ جهاز المخابرات البابوي.

فاتجه بعضهم شرقاً في زِيّ تجار مع صلبان مثنيّة داخل أقلام الحبر السائل. وادعى آخرون أنهم أُجَراء إسطبلات واختلطوا بفرقة المواكبة الخلفية التي تحرس تقدّم الألمان. وعندما بلغوا المناطق التي تُعتبر مناسبة لإقامة قداديس سرّية، غادر جواسيس البابا الطوابير العسكرية الألمانية وأكملوا طريقهم. ورحّب السكان المحليون بالعديد منهم، في حين أُعدم آخرون من قِبل الموالين للشيوعية أو اعتُقلوا وأُرسلوا إلى معسكرات الأشغال الشاقة في سيبيريا. ووفقاً لمصادر غير رسمية، لقي حوالى 217 عضواً من منظمة الروسية تابعين للحلف المقدس حتفهم لدى تنفيذ خطة تيسران.

وبقي نيكولو إستورزي، رئيس عمليات الخطة، داخل روسيا حتى شباط/فبراير 1943 عندما انضم إلى الجنود الألمان في أثناء انسحابهم غير المنظَّم أمام تقدّم الجيش الأحمر. وفي 31 كانون الثاني/يناير، حاصرالجنرال فون باولوس ستالينغراد ولم ينجُ سوى 91.000 جندي من أصل 330.000 جندي يؤلّفون الجيش الألماني السادس. ومات العديدون في معسكرات أسرى الحرب في سيبيريا.

كان استسلام الألمان في ستالينغراد بداية نهاية "الأعوام الألف لحكم الرايخ" التي حلم بها آدولف هيتلر. في غضون ذلك، وبعد فشل خطة تيسران، قال البابا بيوس الثاني عشر في منشوره العام احترام الكنيسة بتاريخ 23 نيسان/إبريل 1944

> إن الهدف الرئيسي لرغباتنا وأدعيتنا المتواصلة... أن يبزغ أخيراً فجر اليوم الذي يكون فيه هناك قطيع واحد وحظيرة واحدة ويكون الكل مجتمعين حول يسوع المسيح وممثّله على الأرض... يُفترض بالمؤمنين بالمسيح العمل معاً قلباً وقالباً لتحقيق الوحدة في كنيسة يسوع المسيح الواحدة ومواجهة الهجمات اليومية المتزايدة لأعداء الدين بيد واحدة.

بالرغم من ذلك، اتفق المؤرخون جون كورنويل، وكارلو فالكوني، وجوناثان شتينبرغ، وهارولد دويتش في الرأي على أن طموح البابا بيوس الثاني عشر لنشر الإنجيل في أوروبا الشرقية لا يفسر صمته إزاء إبادة ستة ملايين يهودي في ما دُعي الحل النهائي. ونجم عن هذا الصمت التاريخي إزاء قتل ملايين اليهود - صمت الفاتيكان بشكل عام والبابا بيوس الثاني عشر بصفة خاصة - تصريح للسفير البريطاني إلى الكرسي الرسولي، السير دارسي أوزبورن:

> يجب علينا أن تؤدي سياسة الصمت إزاء هذه الإساءات لضمير العالم إلى التخلي عن المنصب القيادي الأخلاقي وتراجع سلطة الفاتيكان ونفوذها؛ ويجب صيانة هذه السلطة من أي شوائب

إذا ظهرت أي إمكانية لمساهمة بابوية في إعادة إرساء السلام العالمي.

في 19 نيسان/إبريل 1945، وصل الجنود السوفيات إلى مشارف برلين، قلب الرايخ. وفي الثلاثين منه، وفي ملجأ حصين مُظلم وبارد تحت الأرض تابع لمستشارية الرايخ الثالث، انتحر الرجل الذي كان سيد أوروبا. كان هتلر قد بلغ السادسة والخمسين من عمره. وقبل ثلاثة أيام، أي في 27 نيسان/إبريل، قضى الدوتشي بينيتو موسوليني نحبه أيضاً وجثته معلَّقة رأساً على عقب في ساحة لوريتو في ميلانو.

وبالنسبة إلى نشاطات الفاتيكان وأجهزته التجسسية، ونشاطات الحلف المقدس وجمعية بيوس في الحرب العالمية الثانية، تجدر الإشارة إلى تصريح للكردينال أوجين تيسران، رئيس مجمع الكنائس الشرقية. ففي رسالة للكردينال إيمانويل سوهارد في أيار/مايو 1940، كتب تيسران: "أخشى من أن يلقي التاريخ اللوم على الكرسي الرسولي بسبب اتّباعه سياسة أنانية". يُظهر هذا التصريح، وإن قُبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، خشية الفاتيكان من إمكانية "حكم" التاريخ على سياسة الحياد "غير الفعلي" التي اعتمدها و"إدانتها"، وهذا ما حدث بالفعل.

من الأعوام الألف التي خطّط الرايخ أن يمضيها في الحكم، لم يتبقَّ سوى الأنقاض والموت والدمار بعد اثني عشر عاماً من ارتقاء آدولف هيتلر إلى سدة الحكم. ويزيد مجموع أولئك الذين ماتوا في أثناء الحرب العالمية الثانية عن خمسة وخمسين مليون شخص من مدنيين وجنود. وبعد ست سنوات ويوم واحد من هجوم هيتلر على بولندا، صمتت الأسلحة. وتمثلت المهمة الجديدة بإنقاذ الأحياء من بين الأنقاض. في غضون ذلك، بدأ القتلة ومنفّذو سياسات الفوهرر بالفرار من العدالة الدولية عن طريق ما بات يُعرف بعملية "فاتيكان راتلاين-الفاتيكان موطئ قدم" ومنظمة تدعى أوديسا. وبدأت الإمبراطورية

الشيوعية تبسط مجسّاتها عبر أوروبا الشرقية، ولاحت بوادر حرب جديدة في العالم: الحرب الباردة.

الفصل السادس عشر
"أوديسا" وعملية "فاتيكان راتلاين"
(1946-1958)

في أثناء الحرب، كانت كلّية القديس جيروم دغلي إيليريتشي القائمة في شارع توماتشيلي 132 في روما ملجأً للكهنة الكروات الذين قدموا إلى الفاتيكان للقيام بمهام متنوعة. وبعد نهاية الحرب، أصبحت كلّية اللاهوت ودير القديس جيروم ملجأين آمنين للأوستاشيين المطارَدين بوصفهم مجرمي حرب. ووفّر الحلف المقدس هويات مزوّرة، وجوازات سفر، وقنوات لتسهيل عملية فرارهم. وكان الأب كرونوسلاف دراغانوفيتش القائد الرئيسي لدير القديس جيروم.

وصل دراغانوفيتش إلى روما في أواخر العام 1943 تحت ستار العمل لصالح الصليب الأحمر، وكان أستاذاً سابقاً في كلية اللاهوت الكرواتية، والأنا الثانية للدكتاتور أنتي بافليتش كما وصفته أجهزة المخابرات الأميركية. وأكدت أجهزة التجسس الفاتيكانية أنه قدِم بالفعل لتنسيق عمليات في كرواتيا مع مجموعات فاشية إيطالية. وفي نهاية الحرب، أصبح الشخصية الرئيسية في ما دُعي عملية "فاتيكان راتلاين-الفاتيكان موطئ قدم". وتحوّل دير القديس جيروم إلى مركز لتنظيم رحيل أولئك الذين يحاولون الفرار من أوروبا إلى الأرجنتين بصفة خاصة. وسرعان ما تطورت هذه العمليات لتشمل مساعدة مجرمي الحرب النازيين على تجنّب اعتقالهم. ومن بين هؤلاء جوزيف مينغل، طبيب أوشفيتز؛ كلوس باربي، "جزّار ليون"، رئيس الغستابو السابق في تلك المدينة الفرنسية؛ أنتي بافليتش، الدكتاتور الكرواتي؛ النقيب في وحدات الدرع الواقي إريش بريبكه؛ الجنرال في وحدات الدرع الواقي هانز فيشبوك؛ وأدولف إيخمان الشهير.

ويقول بعض الكتّاب والمؤرخين إنهم لم يعثروا على دليل كافٍ للجزم بأن الفاتيكان أو البابا بيوس الثاني عشر كانا مدركَين لعمليات منظمة أوديسا، ولكن

هناك دليلاً هاماً يشير إلى أن بعض عملاء الحلف المقدس على الأقل متورطون في الواقع في راتلاين.

فعلى سبيل المثال، حصل فرانز ستانغل، آمر معسكر الاعتقال في تربلينكا، على هوية جديدة، وأوراق ثبوتية مزوّرة، وملجأ في روما، عن طريق الأسقف ألويس هودال وأفراد من الحلف المقدس. وساعد عملاء فاتيكانيون كلوس باربي أيضاً.

ومقابل مساعدتهم، تلقى الفاتيكان ومؤسسات منوعة مبالغ ضخمة من المال تم ابتزاز معظمها من اليهود الأثرياء لقاء إعفائهم من الترحيل إلى معسكرات الموت. وتشمل إحدى هذه الحالات الجنرال هانز فيشبوك في وحدات الدرع الواقي الذي شغل مع إيخمان والنقيب إريك راجاكوفيتش، النقيب في وحدات الدرع الواقي، مناصب هامة في النمسا بعد ضمّها، وفي هولندا في وقت لاحق. وأظهرت تقارير الحلف المقدس وأجهزة المخابرات الأميركية أن فيشبوك وراجاكوفيتش جمعا ثروات ضخمة على حساب عائلات اليهود الهولنديين الأثرياء مقابل إزالة أسمائهم عن لوائح الترحيل التابعة لوحدات الدرع الواقي. وذهب بعض هذا المال إلى إيخمان، والبعض الآخر إلى فيشبوك وراجاكوفيتش، ولكن حصة الأسد ذهبت إلى حسابات مصرفية في الأرجنتين عن طريق مصارف سويسرية أبرزها مصرف الاتحاد السويسري في زوريخ.

وببعض هذا المال وبمساعدة أوديسا، نجح رجال وحدات الدرع الواقي السابقون بالفرار إلى الأرجنتين. واكتشف جهاز المخابرات البريطانية أم 16 أن ذلك الجزء من الفرار موّله مواطنون سويسريون؛ آرثر ويدركهر، محامٍ قاسي القلب اكتسب حوالى مليوني فرنك سويسري نتيجةً لابتزاز اليهود؛ ووالتر بوشي، وهو شاب أظهر مهارة كبيرة في تسليم "زبائنه" إلى الغستابو بعد أن يدفعوا أموال الفدية. وأظهرت التقارير البريطانية أن بوشي "كان على اتصال بالإدارة البابوية الرومانية وببعض الأفراد المقرَّبين من أجهزة المخابرات البابوية".

لقد حافظ والتر بوشي على صلات بعملاء في الجرماني، وهو القسم الألماني

لشؤون التجسس البابوي، كما نفّذ مهامَّ خاصة لصالح الحلف المقدس. وبوشي "العميل الحر" لجهاز التجسس الفاتيكاني، هو أيضاً صلة وصل سويسرية لحساب الدائرة النقدية التابعة لوحدات الدرع الواقي التي يدير الجنرال هانز فيشبوك شؤونها. وإحدى صفقات بوشي الأكثر درّاً للمال عمله كوسيط لضمان أمن المصرفيّ اليهودي هانز كروخ. وعندما بدأ اضطهاد الجالية اليهودية في برلين، تمكّن الرأسمالي من الفرار إلى هولندا.

وأجرى كروخ اتصالات بوالتر بوشي لدفع فدية لقاء ضمان سلامة عائلته بأكملها. واتصل رجل الأعمال السويسري بأدولف إيخمان شخصياً لطلب جوازات للمرور الآمن، ولكن زوجة كروخ كانت قد اعتُقلت من قِبل الغستابو ونُقلت إلى معسكر الاعتقال في رافنسبروك. عندها، نصح المحامي آرثر ويدركهر كروخ بالفرار إلى سويسرا ومن ثم إلى الأرجنتين مع بناته. وعندما وصل إلى أميركا الجنوبية، أرسل كروخ إلى بوشي وويدركهر لائحة بأسماء الأثرياء اليهود الذين قد يكونون مستعدين لدفع ثروات طائلة لقاء حرية عائلاتهم. وأصبحت مجموعة الأسماء هذه معروفة باسم "لائحة كروخ". ومذاك الحين، عمل بوشي وويدركهر في سويسرا مع إيخمان هانز فيشبوك في ألمانيا لابتزاز مبالغ طائلة من المال على صورة ذهب وفرنكات سويسرية أودعوها حسابات مصرفية عديدة وأرسلوها في وقت لاحق إلى حسابات في مصارف أرجنتينية. وبعد سنوات، موّلت هذه الأموال أعمال فرار مجرمي حرب على درجة من الأهمية إلى أميركا الجنوبية، ولا سيما إلى الأرجنتين، وبوليفيا، والبرازيل، من خلال عملية فاتيكان راتلاين.

وبدأ القادة النازيون بوضع خطط الفرار قبل شهرين من نهاية الحرب العالمية الثانية. وعندما أدرك هاينريش هيملر ضياع كل شيء، قرر إنشاء عملية "في الطريق إلى الخارج" ووضع على رأسها النقيب في وحدات الدرع الواقي أرجنتيني المولد كارلوس فولدنر البالغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً والذي

أصبح بين عامَي 1945 و1950 الرجل الذي ساعد مجرمي الحرب على الفرار من عدالة الحلفاء بعد الحرب. وغدت إسبانيا، والبرتغال، والمغرب، والنمسا، وإيطاليا، ملاذات آمنة للفارين المسافرين بمستندات وهويات مزوّرة؛ كانت أجهزة مخابرات الفاتيكان تُعدّها في غالب الأحيان. وعمل العديد من عملاء الحلف المقدس كمرشدين وحامين لمجرمي الحرب هؤلاء حتى بلوغ الفارين الأماكن المقصودة حيث يكونون خارج متناول العدالة الدولية.

وانطلق كارلوس فولدنر في جولة بعكس اتجاه عقارب الساعة على العواصم الأوروبية، ومنها مدريد وروما. وفي روما، أقام علاقة متينة مع الأب كرونوسلاف دراغانوفيتش، المسؤول الكنسي عن دير القديس جيروم. وأكد دراغانوفيتش لموفد هيملر بأن "منظمته" مستعدة لتقديم المساعدة والملجأ لمسؤولين نازيين رفيعي المنزلة قرروا الفرار إلى أميركا الجنوبية. كما أكد لفولدنر أن في استطاعتهم الاعتماد على حماية ودعم الفاتيكان من خلال الحلف المقدس، وجهاز المخابرات البابوي.

وُلد فولدنر في بوينس آيرس في 16 كانون الأول/ديسمبر 1910 في عائلة من مهاجرين ألمان. وفي العام 1922، قرر والده العودة إلى ألمانيا للاستقرار في مدينة كاسل. وفي أوائل العام 1932، قُبل كارلوس فولدنر في وحدة نُخبوية تابعة لوحدات الدرع الواقي، وكان في الواحدة والعشرين من عمره ويبلغ طوله 5.9 أقدام (1.77 متر).

بعد الحرب، لجأ كارلوس فولدنر إلى مدريد حيث أسس مركز القيادة الجديد لعمله. وفي العاصمة الإسبانية، أقام النقيب السابق في وحدات الدرع الواقي علاقات جيدة مع أعضاء هامّين في الوسط الاجتماعي والفني مثل: غونزالو سيرانو فرنانديز دي فيلافيسنسيو، وفيكونت يوزكويتا، والصحافي فيكتور دي لا سيرنا، والأخوان دومينغين، مصارِعَا الثيران الشهيران. ولإبقاء اجتماعاته سرّية، كان يقيمها في غرف خاصة في مطعم هورشر في كالي ألفونسو الثاني عشر الذي

افتتحه أوتو هورشر عام 1943. في هذا المكان، أجرى فولدنر اتصاله الأول برئيس الأساقفة الأرجنتيني المونسينيور أنطونيو كاغغيانو الذي عيّنه البابا بيوس الثاني عشر كردينالاً بعد فترة وجيزة. وقدِم كاغغيانو برفقة رجلين قال إنهما ينتميان إلى الحلف المقدس، ولا يُعرف اسم أحدهما في حين أن الآخر يُدعى ستيفان غيزان.

وستيفان غيزان كاهن فرنسيسكاني وُلد بالقرب من مدينة بيرن السويسرية. والتقى في معهد اللاهوت حيت تلقى علومه كاهناً كرواتياً عرّفه بدراغانوفيتش. وفي العام 1944، شرع الأب ستيفان غيزان بالعمل مع جهاز المخابرات البابوية، والحلف المقدس. وبعد عملية الإنزال في النورماندي في حزيران/يونيو من ذلك العام، بدأ عمله كصلة وصل لأجهزة المخابرات الفاتيكانية تحت إمرة كرونوسلاف دراغانوفيتش في دير القديس جيروم.

وكان العميل مجهول الهوية صلة وصل بين الحلف المقدس ولجنة المساعدة الحَبرية في فيلا سان فرانسيسكو. واللجنة بقيادة بييترو لويجي مارتن هي دائرة فاتيكانية مسؤولة عن إصدار بطاقات هوية للاجئين. وبعد هزيمة النازيين، طُلب منه تأمين وثائق مزوّرة لعدد كبير من الفارين النازيين. وعمل ثلاثون كاهناً تقريباً في لجنة المساعدة الحَبرية على تزوير أختام المنظمات الدولية التي تقدّم المساعدة للاجئين. وقدِم هؤلاء الكهنة من رهبنات مختلفة، ولكنهم فرنسيسكان في غالبيتهم. وكان الأب غيزان صلة وصل بين منظمات متنوعة في الفاتيكان لمساعدة مجرمي الحرب على الفرار. وتراوحت هذه المساعدة بين إخفاء الفارين وتأمين وثائق مزوّرة، وتغطية تكاليف سفرهم، وتوفير لائحة بالمعارف للاستعانة بهم في أثناء الفرار.

هناك وثائق كما يبدو تُثبت أن دراغانوفيتش لم يكن الرئيس الأساسي لما دُعي عملية الدير. فأحد التقارير الصادرة عن إحدى وكالات التجسس الأميركية يوحي بأن الكردينال أوجين تيسران كان في الواقع الرئيس المنظور لعملية

فاتيكان راتلاين. وجاء في تقرير وليام غوين للعام 1946، وهو عضو جهاز المخابرات العسكرية الإيطالية المضادة:

> قال لي تيسران إنه يعتقد جازماً بوجود تكافؤ فرص بين قيام روسيا بإثارة حرب هذا العام وعدمه. يشعر الكردينال بأن الروس في وضع ملائم لاجتياح أوروبا الغربية... وهي فرصة تدرك روسيا بأنها قد لا تتكرر ثانيةً.

اجتمع المونسينيور كاغيانو والأب ستيفان غيزان بالكردينال تيسران في الفاتيكان لإعلامه بأن "حكومة جمهورية الأرجنتين مستعدة لاستقبال فرنسيين قد يتعرضون للخطر ولتدابير قاسية ولثأر شخصي إذا عادوا إلى فرنسا بسبب موقفهم السياسي في أثناء الحرب الأخيرة". كان تيسران مناهضاً للشيوعية لدرجة أنه كان يشعر بأن الشيوعيين لا يستحقون مراسم دفن مسيحية. وبصورة مماثلة، كان يشعر بأنه من الضروري إعداد مجموعة من الخبراء النازيين المناهضين للشيوعية في أميركا الجنوبية يمكن الاستعانة بهم إذا اندلعت حرب ضد الاتحاد السوفياتي. ومذاك الحين، بدأت سفارة الأرجنتين في روما تتلقى من القوميين الفرنسيين سلسلة متلاحقة من طلبات الحصول على تأشيرات دخول.

وعملاً بأوامر أنطونيو كاغيانو الذي أصبح كردينالاً، حصل مجرمو الحرب الفرنسيون والمتعاونون معهم مثل مارسيل بوشيه، وفرنان دو مونو، وروبير بانسمان، وإميل دواتين، على تأشيرات دخول خاصة إلى الأرجنتين. وكان الأربعة يحملون جوازات سفر ذات أرقام متسلسلة صادرة عن الصليب الأحمر في روما، إضافةً إلى توصيات من الفاتيكان. ووجد الأربعة ملجأً لهم في دير القديس جيروم، وهي المؤسسة التي يدير كرونوسلاف دراغانوفيتش شؤونها وقد "اخترقها" الحلف المقدس وجمعية بيوس.

في غضون ذلك، كانت تُجرى مفاوضات على مستوى عالٍ لبلوغ اتفاق سري

بين البابا بيوس الثاني عشر والرئيس الأرجنتيني خوان دومينغو بيرون. وقال الكردينال جيوفاني-باتيستا مونتيني، البابا بولس السادس المستقبلي، لسفير الأرجنتين في إيطاليا إن بيوس الثاني عشر راغب في إيجاد الطريقة الفضلى لتأمين الهجرة إلى الأرجنتين "على ألا يكون أمر تأمين الهجرة مقتصراً على الإيطاليين فقط". لقد أراد الحَبر الأعظم "أن يكون تقنيو الكرسي الرسولي - أي أعضاء جهاز مخابراته - على اتصال بتقنيي الأرجنتين - أعضاء أوديسا - لوضع خطة عمل". وفهم الدبلوماسي الأرجنتيني أن مصلحة البابا بيوس الثاني عشر تطال أولئك المسجونين في معسكرات الاعتقال التابعة للحلفاء في إيطاليا، مما يعني أنهم نازيون ذوو مراتب رفيعة. وبعد تلقّيه هذه الرغبة من الكردينال مونتيني، اتصل سفير الأرجنتين بوزير العلاقات الخارجية الأرجنتينية في بوينس آيرس طلباً للتوجيهات.

والرجال الذين عُيّنوا ليكونوا صلات وصل بين النازيين والفاتيكان - أي بين فولدنر والأب كرونوسلاف دراغانوفيتش - هم راينهارد كوبس عن الجانب الألماني وجينو مونتي دي فالساسينا عن الحلف المقدس.

كان مونتي دي فالساسينا نبيلاً إيطالياً من أصل كرواتي قد قاتل في صفوف الوفتوافا وانضم بعد ذلك إلى أجهزة المخابرات التابعة لهيملر بعد إصابته بجراح في المعركة. وفي نيسان/إبريل 1945، أسره الإنكليز ووضعوه في معسكر للاعتقال خاص بالنازيين الذين قد يكون لديهم ما يشاطرونه إياهم في مرحلة ما بعد الحرب، سواءً أكانت مجرد معلومات عن الفارين النازيين أو نصيحة تقنية وعلمية تتناول أدوات ومعالجات طُوّرت إبّان نظام هيتلر. وكان الكونت مونتي قد أجرى اتصالاً مع الحلف المقدس في أواخر العام 1944 في أثناء زيارة عائلية له إلى ميلانو حيث أقام صِلات وثيقة بالعديد من أعضاء الإدارة البابوية الرومانية. كان مونتي كاثوليكياً مُخلصاً بالرغم من كل شيء.

وأدخل أحد هؤلاء المعارف مونتي إلى جهاز المخابرات الفاتيكانية، وكان

إكليريكياً مقرّباً من جاسوس البابا بيوس الثاني عشر، روبرت ليبر. وفي أواخر العام 1945، تمكّن مونتي من الفرار من معسكر الاعتقال ولجأ - وفقاً لمعلومات جمعتها المخابرات الأميركية - إلى مؤسسة فاتيكانية قد تكون دير القديس جيروم.

وصل جينو مونتي دي فالساسينا إلى الأرجنتين عن طريق ميناء جنوا بحماية رجال دراغانوفيتش وبمساعدة الأب كارلو بترانوفيتش.

لقد رسا مونتي في الأرجنتين في 4 كانون الثاني/يناير 1947 حاملاً معه شهادة "شخص من دون جنسية" أصدرها الفاتيكان. وبعد سبعة أشهر، أرسله بيرون إلى إسبانيا لتجنيد ألمان يتمتعون بخبرات تقنية. وتراوح المنتفعون من مساعدته بين مجرمي حرب نازيين كالجنرال في الوفتوافا إيكارت كرامر وعملاء تجسس ألمان مثل راينهارد سبيتزي. وفي صيف العام 1947، عاد مونتي إلى الفاتيكان عبر إيطاليا للعمل كصلة وصل في دير القديس جيروم لصالح الحلف المقدس.

كان صلة الوصل الألماني في دير القديس جيروم، راينهارد كوبس، يستخدم الاسم المستعار هانز راشنباخ وجواز سفر زوّده الحلف المقدس به. وتولّى كوبس المولود في مدينة هامبورغ الألمانية في 29 أيلول/سبتمبر 1914 مهمة ترحيل اليهود وإبادتهم في ألبانيا في أثناء الحرب العالمية الثانية، وذلك وفقاً لتحقيق أجراه مركز سيمون ويزنثال، وأدى مهامَّ مماثلة في فرنسا وبلغاريا المحتلّتَين. بعد سقوط آدولف هيتلر، اعتقلت القوات البريطانية المسلحة كوبس، ولكنه فرّ من معسكر الاعتقال وقصد روما. في تلك الأثناء، بدأ الألماني بالعمل لصالح أمانة سر دولة الفاتيكان لشؤون اللاجئين الألمان، وهي دائرة بابوية كان الحلف المقدس يستخدمها كغطاء. وسهّل كوبس الذي شغل منصباً تحت مظلة أجهزة المخابرات البابوية فرار مجرمي الحرب إلى أميركا الجنوبية وأستراليا بصفة خاصة، وذلك حتى العام 1948 عندما قرر القيام بتلك الرحلة بنفسه. لقد أراد الابتعاد أبعد مسافة ممكنة من أوروبا مع ازدياد مطالب

اعتقال النازيين الفارين.

ووفقاً لتقرير صادر عن لجنة توضيح نشاطات النازيين في الأرجنتين، كان راينهارد كوبس/خوان مالر ينتمي إلى جهاز التجسس المضاد التابع للرايخ الثالث في أثناء الحرب، وغدا "مساعداً خاصاً" للأسقف ألويس هودال الموالي للنازيين بعد هزيمة النازيين وفراره إلى روما، وعمل كمصدر معلومات للحلف المقدس في ما يتعلق بالنازيين الفارين الذين لجأوا إلى دير القديس جيروم.

في بوينس آيرس، أصبح راينهارد كوبس (الذي بات يُعرف باسم خوان مالر) مفكراً شديد الحماسة لليمين المتطرف. وشغل منصب المدير الأميركي الجنوبي لأوديسا حتى أوائل الخمسينيات ولحركة النازيين الجدد الدولية منذ أوائل السبعينيات. وفرّ كوبس إلى الأرجنتين إما عبر جنوا بمساعدة الأب كارلو بترانوفيتش والأب إيفان بوكو، وكلاهما من عملاء فاتيكان راتلاين بقيادة دراغانوفيتش الأكثر اعتماداً عليهما، أو عن طريق المغرب بمساعدة عميلة تدعى مارغريت داندوران.

كانت مارغريت داندوران الغامضة والجميلة قد أجرت أول اتصالاتها بالنقيب كارلوس فولدنر من وحدات الدرع الواقي وراينهارد كوبس من خلال دراغانوفيتش. وقبل ذلك، كانت مرتبطة بعمليات للحلف المقدس في برلين في أثناء الحرب وبمبعوث روبرت ليبر، نيكولو إستورزي.

تزوّجت مارغريت، وهي ابنة قاضٍ فرنسي، بالفيكونت بيير داندوران عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها فقط. وفي العام 1918، سافر الزوجان إلى لبنان حيث ادّعيا أنهما تاجرا لؤلؤ. وأجادت مارغا، كما تدعوها صديقاتها، التكلم بالعربية بطلاقة، وكانت لمدة من الزمن مالكة فندق تدمر الفخم في الصحراء السورية، الذي دُعي مؤخراً فندق الملكة زنوبيا إكراماً للملكة البدوية.

وبين عامَي 1918 و1925، دخلت مارغريت داندوران عالم التجسس عن طريق المكتب الثاني، جهاز المخابرات الفرنسي. وعاشت قصة غرام مع عميل

المخابرات البريطاني الشهير العقيد سنكلير الذي وُجد بعد فترة قصيرة ميتاً في دمشق. وبالرغم من اعتبار موته انتحاراً في بادئ الأمر، اشتبهت أجهزة المخابرات الفرنسية والإنكليزية بأن داندوران وجهاز مخابرات القيصر متورّطان بذلك. ولم تظهر الحقيقة أبداً.

في العام 1925، تطلّقت مارغريت داندوران من زوجها وتزوّجت بشيخ وهّابي يدعى سليمان. وتظهر بعض التقارير أنها سمّمت لزوجها الجديد وورثت مقداراً كبيراً من الأرض والمال. إثر ذلك، عادت إلى تدمر حيث تزوجت مجدداً بالفيكونت بيير داندوران عام 1937. وبعد شهرين من الزواج، توفّي الفيكونت جرّاء إصابته بسبع عشرة طعنة، ولم يتم اكتشاف القاتل أو القتلة.

وبدأت الأرملة حياة ترف ورفاهية، متنقّلةً بين نيس والقاهرة برفقة شبان. وفي أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا، نفّذت مارغريت داندوران عدداً من عمليات التجسس لصالح النازيين، ولا سيما المكتب المركزي لأمن الرايخ بقيادة راينهارد هيدريش. وفي الوقت نفسه، أجرت اتصالات بأجهزة المخابرات الفاتيكانية بفضل علاقاتها الجيدة بالقاصد الرسولي في باريس وبالأسقف النمساوي ألويس هودال، إحدى الشخصيات الرئيسية في أوديسا.

في الواقع، لا وجود لدليل قاطع مدعّم بالوثائق حول تعاون داندوران المحتمَل مع الحلف المقدس، ولكن هناك ما يشير إلى تعاونها مع هودال. فبعد الحرب، طلب الكاهن النمساوي من داندوران الانضمام إلى شبكة فاتيكان راتلاين. ورفضت في بادئ الأمر، ولكن عشيقها توفّي مسمَّماً له بعد ذلك. وفي اليوم التالي، اختفت مارغريت داندوران عن وجه الأرض لتظهر مجدداً بعد أشهر على الشاطئ الشمالي للمغرب.

وبوصفها مالكة يخت فخم يدعى دجيلان، كانت داندوران تعبر مضيق جبل طارق على نحو متكرر بين الصخرة ومدينة طنجة. ويقال إن الجاسوسة ساعدت شخصيات نازية هامة على الفرار عبر المغرب في عمليات العبور الغامضة هذه؛

مثل فرانز ستانغل، آمر معسكر الاعتقال تربلينكا؛ أدولف إيخمان، المهندس الأعلى للحل النهائي؛ إريش بريبكه، أحد قادة الغستابو في إيطاليا المسؤول عن مجزرة كهوف أردياتين؛ وراينهارد كوبس الذي أدار عملية نقل اليهود الألبان وإبادتهم خلال الحرب، وطوّر بعد ذلك صلات بالحلف المقدس.

كانت داندوران في الواقع قطعة صغيرة من الآلة الضخمة التي جمعها الفاتيكان وأوديسا لمساعدة مجرمي الحرب النازيين على الفرار عبر طريقَي ما دُعي عملية فاتيكان راتلاين. ويمر الطريق الأول بسويسرا-دير القديس جيروم-جنوا-أميركا الجنوبية، ويمتد الطريق الآخر عبر سويسرا-فرنسا-إسبانيا-جبل طارق-المغرب-أميركا الجنوبية. وفي الطريق الثاني، تمثلت مهمة مارغريت داندوران بنقل الفارين عبر المضيق إلى المغرب حيث يكون باستطاعتهم الصعود على متن سفن شحن متجهة إلى الأرجنتين، الأوروغواي، البرازيل، البيرو، أو التشيلي.

وفي ليلة 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1948، وُجدت جثة داندوران الهامدة طافية في خليج طنجة. فأجرى مركز المخابرات البريطانية في جبل طارق تحقيقاً، ومن ثم اقترح تفسيراً لمقتلها. من المحتمَل أن يكون أفراد من أوديسا قاموا باغتيالها لإغلاق فم امرأة تعرف الكثير عن أماكن وجود هذه الشخصيات النازية الهامة مثل إيخمان، وكوبس، وبريبكه، ومينغل، وفيشبوك. وأصرّت مصادر أخرى خضعت للاستجواب من قِبل البريطانيين والأميركيين على أن داندوران تورطت مع شخص يدعى بونشيني، وهو رجل جميل المظهر، طويل القامة، وداكن البشرة، كانت تقيم علاقة معه. كانا قد شوهدا معاً في حفلات راقصة وفي الكازينو. ومتابَعةً لهذا الاحتمال، أجرى البريطانيون تحقيقاً مع هانز آبيل، وهو عضو سابق في أجهزة مخابرات الرايخ والمخطِّط المفترَض لاغتيال أو "إعدام" الجاسوسة البالغة من العمر سبعة وأربعين عاماً.

ويتمثل الاحتمال الثاني الذي أيّدته أجهزة المخابرات الأميركية بأن القاتل قد

يكون عضواً في جهاز المخابرات الإسرائيلية. ويطرح الباحث ريتشارد ديكون هذا الاحتمال في كتابه جهاز المخابرات الإسرائيلية الذي يتناول تاريخ التجسس الإسرائيلي.

ووفقاً لديكون، علم الأميركيون بأن عميلاً إسرائيلياً مقيماً في طنجة كشف النقاب عن المكيدة التي ساعدت مجرمي الحرب النازيين المتورطين في قتل يهود في أثناء الحرب على الفرار بمساعدة الفاتيكان. وعثر الإسرائيليون على دليلهم في تطوان، في المغرب الإسباني، حيث أمّن إسباني ملاذات آمنة للنازيين الفارين الذين ينتظرون قيام مارغريت داندوران بنقلهم إلى الجانب الآخر على متن يختها دجيلان. وأخبر هذا الإسباني الإسرائيليين بأن داندوران جزء من منظمة أوديسا وتساعد مجرمي الحرب النازيين على الانتقال إلى أميركا الجنوبية. وعندما بلغت هذه المعلومات تل أبيب، صدر أمر بتصفية المتعاونة مع أوديسا.

ووفقاً لهذه الرواية، وصل ثلاثة إسرائيليين في أواخر تشرين الأول/أكتوبر 19 إلى ميناء مغربي على متن سفينة شحن وأقاموا في فندق صغير في طنجة. وبعد ظهر 4 تشرين الثاني/نوفمبر، شاهد أحد العملاء الإسرائيليين دجيلان يدخل الميناء وتتولى مارغريت داندوران قيادته.

في تلك الليلة نفسها، اختفت المرأة والعملاء الإسرائيليون الثلاثة. ووُجدت جثتها طافية في الميناء في الليلة التالية. واشتبهت أجهزة المخابرات الأميركية بأن نظراءهم الإسرائيليين هم من نفّذوا عملية اغتيال عميلة أوديسا.

وطرحت أجهزة المخابرات الفرنسية التي كانت تراقب داندوران سيناريو ثالثاً لمقتلها. فوفقاً للجواسيس الفرنسيين، شوهدت مارغريت داندوران مع رجل "جميل المظهر، طويل القامة، داكن البشرة"، وهو وصف يتلاءم مع أوصاف الأب نيكولو إستورزي، عميل الحلف المقدس المعروف باسم المبعوث. وكان إستورزي قد شوهد قبل أسابيع في القاصدية الرسولية في مدريد حيث نقل

توجيهات كما يبدو من رؤسائه.

وبما أن داندوران كانت منجذبة إلى الرجال، لم يكن إستورزي يجد صعوبة في التواصل معها. ففي الليلة السابقة لموتها، شوهدت الجاسوسة في مطعم مزدحم في طنجة برفقة رجل تلائم أوصافه أوصاف عميل الحلف المقدس. وفي صباح اليوم التالي، اختفى إستورزي ووُجدت جثة داندوران طافية في الميناء وعلى رأسها أثر ضربة عنيفة.

وأوحى تقرير جهاز المخابرات الفرنسي أن المرأة قد تكون "أُعدمت" على يدَي عميل منظمة غامضة أو فرقة تُعرف باسم القتلة على علاقة وثيقة بأجهزة مخابرات الفاتيكان. ووفقاً للمكتب الثاني، قُتلت داندوران لأنها تعرف الكثير عن عملية الدير التي نظّمها الحلف المقدس بالتعاون مع جيمس أنغلتون، رئيس مكتب المخابرات الاستراتيجية، سلف السي آي أيه، في إيطاليا، مما سمح للعديد من مجرمي الحرب النازيين بالفرار إلى أميركا الجنوبية.

وأياً يكن القاتل - سواءً أكان أميركيًّا؛ إسرائيليًّا، أو من جهاز مخابرات الفاتيكان - ستبقى وفاة مارغريت داندوران من أحد أكبر الألغاز المحيّرة التي تدور حول الحلف المقدس. وبعد سنوات، أصبحت أسماء وأماكن تواجد أدولف إيخمان، وراينهارد كوبس، وإريش بريبكه، سلعاً للمقايضة في أثناء مرحلة التعاون الجديد بين أجهزة مخابرات الفاتيكان و"أصدقائهم الإسرائيليين"، الموساد.

وفرار كارل فاورنيت، المعروف أيضاً باسم "مينغل الدانماركي"، هي حالة شهيرة أخرى تورّط فيها الحلف المقدس كونها جزء من عملية الدير. ففي الثلاثينيات، ادعى فاورنيت تطوير علاج يرتكز على ما دُعي "عكس القطبية الهرمونية". ونُشرت نظرياته في صحف الحزب النازي لأن هاينريش هيملر اعتبرها "حلاً نهائياً" لمسألة المثلية الجنسية. وبعد ارتقاء هيتلر إلى سدة الحكم، جُنّد فاورنت في الوحدة الطبية التابعة لوحدات الدرع الواقي التي أسسها جوزيف مينغل.

في العام 1943، وقّع كارل بيتر جينسن، المعروف بكارل فاورنيت، عقداً مع المكتب الرئيسي لأمن الرايخ حوّل فيه حقوقه الحصرية ببراءات الاختراع المتعلقة باكتشافاته إلى وحدات الدرع الواقي ومؤسسة العلاج الألماني مقابل توفير التمويل، والمستلزمات المخبرية، وسجناء من المثليين الجنسيين في معسكرات الاعتقال يمكن استخدامهم كحقول اختبار بشرية. وبدءاً من كانون الثاني/يناير 1944، وضع هيملر المثليين الجنسيين المحتجزين في معسكر بوخنفالد بتصرّف فاورنيت. وأجرى كارل فاورنيت اختبارات على خمسة عشر سجيناً زرع فيهم "غدة جنسية ذكرية اصطناعية" على صورة أنبوب معدني يطلق التيستوستيرون في الأُربية لمدة من الزمن. ونجا سجينان فقط من السجناء الخمسة عشر، في حين قضى الثلاثة عشر الآخرون نحبهم بسبب إصابتهم بالتهابات.

كان عميل للحلف المقدس في كوبنهاغن المحتلة قد رفع تقريراً في أواخر العام 1943 للكرسي الرسولي عن إجراء اختبار محتمَل يمكنه إزالة "داء المثلية الجنسية القاسي" عن وجه الأرض. ويشير تقرير جهاز المخابرات الفاتيكاني إلى الدكتور كارل بيتر جينسن. وفي نهاية الحرب، سجنت القوات البريطانية في الدانمارك فاورنيت. وفي 29 أيار/مايو 1945، قال قائد الحلفاء للاتحاد الطبي الدانماركي إن كارل فاورنيت قد يحاكَم "كمجرم حرب". وفي نهاية ذلك العام، سلّمه البريطانيون إلى جهاز القضاء الدانماركي، ولكنه تمكن من الفرار قبل محاكمته مباشَرةً. كانت حالة الطبيب الذي نجح في إزالة "داء المثلية الجنسية القاسي" قد بلغت مسامع الكردينال أوجين تيسران الذي طلب من أجهزة مخابراته كما يبدو مساعدة العالِم "الفعّال".

ويبدو أن الطبيب السابق في وحدات الدرع الواقي لجأ إلى ستوكهولم وقصد السفارة الأرجنتينية أو القاصدية الرسولية للفاتيكان. ومن السويد، انتقل إلى الأرجنتين بمساعدة أوديسا. وبالرغم من إنكار السلطات الأرجنتينية أي عِلم لها

بوصول كارل فاورنيت، توجد وثيقة تشير إلى ذلك. فالصحافي يوكي غونيي يُظهر في كتابه الأوديسا الحقيقية: تهريب النازيين إلى أرجنتين بيرون أن الملف رقم 11 فُتح باسمه مع ملحق حمل الرقم 3480 ويحتوي على الطلب الذي تقدّم به للحصول على الجنسية الأرجنتينية.

والعقيد في الجيش السويسري، هنري غيزان، هو شخصية أخرى تورطت في إنقاذ النازيين. وكان والده، الجنرال غيزان، قد اتُهم بالتعاطف مع النازيين في أثناء الحرب، ونسيبه الأب ستيفان غيزان، الكاهن وعميل المخابرات الفاتيكانية، هو من رافق الكردينال أنطونيو كاغغيانو للاجتماع بالنقيب السابق في وحدات الدرع الواقي كارلوس فولدنر في مدريد.

وفي الحرب العالمية الثانية، أقام هنري غيزان صلات بالنقيب في وحدات الدرع الواقي ويلهلم إيغن الذي تشمل مسؤولياته شراء الحطب من سويسرا. وبصفته مديراً لشركة أكستروك للألواح الخشبية، حصل غيزان على امتياز تزويد معسكرَي الاعتقال في داخاو وأورانيينبرغ بالمنتجات الخشبية حتى العام 1944. وقام غيزان بتعريف إيغان بروجيه ماسون، رئيس جهاز التجسس السويسري. ومع ذلك، تؤكد بعض المصادر أن ستيفان غيزان، وليس هنري، هو من نظّم هذا اللقاء في قلعة فولفسبورغ. ومن غير الواضح ما إذا كان ستيفان أو هنري قد تعاون مع الحلف المقدس بمفرده. وبطريقة أو بأخرى، أجرى غيزان (سواء أكان هنري أم ستيفان) اتصالات في عامَي 1949 و1950 بأجهزة مخابرات عدد من الدول، بمن فيها الأرجنتين، وذلك لصالح علماء متخصصين في تطوير الصواريخ عملوا مع فيرنر فون براون الذي خدم النازيين في أثناء الحرب وأصبح في ما بعد أحد مؤسسي النازا في الولايات المتحدة.

لم يقدّم (هنري أو ستيفان) غيزان سوى تصاميم لصواريخ في-3، خلَف صواريخ في-2 الشهيرة التي أطلقها هيتلر على لندن. ومع ذلك، لم يكن بيرون ميالاً إلى تكبّد التكلفة الباهظة لمشروع التسلح هذا. فمُرّرت المعلومات لأجهزة

مخابرات الفاتيكان التي أقامت في جنوب أفريقيا حكومة أكثر استعداداً لتكبّد تكلفة فرار العديد من العلماء من المنطقة الألمانية الخاضعة للاحتلال الروسي. وفي نهاية ذلك العام، كانت عملية "الذهب الكرواتي" على وشك الوقوع بين أيدي أجهزة المخابرات التابعة للبابا بيوس الثاني عشر.

لقد أظهرت التحقيقات التي أجرتها أجهزة مخابرات الحلفاء بعد الحرب أن الغنيمة التي حصل عليها قادة أوستاش بلغ مجموعها ثمانين مليون دولار (وفقاً لقيمة الدولار عام 1945) على صورة قطع نقود ذهبية، وحوالى خمسمئة كيلوغرام من السبائك الذهبية، وكميات من الماس تساوي عدة ملايين من الدولارات، ومبلغاً مماثلاً من العملات مؤلّفة في المقام الأول من فرنكات سويسرية ودولارات أميركية. وعندما فرّ هؤلاء القادة، حُمّل "كنز أوستاش" في شاحنتين اتجهتا إلى النمسا بمواكبة عميلين سابقين لقوة أنتي بافليتش الأمنية وثلاثة كهنة قد يكونون عملاء للحلف المقدس. وذهب جزء كبير من هذا الكنز إلى البريطانيين لقاء إطلاق سراح مسؤولين كرواتيين رفيعي المنزلة مثل البوغلافنيكي نفسه، أنتي بافليتش، ووزير خارجيته السابق ستيبان بيريتش.

وبعد طرح حصة البريطانيين من الغنيمة، تبقّى حوالى 350 كيلوغراماً من الذهب وألف ومئة قيراط من الماس. ووفقاً لإحدى نسخات الرواية، فُصل حوالى خمسين كيلوغراماً من سبائك الذهب، ووُضِعت في صندوقين أُرسلا إلى روما. وسافرت هذه الحمولة تحت أنظار الأب كرونوسلاف دراغانوفيتش وعميلين في المخابرات الفاتيكانية. ودُفن الباقي في موقع سري عند الحدود النمساوية، ولكن الجشع تفوّق على الروح الوطنية للكروات الفارين. وعندما أمر بافليتش الجنرال أنتي موسكوف ووزير الاقتصاد الأسبق لافرو يوستيتش بالتنقيب عن الكنز وإيداعه مصرفاً سويسرياً، وجدوا المكان حيث دُفن الكنز فارغاً.

وجاء في تقرير لوحدة مكافحة التجسس في الجيش الأميركي التي تتخذ من

روما مركزاً لها:

> تولّى المقدّم جونسون مسؤولية نقل شاحنتين محمّلتين بما يعود كما هو مفترَض إلى الكنيسة الكاثوليكية القائمة في المنطقة البريطانية من النمسا. ودخلت هاتان الشاحنتان بمواكبة عدد من الكهنة والضابط البريطاني إيطاليا إلى وجهة غير معروفة.

وقدّمت وثيقة أخرى أُرسلت إلى وزارة الخزانة الأميركية ووضعها العميل الأميركي إيمرسن بيغلو المنتمي إلى وحدة التجسس التابعة لوزارة الحرب، الشرح التالي:

> نقل بافليتش ما مجموعه 350 مليون فرنك سويسري من كرواتيا معظمها على صورة عملات نقدية ذهبية. وسُلبت هذه الأموال من الصرب واليهود لدعم منظمة أوستاش في المنفى... وانتهى 200 مليون فرنك سويسري إلى أقبية الفاتيكان بعد تدخل كاهن يدعى دراغانوفيتش وكاهنين آخرين قد يكونون منتمين إلى أجهزة مخابرات الكرسي الرسولي.

وادّعت تقارير أخرى صادرة عن المخابرات الأميركية ووزارة الخزانة الأميركية أن جزءاً من كنز أوستاش الذي وصل إلى الفاتيكان وُزّع على واحد وعشرين حساباً مصرفياً في أربعة مصارف سويسرية. وتولى الأسقف السلوفيني غريغوري روزمان هذه العملية، وهو مناهض متحمس للسامية ومجرم حرب حظي بحماية البابا بيوس الثاني عشر والحلف المقدس بعد الحرب. وطالبت حكومة تيتو تكراراً، والتي مارست الحكم بعد الحرب في يوغوسلافيا، بتسليم غريغوري روزمان، ولكن رفض بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، وبالطبع، الفاتيكان، حال دون إعادته وخضوعه للمحاكمة. فبالنسبة إلى الأميركيين والبريطانيين، إن تسليم مسؤول رفيع المقام في الكنيسة الكاثوليكية لحكومة شيوعية هو أمر غير وارد. ولم يكن للفاتيكان كذلك أي مصلحة بإعادة مسؤول رفيع المنزلة يعرف

الكثير عن عمليات الإدارة البابوية التي لا تمتّ إلى القداسة بصلة والتي جرت بُعيد نهاية الحرب العالمية الثانية.

لقد ذهب روزمان برفقة ثلاثة عملاء للحلف المقدس إلى روما لاهتمام "بالأموال السوداء" التي جمعها الفاتيكان لتمويل عملية الدير. "لجأ العديد من الفارين من معسكر أسرى الحرب في أفراغولا إلى دير القديس جيروم للاختباء فيه. إنه المركز التنظيمي لنقل المجرمين الألمان والكروات إلى بلدان ثالثة"، جاء في تقرير للمخابرات الأميركية. "إن رعاية دراغانوفيتش لهؤلاء الخوَنة الكروات تربطه بشكل قاطع بخطة الفاتيكان المتمثلة بحماية قوميّي أوستاش السابقين حتى يتمّ تدبّر وثائق مناسبة لهم لتمكينهم من الذهاب إلى أميركا الجنوبية. وحاول الفاتيكان إدخالهم خلسةً إلى أميركا الجنوبية بأي وسيلة ممكنة، معتمداً على المشاعر القوية لهؤلاء الرجال لجهة مناهضتهم للشيوعية، وذلك بهدف إيجاد حالة من التوازن مع الانتشار المطّرد للعقيدة الحمراء"، شرح العميل المسؤول عن التحقيق في نشاطات أوستاش في دير القديس جيروم.

ومنذ أيار/مايو 1946، احتمى أنتي بافليتش، وهو مجرم حرب هام فرّ من خلال عملية فاتيكان راتلاين، في كلّية بيو الحَبرية القائمة في الرقم 3 عبر جيواتشينو بيلي في منطقة براتي الرومانية. ونُقل من هناك إلى منزل صغير في مجمّع كاستل غاندولفو السكني، وهو المقر الصيفي للباباوات، حيث كان يلتقي أسبوعياً تقريباً الكردينال مونتيني، البابا المستقبلي بولس السادس. وفي كانون الأول/ديسمبر 1946، انتقل بافليتش إلى دير القديس جيروم. وكان يَجري التخطيط لإرساله إلى الأرجنتين عبر ميناء جنوا بمواكبة الأب إيفان بوكو والأب كارلو بترانوفيتش، ولكن تمّت مقاطعة هذه الخطة بوصول عميلين أميركيين. واستلزم الأمر عزل البوغلافنيكي في دير القديسة سابين لتجنّب اعتقاله.

في نيسان/إبريل 1947، أفاد عميل أميركي تسلل إلى دير القديس جيروم بعدم وجود أي أثر لبافليتش. وفي آب/أغسطس من ذلك العام، سرت شائعات بأن

رؤساء المخابرات البريطانية والأميركية في روما عقدوا اجتماعاً سرياً مع الكردينال مونتيني. وفي أثناء الاجتماع، قال موفد بيوس الثاني عشر إن "أنتي بافليتش كاثوليكي مناضل بنظر الفاتيكان وليس بنظر الحَبر الأعظم، وهو رجل مخطئ ولكنه أخطأ دفاعاً عن الإيمان الكاثوليكي. ولهذا السبب فهو على اتصال بالفاتيكان. لا يمكن نسيان الجرائم التي ارتكبها في الماضي، ولكن لا أحد يمكنه محاكمته باستثناء الكروات الذين يمثّلون حكومة كرواتية مستقلة". بالنسبة إلى الفاتيكان وبيوس الثاني عشر والحلف المقدس، إن أنتي بافليتش مسؤول عن موت حوالى خمسين ألف شخص، ولكن ستالين مسؤول عن وفاة ملايين الأشخاص في أوكرانيا وروسيا البيضاء وبولندا ودول البلطيق، والمارشال تيتو في يوغوسلافيا عميل له.

أخيراً، وفي 11 تشرين الأول/أكتوبر 1948، اتجه قائد أوستاش إلى جنوا وصعد على متن السفينة سيستربيري حيث خُصصت له حجرة من الدرجة الأولى. كان يملك جواز سفر صادراً عن الصليب الأحمر يحمل الرقم 74369 واسم بول أرانيوس، مهندس مجري. وفي تقرير عائد للعام 1950، ادعت السي آي أيه أن عميلين من جهاز المخابرات الفاتيكانية رافقا بافليتش على متن السفينة وبقيا معه طوال العامين التالين بصفتهما حارسيه الشخصيين.

لقد تطلّب الأمر قيام فاتيكان راتلاين القيام بإحدى العمليات المخابراتية الأكبر على مر التاريخ. ولا وجود لدليل قاطع على أن الحلف المقدس نظّم عملية راتلاين أو خطط لها بوصفها عملية منفردة. ومع ذلك، هناك دليل قاطع على أن أعضاء هامّين في الإدارة البابوية الرومانية وعملاء لأجهزة مخابرات الفاتيكان شاركوا في حالات فرار لا تُحصى ولا تُعَدّ لمجرمي حرب إلى دول كانوا فيها خارج متناول العدالة الدولية.

وساعد المونسينيور هاينمان والمونسينيور كارل باير اللذان يعملان مع ألويس هودال على فرار النازيين. وعُيّن هاينمان الذي يحظى باحترام كبير من قِبل

الألمان لتلبية متطلبات المسؤولين النازيين الذين كانوا قد لجأوا إلى كنيسة هودال، سانتاماريا دللا أنيما. وبخلاف هاينمان، كان كارل باير يحظى بتقدير أكبر من قِبل الفارين النازيين. وفي مقابلة صحافية أجرتها معه الكاتبة غيتا سيريني بعد سنوات مرتبطة بكتابها في تلك الظلمة: فحص الضمير، تذكّر المونسينيور باير كيف أنه وهودال ساعدا النازيين بدعم من الفاتيكان: "لقد وفّر البابا (بيوس الثاني عشر) المال بالفعل لهذا الأمر؛ بمقادير قليلة أحياناً، ولكنه كان متوافراً".

وإن إتاحة الاطّلاع على محفوظات الصليب الأحمر العائدة لمرحلة ما بعد الحرب حسمت الجدل القائم في شأن ما إذا حصل مجرمو الحرب النازيون والكروات على مساعدة الفاتيكان أم لا في أثناء فرارهم من العدالة إلى أميركا الجنوبية، وأستراليا، وأفريقيا الجنوبية، وكندا. والجواب واضح تماماً: رسم الكرادلة مونتيني وتيسران وكاغغيانو الطرقات التي يتعيّن سلوكها للفرار؛ وقام أساقفة ورؤساء أساقفة، مثل هودال وسيري وبارير، بالعمل الكتابي لإعداد وثائق وهويات مزوَّرة للقتلة؛ ووقّع كهنة مثل دراغانوفيتش وهاينمان ودوموتر وبوكو وبترانوفيتش، وعديدون آخرون، الطلبات للحصول على جوازات سفر صادرة عن الصليب الأحمر لمجرمين مثل جوزيف مينغل، وإريش بريبكه، وأدولف إيخمان، وهانز فيشبوك، وأنتي بافليتش، وكلوس باربي. هل كان البابا بيوس الثاني عشر مدركاً لعمليتَي الدير وفاتيكان راتلاين؟ هل شاركت أجهزة مخابرات الفاتيكان والحلف المقدس وجمعية بيوس في خطط فرار مجرمي الحرب؟

وفقاً لأرقام دائرة الهجرة الأرجنتينية، وصل حوالى خمسة آلاف كرواتي إلى البلد في السنوات التي تلت الحرب، قدِم ألفان منهم من هامبورغ، وألفان من ميونيخ، وحوالى ألف شخص من إيطاليا، ولا سيما من الفاتيكان.

وفي تقرير صادر عن وزارة الخارجية رُفعت عنه السرّية، كتب المتخصص

البريطاني في شؤون أميركا الجنوبية فيكتور بيروين:

> في ما يتعلق بنشاطات الإكليروس الكاثوليك للمحافظة على اللاجئين اليوغوسلاف ومساعدتهم على الهجرة إلى أميركا الجنوبية، يعتمد الأمر على كيفية نظر المرء إلى هذا العمل: عمل إنساني، أو عمل مشؤوم على الصعيد السياسي. هناك عدد من القادة الفاشيين الثانويين برأيي في سان باولو فووري لو مورا، ومن غير المستحيل أن يكون بعض مجرمي الحرب اليوغوسلاف قد لجأوا إلى دير القديس جيروم لأنه يُعتبر أمراً مألوفاً. من غير المحتمل أن يكون الفاتيكان قد صادق على النشاطات السياسية للأب دراغانوفيتش وشركاه، والمعارِضة للنشاطات الدينية، إلا بقدر ما كان بالإمكان التخلص من شرَكها؛ لأنه وضع يستحيل فيه تقريباً عزل الدين عن السياسة.

وأجاب زميل لبيروين في وزارة الخارجية:

> في حين لا يمكننا إدانة الموقف الخيّر للكنيسة الكاثوليكية من الأفراد المخطئين، نشعر بوجود دليل كافٍ على سماح الفاتيكان بتشجيع منظمة أوستاش سراً وعلانيةً.

هناك تقرير واحد فقط يتناول موقف الحلف المقدس من عمليتَي الدير وفاتيكان راتلاين، ومن الأب كرونوسلاف دراغانوفيتش. فوفقاً لتقرير صادر عن السي آي أيه بتاريخ 24 تموز/يوليو 1952، كان الكردينال بييترو فوماسوني-بيوندي على درجة عالية من الاطّلاع على عمليات الأب دراغانوفيتش وما يدور في دير القديس جيروم. وشعر فوماسوني-بيوندي باستياء كبير من "الأخوية"، وهي المنظمة التي تقدّم العون بقيادة دراغانوفيتش. وفي العام 1952، وبالرغم من قيام رئيس الحلف المقدس بمنع منح أي تأشيرات دخول إضافية إلى الألمان والكروات، استمر الأب كرونوسلاف دراغانوفيتش بمساعدة مجرمي الحرب.

وفي أثناء كل سنوات عملية الدير، أُطلع الكردينال بييترو فوماسوني-بيوندي على كل ما يتعلق بفاتيكان راتلاين، وذلك بفضل الكاهن الفرنسيسكاني دومينيك مانديتش، عميل الجهاز الفاتيكاني للمخابرات المضادة. لقد عمل مانديتش في مطبعة دير القديس جيروم حيث كان يتم إعداد الوثائق المزوّرة لمجرمي الحرب الذين ينعمون بحماية دراغانوفيتش. ولكن الوضع تغيّر إلى حدٍّ كبير في 6 تشرين الأول/أكتوبر 1958 عندما أصيب البابا بيوس الثاني عشر بخُثار دماغي في أثناء وجوده في كاستل غاندولفو. في تلك الليلة، تلقّى الحَبر الأعظم الأسرار الأخيرة، وتوفّي في منتصف ليل التاسع من تشرين الأول/أكتوبر بعد معاناته من سَكَرات الموت لعدة أيام، وهو الذي يعرف أكثر من معظم الناس قدراً كبيراً من أسرار الكنيسة الكاثوليكية. كان في الثانية والثمانين من عمره، وقد دُفن في كنيسة سيدة الفم في فاتيكان غروتوس. وانتهت أيام كرونوسلاف دراغانوفيتش التي نعم فيها بالمجد بعد ذلك بوقت قصير.

وفي تشرين الأول/أكتوبر 1958، علمت السي آي أيه بطرد الكاهن من دير القديس جيروم على عجَل "بأمر واضح من أمانة سر الدولة ومُنع من أخذ أي شيء معه لدى مغادرته. ونفّذ خمسة عملاء للحلف المقدس الأمر الصادر، وكان على رأسهم كاهن يدعى نيكولو إستورزي، المبعوث، تنفيذاً لأوامر صارمة من الكردينال بييترو فوماسوني-بيوندي، رئيس الحلف المقدس.

بعد فقدان نفوذه داخل الفاتيكان، فقد كرونوسلاف دراغانوفيتش العطف الذي كان يحظى به من قِبل أجهزة التجسس الغربية كالسي آي أيه وأم 16، وذلك "لأسباب أمنية". وجاء في تقرير السي آي أيه أن دراغانوفيتش "المعروف بدراغانوفيتش الدموي، والدكتور فابيانو، ودينامو، لا يمكن السيطرة عليه، ولديه اطّلاع واسع على شؤون موظفي الوحدة ونشاطاتهم، ويطلب إتاوةً مالية كبيرة ودعماً أميركياً للمنظمات الكرواتية كدفعة جزئية لقاء تعاونه". وبتبرُّؤ الولايات المتحدة والفاتيكان منه، قرر دراغانوفيتش عام 1967 عبور الحدود

عائداً إلى يوغوسلافيا حيث كرّس نفسه لإصدار بيانات داعمة لتيتو. وهناك ما يشير إلى اختطافه المحتمل من قِبل عملاء يوغوسلاف.

توفّي كرونوسلاف دراغانوفيتش في تموز/يوليو 1983 وكان في حالة من الفقر المُدقع. وأخذ معه إلى القبر أحد أكبر أسرار دولة الفاتيكان؛ العلاقات "الخطرة" بين مجرمي الحرب النازيين والكروات وأجهزة مخابرات الكرسي الرسولي، إضافةً إلى المكاسب المالية من عملية الدير ودورها في فاتيكان راتلاين.

إن حلول بابا جديد حمل معه بعض الهواء النقي الحقيقي كما قال مدير السي آي أيه آنذاك آلن دالس: "إن انتخاب بابا جديد سيحمل معه نسيماً عليلاً إلى قصور الفاتيكان المتحجرة يساعد على تخفيف نسبة الهواء المتعفّن المحيط بالإدارة البابوية السابقة".

قد تثبت صحة هذا التوقّع. وفي 25 تشرين الأول/أكتوبر 1958، انعقد مجمع الكرادلة الذي أدى إلى انتخاب الكردينال أنج-جوزيف رونكاللي. واعتمد الحَبر الأعظم المنتخَب حديثاً والبالغ من العمر سبعة وسبعين عاماً اسم يوحنا الثالث والعشرين. وبزغ عهد وجيز من التفاؤل داخل الفاتيكان. بالنسبة إلى الحلف المقدس، عنى ذلك سنوات قليلة من الهدوء في ظل ولاية حَبرية أبدت اهتماماً أكبر بمسائل الروح أكثر منها بالسياسة والمسائل الأرضية.

الفصل السابع عشر
تحالفات جديدة (1958-1976)

في السنوات الأربع، والأشهر السبعة، والأيام الستة التي أمضاها يوحنا الثالث والعشرون في إدارة شؤون كنيسة روما، لم يقُم الحلف المقدس بأي نشاطات. كان البابا مهتماً بمنح مقابلات رسمية لابنة القائد السوفياتي نيكيتا خروتشيف، رايسا، أو الإعداد للمؤتمر الفاتيكاني الثاني الثوري، أكثر من قلقه حيال شؤون دنيوية وسياسية في الجانب الآخر من الستار الحديدي.

وكرّس الحلف المقدس نفسه لنشر عملاء في دول أوروبا الشرقية نظراً إلى تنامي نفوذ الشيوعية وضراوة الحرب الباردة. من جهتها، قامت جمعية بيوس بعمليات مراقبة وثيقة لشخصيات في الإدارة الرومانية ودوائرهم ممن سيتولون مهمة إطلاق المؤتمر الفاتيكاني الثاني.

وعندما توفّي الكردينال بييترو فوماسوني-بيوندي في 12 تموز/يوليو 1960، وكان مسؤولاً عن جهاز مخابرات الفاتيكان منذ ولاية بيوس الثاني عشر البابوية، قرر الحَبر الأعظم يوحنا الثالث والعشرون عدم تعيين بديل له. كان البابا مؤيداً "لفتح أبواب الفاتيكان للعالم"، مما يعني ضمناً انتهاء العمليات السرية لأجهزة المخابرات.

في أواخر العام 1962، عانى يوحنا الثالث والعشرون من نزيف حادّ كان الدلالة الأولى لمرض خطير. وفي أواخر الشهر، تحسّنت حالته، ولكنه أصيب بالتهاب الصِّفاق ذات ليلة. وفي 3 حزيران/يونيو، توفّي يوحنا الثالث والعشرون تاركاً كرسي القديس بطرس شاغراً. وكان على مجمع الكرادلة الانعقاد ست مرات لانتخاب خلف.

وقبل أيام من تقاعدهم من مجمع الكرادلة، التقت مجموعة من الكرادلة بقيادة جياكومو لركارو من بولونيا في فيلا غروتافراتا التي يملكها أومبرتو أورتولاني. هناك، وفي جُنح الظلام وبحماية عملاء من الحلف المقدس، تباحثت

هذه المجموعة في شأن الكردينال الذي سيقومون بدعمه لدى عقد مجمع الكرادلة لانتخاب بابا جديد. ووقع اختيارهم على جيوفاني-باتيستا مونتيني، رئيس أساقفة ميلانو، الذي كان قد أُبلغ عن الاجتماع في مقرّ الماسونيين الأحرار ذائعي الصيت.

بدأ مجمع الكرادلة أعماله بعد ظهر 19 تموز/يوليو 1963. وبعد يومين، انتُخب الكردينال جيوفاني-باتيستا مونتيني البالغ من العمر خمسةً وستين عاماً بابا في الاقتراع الخامس. وكان القرار الأول للبابا مبادلة أورتولاني الماسوني الضيافة التي تلقاها منه من خلال منحه منزلة "نبيل قداسته".

فالرجل الذي ساعد كرونوسلاف دراغانوفيتش على إنشاء ما دُعي فاتيكان راتلاين، وكان أحد المسؤولين المتمتعين بأعلى المراتب في الإدارة البابوية الرومانية، وأُشرك في عملية الدير، وساعد على فرار مجرمي الحرب النازيين والكروات بعد الحرب العالمية الثانية، أصبح الحَبر الأعظم. واستيقظت أجهزة المخابرات الفاتيكانية، والحلف المقدس، وجمعية بيوس، ثانيةً من سُباتها لتعمل بطاقتها القصوى. وعهد بولس السادس بهذه المهمة الصعبة إلى كاهن بسيط يدعى باسكوال ماتشي كان قد التقى الكردينال مونتيني عندما عُيّن هذا الأخير رئيساً لأساقفة ميلانو. ولم يصبح ماتشي سكرتيره الخاص فحسب، بل أفضل مصدر للمعلومات أيضاً. وبعد اختياره بابا، سلّم بولس السادس أحد أقوى أجهزة المخابرات على وجه الأرض لماتشي. وكان أمام الحلف المقدس سنوات قليلة لإكمال القرن الرابع في العمليات التي أُسندت إليه منذ إنشائه بطلب من المفتش العام الكردينال ميكال غيسليري الذي غدا البابا بيوس الخامس.

وهناك ما يشير إلى أن باسكوال ماتشي هو الرئيس الأساسي لأجهزة التجسس التابعة لدولة الفاتيكان، في حين توحي تقارير أخرى بأنه لم يرتقِ أبداً إلى مستوى إدارة الحلف المقدس بل كان صلة وصل بين الحَبر الأعظم وأحد الكرادلة الذي يدير حقاً أجهزة التجسس. على أي حال، أصبحت ولاية بولس

السادس الحَبرية التي دامت خمسة عشر عاماً إحدى الفترات الأكثر إثماراً لعمليات الحلف المقدس.

وتشير أسماء مثل ميشال سيندونا، وروبرتو كالفي، وبول مارسينكوس، وكارلوس الثعلب، ومنظمة أيلول الأسود، وغولدا مئير، والموساد، إلى بعض الأشخاص والمنظمات الذين شغلوا عملاء التجسس التابعين للكرسي الرسولي في هذه الفترة. ولم يكن العدوّ خارج أسوار الفاتيكان فحسب، بل في داخلها أيضاً؛ والماسونيون الأحرار هم من هؤلاء الأعداء.

إن إحدى عمليات جهاز التجسس الفاتيكاني المضاد الأكثر إثارة للدهشة والذي نفّذتها جمعية بيوس جرت في السنوات الأولى لولاية بولس السادس الحَبرية. فقد كان لموسكو والكيه جي بي مصلحة عليا في دولة الفاتيكان، ولذلك عقدت المخابرات السوفياتية العزم على وضع جاسوس في أعلى مناصب الإدارة البابوية الرومانية بجانب الحَبر الأعظم نفسه.

لقد تلقى أليغييرو توندي علومه في معهد لاهوت تابع لليسوعيين، وأصبح مساعد ومعاون المونسينيور مونتيني بفضل فعاليته. وعندما ارتقى مونتيني سدة البابوية في روما، اصطحب توندي الشاب معه من ميلانو. في الواقع، كان اليسوعي عميلاً سرّياً للكيه جي بي داخل الفاتيكان، وربما أحد العملاء الأكثر نشاطاً.

عندما تخرّج من معهد اللاهوت عام 1936، بدأ توندي بالعمل في دور النشر الكاثوليكية حيث أقام صلات مع مجموعات شيوعية في بادئ الأمر؛ حتى إن الحزب الشيوعي الإيطالي اختاره للدراسة في جامعة لينين في موسكو. وهناك جنّدته المخابرات السوفياتية للعمل داخل الفاتيكان. وتولّى توندي مهامه كعميل سوفياتي عام 1944، وخان كهنة منظمة الروسية الذين أُرسلوا إلى الاتحاد السوفياتي كمبشرين بالإنجيل متخفّين. واحتسب الحلف المقدس في ما بعد 250 فرداً من المنظمة أليغييرو توندي، فأمضى العديد منهمآخر حياتهم

فيسجون التعذيب السوفياتية أم أنهم أُعدموا بتهم التجسس ضد الاتحاد السوفياتي.

في العام 1967، جاء في تقرير عميل تابع لجمعية بيوس أن توندي شوهد في مقهى روماني مع عميل "مفترَض" للكيه جي بي مُلحَق بالسفارة السوفياتية في روما. ومذاك الحين، وُضع الأب أليغييرو توندي تحت مراقبة جهاز المخابرات المضاد من دون معرفة البابا بولس السادس؛ لقد أراد الحلف معرفة مدى اختراق توندي لأمن الفاتيكان. أخيراً، وذات ليلة من ليالي العام 1986، نقل عميل جهاز التجسس المضاد خبراً مفاده أن سكرتير قداسته طلب بعض الوثائق من محفوظات الفاتيكان السرّية. فطُلب على الفور من الكردينال أوجين تيسران، رئيس المحفوظات، تأخير توندي حتى وصول عملاء الحلف المقدس. والملف الذي طلبه أليغييرو توندي يتضمن اتصالات بين بولس السادس وقاصدياته الرسولية في أوروبا الشرقية، في الجانب الآخر من الستار الحديدي. ولو تمكن توندي من الاطّلاع على هذه الاتصالات لتعرّض غطاء عملاء الحلف المقدس وأمنهم في المجر، وبولندا، وتشيكوسلوفاكيا، ورومانيا، للخطر.

وقال توندي لعملاء جهاز التجسس المضاد إن البابا طلب بنفسه هذه الملفات، وإنه سيجيب عن أسئلة بولس السادس فقط بما أنه يتبع أمر البابا. فاقتيد اليسوعي إلى أحد المكاتب حيث بقي طوال الليل بحراسة عميلين أمنيَّين تابعين للفاتيكان. وجرى الاتصال الأول بأمين سر الدولة، الكردينال أمليتو جيوفاني سيكونياني، وأخبره رئيس الحلف المقدس بأمر اعتقال سكرتير البابا بسبب الاشتباه بتجسسه لصالح الاتحاد السوفياتي داخل الفاتيكان. فأعلم سيكونياني الحَبر الأعظم على الفور ناصحاً إياه بتسليم توندي إلى الشرطة الإيطالية لمقاضاته. ولكن جهاز التجسس البابوي حث بولس السادس على طرد توندي من الفاتيكان من دون تقديم أي شرح شريطة ألا يعود أبداً.

في الليلة نفسها، اقتادت مجموعة من الحرس السويسري سكرتير بولس

السادس وعميل الكيه جي بي في الفاتيكان طوال السنوات الأربع والعشرين الماضية، إلى الحدود الفاتيكانية-الإيطالية من دون اصطحاب أي شيء معه باستثناء الملابس التي يرتديها. وأُرسل من هناك إلى روسيا حيث أصبح مستشار القائد السوفياتي ليونيد بريجنيف للشؤون الكنسية.

ولكن السوفيات ليسوا الوحيدين الذين تسللوا إلى الفاتيكان؛ فقد كان للماسونيين جواسيسهم أيضاً. فمنذ أواخر العام 1968، كان جهاز التجسس الفاتيكاني المضاد يجري تحقيقات مع عدد من أعضاء الإدارة البابوية بحثاً عن وجود "تسللات" ماسونية محتمَلة. واستمر التحقيق حتى أوائل العام 1971 عندما استُدعي رئيس جمعية بيوس للمثول أمام البابا. لقد أراد البابا سماع تفاصيل هذه العملية، وكان رئيس الجمعية قد سلّم الحَبر الأعظم ملفاً سميكاً يحمل أسماء، وتواريخ، وأماكن، تُظهر كل الصِّلات القائمة بين الماسونيين الأحرار ودوائر متنوعة في الفاتيكان.

كان الماسونيون القائمون داخل الإدارة البابوية يعلمون أنهم بحاجة إلى أن يكونوا بالقرب من نبض قلب التاريخ، كما قال الكاتب سيزار بافيزي، وتبعوا القول المأثور البسيط "آمن قليلاً من دون أن تصبح مهرطقاً لتطيع قليلاً من دون أن تصبح متمرداً".

وعرض التقرير الذي أعدّه جهاز التجسس البابوي المضاد لمجسّات الأخطبوط الماسوني التي انتشرت في قصور الفاتيكان. لقد مرت سنوات عدة، وقدِم باباوات ورحلوا منذ إصدار إقليمنضس الثاني عشر (12 تموز/يوليو 1730-8 شباط/فبراير) بيانه البابوي بإلقاء الحرم على كل الماسونيين، وحتى نشر المقالة في 19 تشرين الأول/أكتوبر 1974 في مجلة الحضارة الكاثوليكية التي حاول فيها الكاهن اليسوعي جيوفاني كابريلي التخفيف من عملية ربط الكاثوليك بالماسونية. في الحقيقة، منذ جلوس مونتيني على كرسي القديس بطرس، بدأ الماسونيون بالظهور في كل مكان من أروقة الفاتيكان. والأكثر أهمية بين هؤلاء المصرفي

ميشال سيندونا الذي عيّنه البابا مستشاراً مالياً. وبعد سنوات قليلة، عهد بولس السادس بمؤسسة الأعمال الدينية لأربعة ماسونيين: سيندونا، روبرتو كالفي، ليتشيو جيلي، وأومبرتو أورتولاني.

وطلب البابا بنفسه من رئيس جهاز التجسس المضاد إغلاق التحقيق حول الماسونية في الفاتيكان، وأمر بوضع التقرير في المحفوظات السرية.

بعد سنوات، أشار الصحافي بيير كاربي في العام 1987 إلى الادعاء القائل إن كرادلة وأساقفة عديدين كانوا ينتمون إلى محفل الشرق الكبير الماسوني، والذي دعاه المنابر الكنسية المرتبط على نحو وثيق بمحفل إنكلترا المتحد وسيّده الكبير مايكل، دوق كنت. وأظهر تقرير صحافي آخر أن "الماسونية قسمت الفاتيكان إلى ثمانية أقسام تنشط فيها أربعة محافل اسكتلندية طقسية. وينتمي أعضاؤها، وهم مسؤولون رفيعو المنزلة في دولة الفاتيكان الصغيرة، إلى الطقس نفسه، على غرار الأفراد، من دون أن يكونوا معروفين كما يبدو من أحدهم الآخر حتى من خلال إشارة الضغط ثلاث مرات بواسطة الإبهام". ومنذ إصدار بولس السادس الأمر بإقفال التحقيق التي تجريه جمعية بيوس عام 1971، لم يجرِ أي تحقيق إضافي حول المسألة داخل أسوار الفاتيكان.

وتضمنت لائحة جمعية بيوس كرادلة ذائعي الصيت مثل أوغستين بيا، أمين سر الدولة في أثناء ولايات يوحنا الثالث والعشرين وبولس السادس الحَبرية؛ سباستينو باجيو، مديِر مجمع الأساقفة المقدس؛ أغوستينو كازارولي، أمين سر الدولة في أثناء ولاية يوحنا بولس الثاني الحَبرية؛ أخيل ليينار، رئيس أساقفة ليل؛ باسكوال ماتشي، السكرتير الخاص لبولس السادس؛ سالفاتوري بابالاردو، رئيس أساقفة باليرمو؛ ميشال بليغرينو، رئيس أساقفة تورينو؛ أوغو بوليتي، راعي أبرشية روما؛ وجان فيلو، أمين سر الدولة في أثناء ولاية البابا بولس السادس الحَبرية.

وبقي الملف الشهير الذي أعدّه عملاء جهاز التجسس المضاد "مدفوناً" في

محفوظات الفاتيكان السرية، وهو يشير إلى مجسّات الماسونية داخل الفاتيكان.

في أوائل شباط/فبراير 1974، طلب الحَبر الأعظم من رئيسَي الحلف المقدس وجمعية بيوس عقد اجتماع معه في غرفة الطعام الخاصة به. والتقى الرجال الثلاثة لمدة حوالى ثلاث ساعات ونصف، ولم يعلم أحد سواهم بما قيل وكيف قيل، ولكن بولس السادس طلب من مديرَي مخابراته في أثناء الاجتماع وضع ما بات معروفاً باسم "عملية لا أحد ينام" موضع التنفيذ.

وتمثّل هدف هذه العملية بوضع تقرير عام يُظهر متطلبات وعيوب كل دوائر الفاتيكان، ويفصّل الاتهامات الموجَّهة إلى مسؤولي الفاتيكان باعتماد سلوك فاسد. وبالرغم من تكليف الحلف المقدس مهمة التحقيق، عُهد بوضع التقرير النهائي إلى رئيس الأساقفة إدوار غانيون والمونسينيور استفان مستر، رئيس مجمع الإكليروس.

طيلة شهور، قطع عملاء الحلف المقدس كيلومترات وهم يتنقلون في أروقة الفاتيكان سائلين ومستجوبين كل المسؤولين في عدة إدارات بابوية. وفي غضون أسابيع قليلة، كان لدى جواسيس البابا مئات الاتهامات الموجَّهة إلى الأساقفة والكرادلة بالشذوذ والجرائم. وأخيراً، أمضى رئيس اللجنة، المونسينيور غانيون، ثلاثة أشهر في تنظيم كل المعلومات التي جمعها الحلف المقدس. وحمل التقرير الضخم الذي كشف عن النشاطات داخل الإدارة البابوية عنوان لا أحد ينام، وهو العنوان نفسه لعملية الحلف المقدس. وكان عملاء الحلف المقدس وجمعية بيوس يتناوبون على حراسته كل ليلة، في حين أن قوى أخرى عقدت العزم على ألا يصل التقرير أبداً إلى بولس السادس.

عندما انتهى المونسينيور غانيون من كتابة التقرير، طلب من أمانة سر الدولة إجراء مقابلة رسمية مع البابا. لقد أراد غانيون إبلاغ بولس السادس شخصياً بما وقّع عليه عملاء الحلف المقدس. ومرت أسابيع من دون أن يتلقى أي جواب. أخيراً، أجابت أمانة سر الدولة بأنه نظراً إلى الطبيعة الحساسة للمسألة، يُفترض

تسليم الملف إلى مجمع الإكليروس برئاسة الكردينال جون جوزيف رايت حيث يبقى برعاية المونسينيور استفان مستر إلى أن يُستدعى غانيون لعقد اجتماع مع البابا.

لقد تم إخفاء الملف في صندوق ذي أقفال معدنية داخل إحدى الغرف الخاصة بمجمع الإكليروس. وفي صباح 2 حزيران/يونيو 1974، فتح المونسينيور مستر باب هذه الغرفة ووجد كتباً مبعثَرة على الأرض، وأوراقاً في حالة من الفوضى، وصناديق مفتوحة. فاتصل على الفور بالمونسينيور إدوار غانيون الذي اتصل بدوره برئيسَي الحلف المقدس وجمعية بيوس. ولدى وصولهما، وجدا مستر على ركبتَيه أمام الصندوق الذي كان تقرير لا أحد ينام قد وُضع فيه بعد ظهر 30 أيار/مايو. لقد تمّ انتزاع الأقفال من مكانها واختفى التقرير الذي يتضمن التحقيق الكامل. فاستنتج جهاز التجسس المضاد أن اللصوص يمتلكون مفاتيح قسم مجمع الإكليروس لأن أياً من أقفال الباب لم يتم فتحها بالقوة، وأن الدخلاء المجهولين ارتكبوا عملية السرقة في وقت ما من يوم السبت 31 أيار/مايو والأحد 1 حزيران/يونيو.

وعندما علم البابا بولس السادس بأمر الاعتداء، أمر كل من له صلة بالقضية، بمن فيهم عملاء التجسس المشاركون في التحقيق، اعتبار أنفسهم خاضعين لقانون "السرية الحَبرية".

وأبلغ المونسينيور غانيون أمانة سر الدولة بأنه على استعداد لوضع تقرير جديد. والغريب في الأمر أنه طُلب منه تسليم ملاحظاته إلى أمانة السر (كان لا يزال خاضعاً لقانون "السرية الحَبرية") وتعليق أي عمل إضافي حتى تلقّي أوامر جديدة. وتسلّم كاميلو سيبين، رئيس هيئة الحراسة (شرطة الفاتيكان)، التحقيق في شأن السرقة، ولم يتم إشراك أجهزة المخابرات التي جمعت المعلومات في أثناء عملية لا أحد ينام.

كان على سيبين إبلاغ أمانة السر فقط من دون إعداد ملف بتقارير مكتوبة

حول أي جزء من التحقيق. وأمر البابا إبقاء الأمر برمّته طيّ الكتمان، ولكن شائعات عن سرقة ملف سري كانت قد بدأت تسري خارج الفاتيكان وداخله.

وفي يوم الثلاثاء 3 حزيران/يونيو، بدأت الصحافة تورد خبر "قيام لصوص باقتحام غرفة مُحكَمة الإغلاق في مكان ما داخل الفاتيكان، ويُعتقد أن تقريراً أُعدّ نزولاً عند رغبة البابا قد اختفى". ولم يتمكن الدكتور فيديريكو أليساندريني، المتحدث باسم الفاتيكان، من تجنّب أسئلة الصحافيين المتكررة. أخيراً، أوردت الصحيفة الرسمية للكرسي الرسولي، الأوسرفاتوري رومانو، خبر السرقة: "إنها سرقة حقيقية ومُخزية. اقتحم لصوص مجهولون مكتب أحد الأساقفة وسرقوا ملفات من صندوق مُحكم الإغلاق بقفل مزدوج. إنها فضيحة حقيقية"، جاء في المقالة.

في الأيام التالية، طُرد من الفاتيكان أربعة عشر عضواً من الإدارة البابوية كانوا قد تحدّثوا إلى عملاء للحلف المقدس وزوّدوهم بمعلومات عن حالة الفساد المستشري في دوائر مختلفة. وأُرسل خمسة منهم إلى أفريقيا في "مهمة تبشيرية".

وبالرغم من عدم الطلب من المونسينيور غانيون وضع تقرير جديد، أعدّ رجل الدين سراً نسخة بديلة للتقرير المسروق. ولدى انتهائه، طلب ثانيةً إجراء مقابلة رسمية مع البابا بولس السادس، ورُفض طلبه مجدداً. فطلب بعد ذلك من أمانة سر الدولة إرسال التقرير إلى الحَبر الأعظم، ولكن الملف لم يصل إلى هناك. وأخبر شخص ما في أمانة سر الدولة البابا بأنه لم يكن بالإمكان العثور على تقرير لا أحد ينام. وأشارت كل الشائعات التي تتناول وجود مؤامرة إلى الكردينال جان فيلو، أمين سر الدولة السابق وكبير الكرادلة السابق في المكتب الرسولي المعروف باسم "نائب البابا" في الفاتيكان.

أخيراً، طلب المونسينيور إدوار غانيون الإذن بالتقاعد وغادر الكرسي الرسولي إلى وطنه الأم كندا. وفي العام 1983، قام يوحنا بولس الثاني باستدعائه إلى روما،

ورفعه إلى درجة الكردينالية في 25 أيار/مايو 1985.

ولم يُسمع أي شيء آخر عن عملية لا أحد ينام في أروقة الفاتيكان. ولم يقم أي بابا آخر بتكليف الحلف المقدس وجمعية بيوس بإجراء تحقيق مماثل. ولكن أجهزة مخابرات الفاتيكان استمرت بالعمل بأقصى طاقتها في أثناء ولاية بولس السادس الحَبرية، مواجهةً أعداء جُدداً. وأحد هؤلاء الأعداء منظمة أيلول الأسود.

لقد أظهرت "عملية القدس" التي قام بها الحلف المقدس و"عملية الماسّ" التي قام بها الموساد أن جهازَي التجسس يعملان معاً. وأتى هذا التعاون ثماره بعد سنوات قليلة عندما كشف الموساد النقاب عن عملية لاختطاف البابا بولس السادس أو اغتياله؛ كان جهاز المخابرات الإسرائيلية في حالة حرب مع منظمة أيلول الأسود بسبب قتل لاعبين رياضيين إسرائيليين في أثناء الألعاب الأولمبية في ميونيخ عام 1972.

ففي أواخر خريف العام 1972، تلقت رئيسة الوزراء الإسرائيلية غولدا مئير رسالة سرّية من البابا بولس السادس قال فيها إنه يودّ إجراء مقابلة شخصية ووجيزة معها في الفاتيكان. وفي 11 كانون الأول/ديسمبر، اجتمعت مئير بحكومتها وبرئيس الموساد زفي زامير طلباً للنُصح في شأن لقاء الحَبر الأعظم والإجراءات الأمنية المطلوبة.

وأوضحت مئير أنها "لم تكن تريد الذهاب إلى كانوسا"، وهو تعبير إسرائيلي شعبي يُلمح إلى القصر الإيطالي حيث ألحق رأس الإمبراطورية الرومانية هنري الرابع بنفسه العار عام 1077 لدى إعرابه عن توبته في حضرة البابا غريغوريوس السابع.

كان زامير (من خلال الحلف المقدس) ووزارة الخارجية الإسرائيلية (من خلال أمانة سر الدولة) يعرفون أن 15 كانون الثاني/يناير 1973 هو الموعد المحدَّد للاجتماع. وقال الكردينال جان فيلو إن اللقاء سيدوم خمساً وثلاثين دقيقة يليه

تبادل الهدايا. ولن يتبع الاجتماع المقرَّر بين بولس السادس وغولدا مئير جدول أعمال محدَّد، أي أنه بإمكان الجانبين طرح أي موضوع. ولأسباب أمنية، أوكِلَت مهمة المراقبة إلى الموساد بإشراف زامير، وإلى الحلف المقدس. ولن يكون هناك أي تصريح علني في أي حال من الأحوال، سواء قبل الحدث أو بعده، يتناول الاجتماع بين المسؤولَين رفيعَي المقام.

ووفقاً للخطة، تسافر مئير جواً إلى باريس لحضور مؤتمر للاشتراكية الدولية في 13 و14 كانون الثاني/يناير. ومن هناك، تُقلّها طائرة لا تحمل أي علامة مستأجَرة من قِبل خطوط العال الجوية، إلى روما. ولن يعرف معاونو مئير ومرافقوها وجهتهم النهائية حتى إقلاع الطائرة. وبعد لقاء البابا، تسافر مئير إلى ساحل العاج لمدة يومين للاجتماع بالرئيس فيليكس هوفويه-بوانيه، وتعود من هناك إلى إسرائيل.

فقرر زامير الوصول إلى روما قبل أسبوع من الموعد المحدد لإعداد الإجراءات الأمنية وإنشاء قناة اتصال بينه وبين عملاء الحلف المقدس. لقد بدت له المدينة الأزلية منطقة محتمَلة لهجوم إرهابي. ومنذ الاعتداء الذي استهدفت به منظمة أيلول الأسود وفداً إسرائيلياً إلى الألعاب الأولمبية في ميونيخ، أصبحت العاصمة الإيطالية ملتقى لإرهابيين من مختلف الفصائل يبحثون عن معلومات، ولمهرّبي أسلحة يسعون وراء زبائن.

وكانت صلتا الوصل بين الموساد والحلف المقدس مارك هسنر من الجانب الإسرائيلي، والأب كارلو جاكوبيني من جانب الحلف المقدس. وانضم شاي كاولي، عميل جهاز المخابرات في مركز الموساد في ميلانو، إلى هسنر. وفي اجتماع سري، أوجز زفي زامير لجاكوبيني، وكاولي، وهسنر، كل تفاصيل رحلة غولدا مئير للقاء البابا بولس السادس. لم يكن يُسمح بتسرّب أي من هذه المعلومات إلى الخارج كما يبدو تجنّباً لتعرّض القائدة الإسرائيلية لمحاولة اغتيال محتمَلة.

وبعد يوم، أعلم جهاز التجسس الفاتيكاني المضاد جاكوبيني بأن شخصاً ما،

من المحتمَل أنه كاهن مُلحَق بأمانة سر الدولة، مرّر معلومات عن مئير إلى أحد مصادر المعلومات في روما يُعرَف بعلاقاته مع متطرفين.

فحذّر عميل الحلف المقدس زامير الذي اتصل بغولدا مئير شخصياً محاولاً إقناعها بأنه قد يكون من الحكمة بمكان إلغاء زيارة بولس السادس. ولكنه كان على يقين بأن مجرد تهديد لن يُثني رئيسة الوزراء على الفوز باعتراف الفاتيكان بإسرائيل حتى وإن كان يتعيّن عليها المجازفة بالتعرض لمحاولة اغتيال على أيدي إرهابيين. وكان جواب مئير لزامير: "يا رئيس الموساد، يقضي عملك بالحؤول دون حدوث ذلك. لا يمكن إيقاف إسرائيل بمجرد تهديد".

وعيّن الفاتيكان خبيراً إضافياً من وحدة التجسس المضاد، جمعية بيوس، لتوفير الأمن المطلوب للاجتماع. إنه الأب أنجيلو كاسوني الذي اكتشف في الواقع أن خبر الرحلة السرية لغولدا مئير للقاء البابا بولس السادس في الفاتيكان قد يكون بلغ مسامع أبو يوسف. وكان كارلو جاكوبيني من الحلف المقدس وزفي زامير من الموساد يعلمان أن مجموعة إرهابية ما ستظهر عاجلاً أم آجلاً. في الواقع، كان يوسف قد وجّه رسالة إلى علي حسن سلامة، المعروف باسم الأمير الأحمر، وهو القائد الأعلى للمجموعة الفلسطينية أيلول الأسود وللعقول المدبِّرة للعملية التي استهدفت اللاعبين الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ. وجاء في نص هذه الرسالة: "لننل من الذي أراق دمنا فوق أوروبا". والأسلوب الذي يتعيّن اتّباعه والموقع الذي يتعيّن اختياره في محاولة اغتيال مئير رَهن بسلامة. ففي حين يُعتبر اغتيال غولدا مئير إنجازاً كبيراً في سياق القتال الدائر بين الأمير الأحمر والإسرائيليين، يبقى بالنسبة إلى أبو يوسف طريقة رائعة ليُظهر للعالم أن منظمة أيلول الأسود مجموعة إرهابية قوية يجب أخذها في الاعتبار. ومن شأن اغتيال القائدة الإسرائيلية في الفاتيكان أن يدفع باسم هذه المجموعة إلى العناوين الرئيسية لكل وسيلة إعلامية.

في 10 كانون الثاني/يناير، أي قبل خمسة أيام من الاجتماع، دخل رئيس

الموساد زفي زامير، وضابط المخابرات الإسرائيلية مارك هسنر، وشاي كاولي، سيارة سوداء عبرت شوارع روما في اتجاه الفاتيكان. فتأهّب الحرس السويسري عند البوّابة لدى دخول السيارة إلى المنطقة الإدارية للكرسي الرسولي. وعندما ظهر الركاب، قام الأب كارلو جاكوبيني باستقبالهم. واستناداً إلى التقرير الذي وضعه عن جاكوبيني، علم زامير بأن الكاهن تلقى علومه في الولايات المتحدة وحضر عدة مقررات دراسية عن العمل المخابراتي في لانغلي، مقر قيادة السي آي أيه في فرجينيا. وكان عميل الحلف المقدس يجيد ست لغات بطلاقة، ويُعتبر في الفاتيكان "نبيلاً" حقيقياً بسبب صلاته العائلية بالكردينال دومينيكو ماريا جاكوبيني، والكردينال لودوفيكو جاكوبيني (الذي كان أمين سر الدولة إبّان ولاية البابا لاون الثالث عشر الحَبرية)، والكردينال أنجلو جاكوبيني. ومما لا شك فيه أن زفي زامير كان يعرف أن كارلو الشاب مصدراً مفيداً جداً للمعلومات في متاهات الفاتيكان، ولا سيما منذ أن فقد الحلف المقدس الثقة بالسي آي أيه.

ولا يُعرف شيء عن محتوى هذا الاجتماع السري بين الموساد والحلف المقدس داخل الفاتيكان، ولكن زامير غادر راضياً بالتأكيد عمّا سمعه. ولدى عبور ساحة القديس بطرس، أخبر رئيس الموساد سائقه بأنهم ذاهبون إلى المطار للّحاق بالرحلة الجوية المنطلقة إلى تل أبيب.

وباتت "المؤسسة"، وهو الاسم الذي يُعرف به جهاز المخابرات الإسرائيلية، على عِلم بأن علي حسن سلامة أُبلغ بالرحلة الوشيكة لغولدا مئير إلى روما. وبفضل العمل الذي قام به الأب أنجيلو كاسوني، أدركوا أن عليهم الاستعداد لهجوم محتمَل.

كانت المجموعات سابقة الذكر على علاقة مميَّزة بالكيه جي بي. لقد تم تلقينها المبادئ السياسية في موسكو، إضافةً إلى التدرب على تقنيات الاغتيال واستخدام المتفجرات التي وضعتها في وقت لاحق في مراكز التسوق ومباني الوصول والمغادرة في المطارات المزدحمة.

وكان الموساد والحلف المقدس يعلمان أن ليس باستطاعتهما الاعتماد على الكيه جي بي لاكتشاف أي محاولة اعتداء على حياة غولدا مئير تقوم بها منظمة أيلول الأسود. وإذا أرادا منع حدوث ذلك، لا يمكنهما الاعتماد إلا على جهودهما الخاصة.

لم يكن السوفيات ينوون الكشف عن أن رجال حسن سلامة يملكون صواريخ روسية مخبّأة في مبنى صناعي في ميناء يوغوسلافي. وتمثلت الخطة بشحن الصواريخ في مركب صيد من دوبروفنيك إلى باري على بحر الأدرياتيك الإيطالي. ومن هناك، تتجه الصواريخ إلى روما بالشاحنة لتصل في الوقت المحدد قبل غولدا مئير. وواصل زفي زامير والأب كارلو جاكوبيني العمل جنباً إلى جنب لاكتشاف موعد الهجوم وكيفية حدوثه، وكل ما كان بإمكانهم القيام به هو الانتظار.

بدأ الهجوم ضد إسرائيل في 28 كانون الأول/ديسمبر 1972 عندما هاجم فدائيو أيلول الأسود السفارة الإسرائيلية في بانكوك. لقد أراد سلامة تشتيت انتباه الموساد عن عملية روما، وكان شنّ هجوم على البعثة الدبلوماسية اليهودية في مكان بعيد هو الوسيلة لتحقيق ذلك.

وقال أنجيلو كاسوني من وحدة التجسس المضاد الفاتيكانية إن أحد مصادره رفع تقريراً مفاده أن الهجوم الذي قامت به منظمة أيلول الأسود على سفارة إسرائيل في تايلاندا لم يكن سوى خدعة لإلهاء الرأي العام. فلم يصدّقه جاكوبيني بخلاف زامير. كان الموساد يعرف أن باستطاعة الوحدات الخاصة الإسرائيلية تحرير الرهائن هناك، ورفضت غولدا مئير قيام التايلانديين بقطع طريق السفارة عليهم. أخيراً، وبعد ساعات من المفاوضات، مُنح المهاجمون حرية مغادرة البلد إلى مطار القاهرة. ونصح كارلو جاكوبيني بمواصلة الاستعداد لضربة محتمَلة تسدَّد للسياسة الإسرائيلية على أراضي الفاتيكان.

وفي وقت مبكّر جداً من 14 كانون الثاني/يناير، وقبل يوم واحد من الاجتماع

المخطَّط له بين بولس السادس وغولدا مئير، أبلغ عميل في وحدة التجسس المضاد الفاتيكانية أنجيلو كاسوني بأن أحد المُخبرين أخبره بشأن شائعات تتناول حدوث عملية فدائية فلسطينية في أوستيا أو باري. وفي الوقت نفسه، أطلع مُخبرٌ للموساد مركزَ قيادته في السفارة الإسرائيلية في إيطاليا على محادثة قال في أثنائها رجل ذو لكنة عربية واضحة لرجل آخر يتحدث باللكنة نفسها أن ينتظر شحنة من الشموع.

في الوقت نفسه أيضاً، أبلغ مركز الموساد في لندن زفي زامير بأن أحد المُخبرين أشار إلى أن هدف مجموعة أيلول الأسود "اغتيال شخص من اختيارك". وكان رئيس الموساد واثقاً من أن شحنة الشموع ليست سوى صواريخ، ولكنه كان يعلم أيضاً بأن أياً من غولدا مئير أو بولس السادس سيلغي اللقاء.

فاتصل زامير بهسنر وكاولي بينما كان يطلب عقد اجتماع مع الأب جاكوبيني وكاسوني. وكان على أجهزة المخابرات الفاتيكانية البقاء على اطّلاع على كل خطوة في العملية لأنها تملك بالتأكيد مصادر أفضل من مصادر الإسرائيليين في روما.

كان علي حسن سلامة، المعروف بأبو حسن والأمير الأحمر، قاسي القلب وعلى درجة عالية من الثقافة والنشاط. لقد قيل إنه قتل أخاه من زوجة أبيه بطلق ناري في عينه عندما وجده يمرر معلومات لمنظمة التحرير الفلسطينية، فتح، بقيادة ياسر عرفات. وسلامة متزوج بملكة جمال لبنانية تدعى جورجينا رزق حازت على لقب ملكة جمال العالم للعام 1971.

ووفقاً للموساد، فإن الأمير الأحمر هو وراء محاولة اغتيال غولدا مئير، ولكن الحلف المقدس كان يشك في إمكانية تواجد المهاجم الفلسطيني في روما من دون عِلمهم.

بزغ فجر 15 كانون الثاني/يناير، وهو اليوم المحدد للّقاء، بارداً وممطراً. وكان الموساد، والحلف المقدس، والديغو (الوحدة الإيطالية المضادة للإرهاب) على

أُهبة الاستعداد. وكان الأب جاكوبيني على ثقة بأن منظمة أيلول الأسود لن تسمح لمئير بمغادرة روما على قيد الحياة، فأطلع البابا بولس السادس على ذلك. كان زامير وجاكوبيني يعلمان بأن المناطق المجاورة للمطار هي الأماكن الفضلى لتنفيذ الخطة إذا كانت على صورة هجوم صاروخي، وذلك لدى هبوط الطائرة أو إقلاعها. فنشر الموساد والحلف المقدس عملاءهما في المطار والمنطقة المجاورة له لمراقبة أي نشاط مريب.

جاء التنبيه الأول قبل ساعات قليلة من وصول طائرة غولدا مئير. لقد حذّر أحد عملاء جمعية بيوس كان يقوم بمراقبة محيط المطار الأب أنجيلو كاسوني قائلاً إنه رأى سيارة ستايشن، فاقترب منها، وسأل عما إذا كان الركاب بحاجة إلى أي مساعدة. فأجاب الرجال الموجودون في داخلها بعصبية أنهم اتصلوا بشاحنة قَطر. نقل كاسوني هذه المعلومة إلى زامير وهسنر عبر جهاز اللاسلكي، فتوجّها إلى المكان المحدد. وعندما وصلا، وجدا سيارة ستايشن من طراز فيات. فاستلا سلاحيهما وطلبا من السائق الخروج من السيارة والتعريف عن نفسه. وكان كارلو جاكوبيني، عميل أجهزة المخابرات البابوية، يراقب ما يجري من مسافة تقيه مخاطر التطورات المحتمَلة.

في تلك اللحظة، فُتحت البوابة الخلفية للعربة وانطلق وابل من الطلقات النارية. فنجا عملاء الموساد من أي إصابة تاركين وراءهم مهاجمين مصابَين بجروح بالغة، في حين خرّ السائق على الأرض، فقبض عليه العملاء الإسرائيليون ووضعوه داخل سيارة تحمل لوحة الفاتيكان كما يبدو. وجلس هسنر في المقعد بجانب السائق، وإلى جانبه جاكوبيني، في حين جلس زامير في المقعد الخلفي مع المهاجم وضرب رأسه بعقب مسدسه طالباً منه معرفة مكان الصواريخ الأخرى. وعندما لاحت أمامهم الطائرة وهي تقترب من البعيد، شاهد العملاء سيارة ستايشن أخرى بيضاء وقد أُدخلت تعديلات على سطحها الذي خرجت منه عدة أنابيب متجهة نحو السماء.

فانطلق هسنر بأقصى سرعة واصطدم بالسيارة من الجانب مما أدى إلى انقلابها. وفي داخلها، كان هناك عنصران من جماعة أيلول الأسود عالقَين تحت ثِقل الصواريخ. وطلب زامير من الأب جاكوبيني الانصراف ليتمكن من إعدام المهاجمين. ولكن عميل الحلف المقدّس قال لرئيس الموساد إنه إذا قام بقتلهم، لن يكون هناك خيار آخر سوى إطلاع الحَبر الأعظم على الأمر فتجد إسرائيل نفسها في وضع صعب.

وآثر زامير عدم جعل العلاقات المعقّدة بين إسرائيل والفاتيكان أكثر تعقيداً، لذلك سلّم الإرهابيين إلى الديغو الإيطالي.

عقدت غولدا مئير اجتماعها بالبابا بولس السادس. وبالرغم من إبلاغها بأن الوقت غير مناسب لترسيخ العلاقات، تعهّد البابا بزيارة القدس. ولدى مغادرة الفاتيكان، قالت غولدا مئير لزفي زامير إن "ساعة الفاتيكان تشير إلى وقت مختلف عن الوقت المعتمَد من قِبل بقية العالم"، كما هو الحال في الواقع.

ومذاك الحين، حافظ الموساد والحلف المقدس على علاقات وثيقة استمرت حتى ولاية يوحنا بولس الثاني الحَبرية. واستمر الأبوان كارلو جاكوبيني وأنجلو كاسوني، عميلا جهازَي التجسس والتجسس المضاد الفاتيكانية، في العمل كصلتَي وصل مع أجهزة المخابرات الإسرائيلية في السنوات التالية حتى بعد مغادرة جاكوبيني الحلف المقدس. وأُطلق سراح المهاجمين الذين اعتقلهم الإيطاليون وأُرسلوا إلى ليبيا. وبعد أشهر، أُعدم معظمهم على أيدي وحدة كيدون، وهي الذراع العملانية للميتساد الموكّلة مهمة الاغتيال والاختطاف لصالح الموساد. أما بالنسبة إلى هوية الشخص في أمانة سر الدولة الذي قد يكون أبلغ مهاجمي أيلول الأسود برحلة مئير السرية، فقد أشارت شُبهات جمعية بيوس إلى الأب عيدي عياد. وما لم تعرفه الموساد في ذلك الوقت، ولم تعرفه أبداً ربما، هو أن عياد لم يكن عضواً في الحلف المقدس فحسب، بل صلة وصل غير رسمية أيضاً بين البابا بولس السادس وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية.

في غضون ذلك، وفي مكتب ضائع وسط أروقة الفاتيكان التي تمتد مسافة كيلومترات، وضع رجل ختماً على ملف يحمل لصاقة "عملية القدس" وأمر بدفنها في محفوظات الفاتيكان السرية، وهو قسم من مكتبة الفاتيكان. بالنسبة إلى العالم، إن العملية التي هدفت إلى إنقاذ حياة غولدا مئير لم تكن موجودة أبداً. ولكن الموساد لن ينسى أبداً أن رئيسة وزراء إسرائيل ما زالت على قيد الحياة بفضل الحلف المقدس.

وبعد ثلاث سنوات، قام الموساد بمبادلة المعروف. لقد حانت الفرصة في نيسان/إبريل 1976.

في 25 كانون الأول/ديسمبر 1971، كان كارلوس الثعلب قد نفّذ عملية ضد ممثّلي أوبيك في فيينا. ومذاك الحين، دخل في مواجهة مفتوحة مع المجموعات الفلسطينية التي كانت تقدّم له العون في السابق. فبالنسبة إليها، كان كارلوس مجرد مرتزق جمع قدراً كبيراً من المال "أنفقه على الرفاهيات البورجوازية". لقد حصل كارلوس وشركاؤه على حوالى عشرين مليون دولار من الفدية التي دفعها السعوديون لقاء تحرير ممثّلهم في أوبيك الشيخ أحمد زكي يماني.

فطلب وديع حداد، قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، من كارلوس الحصول على جزء من هذا المال، ولكن الثعلب رفض. لم يُسَرّ حداد، الفدائي الملتزم، بالاهتمام الذي حظي به كارلوس لا سيّما وأنه كان بالنسبة إليه مجرد "ممثل سيّئ يريد أن يصبح نجماً سينمائياً". وبعد العملية التي استهدفت أوبيك في فيينا، انتقل كارلوس والمتحالفون معه إلى الجزائر ومن ثمّ إلى اليمن حيث استُقبلوا استقبال الأبطال ورحّبت بهم فرقة موسيقية. واستمرت أسطورة كارلوس الثعلب بالنموّ.

وفي صباح أحد أيام أواخر آذار/مارس 1976، رنّ الهاتف في أحد الأقسام الإدارية في الفاتيكان. فأجاب أحد الكهنة، وكان على الجانب الآخر من الخط متحدث عرّف بنفسه بأنه إسحق حوفي، الرئيس الجديد للموساد الذي حل

مكان زفي زامير قبل عامَين. فقال حوفي للكاهن إنه بحاجة إلى عقد اجتماع في مكان آمن.

بعد ظهر ذلك اليوم، توجّه الكاهن مشياً إلى فندق في وسط المدينة روما. وعندما عرّف الكاهن بنفسه، اصطحبه رجلان إلى غرفة الضيوف حيث كان إسحق حوفي بانتظاره جالساً على كرسيّ. وجلس الوافد الجديد أيضاً، وأخبره رئيس الجواسيس الإسرائيلي بأن الوقت قد حان لمبادلة المعروف الذي قدّمه الحلف المقدس عندما ساعد على إنقاذ حياة غولدا مئير في كانون الثاني/يناير 1973.

فأجاب الأب كارلو جاكوبيني قائلاً إن في إمكانه تعريف الإسرائيليين إلى شخص ما في جهاز التجسس البابوي لأنه لم يعُد يعمل لصالح الحلف المقدس. فرفض حوفي ذلك العرض، مشيراً إلى الأوامر الصادرة عن سلفه زفي زامير والتي تقضي بالعمل مع جاكوبيني فقط. وقبل سماع المعلومات المنقولة عن الموساد، أجاب جاكوبيني بأنه يتعيّن عليه الحصول على أمر خاص من الفاتيكان. فكرر حوفي بأنه لا يستطيع التعامل إلا مع جاكوبيني أو مع أنجلو كاسوني من جهاز التجسس الفاتيكاني المضاد.

فبدّل إسحق حوفي كرسيّه وأخبر جاكوبيني بأن أحد مراكز الموساد كشف النقاب عن خطة وضعتها مجموعة إرهابية لاختطاف البابا بولس السادس أو اغتياله. وشرح الإسرائيلي أن ضابط مخابرات الموساد التابع له واثق من أن المخطِّط للعملية هو كارلوس الثعلب. فجرى دم بارد في عروق جاكوبيني لأنه علم من تقارير الحلف المقدس بأن كارلوس نادراً ما يفشل في تحقيق أهدافه، وإن فشل فهو يخلّف وراءه الدم والموت على الدوام.

في الواقع، لم يكن مصدر معلومات حوفي مركزاً للموساد بل مُلحَقاً سياسياً في السفارة الأميركية في طهران، جون دي. ستمبل. كان هذا الدبلوماسي قد أبلغ السي آي أيه بأنه في أثناء اجتماعه بالسكرتير الثاني للسفارة السوفياتية في إيران،

غينادي كازانكين، أخبره هذا الأخير بأن الكيه جي بي اكتشفت خطة محتمَلة لاختطاف البابا بولس السادس أو اغتياله، وأن عدداً من أعضاء عصابة بادر-ماينهوف الذين اشتركوا مع كارلوس الثعلب بعملية اختطاف ممثّلي أوبيك في فيينا قد يكونون متورطين في الأمر. وأنهى حوفي تقريره الموجَز لكارلو جاكوبيني واعداً الحلف المقدس بأن يقوم الموساد بكل مساعدة ممكنة لإحباط هذه الخطة.

ولدى انتهاء الاجتماع، استقل الكاهن سيارة أجرة إلى الفاتيكان، وكان يفكر في ما سمع وبحاجة إلى مشاطرة شخص ما بالمعلومات. وعندما عبر بوابة الفاتيكان، توجّه إلى مكاتب أجهزة المخابرات البابوية، وقال إنه بحاجة ماسّة إلى التحدث إلى صديقه الأب أنجلو كاسوني. وفي الساعتين اللتين أمضياهما معاً، أطلع جاكوبيني كاسوني على ما أخبره به رئيس الموساد.

وتمحورت فكرة كارلوس حول خطتين محتملَتين تقضي أولاهما بالسيطرة على باسيلكا القديس بطرس من خلال اقتحامها في أثناء احتفال الحَبر الأعظم بالقداس الإلهي. وتتمثل الثانية بقيام القناصة بإطلاق النار على بولس السادس عندما يظهر على شرفته المُطلّة على الساحة ليرحّب بالمؤمنين يوم الأحد. كانت الفكرة الأولى موضع دراسة طوال عدة أسابيع نظراً إلى نجاح هذا التكتيك لدى اختطاف ممثّلي أوبيك في فيينا. وخامر الثعلب الشك بأن هذه المجموعة ستقابَل بمقاومة شديدة من قِبل الحرس السويسري وإن كانوا مسلَّحين بالحِراب ورِماح الطَبَر.

وحظي الخيار الثاني بتأييد ويلفريد بوز، وهو فوضوي ألماني وصديق لكارلوس الثعلب، وغابريال كروش-تيدمن، وهو شاب في الثالثة والعشرين من العمر شارك في عملية فيينا إلى جانب كارلوس في العام الأسبق. واعتبر بوز أنه سيكون من السهل حمل بندقية من عيار ثقيل مزوَّدة بمنظار تلسكوبي للتسديد واستخدامها ضد "هدف غير متحرك يرتدي ثوباً أبيض". لقد أُعجب كروش-

تيدمن بالخطة لأن قتل الحَبر الأعظم لدى مباركة المؤمنين المجتمعين في ساحة القديس بطرس، وبمرأى من كاميرات تلفزيونية من مختلف أنحاء العالم، سيوفّر لكارلوس الثعلب أكبر دعاية حظي بها مهاجم يوماً.

كان الحلف المقدس في سباق مع الزمن للحؤول دون وقوع الكارثة الوشيكة بالتعاون مع الموساد. وكان جاكوبيني بحاجة إلى مزيد من المعلومات، لذلك اتصل بحوفي شخصياً. ووعد رئيس الموساد بإرسال نسخات عن ملفات الرجال والنساء الذين رافقوا كارلوس في كل عملياته. وفي اليوم التالي، ظهرت على مكتب الأب أنجلو كاسوني كومة من الملفات تحمل أختاماً. ومرّت أمام عينيه صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود لجثث ووجوه التُقطت عن بُعد بعدسات آلات تصوير الجواسيس.

بعد مدة وجيزة، تلقى جاكوبيني وكاسوني رسالة أخرى من الموساد جاء فيها أن ويلفريد بوز وغابريال كروش-تيدمن شوهدا في البحرين، وشوهد كارلوس راميريز في اليمن. حتى ذلك الوقت، لم يكن عميلا الفاتيكان وأيضاً إسحق حوفي يعلمون بأن منظمة الثعلب قررت تبديل هدفها. فاختطاف أو قتل بولس السادس لم يعد يهمّ كارلوس راميريز. لقد قرر عوضاً عن ذلك، وفي نزوة عابرة، اختطاف طائرة نفاثة تابعة للخطوط الجوية الفرنسية تقوم بالرحلة أيه أف 139 بين تل أبيب وباريس مع توقف في أثينا.

لقد اكتسبت هذه الطائرة شهرة عالمية في 4 تموز/يوليو 1976 عندما اقتحمت فرقة من المغاوير الإسرائيليين وأفراد من وحدة كيدون التابعة للموساد الطائرة وحرروا الركاب الرهائن في عملية خاطفة في مطار عنتيبيد الأوغاندي. وفي أثناء تبادل لإطلاق النار في مدارج الطائرات ومبنى المطار، قُتل ويلفريد بوز وغابريال كروش-تيدمن وخمسة إرهابيين آخرين برصاص الإسرائيليين.

وبعد أيام قليلة من عملية عنتيبيد، تلقى الأب كارلو جاكوبيني اتصالاً هاتفياً من حوفي الذي أخبره عن الإرهابيين القتلى وأكد له أن "الأزمة التي تتناول

بولس السادس قد انتهت". وفي 22 كانون الثاني/يناير 1979، اكتشف الموساد أخيراً مكان إقامة علي حسن سلامة، القائد الأعلى لمجموعة أيلول الأسود والمعروف بالأمير الأحمر، في بيروت. وقتلت متفجّرة يتم التحكم بها عن بُعد سلامة، وكان قد زرعها ضابط مخابرات الموساد إريكا شامبرز التابع لوحدة كيدون، الذراع المنفّذة للموساد. وقتلت المتفجّرة أيضاً أربعة من حرّاسه الشخصيين، والعديد من المارّين، وسوزان ويرهام، إحدى السكرتيرات في السفارة البريطانية في لبنان.

وجاء في بعض الشائعات أنه تم تتبّع أثر سلامة في العاصمة اللبنانية بفضل أجهزة المخابرات الفاتيكانية وتسريب معلومات للسي آي أيه كان عميل للحلف المقدس أو جمعية بيوس قد جمعها ومرّرها لرئيس الموساد إسحق حوفي. ومن المحتمَل أن يكون ذلك العميل كارلو جاكوبيني أو أنجلو كاسوني. ولكن على غرار أي شيء آخر في الفاتيكان وأجهزة مخابراته، "كل ما ليس مقدَّساً يبقى سراً".

أصبح بول كازيمير مارسينكوس، وميشال سيندونا، وروبرتو كالفي الشخصيات الرئيسية في إحدى أكبر الفضائح في تاريخ الكرسي الرسولي؛ كان انهيار مصرف الفاتيكان على وشك التسبب بصدمة للعالم. وأظهرت التحقيقات اللاحقة التي أُجريت مع مؤسسات مالية وفي محاكم في الولايات المتحدة وإيطاليا، إضافةً إلى ما ذكره كتّاب من دول عدة في كتبهم، أنه وبالرغم من عدم تورّط الحلف المقدس مباشَرةً ورسمياً بالأعمال المشبوهة التي قام بها مصرف الفاتيكان برئاسة المونسينيور بول مارسينكوس، فإن بعض عملائه شاركوا في بعض العمليات. وبالنسبة إلى العديدين منهم، إن الدفاع عن "شركات الفاتيكان" هي مسألة ولاء للحَبر الأعظم.

الفصل الثامن عشر
شركة الفاتيكان... (1976-1978)

على غرار أجهزة التجسس الفاتيكانية، يبقى مصرف الفاتيكان من الدوائر البابوية التي تلفّها السرية أكثر من سواها. فبدخول الفاتيكان عبر بوابة القديسة حنّة، ومروراً بالجهة اليمنى لأعمدة برنيني حيث كنيسة القديسة حنّة إلى اليمين وثكنات الحرس السويسري إلى اليسار، يمكن مشاهدة المبنى الذي يأوي مصرف الفاتيكان. لقد بني البرج نزولاً عند طلب البابا نقولا الخامس منذ حوالى 650 عاماً تقريباً ليكون جزءاً من النظام الدفاعي للكرسي الرسولي. واليوم، تقف مجموعة صغيرة فقط من الحرس السويسري عند مدخله الرخامي وأبوابه البرونزية مُحكمة الإغلاق التي لا يمكن فتحها إلا من قِبل أفراد محدَّدين في الإدارة البابوية.

كان مصرف الفاتيكان مصدر عدد لا يُحصى ولا يُعَدّ من الفضائح وقد مُني بخسائر تقدَّر بملايين الدولارات، وتورّط بحالات إفلاس، وبمبيعات أسلحة لأمم متحاربة، وشركات وهميّة قائمة في فردوسات مالية، وانقلابات مالية، وتبييض أموال المافيا، و"انتحارات" غامضة. لقد انتهك مصرف الفاتيكان مئات القوانين المالية الدولية من دون توجيه تُهَم إلى أيّ من مديريه أمام محاكم مدنية. ومنذ إنشائه، لم يكن المصرف أبداً دائرة رسمية في الفاتيكان المدينة-الدولة. إنه كيان قائم بحد ذاته من دون أي صلات واضحة له بالشؤون الكنسية أو بدوائر أخرى في الكرسي الرسولي، ويبقى الإشراف عليه ومراقبته بين يدَي الحَبر الأعظم.

وبخلاف مؤسسات مالية دولية أخرى، لا يخضع مصرف الفاتيكان للتدقيق من قِبل أي وكالة داخلية أو خارجية، ولا وجود لسجلات مكتوبة عن عملياته. فعلى سبيل المثال، وفي العام 1996، أخبر الكردينال إدموند زوكا، المدقق الخارجي للكرسي الرسولي، عدة محققين بأن لا سلطة له على مصرف الفاتيكان، مضيفاً أنه يجهل كلّياً نشاطاته وأعماله.

وفي العام 1990، أعلنت دولة الفاتيكان عن عجز بلغ 78 مليون دولار، في حين "أعلن" مصرف الفاتيكان في ذلك العام نفسه، وبشكل غير رسمي، عن مداخيل فاقت 10 بلايين دولار.

في العام 1967، أنشأ البابا بولس السادس مكتباً للمحاسبة العامة يدعى مديرية الشؤون الاقتصادية للكرسي الرسولي. وعيّن الحَبر الأعظم صديقه الكردينال إيغيديو فانيوزي مديراً، غير أنه استقال بعد أشهر قليلة. لقد علِم كما يبدو بالعلاقات الغريبة القائمة بين البابا والمدعوّ مصرفيّ المافيا ميشال سيندونا. والغريب في الأمر أن فانيوزي مُنع من التحدث عن المديرية أو أي شيء متعلّق بها وفقاً لقواعد "السرّية الحَبرية" الشهيرة.

فأسبوعاً تِلو أسبوع، اكتشف المدير الأسبق وجود ملايين الدولارات مجهولة المصدر مودَعة من دون أي تفسير في أقبية مصرف الفاتيكان. وكما دخلت الأموال بسرعة، خرجت بسرعة أيضاً من الباب الخلفي إلى عدد من الحسابات المصرفية السويسرية وإلى شركات تنتمي إلى مجموعة سيندونا. وكان بالإمكان استخدام تلك الأموال لتمويل أعمال شغب وانقلابات، على غرار الانقلاب الذي جرى في اليونان في نيسان/إبريل 1967.

لقد صبّ المحفل الماسوني بروباغاندا 2 الذي تربطه بالفاتيكان وبأجهزته المخابراتية صلات وثيقة اهتمامه على الانتخابات اليونانية التالية. وكان الفائز المحتمَل الزعيم اليساري أندرياس باباندريو، وهو العدوّ السياسي لقسطنطين الثاني، الملك الذي يرأس القوات المسلحة. وأظهرت صناديق الاقتراع تقدّم باباندريو، ولكن القوات المسلحة خشيت من أن يقوم بتسليم البلد إلى الشيوعيين. فاعتبر العقيد بابادوبولوس أن نتيجة ذلك ستكون حرباً أهلية.

في أواخر ذلك العام، حوّل مصرف إيللينويس القاري التابع لسيندونا أربعة ملايين دولار للمصرف المالي الخاص الذي يدور في فلك الفاتيكان. ولدى وصول المال، عيّن سيندونا بنفسه عميلاً للحلف المقدس للاهتمام بالأموال وتسليمها إلى

العقيد بابادوبولوس شخصياً. وكان يتعيّن إيداع المال في حساب باسم هيلينيك تكنيك، وهي مؤسسة عقارات يديرها الجيش اليوناني ويكفلها المصرف الوطني اليوناني.

وقرر الحلف المقدس مع ميشال سيندونا وليتشيو جيلي وبروباغاندا 2 تمويل الانقلاب لإبقاء اليسار خارج الحكم. ويختلف الباحثون في الرأي حول ما إذا كانت أجهزة المخابرات الفاتيكانية أداةً فحسب في أيدي جيلي وسيندونا، أم أن الحلف المقدس هو الذي خطط في الواقع "لعملية تاتوا" وأن جيلي وسيندونا كانا مصدرَين للمال ببساطة.

في كلتا الحالتين، قامت مجموعة من العقداء بانقلاب في 21 نيسان/إبريل وفرضت القانون العُرفي. فعلّقوا الدستور وقمعوا الحركات الديمقراطية بشدة، ولا سيما اتحادات العمال والمؤسسات الشيوعية. وحُكم على الزعيم الاشتراكي أندرياس باباندريو بالسجن لمدة تسع سنوات.

وفي كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام، حاول الملك قسطنطين الإطاحة بالطغمة الحاكمة، ولكنه أخفق في ذلك. فانتقل وعائلته إلى المنفى في روما. وعيّن الضباط الجنرال زويتاكيس رئيساً وبابادوبولوس رئيساً للوزراء. واستمر "نظام العقداء" في تلقي المعونات من الولايات المتحدة، كما بات معروفاً، ومن المحفل الماسوني بروباغاندا 2، ومن رجال أعمال يونانيين أثرياء مثل أريستوتل أوناسيس وستافروس نياركوس.

وحثّ هذا النجاح المحقَّق في اليونان ميشال سيندونا على تمويل المجموعات اليمينية المتطرفة، واستعان لهذه الغاية بأموال الفاتيكان التي تمر عبر بنية أنشأها داخل مصرف الفاتيكان، كما استعان بعملاء للحلف المقدس. وبعد سنوات قليلة، ظهر بول كازيمير مارسينكوس الغامض بالتعاون مع أجهزة المخابرات الفاتيكانية كما يبدو.

وُلد مارسينكوس في ضواحي شيكاغو عام 1922، وارتاد معهداً للاهوت في

الولايات المتحدة، وتسجّل بعد ذلك في الجامعة الغريغورية في روما لدراسة القانون الكنسي. وفي العام 1952، انضم مارسينكوس إلى أمانة سر الدولة وأُسندت إليه مهامّ في القاصديّتين الرسوليتين في كندا وبوليفيا. أخيراً، أصبح رئيس الأمن للبابا بولس السادس. وفي أثناء وجوده في أمانة سر الدولة، أقام مارسينكوس صلات وثيقة بأجهزة المخابرات الفاتيكانية بصورة عامة، وبأفراد على درجة من الأهمية في الحلف المقدس بصفة خاصة، قدّموا مساعدة قيّمة في السنوات التالية. واليسوعي البولندي كازيميرز برزيداتيك هو أحد هؤلاء الأشخاص، وقد تورّط بفضيحة بنكو أمبروزيانو.

في العام 1969، رفع البابا بولس السادس مارسينكوس إلى درجة الأسقفية، وعُيّن في صباح اليوم التالي أمين سر لمصرف الفاتيكان. وبعد عامين، كافأ بولس السادس بول مارسينكوس، وبشكل غير متوقّع، بسبب إخلاصه وعيّنه المدير الأعلى للمصرف مستهلاً نجاحه الباهر والفجائي في مهنته المالية. وضمّت المجموعة المقرَّبة منه ميشال سيندونا، روبرتو كالفي، أومبرتو أورتولاني، وليتشيو جيلي، الذين تربطهم علاقات بعائلة غامبينو المافياوية، والمحفل الماسوني بروباغاندا 2، والبنية المالية الفاتيكانية.

لقد استخدم مارسينكوس الحلف المقدس كمصدر معلومات مخابراتية خاص به. وأظهر أحد تقارير جهاز المخابرات الفاتيكانية، وكان مارسينكوس قد اطّلع عليه، أن سيندونا قد موّل شركة قابضة في ليختنشتاين تدعى فاسكو أيه جي (بأموال الفاتيكان ربما)، واكتسب من خلالها مصرفاً في ميلانو هو مصرف التمويل الخاص. ولم يُشر التقرير إلى أن بعض الإيرادات الناجمة عن هذا الاكتساب موّلت بناء كازا ديلا مادونينا. لقد كان مونتيني، رئيس أساقفة ميلانو، كردينالاً آنذاك وبحاجة إلى المال، فقام سيندونا بتزويده به. وككل، أضيف مليونان ونصف مليون دولار إلى الموارد المالية لرئيس الأساقفة لتغطية نفقات المؤسسة الدينية.

وعلِم مارسينكوس بعد سنوات أن مصدر هذه الأموال ليس اكتساب مصرف التمويل الخاص، بل تبييض أموال المافيا الصقلية، ولا سيما الأرباح الناجمة عن بيع الهيرويين في أنحاء العالم. على أي حال، ومذاك الحين، حصل سيندونا من خلال الكردينال مونتيني على لائحة مثيرة للدهشة من الزبائن الذين قدّم لهم النُصح في شأن الضرائب، والاستثمارات، والتهرّب من دفع الضرائب.

وشيئاً فشيئاً، أصبحت الصفقات التجارية لمصرف الفاتيكان و"مستشاريه" محفوفة بالمخاطر أكثر فأكثر، واضعةً مؤسسات مالية متنوّعة في ضائقة شديدة، ومعرّضةً الأنظمة الاقتصادية للفاتيكان وإيطاليا للخطر. ويورد تقرير للسي آي أيه وقع بين أيدي الحلف المقدس ويعود إلى تلك السنوات، العلاقات الواسعة التي كان يقيمها مارسينكوس مع عائلة غامبينو في الولايات المتحدة، ومع عائلتَي إنتسيريللو وسباتولا في صقلية. ويشرح هذا الملف المكوّن من عشرين صفحة صلة كارلو غامبينو بعائلات كولومبو، وبونانو، ولوتشيزي، وسباتولا، وكلها متورّطة في تصنيع الهيرويين والكوكايين والماريوانا والإتجار بها. وجاء في التقرير أن سيندونا كان مسؤولاً عن إخفاء أي أثر لنشاطاتهم في ما يتعلق بالمخدرات، والبغاء، والخداع المصرفي، والأعمال الإباحية، والأرباح الناتجة منأأ الاحتيال على القروض والموضوعة في حسابات مصرفية سرية في سويسرا وليشتنشتاين وبيروت. باختصار، كان ميشال سيندونا مستشاراً مالياً لا للبابا بولس السادس والفاتيكان فحسب، بل للعائلات المافياوية أيضاً. لقد أمر مارسينكوس كما يبدو بإتلاف هذا التقرير الذي وضعته السي آي أيه عن المصرف. وبعد سنوات، ذكّر رئيس مصرف الفاتيكان سيندونا بالأمر وذلك قبل سقوطه بفترة قصيرة.

في غضون ذلك، بدأت صحة الحامي الكبير لهذه الصفقات المالية الفاتيكانية بالتدهور. ففي العام 1968، خضع بولس السادس لعملية جراحية في غدّة البروستات، وكان في الواحدة والسبعين من عمره. في العام 1978، تأثّر بحدَثين

طبعا الأشهر الأخيرة من حياته: اختطاف وإعدام زعيم الحزب الديمقراطي المسيحي ألدو مورو على أيدي الألوية الحمراء، وإقرار قانون الإجهاض في إيطاليا.

وفي يوم السبت 5 آب/أغسطس، تناول البابا عشاءه، وتلا مسبحة الوردية في كنيسته الصغيرة، ووقّع العديد من الوثائق المتعلقة كما يبدو بمصرف الفاتيكان، ومن ثم خلد إلى النوم. وفي صباح اليوم التالي، لم يتمكن من المشاركة في الاحتفال الديني. وبعد الظهر، ازدادت حالته الصحية سوءاً وشخّص أطباء الفاتيكان استسقاءً رئوياً خطيراً. ولم تؤدِّ المعالجة إلى أي نتيجة، فتوُفيّ.

على الفور، بدأت آلية الفاتيكان بالتحرك باتجاه انتخاب بابا جديد، وتمحورت الفصائل والمؤامرات حول الدعوة لعقد مجمع الكرادلة الجديد لاختيار خلف لبولس السادس الراحل.

في مصرف الفاتيكان، شرع موظفون من مختلف الدوائر بإحراق بعض الوثائق تجنّباً لقيام بابا أكثر ليبرالية بإجراء تحقيق محتمَل. فلن يجد أشخاص مثل مارسينكوس، وجيلي، وكالفي، وسيندونا، أنه من السهل تقديم شروحات عن الصفقات المالية التي قاموا بها باسم الفاتيكان والبابا.

وفي 10 آب/أغسطس، وصل الكردينال ألبينو لوتشياني، بطريرك البندقية، إلى روما للمشاركة في المجمع. وبما أن اسمه لم يكن مُدرَجاً على لائحة المرشحين الأوفر حظاً، لزم غرفته رقم ستين بهدوء.

وبعد تسع ساعات فقط، اقترع 110 كرادلة لصالح الشخص الذي سيجلس على الكرسي البابوي.

وفي لقاءات جرت قبل عقد المجمع، كشف الكردينال جيوفاني بينيلي عن أمر مثير للدهشة للكردينال لوتشياني، وكبير الأساقفة البولندي الكردينال ستيفان ويزينسكي، وكبير الأساقفة المجري الكردينال لازلو ليكاي. قال إن البابا العتيد سيجد نفسه في ظروف صعبة لدى جلوسه على كرسي القديس بطرس بسبب

صعوبة الوضع الاقتصادي والمالي للكنيسة. وأخبر بينيلي الكرادلة الثلاثة بأن الوضع "ليس حساساً فحسب، بل على وشك الانفجار أيضاً".

وسمع كبير الكرادلة جان فيلو الذي كان في مكان قريب تحذير الكردينال بينيلي، وطلب منه أن يلزم الصمت. وأسرع بعد ذلك للاتصال بمدير الشؤون الاقتصادية في الفاتيكان، الكردينال إيغيديو فانيوزي، وطلب منه تجنيد طاقات الحلف المقدس لإعداد تقرير حول الوضع الحساس الذي كان الكردينال بينيلي يشير إليه.

كان فانيوزي يعرف مآل هذا التحقيق، ويدرك أيضاً أنه لن يطال أبداً أسرار أموال مصرف الفاتيكان التي يدير المونسينيور بول مارسينكوس شؤونها، والمجسّات التي أُنشئت بحماية بولس السادس. والغريب في الأمر أن الكردينال بييترو بالازيني أخبر الحلف المقدس ووحدة التجسس المضاد، جمعية بيوس، بوجوب تقديم كل مساعدة ممكنة لفانيوزي، ولكن المشكلة تمثلت بانشغال العديد من عملاء الحلف المقدس بمهامّ خاصة لصالح مارسينكوس، وإدراكهم بالطبع لما يقوم به بينيلي وبالازيني.

في غضون ذلك، تلقّى بول مارسينكوس وميشال سيندونا كلمات تشجيع من الكردينال فيلو عن الانتخاب شبه المؤكد للكردينال جوزبّي سيري من فلورنسا، وهو شخص مَهيب ومحافظ. كان مارسينكوس يعلم أن مصرف الفاتيكان لن يواجه أي تحقيقات متطفّلة إذا ما انتُخب سيري. ولم يكن الكردينال جوزبّي سيري على علاقة جيدة بالكردينالين بينيلي وبالازيني.

ومن جهة ثانية، كان الكردينال سيرجيو بينييدولي من أشد مؤيّدي إجراء تحقيق حول مصرف الفاتيكان. فقبل أشهر من عقد المجمع، كان بينييدولي يتحدث إلى كرادلة آخرين - ربما بطريقة غير متحفّظة - عن الحاجة إلى التحقق من ملايين الدولارات الخارجة من الفاتيكان. كان بينييدولي قد التقى الكرادلة بينيلي وبالازيني وفانيوزي سراً وعبّر عن قلقه حيال الشائعات المستمرة التي

تربط مصرف الفاتيكان ببعض العمليات التي يقوم بها الدكتاتور النيكاراغوي أناستازيو سوموزا.

في أثناء انعقاد المجمع، أخبر الكردينال فرانكو سيبير الكردينال لوتشياني بأن قوى الظلام داخل الفاتيكان تمكنت من إخراج الكردينال بينييدولي "الخطر" من السباق إلى كرسي البابوية. وأضاف كبير الأساقفة اليوغوسلافي أن شخصاً ما تحدّث في أثناء العشاء بصوت مرتفع إلى جليسه عن السلوك الجنسي لسيرجيو بينييدولي وسط الشباب وعن "امتلاء شقته أحياناً بأكياس النوم عندما لا يتمكن من إيجاد مسكن آخر لهم".

كانت الشائعة افتراءً في الواقع لإلغاء فرص بينييدولي في النجاح. وقال سيبير إن الكردينال الذي أطلق الشائعة طُرد من المجمع، ولكن الضرر كان قد أُلحق ببينييدولي. لقد عمل مُروّج الشائعة في مصرف الفاتيكان طيلة سنوات إلى أن تم نقله إلى منصب آخر. لقد ألغت قوى "الظلام"، كما يدعوها ألبينو لوتشياني نفسه، مرشحاً قد يتسبب بمشاكل لمصرف الفاتيكان وبول مارسينكوس.

في يوم السبت 26 آب/أغسطس 1978، أظهر الاقتراع الأول الذي اعتُبر استطلاعاً للآراء أفضلية واضحة للكردينال جوزبّي سيري. ومع ذلك، وبما أنه لم يحصل على غالبية الثلثين الضرورية، تلا ذلك اقتراع آخر حصل فيه لوتشياني على خمسين صوتاً مقابل عشرين صوتاً لبينييدولي.

وبعد استراحة قصيرة، عاد أعضاء المجمع إلى الشابيل سيستين وأجروا اقتراعين إضافيين بعد الظهر. وجرى الاقتراع الأول عند الرابعة، وقرأ الكردينال بافيلي اسم الكردينال ألبينو لوتشياني أكثر من خمس وسبعين مرة. وبعد ذلك مباشَرةً، حثّ الكرادلة المتمتعون بالنفوذ وهم فيلو (عن الأساقفة) وسيري (عن الكهنة) وفليسيو (عن الرتب الكنسية الأدنى) لوتشياني على قبول مصيره. وعندما قال كلمة "أوافق"، سأله الكردينال جان فيلو، "ما الاسم الذي تودّ أن تعتمده، أيها الأب الأقدس؟" "يوحنا بولس"، أجاب لوتشياني. "ستكون يوحنا بولس الأول"،

أجاب الكردينال فليسي غير مدرك للزلّة التي اقترفها. فالبابا الذي افتتح سلالة جديدة لم يُشَر إليه بأنه الأول في هذه السلالة حتى قيام حَبر أعظم ثانٍ بتبنّي ذلك الاسم. وكانت الكلمات التالية للبابا الجديد إحساساً مسبَقاً إلى حدٍّ ما. "لأكن يوحنا بولس الأول لأن الثاني سيأتي قريباً"، قال الكردينال الأسبق ألبينو لوتشياني.

وفي حين أوردت صحف مثل الأوسرفاتوري رومانو بشكل بارز خبر انتخاب البابا الجديد، يوحنا بولس الأول، في صفحاتها الأولى، ظهرت في العناوين الرئيسية للإكونوميست العمليات الغريبة التي قام بها خبراء ماليون لصالح مصرف الفاتيكان.

ولدى سماعه هذه الأخبار، حذّر بول مارسينكوس شركاءه في مصرف الفاتيكان إضافةً إلى روبرتو كالفي الذي كان في بوينس آيرس آنذاك، طالباً منهم التذكّر بأن البابا الجديد مختلف جداً عن بولس السادس، وأوصى بضرورة نقل كل الكمبيالات الدولية للمصرف إلى بلد أكثر أماناً كالباهاماس أو سويسرا.

في غضون ذلك، سرت شائعات وتوقعات في أروقة الفاتيكان حول نشاطات مسؤولين رفيعي المقام في مصرف الفاتيكان. وأنكر المسؤولون أنهم التقوا يوماً شخصيات مثل ميشال سيندونا أو روبرتو كالفي. وبعد أيام قليلة من تعيين الكردينال برناردان غانتان رئيساً للمجلس الحبري قلب واحد، عثر البابا في مكتبه على نسخة لأحد تقارير لجنة السندات المالية والبورصة الإيطالية. لقد قرر أحدهم أن يترك ليوحنا بولس الأول إلماعة أولى عن الصفقات التجارية المشبوهة لمصرف الفاتيكان.

وأعلن التقرير الذي يحمل توقيع وزير التجارة الخارجية رينالدو أوسولا أن مصرف الفاتيكان مؤسسة مالية غير مقيمة؛ إنها "أجنبية" ولا تُمَسّ.

لقد انتاب الوزير أوسولا قلق حيال مساوئ تهريب الأموال التي أدت إلى رحيل العملات من إيطاليا تاركةً الليرة في وضع ضعيف جداً. كان أوسولا يظن

أنه يعرف الشخص الموجود داخل الفاتيكان الذي يدير هذه العملية.

لقد قيل إن البابا الجديد - عندما كان لا يزال كردينالاً - طلب عدة مرات تفسيراً للشائعات التي تناولت الوضع المالي لمصرف الفاتيكان. ورداً على ذلك، كان البابا بولس السادس يرسل إليه بول ماركينوس مع أسئلة متكررة. "يا صاحب النيافة، هل تملك شيئاً أفضل للقيام به اليوم؟ يُفترض بك القيام بعملك وتدَعني أقوم بعملي". هكذا كان رد الرئيس المالي للفاتيكان على بطريرك البندقية.

بعد قراءة التقرير، عقد يوحنا بولس الأول اجتماعاً سرياً مع الكردينال بينيلي والكردينال فليسي. وطلب منهما أن يشرحا كل ما اكتشفاه في السنوات القليلة الماضية عن التحقيق الذي أجراه مصرف إيطاليا عن بنكو أمبروزيانو.

وطوال ليالٍ عدة، أطلع بينيلي الحَبر الأعظم على علاقات مصرف الفاتيكان بليتشيو جيلي، والمحفل الماسوني بروباغاندا 2، وميشال سيدونا، وروبرتو كالفي. من جهته، روى فليسي بالتفصيل علاقات أخرى لكالفي وصلاته بمصرف الفاتيكان وبول مارسينكوس. كان هناك مصدر سرّي، "شخص غامض" في مصرف إيطاليا، يُطلع بينيلي كما يبدو على كل خطوة من التحقيق، في حين أن المونسينيور فليسي كان يحصل على معلوماته من مصدر داخل الحلف المقدس.

إنه هذا المصدر الأخير الذي أطلع الكردينال بينيلي على التحقيق الجاري حول إمبراطورية روبرتو كالفي، والذي دخل مرحلته الأكثر قوة في أيلول/سبتمبر 1978. وعميل الحلف المقدس الذي رفع تقارير لبينيلي كاهنٌ يدعى جيوفاني دانيكولا كان الحلف قد أدخله مصرف الفاتيكان خلسة. لم يكن الأب جيوفاني دانيكولا الذي يحمل شهادة جامعية في علم الاقتصاد، إضافةً إلى كونه خبيراً في إنشاء شركات الخدمات المالية والمقرات الرئيسية للشركات في ملاذات ضريبية، يواجه أي مشكلة تحول دون تسلّله إلى مصرف الفاتيكان. فقد كان هناك طلب متزايد على خدماته نظراً إلى امتلاك مصرف الفاتيكان شركات في الباهاماس،

وجزر كايمان، واللوكسمبورغ، وموناكو، وجنيف، ولينشنشتاين. كان دانيكولا قد أوحى للكردينال بينيلي بأن مصرف إيطاليا يحقق في شأن صِلات الفاتيكان بشركات كالفي وأنه بات لدى المحققين دليل كافٍ ليبدأوا باستخراج التُهم. وأولئك الذين خضعوا للتحقيق هم بول مارسينكوس، رئيس مصرف الفاتيكان؛ لويجي منيني، مساعد المفتش في المصرف؛ وبليغرينو دي ستروبل، رئيس المحاسبة في المصرف.

لم يكن الكردينال بينيلي هو الشخص الوحيد المطّلع على هذه المعلومات. فمن قلب مصرف إيطاليا، كان المحفل الماسوني بروباغاندا 2 يزوّد ليتشيو جيلي في الأرجنتين بالمعلومات التي مرّرها أيضاً لروبرتو كالفي وأومبرتو أورتولاني، وهو ماسوني وحامل لقب "نبيل قداسته" الذي منحه إياه البابا بولس السادس. في الوقت نفسه، قام أعضاء في بروباغاندا 2 منتمون إلى مكتب المأمور القضائي في ميلانو بإخبار جيلي بأن التحقيق الذي يتناول بنكو أمبروزيانو انتهى وأن التقرير الضخم الناجم عن التحقيق سيتم التقدّم به إلى القاضي إميليو أليساندريني. تضمّن تقرير الحلف المقدس، وفقاً للأب دانيكولا، بنداً نُشر في الأوسرفاتوري بوليتيكو باسم صحافي يدعى مينو بيكوريلي. وأُطلق على البند اسم "المحفل الفاتيكاني الأكبر"، وتضمّن أسماء 121 فرداً في الفاتيكان ينتمون إلى مجموعة منوّعة من المحافل الماسونية. وظهرت في اللائحة أسماء كرادلة، وأساقفة، وكهنة ذوي مراتب عالية، ومسؤولين في الكرسي الرسولي. ومع ذلك، فقد كان اسم ليتشيو جيلي، الأستاذ الأكبر في بروباغاندا 2، الأخير في اللائحة. وعلِم الحلف المقدس بأن بيكوريلي عضو فاعل في المحفل وأنه عقد العزم على إظهار جانبه السيّئ حتى ولو شوّه سمعة الفاتيكان أيضاً.

و في 12 أيلول/سبتمبر، قدّم الأب جيوفاني دانيكولا رسمياً وشخصياً هذه اللائحة للحَبر الأعظم. فقرأ يوحنا بولس الأول أسماء الكردينال جان فيلو، وراعي روما المونسينيور أغوستينو كازارولي، وأوغو بوليتي، والكردينال سباستينو

باجيو، والأسقف بول مارسينكوس، والمونسينيور دوناتو دو بونيس في مصرف الفاتيكان.

فسأل البابا فليسي وبينيلي عما إذا كانت اللائحة صحيحة، وأجاب رجلا الدين أن لائحة مماثلة تم تداولها في جمعية بيوس عام 1976.

ظنّ روبرتو كالفي أن البابا يوحنا بولس الأول يريد الثأر للهجوم المالي الذي شنّته مجموعته ضد مصرف فينيتو الكاثوليكي. وما لم يدركه زملاء كالفي في مصرف الفاتيكان أن كالفي كان قد تمكّن من سحب حوالى أربعة ملايين دولار أودعها في حسابات مصرفية في مختلف أنحاء أميركا اللاتينية. وقال جيلي لكالفي إن البابا يوحنا بولس الأول أراد إصلاح الموارد المالية للفاتيكان مما سيؤدي إلى افتضاح أمر السحب المستمر للأموال، والشركات الهشة في الفردوسات المالية، وغسيل أموال المافيا، إضافةً إلى العديد من الأمور الأخرى.

فقال ليتشيو جيلي لروبرتو كالفي إنه يتعيّن إيجاد حل "للمشكلة". ولم يعرف كالفي أبداً ما إذا كان رئيس بروباغندا 2 عنى بكلامه التسرب الحاصل في بنكو أمبروزيانو أو يوحنا بولس الأول.

في صباح يوم الأحد 17 أيلول/سبتمبر، وبعد تناول إفطار خفيف، أرسل الحَبر الأعظم إلى الأب دانيكولا طالباً منه أن يحمل إليه تقرير الحلف المقدس الذي يتناول أزمة الفاتيكان المالية، وهو بعنوان "مصرف الفاتيكان، الحالة والوضع القانوني"، وقد صُنّف "بالسرّي جداً" و"الخاضع للسرّية الحَبرية". ويبدأ التقرير المكتوب بخط يد عميل للحلف المقدس بأن "البابا يوحنا الثالث والعشرين ترك لخلفه بعض الأموال الاحتياطية المستمَدة من فلس مار بطرس والتي هي بإدارة مصرف الفاتيكان. وفاق المجموع خمسين بليون لير". في ذلك الوقت، كان غوستافو تيستا رئيس الإدارة الخاصة، والمونسينيور ألبرتو دي جوريو رئيس مصرف الفاتيكان. "كان بولس السادس قد أعدّ مرسوماً لتوحيد كل هذه الدوائر، ولكنه لم يُنفَّذ في الدقيقة الأخيرة"، جاء في التقرير. "أظنّ - عميل

الحلف المقدس واضع التقرير - أن هناك صلة بين ميشال سيندونا وتحالفه مع ليتشيو جيلي وبين سَحب المرسوم".

وأشار تحليل جهاز التجسس البابوي أيضاً إلى "شخص فاسد يدعى أومبرتو أورتولاني، وهو بولوني وصديق مقرَّب للكردينال جياكومو لركارو والكردينال جوزيف فرينغز".

كانت جمعية بيوس هي الجهاز البابوي الذي يملك أفضل معلومات عن أورتولاني. ووفقاً لتقرير جمعية بيوس، كان أورتولاني بولونياً قصير القامة وبديناً، يضع على الدوام سلسلة ذهبية على امتداد صُدرته. كان يدير عملياته من فيلا غروتافراتا الرائعة حيث كان يستضيف بشكل دَوري الكردينالَين لركارو وفرينغز. "يكرّس أومبرتو أورتولاني نفسه لإنقاذ الأعمال من الأزمات التي تمر بها. وعندما تتعافى، يقوم بتقطيع أوصالها ويبيع أجزاءها لعارضي أغلى الأثمان"، قال التقرير. وجاء في ملحق خاص أن أورتولاني كان قد انضم إلى منظمة مالطة وإلى المحفل الماسوني بروباغاندا 2 التابع لليتشيو جيلي.

وفي كانون الثاني/يناير من العام الأسبق 1977، كان الحلف المقدس قد علِم بمحتويات ما دُعي لائحة الخمسمئة. في ذلك الوقت، كشف ماريو باروني، وهو صديق قديم لميشال سيندونا، عن وجود اللائحة الشهيرة التي تحتوي على أسماء خمسمئة مقاول، وسياسي، وخبير مالي، وعضو في الإدارة البابوية، وصناعي، وعضو مافيا، استعانوا بمصارف سيندونا لتهريب رؤوس أموال ضخمة إلى خارج إيطاليا. ووعد باروني بتسليم اللائحة إلى السلطات مقابل الحصول على حَصَانة، ولكنه عندما فتح الصندوق في مستودع الخزائن في بانكا بريفاتا (المصرف الخاص) الذي يحتوي على اللائحة كما هو مُفترَض، وجده فارغاً. ولا أحد يعلم كيف حصل جهاز التجسس البابوي على نسخة عنها.

وبحلول 23 أيلول/سبتمبر، كان البابا يوحنا بولس الأول يمتلك كل أجزاء التحقيق الذي يتناول "شركة الفاتيكان". وبعد ظهر ذلك اليوم، التقى الحَبر

الأعظم رئيس الحلف المقدس الذي أخبره بوجود شخص غامض آخر يتنقل في الأوساط المالية الفاتيكانية ألا وهو المونسينيور السلوفاكي بافل هنيليكا. ويجادل البعض قائلين إنه العضو في الإدارة البابوية الذي مرّر معلومات من داخل مصرف الفاتيكان لعملاء الحلف المقدس، ولكن لم تثبت صحة ذلك أبداً.

وأشار تقرير آخر سلّمه عميل الحلف المقدس، الأب جيوفاني دانيكولا، إلى يوحنا بولس الأول إلى مزيد من المعلومات المستقاة من مصدره داخل مصرف الفاتيكان. كان مفتشون من مصرف إيطاليا قد شرعوا كما يبدو بتحقيق يتناول بنكو أمبروزيانو بعد ورود معلومات مجهولة المصدر (من لويجي كافالو، رجل مافيا قليل الأهمية كان صديقاً لميشال سيندونا) بتاريخ 21 أيلول/سبتمبر 19. وكان الهدف النهائي روبرتو كالفي. وشيئاً فشيئاً، بدأ المحققون الماليّون بجمع خيوط عمليته متعددة الجوانب.

كان لكالفي كيانات مالية في البيرو ونيكاراغوا، في بورتوريكو وجزر كايمان، في كندا، وبلجيكا، والولايات المتحدة، ولكن شركتَي سوبرافين وألترافين كانتا بمثابة الصدوع في دِرعه. فأي من كالفي أو سيندونا لم يشأ ظهور الحقيقة المتعلقة بهاتَين الشركتين، وكان بول مارسينكوس منقذهم الوحيد الممكن. وعندما بدأ المفتشون الإيطاليون بالكشف عن بنية هاتَين الشركتين وتحويلاتهما المالية، ظهر كارلو أوليغاتي، مدير عام بنكو أمبروزيانو، عند مدخلَيهما ليعلن أن سوبرافين هي ملك للفاتيكان ولذلك فهي "لا تُمَسّ". ولزرع الرهبة في نفوس السلطات الإيطالية، لم يكن على مارسينكوس سوى هزّ رأسه دلالةً على الموافقة.

كان اليوم الأخير في حياة يوحنا بولس الأول - 28 أيلول/سبتمبر 1978 - يوم عمل عادي بالنسبة إليه. لقد بدأ يومه في كنيسته الخاصة، تلا ذلك فطور خفيف بينما كان يستمع إلى نشرة أخبار الإذاعة والتلفزيون الإيطالي، وحديث مع سكرتيرَيه جون ماغي ودييغو لورنزي.

عند التاسعة صباحاً، بدأ يوحنا بولس الثاني مقابلاته الرسمية، فاستقبل

الكردينال برناردان غانتان والأب ريدماتن، وكلاهما مديرا العمل لأجل المساعدة الاجتماعية. وعند حوالى الثانية بعد الظهر، غادر الحَبر الأعظم لتناول طعام الغداء مع مجموعة صغيرة تميل إلى مرافقته. في ذلك اليوم، تضمّنت المجموعة الجالسة إلى مائدته الكردينال جان فيلو والأبوين لورنزي وماغي. وبعد ذلك، قاموا برحلة طويلة سَيراً على الأقدام في أراضي الفاتيكان دامت حوالى الساعة.

عند الثالثة بعد الظهر، عاد البابا لمراجعة بعض الأوراق والرسائل الشخصية التي كان يتعيّن كتابة رسائل جوابية عليها. وكان برفقته عنصران من مرافقيه يتبعهم عميلان من الحلف المقدس. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، أمضى عدة ساعات مع فيلو، أمين سر الدولة، لمناقشة أعمال متعلقة بالكرسي الرسولي. وتحدّث عبر الهاتف إلى الكردينالين جيوفاني كولومبو، رئيس أساقفة ميلانو، وبينيلي.

عند الثامنة مساءً، غادر لتلاوة مسبحة الوردية برفقة راهبتين وسكرتيرَيه. وتناول بعد ذلك حساء السمك، وقرنيّات خضراء، وجُبن، وفاكهة. وعند التاسعة تقريباً، وكما كانت العادة، جلس أمام التلفزيون لمتابعة الأخبار، ودخل بعد ذلك إلى غرفة النوم وطلب من الأخت فينتشنزا أن تُحضر له صينية مع كوب ماء. وعند التاسعة والنصف، أغلق يوحنا بولس الأول باب غرفته لافظاً كلماته الأخيرة.

وقبل الخلود إلى النوم، اعتاد يوحنا بولس الأول القراءة في السرير لبعض الوقت على ضوء مصباح صغير موضوع بجانب السرير. ولكن عميلَي الحلف المقدس الموكّلين بمهمة حراسة البابا غادرا موقعَيهما بعد تلقّيهما أمراً بذلك من شخص مجهول الهوية، كما قال العميل الأب جيوفاني دانيكولا للكردينال بينيلي في صباح اليوم التالي.

لقد توفّي الحَبر الأعظم إما "لأسباب طبيعية" أو "قتلاً" بين التاسعة والنصف من مساء 28 أيلول/سبتمبر والرابعة والنصف من صباح التاسع والعشرين منه.

هناك روايتان مختلفتان عن أول شخص رأى جثته. فالرواية الرسمية للفاتيكان تقول إن أول شخص دخل غرفة الحَبر الأعظم المتوفّي سكرتيره جون ماغي. وجاء في النسخة غير الرسمية والحقيقية أن الراهبة الأخت فينتشنزا تافاريل كانت في غرفة البابا عندما لم يردّ عليها، وهكذا عثرت على جثّته.

فعند الخامسة وعشرين دقيقة صباحاً، كما جرت العادة كل يوم، قرعت الأخت فينتشنزا الباب لإيقاظ الأب الأقدس. ونادته بعد ذلك بهلع من دون أن تلقى أي إجابة. وعندما دخلت إلى غرفته، وجدت المصباح بجانب السرير مُطفأً وجسد يوحنا بولس الأول بلا حراك. لقد توفّي. وغادرت الغرفة على عجَل، وتحرّكت عجلة الفاتيكان. فأعلمت الراهبة الأب جون ماغي الذي أعلم بدَوره أمين سر الدولة، جان فيلو، وعميد كلّية الكرادلة المقدسة، الكردينال كارلو كونفالونييري. وأعلم فيلو طبيب البابا، ريناتو بوزونيتي. وساد الارتباك داخل غرفة النوم. وأكد الطبيب البابوي حدوث الوفاة حوالى الحادية عشرة والنصف من مساء الثامن والعشرين من أيلول/سبتمبر بسبب نوبة قلبية. وعند السابعة والنصف صباحاً، أوردت وكالة الأخبار الإيطالية وفاة الحَبر الأعظم.

وأُنشئت لجنة كرادلة يرأسها الكردينال سيلفيو أودي والكردينال أنطونيو ساموري للتحقيق بوفاة يوحنا بولس الأول. وكانت نتيجة التحقيق "وفاة طبيعية إثر نوبة قلبية"، ولكن كان لا يزال هناك العديد من الأسئلة من دون إجابات عندما طلب البابا يوحنا بولس الثاني أن يتمّ تصنيف ملف التحقيق "سراً حَبرياً". وعلى غرار العديد من التقارير الأخرى، بقي هذا التقرير في إحدى زوايا محفوظات الفاتيكان السرية.

لماذا قيل إن البابا كان يعاني من اضطرابات في القلب، في حين أن طبيبه الذي رافقه مدى الحياة، أنطونيو دا روس، أنكر ذلك؟ وإذا ظهرت أمارات الألم على وجه البابا عدة مرات في يومه الأخير، كما قال أمين سر الدولة جون ماغي، وشعر بإجهاد في صدره، لماذا لم تتم استشارة الطبيب دا روس؟ لماذا قيل إن

البابا لم يكن يتناول سوى الفيتامينات، في حين أنه تلقّى حقناً في الحقيقة وصفها له الطبيب بوزونيتي لتحفيز غدّته الكُظرية؟ لماذا لم تتم الإشارة إلى أن يوحنا بولس الأول حصل على وصفة طبية لتلقّي حقن لمعالجة ضغط دمه المنخفض؟ لماذا اختفى ترموس القهوة الذي كانت الأخت فينتشنزا تحمله للبابا كل يوم، وذلك بعد فترة وجيزة من اكتشاف جثة الحَبر الأعظم؟ من اتصل بعملاء الحلف المقدس الذين كانوا يحرسون البابا، ولماذا؟ لماذا لم يُبدِ مارسيمكوس أي دهشة عندما أعلمه ضابط الحرس السويسري، هانز روغن، بوفاة الحَبر الأعظم (وفقاً لشهادة روغن نفسه)؟ لماذا قيل إنه لم يتم تشريح جثة البابا، في حين أنه جرت ثلاث عمليات تشريح في الواقع؟ لماذا لم تُعلن أي من نتائج التشريح؟ لماذا طُلب من الحلف المقدس عدم فتح أي تحقيق؟ هناك بعض الأسئلة لا تزال من دون إجابات.

كان الأب جيوفاني دانيكولا الذي يُطلع الحَبر الأعظم باستمرار على ما دأب عليه مارسينكوس وأصدقاؤه من سحب للأموال عبر مصرف الفاتيكان يعرف أن أيامه معدودة بعد وفاة يوحنا بولس الأول. فطلب الجاسوس حماية الكردينال بينيلي، ولكن لم تؤدِّ هذه الحماية إلى النتيجة المرجوّة لسبب أو لآخر. فتدبّر بينيلي مع الكرسي الرسولي، ومن خلال أمانة سر الدولة، أمر نقل دانيكولا إلى القاصدية الرسولية في كندا. ولم يتم التصديق أبداً على نقل الجاسوس.

بعد أربعة أيام من وفاة يوحنا بولس الأول، وفي حين كان العالم لا يزال يتعافى من صدمته، وُجد جاسوس الحلف المقدس مشنوقاً في متنزّه روماني منعزل يستخدمه منحرفو الملبَس والبغايا بحثاً عن زبائن. وبالرغم من أن الشرطة الإيطالية اعتبرت وفاته انتحاراً وأقفلت القضية، لم يُجرِ أحد تحقيقاً عن العلامات غير العادية على ذراعَي دانيكولا وجسده التي تجعل الأمر يبدو وكأنه خاض عراكاً. وأظهر تشريح الجثة أن عنُق دانيكالا مكسور بسبب ضربة قوية كما يبدو وليس بسبب ثقل وزنه الساقط، ووجود أنشوطة حبل حول عنقه.

مما لا شك فيه أن الرجل الذي كان على عِلم بأسرار مصرف الفاتيكان قد قُتل. ولم يطرح أحد أي سؤال، ولا حتى رئيسا جهاز التجسس والتجسس المضاد في دولة الفاتيكان.

نجم عن الوفاة الغامضة ليوحنا بولس الأول مجمع كرادلة جديد لانتخاب خلف له. وفي 14 تشرين الأول/أكتوبر 1978، بدأ 110 كرادلة مداولاتهم عند الرابعة والنصف بعد الظهر. وفي الشابيل سيستين، استمع الكرادلة بسكون إلى تلاوة القواعد الصارمة للمجمع بصوت مرتفع. وعشية اليوم الأول من الاقتراع، كان الكردينال فويتوا هادئاً.

في اليوم التالي، أي يوم الأحد 15 تشرين الأول/أكتوبر، بدأ الاقتراع على الكردينال جوزيّي سيري والكردينال بينيلي، وحصل كل منهما على ثلاثين صوتاً. وفي الاقتراع الثاني، فقد كل منهما بعض التأييد، ولكن الكردينال أوغو بوليتي، رئيس مؤتمر الأساقفة الإيطاليين، حصل على ثلاثين صوتاً بعد الظهر. في الاقتراع الرابع، ظهر الكردينالان فليسي وفويتوا، وقد جمع هذا الأخير خمسة أصوات. وبالرغم من السكون المهيمن على غرف الرهبان المحيطة بالشابيل سيستين حيث يقيم أعضاء المجمع، كانت تدور رحاها معركة كبيرة للسيطرة على الكنيسة الكاثوليكية.

وبالرغم من عدم تراجع مؤيّدي سيري مع كل اقتراع جديد، أُدرجت وأُخرجت أسماء متبارين جدد من دون التوصل إلى أي قرار. وفي ليل 15 تشرين الأول/أكتوبر، تناقش الكردينال فرامز كونيغ مع كرادلة فرنسيين وألمان وإسبان وأميركيين شماليين حول إمكانية تأييد الكردينال البولندي فويتوا. وفي صباح يوم الاثنين 16 تشرين الأول/أكتوبر، جرى اقتراعان آخران. واستمر سيري في فقدان الأصوات لصالح كرادلة آخرين مثل جيوفاني كولومبو، وأوغو بوليتي، ويوهانس ويلبراندس.

وفي الاقتراع التالي، ازداد مجموع الأصوات المؤيّدة للكردينال كارول فويتوا.

وبعد الظهر، التقى فويتوا في غرفته كبير كرادلة بولندا، ويزينسكي، الذي قال له إنه يُفترض به الموافقة إذا تم انتخابه. وبعد اقتراعين، استمع كارول فويتوا إلى تكرار اسمه. لقد حصل على 99 صوتاً من أصل 108 أصوات.

لم يحدث هذا الأمر من قَبل وقد لامس حد اللامعقول: بابا من بلد في أوروبا الشرقية وراء الستار الحديدي. وبعد الإعلان عن موافقته وعن الاسم الذي سيعتمده كحَبر أعظم، تمت مواكبة البابا الجديد إلى غرفة الانتظار المعروفة بكاميرا لاكريميناتوريا حيث يرتدي الحَبر الأعظم الجديد الرداء الأبيض.

بعد ذلك مباشَرةً، خطا يوحنا بولس الثاني بخطى ثابتة إلى الشرفة لمنح بركته في المدينة والعالم لمؤمني العالم. وبعد لحظات، دعا البابا أعضاء مجمع الكرادلة الذين كانوا لا يزالون موجودين لتناول العشاء معه. ولدى شروعه بالتعيينات الجديدة، خفّت حدة القلق المحيط بارتقاء بابا جديد. فعيّن يوحنا بولس الثاني في منصب مدير الحلف المقدس وجمعية بيوس المونسينيور لويجي بوغي المولود قبل واحد وستين عاماً في مدينة بياتشينزا الإيطالية، وكان ممثلاً رسولياً في بولندا منذ العام 1975. مما لا شك فيه أن بوغي قدّم للحلف المقدس ما هو بحاجة إليه في السنوات التي شهدت بدء ظهور التصدعات الأولى للستار الحديدي. كانت هناك أزمنة جديدة قادمة تتطلب أجهزة تجسس ناشطة، وكانت إحدى الولايات البابوية الأكثر تسيّساً في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وعلاوةً على ذلك، كانت ارتدادات الصفقات المالية لمصرف الفاتيكان في نهايتها.

ولو انتُخب الكردينال بينيلي بابا لتمّ استبدال الكردينال جان فيلو بالتأكيد، ولَصُرف مارسينكوس ومنيني ودي ستروبل من مناصبهم وخضعوا للمحاكمة ربما. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. لقد انتُخب الكردينال البولندي كارول فويتوا وبقي كل شيء على حاله بالرغم من التغيير الحاصل.

ووُضعت بتصرّف يوحنا بولس الثاني كل المعلومات التي تتناول الفضيحة

المالية والتي جمعها الكردينال بينيلي، والحلف المقدس، وجمعية بيوس، والكردينال فليسي. وزُوّد أيضاً بدليل يُثبت انتساب أفراد من الإدارة البابوية إلى منظمات ماسونية، ولكن كل شيء بقي على حاله. لقد ثُبّت الكريدنال جان فيلو على رأس أمانة سر الدولة؛ واستمر بول كازيمير مارسينكوس في رسم مسار مصرف الفاتيكان بمساعدة منيني ودي ستروبل وتوفير الغطاء لنشاطات بنكو أمبروزيانو غير القانونية. واحتفظ كالفي وجيلي وأورتولاني بحرية تكريس أنفسهم لأعمال السرقة المنهجية بدعم مصرف الفاتيكان. من جهته، بقي سيندونا حراً طليقاً في الولايات المتحدة بعيداً عن المحاكم الإيطالية. وكما قالت الشخصية المسرحية الأمير لامبيدوزا في الرواية الشهيرة الفهد، "يجب تغيير كل شيء ليسير كل شيء على النحو نفسه".

وبعد عشر سنوات من تأسيس المحفل الماسوني بروباغاندا 2 من قِبل ليتشيو جيلي، واصل المحفل نشاطاته في توجيه سياسات عدد من الدول ودعم انقلابات على غرار انقلاب الضباط في الأرجنتين.

وبين عامَي 1979 و1982، توفّي بشكل غامض خمسة كرادلة على صلة بالتحقيق الجاري في شأن مصرف الفاتيكان وبنكو أمبروزيانو. كانوا بصحة جيدة وبلغ متوسط أعمارهم تسعة وستين عاماً: كان جان فيلو في الثالثة والسبعين؛ سيرجيو بينيدال في السبعين؛ إيغيديو فانيوزي في الرابعة والسبعين؛ بيريكلي فليتشي في السبعين؛ وجيوفاني بينيلي في الواحد والستين.

لقد بحث العديد من الكتّاب في الوفاة الغامضة ليوحنا بولس الأول، ومن بينهم الباحث ديفيد يالوب في كتابه بسم الله: تحقيق حول مقتل البابا يوحنا بولس الأول، والمؤرخ جون كورنويل في كتابه سارق في الليل: حياة وموت في الفاتيكان. وفي حين يدّعي يالوب بأن وفاة يوحنا بولس هي نتيجة مؤامرة نظّمها محفل بي 2 والأوساط المالية المحيطة بمصرف الفاتيكان، يقول كورنويل إنه لا يستبعد إمكانية وجود مؤامرة تَدَبَّرها قطاع مالي "بحاجة" إلى موت البابا

بهدف مواصلة عملياته المشبوهة، وذلك بالرغم من أن وفاة البابا قد تكون طبيعية.

أياً يكن الأمر، تبقى وفاة يوحنا بولس الأول أحد أكبر الأسرار التي تم الاحتفاظ بها بأفضل صورة في تاريخ دولة الفاتيكان. ولم تتعدَّ تدخلات الحلف المقدس وجمعية بيوس في هذه القضية حد السماح لهم بأن يكونوا شهوداً وبشكل عرَضي تقريباً. وبارتقاء يوحنا بولس الثاني كرسيّ القديس بطرس، اضطلع عملاء الحلف المقدس بدور أكثر فعالية في العمليات السرّية كبيع أسلحة للأرجنتين في أثناء حرب المالوين/فوكلاند ضد بريطانيا إبّان حكم مارغريت تاتشر، والتمويل غير القانوني لنقابة التضامن بقيادة ليش فاليسا وتحويل أموال من مصرف الفاتيكان. وبطريقة أو بأخرى، كانت لا تزال هناك حسابات يتعيّن إيجاد تسوية لها مع العديد من الشخصيات الرائدة في الفضائح المالية التي تُورّط الفاتيكان. ولعب الحلف المقدس دوراً فعالاً في هذه التسويات، وحان زمن القتَلة.

الفصل التاسع عشر
زمن القتلة (1979-1982)

فتح العقيد ريزارد كوكلينسكي باب مكتب الجنرال فويسيتش ياروزلسكي ليعلن أن كارول فويتوا عُيّن للتوّ حَبراً أعظم. فتلقّى وزير الدفاع في جمهورية بولندا الشعبية البالغ من العمر سبعة وخمسين عاماً ذلك الخبر بلا مبالاة. لم يكن يدرك أن اختيار أحد الأقطاب بابا سيتسبب له بالكثير من المعضلات في الأوقات القادمة.

في غضون ذلك، بقيت الخيوط التي لم يتم الإمساك بها في فضيحة مصرف الفاتيكان تلوح في أجواء الكرسي الرسولي، لا سيما وأن يد ليتشيو جيلي الإجرامية تقوم بتحريكها لتشويه سمعة الفاتيكان. وفي كانون الثاني/يناير 1979، أقنع ماريو سارشينيلي روبرتو كالفي بالمثول أمام اللجنة الخاصة لمصرف إيطاليا. هناك، سُئِل كالفي عن علاقاته بسوبرافين، والصلات القائمة بين مصرف الفاتيكان بإدارة مارسينكوس وبنكو أمبروزيانو، ولا سيما فرع المصرف في ناسو. وطلب أحد المحققين من كالفي ذكر أسماء المساهمين في أمبروزيانو، فرفض كالفي ذلك.

وشكّل المحامي والصحافي كارمين بيكوريلي "مينو" عقبة أخرى. ففي منشوره أو بي، أشاع بيكوريلي عدداً من الفضائح التي ظهرت في الستينيات، مستعيناً بمجموعة واسعة من المصادر ذات صلة بالمافيا. وبمرور الوقت، أصبحت أو بي مصدراً قيّماً للمعلومات ليس للسياسيين فحسب، بل للخبراء الماليين، والمحامين، والمدّعين العامين أيضاً.

كان بيكوريلي على صلة بمصادر معلومات تتمتع بامتيازات، وذلك بفضل معارفه المقرَّبين من أفراد في أجهزة المخابرات الإيطالية والبابوية، وبالطبع، من أفراد على درجة من الأهمية في المحفل الماسوني بروباغاندا 2 الذي كان عضواً فيه بفضل علاقته بليتشيو جيلي.

كان الأستاذ الأكبر قد طلب بنفسه من أخوته في المحفل المتمتع بالنفوذ تزويد أو بي بالورق والوثائق بهدف افتضاح أمر كل من يعارض بشكل سرّي المحفل أو مصالحه. وفي أواسط العام 1977، قرر بيكوريلي إطلاق تحقيق حول إحدى سلسلات السرقة الأكثر أهمية في تاريخ الأعمال الإيطالية. وكانت المسألة مرتبطة بارتكاب أعمال غش واحتيال في بيع وقود الديزل للشاحنات وزيت الوقود المستخدم للتدفئة المركزية. وبلغ مجموع الأرباح وفقاً لبيانات بيكوريلي حوالى 9.5 بلايين دولار. واستمر الصحافي في سبر أغوار الفضيحة الخطرة حتى اكتشف تورّط مصرف الفاتيكان والمونسينيور مارسينكوس فيها. ومن خلال عميل حرّ للحلف المقدس كما يبدو هو اليسوعي البولندي كازيميرز برزيداتيك، نقل مصرف الفاتيكان أموالاً قذرة ناجمة عن أعمال الاحتيال إلى حساباته الخارجية ولا سيما تلك الموجودة في ناسو وسويسرا. وفي أحد أيام آب/أغسطس 1977، اختفت فضيحة الزيت عن صفحات أو بي. لقد مورست الضغوط على بيكوريلي من قِبل السيناتور كلاوديو فيتالوتي من الحزب الديمقراطي المسيحي، والقاضي كارلو تستي، والجنرال دوناتو لو بريتي من الشرطة المالية الإيطالية، لينسى أمر الفضيحة. وكان هناك حديث أيضاً عن زيارة غامضة قام بها برزيداتيك للصحافي. وبعد اغتيال بيكوريلي في العام التالي، ادّعى أحد المصادر أن اليسوعي البولندي وجاسوس الفاتيكان كازيميرز برزيداتيك هو عميل حرّ يتبع أوامر المونسينيور مارسينكوس.

في أوائل العام 1978، استأنف مينو بيكوريلي نشر مقالات عن تسلل ماسوني داخل الفاتيكان، ولا سيما في مراكز النفوذ الثلاثة الرئيسية: الشؤون الدبلوماسية، الشؤون المالية، وأجهزة المخابرات. وفي إحدى المقالات، نشر الصحافي لائحة بأسماء الماسونيين الأكثر أهمية في الفاتيكان، بمن فيهم الكردينال جان فيلو المقتدر. كان ليتشيو جيلي يعرف أنه سيتعرض لخطر شديد إذا وصلت هذه اللائحة إلى البابا. وكان الأمر مماثلاً، أو أكثر سوءاً، بالنسبة إلى بول

مارسينكوس وروبرتو كالفي.

وبعد وفاة البابا يوحنا بولس الأول، قرر جيلي التفاوض مباشَرةً مع بيكوريلي. لقد حدد الصحافي كما يبدو سعراً يبلغ حوالى ثلاثة ملايين دولار مقابل صمته، فرفض جيلو دفع هذا المبلغ من المال.

وظهرت حينذاك المقالة الأولى في أو بي منتقصةً من قَدر ليتشيو جيلي. لقد اتهمت الرواية الأستاذ الأكبر لمحفل بي 2 بالتجسس لصالح الكيه جي بي، ومن ثم لصالح السي آي أيه، وأخيراً لصالح الحلف المقدس.

وبعد أيام قليلة من ظهور الفصل الأول من السلسلة المؤلفة من خمسة أجزاء التي خططت أو بي لنشرها، قرر ليتشيو جيلي دعوة مينو بيكوريلي لتناول العشاء والتحدث عن بعض الأمور. وشوهد برزيداتيك تلك الليلة في المنطقة التي يوجد فيها منزل بيكوريلي، عِلماً أن الشرطة الإيطالية لم تسأله أبداً عن ذلك.

وأمضى بيكوريلي اليوم التالي - اليوم المحدد لتناول العشاء مع جيلي - وهو يعمل في مكتبه. وقبل ساعة من موعد العشاء، غادر بيكوريلي المبنى واتجه نحو سيارته المركونة. فدنا منه شخصان وأطلقا النار ثلاث مرات في فمه. وسقط بيكوريلي ضحية العدالة المافياوية، حجر في الفم، أي أنه لا يُفترض بالخائن أن يتكلم مجدداً. وحتى اليوم، لم يتم إلقاء القبض على أحد في سياق التحقيق بهذه الجريمة.

في 29 آذار/مارس 1979، أصدر أحدهم أمراً باعتقال مسؤولين في مصرف إيطاليا يُجرون تحقيقاً حول صلات بين بنكو أمبروزيانو ومصرف الفاتيكان بقيادة مارسينكوس. فسُجن ماريو سارشينيلي وباولو بافي بتهمة إخفاء معلومات متعلقة بالتحقيق.

وبالرغم من إطلاق سراح سارشينيلي، رئيس المحققين في مصرف إيطاليا، رفض القاضي السماح له بالعودة إلى المصرف أو استئناف عمله بقضية بنكو

أمبروزيانو.

والمحامي جورجيو أمبروزولي هو شخص آخر حاول إجراء تحقيق مستقل حول علاقة سيندونا بمصرف الفاتيكان. وبوصفه الموكّل من قِبل المحكمة بتصفية إمبراطورية سيندونا بعد انهيارها عام 1974، كان في وضع يمكّنه من كشف النقاب عن العمليات التي قام بها مصرفيّ المافيا بالتعاون مع مصرف الفاتيكان.

وسمح له التحقيق الذي أجراه بتحديد هوية حوالى سبعة وتسعين مسؤولاً رفيعي المقام في الميادين الإدارية والسياسية والمالية، وفي الفاتيكان، تربطهم صلات بحسابات مصرفية أجنبية، ولا سيما في لندن وسويسرا والولايات المتحدة الأميركية. وظهرت على لائحته أسماء مستشارين هم موضع ثقة من قِبل بولس السادس ويوحنا بولس الثاني، مثل ماكسيمو سبادا ولويجي منيني.

وعثر أمبروزولي على دليل لا يُدحَض بشأن تواطؤ مصرف الفاتيكان مع ميشال سيندونا في عمليات غير القانونية. وفي أيار/مايو 1979، وجد المحامي أن انهيار إمبراطورية سيندونا أدت إلى خسائر بلغ مجموعها حوالى 757 بليون لير.

شارك في التحقيق الذي أجراه جورجيو أمبروزولي بوريس جوليانو، مفتش الشرطة في باليرمو، والمقدَّم أنطونيو فاريسكو، رئيس جهاز الأمن في روما. كان جوليانو قد بدأ بالتحقيق في شأن سيندونا عندما عثر بالصدفة على شيكَين مصرفيَّين في جَيب قتيل من المافيا يُظهران صلة مصرفيّ المافيا بتحويل أرباح ناجمة عن الإتجار بالهيرويين إلى حساب مصرفي في البحر الكاريبي. من جهته، كان فاريسكو يجري تحقيقاً حول جذور بروباغاندا 2 واكتشف كيفية انتقال ملكية مصرف فينيتو الكاثوليكي، وقيام عميل للحلف المقدس في إحدى دول الكتلة الشرقية (من المحتمَل أنه كازيميرز برزيداتيك) بنقل حقيبتين مليئتين بتسعة ملايين ونصف مليون دولار كعمولة لروبرتو كالفي وبول مارسينكوس والكردينال جون كودي.

و في 11 حزيران/يونيو 1979، قُتل أمبروزولي عند مدخل منزله على يدَي القاتل المحترف وليام أريكو. وأخبر شهود عيان الشرطة كيف أن المحامي البارز، وهو رجل طويل القامة مع شعر بنّي فاتح اللون، شوهِد قبل تعرّضه للقتل في المنطقة يدوّن ملاحظات حول شيء ما. وكان برزيداتيك، عميل جهاز التجسس البابوي الذي عمل لصالح مارسينكوس، يحمل الأوصاف نفسها.

في 13 حزيران/يونيو، أطلق رجلان النار بأسلحتهم الرشاشة على المقدَّم أنطونيو فاريسكو بينما كانت سيارته متوقفة عند إحدى إشارات المرور. وفي 20 حزيران/يونيو، دخل بوريس جوليانو اللوكس بار في باليرمو لتناول كوب قهوة على غرار كل يوم. وعندما اتجه إلى المِنضدة لدفع فاتورته، دنا منه رجل من الخلف وأطلق على عنُقه رصاصة مميتة. وقبل مغادرة اللوكس بار، ترك القاتل قرنفلة بيضاء على الجثة. وبعد سنوات، ظهر في أحد التحقيقات أن القرنفلة البيضاء استُخدمت من قِبل محاكم التفتيش الرومانية عندما كان المفتش العام في محاكم التفتيش الكردينال ميكال غيسليري ينشر الذُعر في مختلف أنحاء المدينة. فقد كان متّهَمون مجهولو الهوية يتركون أزهاراً من القرنفل الأبيض للإشارة إلى منازل أولئك الذين يُفترض بالحلف المقدس اعتقالهم وتعذيبهم.

وبالرغم من أن اغتيال أمبروزولي قاطَع التحقيق الذي كان يجريه، بقي الملف الضخم صالحاً كدليل تجريمي في أثناء محاكمة ميشال سيندونا التي استُهلّت في نيويورك. واستمر روبرتو كالفي وبول مارسينكوس في إنكار تلقّيهما أي عمولة عن بيع مصرف فينيتو الكاثوليكي. وبدأت محاكمة سيندونا بسبب انهيار مصرف فرانكلين في أوائل شباط/فبراير 1979.

كان أعضاء مرموقون في الإدارة البابوية الرومانية كبول مارسينكوس والكردينالين البارزين جوزبّي كابريو وسيرجيو غيري مستعدّين للشهادة لصالح سيندونا. ولكن قبل ساعات من أدائهم الشهادة في السفارة الأميركية في روما، طلب الكردينال أغوستينو كازارولي من مارسينكوس وكابريو وغيري "إبقاء

أفواههم مُطبَقة"، عملاً بأوامر يوحنا بولس الثاني كما يبدو. وأصدر الفاتيكان في وقت لاحق بياناً رسمياً من خلال أمانة سر الدولة جاء فيه:

> قد يشكلون سابقة مؤذية ومثيرة للجدل إلى حدٍّ كبير. كان هناك قدر كبير من الدعاية، ويؤلمنا أن حكومة الولايات المتحدة لا تعترف بالفاتيكان على الصعيد الدبلوماسي، لأن الفاتيكان دولة شرعية.

لقد أنقذ كازارولي بالتأكيد دولة الفاتيكان من فضيحة محتَّمة بالرغم من عدم إطاعة أمر صريح ليوحنا بولس الثاني الذي كان قد أجاز لمارسينكوس وكابريو وغيري التعبير عن آرائهم دفاعاً عن سيندونا. ولم يدرك كازارولي المخلص هذا الأمر إلا بعد سنوات.

أخيراً، وفي 23 آذار/مارس 1980، وُجد ميشال سيندونا، مصرفيّ المافيا، مُذنباً بخمس وتسعين تهمة بما فيها الاحتيال، والتآمر، وشهادة الزور، وتزوير مستندات مصرفية، ووضع اليد من دون تفويض على أموال مودَعة في مصارفه. سُجن سيندونا في مركز العاصمة الإصلاحي بانتظار صدور الحُكم. وبينما كان يهِن في زنزانته مرتدياً ملابس برتقالية مؤلّفة من ثوب واحد بدلاً من بذلاته المعتادة التي يبلغ ثمن الواحدة منها خمسمئة دولار، واصل روبرتو كالفي وبول مارسينكوس صفقاتهما الخلاقة. وكانت بيلاتريكس، ومقرّها الرئيسي باناما، إحدى الشركات التي تعود على الفاتيكان بأكبر الأرباح.

وبالرغم من تأسيسها عام 1976 على يدَي كالفي بواسطة أموال مصرف الفاتيكان، كانت عمليات بيلاتريكس مراقَبة وموجَّهة كلّياً من قِبل مارسينكوس نفسه (كونه ممثلاً لمصرف الفاتيكان)، وليتشيو جيلي، وأومبرتو أورتولاني الماسوني، وبرونو تاسان دين، المدير التنفيذي والمحلل الاستراتيجي المالي لمجموعة ريزولي للنشر المتمتعة بالنفوذ.

وكانت ملايين الدولارات تحوَّل يومياً عبر بيلاتريكس من حسابات متعددة.

وبلغت الأموال المبيَّضة التي تم الحصول عليها جرّاء تهريب المخدرات أو القيام بعمليات مالية احتيالية الجانب الآخر من الأطلسي ووصلت إلى أيدي سياسيي أميركا الجنوبية الفاسدين. وللإشراف على بيلاتريكس، عيّن مارسينكوس ثلاثة أفراد من الحلف المقدس لرفع تقارير مباشَرة إليه متخطّين رئيسهم المباشَر المونسينيور لويجي بوغي.

كان جهاز التجسس الفاتيكاني يعلم أن كالفي افتتح في أيلول/سبتمبر 1976 فرعاً لبنكو كومرسيال، وهو شركة تابعة لغروبو أمبروزيانو. وبالرغم من كون وظيفته الرئيسية تسهيل التبادلات التجارية بين دول أميركا الوسطى، تمثّل دوره غير الرسمي - بموافقة بول مارسينكوس - بتحويل الأموال الناجمة عن الأعمال الاحتيالية إلى حسابات ناسو المصرفية.

من الواضح أن لويجي بوغي والحلف المقدس وجدا أنه من المُستحسن إغماض عيونهما على العمليات الاحتيالية التي ينظّمها مارسينكوس من خلال مصرف الفاتيكان. فبالرغم من كل شيء، يمكن على الدوام استخدام الأرباح لتمويل عمليات سرية خدمةً لمصلحة الكنيسة ودفاعاً عن الإيمان.

فليتشيو جيلي هو من عرّف كالفي بأناستازيو سوموزا في الواقع. ومقابل جعل نيكاراغوا ملاذاً آمناً للمقر الثاني لأموال الفاتيكان، ومقابل جواز السفر النيكاراغوي الذي يحمله كالفي حتى يوم مماته، دفع مصرف الفاتيكان للدكتاتور مبالغ طائلة من المال تُنقل في حقائب يحملها أحد عملاء الحلف المقدس.

في أواسط العام 1978، تمكّن الساندينيون من الإطاحة بالدكتاتور وتولّي الحكم في البلد. وكان التدبير الأول للنظام الجديد تأميم كل مصرف خارجي باستثناء بنكو كومرسيال التابع لغروبو أمبروزيانو. وتحسّباً لأي طارئ، كما كان حال سياسة الفاتيكان الخارجية على مر التاريخ، منح بول مارسينكوس ملايين الدولارات لقادة جبهة التحرير الساندينية الوطنية لشراء أسلحة من دول

كإسبانيا وفرنسا وبلجيكا.

كانت أسهم بنكو أمبروزيانو المباعة بشكل غير قانوني والخبّأة في شركات وهمية أنشأها مصرف الفاتيكان في باناما بعيدة عن متناول مفتشي مصرف إيطاليا، ولكن كالفي لم يكن مرتاحاً تماماً لوصول الساندينيين، فقرر نقل أعماله من نيكاراغوا إلى البيرو. لذلك، أسس في 1 تشرين الأول/أكتوبر 1979 بنكو أمبروزيانو أنداينو. وانتقلت أعمال بيلاتريكس فقط إلى ليما، واستمرت بقية الشركات بالتكاثر في اللوكسمبورغ. وبالإجمال، كانت تسع عشرة مؤسسة تدير أعمالها من تلك المدينة الأوروبية، وكلها ملك لمصرف الفاتيكان كما تُثبت الشهادة الصادرة عن مصرف الفاتيكان نفسه والمذيَّلة بتوقيع بول مارسينكوس.

ومع دنوّ نهاية العام 1979، بلغت الخسائر الاقتصادية لمصرف الفاتيكان 200 مليون دولار، وأشارت التوقعات إلى أن تكون 280 مليون دولار في العام التالي. ووفقاً للكردينال سيرجيو غيري الذي شغل منصب المدير الأعلى لمدينة-دولة الفاتيكان، قال له البابا يوحنا بولس الثاني شخصياً إن دولة الفاتيكان ستصاب بالإفلاس في نهاية العام 1985 إذا بقي الوضع على حاله. ولكن أُعلنَ في الوقت نفسه عن تقرير يتناول مصرف الإنعاش الدولي ويشير إلى قيام مصرف الفاتيكان بين عامَي 1978 و1979 بإيداع ما بين 0.9 بليون دولار و1.3 بليون دولار في مصارف أجنبية. وبلغ إجمالي الإيداعات داخل الفاتيكان وخارجه في تلك السنوات حوالى 2.5 بليون دولار. كان يوحنا بولس الثاني يدرك هذا الواقع، ولكنه لم يذكره في أثناء اجتماعاته مع الكردينالَين فليشي وبينيلي.

في أوائل الثمانينيات، ومع ازدياد الدَّين البولندي الخارجي ومواجهة البلد شتاءً من دون فحم حجري، جمّدت الحكومة الأجور مرة أخرى ورفعت أسعار السِّلع الأساسية. وهكذا، لم يتفاجأ أحد بقيام الإضرابات في مختلف أنحاء البلد. وبينما كان البابا يعمل مع رئيس جواسيسه المونسينيور لويجي بوغي في كاستل غاندولفو، اعتلى كهربائي عريض المنكبَين، كثّ الشاربَين، مشارك في الإضراب،

إحدى الجرافات في حوض لينين لبناء السفن، واسمه ليش فاليسا. كان عمال الحوض قد رفضوا الانضمام إلى الإضرابات طوال أشهر.

كان الاقتصاد البولندي في انحدار شديد من دون أي ضوابط، وملايين العمال في حالة من الاستياء. فانتشرت الإضرابات التي بدأت بأعمال صغيرة عفوية لتطال أكثر من خمسين شركة كبيرة تابعة للدولة.

وبالرغم من قتل الشرطة خمسٍ وأربعين عاملاً في حوض بناء السفن منذ العام 1970، لم يكن أحد يريد مواجهة جديدة. ولكن في ذلك اليوم، وبينما كان مدير حوض غدانسك، كليمنس جيش، يَعِد أولئك الذين يستأنفون العمل بزيادة للأجور، صرخ ليش فاليسا من أعلى الجرّافة لحشد من الناس قائلاً إن جيش كاذب.

في الواقع، ما بدأ إضرابات متفرّقة أصبح بعد وقت قليل "تمرّدات سياسية في إطار ثورة مضادة" كما قال ليونيد بريجنيف. وفي 16 آب/أغسطس، وعندما كان بعض العمال يَهمّون باستئناف العمل مقابل زيادة للأجور بلغت خمسمئة زلوتي وإطلاق وعد بتشييد نصب تذكاري إكراماً لضحايا كانون الأول/ديسمبر 197، شنّ فاليسا هجوماً مضاداً. فتقدّم بلائحة تتضمن ستة عشر مطلباً. وعندما كانت على وشك أن يتم قبولها، أضاف واحداً وعشرين مطلباً تتضمن موافقة الحكومة على نقابة عمال حرة. وفي ذلك اليوم نفسه، انضمّ أكثر من 180 مصنعاً للإضراب دعماً لمطالب فاليسا.

في غضون ذلك، كان يوحنا بولس الثاني يتلقى في الفاتيكان تقارير موثَّقة لعملاء الحلف المقدس يقوم المونسينيور لويجي بوغي بتسليمها إلى البابا بحضور الكردينال أغوستينو كازارولي. كان بوغي قد طلب من اليسوعي البولندي والعميل كازيميرز برزيداتيك تشكيل مجموعة من كهنة بولنديين يساعدون مُضربين ونقابيين على التسلل. ومذاك الحين، بات برزيداتيك مرافقاً دائماً لفاليسا كظلّه وأفضل مُخبر للفاتيكان عن الوضع البولندي.

وكان بوغي بحاجة إلى اتصال دائم بزعيم النقابة، فيقوم عميل الحلف المقدس كل ليلة بتوضيب معلومات من المصدر الرئيسي كان قد جمعها من الأحاديث التي أجراها مع العمال والكهنة. والأب هنريك يانكوفسكي، كاهن كنيسة القديسة بريجيدا القائمة في الأبرشية التي يقيم فيها فاليسا في غدانسك، هو أحد أفضل مصادره. كان يوحنا بولس الثاني يحب أن يسمع كيف أن عدداً قليلاً من عمال حوض بناء السفن تسلّقوا السياجات المرتفعة المزوَّدة بأسلاك شائكة لتعليق صور كبيرة للبابا، مثيرين دهشة رجال الشرطة الذين يتولون حراسة المنشأة. ومنذ بدايات عمله مع بول مارسينكوس، كان برزيداتيك يعلم أن الفاتيكان يريد أن يتلقى معلومات، وكان سعيداً بتوفيرها، حتى إنه ابتكر مسألة قيام العمال بعصيان أمر بإيقاف الإضراب، ومزّقوا صوراً لقادة الحكومة البولندية بعد تسلّق السياج واستبدلوها بصور ليوحنا بولس الثاني. لقد كانت كذبة بالطبع، ولكن الحَبر الأعظم كان مسروراً جداً بالرواية.

وكانت التضامن، وهي النقابة حديثة العهد التي أنشأها ليش فاليسا، الهدف الجديد للحلف المقدس.

وبمواجهة الخطر المتمثل بأن تصبح النقابة ملجأ آخر للشيوعيين المعتدلين، طلب البابا من بوغي اختيار عملاء للتسلل إلى حركة التضامن ومحاولة إقناع قادتها بجعلها منظمة أكثر انفتاحاً تضم إلى صفوفها قادة ومفكرين كاثوليك.

وأقنع برزيداتيك فاليسا بضم تاديوش مازوفيتسكي، محرر الصحيفة الكاثوليكية فيز، والمؤرخ الكاثوليكي برونيسلاف جيريميك، إلى قيادة التضامن. ومنذ تلك اللحظة، غدت حركة الإضراب تحت سيطرة الكنيسة. وفي غضون أيام قليلة، أبلغ الحلف المقدس بوغي بأن كبير الكرادلة ويزينسكي يكتب خُطبة مناهضة للإضراب على أن تقوم حكومة وارسو ببثّها على شبكة التلفزيون الحكومية. ونقل بوغي هذا الأمر لكازارولي، ولكن الخبير الدبلوماسي أدرك أن ليس باستطاعته قول أي شيء للبابا عن صديقه وحاميه السابق.

في ذلك اليوم، بدأ الكردينال ويزينسكي يتحدث عن الأخطاء التي ارتكبها كل الفرقاء. فلا يُفترض بأي شخص (مشيراً إلى المضربين) الإشارة بالبنان إلى جاره (الحكومة الشيوعية البولندية). "كلنا نرتكب أخطاء وخطايا"، قال الكردينال من منبر تشيستوكوفا. والجزء الأكثر أهمية في خُطبته يتناول مطالب المضربين: "لا يمكنكم طلب كل شيء في وقت واحد. من الأفضل أن يكون هناك برنامج عمل. لا يُفترض بأحد تعريض البلد للخطر".

وسقطت الخُطبة في المسامع كقنبلة. واعتبرها المضربون رسالة واضحة من الكنيسة لسحب مطلبهم بإنشاء نقابة مستقلة. واعترض مفكرون كاثوليك على ذلك ولكنهم لزموا الصمت في الأماكن العامة، ولم يولِ فاليسا أي اهتمام للكردينال المتقدم في السن، وأمضى يوحنا بولس الثاني ثلاثة أيام في التذمّر في أروقة كاستل غاندولفو قائلاً، "آه! ذلك العجوز... ذلك العجوز!".

وفي 31 آب/أغسطس، وُقّعت اتفاقيات غدانسك الشهيرة التي اعترفت بأول نقابة عمال مستقلة وراء الستار الحديدي. وبدأت حركة التضامن بالانتشار على طول بولندا وعرضها بدعم سياسي من الفاتيكان والبابا يوحنا بولس الثاني، وبتمويل من الحلف المقدس. وبعد أيام قليلة، سقط إدوارد جيريك وحلّ ستانيسلاو كانيا مكانه.

في 29 تشرين الأول/أكتوبر 1980، عقد المكتب السياسي السوفياتي دورة خاصة. وناقش أندروبوف، وغورباتشوف، وكيريلنكو، وشيرنينكو، وروساكوف، وغيرهم، الوضع البولندي. "أظن، وقد أثبتت الأحداث ذلك، أن القادة البولنديين لا يدركون تماماً فداحة الوضع الذي يواجهونه"، قال يوري أندروبوف، رئيس الكيه جي بي. "قد تزداد الأمور سوءاً ما لم يُفرض القانون العرفي. قواتنا الشمالية مستعدة وجاهزة للقتال"، أعلن أوستينوف. ولكن موقف أندريه غروميكو، وزير الخارجية، كان الأكثر راديكالية إذ أصرّ على وجوب عدم "فقدان بولندا. لقد فقد الاتحاد السوفياتي ستمئة ألف جندي

لتحريرها من النير النازي. لا يمكننا السماح بثورة مضادة الآن". ولزم الموجودون الصمت.

لم يكن أحد يريد تمرداً جديداً على غرار التمرد المجري عام 1956، أو ربيع براغ عام 1968. في الواقع، لم يكن أي قائد سوفياتي يريد رؤية الدبابات الروسية في أوائل العام 1980 تدخل وارسو لقمع الثورة المضادة.

بعد يومين من ذلك الاجتماع، وبفضل عميل للحلف المقدس تسلل إلى وزارة الدفاع البولندية، عرف يوحنا بولس الثاني وأغوستينو كازارولي فحوى الرسائل التي تتلقاها وارسو من موسكو. وكان العقيد ريزارد كوكلينسكي، أحد معاوني الجنرال فويسيتش ياروزلسكي، عميلاً لهما.

في 20 كانون الثاني/يناير 1981، أصبح رونالد ريغان رئيساً للولايات المتحدة. وقبل عدة أسابيع من القَسَم، كانت الاتصالات الاستراتيجية قد استُهلّت بين واشنطن ومدينة الفاتيكان، بين رونالد ريغان والبابا يوحنا بولس الثاني، وبين وليام كاسي، مدير السي آي أيه، والمونسينيور لويجي بوغي، مدير الحلف المقدس.

فمنذ أواخر العام 1980، كان النقاش الأميركي-الفاتيكاني حول الوضع البولندي دائراً بين زبيغنيو بريجنسكي، مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر، وبين الكردينال جوزيف تومكو، رئيس الدعاية في الفاتيكان والرئيس الأسبق لجهاز التجسس المضاد جمعية بيوس. كان تومكو مسؤولاً عن جمعية بيوس حتى قيام يوحنا بولس الثاني بتسليم مهمة إدارة شؤون جهازَي المخابرات الفاتيكانية إلى المونسينيور لويجي بوغي، وتستمر صيغة الإشراف المزدوج حتى يومنا هذا.

وبتفويض من جيمي كارتر ويوحنا بولس الثاني، وضع تومكو وبريجنسكي "عملية الكتاب المفتوح"، وهي خطة تقضي بإغراق دول أوروبا الشرقية إضافةً إلى مناطق الاتحاد السوفياتي، مثل أوكرانيا ودول البلطيق، بكتب مناهضة للشيوعية. وكان من المفترَض أن يجري التنسيق بين السي آي أيه والحلف

المقدس، من خلال الكهنة العاملين في تلك المناطق، لتنفيذ هذه العملية.

ولكن في حين كان يوحنا بولس الثاني يقدّم المساعدة لعملية الكتاب المفتوح، كان كارتر يعارض باستمرار. ودأب العقيد كوكلينسكي طوال أحد عشر عاماً على تزويد أجهزة المخابرات الفاتيكانية بمعلومات قيّمة. وبتزايد إمكانية دخول القوات المسلحة السوفياتية إلى بولندا، قرر الحلف المقدس مشاطرة السي آي أيه المعلومات الواردة من قيادة الأركان العامة البولندية.

وبينما كان يجري تشكيل الإدارة الأميركية الجديدة، واصل الفاتيكان اتصالاته بصلتَي وصل رئيسيّتين في واشنطن في شأن الوضع البولندي: مستشار الأمن القومي ريتشارد ألن، ومدير السي آي أيه وليام كاسي. وكانت التقارير الواردة من كوكلينسكي، والحلف المقدس، والفاتيكان، قيّمة للغاية لجهة التحليل الاستراتيجي. واحتفظ زبيغنيو بريجنسكي أيضاً بدوره كصلة وصل بين البيت الأبيض والحلف المقدس بقيادة بوغي.

كانت نظرة رونالد ريغان إلى الكنيسة الكاثوليكية والفاتيكان مختلفة تماماً عن نظرة الإدارات السابقة، بما في ذلك إدارة جون فيتزجيرالد كينيدي، الرئيس الكاثوليكي الوحيد للولايات المتحدة. فريغان ابن عامل كاثوليكي إيرلندي، وقد تركت تلك الخلفية أثراً في نفسه. وكان المقترعون الكاثوليك يشكلون إحدى كتله الناخبة الرئيسية؛ لقد شعر بالارتياح بوجود الكاثوليك، وكانت الكنيسة بالنسبة إليه وإلى مستشاريه، الثقل الموازن المثالي للشيوعية. وعلى غرار يوحنا بولس الثاني، كان الرئيس الأميركي يعتبر الماركسية واللينينية والشيوعية آفات يتعيّن استئصالها من العالم.

من الواضح أن موسكو كانت تعتبر حركة التضامن تهديداً غير مسبوق، "عدوى" تنتشر داخل المنظومة الشيوعية المتراصّة. وإذا أصابت الحركة دول البلطيق بالعدوى، فقد يؤدي ذلك إلى تفكيك الكتلة السوفياتية.

وكان يوحنا بولس الثاني ومستشاروه الرئيسيون في الفاتيكان على ثقة تامة

بأن الموجة الصدمية الناجمة عن فوز حركة التضامن ببولندا ستنتشر لتطال أوكرانيا، والبلقان، ولاتفيا، وليتوانيا، وأستونيا، وربما تشيكوسلافاكيا أيضاً. وأدرك ريغان أن هذا الانتشار يعني نهاية الحرب الباردة وانتصار الرأسمالية على الشيوعية.

وفي أثناء اجتماع حضره الرئيس ريغان، ووليام كاسي، والمستشار الرئاسي وليام كلارك، قال الأخير: "لا يمكننا دخول البلد والإطاحة بالحكومة باسم الشعب. كل ما يمكننا القيام به هو استخدام حركة التضامن كسلاح لتحقيق ذلك". حدث ذلك عندما قرر ريغان تقديم مساعدة مالية أميركية للحركة. ولم يكن كاسي يعلم كيفية تدبّر هذه الأموال، ولكن الفاتيكان قدّم الحل.

فقد كان جان نوفاك، رئيس المؤتمر البولندي-الأميركي، صلة الوصل للعمليات المشترَكة الجديدة بين السي آي أيه والحلف المقدس في بولندا. وتمثّل دوره بمواصلة تدفّق المعلومات بين وارسو والفاتيكان، ومن الفاتيكان إلى واشنطن. واضطلع نوفاك أيضاً بمهمة جمع الأموال وإرسالها إلى بولندا لتمويل وسائل إعلام سرّية، وآلات طابعة، وآلات تصوير مستندات، وغيرها.

واضطلع رئيس الأساقفة بيو لاغي، الممثل الرسولي للبابا في واشنطن، بدور ريادي أيضاً في "عملية بولندا". وكان كاسي وكلارك يحبان زيارة لاغي في مقر إقامته. وفي أثناء ارتشافهم الكابوتشينو، كانوا يتحدثون عن الوضع السياسي في أميركا الوسطى، وعن تحديد النَّسل، وعن بولندا بصفة خاصة. كان رونالد ريغان بحاجة إلى جمع معلومات عن مختلف أوجه العمليات المخابراتية التي يقوم بها الحلف المقدس في بولندا. فظهر الكردينال جون كرول من فيلادلفيا أيضاً على الساحة البولندية.

بدأ ألن وكاسي ورونالد ريغان شخصياً بالتقاء كرول الذي اعتاد دخول البيت الأبيض من الباب الخلفي. فقد كان الكردينال كرول يُطلع البيت الأبيض، أكثر من أي كاهن آخر، على وضع حركة التضامن، والحاجات، والعلاقة بالأساقفة

البولنديين. وبالرغم من تدخّل كرول في غالب الأحيان بعمليات واتصالات الحلف المقدس بقيادة المونسينيور لويجي بوغي، كانت علاقة رئيس أساقفة فيلادلفيا بالرئيس ريغان أمراً يتعيّن الاستفادة منه بالنسبة إلى الفاتيكان ويوحنا بولس الثاني؛ كان أتباع رونالد ريغان يدعون جون كرول "صديق البابا". وفي ربيع العام 1981، أصبحت العلاقات بين البيت الأبيض والفاتيكان شديدة المرونة، ولا سيما في ما يتعلق ببولندا وأميركا الوسطى. فوليام كاسي، وفيرنون والترز، ووليام كلارك، وزبيغنيو بريجنسكي، من الجانب الأميركي، والمونسينيور لويجي بوغي والكرادلة بيو لاغي، وجون كرول، وأغوستينو كازارولي، من جانب الفاتيكان، أصبحوا بمثابة قوة صدم مسؤوليتها الوحيدة دعم نقابة التضامن في صراعها مع الحكومة الشيوعية في وارسو.

وفي كل رحلة يقوم بها إلى روما للقاء يوحنا بولس الثاني سراً، كان سفير ريغان الخاص فيرنون والترز يرسل مزيداً من التقارير الوافرة، ويتحدث إلى البابا عن بولندا، وأميركا الوسطى، والإرهاب، والتشيلي، والقوة العسكرية الصينية، والأرجنتين، ولاهوت التحرر؛ أو صحة ليونيد بريجنيف، وطموحات باكستان النووية، وأوكرانيا، والوضع في الشرق الأدنى. باختصار، كان بين يوحنا بولس الثاني وفيرنون والترز اتصال جيواستراتيجي.

في المقابل، كان الحلف المقدس يتلقى تقارير السي آي أيه المستندة إلى مخابرات هاتفية لكهنة وأساقفة نيكاراغويين وسلفادوريين تم اعتراضها، وتشير إلى تأييدهم للاهوت التحرر ومشاركتهم الناشطة في معارضة القوى المدعومة من قِبل الولايات المتحدة. وعملاً بأوامر وليام كاسي، كان أوليفر نورث وأعضاء آخرون في مجلس الأمن القومي يدفعون مبالغ مالية سرّية لكهنة في أميركا الوسطى منتمين إلى الطبقة العليا وموالين للبابا والحلف المقدس. ولا وجود لأي دليل يثبت أن البابا يوحنا بولس الثاني أو أي مسؤول فاتيكاني آخر رفيع المقام وافق على دفع هذه المبالغ المالية، ولكن هناك ما يشير إلى أن لويجي بوغي

كان مطّلعاً على الأمر.

وفي 23 نيسان/إبريل 1981، وصل وليام كاسي إلى روما للعمل على مواصلة الدعم الذي توفّره السي آي أيه والحلف المقدس لحركة التضامن. كان مدير الوكالة يعرف أن الوضع البولندي يتخذ منحى تطورياً أكثر منه ثورياً وأن إخراج بولندا من الفلك السوفياتي أمر أساسي. وتحدّث يوحنا بولس الثاني وكازارولي إلى السفير السوفياتي في روما في ثلاث مناسبات مختلفة، وأُبقي كاسي على اطّلاع على ما كان يدور من أحاديث.

فخشي ياروزلسكي من كارثة حقيقية قد تتوَّج بدخول جنود الجيش الأحمر إلى وارسو وسحق رجال حركة التضامن. كان قد طلب مساعدة ويزينسكي لإقناع فاليسا بإيقاف الإضراب العام.

وعندما رفض فاليسا وبقية القادة ذلك، جثا الكردينال على ركبتَيه أمام زعيم نقابة التضامن، وأمسك بساق سرواله وقال إنه لن يُفلته حتى يوافق فاليسا على إنهاء الإضراب.

ونجح الابتزاز العاطفي. فأمر فاليسا بإنهاء الإضراب مما سمح للجنرال ياروزلسكي بإخبار موسكو بأنه يُمسك بزمام الأمور. وفي 9 شباط/فبراير 1981، أصبح ياروزلسكي رئيس وزراء جمهورية بولندا الشعبية مكان جوزيف بينكوفسكي بعد حدوث انقلاب. كان يُعتبر ياروزلسكي، كما قال بوغي للبابا، متشدداً معارضاً لأي تحرير للحياة العامة، وأصبح العدو الرئيسي لحركة التضامن وعمليات الحلف المقدس في بولندا.

كان وليام كاسي يتحدث عن أميركا الوسطى، في أثناء اجتماعه بالبابا، وعن إمكانية تمدد الشيوعية عبر تلك المنطقة، وعن قيام كوبا بتدريب المقاتلين النيكاراغويين والساندينيين. وقال كاسي ليوحنا بولس الثاني إن "الروس، والكوبيين، والبلغاريين، والكوريين الشماليين، متورّطون بالأمر". وسلّم أيضاً يوحنا بولس الثاني غلافاً يحتوي على تقرير مصنّف بأنه "سرّي للغاية". فلم

يفتحه البابا بل مرّره للمونسينيور بوغي الذي كان جالساً بجانبه وحاضراً على الدوام عندما يجتمع الحَبر الأعظم برئيس السي آي أيه.

كان جهاز التجسس الإيطالي قد زوّد السي آي أيه بالتقرير. فعندما قدِم ليش فاليسا إلى روما في كانون الثاني/يناير للاجتماع بالبابا، وفقاً للتقرير، التقى أيضاً لويجي سكريشيوللو من اتحاد العمال الإيطالي. وقال جهاز التجسس المضاد الإيطالي في التقرير إن سكريشيوللو كان في الواقع عميلاً لجهاز المخابرات البلغاري. وهذا يعني بالنسبة إلى الإيطاليين أنه بالإمكان إفشاء خطط حركة التضامن أو أن يكون ليش فاليسا هدفاً لمحاولة اغتيال.

وفي 13 أيار/مايو 1981، لم يكن هناك ما يوحي بوقوع مأساة. لقد تناول يوحنا بولس الثاني طعام الغداء مع عدة ضيوف. وحوالى الخامسة، غادر البابا إلى القصر الرسولي لإجراء المقابلة الأسبوعية مع الجماهير في ساحة القديس بطرس. وتجمّع آلاف الأشخاص في الوقت المحدد داخل الدائرة التي تشكّلها أعمدة برنيني البالغ عددها 264 عاموداً والمتوَّجة بحوالى 162 تمثالاً للقديسين. وكان تركي شاب قد وصل إلى الساحة قبل نصف ساعة من موعد المقابلة.

وكان الممرّ الذي أُزيل السياج عن جانبَيه هو الطريق الذي ستسلكه سيارة البابا من دون أي مواكبة، كما طلب يوحنا بولس الثاني. فوصل إلى العربة وصعد إليها، وتبعه كاميلو سيبين، رئيس جهاز الأمن في الفاتيكان، وعميلان ببذلات زرقاء، وعميلان من الحلف المقدس، وأربعة أفراد من الحرس السويسري. كان بوغي قد استدعى سيبين قبل أشهر لتحذيره مما جاء في تقرير للمخابرات الفرنسية بإمكانية وجود مؤامرة يحيكها جهاز مخابرات حلف وارسو لقتل الحَبر الأعظم، لذلك كان يجب على رجال سيبين أن يكونوا متيقّظين.

عند الخامسة وثماني عشرة دقيقة من بعد الظهر، وبعد انتهاء البابا مباشَرةً من حمل طفل بين ذراعَيه، دوّى أول طلق ناري في ساحة القديس بطرس. فبدأ

يوحنا بولس الثاني بالتمايل، ممسكاً درابزين السيارة بيدَيه. لقد اخترقت الرصاصة التي أطلقها محمد علي أقجا معدته وتسببت بجراح بليغة في المِعى الدقيق والقولون. وأدرك يوحنا بولس الثاني أنه أصيب بجراح بسبب ألم لا يُحتمَل في معدته. ومن دون طرف عينَيه، حاول عبَثاً إيقاف تدفّق الدماء بيدَيه من الثقب الصغير التي أحدثته الرصاصة.

وبعد ثوانٍ قليلة، أطلق المهاجم النار ثانيةً. هذه المرة، أصابت الرصاصة اليد اليمنى للبابا. وأصاب الطلق الناري الثالث ذراع البابا. فنظر السائق إلى الوراء من دون أن يعِي ما يحدث ورأى سيبين يسند رأس البابا الذي سقط على المقعد مُحدثاً بقعة كبيرة من الدماء تحته.

فصرخ سيبين لعملائه الذين بدأوا بالبحث عن مُطلق النار شاهرين أسلحتهم. وركض أقجا حاملاً سلاحه من نوع براونينغ 9 ميلليمترات بيده، وتوارى وسط الحشد. وبينما كان يلوذ بالفرار، ركله أحدهم على ساقَيه فسقط على الأرض. كان هذا الشخص شرطياً إيطالياً يقوم بنزهة في الساحة، وأصبح الشخص الذي اعتقله.

وفي أثناء وجود محمد علي أقجا على الأرض، كان عدد من العملاء البابويين يركلونه ويضربونه قبل جرّه إلى عربة للشرطة. في غضون ذلك، اتجهت سيارة البابا بأقصى سرعة إلى البوابة البرونزية لنقل البابا إلى سيارة إسعاف. ووسط الصراخ والبكاء، شقّت السيارة طريقها إلى كلينيكا جيميلي في روما، وهي أقرب مستشفى إلى الفاتيكان.

وفي وحدة الجراحة في الطابق التاسع، نزع الفريق الطبي رداء البابا يوحنا بولس الثاني وظهرت ميدالية ذهبية وصليب مغمّسان بالدم. والمثير للغرابة أن الميدالية لُويت بعد إصابتها بإحدى الرصاصات؛ لقد حالت الميدالية كما يبدو دون بلوغ الرصاصة صدر البابا، فتحوّل مسارها إلى سبّابة يده اليمنى.

وبعد أن استعاد وعيه إثر عملية جراحية دامت ست ساعات أمضاها بين

الحياة والموت، كان يوحنا بولس الثاني على ثقة تامة بأن عذراء فاطمة أنقذت حياته. وفي أثناء تعافيه طيلة أشهر عدة، أصبحت رغبته في معرفة مَن أمر باغتياله هاجساً بالنسبة إليه. فقرأ كل تقارير الحلف المقدس الذي اتخذ من السي آي أيه، والبي أن دي الألماني، والموساد الإسرائيلي، وأجهزة المخابرات النمساوية والتركية، مصدراً لمعلوماته. ولم تُجب أي من هذه التقارير عن سؤاله. ولم يعرف شيئاً كذلك عندما مَثُل محمد علي أقجا أمام محكمة رومانية في الأسبوع الأخير من تموز/يوليو 1981، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة.

ووفقاً للكاتب غوردون توماس في كتابه جواسيس جدعون: التاريخ السري للموساد، إن المونسينيور لويجي بوغي، رئيس الحلف المقدس، هو من وفّر الإجابة. لقد عمل الجاسوس البابوي طيلة أشهر، وبشكل وثيق، مع إسحق حوفي، رئيس الموساد. وعقد بوغي اجتماعات سرية في فيينا، ووارسو، وباريس، وصوفيا. وفي تشرين الثاني/نوفمبر 1983، عاد المونسينيور لويجي بوغي من اجتماع في فيينا مع إجابة عن سؤال يوحنا بولس الثاني، من أمر بقتله؟

انتظر سائق بوغي عدة ساعات في المطار وصول الطائرة القادمة من العاصمة النمساوية. وعندما وصلا إلى بوابة الأجراس، كان بإمكانهما المرور بسبب علامة التعريف الموجودة على السيارة، ولكن الحرس السويسري أوقفهما بالرغم من ذلك لتحديد هوية الراكب. ولدى رؤيته، تأهّب الجنود وأدّوا التحية لرئيس الحلف المقدس.

كان رئيس الأساقفة يرتدي معطفاً أسود طويلاً مع شال يغطي وجهه بالكامل، ولكن جسده الضخم كان واضح المعالم. وبينما كان يستجمع الدفء بعد شعوره بالبرد، واصل التفكير ملياً في اجتماعه السري الذي عقده في الحيّ اليهودي في فيينا. ففي شقة شبه مهدَّمة، كان بوغي قد استمع بانتباه إلى ضابط مخابرات في الموساد يدعى إيلي الذي أجاب عن السؤال الذي كان يوحنا بولس الثاني يطرحه باستمرار.

وارفق رئيس الخدم بوغي إلى مكتب البابا حيث كانت كتب وتقارير عسكرية مكدَّسة على الرفوف. كان رئيس جهاز التجسس البابوي يعلم بأن محاولة الاغتيال أزعجت البابا جسدياً وفكرياً. وبعد ترحيب سريع، جلس بوغي ويداه على ركبتَيه، وبدأ يروي القصة التي سمعها في النمسا بصوت منخفض. كانت الأخبار تتدفق باستمرار إلى مقرات قيادة الموساد في تل أبيب بعد 13 أيار/مايو 1981 المشؤوم. وبما أن أجهزة المخابرات تُجري تحقيقاتها الخاصة، تمكن حوفي من إبقاء الموساد خارج الأمر.

بدأ التحقيق الإسرائيلي عام 1982 في الواقع بأمر من بديل إسحق حوفي، ناحوم أدموني. وكانت وجهة النظر الأميركية أن علي أقجا ضغط على الزِناد بأوامر من الكيه جي بي بسبب خشيتها من أن يُشعل دعم يوحنا بولس الثاني وأجهزة مخابراته الواضح لحركة التضامن فتيل القومية البولندية. وناقشت الكاتبة كلير ستيرلينغ وجهة النظر هذه نفسها في كتابها زمن القتلة. وبالنسبة إلى الإسرائيليين، حيكت المؤامرة في طهران بأوامر من آية الله الخميني. فاغتيال البابا هو الخطوة الأولى للجهاد ضد الغرب. ويطرح الصحافي الروسي إدوارد كوفاليوف هذه الفرضية في كتابه محاولة اغتيال في ساحة القديس بطرس. لقد خططت أجهزة المخابرات الإيرانية لوصف أقجا بأنه متعصب متوحّد، وذلك تحسّباً لفشل التركي.

أخبر بوغي البابا قصة أقجا كما وردت في تقرير الحلف المقدس الذي سلّمه إلى الحَبر الأعظم في إضبارة حمراء: "وُلد محمد علي أقجا في قرية يسيلتب شرقي تركيا. انضم في سن التاسعة عشرة إلى الذئاب الرمادية، وهي مجموعة إرهابية موالية لإيران تموّلها طهران. في شباط/فبراير 1979، قتل أقجا محرر صحيفة اشتهر بمواقفه الموالية للغرب. وبعد أيام قليلة، تلقّت الصحيفة لائحة وضعها أقجا كما يُظَنّ وتشير إلى يوحنا بولس الثاني كقائد للحملات الصليبية، وهدد بقتله إذا وطئت قدماه أرضاً إسلامية".

لم يقاطع البابا رواية بوغي إلا لتوقفات وجيزة بهدف شرب الماء وطرح أسئلة محددة. انتقل أقجا إلى ليبيا، أكمل الجاسوس البابوي، ومن ثم إلى بلغاريا في شباط/فبراير من العام 1981 للقاء عملاء في جهاز مخابرات ذلك البلد. وطلب وليام كاسي ابتكار "صلة بلغارية" اعتقاداً منه بأن الكيه جي بي حاولت إقحام السي آي أيه في محاولة اغتيال البابا. ووفقاً لهذه النسخة من الرواية، أمرت الكيه جي بي البلغاريين بتدبّر مؤامرة لتصفية البابا بسبب سياسته حيال بولندا وحركة التضامن.

وفي 23 كانون الأول/ديسمبر 1983، سنحت للبابا يوحنا بولس الثاني فرصة طرح السؤال الذي لم يكفّ عن التفكير فيه طيلة العامين الأخيرين على محمد علي أقجا. ففي سجن ربيبيا في روما، دخل البابا الزنزانة تي 4 بمفرده. وجثا علي أقجا وقبّل خاتم صياد السمك دلالةً على الاحترام.

فجلس الرجلان ورأساهما متلامسان تقريباً، وبدأ أقجا بالتكلم هامساً في أذن البابا. وبينما كان البابا يُصغي إلى ما يقوله أقجا، ازداد وجهه قتامةً. أخيراً، حصل يوحنا بولس الثاني على الإجابة عن سؤاله.

في وقت لاحق، شرح جاسوس البابا، المونسينيور بوغي، قائلاً: "لدى علي أقجا معلومات معيَّنة، هذا كل شيء. عدا ذلك، هو لا يعرف أي شيء. إذا كانت هناك مؤامرة، فإن محترفين وضعوها، ولا يترك المحترفون أي أثر. لا يمكن للمرء أن يجد أي أثر".

وبدءاً بتاريخ 13 أيار/مايو 1981، وُضعت عشرات الكتب والمقالات لشرح من حاول قتل البابا يوحنا بولس الثاني بعد ظهر ذلك اليوم في ساحة القديس بطرس. وطرح الكتّاب مئات المؤامرات المفترَضة وعشرات الحوافز السياسية. واتهم البعض إيرانيي الجهاد؛ واتهم البعض الآخر السوفيات بسبب السياسات البابوية في بولندا؛ واتهم آخرون السي آي أيه بسبب صلة محمد علي أقجا بعميل سابق في ليبيا؛ واتُهم البلغار بأنهم دُمى في أيدي الكيه جي بي. ولكن

بعد أكثر من عشرين عاماً على إطلاق النار في ساحة القديس بطرس، لا أحد يعلم عِلم اليقين من كان وراء قيام محمد علي أقجا بالضغط على الزِناد؛ ولا حتى الحلف المقدس.

بعد سنوات قليلة على لقاء الحَبر الأعظم علي أقجا في 23 كانون الأول/ديسمبر في سجن ربيبيا، تبيّن أنه طلب من المونسينيور لويجي بوغي، وبالتالي من الحلف المقدس وجمعية بيوس، وقف كل التحقيقات المرتبطة بمحاولة الاغتيال. ولدى تلقيه "الأمر الحَبري"، بدأ الجاسوس البابوي يتصرف وفقاً للأسلوب الفاتيكاني الأكثر تعبيراً عن الطاعة، أي أنه أخفى كل ما يتعلق بيوم 13 أيار/مايو 1981 بحجاب السرّيّة. وفي 24 كانون الأول/ديسمبر من العام 1983، وبينما كان الفاتيكان يستعدّ للاحتفال بالميلاد، قام عميلان للحلف المقدس، وبحماية أربعة أفراد من الحرس السويسري، بنقل كل الوثائق ذات الصلة في صناديق مُحكمة الإغلاق تحمل الشعار الحَبري إلى محفوظات الفاتيكان السرية حيث ما زالت حتى اليوم.

في غضون ذلك، باتت الأمور التي كانت لا تزال عالقة في قضية مصرف الفاتيكان-بنكو أمبروزيانو-كالفي-مارسينكوس على وشك أن يتم ربطها بالقضية ككل. وفي 13 حزيران/يونيو 1980، حكمت محكمة أميركية على مصرفيّ المافيا ميشال سيندونا بالسجن لمدة واحد وعشرين عاماً. ومع ذلك، كان لا يزال لديه الكثير من الأمور ليقولها، غير أنه قُتل عام 1986. وكان يتعيّن قول مزيد من الأمور، بصورة عامة، في السنوات البولندية.

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد

Telegram @read4lead

الفصل العشرون

السنوات البولندية (1982-2005)

كانت الثمانينيات فترةً مرهقة للحلف المقدس بسبب العمليات التي قام بها على أرض أجنبية. وعُيّن غالبية العملاء في بولندا، في حين عُيّنت مجموعة صغيرة في أميركا الوسطى. في هذه السنوات، طلب المونسينيور لويجي بوغي من الحَبر الأعظم إعفاءه من "هذه المسؤولية الكبيرة"، ولكن يوحنا بولس الثاني لم يكن راغباً في فقدان رئيس جواسيسه في هذا الظرف بالغ الأهمية، فرفض طلب بوغي ثماني مرات.

في بولندا، كانت الأمور تزداد سوءاً، بالغةً حد التحول إلى كارثة. وفي 4 تشرين الثاني/نوفمبر 1981، اقترح ياروزلسكي على فاليسا وكبير الكرادلة البولندي جوزيف غليمب إنشاء "جبهة وفاق وطني" للتفاوض حول إنهاء حالة الفوضى المهيمنة على البلد. فرفض فاليسا لأن هدف ياروزلسكي الوحيد كبح جماح حركة التضامن من خلال إنشاء عدد من النقابات الرسمية.

وأبلغ الحلف المقدس البابا يوحنا بولس الثاني (الذي كان لا يزال يتماثل للشفاء)، والكردينال كازارولي، والمونسينيور بوغي، عن رسالة احتجاج كان بريجنيف قد كتبها إلى ياروزلسكي. ووقعت الرسالة بين أيدي جاسوس بابوي ومعاون ياروزلسكي، العقيد ريزارد كوكلينسكي، الذي عُرف باسم غال (النَورس). ولدى اجتماعهما، قال القائد السوفياتي للجنرال ياروزلسكي: "أحذّرك من أن منح حركة التضامن والكنيسة أدواراً هامة في ممارسة الحكم، سيكون سبباً لدمار الاشتراكية". لقد كان أكثر من تحليل؛ إنه إحساس مُسبَق.

في صباح 30 تشرين الثاني/نوفمبر، التقى الموفد الخاص لرونالد ريغان، فيرنون والترز، الحَبر الأعظم. وحمل الدبلوماسي الأميركي معه للبابا صوراً ملتقَطة من أقمار اصطناعية تجسسية. وظهر في الصور بالأسود والأبيض حوض بناء السفن وأحواض غدانسك؛ وعلى بُعد أقل من أربعين كيلومتراً عدة أرتال من دبابات

سوفياتية الصنع تدنو من المنشآت. كان البابا يُدرك معنى ذلك حتى قبل أن يدرك والترز ذلك.

وكان غال قد رفع تقريراً من خلال أحد معارفه التابعين للحلف المقدس جاء فيه أن الجنرال ياروزلسكي وقائد الأركان البولندي يُعدّان عملية عسكرية لفرض القانون العُرفي. ومع ذلك، لم يكن غال يعرف زمان وكيفية حدوث ذلك، وتوقفت كل الاتصالات بعد ذلك. وفي الصباح، حضر كوكلينسكي اجتماعاً في مكتب الضابط المعاون الأكبر في الجيش البولندي الذي كان مسؤولاً عن وضع التفاصيل القانونية لفرض القانون العُرفي. وفي غرفة واسعة مليئة بالخرائط والصور الفوتوغرافية، قال الجنرال لكوكلينسكي إنه لا يعلم كيف حدث ذلك، ولكن الولايات المتحدة والفاتيكان علما بخططهم.

في الواقع، إن كوكلينسكي هو من مرّر المعلومات. وفي أثناء الاجتماع، لزم الهدوء، ولكنه علم بأنه مشتبَه فيه عندما اكتشف أن عملاء لجهاز المخابرات كانوا يراقبونه بعد مغادرته المقر الرئيسي لقيادة الأركان البولندية. لقد بات غال تحت أنظارهم وبحاجة إلى المساعدة للفرار.

من الواضح أن شخصاً ما داخل الفاتيكان، قد يكون ضابطاً مقرَّباً من الوسط الحاكم، أبلغ الكيه جي بي كما يبدو بوجود عميل للحلف المقدس يمرر معلومات لأجهزة المخابرات الأميركية والفاتيكانية. فأخبر الكيه جي بي بدورهم نظراءهم البولنديين.

وهرع العقيد ريزارد كوكلينسكي، الملقَّب بغال، إلى منزله. وفي غضون أيام قليلة، تمكن من الاتصال بصلة الوصل مع الفاتيكان والإبلاغ بأنه وعائلته يحتاجون إلى فرار آمن. فطلب المونسينيور لويجي بوغي من جهاز التجسس البابوي تأمين مرور آمن لجاسوسه.

وبفضل الاتصالات التي يقيمها الحلف المقدس مع الإدارة البابوية الكندية، وواقع أن كوكلينسكي اعتاد المرور كل صباح بجانب ذلك المبنى الدبلوماسي في

وارسو، أعدّ الحلف المقدس خطة الفرار، وحُدّد الموعد يوم الجمعة التالي، وهو يوم احتفالات في مختلف أنحاء بولندا.

في الصباح، دخل كوكلينسكي وعائلته سيارتهم تحت مراقبة مشدَّدة مرتدين ثيابهم العادية وحاملين سلال النزهة كما لو أنهم متجهون إلى الريف. في الواقع، كانت السلال تحتوي على مستندات العائلة كافة. وعندما اقتربوا من الجادّة المواجهة للباب الرئيسي للسفارة الكندية، زادت السيارة من سرعتها واستدارت إلى اليسار فجأةً بينما قامت شاحنة محمَّلة بأنابيب معدنية يقودها كازيميرز برزيداتيك بقطع الطريق على السيارات السوداء التي تتبع كوكلينسكي عن كثب. وتوجهت سيارة العميل السابق بسرعة إلى باحة البعثة الدبلوماسية وأُغلقت البوابات الضخمة وراءها. وترك العقيد ريزارد كوكلينسكي، المعروف بغال، وهو أفضل جاسوس للحلف المقدس، تلك الحياة خلفه. لقد تمكنت الذراع الطويلة للويجي بوغي من إيصاله وعائلته إلى برّ الأمان بالتعاون مع السي آي أيه. وفي 12 كانون الأول/ديسمبر، فرض الجنرال فويسيتش ياروزلسكي الحكم العُرفي.

وبينما كانت أسوار الفاتيكان تهتزّ للأخبار المثيرة القادمة من الوطن الأم للحَبر الأعظم، كان بول مارسينكوس يُعِدّ في أغوار مصرف الفاتيكان إحدى العمليات الأكثر جنياً للأرباح التي لم يسبق للفاتيكان أن تورط في عملية مماثلة لها من قَبل. وكانت شركة بيلاتريكس الشهيرة أداة هذه العملية.

لهذه الغاية، اختار مارسينكوس فريقاً من ثلاثة عملاء للحلف المقدس بقيادة الأب كازيميرز برزيداتيك الذي عاد من وارسو بعد إنقاذ كوكلينسكي وعائلته. وفي أواخر العام 1981، ركز انتباهه على "عملية السمكة الطائرة".

فمنذ أن أطاحت الطُغمة الحاكمة من ضباط عسكريين ذوي مراتب رفيعة بقيادة الجنرال خورخي فيديلا بالرئيس إيزابيل مارتينيز دي بيرون في 24 آذار/مارس 1976 وتولت الحكم في الأرجنتين، ازدادت العلاقات بين بوينس آيرس

والكرسي الرسولي وثاقةً. في الواقع، كان العديد من القادة الذين يؤلفون "الحكومة الثلاثية"، كالأميرال إميليو إدواردو ماسيرا، يحتفظون بعلاقات هامة مع المحفل الماسوني بي 2 التابع لليتشيو جيلي.

وبفضل هذا الأخير، وعبر غطاء أمّنه له ثلاثة عملاء للحلف المقدس، نقل روبرتو كالفي للطُغمة الحاكمة في الأرجنتين ملايين الدولارات الخاصة عبر شركة بيلاتريكس التي يملكها الفاتيكان لشراء صواريخ إكزوسيت فرنسية الصنع. واسم هذه العملية السرية، السمكة الطائرة، مستمَدّ من الاسم الشائع للسمكة إكزوكوتس التي تنزلق بسرعة على صفحة الأمواج كالإكزوسيت تماماً. وفي حين حاولت القوات الأرجنتينية المسلحة الحصول على أكبر عدد ممكن من الصواريخ، مستفيدين من جهود كالفي وأجهزة مخابرات الفاتيكان، حاولت رئيسة الوزراء تاتشر وجهاز المخابرات البريطاني أم 16 منعهم من ذلك بالوسائل الممكنة كافة. "كان الأرجنتينيون يملكون عدداً محدوداً فقط من صواريخ إكزوسيت الفرنسية المدمِّرة. لقد قاموا بمحاولات يائسة لزيادة ترسانتهم... من جهتنا، نقوم بمحاولات يائسة أيضاً للحؤول دون إتمام هذه الصفقة"، كتبت مارغريت تاتشر في مذكّراتها بعد سنوات، السنوات التي أمضيتها في داونينغ ستريت.

وأصدرت تاتشر أمراً للمخابرات البريطانية بعدم ادّخار أي جهد للكشف عن أي مسعى أرجنتيني للحصول على صواريخ إكزوسيت أو أي أسلحة أخرى، والحؤول دون إتمام هذه الصفقات. وفي العام 1981، وقّعت الأرجنتين عقداً مع الحكومة الفرنسية لشراء أربع عشرة طائرة من طراز سوبر-إيتاندار وأربعة عشر صاروخ إكزوسيت. وفي 2 نيسان/إبريل 1982، لم تتلقَّ سوى خمس طائرات وخمسة صواريخ.

فما لم يُدركه رئيس الوزراء البريطاني في ذلك الوقت هو أن الأرجنتينيين لم يكونوا من سعوا لشراء الصواريخ من السوق السوداء، بل بعض المتآمرين

بقيادة المحفل الماسوني بروباغاندا 2، قام الفاتيكان بتمويلهم، ونفّذ عملاء للحلف المقدس مخططهم.

وكما يُستدَلّ من تقرير أم 16، تمكنت الطغمة الأرجنتينية العسكرية الحاكمة من الحصول على ستة صواريخ إكزوسيت بوسائل غير معروفة. واتضحت نتيجة عملية السمكة الطائرة عندما أقلعت طائرتا سوبر-إيتاندار من القاعدة الجوية البحرية ريو غراندي وقد زُوّدت كل منهما بصاروخ إكزوسيت واحد فقط. وانخفضت الطائرتان بعد ذلك تحت مستوى نطاق رادار الأعداء البريطانيين. وحدّد كل طيار هدفاً كبيراً وثلاثة أهداف متوسطة الحجم، وسدّد الصاروخ على الهدف الأكبر حجماً وأطلقه عن بُعد حوالى خمسين كيلومتراً. فأُصيبت المدمِّرة إيتش أم أس شفيلد إصابة قاضية.

في نهاية النزاع، كانت الصواريخ التي ساهم رجال الفاتيكان بتزويد الأرجنتين بها قد أصابت المدمّرتَين إيتش أم إس شفيلد وإيتش أم أس غلامورغان والسفينة المستوعَب أس أس أتلنتيك كونفيور، متسببةً بمقتل خمسة وخمسين بحّاراً وجرح أكثر من مئة شخص.

وفي نهاية عملية السمكة الطائرة، نجحت الشركة المالية العائدة للكرسي الرسولي بنقل أكثر من 700 مليون دولار، انتهى 11 مليون دولار منها إلى حساب دولة الفاتيكان المصرفي "بي". ووفقاً للتحقيق الأخير، قام الكردينال لويجي بوغي، رئيس الحلف المقدس، وبتستّر المونسينيور بول مارسينكوس، رئيس مصرف الفاتيكان، والكردينال أغوستينو كازارولي، رئيس الدبلوماسية الفاتيكانية، وبتفويض من الحَبر الأعظم يوحنا بولس الثاني، باستخدام هذه الأموال لتمويل نقابة التضامن البولندية. ولكن يداً آثمة قررت الكشف عن بقية الخيوط المتعلقة بفضيحة بنكو أمبروزيانو. وكان روبرتو كالفي أول من ضُمنت سلامته.

ومنذ 31 أيار/مايو 1982، بدأ كالفي بالتذمّر لدى مجموعة من الكرادلة، بمن

فيهم بييترو بالازيني، مدير مجمع التطويب. لقد قال لهم كالفي بنبرة مهدِّدة إن مصرف الفاتيكان سينهار إذا ما انهار بنكو أمبروزيانو. فطيلة سنوات، كان روبرتو كالفي يطالب بأن يقوم مارسينكوس بإيجاد حل للمشكلة المشترَكة المتمثلة بتراكم دَين ضخم على شركات قائمة عبر الأطلسي تنتمي إلى شبكة أنشأها مصرف الفاتيكان وبنكو أمبروزيانو. ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل مرة أخرى. حينئذٍ، قام كالفي بتهديد مدير مصرف الفاتيكان لويجي منيني، قائلاً إنه سيُطلع السلطات المالية الإيطالية على كل ما يعرفه عن مصرف الفاتيكان.

الاثنين 7 حزيران/يونيو، عرض روبرتو كالفي الوضع المأساوي لبنكو أمبروزيانو على مجلس إدارته، وأكد جازماً بأنه سيكون على بنكو أمبروزيانو إعلان إفلاسه إذا لم يحقق مصرف الفاتيكان تقدّماً على صعيد كتب الاعتماد. وفي اليوم التالي، تلقى المصرفيّ زيارة غريبة من شخص يدعى ألفارو جيارديلي كان على صلة ربما بالمافيا والحلف المقدس التابعين للفاتيكان، وفقاً للشرطة. وأخبر جيارديلي روبرتو كالفي بأن زوجته وأبناءه في خطر داهم. كان لجيارديلي أيضاً صلات برجل يدعى فينتشنزو كاسيللو كما يبدو، وهو جلّاد مافياويّ قام بمهام متنوّعة لصالح مارسينكوس وأجهزة التجسس الفاتيكانية. ووصف مكتب المدّعي العام الروماني في ما بعد كاسيللو بأنه أحد القتلة المباشَرين لروبرتو كالفي. وقُتل كاسيللو في 23 كانون الثاني/يناير 1983.

وأصبحت تذمرات روبرتو كالفي أكثر خطورة ليس بالنسبة إلى مصرف الفاتيكان فحسب، بل بالنسبة إلى عمليات الحلف المقدس في بولندا أيضاً. لقد شكا كالفي من دون تحفّظ من قيام بول مارسينكوس بسحب مئة مليون دولار من دون تفويض من أحد لصالح نقابة التضامن برئاسة ليش فاليسا، وذلك تلافياً للخضوع للاستجواب من قِبَل البابا أو جمعية بيوس بقيادة المونسينيور لويجي بوغي.

وفي الحادية عشرة من قبل ظهر يوم الاثنين 14 حزيران/يونيو، قدّم المونسنيور بول كاسيمير استقالته كعضو مجلس إدارة في بنكو أمبروزيانو أوفرسيز ليميتد، ومقرّه الرئيسي ناسو. ومن خلال هذا المصرف، سحب مصرف الفاتيكان أموالاً تقارب البليون دولار من دون حسيب أو رقيب لسدّ العجز الحاصل في بنكو أمبروزيانو.

ويوم الثلاثاء 15 حزيران/يونيو، وصل روبرتو كالفي إلى لندن وحجز الغرفة 8 في فندق تشلسي كلويسترز. كان الفندق يليق برجل أعمال عادي متجوّل ولكن ليس برئيس أحد أكبر المصارف الكاثوليكية الأكثر أهمية وقوة في أوروبا. في تلك المرحلة، كان كالفي يرتاب بالجميع. وفي يوم الأربعاء 16 حزيران/يونيو، أخبر زوجته كلارا عبر الهاتف بأنه يخشى من "الرجال السود - عملاء الحلف المقدس - المحيطين ببول مارسينكوس. إنهم يجيدون دائماً العثور عليه".

يوم الخميس 17 حزيران/يونيو، واصل كالفي إجراء اتصالات هاتفية يائسة بأفراد عائلته، حاثّاً إياهم على مغادرة سويسرا إلى برّ الأمان في الولايات المتحدة.

وعند الخامسة مساءً، طُرد كالفي من إدارة بنكو أمبروزيانو. وعندما بلغه قرار الطرد، أدرك كالفي أن الأمر قد قُضي ولم يتبقَّ له سوى ساعات قليلة على قيد الحياة. وحوالى العاشرة مساءً، ووفقاً لوثائق من مكتب المدعي العام الروماني، اصطحب رجلان يتحدثان الإيطالية - قد يكونان عميلَين للحلف المقدس أو قتلة من المافيا - روبرتو كالفي من فندقه. وغادر الثلاثة من الباب الخلفي بعيداً عن أنظار موظف الاستقبال، ودخلوا سيارة سوداء فخمة. وفي اليوم التالي، وُجد روبرتو كالفي مدلّى من عنقه تحت جسر لندن المدعوّ بلاكفرايرز (أي الرهبان السود).

تبيّن من تشريح جثة كالفي أنه توفّي في الثانية من صباح 18 حزيران/يونيو 1982. وادعى الطبيب الشرعي الشهير أنطونيو فورناري في تقريره أن كالفي نزل مكاناً شديد الانحدار، درجاً مبتلاً ربما، وقفز بعد ذلك عن ارتفاع متر تقريباً

لبلوغ المنصة تحت الجسر، وغمرت المياه ركبتَيه بسبب المدّ المرتفع وفي جيوب سترته وبنطاله حوالى خمسة كيلوغرامات من الحجارة. بالإضافة إلى ذلك، كان عليه السير سبعة أمتار إضافية بعد بلوغه المنصة للوصول إلى المكان حيث وجد مشنوقاً. لقد قُتل روبرتو كالفي بلا ريب. وما لم يعرفه كالفي بعد موته هو ما حدث في ميلانو قبل ساعات قليلة من وفاته.

ففي 18 حزيران/يونيو، قدِم رجلان عرّفا بنفسيهما بأنهما "مرسلان من الفاتيكان" إلى المقر الرئيسي لبنكو أمبروزيانو لتسليم مجموعة من المستندات من مصرف الفاتيكان. فاستقلا المصعد الأنيق إلى الطابق الرابع للمبنى المَهيب. وفي نهاية الرواق، كان هناك المكتب السابق لروبرتو كالفي المقتدر الذي كان لا يزال حياً وموجوداً في لندن. ودخل الرجلان مكتباً صغيراً متصلاً بمكتب كالفي حيث كانت غرازييلا كوروشر، السكرتيرة المخلصة لكالفي وأحد الأشخاص الأكثر اطّلاعاً على أسرار رئيسها السابق. وبعد دقائق، قفزت من النافذة في ما اعتُبر "انتحاراً". ووجدت الشرطة ملاحظة تحمّل فيها رئيسها روبرتو كالفي مسؤولية كل ما حدث في بنكو أمبروزيانو. ولم يكن هناك أي ذِكر لعائلتها، أو حياتها، أو أصدقائها؛ فقط اتهام مناسب لرئيسها.

وفي شهر أيلول/سبتمبر، اتُهم ليتشيو جيلي بالتجسس، والتآمر السياسي، والاشتراك في الجُرم، والاحتيال. لقد تمكن في بادئ الأمر من تجنّب الاعتقال، ولكن الأستاذ الأكبر في المحفل الماسوني بي 2، والذي يدعوه الجميع محرّك الدُمى، اعتُقل في جنيف بينما كان يحاول سحب خمسين مليون دولار من حساب مصرفي ووضعه في حقيبة.

بعد شهر، أي في 2 تشرين الأول/أكتوبر 1982، "انتحر" جوزيّي ديلاكا أيضاً، وهو مدير تنفيذي عالي الرتبة في المصرف، بالقفز من نافذة مكتب قائم في الطابق السادس من مبنى بنكو أمبروزيانو نفسه في ميلانو. كان ديلاكا كما يبدو "المبعوث الخاص" بين روبرتو كالفي والمونسنيور بول مارسينكوس. كان عمل

ديلاكا "الحساس" يقضي بنقل رسائل شفهية لا يجدر كتابتها. وبما أن جوزبّي ديلاكا يعرف الكثير، كان يتوجب إنهاء حياته أيضاً.

وشيئاً فشيئاً، رُبطت الخيوط المتعلقة بفضيحة بنكو أمبروزيانو بطريقة مُبهمة. لقد اتهمت كلارا كالفي، أرملة روبرتو، "الفاتيكان بقتل زوجي لإخفاء حالة إفلاس مصرف الفاتيكان". فمنذ سقوط ميشال سيندونا، اضطّلع روبرتو كالفي بمهام سيندونا القديمة كافة والمتمثلة بتبييض أموال المافيا، وعقد صفقات أسلحة، ومساعدة شخصيات هامة على تهريب أموال إلى الفردوسات المالية من دون أن تلتقطهم السلطات الإيطالية، وتمويل أنظمة دكتاتورية في نيكاراغوا والأوروغواي والأرجنتين وباراغواي.

وفي تشرين الأول/أكتوبر 1982، عيّن يوحنا بولس الثاني لجنة خاصة للتحقيق في شأن الدور الذي لعبه الفاتيكان، ومصرف الفاتيكان، وأجهزة المخابرات البابوية، في الأعمال الشاذة لبنكو أمبروزيانو. وتتالت حتى العام 1989 التحقيقات التي تناولت قضية كالفي، وإخفاق المصرف، وصلاته بمصرف الفاتيكان. وفي 22 آذار/مارس 1986، سُمِّم لميشال سيندونا في سجن فوغيرا في إيطاليا حيث كان ينتظر ليتم تسليمه إلى الولايات المتحدة. لقد دُسّ السيانيد في قهوته، وتوفّي مصرفيّ المافيا السابق في زنزانته من دون أن يهبّ أحد لمساعدته، وذلك بعد يومين فقط من إصدار هيئة محلَّفين الحكم عليه بالسجن مدى الحياة وإعلانه بأنه "سيُفشي كل ما يعرفه عن العلاقات القائمة بين المافيا والفاتيكان، والدور الذي لعبته الدوائر البابوية مثل مصرف الفاتيكان وأجهزة المخابرات" إذا لم يقدّم له أحد يد المساعدة. وفي 20 شباط/فبراير 1987، أمر قاضي التحقيق في ميلانو بإلقاء القبض على أنطونيو بيتزا وسَجن المونسينيور بول كاسيمير مارسينكوس، ولويجي منيني، وبليغرينو دي ستروبل، وهم المسؤولون الثلاثة ذوو الرتب العالية في مصرف الفاتيكان. وحتى ذلك الوقت، كان يوحنا بولس الثاني قد أبقاهم في مناصبهم لأنهم يعرفون الكثير ربما ومن

الأفضل عدم تحريك مياه موارد الفاتيكان المالية العَكِرة. وكانت الشرطة المنتشرة حول ساحة القديس بطرس وعند بوابات مدينة الفاتيكان تنتظر تكبيل أيدي المسؤولين الأعلى مقاماً في مصرف الفاتيكان مع رئيس إدارة دولة الفاتيكان لأن مارسينكوس لا يرأس مصرف الفاتيكان فحسب، بل المجلس الحاكم في الفاتيكان أيضاً.

في الواقع، كان المونسينيور مارسينكوس على وشك الارتسام كردينالاً عندما انتشرت الفضيحة، مما حدا بيوحنا بولس الثاني إلى إبقائه داخل الفاتيكان للحؤول دون قيام السلطات الإيطالية باعتقاله، وبالتالي ترحيله إلى الولايات المتحدة. ومارسينكوس متقاعد اليوم في مدينة الشمس، أريزونا، بحماية جواز سفره الدبلوماسي الفاتيكاني الذي يحول دون قيام السلطات الأميركية باعتقاله.

وبفضل الضغوطات التي مارسها يوحنا بولس الثاني، علّقت محكمة إيطالية عليا عملية إلقاء القبض ومنحت مصرفيّي الفاتيكان حصانة بوصفهم "مدراء لمصرف أجنبي".

وكان على مصرف الفاتيكان دفع أكثر من 240 مليون دولار للتحرر من مسؤولياته تجاه دائني بنكو أمبروزيانو. وفي المحاكمات الجنائية المرتبطة بإخفاق أمبروزيانو والتي انتهت عام 1998، فإن قادة بروباغاندا 2 هم من صدرت بحقهم الأحكام الكبرى. لقد حُكم على ليتشيو جيلي بالسجن لمدة ثمانية عشر عاماً مقابل تسعة عشر عاماً لأومبرتو أورتولاني.

في العام 1988، بدأت المحكمة المكلَّفة بالنظر في مقتل روبرتو كالفي. وعندما توصلت إلى قرار عام 1993، أُدين ثلاثة رجال بالتآمر: المونسينيور بافل هنيليكا - عميل للحلف المقدس على قدر من الأهمية، وفرد جدير بالثقة من المقرَّبين إلى البابا - فلافيو كاربوني، وجوليو لينا. وهكذا، انتهى التحقيق في شأن شركات الفاتيكان وأُمسك بخيوط الفضيحة كافة. ولكن قضية جديدة تتناول الفساد المالي كانت على وشك الانفجار في قلب دولة الفاتيكان.

ليوبولد ليدل هو جزّار سابق تورط بعدة صفقات مشبوهة في الفاتيكان ونفّذ بعض العمليات الغريبة للحلف المقدس. كان العميل السري البابوي السابق قد أدى دور الوسيط بين الفاتيكان والمافيا في عملية تشمل تزوير شهادات أسهم وسندات. وعندما كُشف النقاب عن القضية، بات ليدل الضحية وليس المنظّم فقط.

وتمثلت المكيدة كما يبدو بحصول ليدل على أسهم زائفة بقيمة بليون دولار من شخص ما في الفاتيكان. فقد كانت مهمة الجاسوس السابق تأدية دور الوسيط بين الفاتيكان والمافيا الأميركية لإصدار أسهم زائفة في بوينغ، وكرايسلر، وجنرال موتورز، وآي تي تي، وبيعها بعد ذلك. وكان المونسينيور مارسينكوس شخصياً ممثّل جانب الفاتيكان في العملية، ويحضر الكردينالان تيسران وبنيلي الاجتماعات التي تُعقد مع ليدل.

أخيراً، حذّر المونسينيور بافل هنيليكا مارسينكوس من خطر محاولة إصدار هذا الكمّ من شهادات الأسهم المزوّرة من خلال الأسواق المالية لأن هذا الأمر لن يؤدي إلا إلى مواجهة مع وزارة الخزينة الأميركية، مذكّراً مارسينكوس بجنسيته الأميركية. "باستطاعة ريغان إذا أراد أن يطلب من الحَبر الأعظم الموافقة على ترحيلك"، قال عميل الحلف المقدس لبول مارسينكوس. ولم يشأ مارسينكوس، الذي كان لا يزال رئيس مصرف الفاتيكان، المخاطرة بارتكاب جريمة فدرالية بنظر أرضه الأم، لا سيّما وأنه يعلم نتيجة هذا الانتهاك على المواطن.

في أيار/مايو 1992، تلقى ليتشيو جيلي الخاضع للإقامة الجَبرية في منزله الحكم الصادر في شأن انهيار بنكو أمبروزيانو. فبعد ست سنوات من استئناف الحكم، أُقرّ الحُكم الأساسي للأستاذ الأكبر السابق في المحفل الماسوني بي 2. وفي يوم الأربعاء 20 أيار/مايو 1998، فرّ جيلي من منزله بمرأى من الشرطة. وبعد أربعة أشهر تقريباً، وفي 10 أيلول/سبتمبر، أُعيد اعتقاله في كوستا أزول بفضل

قيام جهاز مخابرات الفاتيكان بتسريب معلومات كما يبدو لجهاز التجسس المضاد الفرنسي.

وعندما خضع الماسوني وعضو بي 2 أومبرتو أورتولاني للاستجواب عام 1990، كشف النقاب عن عملية أخرى لأجهزة مخابرات الفاتيكان التي أمضت عدة أشهر في محاولة استعادة صور فوتوغرافية عُرضة للشبهة ليوحنا بولس الثاني.

ففي نيسان/إبريل 1981، كان ليتشيو جيلي قد أطلع أحد أعضاء الحزب الاشتراكي الإيطالي على بعض الصور الفوتوغرافية التي يظهر فيها البابا يوحنا بولس الثاني عارياً في كاستل غاندولفو في حوض للسباحة. فاعتبر جيلي أنه إذا كان بالإمكان التقاط صور فوتوغرافية بعدسات تصوير مقرَّبة، يمكن إطلاق النار على الحَبر الأعظم ببندقية مجهَّزة بمنظار تلسكوبي بالسهولة نفسها أيضاً.

وقرر بوغي إطلاق يد عملاء الحلف المقدس لاستعادة الصور الفوتوغرافية السلبية أو "دفع فدية" لقاء استعادتها. وأطلق الحلف المقدس على هذه المهمة اسم "عملية الصورة".

فعلم مدير الجواسيس البابوي عن طريق ليتشيو جيلي أولاً والسياسي جوليو أندريوتي المنتمي إلى الحزب الديمقراطي المسيحي بعد ذلك أن المجموعة الكبرى من هذه الصور أصبحت لدى إمبراطورية ريزولي للنشر. وسُلِّمت هذه الصور إلى الحَبر الأعظم بحضور المونسينيور بوغي.

وعلى الفور، استدعى رئيس التجسس البابوي كاهنين ينتميان إلى جمعية بيوس. وكالعادة، كانت أوامر بوغي مقتضَبة وفي صلب الموضوع. كان يتعيّن على عميلَيه العثور على الصور السلبية لسببين: أولاً، لتجنّب نشرها والتسبب بفضيحة؛ ثانياً، وهو السبب الأكثر أهمية، لمعرفة كيف تمكّن المصوّرون من التقاط الصور من دون اكتشافهم من قِبل أجهزة المخابرات الحَبرية. فبطريقة من الطرائق، تمكّن المصورون الفوتوغرافيون من تخطّي الطوق الأمني المحيط بالبابا.

وباشر العميلان بالتنقل بين مختبرات التصوير الرومانية التي تظهّر الأفلام للمحترفين. وفي نهاية الأسبوع، عثرت جمعية بيوس على رجل يحاول بيع ما قال إنها صور عُرضة للشبهة إلى حدٍّ كبير بالرغم من أنه لم يوضح محتوياتها.

كان الرجل المذكور عاملاً في مختبر إحدى الشركات التي اشتهرت بسرعة تظهير الصور الفوتوغرافية المعتمَدة من قِبل المجلات التي تنشر أخبار النجوم والمشاهير. ويقيم هذا الرجل في شقة صغيرة في ضواحي روما. وذات يوم، ولدى عودته من العمل إلى المنزل، وجد شقته في حالة من الفوضى التامة والصناديق مُفرَغة من محتوياتها، والفراش منقَّب، وظهور الكراسي ذات الذراعين ممزَّقة. هناك من يبحث عن شيء ما، وكان الرجل يعرف ذلك.

وعندما دخل غرفة الحمّام الصغيرة، تيقّن من عثور المقتحمين على ما يبحثون عنه لأنه وجد أحد الأنابيب المصنوعة من الرصاص مقطوعاً والأسطوانة البلاستيكية التي تحتوي على الصور السلبية مفقودة. لقد قام رجلا بوغي بعملهما على أفضل وجه، وأتلف المونسينيور بوغي المواد في وقت لاحق.

لقد تبيّن لجمعية بيوس أن عميلاً للحلف المقدس وكاهناً يدعى لورنزو زورزا متورطان. كان هذا العميل على صلة بطريقة ما بإفلاس بنكو أمبروزيانو، وقد شارك في إحدى العمليات مع فرنشسكو بازيينزا، وهو عميل سابق في وكالة المخابرات العسكرية الإيطالية. وخضع زوروزا للاستجواب بسبب علاقاته المشبوهة بمجموعات مافياوية متورطة بالمخدرات وتهريب الأعمال الفنية.

وكما كان الحال في العديد من الأوضاع المماثلة السابقة، طلبت السلطات الإيطالية من الكرسي الرسولي تسليم لورنزو زورزا، ولكن أمين سر الدولة رفض ذلك. فجادل هذا الأخير قائلاً إن الشخص المعنيّ مسؤول في بلد أجنبي، ولذلك فهو لا يخضع للقانون الإيطالي. وبعد أشهر، أُرسل عميل الحلف المقدس إلى إحدى القاصديات الرسولية الأفريقية، ولكن المكائد لم تنتهِ عند هذا الحد. لقد هزّت مؤامرة جديدة أركان إحدى المنظمات الفاتيكانية الأكثر تمتعاً بالاحترام

والشعبية، ألا وهو الحرس السويسري.

ففي يوم الاثنين 4 أيار/مايو 1998، وبعد التاسعة ليلاً بقليل، وُجدت ثلاث جثث مضرَّجة بالدماء في شقة ضمن ثكنات الحرس السويسري. لقد أُطلقت النار على هؤلاء الأشخاص وعثرت راهبة على جثثهم، وتكتّم الحلف المقدس على هوياتهم. وكان أوّل الواصلين هو الناطق بلسان الفاتيكان، جواكين نافارو-فالس، الثاني في التراتبية القيادية، والكردينال جيوفاني باتيستا ري من أمانة سر الدولة، وبيدرو لوبيز كينتانا من أمانة مستشاري الدولة.

وبعد نصف ساعة، غصّت ساحة الجريمة بمسؤولين رفيعي المنزلة في الإدارة البابوية، وعملاء للحلف المقدس وجهاز التجسس المضاد، وأفراد من الحرس السويسري بثياب مدنية.

بعد خمس وأربعين دقيقة، وصل ثلاثة مسؤولين رفيعي المنزلة من هيئة الحراسة في الفاتيكان: المفتش العام كاميلو سيبين، المشرف العام راوول بوناريلي، ومشرف آخر. وكشفت المعاينة الأولى لسيبين عن أن هناك من أزال أربعة أقداح. وقد يكون هؤلاء عملاء للحلف المقدس كانوا أول الواصلين إلى مسرح الجريمة. وبعد ذلك، ظهر مسؤول في الفاتيكان المدينة-الدولة لالتقاط صور بولارويد للضحايا: القائد في الحرس السويسري آلويس إيسترمان، زوجته الفنزويلية غلاديس ميزا روميرو، وعريف في الحرس السويسري يدعى سيدريك تورناي. وقال بوناريلي لسيبين إن العديد من الأدراج الكبيرة في مكتب إيسترمان مفتوحة. مما لا شك فيه أن هناك من كان يبحث في مكتب الضابط وملفاته.

ونقل الكردينال لويجي بوغي، الذي سُمح له قبل شهرين فقط بالتخلي عن مسؤولياته على رأس أجهزة المخابرات البابوية، خبر المأساة للبابا يوحنا بولس الثاني. وخارج بوابة القديسة آن حيث تقف وحدة من الحرس السويسري، بدأ حشد من الصحافيين والمشاهدين الفضوليين بالتجمع. لقد انتشرت الشائعات بسرعة.

ونُقلت الجثث الثلاث إلى المشرحة، ومُدّدت على الأرض، وغُطّيت بملاءة. وقام أفراد من هيئة الحراس والحلف المقدس بترتيب الشقة، وأقفلوا الباب، وختموه بختم بابوي يمنع دخول أي شخص أو أي شيء تحت طائلة الحرم.

قبل ساعات قليلة فقط من الجريمة، كان آلويس إيسترمان قد عُيّن قائداً للحرس السويسري من قِبل البابا نفسه. لقد وُلد إيسترمان في بلدة غانزويل في لوسرن التابعة للكانتون السويسري، وكان قائداً ثانياً في الحرس منذ العام 1989، ويبلغ من العمر أربعة وأربعون عاماً.

كان قد حُدّد موعد احتفال الترقية الرسمية لإيسترمان في 6 أيار/مايو، أي بعد يومين من مقتله. وكانت زوجته غلاديس ميزا تعمل في السفارة الفنزويلية في الكرسي الرسولي. وكان سيدريك تورناي، وهو الضحية الثالثة، في الثالثة والعشرين من عمره وقد وُلد في سانت-موريس في فاليه التابعة للكانتون السويسري. لقد انضم إلى الجيش البابوي في 1 كانون الثاني/يناير 1994.

وحاول نافارو-فالس، الناطق بلسان الفاتيكان، إصدار تفسير للأحداث بسرعة. لم يكن تفسيره لما جرى مطابقاً لما حدث في الواقع. فوفقاً لنافارو-فالس، "وجد أحد الجيران الجثث. كان إيسترمان وميزا وتورناي قد قُتلوا وعُثر على السلاح المستخدَم تحت جثة العريف". ووفقاً للناطق بلسان الفاتيكان، "في ثورة غضب، استخدم العريف مسدس الخدمة لقتل قائده وزوجة قائده. إن الفاتيكان على ثقة بأن هذا ما حدث". ولم يطرح أحد أي أسئلة أخرى على نافارو-فالس.

في ليلة 5 أيار/مايو، اجتمع ثلاثة عملاء من وكالة المخابرات العسكرية الإيطالية بعضو سابق للحرس السويسري. في الحقيقة، لم يصدّق أي من جهاز المخابرات الإيطالية أو الشرطة الإيطالية رواية الفاتيكان. وتداولت الصحافة ثلاث فرضيات مختلفة: جاء في الأولى أن إيسترمان كان متورطاً بعلاقة جنسية مع تورناي، وفي الثانية أن تورناي متورط مع زوجة إيسترمان، وفي الثالثة أن

مؤامرة أكثر عمقاً وغموضاً تكمن وراء الجريمة.

واعتمد الفاتيكان رسمياً النظرية القائلة إن تورناي كان في نزاع مع إيسترمان الذي رفض ترقيته وتقليده وساماً، ولكن المخابرات الإيطالية لم تصدّق هذه المقولة. ووفقاً لجواكين نافارو-فالس، أطلق تورناي النار بمسدس الخدمة خمس مرات. فبقيت رصاصة واحدة في بيت النار، وقتلت اثنتان إيسترمان، ووُجدت أخرى في السقف. إنه ليس الحادث الوحيد الذي يطال الحرس السويسري.

واستمر طرح الأسئلة في أروقة الفاتيكان. فإذا أطلق تورناي خمس رصاصات، لماذا تم العثور على غلافات أربع طلقات نارية فقط؟ لماذا كان باب شقة إيسترمان مفتوحاً عندما وصلت الراهبة المزعومة التي اكتشفت الجثث؟

والسؤال الآخر الذي طرحه المحققون هو كيف يمكن لتورناي إذا استخدم حقاً مسدس الخدمة من طراز سيغ سوير 75 أن يقع إلى الأمام على المسدس بعد إطلاق رصاصة الانتحار. فالسيغ سوير 75 سلاح فعال، ومن المتوقّع أن يقع تورناي على ظهره بسبب زخم الرصاصة. وكان هناك تساؤل أيضاً في شأن سبب غدوّ الحرس السويسري من دون قائد طيلة أشهر، وعندما عُيّن أحدهم مات في غضون ساعات. لقد ازدادت الأسئلة المطروحة، ولكن الفاتيكان آثر عدم الإجابة.

و في 6 أيار/مايو، ورداً على أسئلة الصحافيين، صرّح وزير الداخلية الإيطالي جورجيو نابوليتانا قائلاً إن السلطات الإيطالية لم تتلقَّ أي طلب للمساعدة في التحقيق بقضية الحرس السويسري.فهيئة الحراس هي الوكالة الفاتيكانية التي افتتحت التحقيق بسرعة وأقفلته. وفي أثناء جنازة الضحايا، أعلن الحَبر الأعظم أن آلويس إيسترمان "كان شخصاً ذا إيمان قوي ووفاء كبير لوظيفته. كان مخلصاً طيلة ثمانية عشر عاماً وقدّم خدمات جُلّى، وأنا أشكره على ذلك".

ولكن الأسئلة المطروحة حول الجريمة لم تُدفَن مع الجثث. فعلى سبيل المثال، لماذا كان باب الشقة مفتوحاً لو وُجدت الجثث الثلاث في الجهة الخلفية من

المكتب؟ لماذا تقول الجارة المزعومة التي عثرت على الجثث إنها سمعت "عدة أصوات مكبوتة في الشقة، مما أثار حذرها؟" لقد سمعت الجارة صوتاً منخفضاً لخمس طلقات نارية من مسدس تورناي "وكأنها أُطلقت من كاتم صوت"، وهذا ما قالته لأحد الصحافيين. وازدادت هذه المسألة تعقيداً عندما قام أربعة كرادلة على قدر من الأهمية وهم سيلفيو أودي، وداريو كاستريللون، وروجيه اتشيغاري، وكارلو ماريا مارتيني، بإخبار البابا يوحنا بولس الثاني بأنهم لا يثقون بالرواية الرسمية للأحداث. وألقى الكاتب جون فولين ضوءًا أكثر قتامة على المسألة في كتابه مدينة الأسرار: حقيقة أعمال القتل في الفاتيكان. ووفقاً لفولين، كان الإشراف على الحرس السويسري مدار نزاع الذين يريدون أن يجعلوه هيئة نخبوية لمناهضة الإرهاب، وبين الماسونيين داخل الإدارة البابوية الذين يريدون التخلص منه على أن يبقى وجوده رمزياً ومعلَماً سياحياً بخلاف هيئة الحراس.

وفي 7 أيار/مايو 1998، نشرت صحيفة برلينر كورير رواية تربط القائد ألويس إيسترمان بالستازي، وهو جهاز مخابرات ألمانيا الشرقية. وتتضمن المقالة وقائع وتفاصيل قليلة وواضحة. وأكدت الصحيفة أيضاً أن آلويس إيسترمان قام بعمليات سرية لصالح جهاز مخابرات الفاتيكان، الحلف المقدس، عندما كان لا يزال نقيباً في الحرس السويسري. لقد قام على سبيل المثال بعدة رحلات إلى وارسو وغدانسك عندما كانت الفصائل الراديكالية في حركة التضامن تفضّل منح الطابع العسكري للنقابة للدفاع عن المضربين بعد قيام الجنرال ياروزلسكي بفرض القانون العرفي في 12 كانون الأول/ديسمبر من العام 1981. وكان إيسترمان ينسّق عملية الحصول على الأسلحة من السوق السوداء بأموال مصرف الفاتيكان، ويُقيم معسكرات للتدريب في النمسا وألمانيا لمقاتلي حركة التضامن المستقبليين.

وأكد ماركوس وولف، قائد الستازي طيلة ثلاثين عاماً، أن الاسم المستعار فيردر يُخفي عميلاً كان في الواقع فرداً من الجيش البابوي. ووفقاً لملفات جهاز

المخابرات المذكور التي رُفعت عنها السرّية بعد سقوط جدار برلين، أصبح فيردر مُخبِراً في أوائل العام 1980، وهو العام الذي انضم فيه آلويس إيسترمان إلى الحرس السويسري.

لقد أدى هذا التقرير الذي يتناول صلة آلويس إيسترمان بأجهزة مخابرات ألمانيا الشرقية إلى سُخط في الفاتيكان والحلف المقدس. وفي وقت لاحق، أكد ماركوس وولف شخصياً في مقابلة مع صحيفة بولندية أن إيسترمان كان عميلاً للستازي: "شعرنا بفخر كبير عام 1979 عندما نجحنا في تجنيد إيسترمان ليكون عميلاً لنا. كان لذلك الرجل قدرة غير محدودة لولوج الكرسي الرسولي، وقمنا بذلك من خلاله. عندما باشرنا الاتصال به، كانت رغبته الكبرى هي الانضمام إلى الحرس البابوي. وعندما منحه الفاتيكان ذلك، ازدادت أهميّته كمُخبر إلى حدٍّ كبير".

كان أخٌ دومينيكي يدعى كارل برامر الملقَّب بشعاع الأمل صلةَ الوصل بين إيسترمان داخل الفاتيكان وبين الستازي. لقد طُرد برامر من الفاتيكان في أواخر الثمانينيات بعد أن أمسك به عملاء جمعية بيوس وهو يجمع معلومات سرّية من ملفات اللجنة العلمية في الفاتيكان. وأمسك العملاء البابويون ببرامر بينما كان يمرّر المعلومات لصحافي إيطالي.

وبعد شهر من عملية القتل، أدلت والدة تورناي بعدد من التصاريح للأسبوعية الإيطالية بانوراما. فادّعت بأنها تحدّثت إلى ابنها صباح يوم الجريمة ولم تجده مغتمّاً. وفي إحدى المراحل من المقابلة التي أجرتها بانوراما، ذكرت والدة تورناي وجود "الأب إيفان"، وهو المرشد الروحي لابنها، وقد خطط للقائه بعد ظهر ذلك اليوم للتحدث معاً في شأن وظيفة في مصرف سويسري كضابط أمن.

كان هذا "الأب إيفان"، أو "الأب إيفانو"، إيفان برتوريلو في الواقع، وهو فرنسي يتراوح عمره بين الخامسة والثلاثين والأربعين عاماً ويتنقّل بحرّية في

أروقة الفاتيكان مرتدياً على الدوام عفّارة. كان برتوريلو عميلاً للحلف المقدس، وقد شارك في عمليات خاصة لجهاز التجسس البابوي. وقيل إنه خضع لتدريب عسكري إما في الجيش الفرنسي أو الجيش السويسري.

في وقت لاحق، قالت والدة تورناي لقاضٍ في الفاتيكان إنها تعرّفت إلى إيفان، ولكنها أُعلمت بعد ذلك، وفقاً لتقرير هيئة الحراس، بأن الفاتيكان لا عِلم له بوجود كاهن يدعى إيفان أو إيفانو أو أي شيء من هذا القبيل.

في الحقيقة، كان إيفان برتوريلو فرنسيّ الأصل عميلاً إما للحلف المقدس أو لجمعية بيوس، وقد أُرسل إلى أفريقيا والبوسنة في مهام دبلوماسية وتجسسية. لقد اختاره رئيسه المونسينيور بيدرو لوبيز كينتانا لمهمة تجسسية على الحرس السويسري بحثاً عن صلات له بالذين يريدون أن يجعلوا منه هيئة نخبوية لمناهضة الإرهاب.

كان لوبيز كينتانا المولود في مدينة بارباسترو الإسبانية في 27 تموز/يوليو من العام 1953 ينتمي إلى السلك الدبلوماسي للكرسي الرسولي وإلى لجنة الإدارة البابوية التأديبية حتى العام 1987 عندما عُيّن أسقف شرف لقداسته وأُرسل إلى القاصدية الرسولية في نيودلهي. وفي العام 1992، استُدعي إلى الفاتيكان وعُيّن مستشاراً في الشؤون العامة لأمانة سر الدولة. وسرت شائعات داخل الفاتيكان مفادها أن المونسينيور بيدرو لوبيز كينتانا كان قد اضطلع بمهام جهاز التجسس الفاتيكاني المضاد بعد استقالة لويجي بوغي في 7 آذار/مارس 1998.

وأخبر مصدر في جهاز المخابرات الفرنسية الكاتب ديفيد يالوب بأن أحداث القتل التي وقعت في 4 أيار/مايو جاءت في سياق مؤامرة تورّط فيها ثلاثة أعضاء بشكل مباشَر: آلويس إيسترمان نفسه، غلاديس إيسترمان، والجاسوس الفاتيكاني إيفان برتوريلو.

وفي آذار/مارس 1999، طُلب من القائد الجديد للحرس السويسري، بيوس سيغمولر، إنشاء وحدة خاصة داخل فيلقه تدعى "اللجنة الأمنية" بموافقة

اللجنة الحَبرية لدولة-مدينة الفاتيكان. ومهمة هذه اللجنة الجديدة تنسيق النشاطات المتعلقة بسلامة الكرسي الرسولي والحَبر الأعظم، ومنع النشاطات الإجرامية داخل الفاتيكان.

في الواقع، كانت "اللجنة الأمنية" جهاز مخابرات إلى حدٍّ ما غير خاضع للحلف المقدس وجمعية بيوس، وتعمل تحت إشراف المونسينيور جيوفاني دانزي، أمين عام حكومة الفاتيكان.

ووفقاً لمصادر الفاتيكان، كان دانزي رجلاً عديم الضمير يتمتع بنفوذ كبير داخل اللجنة الحَبرية لدولة - مدينة الفاتيكان. وقد أدار شؤون "اللجنة الأمنية" بيد من حديد انطلاقاً من مسكنه الفخم. وأوحى التحقيق الجاري بإمكانية وجود شخص رابع داخل شقة إيسترمان، في ليلة 4 أيار/مايو، إلى جانب سيدريك تورناي.

والحقيقة الثابتة هي أن أي شخص رابع كان يمكن أن يكون داخل شقة إيسترمان هو الشاهدة ليس إلا. لقد ثبت أن كل الرصاصات أُطلقت من مسدس خدمة تورناي، ووُجدت آثار البارود على يده والإصبع الذي ضغط الزناد بواسطته. ومن الممكن أن يكون الشخص الرابع قد بقي مختبئاً في مكان ما داخل الشقة حتى وصول السلطات، وفرّ بعد ذلك من خلال المغادرة معهم. فأول الواصلين أربعة عملاء للحلف المقدس رفعوا أكواب المشروب التي كانت موجودة على مكتب آلويس إيسترمان.

في وقت لاحق، عُلم أن سيدريك تورناي كان تحت المراقبة طوال أشهر من قِبل الحلف المقدس، أو جمعية بيوس، أو "اللجنة الأمنية". وكان العريف الشاب في الحرس السويسري قد أُغوي من قِبل شابة إيطالية تدعى مانويلا التقاها في كافتيريا بالقرب من الفاتيكان حيث يميل الحرس السويسري إلى التجمع. فقالوا إن مانويلا كانت تخبر أسقفاً فاتيكانياً عن كل خطوة يقوم بها تورناي مما يجعل من المستحيل على الشاب دخول منزل آلويس إيسترمان من

دون أن يشاهَد.

وبالرغم من الكلمات اللطيفة التي صدرت عن الفاتيكان تعبيراً عن ألم والدة سيدريك تورناي، موغيت بودا، فقد كرّس فرد من الحلف المقدس وقته لملاحقة بودا ومحاميها.

ومنذ تلك الليلة عام 1998، طُرحت نظريات تآمرية عديدة. فجاء في إحداها أن الحلف المقدس "أعدم" آلويس إيسترمان لأنه يعرف الكثير عن عملياته السرية. وتقول أخرى إن تورناي كان يحبه وقد شعر بأنه منبوذ لأن عنصراً آخر من الحرس حل مكانه في سرير إيسترمان. وتعتبر أخرى مقتل إيسترمان نتيجةً لصلاته الوثيقة بالذين يريدون أن يجعلوا من الحرس هيئة نخبوية لمناهضة الإرهاب أو بالماسونيين في المحفل الفاتيكاني. وتدّعي أخرى أن مقتل إيسترمان يعود سببه إلى علاقاته السابقة بجهاز التجسس القائم وراء الستار الحديدي. وهناك المزيد من النظريات، عِلماً أن أصدقاء تورناي في الحرس السويسري وعائلته أصرّوا على أنه لم يكن مخبولاً أو يتعاطى المخدرات، وأنه لا بد من أن يكون قد تورط في أمر ما خرج عن سيطرته وفاق قدراته مما أودى بحياته في النهاية.

لم تتبنَّ سلطات الفاتيكان أبداً أي سياسة مستقلة أو أي تحقيق قضائي مستقل حيال ما جرى في ليلة الاثنين في 4 أيار/مايو 1998. ولم يُجرِ الحلف المقدس، أو جمعية بيوس، أو "اللجنة الأمنية"، أو هيئة الحراس تحقيقاً جدّياً. وقرر أمين سر الدولة أنجلو سودانو، وبموافقة الحَبر الأعظم يوحنا بولس الثاني، ختم كل الوثائق المرتبطة بالليلة المأساوية التي فقد فيها ثلاثة أشخاص حياتهم داخل أسوار الفاتيكان، ودفنها في المحفوظات السرية.

ولا يمكن لأحد معرفة حقيقة مقتل قائد الحرس السويسري آلويس إيسترمان، وزوجته غلاديس ميزا، والعريف سيدريك تورناي. واختفى جاسوس الحلف المقدس إيفان برتوريلو الذي يعرف ربما معظم الحقائق، ولم يشاهَد ثانيةً أبداً

في أروقة تدبّر المكائد داخل دولة الفاتيكان.

في الكتاب باسم الدين: تحقيق حول مقتل يوحنا بولس الأول، يستخلص الكاتب ديفيد يالوب حكماً قاسياً على يوحنا بولس الثاني:

> لدينا بابا يوبّخ كهنة نيكاراغويين علانيةً بسبب تورّطهم في السياسة، ويمنح في الوقت نفسه بركته لتأمين مبالغ طائلة من الدولارات، بشكل سري وغير قانوني، لحركة التضامن في بولندا. إنها بابوية بمعايير مزدوجة: معيار للبابا ومعيار آخر لبقية البشرية. كانت ولاية يوحنا بولس الثاني الحَبرية انتصاراً للمداورين والمناورين، للفساد، للّصوص الدوليين مثل كالفي وجيلي وسيندونا. وفي حين احتفظ قداسته بصورة دعائية لا تختلف عن الصورة الدعائية التي توفرها جولات الروك أند رول، لم يخرج الأمر عن إطار الأعمال كالعادة الذي يضمن الأشخاصُ القائمون وراء الكواليس استمراريتَها. ومن المؤسف أنه لا يمكن سماع الخطابات الأخلاقية لقداسته وراء الكواليس كما يبدو.

أياً يكن الأمر، مما لا شك فيه أن الفاتيكان باع أسلحة، في أثناء ولاية يوحنا بولس الثاني الحَبرية الطويلة، وموّل دكتاتوريات وانقلابات. كما وأن الانهيارات المالية والمصرفية أدت إلى "حالات انتحار"، وطلب الفاتيكان من أجهزته التجسسية القيام بعمليات سرية.

اليوم، وفي السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، لا وجود لمثيل للحلف المقدس في أجهزة المخابرات الفاتيكانية. وبلغة التجسس المعاصر، يُعتبر جهاز المخابرات البابوي (لأعمال التجسس والتجسس المضاد) الكيان. وأياً تكن تسميته، تبقى مبادئه التوجيهية مماثلة للمبادئ التي نشأ عليها في أثناء ولاية البابا بيوس الخامس الحَبرية عام 1566. ويبقى الدفاع عن الدِّين، والدفاع عن

الإيمان الكاثوليكي، والدفاع عن مصالح دولة الفاتيكان، والطاعة التامة لقداسته، الدعامات الأربع الكبرى التي ستحمله بعيداً في التاريخ المستقبلي. وما دامت الكنيسة الكاثوليكية مستمرة بنشر إيمانها حتى أقاصي الأرض، سيستمر الكيان في ملاحقة أعدائه الذين قد يعترضون طريق الحَبر الأعظم أو سياساته. في غضون ذلك، يستمر الفاتيكان حتى يومنا هذا بإنكار وجود جهازه التجسسي.

ختام

السنوات التالية: بندكتس السادس عشر

في صباح 1 نيسان/إبريل 2005، استدعى كبير الكرادلة إدواردو مارتينيز سومالو رئيس جهازَي التجسس والتجسس المضاد في دولة الفاتيكان. ولدى دخول مكتب كبير الكرادلة في القصر الرسولي، طالعته الوجوه العابسة للكردينال جوزيف راتزينغر، مدير مجمع عقيدة الإيمان؛ ورئيسَي الأساقفة ليوناردو ساندري وجيوفاني لاجولو، ورئيسَي الشؤون الداخلية والخارجية في الفاتيكان، على التوالي؛ والكردينال أنجلو سودانو، أمين سر الدولة؛ وكاميلو رويني، راعي روما. لقد بلغت الحالة الصحية للحَبر الأعظم مرحلة حساسة. وفي اللحظة الأخيرة، انضمّ الكردينال جيوفاني باتيستا ري، مدير مجمع الإكليروس، إلى المجموعة.

كان رئيس الأساقفة المسؤول عن جهازَي التجسس والتجسس المضاد يعلم أنه تم استدعاؤه لاتخاذ الإجراءات المناسبة بعد وفاة قداسة البابا يوحنا بولس الثاني مباشَرةً.

وتتمثل مهمته بحماية جثمان البابا بعد أن يؤكد الطبيب ريناتو بوزونيتي وفاة الحَبر الأعظم. إنها المهمة الأولى لجهاز التجسس البابوي المضاد، جمعية بيوس، ويضع عملاء الحلف المقدس وجمعية بيوس أنفسهم بتصرّف كبير الكرادلة على الفور، وتبدأ عملية "القفل" ما إن يتم تأكيد وفاة الحَبر الأعظم.

في صباح يوم السبت 2 نيسان/إبريل، عبَر مندوب وزير الداخلية الإيطالية، أكيلي سيرا، بوابات الفاتيكان. كان مسؤولٌ كنسيٌّ كبيرٌ قد استدعاه ليعلن أن "البابا في نزاعه الأخير. كونوا مستعدّين".

وعند حوالى التاسعة مساءً، استُدعي رئيس جهاز التجسس في الفاتيكان ثانيةً. وعندما دخل القسم الذي يضم المسكن البابوي في القصر الرسولي، وجد العقيد بيوس سيغمولر، والقائد الأعلى للحرس السويسري العقيد إيلمار تيودور مادر،

والمفتش العام في شرطة الفاتيكان كاميلو سيبين، والمفتش الثاني دومينيكو جياني. وسيكون الرجال الخمسة الحاضرون مسؤولين عن أمن دولة الفاتيكان وأفراد مجمع الكرادلة المقدس البالغ عددهم 115 كردينالاً والذين سيباشرون اجتماعاتهم يوم الاثنين، 18 نيسان/إبريل، لتعيين حَبرٍ أعظم جديد. وبانتظار حدوث ذلك، وفي أثناء فترة شغور كرسي القديس بطرس التي تسبق انتخاب خلف جديد، يُعتبر الكرادلة هم السلطة العليا لدولة الفاتيكان والكنيسة الكاثوليكية.

عند التاسعة وسبعٍ وثلاثين دقيقة مساءً، أكد الطبيب ريناتو بوزونيتي وفاة يوحنا بولس الثاني: "أؤكد أن صاحب القداسة يوحنا بولس الثاني المولود في فادوفيتش بتاريخ 18 أيار/مايو 1920، والذي يرأس مدينة الفاتيكان ويحمل جنسية فاتيكانية، توفّي عند التاسعة وسبعٍ وثلاثين دقيقة مساءً بتاريخ 2 نيسان/إبريل 2005، في مسكنه في القصر الرسولي الفاتيكاني نتيجةً لصدمة أدت إلى تخثّر الدم وتوقف الدورة الدموية".

كانت تُسمع في الغرفة الهمهمات الصادرة من الخارج إذ غمرت موجة كبيرة من الصمت غرف الفاتيكان. فجثا الرجال الخمسة، كلّ على ركبته اليسرى، ورفعوا أذرعتهم على صورة صليب. واستهلّ كاميلو سيبين ترتيلة موجَزة، وهو الذي كان قد غطى جرح يوحنا بولس الثاني بيده في أثناء محاولة اغتياله في ساحة القديس بطرس وإصابته بطلق ناري في 13 أيار/مايو 1981. كان الرجال الأربعة يعلمون أن عجلة آلةٍ تعود إلى قرون عدة ستتحرك. هم يشكلون مع دوائرهم أجزاءً هامة من الآلة.

وطُلب من سيغمولر ومادر وضع رجالهما حول ساحة القديس بطرس مع تزايد تدفّق المؤمنين إلى الفاتيكان الذين أرهقهم القلق على صحة الحَبر الأعظم. وطُلب من سيبين وجياني إلحاق رجالهما بالكرادلة رفيعي المنزلة والاضطلاع بمسؤوليات خاصة حتى يتم انتخاب بابا جديد. وتولى رئيس أجهزة

التجسس مهمة حراسة كبير الكرادلة، مارتينيز سومالو، وحماية المسكن البابوي حتى يتم إغلاقها بإحكام.

ومنذ لحظة بلوغه خبر وفاة يوحنا بولس الثاني، بدأ رئيس الحلف المقدس بإصدار أوامر لعملائه، وكان الأمر الأول مواكبة الكردينال مارتينيز سومالو إلى مكتب الحَبر الأعظم لإتلاف ختم صياد السمك المصنوع من الرصاص والختم الذي يضعه في إصبعه. وهكذا، لن يكون باستطاعة أحد استخدام الأختام البابوية لتوقيع وثائق لم يتم المصادقة عليها قبل وفاة الحَبر الأعظم.

ولدى مغادرة المكتب، طلب مارتينيز سومالو إقفال غرف البابا. ووضع راعي روما، الكردينال رويني، أختام الشمع الخمسة في مكانها فوق شريط أحمر. وتولّى عميلان لجهاز التجسس المضاد وعنصران من الحرس السويسري مهمة الحراسة المستمرة لضمان عدم فضّ الأختام حتى يقوم البابا الجديد الذي ينتخبه مجمع الكرادلة بفضّها. فخلفُ القديس بطرس هو الشخص الوحيد المخوَّل دخول تلك الغرفة التي كانت مكتباً ليوحنا بولس الثاني طوال السنوات الست والعشرين الماضية.

بعد ذلك، طلب مارتينيز سومالو من سيبين، ومن العقيد مادر من الحرس السويسري، ومن رئيس جهاز التجسس، الإعداد لاجتماع "لجنة الأزمات" المؤلفة من السلطات المدنية الإيطالية والرومانية. ويكون سيبين، ومادر، ورئيس الحلف المقدس صلات وصل بين الفاتيكان والقوى الإيطالية الموكّلة مهمة ضمان السلامة العامة. وعند التاسعة وخمسٍ وخمسين دقيقة مساءً من 2 نيسان/ إبريل، وبعد ثماني عشرة دقيقة من تأكيد وفاة البابا، أعلن رئيس الأساقفة ليوناردو ساندري الوفاة للعالم.

وعند حوالى الحادية عشرة والنصف من تلك الليلة، اتصل كبير الكرادلة مجدداً برئيس الأساقفة الذي يرأس الحلف المقدس ليرافقه هذه المرة إلى مسكن المونسينيور ستانيسلاو دزيويس الذي كان سكرتير البابا الراحل لأكثر من

أربعين عاماً. وكان المونسينيور دزيويس القيّم على وصية يوحنا بولس الثاني التي لن تتم تلاوتها إلا في تاريخ محدد. وقدّم رئيس جهاز التجسس للأسقف البولندي غرفة آمنة ليضع فيها المستند القيّم، ولكن دزيويس اختار إبقاءها معه كما طلب منه الأب الأقدس بالتحديد.

وبالرغم من أن روما كانت في حالة من التوتر الشديد، لم يكن بالإمكان سماع الضجيج الصادر عن الجموع المحتشدة في ساحة القديس بطرس داخل البوابة البرونزية المؤدّية إلى القصر الرسولي. وداخل القصر، كانت خطوات دوريات الحرس السويسري وهمسات الكرادلة وأعضاء الإدارة البابوية رفيعي المقام هي الأصوات الوحيدة التي يمكن سماعها. من الواضح أن قلب الكنيسة الكاثوليكية استمر في الخفقان بشكل منتظم ومتناغم طوال قرون عدة مع الحالة المدعوّة لدى شغور الكرسي، وكانت الأيام تمرّ بنوع من البلبلة المضبوطة. وأصدر الكردينال إدواردو مارتينيز سومالو أوامر محددة لراعي روما، الكردينال كاميلو رويني، وللكردينال جوزيف راتزينغر الذي كان يتولى مسؤولية إصدار طلب رسمي، بوصفه عميد مجمع الكرادلة المقدس، يدعو فيه المجمع للانعقاد والاهتمام بحاجات أعضائه عندما يصلون إلى روما. وتتلقى أجهزة الأمن والتجسس أوامرها في الوقت نفسه الذي يتلقى فيه مارتينيز سومالو ورويني وراتزينغر الأوامر.

وحوالى منتصف الليل من يوم الخميس 7 نيسان/إبريل، أي اليوم الذي سبق جنازة يوحنا بولس الثاني، سارع رئيس أساقفة الأرجنتين، ليوناردو ساندري، إلى إبلاغ رئيس التجسس بأنه تلقى اتصالاً من الطائرة الرئاسية الأميركية مفاده أنه لدى هبوط الطائرة في روما، سيتوجّه رؤساء الوفد الأميركي إلى باسيلكا القديس بطرس للصلاة على جثمان البابا. وبمعنى آخر، سيجثو بعد ساعات قليلة رئيس حالي ورئيسان سابقان للولايات المتحدة أمام جثمان يوحنا بولس الثاني.

وعملاً بأوامر رئيس الأساقفة الذي يدير شؤون أجهزة التجسس في دولة

الفاتيكان، اتصل رئيس جمعية بيوس بالسلطات الإيطالية في روما وبجهاز المخابرات الأميركي. ووصل الوفد الأميركي - المؤلف من الرئيس جورج دبليو بوش، وزوجته، ووالده الرئيس الأسبق جورج بوش، والرئيس الأسبق بيل كلينتون، ووزيرة الخارجية كوندوليزا رايس - إلى بوابات الفاتيكان حوالى الساعة الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة صباحاً. وكانت التدابير الأمنية داخل الباسيلكا مشدَّدة، فطُلب من رجال المخابرات الأميركيين عدم اصطحاب أسلحة معهم إلى الداخل. ولمدة دقائق قليلة، كانت سلامة الرؤساء التنفيذيين الثلاثة القادمين من أميركا الشمالية بين أيدي الحرس السويسري، وهيئة الحراس، وجهاز التجسس الفاتيكاني المضاد.

في ذلك الوقت نفسه، عُقد اجتماع طارئ في مكتب كبير الكرادلة. كان الحاضرون يدرسون كما يبدو إمكانية نقل جثمان يوحنا بولس الثاني بالطوافة إلى كاتدرائية القديس يوحنا لاتيران، الكاتدرائية الرومانية، بعد مراسم التشييع التي يحضرها حوالى مئتَي رئيس دولة، وملك، وقائد ديني ومدني، وذلك ليتمكن الشعب من إلقاء النظرة الأخيرة على البابا الراحل. فوافق راتزينغر على هذه الخطة، ولكن رويني قال إنه سيكون من الصعب ضمان سلامة الجثمان خارج أسوار الفاتيكان. وأيّد سيبين رئيس الحلف المقدس، كما حذّر الكرادلة المجتمعون من أن القيام بعملية متحركة خارج الفاتيكان ستكون شديدة التعقيد نظراً إلى تدفق المؤمنين الذين سيحاولون دخول كاتدرائية القديس يوحنا لاتيران. "باستطاعة الحرس السويسري ضبط الأمن في الفاتيكان، ولكن الأمن في الخارج هو من مسؤولية الشرطة الإيطالية"، قال سيبين.

فقرر الكردينال مارتينيز سومالو إنهاء النقاش، معلناً أنه توصل إلى قرار. سيُدفن البابا يوحنا بولس الثاني بعد مراسم التشييع من دون أي تأجيل. وبإلقاء نظرة عبر النافذة المُشرفة على ساحة القديس بطرس، كان باستطاعة أعضاء الإدارة البابوية الرومانية وقواتهم الأمنية رؤية صفوف طويلة من المؤمنين تمتد

عدة كيلومترات في البعيد مروراً بجسور التيبر. وكان كل خط يتقدم بمعدل مئتَي متر كل ثلاث ساعات. سوف تكون ليلة طويلة للجميع.

يوم الجمعة 8 نيسان/إبريل، وبعد الصلاة الافتتاحية، عُقد الاجتماع النهائي بين رؤساء الأجهزة الأمنية في الفاتيكان والهيئات الحكومية الإيطالية. وكما لو كان جنرالاً يستعدّ لخوض المعركة، قام كبير الكرادلة إدواردو مارتينيز سومالو الذي يرافقه رئيس السجون جيمس فرنسيس ستافورد، وراعي روما كاميلو رويني، والراعي العام في مدينة الفاتيكان أنجلو كوماستري، بنشر خارطة كبيرة عن الفاتيكان وخارطة أخرى عن ساحة القديس بطرس. ووُضعت على الخارطة الأخيرة رايات صغيرة من مختلف الألوان تمثّل الرؤساء، ورؤساء الوزراء، والملوك، والقادة الدينيين. وكان رئيس بلدية روما والتر بلتروني ورئيس الدفاع المدني الإيطالي غيدو برتولاسو يستمعان إلى شروحات مارتينيز سومالو. وقد خُطِّط لعرض كل تفصيل بشكل منتظم.

وفي أثناء الليل، تسلل عملاء الحلف المقدس وجهاز التجسس الفاتيكاني المضاد بين الحشود لاختيار أفضل المواقع قبل أن يبدأ الكردينال جوزيف راتزينغر عظته. وفي البعيد، كان أفراد من هيئة حراس الكرسي الرسولي يجوبون الضواحي مرتدين سترات وواضعين ربطات عنق سوداء، مستخدمين سماعات رأس تبقيهم على اتصال بمكتب التنسيق الأمني الذي يديره ممثل للجمهورية الإيطالية وممثل آخر للكرسي الرسولي. وعلى أعلى السطوح المحيطة، ينتظر مئات المصورين، ومشغّلو آلات التصوير التلفزيونية، وصحافيون من تسعين دولة يمثّلون أكثر من ثلاثة آلاف وسيلة إعلامية، بدء المراسم إلى جانب عملاء للحلف المقدس متنكّرين وقنّاصة ماهرين من الشرطة والجيش الإيطالي.

ومنذ ساعات الصباح الأولى، كان حوالى 600.000 شخص قد تجمّعوا وراء الحواجز التي وضعتها الشرطة الإيطالية حول أعمدة برنيني. وقال أحد أفراد الأمن الفاتيكاني إن "التاريخ لم يشهد بعد احتشاد كل هذا العدد الكبير من

القوى الأمنية من مختلف أنحاء العالم ضمن بضعة كيلومترات مربّعة". ويشير التصريح بوضوح إلى الحراس الشخصيين لحوالى مئتَي رئيس دولة وحكومة جالسين أمام جثمان الحَبر الأعظم. وكان رؤساء الأجهزة الأمنية الفاتيكانية يدركون أنهم يؤمّنون الحراسة لأول مأتم على مستوى عالمي.

بزغ الصباح غائماً مع ريح قوية هبّت على ساحة القديس بطرس رافعةً الجزء السفلي من أردية الكرادلة الحمراء. وكان الجميع متيقظين حفاظاً على سلامة الشخصيات المئتَين المتجمّعين لإلقاء النظرة الأخيرة على البابا الراحل.

وبدأت مراسم التشييع داخل الباسيلكا. وتولى الكردينال مارتينيز سومالو، الذي يرافقه على الدوام فرد من جهاز التجسس المضاد وثلاثة عملاء من الشرطة الفاتيكانية، الاحتفال بطقس إقفال النعش، وهو مجرد صندوق بسيط من السرو. فقرأ رئيس الأساقفة بييترو ماريني، رئيس الاحتفالات الليترجية، التوثيق، وهي سيرة ذاتية موجَزة عن المتوفّى، ووضعها بعد ذلك داخل النعش. وإثر ذلك مباشَرةً، غطى سكرتير البابا دزيويس الجثمان بملاءة بيضاء. لم يكن أحد يعرف أن رئيس جهاز التجسس الفاتيكاني وكاميلو سيبين، المفتش العام في شرطة الفاتيكان، كانا قد تلقيا للتوّ إنذاراً من القيادة الإيطالية العليا تحذّرهما من حدوث خرق أمني.

كانت طائرة مجهولة الهوية قد اخترقت الأجواء الفضائية للفاتيكان، ولم يقُم مراقبو الرحلات الجوية الإيطالية كما يبدو بالاتصال بالرّبّان. والتمعت في أذهان سيبين ورئيس الحلف المقدس صور طائرة تنفجر وسط عشرات الملوك، وثلاثة أمراء من دم ملَكي، وسبعة وخمسين رئيس دولة، وسبعة عشر رئيس حكومة، وأكثر من عشرين زعيماً دينيًّا. إنه انفجار لا يستطيعون تجنّبه، ولا سبيل إلى إخلاء المكان بالسرعة الكافية. في غضون ذلك، كان أصحاب المناصب في مقاعدهم ينتظرون بثياب الحداد دخول نعش يوحنا بولس الثاني وبدء عظة الكردينال جوزيف راتزينغر.

وبعد ثوانٍ قليلة، أحاطت خمس مقاتلات تابعة لسلاح الجو الإيطالي بالطائرة مجهولة الهوية وأجبرتها على الهبوط في قاعدة عسكرية. وبعد هبوطها، لم تعثر الشرطة وأفراد أجهزة المخابرات الإيطالية والفاتيكانية على أي أثر للمتفجرات أو القنابل. لقد عانى الرّبّان كما يبدو من مشاكل في أجهزة الاتصال. كان متجهاً إلى مطار سيامبينو ليُقلّ الوفد المقدوني الذي كان قد وصل لحضور المأتم البابوي. وأعلم مركز القيادة سيبين ورئيس الحلف المقدس بالحادث في حين كانت مراسم تشييع الحَبر الأعظم لا تزال مستمرة.

وعندما استعدّ الكردينال راتزينغر، عميد مجمع الكرادلة، لإلقاء عظته، تلقى سيبين ورئيس الأساقفة الذي يرأس جهاز التجسس البابوي إنذاراً ثانياً. هذه المرة، تمثل الحادث بمواجهة بين عملاء إيطاليين ورجال أجهزة المخابرات الأميركية. لقد حاول الحراس الشخصيون للرئيس بوش كما يبدو إدخال أسلحتهم إلى المنطقة التي تشرف عليها أجهزة المخابرات الإيطالية. كان حادث إطلاق جنود البحرية الأميركية النار على الجاسوس الإيطالي نيكولا كاليباري في العراق وإردائه قتيلاً لا يزال ماثلاً في الأذهان ويثير حفيظة العملاء الأميركيين والإيطاليين. فأمر سيبين بطرد حراس بوش الشخصيين من المحيط الأمني الذي تشرف عليه أجهزة المخابرات الإيطالية والكرسي الرسولي.

وتحوّل صخب الزوار المدعوّين والأشخاص الذين يفوق عددهم 350.000 فرد الذين وصلوا إلى ساحة القديس بطرس إلى همهمة عندما ظهر النعش محاطاً بحوالى 140 كردينالاً بثيابهم الحمراء، ووُضع على سجادة حمراء. ولم يكفّ عملاء الكرسي الرسولي عن التدقيق بالصفوف الأمامية للمؤمنين الذين كانوا يقفون بالقرب من المنطقة التي يشغلها أصحاب المناصب. وكان العديدون يحملون لافتات كُتبت عليها شعارات مثل "قداسة فورية" أو "يوحنا بولس العظيم"، مما جعل مهمة مراقبة الحشد أكثر صعوبة.

في الاجتماع الذي عُقد قبل يوم المأتم، كان كاميلو سيبين، وقائد الحرس

السويسري إيلمار تيودور مادر، ورئيس الحلف المقدس، قد اقترحوا قيام الشرطة الإيطالية بمنع دخول أبناء الأبرشية حاملين لافتات، بذريعة أنها تحتل مساحة كبيرة وذلك كي لا يُغضبوا حامليها. ونصح كاميلو رويني، راعي روما، بإعداد مكان خاص يمكن للمشيِّعين وضع لافتاتهم فيه واستعادتها لدى انتهاء مراسم التشييع. وأخيراً، رفض الكردينالان مارتينيز سومالو وراتزينغر الاقتراح، قائلَين إن هذا الإجراء قد يغيظ المؤمنين الذين انتظروا ساعات في الطقس البارد وفي مهب الرياح أملاً بالتمكن من إلقاء النظرة الأخيرة على البابا الراحل. وكان هذا القرار يتطلب قيام القوى الأمنية التابعة للكرسي الرسولي بزرع عملاء لجهاز التجسس المضاد بين المؤمنين.

بعد العظة التي قوطعت خمس عشرة مرة بالتصفيق، انتهت المراسم بالمناولة، والصلاة على الجثمان، وصيحات صادرة من الحشد "قديس، قديس". وأنشدت جوقة الترتيل الفاتيكانية نشيد تعظّم بمواكبة رنين الأجراس. ومرةً أخرى، بدأ عملاء الحلف المقدس وشرطة الفاتيكان بالتحرك إذ كان يتعيّن نقل نعش الحَبر الأعظم إلى باسيلكا القديس بطرس ليُدفن في سردابها.

كان أفراد من الشرطة وجمعية بيوس يضمنون أمن الموقع، وكان النعش الخشبي محاطاً بشرائط حمراء وُضعت عليها أختام المكتب الرسولي، ومديرية الشؤون الاقتصادية للكرسي الرسولي، ومكتب الاحتفالات الليتورجية البابوية، ودوائر الفاتيكان. ووُضع الصندوق المصنوع من السرو داخل صندوق آخر مصقول من خشب الدَردار ومزيَّن بشعار نسَب البابا الراحل. ووُضع لوح تذكاري فوق الضريح نُقش عليه باللاتينية اسم يوحنا بولس الثاني، وتاريخ مولده ووفاته. وأخرج الموثّق العام لمجلس كهنة الباسيلكا البيان الرسمي بالدَفن وقرأه على مسامع الحاضرين، وكانوا مجموعة صغيرة يرأسها كبير الكرادلة ومسؤولون آخرون من "العائلة الحَبرية". وتضم معاوني البابا الراحل، والراهبات اللواتي اعتنَينَ به، وطبيبه الخاص، وسكرتيره الوفي ستانيسلاو

دزيويس.

وبرحيل آخر رئيس دولة من المطار، انتهت عملية القفل، وخفّضت القوى الأمنية في الفاتيكان درجة تيقّظها، وحان الوقت لقيام أجهزة التجسس والتجسس المضاد في الكرسي الرسولي - الحلف المقدس وجمعية بيوس - بالإعداد لمجمع كرادلة يختار خلفاً ليوحنا بولس الثاني. "لقد حان وقت أيام الحداد التسعة، ومجمع الكرادلة، واختيار بابا جديد"، قال مارتينيز سومالو لرؤساء الأمن.

يوم الاثنين 11 نيسان/إبريل، وبعد الاشتراك في قدّاس تم الاحتفال به في ساعة مبكّرة من الصباح إحياءً لذكرى البابا الراحل، اجتمع الرجال الخمسة المسؤولون عن دولة الفاتيكان في القصر الرسولي بكبير الكرادلة إدواردو مارتينيز سومالو والكردينال جوزيف راتزينغر. وبعد ترحيب وجيز وصلاة، بدأ العقيد في الحرس السويسري بيوس سيغمولر، والقائد الأعلى للحرس السويسري العقيد إيلمار تيودور مادر، والمفتش العام في شرطة الفاتيكان كاميلو سيبين، والمفتش الثاني دومينيكو جياني، ورئيس جهاز التجسس الفاتيكاني، استخلاص العِبر من الأحداث الأخيرة.

ووقف الكردينال راتزينغر لتهنئة الرجال الخمسة، وطلب منهم مواصلة جهودهم في الفترة القادمة الهامة جداً بالنسبة إلى الكرسي الرسولي ألا وهي افتتاح اجتماعات مجمع الكرادلة.

فهؤلاء الرجال الخمسة هم أول من عرفوا بأن الاثنين 18 نيسان/إبريل هو اليوم المحدد لبدء أعمال المجمع. وكان لا يزال لديهم سبعة أيام فقط لتنظيم كل ما يتعيّن القيام به.

وكان عملاء جمعية بيوس مسؤولين عن حماية الكرادلة الناخبين البالغ عددهم 115 كردينالاً بهدف تجنّب أي تأثير من قِبل القوى الخارجية في أثناء الاقتراع. ومن مهامهم أيضاً حراسة منزل القديسة مرتا حيث سيقيم الكرادلة-

الناخبون حتى انتخاب حَبر أعظم جديد. ويتعيّن عليهم "إجراء مسح شامل" لكل غرف الكرادلة بحثاً عن ميكروفونات مخبّأة، لا بل أيضاً عن أجهزة راديو وتلفزيون. فمنذ بدء المجمع، يُمنَع منعاً باتاً وجود أي جهاز اتصال، ويُلقى الحرم على كل كردينال ينتهك القانون.

وكان عملاء الحلف المقدس مسؤولين عن تفتيش الشابيل سيستين كل صباح قبل وصول الكرادلة، ويتولون أيضاً مهمة مراقبة الباب للتأكد من أن أياً من الكرادلة الناخبين لا يُدخل معه جهازاً إلكترونياً، بما في ذلك الأجهزة الخلوية. وتُقيم أجهزة مخابرات الفاتيكان أيضاً حاجزاً إلكترونياً حول الشابيل سيستين ومساكن الكرادلة في منزل القديسة مرتا كي لا يتمكن أي كردينال من استخدام هاتف نقّال تمكّن من إدخاله بالرغم من مراقبة عملاء جهاز التجسس المضاد.

في الدقيقة الأخيرة، أبلغ الكردينال مارتينيز سومالو رئيس الحلف المقدس بأن رجاله سيتولون أيضاً مهمة حماية رجلَي الدين اللذين تم اختيارهما لإجراء "تأملات" في أثناء انعقاد المجمع. وأول هذين الإكليريكيين الأب الكبوشي رانييرو كانتالاميسا البالغ من العمر واحداً وسبعين عاماً، وهو مبشّر رسمي في المقر البابوي وخبير بالرياضات الروحية. والثاني هو الكردينال التشيكي توماس سبيدليك البالغ من العمر ثمانين عاماً، وهو من أبرز الخبراء بالشؤون الدينية في أوروبا الشرقية.

في غضون ذلك، كانت المراهنة على الخلف الذي سيشغل كرسيّ القديس بطرس. فرؤساء أجهزة التجسس أرادوا شخصاً يُكمل سياسات يوحنا بولس الثاني، أي فرد من الوسط البولندي إذا أمكن، وهم الكرادلة المقرَّبون إلى البابا الراحل. وكان رئيس الأساقفة الذي يرأس الحلف المقدس على عِلم بوجود ثلاثة مرشَّحين آخرين يريدون السيطرة على جهاز التجسس. وهؤلاء المرشَّحون هم الكردينال ديونيجي تيتامانزي، رئيس أساقفة ميلانو والمدافع عن الشباب المناهضين للعولمة؛ والبرازيلي كلاوديو هوميس، وهو رئيس أساقفة ساو باولو

وصديق الرئيس لولا ومدافع عن الذين لا وطن لهم؛ والهندوراسي أوسكار أندريس رودريغيز مارادياغا، رئيس أساقفة تيغوسيغالبا الذي قيل إنه عبث بلاهوت التحرّر. ولكن ذكريات العام 1985 ما زالت ماثلة في الأذهان: أصبح الكردينال رونكاللي المحافظ الذي انتُخب بابا في 28 تشرين الأول/أكتوبر 1958 تحت اسم يوحنا الثالث والعشرين أحد الأحبار الأكثر تقدّمية في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، وقد دعا إلى انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني. وقُدّر لأجهزة المخابرات، وجهازَي التجسس والتجسس المضاد، ألا تقوم بأي نشاط طوال خمس سنوات حتى وفاة يوحنا الثالث والعشرين في 3 حزيران/يونيو 1963.

وأعاد الكردينال مونتيني الذي انتُخب بابا وحمل اسم بولس السادس تنشيط الحلف المقدس وجمعية بيوس اللذَين بلغا ذروة نشاطهما في أثناء العقد الأول من ولاية يوحنا بولس الثاني الحَبرية بين عامَي 1987 و1988. من الواضح أن انتخاب "تقدمي" لشغل كرسيّ القديس بطرس سيشكل خطراً على الحلف المقدس.

قبل 18 نيسان/إبريل، وهو التاريخ المحدد لبدء أعمال مجمع الكرادلة، كان المرشّحان الرئيسيان الأوفر حظاً لخلافة يوحنا بولس الثاني هما الكردينال ديونيجي تيتامانزي والألماني جوزيف راتزينغر. ويوم السبت 16 نيسان/إبريل، وفي اجتماع أخير للكرادلة الناخبين قبل انعقاد المجمع، طالب راتزينغر بالتزام "صمت مُطبَق"، ومُنع الإدلاء بأي تصريح لوسائل الإعلام. وطلب الكردينال من كاميلو سيبين ورئيس جهاز التجسس البابوي مرافقة الكرادلة الناخبين، القادمين من اثنتين وخمسين دولة في القارات الخمس، طوال الوقت ليتمكنوا من الإعداد للمجمع منذ تلك اللحظة وحتى لحظة عزلهم في منزل القديسة مرتا.

وصلت لحظة الحقيقة بالنسبة إلى الكرادلة البالغ عددهم 115 كردينالاً الموكّلين مهمة اختيار الحَبر الأعظم الخامس والستين بعد المئتين في الكنيسة الكاثوليكية. وبعد دقائق من تفوّه رئيس الأساقفة بييترو ماريني، رئيس المراسم

الاحتفالية في دولة الفاتيكان، بكلماته الشهيرة، "ليخرج الجميع". قرأ الكردينال جوزيف راتزينغر بصوت مرتفع العهود التي تُلزم كل ناخب بالتقيّد بقواعد الدستور وبالسرية التامة حول كل ما يتعلق بانتخاب البابا الجديد.

كانت الصناديق الفضية والبرونزية لأوراق الاقتراع - يحميها عميلان لجمعية بيوس وعنصران من الحرس السويسري - في أماكنها أمام المذبح الرئيسي، والفرنان جاهزَين أيضاً؛ القديم لإحراق أوراق الاقتراع والأحدث لإصدار الدخان الأبيض أو الدخان الأسود بمساعدة كيميائية، ومقاعد الكرادلة جاهزة، وكذلك الطاولة المغطاة بقطعة قماش أرجوانية اللون التي تُستخدم لقيام المسؤولين عن معاينة وتعداد أوراق الاقتراع بفتح الأوراق الصغيرة عليها، وقراءة الأسماء بصوت مرتفع، وثقبها بإبرة عريضة قبل إحراقها. كانت الأوسرفاتوري رومانو، وهي الصحيفة الرسمية الناطقة بلسان حال الكرسي الرسولي، قد أعدت ست صفحات أمامية محتمَلة. وعند الخامسة والنصف من بعد ظهر 18 نيسان/ إبريل 2005، بدأ المجمع أعماله رسمياً. في مساء ذلك اليوم، وعند الثامنة وست دقائق مساءً بتوقيت الفاتيكان، ارتفع أول دخان أسود من المدخنة القائمة فوق باسيلكا القديس بطرس. لم يفُز أي مرشح بما يفوق الستة والسبعين صوتاً المطلوبة ليتم انتخابه حَبراً أعظم.

وفي صباح الثلاثاء 19 نيسان/إبريل، اجتمع أعضاء المجمع ثانيةً. وكانت مجموعة مختارة من كرادلة محدَّدين على رأس الكتلة المؤيّدة للكردينال راتزينغر: الإسباني جوليان هيرانز، عضو الذين يريدون أن يجعلوا الحرس هيئة نخبوية لمناهضة الإرهاب ومدير تفسير النصوص التشريعية؛ الكولومبي داريو كاستريللون أويوس؛ وكولومبي آخر هو ألفونسو لوبيز تروخيو. وينتمي الثلاثة إلى الجناح المحافظ في الإدارة البابوية.

وبعد قليل، انضم الكردينالان الإيطاليان أنجلو سكولا وكاميلو رويني إلى هذه المجموعة، وكان رويني أحد تلامذة راتزينغر. وانضم الكردينال الأسترالي

كريستوف شونبورن، وهو صديق شخصي للمجموعة المؤيّدة لترشيح راتزينغر.

وبدأت إمكانية فوز راتزينغر تزداد. كان من الواضح أن الكتلة بقيادة أنجلو سكولا ستواجه تيتامانزي، وبالعكس. فأرسل الكردينال كارلو ماريا مارتيني، الزعيم الإصلاحي والمروّج لترشيح تيتامانزي، إشارة إلى مجموعته لإنهاء تأييدهم لرئيس أساقفة ميلانو، وفاز راتزينغر بعدد الأصوات. ووفقاً للمراقب الفاتيكاني أوراتسيو بيتروسيللو من صحيفة المبعوث، فاز مارتيني في الاقتراع الأول الذي جرى يوم الاثنين بعد الظهر بأربعين صوتاً مقابل ثمانية وثلاثين صوتاً لراتزينغر.

عند الخامسة وخمسين دقيقة مساءً بتوقيت الفاتيكان، نفَثَ من المِدخنة ما بدا أنه دخان أبيض، ولكن أجراس القديس بطرس لم تُقرَع. وساد الإرباك ساحة القديس بطرس حتى بدأ يُسمع قرع الأجراس الكبيرة للباسيلكا. لقد اختار الكرادلة خلف القديس بطرس الرابع والستين بعد المئتين.

لقد فاز الكردينال الألماني جوزيف ألويسيوس راتزينغر، قبل دقائق قليلة، وبعد الاقتراع الرابع للمجمع، بالغالبية الضرورية ليتم انتخابه حَبراً أعظم: لقد فاز بمئة وسبعة أصوات من أصل 115 صوتاً.

بعد ذلك مباشَرةً، سأل الكردينال أنجلو سودانو راتزينغر، "هل توافق على انتخابك حَبراً أعظم وفقاً للقانون الكنسي؟" فأجاب الألماني بالإيجاب. ورداً على السؤال التالي، "ما هو الاسم الذي تحب أن تحمله؟" أجاب الكردينال راتزينغر، "بندكتس السادس عشر".

فصلّى البابا الجديد بندكتس السادس عشر أمام مذبح الشابيل سيستين وانتقل في ما بعد إلى غرفة صغيرة تُعرف باسم كاميرا لاكريميناتوريا، أي غرفة الدموع حيث بقي بمفرده مع أحاسيسه لبعض الوقت. هناك أيضاً، مُدّت يد المساعدة لبندكتس السادس عشر لارتداء ما يليق به كحَبر أعظم. كان الخياط الشهير غاماريللي قد أعدّ ثلاث بذلات بأحجام مختلفة.

ووفقاً للتقليد، تولّى الكردينال-الشماس خورخي أرتورو مدينا إستيفيز التشيليّ

مهمة قراءة الإعلان الرسمي: "أبشّركم بفرح عظيم؛ لدينا بابا: هو صاحب النيافة جزيل الاحترام، السيد جوزيف راتزينغر، كردينال الكنيسة الرومانية المقدسة".

في الوقت نفسه، ظهر بندكتس السادس عشر على الشرفة ليمنح بركته في المدينة والعالم. وبينما كانت ملايين الأعين تراقب هذا المشهد، تم إخبار أجهزة الأمن داخل الفاتيكان باختيار حَبر جديد وبضرورة وضع خطة لحمايته.

في ليلة ذلك اليوم، التقى الكردينال إدواردو مارتينيز سومالو كاميلو سيبين، والعقيد إيلمار تيودور مادر من الحرس السويسري، ورئيس الأساقفة المسؤول عن الحلف المقدس. "عليكم أن تكونوا مستعدين للمثول أمام الأب الأقدس"، قال لهم سومالو. "الآن، حان وقت الصلاة بعد انتخاب حَبرنا الأعظم الجديد". وسيواصل أفراد الشرطة والحرس السويسري مهامهم المتمثلة بتسيير دوريات داخل القصر الرسولي، في حين يقوم عملاء جهاز التجسس المضاد بحماية الحَبر الأعظم لهذه الليلة على الأقل. ويتناول البابا بندكتس السادس عشر العشاء في منزل القديسة مرتا مع 114 كردينالاً آخرين كانوا قد انتسبوا إلى المجمع معه، وذلك حتى يتم إعداد مسكنه في القصر الرسولي.

في مرحلة متأخرة من تلك الليلة، أُعلم سيبين بأن البابا يريد زيارة المكتب السابق لمجمع عقيدة الإيمان في اليوم التالي، وتمضية قليل من الوقت في مقر إقامته الفاتيكاني السابق لجمع بعض المقتنيات. فأجرى كاميلو سيبين، المفتش العام في شرطة الفاتيكان، اتصالاً هاتفياً بالمفتش الثاني دومينيكو جياني وطلب منه إبلاغ الحلف المقدس برغبات البابا. فقبل قيام البابا بزيارته، يتعيّن على عملاء جهاز التجسس الفاتيكاني تفتيش المكتب والشقة الخاصة للتأكد من أن أي أذى لن يلحق بالبابا بندكتس السادس عشر.

وعند السابعة صباحاً من يوم الأربعاء 20 نيسان/إبريل، شاهد الكرادلة الذين كانوا لا يزالون يقيمون في منزل القديسة مرتا البابا بندكتس السادس عشر

يدخل غرفة الطعام، كما اعتاد القيام به طيلة سنوات، لتناول طعام الفطور مع زملائه ولكن بفارق وحيد وهو أنه يرتدي هذه المرة ثوباً ناصع البياض ويواكبه ثلاثة عملاء من جهاز التجسس المضاد والشرطة.

ويشير الانتفاخ تحت عينَيه إلى العبء الثقيل الذي اضطلع به في اليوم السابق بعد الموافقة على انتخابه حَبراً أعظم. وكان الكردينال شونبورن أول من اقترب منه وقبّل خاتم صياد السمك. وبعد ذلك، استدعى البابا الكردينال سومالو وأطلعه على أمر سري.

بعد الفطور، قصد بندكتس السادس عشر القصر الرسولي برفقة الكردينال إدواردو مارتينيز سومالو والكردينال أنجلو سودانو. ولدى وصولهم، طلب الكردينال الإسباني من عنصر الحرس السويسري وعميلَي جمعية بيوس بالتنحي ليتمكن من فضّ الأختام الموضوعة على ما كان طوال ستة وعشرين عاماً باب مكتب البابا يوحنا بولس الثاني. وبوجود البابا نفسه شاهداً، قطع مارتينيز سومالو الشرائط الحمراء وفضّ أختام الشمع الخمسة عن الباب الضخم. وبعد ذلك، طلب بندكتس السادس عشر إدخال تعديلات قبل تمكّنه من شَغل مكتب سلفه الذي توفّي قبل ثمانية عشر يوماً فقط.

بعد ذلك مباشَرةً، أكد الحَبر الأعظم استمرار الكردينال سودانو البالغ من العمر سبعة وسبعين عاماً في منصب أمين سر دولة الفاتيكان الذي استمر في شغله إبّان ولاية يوحنا بولس الثاني الحَبرية منذ العام 1990. وثبّت البابا أيضاً رئيس الأساقفة جيوفاني لاجولو في منصبة كرئيس للشؤون الخارجية، وليوناردو ساندري نائباً لأمين سر الدولة. وشكّل هؤلاء الثلاثة الثلاثيّ الحاكم في الإدارة البابوية الرومانية. وكان الأمر الأول للبابا الجديد الذي أصدره لأمين سر الدولة تثبيت كل رؤساء المجامع، واللجان، والقوى الأمنية، في مناصبهم.

ولإكمال ما دُعي الحلقة الألمانية التي ستحل مكان الحلقة البولندية القديمة، أضاف بندكتس السادس عشر إلى حلقته الأب جورج غانسوين وامرأة تدعى

إنغريد ستامبا.

كان الأول، وفقاً لتقارير الحلف المقدس التي تم تسليمها إلى أمين سر الدولة، كاهناً في التاسعة والأربعين من عمره، ولاهوتياً أشقر الشعر، طويل القامة، ورياضياً، إضافةً إلى كونه فطِناً وفعالاً في عمله. "باستطاعته فهم أي سؤال معقّد في أقل من عشر ثوانٍ، وإعطاء جواب واضح وفوري"، أعلن أولئك الذين عرفوه.

وكانت المرأة البالغة من العمر خمسة وخمسين عاماً قد حلّت مكان شقيقتها ماريا كمساعدة لراتزينغر في مهامه الإدارية عندما كان كردينالاً؛ لقد توفيت ماريا عام 1991. وباستطاعة ستامبا أن تعمل كمساعدة، وسكرتيرة، لا بل طاهية أيضاً متى دعت الحاجة. وإنغريد ستامبا مثقّفة موهوبة عملت كأستاذة موسيقى في هامبورغ قبل التحول إلى ميدان البحث اللاهوتي في إيطاليا، ومارست الترجمة لصالح ناشرين كاثوليك ونشاطات تربوية. وعلى غرار البابا بندكتس السادس عشر، كانت تحب موزار كثيراً.

في العام الأول من ولايته الحَبرية، عملت آلية الفاتيكان من دون توقف. ولكن فضيحة تجسسية هزت الأسس القديمة للكرسي الرسولي في شباط/فبراير 2007، وقبل انتهاء العام الثاني. لقد أدرج الكاهن والباحث تاديوش إيزاكوفيتش زالسكي في كتاب بعنوان الكهنة البولنديون والشرطة السرّية الشيوعية أسماء تسعة وثلاثين رجل دين كاثوليكيًّا عمِلوا "كمُخبرين" لجهاز مخابرات نظام وارسو الأسبق.

كان الأب زالسكي نفسه راعياً لنقابة التضامن عندما كان ليش فاليسا رئيساً لها. واستند في كتابه إلى وثائق رُفعت السرية عنها وهي موجودة في المعهد البولندي للذاكرة الوطنية. وسعى هذا الكيان المستقل العام الذي وافق برلمان وارسو على ميثاقه في كانون الأول/ديسمبر 1998 إلى إعادة إظهار الحقيقة التاريخية للقمع النازي والمرحلة الشيوعية في بولندا اللذين داما منذ العام حتى العام 1989. وقد أثارت بعض الأسماء التي وجدها زالسكي في المحفوظات

المخاوف داخل الإدارة البابوية الرومانية وأجهزة مخابراتها؛ كان هناك صديق شخصي للبابا بندكتس السادس عشر بين تلك الأسماء.

فيوليوس باوتز ورئيس الأساقفة الفخري لبوزنان هما من المسؤولين الذين كانوا قد تعاونوا مع جهاز مخابرات نظام وارسو. ووفقاً للحلف المقدس، كان لضم باوتز إلى اللائحة الأثر الأكبر داخل الكرسي الرسولي لأنه كان من المعاونين الأكثر تقرّباً إلى البابا الراحل يوحنا بولس الثاني.

وبين عامَي 1978 و1982، عُيّن يوليوس باوتز في المجلس الرسولي في روما. وفي نهاية العام 1982، أُعيد إلى بولندا ليصبح أسقف لومزا حتى العام 2002 عندما أُجبر على الاستقالة لأن رئيس معهد اللاهوت منعه من الدخول بعد قيام الأسقف بعدة محاولات للإساءة إلى الطلاب جنسياً. وفي وثائق جهاز مخابرات نظام وارسو، ظهر الأسقف يوليوس باوتز تحت اسم "فيرو". لقد بدأ بالتجسس لصالح النظام الشيوعي في بولندا في أوائل آذار/مارس 1978.

وكانت ملفات المعهد البولندي للذاكرة الوطنية - التي تحتل حوالى تسعين كيلومتراً من الرفوف - مصدراً مفيداً للمعلومات لأجهزة التجسس البابوي نفسها. فالملف الأول لكارول فويتوا يعود تاريخه إلى العام 1949 عندما كان في التاسعة والعشرين من عمره. والملفات التي تلت مرتَّبة بدقة وفقاً للتاريخ الممتد بين عامَي 1949 و1989، العام الذي شهد سقوط النظام الشيوعي البولندي، وتغطي ارتقاءه من كاهن شاب يدعى فولتوا (حرفياً) إلى البابا يوحنا بولس الثاني.

طوال تلك السنوات الأربعين، حاك جهاز مخابرات نظام وارسو شبكة حول الحَبر الأعظم مؤلفةً من جواسيس، ومتعاونين، ومُخبرين، ومتسللين اخترقوا الوسط الأكثر تقرّباً منه في الفاتيكان. وهناك نقص واحد فقط لا يمكن تفسيره في ملفات جهاز المخابرات حول فويتوا: إنه العام 1981 عندما أطلق محمد علي أقجا عليه النار في ساحة القديس بطرس.

"من شبه المؤكد أنهم لا يملكون شيئاً عن محاولة الاغتيال تلك. ربما كان الأمر محفوفاً بالمخاطر بالنسبة إليهم"، يشرح المؤرخ أندريه فريشكه الذي عمل في السنوات الست الأخيرة في المعهد البولندي للذاكرة الوطنية. لقد أُتلف العديد من المستندات المتعلقة بالكنيسة قبل سقوط الشيوعية تماماً، في حين أن العديد منها متوافر للعلماء والبحاثة، ولموفَدي البابا أيضاً، بالطبع.

فأجهزة المخابرات الفاتيكانية، مثلاً، ترغب في الكشف عن هوية الكهنة الذين يختبئون وراء أسماء "سينيكا"، "تورانو"، و"أريز". فتورانو هو اسم الكاهن فلاديسلاو كوليكي الذي جُنِّد عام 1948 كعميل للمخابرات البولندية حتى وفاته عام 1967. كان الأب كوليكي قد سُجن في معسكر للاعتقال النازي في أثناء الحرب العالمية الثانية، واختبر معنى السجن في معسكر شيوعي للأعمال الشاقة. وكان عليه أيضاً التكفير عن خطيئة. ففي أثناء كهنوته، التقط عملاء لجهاز مخابرات نظام وارسو صوراً فوتوغرافية له وهو يقيم علاقات جنسية في إطار المِثلية الجنسية.

في العام 1953، جاء في تقرير رُفعت عنه السرّية تابع للشعبة الرابعة في وزارة الأمن البولندي التي تُعنى بمتابعة النشاطات السياسية للكنيسة: "إن التقييم الذي أُجري عنه إيجابي. إنه الشخص الوحيد الذي يعمل في كراكوف ويمكن الوثوق به. هو أحد أبناء أبرشية القديس نقولا وصديق الكردينال ستيفان ويزينسكي. يكنّ كوليكي كرهاً شديداً للكاهن الشاب كارول فويتوا من فادوفيتش. لا يستطيع الشخص المعنيّ - كوليكي - شرح كيفية ارتقاء فويتوا بسرعة الهرمية الكنسية".

وتاديوش نوفاك هو جاسوس آخر شهير لجهاز مخابرات نظام وارسو، وكان موظفاً مالياً ومدير المجلة الكاثوليكية بوشيكني الأسبوعية. لقد تجسس لصالح جهاز المخابرات البولندية تحت اسم أريز، وذلك بين عامَي 1955 و1982. كان نوفاك المرِح، الاجتماعي، والذي يُخبر الفكاهات باستمرار، أحد الجواسيس الأكثر

نشاطاً في أثناء عمله كمُخبر طيلة سبعة وعشرين عاماً، ويرفع تقاريره حول مختلف أوجه الإدارة البابوية البولندية لجوزيف شيلر مباشَرةً، المدير الثاني للشعبة الرابعة. وتراوحت معلوماته بين مقدار المال الذي تمتلكه الكنيسة وكيفية جمعه من المؤمنين، مروراً بمن يرتقي أو يتراجع داخل الإدارة البابوية وردود فعل مختلف المسؤولين الكنسيين، ووصولاً إلى الضرائب التي تفرضها الدولة على الكنيسة.

ويتضمن ملف نوفاك صورة فوتوغرافية للكاهن بجانب فويتوا، وهو يتلقى الميدالية "الكنسية الحبرية" من البابا يوحنا بولس الثاني. لقد كان الوسام الأعلى الذي يمنحه الفاتيكان لرجل دين بولندي منذ الحرب العالمية الثانية. وجرى هذا الاحتفال بمرأى من جاسوس آخر لجهاز مخابرات نظام وارسو في قلب الكنيسة البولندية، فاكلاف دبسكي، الملقَّب "بالفهد". ودبسكي مناهض راديكالي آخر للشيوعية كان قد حُكم عليه بالسجن مدى الحياة. وبعد إطلاق سراحه عام 1965، جُنِّد من قِبل أجهزة المخابرات البولندية وبقي على جدول رواتب جهاز مخابرات نظام وارسو طيلة عشرين عاماً تقريباً.

لقد أبلغ دبسكي عن الكاثوليك المتعاونين مع محرري بوشيكني الأسبوعية، وقد مكّن جهاز المخابرات من وضع ميكروفونات غير مرئية في مكاتبها، كما سلّمهم مفاتيح المكتب ليتمكن العملاء من غزو المحفوظات بحثاً عن دليل ضد رفاقه.

ولدى تعيين كارول فويتوا كردينالاً، اعتبره النظام "عدواً بكل معنى الكلمة" بسبب محاولته وضع حجر الزاوية لكنيسة نوفا هوتا. وبازدياد خطورته، طلب جهاز مخابرات نظام وارسو من كل عملائه ومُخبريه التركيز على الكردينال فويتوا، ووزع استمارة تحمل الأرقام كيه أر 08/141 588-591 وكيه أر 08/141 592-594 كان يتعيّن على الجواسيس الإجابة عن تسعة أسئلة فيها تتناول عادات الكردينال كارول فويتوا.

ومايكل جاغوش هو كاهن آخر اشتُبه بتعاونه مع أجهزة المخابرات الشيوعية، وكان يرعى شؤون كاتدرائية القديسة مريم الكبرى في روما ورئيس اللجنة التاريخية التي تدرس إمكانية تطويب يوحنا بولس الثاني. "حاولوا تجنيدي بسبب صلتي الوثيقة بيوحنا بولس الثاني، ولكنني لم أُعطِ أي نوع من المعلومات".

ويوجّه المؤرخ ماريك لاسوتا، مؤلف كتاب فويتوا مُدان، الاتهام في أحد المقاطع قائلاً: "جُنّد جاغوش في السبعينيات، وبدأ بالتعاون مع جهاز المخابرات البولندي ولكنه أوقف كل اتصالاته عندما وصل إلى روما". وميشيسلاف مالينسكي، زميل فويتوا في معهد اللاهوت، وصديقه الشخصي، وأول واضع لسيرته، لم يظهر بشكل جيد في كتاب لاسوتا. فتحتَ اسم "دلتا"، كان مالينسكي يرفع تقاريره لجهاز مخابرات نظام وارسو التي تتناول الشؤون الشخصية لفويتوا؛ ماذا يأكل، ماذا يفعل عندما يستيقظ، إلى من يتحدث، وما قاله عن حدث معيَّن جرى في يوم محدَّد.

واستمرت لائحة الخوَنة، بمن فيهم مُخبرون لجهاز مخابرات نظام وارسو تسلّلوا إلى الإدارة البابوية البولندية ومن ثم إلى الفاتيكان بعد انتخاب الكردينال كارول فويتوا بابا جديداً يحمل اسم يوحنا بولس الثاني. والكشف عن معلومات جديدة يعني مفاجآت غير مُريحة بالنسبة إلى الكردينال ترشيسيو برتوني الذي حل مكان أنجلو سودانو بتاريخ 16 أيلول/سبتمبر 2006 في منصب أمين سر دولة الفاتيكان. وفي القصر الرسولي، غدت الفضيحة البولندية واقعاً متفجراً وراسخاً، وظهر اسم رئيس الأساقفة ويلغس بين أسماء مُخبري جهاز المخابرات التابع للنظام الشيوعي البولندي.

لقد سيم ستانيسلاو جسيش ويلغس المولود بتاريخ 23 نيسان/إبريل 1939 في مدينة ويركوفيسكا البولندية كاهناً عام 1962. وفي العام 1999، عيّنه البابا يوحنا بولس الثاني أسقفاً لبلوك وأصبح أسقفاً لوارسو بعد سبع سنوات. وفي 5

كانون الثاني/يناير 2007، تسلّم منصبه ولكنه استقال في اليوم التالي بسبب سخط الأقطاب والضغوطات التي مورست على الفاتيكان. فقدّم استقالته للكاهن المسؤول عن كاتدرائية فافيل، جانوس بيلانسكي، الذي استقال بعد فترة قصيرة للسبب عينه.

وبما أنه كان صديقاً شخصياً لستانيسلاو دزيويس (سكرتير يوحنا بولس الثاني والمؤتمن على أسراره، رئيس أساقفة بالاسم لا بالفعل، والكردينال كراكوف في ما بعد في أثناء ولاية بندكتس السادس عشر الحَبرية)، تمكن ويلغس من الانضمام إلى الوسط المقرَّب من الأب الأقدس. وهكذا، كان يزوّد جهاز مخابرات نظام وارسو بدفق مستمر من المعلومات المستقاة من المصدر حول البابا فويتوا.

ووفقاً لتقديرات الفاتيكان، تعاون حوالى 2.600 رجل دين مع جهاز المخابرات البولندي في أواخر السبعينيات، أي حوالى 15 بالمئة من مجموع الكهنة في بولندا.

لقد تركت قضية تجسس ويلغس الأب الأقدس في وضع صعب، كما تركت جهازه التجسسي في وضع أكثر صعوبة. وأراد البابا بندكتس السادس عشر أن يفهم جذور المشكلة لأنه لم يكن مطّلعاً على الأزمة في أثناء تطوّرها. وادعى تقرير للكيان وُضع في 21 كانون الأول/ديسمبر 2006 أن تاريخ ستانيسلاو ويلغس خضع للدراسة والتحليل قبل تعيينه رئيساً لأساقفة وارسو. والغريب في الأمر أن تعيينه جاء مع بدء انتشار شائعة تعاونه مع جهاز التجسس الشيوعي. وانطلاقاً من هذا المستند، وضع البابا وبرتوني، أمين سر الدولة، ثقتهما الكاملة بويلغس وأسندا إليه مهمة تولّي أسقفية وارسو الهامة. وبعد التخلي عن منصبه عام 2007، بدأ العديدون داخل الفاتيكان بالتساؤل عما يعرفه البابا في الواقع عن ماضي ويلغس. هل أخبر ويلغس البابا بندكتس السادس عشر عن تعاونه مع جهاز مخابرات نظام وارسو؟ هل قام الكيان بواجبه ومرّر ما اكتشفه عن ماضي رئيس أساقفة ويلغس؟ هل حُجبت عن البابا بعض الأسماء المُدرَجة في

اللائحة؟

بعد التقارير الأولى التي نشرتها وسائل الإعلام، دعم بندكتس السادس عشر ويلغس، وهو مفكّر على غراره وضع العديد من الكتب. ولكن عندما عرف البابا الحقيقة، تصرّف بسرعة وفعالية، وطلب من ويلغس تقديم استقالته "الطوعية". "لقد حمله الفاتيكان على اتخاذ هذه الخطوة"، وفقاً للويجي أكاتولي، خبير الشؤون الفاتيكانية في صحيفة بريد المساء. وأدلى ويلغس بتصريح موجَز جداً: "انسجاماً مع القانون الكنسي، قدّمت استقالتي لقداسته من منصبي كمطران لوارسو".

بعد ذلك مباشَرةً، تجمّع مئات المؤمنين أمام الكاتدرائية لمناشدة الأسقف البقاء في منصبه، ولكن القاصدية الرسولية في وارسو أجابت أن استقالة ويلغس جاءت بطلب من الفاتيكان وفقاً للقانون الكنسي: يتعيّن على أي مسؤول عالي الرتبة في الإدارة البابوية لا يستطيع الإيفاء بمتطلبات منصبه الاستقالة.

ويُقرّ رومان غراتشيك، مؤلف كتاب على درب جهاز مخابرات نظام وارسو، بشعوره ببعض التعاطف لدى دراسة عدد من القضايا المتعلقة برجال دين أصبحوا مُخبرين وجواسيس لجهاز المخابرات البولندي. "أُجبر العديد منهم على ذلك بسبب الظروف، ولكن قضية ويلغس مختلفة لأنه أصبح مُخبراً لجهاز المخابرات طَوعاً، وهو أمر لا يمكن الصفح عنه"، يقول غراتشيك. ورئيس الأساقفة هنريك نوفاكي، القاصد الرسولي في سلوفاكيا، هو "متعاون" آخر مع النظام الشيوعي البولندي وأجهزة مخابراته التي توقِع الرهبة في النفوس.

ووجود الأب الدومينيكي كونراد ستانيسلاو إجمو على لائحة المُخبرين الذين تجسسوا على الإدارة البابوية لصالح أجهزة المخابرات الشيوعية في بولندا هي مفاجأة أخرى واجهت البابا بندكتس السادس عشر وأجهزة مخابراته. كان إجمو صديقاً شخصياً للبابا يوحنا بولس الثاني ومسؤولاً عن رحلات الكهنة البولنديين إلى الفاتيكان.

وبالرغم من إنكاراته، واجه الأب إجمو تُهماً ملأت ملفاً من سبعمئة صفحة تقريباً قُسِّم وفقاً لثلاثة أسماء رمزية: "هجنال"، "ثعلب"، و"دومينيك". ويتضمن الملف الضخم حوالى عشرين إيصالاً موقّعاً بخط يده تظهر فيها مبالغ المال التي استلمها من أجهزة المخابرات الشيوعية في بولندا مقابل خدماته القيّمة.

وفي العام 1974، وعندما نشر إجمو المطبوعة الكاثوليكية إلى الأمام في روما، كان رجل يدعى بيتر، قد يكون ربما فاكلاف لوفيك، عميل جهاز التجسس البولندي الذي عُيّن في سفارة بولندا في العاصمة الإيطالية، صلة الوصل بينه وبين جهاز مخابرات نظام وارسو. وأقرّ إجمو بأنه عندما كان طالب لاهوت في روما، أقام صِلات بمواطن ألماني من أصل بولندي ربما كان عضواً في الستازي، وهي الشرطة السرية للجمهورية الديمقراطية الألمانية السابقة. ومرر إجمو لأجهزة التجسس الشيوعية في بولندا وألمانيا الشرقية تقارير وضعها بنفسه بطلب من الكنيسة البولندية، وتتناول الوضع في الفاتيكان وصورة يوحنا بولس الثاني في وسائل الإعلام الإيطالية.

وظهرت فضيحة التجسس التالية التي تورّط فيها الفاتيكان في أثناء ولاية بندكتس السادس عشر الحَبرية في نيسان/إبريل 2007 على صفحات مجلة إسبريسو. ففي ربيع العام 2005، أحبط عملاء وكالة المخابرات العسكرية الإيطالية كما يبدو عملية قامت أجهزة التجسس الفاتيكانية بتنظيمها ضد الكرسي الرسولي.

لقد أبلغ مصدر مجهول (قيل إنه تابع لمخابرات الفاتيكان) وكالة المخابرات العسكرية الإيطالية بأن امرأتين فنزويليّتين جميلتين كانتا في طريقهما إلى روما لإغواء أسقف فنزويلي واستدراجه إلى أحد الفنادق والتقاط صورة فوتوغرافية له في وضعية جنسية واضحة. كان يُعرف الأسقف بموقفه الثابت من الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز. ووصلت المرأتان مع البعثة المرافقة إلى روما، وكلتاهما عميلتان فنزويليتان، وتبعتهما وكالة المخابرات العسكرية الإيطالية. فأُلقي

القبض عليهما ورُحِّلتا إلى فنزويلا.

ربما كان رئيس الأساقفة خورخي أوروسا سافينو هدف المرأتين، وهو المسؤول نفسه الذي وجّه رسالة في كانون الأول/ديسمبر 2006 - عندما كان كردينالاً - إلى الرئيس شافيز باسم اتحاد الأساقفة الفنزويليين تدعو إلى منح العفو والصفح عن الذين تتم مقاضاتهم، أو إخضاعهم للمحاكمة من دون إبطاء.

وذكر الكردينال أوروسا في رسالته أن "الأمر يتخطى الاعتبارات القانونية والسياسية بسبب اعتبارات إنسانية ودينية". وأغضب هذا الأمر شافيز الذي شنّ حملة عشواء ضد الكنيسة الفنزويلية. وكرر الكردينال أوروسا أن ما يطلبه اتحاد الأساقفة من الرئيس الفنزويلي لا علاقة له بالمصالح السياسية، وأنه "يُفترَض بشافيز أن يمارس الحكم بطريقة تحترم الأقليات بصرف النظر عن الاعتبار الإيديولوجي".

لم تؤدِّ وفاة يوحنا بولس الثاني عام 2005 إلى أي انفراج فوري في العلاقات بين الفاتيكان وبكين. وكانت الصين إحدى الدول القلائل التي لم ترسل ممثلين عنها لحضور المأتم البابوي لأن الرئيس التايواني تشن شوى-بيان كان حاضراً. في الواقع، لم يكن الزعيم التايواني مدعوّاً من قِبل الفاتيكان، ولكن المأتم كان مفتوحاً لكل رؤساء الدول ولم يكن بالإمكان الحؤول دون حضوره.

ومع ذلك، تقيم أجهزة المخابرات التابعة لبندكتس السادس عشر في الوقت الحاضر صلات متينة مع "الرابطة الكاثوليكية الوطنية الصينية" التي تدعمها الحكومة الشيوعية والمسؤولة عن تعيين أساقفة. ويعترف الفاتيكان بخمسة وثمانين بالمئة من رجال الدين الذين يشكلون الرابطة، ولا تقوم الرابطة بتعيين أي أسقف من دون موافقة الكرسي الرسولي.

بالنسبة إلى بندكتس السادس عشر، وأمانة سر الدولة، وجهاز المخابرات البابوي، إن الكاثوليك الصينيين البالغ عددهم أربعة عشر مليون نسمة هم على درجة كبيرة من الأهمية، كما أن الممارسة شبه السرية للإيمان الكاثوليكي

الذي يمارسه ما بين خمسة وسبعة ملايين صيني هو أمر بالغ الأهمية أيضاً.

وتضمنت جبهات أخرى فتحها الفاتيكان في الأزمنة الحديثة مجموعات مثل منظمة العفو الدولية وموسوعة ويكيبيديا. لقد طلبت أمانة سر الدولة من الكيان مراقبة كل المعلومات التي يتم إدخالها إلى الموسوعة والمتعلقة بالفاتيكان ودوائره وباباواته بأي طريقة من الطرائق. وفي آب/أغسطس 2007، أظهرت أداة للإنترنت تدعى ويكيبيديا سكانر، وهي تكشف هوية المؤسسات التي تعدّل صفحات الموسوعة، قيام شخص ما في الفاتيكان بإدخال معلومات متعددة إلى الموسوعة. وكشفت المؤسسة البريطانية للإرسال عن أن العديد من أجهزة الكمبيوتر في الفاتيكان بدّلت معلومات مثل سيرة حياة جيري أدامس، زعيم الشين فين، وهي المنظمة الكاثوليكية الجمهورية في إيرلندا الشمالية والذراع السياسية للجيش الجمهوري الإيرلندي.

حينذاك، أعلن الناطق بلسان الفاتيكان فيديريكو لومباردي أن "هذه الاتهامات تفتقر إلى الجدّية والمنطق. من السُخف التصوّر أنه بالإمكان التفكير في القيام بهذا العمل". ولكن البي بي سي أثبتت في الواقع أن منظمات كالسي آي أيه أو إدارة الأمن القومي الأميركيتين، والفاتيكان، بدّلت بالفعل عدة معلومات في موسوعة ويكيبيديا ربما من خلال أجهزتها المخابراتية.

وفي حادثة أخرى، ثار الفاتيكان على منظمة العفو الدولية عندما طلب الكردينال ريناتو مارتينو، رئيس المجلس البابوي للعدالة والسلام، من المؤمنين علانيةً التوقف عن تأييد المنظمة بسبب سياستها الجديدة الداعمة للإجهاض في بعض الحالات.

واتهم مارتينو منظمة العفو الدولية بخيانة رسالتها و"كل المؤمنين الذين أيّدوها طوال سنوات ووثقوا برسالتها المتمِّمة المتمثلة بالترويج لحقوق الإنسان وحمايتها". وهذه الحملة ضد منظمة العفو الدولية التي استهلها المجلس البابوي للعدالة والسلام لطّخت مجدداً علاقات الفاتيكان بالمنظمات غير

الحكومية التي تكافح عدم المساواة وانتهاكات حقوق الإنسان في العالم الثالث.

فأجابت منظمة العفو الدولية الكردينال مارتينو من مكتبها في روما قائلةً إن "المنظمة لم تتلقَّ أبداً أي دعم مالي من الفاتيكان أو من دوائر الكنيسة الكاثوليكية"، وإن سياسة المنظمة في ما يتعلق بالإجهاض "نجمت عن الحملة ضد العنف الذي تتعرّض له النساء". وإن ما نادت به منظمة العفو الدولية هو تمكين النساء اللواتي حملنَ بسبب العنف الجنسي، أو الزِنى، أو أن حملهنّ يشكل خطراً كبيراً على حياتهنّ وصحتهنّ، من الحصول على خدمات قانونية وآمنة للإجهاض. واختار الفاتيكان عدم الإجابة عن هذا التفسير، ولكنه واصل هجومه العلني على منظمة حقوق الإنسان.

وبين 7 آذار/مارس من العام 1998 (عندما تمكّن لويجي بوغي من التخلي عن منصبه أخيراً كرئيس للكيان بعد أن قبِل يوحنا بولس الثاني استقالته)، واليوم، هناك شخصان عُرف عنهما ترؤس الكيان. فقبل أربع سنوات، وبتاريخ 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1994، رُقّي بوغي المعروف على الصعيد الدولي بأنه جاسوس البابا إلى درجة الكردينالية تعويضاً عن خدماته الخاصة التي قدّمها للحَبر الأعظم.

وبرحيل لويجي بوغي كرئيس لأجهزة المخابرات الفاتيكانية، أفل نجم أحد المُخبرين الأكثر أهمية للحلف المقدس. فقد كان الرجل الذي يعرف معظم صلات الفاتيكان بحركة التضامن، وأسرار محاولة اغتيال يوحنا بولس الثاني، وعمليات الفاتيكان وواشنطن المشبوهة في بولندا، والعلاقات بين الموساد الإسرائيلي، ورونالد ريغان، والسي آي أيه برئاسة وليام كاسي. وها هو ينكفئ إلى مسقط رأسه في مدينة بياتشينزا شمالي إيطاليا.

وأظهرت الشائعات في الفاتيكان أن بديل بوغي سيكون كاهناً إسبانياً يدعى بيدرو لوبيز كينتانا ويبلغ من العمر ستةً وأربعين عاماً فقط. ولوبيز كينتانا المولود في مدينة بارباسترو، بونتفيدرا (إسبانيا)، بتاريخ 27 تموز/يوليو 1953،

اضطلع بشؤون أجهزة المخابرات البابوية في أواخر العام 1999 انطلاقاً من منصبه كمستشار لأمانة سر شؤون دولة الفاتيكان. والأسقف الإسباني الذي سيم كاهناً عام 1980 على يد يوحنا بولس الثاني، أصبح مستشاراً موثوقاً به للكردينال أنجلو سودانو، أمين سر الدولة. ومنذ سيامته كاهناً، حظيت عملية ارتقائه في الهرمية الكنسية بحماية وتوجيه الأسقفين المقتدرين ليوناردو ساندري وأنطونيو ماريا فيليو.

في 6 كانون الثاني/يناير 2003، أي بعد أربع سنوات، رسم يوحنا بولس الثاني بيدرو لوبيز كينتانا أسقفاً بسبب "خدماته الخاصة التي قدّمها للكنيسة الكاثوليكية". وبعد شهر واحد فقط، عُيّن قاصداً رسولياً إلى الهند والنيبال.

واسم رئيس الكيان من شباط/فبراير 2003 حتى كانون الأول/ديسمبير 2007 مجهول. والمعروف أنه بعد انتخاب الكردينال جوزيف راتزينغر بابا جديد باسم بندكتس السادس عشر، عيّن الحَبر الأعظم رئيساً جديداً على ما يُدعى اللجنة الأمنية التي تضمن سلامة البابا في أثناء رحلاته.

وباستطاعة الرئيس الجديد للكيان، أياً يكن هذا الرئيس، أن يتوقع عدم وجود فَرق كبير بين الولاية الحَبرية الألمانية لبندكتس السادس عشر والسنوات الحَبرية البولندية ليوحنا بولس الثاني. باستطاعته أن يتوقع سنوات من المجد والإنجازات الكبيرة لأجهزة التجسس التابعة لدولة الفاتيكان. هذا، وقد استُبدل الأعداء الشيوعيون للبابا يوحنا بولس الثاني بآخرين. فالشِيَع الإنجيلية التي يزداد نفوذها في أميركا اللاتينية تكلّف الكنيسة ارتداد العديد من الكاثوليك عن الإيمان الكاثوليكي. وفي الصين، تستمر حكومة بكين باضطهاد ممثلي الكنيسة الكاثوليكية. وهناك لاهوتيون كاثوليك في أماكن أخرى يحاولون الخروج عن التوجيهات الصارمة للفاتيكان. باختصار، يقدّم العالم العديد من الأعداء والعمليات التي ما زال عملاء الحلف المقدس يقومون بها.

"أشعر بيده القوية - يد يوحنا بولس الثاني - تمسك بيدي. أرى عينَيه تبتسمان

وأسمع كلماته الموجَّهة إليّ في هذه اللحظة بالذات: لا تخَف!" أعلن بندكتس السادس عشر. قد تكون حقاً الفلسفة التي ستحدد نوعية الأعمال التي سيضطلع بها جهازا التجسس والتجسس المضاد في دولة الفاتيكان، أي الحلف المقدس وجمعية بيوس، في أثناء ولاية بندكتس السادس عشر الحَبرية. هناك ما يدفع المرء للموت في سبيله.

ملحق
قائمة بالباباوات منذ إنشاء الحلف المقدس

7 كانون الثاني/يناير 1566 - 1 أيار/مايو 1572	القديس بيوس الخامس
13 أيار/مايو 1572 - 10 نيسان/إبريل 1585	غريغوريوس الثالث عشر
24 نيسان/إبريل 1585 - 27 آب/أغسطس 1590	سِكستس الخامس
15 أيلول/سبتمبر 1590 - 27 أيلول/سبتمبر 1590	أُربانس السابع
5 كانون الأول/ديسمبر 1590 - 15 تشرين الأول/أكتوبر 1591	غريغوريوس الرابع عشر
29 تشرين الأول/أكتوبر 1591 - 30 كانون الأول/ديسمبر 1591	إنّوقنطيوس التاسع
30 كانون الثاني/يناير 1592 - 5 آذار/مارس 1605	إقليمنضُس الثامن
11 نيسان/إبريل 1605 - 27 نيسان إبريل 1605	لاون الحادي عشر
16 أيار/مايو 1605 - 28 كانون الثاني/يناير 1621	بولس الخامس
6 شباط/فبراير 1621 - 8 تموز/يوليو 1623	غريغوريوس الخامس عشر
6 آب/أغسطس 1623 - 29 تموز/يوليو 1644	أُربانس الثامن
15 أيلول/سبتمبر 1644 - 7 كانون الثاني/يناير 1655	إنّوقنطيوس العاشر
7 نيسان/إبريل 1655 - 22 أيار/مايو 1667	إسكندر السابع
20 حزيران/يونيو 1667 - 9 كانون الأول/ديسمبر 1669	إقليمنضُس التاسع
29 نيسان/إبريل 1670 - 22 تموز/يوليو 1676	إقليمنضُس العاشر
21 أيلول/سبتمبر 1676 - 12 آب/أغسطس 1689	إنّوقنطيوس الحادي عشر
6 تشرين الأول/أكتوبر 1689 - 1 شباط/فبراير 1691	إسكندر الثامن
12 تموز/يوليو 1691 - 27 أيلول/سبتمبر 1700	إنّوقنطيوس الثاني عشر
23 تشرين الثاني/نوفمبر 1700 - 19 آذار/مارس 1721	إقليمنضُس الحادي عشر
8 أيار/مايو 1721 - 7 آذار/مارس 1724	إنّوقنطيوس الثالث عشر
29 أيار/مايو 1724 - 21 شباط/فبراير 1730	بندكتس الثالث عشر
12 تموز/يوليو 1730 - 8 شباط/فبراير 1740	إقليمنضُس الثاني عشر
17 آب/أغسطس 1740 - 3 أيار/مايو 1758	بندكتس الرابع عشر
6 تموز/يوليو 1758 - 2 شباط/فبراير 1769	إقليمنضُس الثالث عشر
19 أيار/مايو 1769 - 21 أيلول/سبتمبر 1774	إقليمنضُس الرابع عشر
15 شباط/فبراير 1775 - 29 آب/أغسطس 1799	بيوس السادس
14 آذار/مارس 1800 - 20 آب/أغسطس 1823	بيوس السابع
28 أيلول/سبتمبر 1823 - 10 شباط/فبراير 1829	لاون الثاني عشر
31 آذار/مارس 1829 - 30 تشرين الثاني/نوفمبر 1830	بيوس الثامن
2 شباط/فبراير 1831 - 1 حزيران/يونيو 1846	غريغوريوس السادس عشر
16 حزيران/يونيو 1846 - 7 شباط/فبراير 1878	بيوس التاسع

لاون الثالث عشر	20 شباط/فبراير 1878 - 20 تموز/يوليو 1903
القديس بيوس العاشر	4 آب/أغسطس 1903 - 20 آب/أغسطس 1914
بندكتس الخامس عشر	3 أيلول/سبتمبر 1914 - 22 كانون الثاني/يناير 1922
بيوس الحادي عشر	6 شباط/فبراير 1922 - 10 شباط/فبراير 1939
بيوس الثاني عشر	2 آذار/مارس 1939 - 9 تشرين الأول/أكتوبر 1958
يوحنا الثالث والعشرون	28 تشرين الأول/أكتوبر 1958 - 3 حزيران/يونيو 1963
بولس السادس	21 حزيران/يونيو 1963 - 6 آب/أغسطس 1978
يوحنا بولس الأول	26 آب/أغسطس 1978 - 29 أيلول/سبتمبر 1978
يوحنا بولس الثاني	16 تشرين الأول/أكتوبر 1978 - 2 نيسان/إبريل 2005
بندكتس السادس عشر	19 نيسان/إبريل 2005 -